البيان والتبيين

النص الكامل (كل الأجزاء)

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥هـ

KOTOBONLINE
كتب اونلاين

مكتبة علي بن صالح الرقمية

أبو عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ

البيان و التبيين

النّص الكامل (كل الأجزاء)

دراسات أدبية

KOTOBONLINE
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الجزء الأول

مقدمة عامة

كتاب البيان و التبيين من أضخم مؤلفات الجاحظ، و هو يلي كتاب الحيوان من حيث الحجم و يربو على سائر كتبه. و إذا كان كتاب الحيوان يعالج موضوعا علميا فإن كتاب البيان و التبيين ينصب على معالجة موضوع أدبي. و لكن الجاحظ في هذين الكتابين، شأنه في جميع كتبه، ينحو منحى فلسفيا. فهو لا يقتصر في كتاب الحيوان على أخبار الحيوانات و خصالها و طباعها، بل يتطرق إلى موضوعات فلسفية كالكمون و التولد، و الجواهر و الأعراض، و الجزء الذي لا يتجزأ، و المجوسية و الدهرية الخ. و في كتاب البيان و التبيين لا يكتفي بعرض منتخبات أدبية من خطب و رسائل و أحاديث و أشعار، بل يحاول وضع أسس علم البيان و فلسفة اللغة.

إن إبراز هذه الناحية الفلسفية في آثار الجاحظ هو الذي حداني على تأليف كتاب «المناحي الفلسفية عند الجاحظ» ، و إعادة النظر في رسائله العديدة و إخراجها في طبعة جديدة تضمها جميعا، و تمتاز بتبويب دقيق و مقدمات و شروحات وافية. و هو الذي يحفزني الآن على إعادة طبع كتاب البيان و التبيين. لقد طبع هذا الأثر الثمين مرارا، و خير تلك الطبعات تم على يدي

حسن السندوبي، و عبد السلام هارون. و قد بذلا مشكورين جهدا في التحقيق و الشرح و الفهرسة. و لكنهما أغفلا ناحيتين هما المنحى الفلسفي و التبويب. أما المنحى الفلسفي فسأعالجه في المقدمة و الشرح. و أما التبويب فأعني به تجزئة الكتاب و وضع عناوين لموضوعاته و فقره. إن العناوين التي نلفيها في الطبعات السابقة قاصرة، و لا تنطبق في معظمها على الموضوعات التي يدور حولها الكلام، و هي على الأرجح من وضع النساخ الذين قبسوها من بداية الفقر.

و أما تجزئة الكتاب فلم يقطع بها بشكل نهائي و منطقي. لقد قسمه السندوبي ثلاثة أجزاء، و قسمه عبد السلام هارون أربعة و ترجح بين تقسيم المؤلف، و تقسيم المصنف، و يعنى به الناسخ أحمد بن سلامة بن سالم المعري، الذي فرغ من عمله سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة هجرية، فأثبت الاثنين معا: فالجزء الثاني ذو بدايتين، بداية أولى حسب تجزئة المؤلف أي الجاحظ، و بداية ثانية حسب تجزئة المصنف، و بينهما 207 صفحات فقط. أما الجزء الثالث فقد اتفق المؤلف و المصنف و المحقق في بدايته و لكن المحقق انفرد عنهما بأن اجتزأ نحو مائة صفحة من آخره و جعلها جزءا رابعا مع الفهارس.

و الواقع أن الجاحظ جعل الكتاب في ثلاثة أجزاء، و الدليل على ذلك أنه ابتدأ كلا من الجزء الثاني و الثالث بعبارة تعلن بدايته و انتهاء سابقه. فالجزء الثاني يبدأ بالعبارة التالية: «أردنا أبقاك اللّه أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان و التبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب و ملوكهم... » .

و في مطلع الجزء الثالث نلفي العبارة التالية المماثلة: «هذا أبقاك اللّه الجزء الثالث من القول في البيان و التبيين... » . و لقد اعتمدنا على هذا الدليل الواضح و التزمنا بتجزئة المؤلف و قسمنا الكتاب ثلاثة أجزاء.

و يعني الجاحظ بالبيان الدلالة على المعنى، و بالتبيين الإيضاح. و قد عرف الكتاب خير تعريف بقوله الوارد في مطلع الجزء الثالث: «هذا أبقاك اللّه

الجزء الثالث من القول في البيان و التبيين، و ما شابه ذلك من غرر الأحاديث، و شاكله من عيون الخطب، و من الفقر المستحسنة، و النتف المستخرجة، و المقطعات المتخيرة، و بعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة و الجوابات المنتخبة» .

و هكذا نلفي في كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة بحثا في البيان و التبيين، و مجموعات من الأحاديث و الخطب و المقطعات و الجوابات و الأشعار.

و لقد التزم الجاحظ هذا التصميم و قصد إليه قصدا ليجنب القارئ الملل أو السأم بتنويع الموضوعات. و قد عبّر عن ذلك بقوله: «وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، و يسوقه إلى حظه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء و من باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن، و من جمهور ذلك العلم» (1) .

بهذا برر الجاحظ طرقه الموضوعات ذاتها في كل جزء من أجزاء الكتاب. فموضوع علم البيان و فلسفة اللغة توزع على الأجزاء الثلاثة: في الجزء الأول تحدث عن مفهوم البيان و أنواعه، و آفات اللسان، و البلاغة و الفصاحة. و في الجزء الثاني تحدث عن الخطابة و طبقات الشعراء. و في الجزء الثالث تكلم على أصل اللغة و قيمة الشعر. و في كل جزء من الأجزاء الثلاثة أورد أبو عثمان منتخبات من كلام الأبيناء، خطبا و مقطعات و أحاديث و رسائل و أشعارا، نسبها إلى مختلف طبقات الناس: عقلاء و حمقى، نساك و متهتكين، أعراب و متحضرين، رؤساء و سوقة. و إذا سئل الجاحظ: لم لم تجمع كلامك على البيان و فلسفة اللغة في مكان واحد من الكتاب؟و لم لم تضم أخبار الزهاد و النساك و أقوالهم في باب واحد و لم وزعت أخبار النوكى و أقوالهم على الأجزاء الثلاثة، و لم عدت إلى الكلام على الخطابة و الخطباء مرارا و بعثرت خطبهم هنا و هناك الخ ردد صاحبنا الجواب ذاته و اعتل بالعلة ذاتها.

(1) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 3 ص 64، (طبعة دار الفكر للجميع، بيروت، 1968) .

ألّف الجاحظ كتاب البيان و التبيين (القسم الأول منه) في الفترة التي اتصل فيها بالقاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي النزعة (بعد 232 هـ) و نال عليه جائزة سنية تبلغ خمسة آلاف دينار، و أتمه بعد انتقاله إلى البصرة عند ما طعن في السن (1) . و قد شرع بتأليفه بعد كتاب الحيوان كما يتضح من كلام الجاحظ ذاته حيث يقول: «كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفه عشر و رقات من مقطعات الأعراب و نوادر الأشعار لما ذكرت عجبك بذلك فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب من ذلك أوفر إن شاء اللّه» (2) .

و يلاحظ أن الجاحظ تناول موضوع البيان في مقدمة الحيوان و الجزء الأول من البيان و التبيين مرددا الأفكار ذاتها، و إذا كانت مقدمة «الحيوان» كتبت بعد الفراغ من تأليفه فهل يعني ذلك أنه طرق الموضوع على عجل في مقدمة «الحيوان» ثم استأنف التوسع فيه في «البيان و التبيين» ؟.

مهما كان من أمر فقد جاء كتاب البيان و التبيين استجابة لاهتمام العرب في ذلك العصر بصناعة الكلام لأن الكلام هو الوسيلة المثلى لنشر المبادئ السياسية و العقائد الدينية في زمن كثرت المذاهب و اشتد الصراع بين زعمائها و احتدم الجدل بين أنصارها. فمست الحاجة إلى التمرس بالخطابة و المناظرة و إلى وضع أصول لها تتعلم أو يرجع إليها. و قد أشار الجاحظ إلى النشاط الذي بدأ يبذل في تعليم أسس الخطابة حيث يقول: «مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، و هو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا في النظارة، فقال بشر:

اضربوا عما قال صفحا و اطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره و تنميقه» (3) . كما أشار إلى حاجة المتكلم الماسة إلى البيان لأنه مضطر

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج 16، 79-80.
(2) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 3، ص 14-.
(3) المصدر ذاته، ج 1، ص 94-95

للاحتجاج على أرباب النحل و زعماء الملل و أنه لا بد له من مقارعة الأبطال و من الخطب الطوال (1) .

و قد يخطر على الذهن افتراض آخر و هو محاكاة الجاحظ أرسطو في معالجة هذا الموضوع. لقد بحث أرسطو في الحيوان فجاء الجاحظ يطرق الموضوع ذاته، و بحث أرسطو في الخطابة و في الشعر، فهل أراد الجاحظ معارضته في هذا المضمار أيضا؟من الثابت أن كلا الرجلين بحثا الموضوع ذاته، و لكن الخلاف بينهما في الآراء و المنهج كبير. و لم يكن الجاحظ من المعجبين بأرسطو، و قد انتقده مرارا في كتاب الحيوان و في كتاب الحيوان و في كتاب البيان و التبيين. لنسمعه يقول عن أرسطو: «و لليونان فلسفة و صناعة منطق، و كان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام و تفصيله و معانيه و بخصائصه... » . أضف إلى ذلك أنه لم يذكر أنه اطلع على كتاب الخطابة لأرسطو أو على كتاب الشعر، بينما ذكر كتاب الحيوان لأرسطو مرارا عديدة.

لقد تكلم الجاحظ على صفات الخطيب مثل أرسطو و لكنه اهتم على عكس أرسطو بظاهره و لم يحفل بباطنه و أخلاقه. و رأى أن أهم صفات الخطيب جهارة الصوت وسعة الفم و رباطة الجأش و سكون الجوارح و قلة اللحظ، و أبشع عيوبه العي أو الحصر ثم اللثغة و اللحن و اللكنة و التشديق و التقعيب و التزيد.

و تحدث على غرار أرسطو عن أنواع الخطب و لكنه لم يتعمق في ذلك كأرسطو و اكتفى بذكر بعضها دون توقف مثل خطبة المحافل، و خطبة النكاح، و خطبة الوعظ.

و بحث في بناء الخطبة كأرسطو، و لكنه اقتصر على الناحية الفنية و لم يحفل بالناحية الفكرية. فلاحظ أن الخطبة تكون طويلة أو قصيرة، و تبدأ بالتحميد و التمجيد و إلا عدت بتراء، و توشح بآي القرآن و إلا سميت شوهاء.

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 14.

و أسهب في الكلام على شرط البلاغة في الخطبة و هي تعني إبلاغ المعنى إلى السامع بكلام واضح فصيح موافق لمقتضى الحال.

بيد أن الجاحظ طرق ناحية لم يحفل بها أرسطو هي الموازنة بين الموهبة الخطابية عند مختلف الأمم. و قد رأى أن العرب أخطب الأمم قاطبة لحضور بديهتهم و زرابة لسانهم و فطرتهم المطبوعة.

و تنبه إلى مكانة الخطيب الخطيرة التي بدأت ترتفع منذ العصر الأموي بينما أخذت مكانة الشاعر تنحط. و عزا سبب ذلك إلى اتخاذ الشعر مطية للتكسب و إلى تعاظم شأن الخطابة للحاجة إليها و لمعالجتها أمورا سياسية و دينية خطيرة. و أوضح رأيه بقوله: «كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم و يضخم شأنهم و يهول على عدوهم و من غزاهم، و يهيب في فرسانهم و يخوف من كثرة عددهم و يهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر و الشعراء و اتخذوا الشعر مكسبة و رحلوا إلى السوقة و تسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر... » (1) .

و ثمة سبب آخر دعا المتكلمين إلى الاهتمام بعلم البيان و اللغة العربية لأن اللغة العربية لغة القرآن الذي ينطوي على الوحي و الشريعة و عليه مدار أبحاثهم، و على قدر تضلعهم منها يكون إدراكهم لمعاني القرآن و تمكنهم من تأويل آياته و قد عبر الجاحظ عن هذه الناحية بقوله: «فللعرب أمثال و انتقادات و أبنية، و موضع كلام يدل عندهم على معانيهم و إرادتهم. و لتلك الألفاظ مواضع أخر و لها حينئذ دلالات أخر. فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب و السنة و الشاهد و المثل، فإذا نظر في الكلام و في ضروب من العلم و ليس هو من أهل هذا الشأن هلك و أهلك» (2) .

---

(1) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 1 ص 164.
(2) الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 153.

و نستطيع إضافة سبب آخر حمل الجاحظ على وضع «البيان و التبيين» هو الرد على الشعوبية التي طعنت في بلاغة العرب و موهبتهم الخطابية. و قد كرس لهذه الغاية قسما لا بأس به من الكتاب (باب العصا في الجزء الثالث) .

و يمكننا القول إن كتاب البيان و التبيين أقدم و أهم محاولة لدراسة علم البيان و فلسفة اللغة. و يعتبر الجاحظ رائدا في هذا المضمار لمن جاء بعده أمثال ابن فارس و ابن جني و السيوطي. و قد سبق فرديناد ديسوسر إلى القول بأن فقه اللغة يجب أن يكون فرعا من علم أوسع يشتمل على مختلف أنواع الدلالات سماه الجاحظ علم البيان حيث يقول: «و البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، و هتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته و يهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، و من أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر و الغاية التي يجري القائل و السامع إنما هو الفهم و الإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع» (1) .

و قد حصر الجاحظ أنواع البيان بخمسة لا تزيد و لا تنقص هي اللفظ و الإشارة و العقد و الخط و الحال.

و هو يعتبر الإشارة بالجوارح كاليد و الطرف و الحاجب مرفقا كبيرا يعين الناس في أمور يحاولون سترها عن البعض دون البعض. و لولاها لم يستطيعوا التفاهم في معنى خاص الخاص (2) .

أما الخط أو الكتابة فهو وسيلة التبيين في الكتب، و نقل المعرفة عبر الزمان و المكان، و لولاه لاندثر العلم. و من ثم كانت أهمية الكتب و أفضليتها لأن الكتاب يدرس في كل زمان و مكان بينما لا يعدو اللسان سامعه (3) .

---

(1) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 1، ص 55.
(2) المصدر ذاته، ص 57.
(3) المصدر ذاته، ص 58.

و لا يقل الحساب أهمية عن الخط، و به تعرف منازل القمر و الشمس و النجوم و عدد السنين و الأيام الخ.

أما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ و المشيرة بغير اليد. و ذلك ظاهر في خلق السماوات و الأرض، و في كل صامت و ناطق و جامد و نام و مقيم و ظاعن و زائد و ناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، و العجماء معربة من جهة البرهان» (1) .

بقي اللفظ، أهم وسائل البيان، و قد تحدث عنه الجاحظ بإسهاب و درسه دراسة عميقة شاملة.

و قوام اللفظ الصوت، فكل لفظة تتألف من مجموعة مقاطع، و كل مقطع يتألف من مجموعة حروف، و كل حرف عبارة عن صوت. و الصوت ينتج عن حركات اللسان في الفم. يقول الجاحظ موضحا ذلك: «و الصوت هو آلة اللفظ و الجوهر الذي يقوم به التقطيع و به يوجد التأليف، و لن تكون حركات اللسان لفظا و لا كلاما موزونا أو منشورا إلا بظهور الصوت، و لا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع و التأليف» (2) .

و يعتني الجاحظ بملاحظة العلل التي تعتري البيان و أهمها الحبسة و اللثغة و اللكنة و اللحن.

و الحبسة عقدة تصيب اللسان فلا يستطيع المرء النطق بسهولة، و يثقل عليه الكلام، فينتج عن ذلك عدم القدرة على التعبير جيدا عن أفكاره و إفهام الآخرين. و كان موسى يعاني من هذه العقدة فسأل اللّه حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته أن يحل تلك العقدة التي كانت في لسانه أو الحبسة التي كانت في بيانه (3) .

---

(1) المصدر ذاته، ص 59.
(2) المصدر ذاته، ص 58.
(3) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 1، ص 8.

أما اللثغة فأكثر شيوعا و أقبح مظهرا، و تقوم بإبدال حرف بحرف آخر، و قد أحصى الجاحظ الحروف التي تدخلها اللثغة فوجدها أربعة هي القاف و السين و اللام و الراء. فاللثغة التي تعرض للقاف يجعل صاحبها القاف طاء فيقول طلت بدل قلت. و اللثغة التي تعرض للسين يجعل صاحبها السين ثاء، فيقول: أبو يكثوم بدل أبي يكسوم، و يقول بثم اللّه بدل باسم اللّه. أما اللثغة التي تقع في اللام، فيجعل بعض أصحابها اللام ياء و يقول اعتييت بدل اعتللت، و جمي بدل جمل. و يجعل بعضهم الآخر اللام كافا فيقول مكعكة في هذا بدل ما العلة في هذا. و أما اللثغة التي تقع في الراء فتتم بأربعة أحرف هي الياء و الغين و الذال و الطاء. و يقول أصحابها عمي بدل عمرو، أو يقول عمغ بدل عمرو، أو يقول مذة بدل مرة، أو يقول مظة بدل مرة (1) .

و اللكنة هي إدخال حروف العجم في حروف العرب. و هي علة تقع للأعاجم الذين يتكلمون العربية. فالنبطي الذي نشأ في سواد الكوفة مثلا قد يتكلم العربية المعروفة و يتخير ألفاظه و تجود معانيه، و مع ذلك يعلم السامع لكلامه و مخارج حروفه أنه نبطي، و كذلك الخراساني و الأهوازي. و السندي الذي تعلم العربية كبيرا يجعل الجيم زايا، و النبطي يجعل الزاي سينا فيقول سورق بدل زورق، و يجعل العين همزة. و هذه اللثغة التي تعتري الأعاجم تختلف عن اللثغة التي تعتري الصبيان أو الشيوخ و من ينشأ من العرب مع العجم. و أهم مظاهر هذه اللكنة أبدل السين شيئا و الطاء تاء و الحاء هاء. «قال فيل مولى زياد لسيده مرة «اهدوا لنا همار وهش» يريد حمار وحش، فقال زياد: ما تقول ويلك!قال: اهدوا إلينا أيرا، يريد عيرا، فقال زياد: الأول أهون، و فهم ما أراد» (2) .

و من علل اللسان التمتمة و الفأفأة و اللفف و اللجلجة و الحكلة. و التمتام هو الذي يتعتع في التاء، و الفأفاء هو الذي يتعتع في الفاء، و الألف هو الذي

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 28-30.
(2) المصدر ذاته، ج 1، ص 51-54.

يدخل بعض كلامه في بعض، و اللجلاج هو الذي يبطئ في كلامه و ينقص منه. و ذو الحكلة هو الذي لا يبين كلامه و يعجز عن اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال (1) .

أما اللحن فهو الخطأ في تحريك حروف الكلمة من ضم و كسر و فتح و سكون. و قد شاع اللحن في العصر العباسي بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأعجمية التي أرادت أن تتكلم العربية فلم تستطع المحافظة على سلامتها من الخطأ في اللفظ و الحركات. و قد أورد الجاحظ أمثلة كثيرة على هذه الظاهرة اللغوية. يقول: «قال بشر بن مروان، و عنده عمر بن عبد العزيز لغلام له: ادع لي صالحا. فقال الغلام: يا صالحا. فقال له بشر: الق منها ألف. قال له عمر: و أنت فزد في الفك ألفا» (2) .

و لم يقتصر اللحن على الأعاجم الذين تكلموا العربية و لا على المدن التي كثر فيها الاختلاط بين العرب و الأعاجم، بل فشا بين العرب الأقحاح و بين أهل الأمصار التي تعتبر معقل العربية مثل المدينة «ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير و التقعيب و التشديق و التمطيط و الجهورة و التفخيم، و أقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، و بقرب مجامع الأسواق.

و لأهل المدينة ألسن ذلقة، و ألفاظ حسنة و عبارة جيدة، و اللحن في عوامهم فاش، و على من لم ينظر في النحو منهم غالب» (3) .

لم يكتف الجاحظ بملاحظة وجوه الخطأ التي تقع في اللفظ بل راح يبحث، بفضوله العلمي، عن علاقتها باللسان و الأسنان و التنفس و الشفاه التي تشترك في إخراج الحروف معتمدا على السماع و الملاحظة و التجربة.

فالشفة الفلحاء أو العلماء تؤثر في حسن التلفظ، يقول الجاحظ مشيرا إلى ذلك «و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه في سهيل بن عمرو الخطيب: يا

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 31-32.
(2) الجاحظ، البيان و التبيين، ج ذاته، ص 167.
(3) المصدر ذاته، ج 1، ص 102.

رسول اللّه، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا، و إنما قال ذلك لأن سهيلا كان أعلم من شفته السفلى» (1) .

و أثر الأسنان في البيان أوضح و أقوى، فسقوط بعض الثنايا يشوه اللفظ و خير من سقوطها جميعا إذا استحال وجودها جميعا. و تدل الملاحظة و التجربة «على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف، منه إذا سقط أكثرها، و خالف أحد شطريها الشطر الآخر، و قد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقطت جميع أسنانهم و بعد أن بقي منها الثلث أو الربع» (2) .

أما اللسان فهو آلة الكلام الرئيسية، و كلما كان سليما جاء اللفظ صحيحا، و كلما ازداد حجمه بحيث يصك جوانب الفم و يملأه لم يترك خلاء لمرور الهواء كان أوفى بالغاية. و في هذا الرأي يوافق الجاحظ الفيلسوف اليوناني أرسطو، و يطبق ذلك على الإنسان و الحيوان. يقول الجاحظ: «و قال أهل التجربة، إذا كانت في اللحم الذي في مغارز الأسنان تشمير و قصر سمك ذهبت الحروف و فسد البيان، و إذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئا يقرعه و يصكه، و لم يمر في هواء واسع المجال و كان لسانه يملأ جوبة فمه، لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفر، و الجزء المحتمل. و يؤكد ذلك قول صاحب المنطق، فإنه زعم في كتاب الحيوان أن الطائر و السبع و البهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح و أبين و أحكى لما يلقن و لما يسمع كنحو الببغاء و الغداف و غراب البين و ما أشبه ذلك... » (3) .

و يقسم الجاحظ اللفظ إلى طبقات كما ينقسم الناس أنفسهم إلى طبقات فمنه الجذل و السخيف، و منه المليح و الحسن، و منه القبيح و السمج،

---

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 44.
(2) المصدر ذاته، ج 1، ص 46.
(3) المصدر ذاته، ج 1، ص 46-47.

و الخفيف و الثقيل. و من حيث الفصاحة يوجد ثلاث مراتب: الغريب الوحشي، و الفصيح، و السوقي المبتذل. و خيرها اللفظ الفصيح الذي يقع وسطا بين الغريب الوحشي و السوقي المبتذل «و كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا و ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من المتكلم يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي... » (1) .

و من صفات اللفظ الفصيح توافق الحروف ضمن الكلمة الواحدة. و قد لاحظ أبو عثمان أن في العربية حروفا لا تجتمع، فالجيم لا تقارن الطاء و لا القاف و لا الغين في تقديم أو تأخير، و الزاي لا تقارن الطاء أو السين أو الضاد أو الدال بتقديم أو تأخير (2) .

و تقتضي الفصاحة أيضا عدم تنافر الكلمات ضمن الجملة الواحدة. و إذا تنافرت الألفاظ صعب النطق بها و بدت غير متلائمة و غير متوافقة. من ذلك قول الشاعر:

و قبر حرب بمكان قفر # و ليس قرب قبر حرب قبر

و قد ظن البعض لجهلهم بعلم البلاغة أن هذا البيت من أشعار الجن لأن المرء لا يستطيع إنشاده ثلاث مرات في نسق واحد دون أن يتعتع أو يتلجلج (3) .

و مقياس الفصاحة في نظر الجاحظ القرآن و كلام الأعراب، إذ فيهما تحققت الفصاحة بأعلى مستوياتها، فاعتبرا المثال الأعلى للكلام الفصيح.

فكل كلام أشبههما عدّ فصيحا، و كل كلام اختلف عنهما نأى عن الفصاحة.

يقول الجاحظ مشيرا إلى ذلك: «قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر:

---

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 100-101.
(2) المصدر ذاته، ج 1، ص 51.
(3) المصدر ذاته، ج 1، ص 48-49.

ليست الفصاحة لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. قال ابن مناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن و أكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم» (1) و يفهم من هذا أن الحكم في الخلاف بين فصاحة لغة أهل مكة و البصرة إنما هو القرآن. و كذلك الحال بالنسبة إلى لغة أهل البادية التي اعتبرت مرجعا في الفصاحة «و شأن عبد قيس عجب، و ذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين: ففرقة وقعت في عثمان و شق عمان، و هم خطباء العرب، و فرقة وقعت إلى البحرين و شق البحرين و هم أشعر قبيل العرب، و لم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية و في معدن الفصاحة.

و هذا عجب» (2) .

بعد دراسة اللفظ المفرد نصل مع الجاحظ إلى اللفظ المركب، و نلج باب البلاغة و قد استعرض صاحبنا مختلف التعريفات التي أعطيت للبلاغة، و قارن بين مفاهيمها عند الفرس و الهنود و اليونان و العرب. و في ذلك دليل على شمول ثقافته و بعد نظرته. و قد استقى مفهوم البلاغة عند الفرس من معاصره الفارسي الأصل سهل بن هارون، و استقى مفهومها عند الهند من صحيفة بهلة الهندي معاصره أيضا، و أخذ مفهومها عند العرب عن صحار بن عباش العبدي في كلام له مع معاوية الذي سأله عن البلاغة فقال: الإيجاز. و الإيجاز يعني الإجابة دون خطأ أو إبطاء. كما استشهد عليها بقول بعض الأعراب الذي سئل عن البلاغة فقال: الإيجاز في غير عجز و الإطناب في غير خطل (3) . و يفضل الجاحظ التعريف التالي للبلاغة: «و قال بعضهم–و هو أحسن ما اجتبيناه و دوناه–لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه و لفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» (4) . و معنى ذلك أن الكلام

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 17.
(2) المصدر ذاته، ج 1، ص 70.
(3) المصدر ذاته، ج 1، ص 64–70.
(4) المصدر ذاته، ج 1، ص 81.

البليغ هو الكلام الذي يبلغ المعاني التي في رأس المتكلم إلى عقل السامع.

و لا يتأتى له ذلك إلا إذا كان واضحا و على أقدار المعاني. و بذا يخالف الجاحظ مفهوم البلاغة السائد أي الإيجاز. إن الكلام البليغ ليس هو الكلام الموجز و ليس الكلام المسهب بل الكلام المساوي للمعاني «و إنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، و قليلها لقليلها، و شريفها لشريفها، و سخيفها لسخيفها، و المعاني المصغرة البائنة بصورها و جهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل ما تحتاج إليه المعاني المشتركة و الجهات الملتبسة» (1) .

و من شروط البلاغة موافقة الكلام لمقتضى الحال أو للموضوع الذي يجري فيه الكلام. «و يجب على المتكلم أن يوازن بين المعاني و أقدار المستمعين و أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما و لكل حالة من ذلك مقاما» (2) .

و من شروط البلاغة متانة العبارة التي تعني ربط ألفاظ الجملة ببعضها ربطا محكما لا هلهلة فيه و لا خلل «فأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا و سبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان» (3) .

و من شروط البلاغة الطبع، و هو يعني الموهبة و عدم التكلف. و إذا كان الكلام صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه و منزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة.. » (4) و قد ركز الجاحظ على شرط الطبع عملا بفلسفته الطبيعية التي تفسر الفن كما تفسر المعرفة و الأخلاق بالطباع كما صدر في جميع آرائه عن مذهبه الاعتزالي الوسطي المنزلة بين المنزلتين–و طبق ذلك على البلاغة و الفصاحة، فاعتبر خير الكلام ما وقع وسطا بين الوحشي و السوقي، و ما وقع وسطا بين الإيجاز و الإطناب.

---

(1) الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 8.
(2) الجاحظ، البيان و التبيين، غ 1، ص 97.
(3) المصدر ذاته، ج 1، ص 50.
(4) المصدر ذاته، ج 1، ص 61.

و أوضح مذهبه هذا بقوله: «فالقصد في ذلك تجنب السوقي و الوحشي، و لا تجعل همك في تهذيب الألفاظ و شغلك في التخلص إلى غرائب المعاني. و في الاقتصاد بلاغ و في التوسط مجانبة للوعورة و خروج من سبيل من لا يحاسب نفسه» (1) .

و ينظر الجاحظ في أصل اللغة، و يذهب إلى أنها توقيف، أو وحي من اللّه. فجد العرب إسماعيل بن إبراهيم ألهم العربية على غير التلقين و التمرين و هو في الرابعة عشرة من عمره. و يقدم عدة أدلة على أنها توقيف: منها كلام عيسى في المهد، و إنطاق اللّه يحيى بالحكمة صبيا، و كلام حواء و آدم. و معنى ذلك أن الإنسان يحتاج ليتفاهم مع بني جلدته إلى اللغة، و حواء و آدم لم يعلمهما أحد اللغة، فكان لا بد من أن يلهمهما اللّه إياها. و إذا لم يكن إسماعيل أول عربي تكلم العربية فينبغي أن يكون ثمة أب آخر للعرب كان أول عربي من جميع بني آدم تكلم العربية. و منها ما تفوّه به ذئب اهبان بن أوس، و غراب نوح و هدهد سليمان، و النملة و حمار عزيز و قد أنطق اللّه هذه الحيوانات بقدرته و سخرها لمعرفته، فلم لا يكون الإنسان مثلها قد أنطقه اللّه بمشيئته؟ و يربط الجاحظ تعلم اللغة بالمعرفة، و يذهب إلى أن الإنسان يعرف الأمور طباعا بواسطة ما منحه اللّه من ذكاء، و لا يحول دونه و المعرفة سوى موانع كالأخلاط الأربعة و سوء العادة و الشواغل العارضة و خرق المعلم و إذا أزال اللّه تلك الموانع و صفا ذهن الإنسان وقعت المعرفة (2) .

و ثمة دليل آخر على أن اللّه مصدر اللغة، هو وجود ألفاظ في القرآن لم يعرفها عرب الجاهلية، إنها من اختراع اللّه الذي أوحى بها إلى النبي. يقول مشيرا إلى ذلك: «و قد علمنا أن قولهم لمن لم يحج صرورة، و لمن أدرك

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 173.
(2) المصدر ذاته، ج 4، ص 5-8.

الجاهلية و الإسلام مخضرم، و قولهم لكتاب اللّه قرانا، و تسميتهم للتمسح بالتراب التيمم، و تسميتهم للقاذف بفاسق. إن ذلك لم يكن في الجاهلية.

و إذا كان للنابغة أن يبتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصل اللغة كقوله «و النؤي كالحوض بالمظلومة الجلد» و حتى اجتمعت العرب على تصويبه و على اتباع أثره، و على أنها لغة عربية، فاللّه الذي هو أصل اللغة أحق بذلك» (1) .

و يبدو أن الجاحظ استند في مذهبه إلى القرآن و السماع و نظريته القائلة أن المعرفة تحدث طباعا. و قد اقتفى أثره ابن فارس في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة» و لكن خالفه ابن جني الذي قال إن اللغة اصطلاح، و السيوطي الذي قال إنها تقليد.

و لكن أبا عثمان لم يستطع أن ينكر ما طرأ على اللغة العربية من تطور.

فقد دخلت عليها ألفاظ أعجمية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب.

فأهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس، علقوا بألفاظ فارسية فسموا البطيخ الخربز، و السميط الرزدق، و المصوص المزوز. و كذلك أهل الكوفة تأثروا بلغة الفرس الذين احتكوا بهم فسموا المسحاة البال و سموا الحوك الباذروج، و سموا القثاء خيارا الخ... (2) .

و هناك ألفاظ جديدة أوجدها المتكلمون و علماء اللغة في العصر العباسي عن طريق الاشتقاق أو النحت أو الاصطلاح للتعبير عن المعاني الفلسفية و العلمية الجديدة مثل الجوهر و العرض و الهوية و الهذية الخ. يقول الجاحظ موضحا هذه الناحية: «... و هم المتكلمون تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، و هم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، و هم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، و قدوة لكل تابع. و لذلك قالوا العرض و الجوهر و أيس و ليس، و فرقوا بين البطلان و التلاشي، و ذكروا الهذية و الهوية و الماهية و أشباه ذلك. و كما وضع

(1) الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 280-281.
(2) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 1، ص 17-18.

الخليل بن أحمد لأوزان القصيد و قصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف على تلك الأعاريض بتلك الألقاب، و تلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل و البسيط و المديد و الوافر و الكامل و أشباه ذلك، و كما ذكر الأوتاد و الأسباب و الخرم و الزحاف. و قد ذكرت العرب في أشعارها السناد و الاقواء و الاكفاء، و لم أسمع بالايطاء. و قالوا في القصيد و الرجز و السجع و الخطب، و ذكروا حروف الروي و القوافي، و قالوا: هذا بيت و هذا مصراع... و كما سمى النحويون فذكروا الحال و الظروف و ما أشبه ذلك؛ لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين و أبناء البلديين علم العروض و النحو.

و كذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم» (1) .

و قد شعر الجاحظ بثقل الحمل الذي حملته اللغة العربية عند ما نقلت إليها مختلف العلوم المعروفة في اللغات اليونانية و الفارسية و الهندية، و دعا إلى عدم تكليف اللغة ما ليس في طاقتها، و قد عبر عن ذلك بقوله: «و ليس ينبغي أن نسوم اللغات ما ليس في طاقتها و نسوم النفوس ما ليس في جبلتها، و لذلك يحتاج صاحب المنطق إلى أن يفسره لمن طلب من قبله علم المنطق» (2) .

و يشير الجاحظ إلى حركة الترجمة التي نشطت في عصره و يرى أن الترجمان يجب أن يكون عالما باللغة المنقولة و المنقول إليها (3) . و يرى أن الشعر لا يترجم و إذا ترجم ذهب سحره و تقطع نظمه و بطل وزنه و ذهب حسنه (4) .

و ثمة ناحية أخيرة عالجها الجاحظ هي تعلم اللغة. و قد رأى أن ثمة صعوبات تعترض المتعلم ترجع إلى طبيعة اللغة ذاتها و كثرة مفرداتها و ثقل مخارجها، كما ترجع إلى جهل المتكلم بمدلولاتها. و لكن أعون الأسباب على تعلمها فرط الحاجة إليها (5) .

---

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 97-98.
(2) الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 8.
(3) الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 77.
(4) المصدر ذاته، ج 1، ص 74.
(5) المصدر ذاته، ج 5، ص 289.

و قد سبق علماء التربية في العصر الحديث إلى دراسة تعددية اللغة و أدرك قبل جان جاك روسو و دكرولي أن اجتماع لغتين أو أكثر على لسان واحد يسيء إليهما معا فلا يستطيع المتكلم بهما أن يتضلع منهما أو يأمن تنازعهما إياه (1) .

و معنى ذلك أن اللغة الأم تشكل طريقة التفكير لدى الطفل الذي يكتسب اللغة، و ليس للفكر سوى طريقة واحدة. و إذا حاولنا تعليمه لغتين أو أكثر تنازعت هذه اللغات السيطرة على تفكيره و نافست اللغات الأخرى في أن تكون هي طريقة التفكير عنده. و لذا نصح دكرولي بأن لا نعلم الطفل قبل العاشرة سوى لغته الأم خشية أن تحل محلها لغة أجنبية أخرى.

عدا البيان و فلسفة اللغة عالج الجاحظ في كتابه موضوعين آخرين هما الزهد و الشعوبية.

و قد استأثرت حركة الزهد باهتمام الجاحظ فتكلم عليها في أجزاء الكتاب الثلاثة. في الجزء الأول أورد مجموعة من مواعظ النساك، و في الجزء الثاني ذكر أسماء الزهاد الذين عرفوا بالبيان أمثال عامر بن عبد القيس، وصلة ابن أشيم، و عثمان بن أوحم، و مؤرق العجلي، و مالك بن دينار، و يزيد الرقاشي، و رابعة القيسية، و معاذة العدوية، و أم الدرداء الخ. كما أتى على ذكر بعض المتصوفة أمثال هاشم الأوقص، و أبي هاشم الصوفي، و صالح بن عبد الجليل. و في الجزء الثالث كرس للزهد بابا واسعا أثبت فيه قدرا كبيرا من أقوالهم و مواعظهم؛ و أهم هؤلاء الزهاد الحسن البصري الذي أكثر من ذكر أقواله و مواعظه؛ ثم أبو حازم الأعرج، و أبو عبد الحميد، و عمر بن عبد العزيز، و عمرو بن عبيد أحد مؤسسي الاعتزال، و علي بن أبي طالب، و محمد الباقر. و لا ينسى الشعراء الذين نظموا أشعارا في الزهد أمثال أبي العتاهية و أبي نواس و الطرماح بن حكيم.

(1) المصدر ذاته، ج 1، ص 77.

و اهتمام الجاحظ بالزهاد لا يدل على رضاه عنهم أو تأييد مذهبهم فلقد كان ينتقدهم نقدا لاذعا و يرميهم بالهروب من العمل و اللجوء إلى التواكل و الكسل. و يعتبر تصرفاتهم لا تمت إلى الإيمان بصلة و لا تزيد فيه شيئا. و يعكس رأيه فيهم قول أعرابي ذكر عنده رجل «بشدة الاجتهاد و كثرة الصوم و طول الصلاة فقال: هذا رجل سوء، أو ما يظن هذا أن اللّه يرحمه حتى يعذب نفسه هذا التعذيب؟» (1) .

أما الشعوبية فتعني تعصب كل شعب لقوميته و حضارته، و بغض العرب، و قد اشتدت هذه الحركة في العصر العباسي و لا سيما الزمن الذي عاش فيه الجاحظ، و نجمت عن تعدد الشعوب التي ضمها المجتمع العباسي من فرس و زنج و روم و هنود إلى جانب العرب الذين يمثلون الأمة الحاكمة. فكانت محاولة هذه الشعوب إثبات وجودها و الادلال بمآثرها و حضاراتها و البرهنة أن العرب ليسوا أفضل من سائر الأمم بل هم دونها شأنا.

و قد أعار الجاحظ الحركة الشعوبية اهتماما كبيرا فتحدث عنها في كتب عديدة: الحيوان، رسالة النابتة، رسالة فضل السودان على البيضان، رسالة الترك و عامة جند الخلافة، و كتاب البيان و التبيين. و لا يهمنا في هذه المقدمة سوى ما ورد حولها في كتاب البيان و التبيين.

خصّص الجاحظ للشعوبية قسما من الجزء الثالث عنوانه كتاب العصا، أورد فيه مطاعن الشعوبية على العرب و الرد عليها. لقد طعنت الشعوبية على العرب أخذهم المخصرة عند إلقاء الخطب. و احتجت بقولها إنه لا يوجد بين العصا و الخطبة سبب، و أن العصا لم توجد للخطابة بل للقتال أو الهش على المواشي. و أنها لا تنفع الخطيب في شيء، و هي تلهي السامع. و العرب قوم رعاة اعتادوا على حمل العصا في رعي مواشيهم فنقلوا تلك العادة إلى خطابتهم.

و طعنت الشعوبية على العرب ضعف ملكتهم الخطابية، و قالت إنهم لا يضاهون الفرس و اليونان و الهنود في مضمار الخطابة و البلاغة. و الدليل على

(1) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 2، ص 135.

ذلك أن للفرس كتبا و رسائل محبرة مثل كتاب كاروند و سير الملوك، و لليونان كتبا في المنطق و الحكمة، و للهنود كتبا في الحكمة و الاسرار و ليس للعرب مثل تلك الرسائل و الكتب.

و فيما يتعلق بالحرب رمت الشعوبية العرب بجهلهم فنون الحرب و الأسلحة. فهم لا يتقنون تنظيم الجيوش و لا يعرفون الكمين و الميمنة و الميسرة و القلب و الجناح، و القتال في الليل. و لا يحسنون استعمال الأسلحة التي يحسنها الفرس كالنفاضة و الدراجة و الرتيلة و العرادة، و المنجنيق و الدبابة. ثم إن رماح العرب رديئة النوع لا تضارع رماح الفرس الجيدة (1) .

و قد رد الجاحظ على مطاعن الشعوبية فقال إن الرماح العربية أجود من الرماح الفارسية و هي متنوعة منها النيزك و المربوع و المخموس و التام. و ليس صحيحا أن العرب لا يحسنون القتال في الليل، إنهم يقاتلون في الليل كما يقاتلون في النهار.

أما الرسائل المنسوبة إلى الفرس فليست صحيحة، و هي منحولة ولدها أمثال ابن المقفع و سهل بن هارون و عبد الحميد و غيلان و نسبوها إلى قومهم الفرس.

أما ملكة العرب الخطابية فأمر ظاهر جلي لا يحتاج إلى برهان. و يكفي أن نأخذ بيد الشعوبي و ندخله بلاد العرب الخلص، معدن الفصاحة، و نوقفه على خطيب مصقع أو شاعر مفلق ليعلم الحق و يبصر الشاهد عيانا. صحيح أن للهند كتبا مخلدة و لكنها لا تضاف إلى رجل معروف، و أن لليونان فلسفة و صناعة منطق و لكن صاحب المنطق كان بكيء اللسان، و أن للفرس خطباء و لكن كل كلام للفرس إنما هو ثمرة التفكير و الدراسة وكد الخاطر. أما العرب فكلامهم وليد البديهة و الإلهام، لا يعانون فيه جهدا و لا يجيلون فكرا. و لذلك يقطع الجاحظ بأن العرب أخطب الأمم (2) .

---

(1) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 3، ص 39-42.
(2) المصدر ذاته، ج 3، ص 47-50.

و يختم الجاحظ هذا الجدل بالإشارة إلى الدافع الذي حمل هؤلاء العجم على بغض العرب و التنقص من شأنهم، إنه دافع نفسي يرجع إلى الحسد الجاثم على قلوبهم كما يرجع إلى كره الإسلام الذي جاء به العرب.

و الجاحظ، و إن انتصر للعرب ضد الشعوبية، لم يرتكب الخطأ الذي ارتكبته، فهو يذهب إلى أن الأمم ينبغي أن تكف عن البغضاء و التعصب لمزاياها، و أن تتعاون و تتآلف لأن لكل أمة مزايا و نقائص (1) .

(1) المصدر ذاته، ج 3، ص 51.

باب عيوب البيان

العي

قال أبو عثمان عمرو بن بحر، رحمه اللّه:

اللهمّ إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، و نعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، و نعوذ بك من السّلاطة و الهذر، كما نعوذ بك من العيّ و الحصر. و قديما ما تعوذوا باللّه من شرهما و تضرعوا إلى اللّه في السلامة منهما.

و قد قال النّمر بن تولب (1) :

أعذني ربّ من حصر و عيّ # و من نفس أعالجها علاجا

(1) النمر بن تولب: شاعر مخضرم فارس جواد اتصل بالنبي صلّى اللّه و عليه و أسلم.

و قال الهذلي (1) :

و لا حصر بخطبته # إذا ما عزّت الخطب

و قال مكّيّ بن سوادة (2) :

حصر مسهب جريء جبان # خير عيّ الرجال عي السكوت

و قال الآخر:

مليّ ببهر و التفات و سعلة # و مسحة عثنون و فتل أصابع

و مما ذموا به العي قوله:

و ما بي من عي و لا أنطق الخنا # إذا جمع الأقوام في الخطب محفل

و قال الراجز و هو يمتح بدلوه:

علقت يا حارث عند الورد # بجابئ لا رفل التردّي

و لا عييّ بابتناء المجد (3)

و هذا كقول بشار الأعمى (4) :

و عيّ الفعال كعي المقال # و في الصمت عيّ كعي الكلم

و هذا المذهب شبيه بما ذهب إليه شتيم بن خويلد في قوله (5) :

و لا يشعبون الصدع بعد تفاقم # و في رفق أيديكم لذي الصّدع شاعب

---

(1) أبو العيال الهذلي: شاعر مخضرم عمر حتى خلافة معاوية و خرج إلى مصر و عاش فيها.
(2) مكي بن سواده البرجمي شاعر بصري.
(3) يمتح بدلوه: يستخرج الماء من البئر. الورد: قصد الماء للشرب. الجابئ: الذي يطلع فجأة. رفل التردي: من يبحر ثوبه.
(4) هو بشار بن برد، أدرك الخليفة العباسي المهدي و قتل متهما بالزندقة و اشتهر بالمديح المتكسب و الهجاء المقذع.
(5) شتيم بن خويلد: شاعر جاهلي مغمور.

و مثل هذا قول زبّان بن سيار [1] :

و لسنا كأقوام أجدوا رئاسة # يرى مالها و لا يحسّ فعالها

يريغون في الخصب الأمور و نفعهم # قليل إذا الأموال طال هزالها

و قلنا بلا عي و سسنا بطاقة # إذا النار نار الحرب طال اشتعالها

لأنهم يجعلون العجز و العي من الخرق، كانا في الجوارح أم في الألسنة.

و قال ابن أحمر الباهلي:

لو كنت ذا علم علمت و كيف لي # بالعلم بعد تدبّر الأمر

و قالوا في الصمت كقولهم في المنطق. قال أحيحة بن الجلاح:

و الصمت أجمل بالفتى # ما لم يكن عيّ يشينه

و القول ذو خطل إذا # ما لم يكن لب يعينه

و قال مخرّز بن علقمة:

لقد وارى المقابر من شريك # كثير تحلم و قليل عاب

صموتا في المجالس غير عيّ # جديرا حين ينطق بالصواب

و قال مكّيّ بن سوادة:

تسلّم بالسكوت من العيوب # فكان السكت أجلب للعيوب

و يرتجل الكلام و ليس فيه # سوى الهذيان من حشد الخطيب

و قال آخر:

جمعت صنوف العي من كل وجهة # و كنت جديرا بالبلاغة عن كثب

أبوك معمّ في الكلام و مخول # و خالك و ثاب الجراثيم في الخطب

---

(1) زبان بن سيار بن عمرو الفزاري شاعر جاهلي.

و قال حميد بن ثور الهلاليّ (1) :

أتانا و لم يعدله سحبان وائل # بيانا و علما بالذي هو قائل

فما زال عنه اللّقم حتى كأنه # من العي لما أن تكلم باقل

سحبان مثل في البيان، و باقل مثل في العي، و لهما أخبار.

و قال الآخر:

ما ذا رزينا منك أمّ الأسود # من رحب الصدر و عقل متلد

و هي صناع باللسان و اليد

و قال آخر:

لو صخبت شهرين دأبا لم تمل # و جعلت تكثر من قول و بل

حبّك للباطل قدما قد شغل # كسبك عن عيالنا قلت أجل

تضجّرا مني وعيا بالحيل

قال: و قيل لبزرجمهر بن البختكان الفارسي (2) : أي شيء أستر للعييّ؟ قال: عقل يجمله. قالوا: فإن لم يكن له عقل. قال: فمال يستره. قالوا: فإن لم يكن له مال؟قال: فإخوان يعبرون عنه. قالوا: فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه؟قال: فيكون عييا صامتا. قالوا: فإن لم يكن ذا صمت. قال: فموت وحي خير له من أن يكون في دار الحياة.

و سأل اللّه عز و جل موسى بن عمران، عليه السلام، حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، و الإبانة عن حجته، و الإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة

---

(1) حميد بن ثور الهلالي صحابي أدرك خلافة عثمان. و الأصح نسبة الشعر إلى حميد الأرقط من شعراء الدولة الأموية، و قد قاله في الحجاج.

(2) بزرجمهر بن البختكان حكيم فارسي لعب دورا هاما في انتساخ كليلة و دمنة من كتب الهند.

التي كانت في لسانه، و الحبسة التي كانت في بيانه: **وَ اُحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي `يَفْقَهُوا قَوْلِي** .

و أنبأنا اللّه تبارك و تعالى عن تعلق فرعون بكل سبب، و استراحته إلى كل شغب، و نبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند، و كل محتال مكايد، حين خبرنا بقوله: **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا اَلَّذِي هُوَ مَهِينٌ. وَ لاَ يَكَادُ يُبِينُ** .

و قال موسى عليه السلام: **وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي** و قال: **وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي** رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، و المبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، و العقول عنه أفهم، و النفوس إليه أسرع، و إن كان قد يأتي من وراء الحاجة، و يبلغ أفهامهم على بعض المشقة.

و للّه عز و جل أن يمتحن عباده بما شاء من التخفيف و التثقيل، و يبلو أخبارهم كيف أحب من المحبوب و المكروه. و لكل زمان ضرب من المصلحة و نوع من المحنة، و شكل من العبادة.

و من الدليل على أن اللّه تعالى حل تلك العقدة، و أطلق ذلك التعقيد، و الحبسة، قوله: **رَبِّ اِشْرَحْ لِي صَدْرِي. `وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي، `وَ اُحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي `يَفْقَهُوا قَوْلِي. `وَ اِجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي `هَارُونَ أَخِي. `اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. `وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** إلى قوله: **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسى** . فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء، لعموم الخبر.

و سنقول في شأن موسى عليه السلام و مسألته، في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه.

و ذكر اللّه تبارك و تعالى جميل بلائه في تعليم البيان، و عظيم نعمته في تقويم اللسان، فقال: **اَلرَّحْمَنُ `عَلَّمَ اَلْقُرْآنَ. `خَلَقَ اَلْإِنْسَانَ `عَلَّمَهُ اَلْبَيَانَ** ، و قال تعالى: **هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ** ، و مدح القرآن بالبيان و الإفصاح، و بحسن التفصيل و الإيضاح، و بجودة الإفهام و حكمة الإبلاغ، و سماه فرقانا كما سماه

قرانا. و قال: عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ، و قال: وَ كَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا و قال:

وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ اَلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ، و قال: وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً .

و ذكر اللّه عز و جل لنبيه عليه السلام حال قريش في بلاغة المنطق، و رجاحة الأحلام، و صحة العقول، و ذكر العرب و ما فيها من الدهاء و النكراء و المكر، و من بلاغة الألسنة، و اللدد عند الخصومة، فقال تعالى: فَإِذَا ذَهَبَ اَلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ . و قال: وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا . و قال:

وَ يُشْهِدُ اَللَّهَ عَلىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ اَلْخِصَامِ ، و قال: آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . ثم ذكر خلابة ألسنتهم، و استمالتهم الأسماع بحسن منطقهم، فقال: وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .

ثم قال: وَ مِنَ اَلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي اَلْحَيَاةِ اَلدُّنْيَا مع قوله: وَ إِذَا تَوَلَّى سَعىٰ فِي اَلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ اَلْحَرْثَ وَ اَلنَّسْلَ .

و قال الشاعر في قوم يحسنون في القول و يسيئون في العمل، قال أبو حفص: أنشدني الأصمعي للمكعبر الضبي (1) :

كسالى إذا لاقيتهم غير منطق # يلهّى به المحروب و هو عناء

و قيل لزهمان: ما تقول في خزاعة؟قال: جوع و أحاديث! و في شبيه بهذا المعنى قال أفنون بن صريم التغلبي:

لو أنني كنت من عاد و من إرم # غذيّ قيل و لقمان و ذي جدن

لما وقوا بأخيهم من مهولة # أخا السكون و لا حادوا عن السنن

(1) أبو حفص كنية عمر بن أبي عثمان الشمري.
المعكبر الضبي هو حريث بن عفوظ.

الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب الباهلي (123-216 هـ) اخباري و راوية كبير اتصل به الجاحظ و أخذ عنه.

أنى جزوا عامرا سوأى بفعلهم # أم كيف يجزونني السوأى من الحسن

أم كيف ينفع ما تعطي العلوق به # رئمان أنف إذا ما ضن باللبن

رئمان، أصله الرقة و الرحمة. و الرءوم أرق من الرءوف. فقال: «رئمان أنف» ، كأنها تبر ولدها بأنفها و تمنعه اللبن.

و لأن العرب تجعل الحديث و البسط، و التأنيس و التلقي بالبشر، من حقوق القرى و من تمام الإكرام به. و قالوا: «من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، و إطالة الحديث عند المواكلة» . و قال شاعرهم، و هو حاتم الطائي:

سلي الجائع الغرثان يا أم منذر # إذا ما أتاني بين ناري و مجزري

هل أبسط وجهي أنه أول القرى # و أبذل معروفي له دون منكري

و قال الآخر.

إنك يا ابن جعفر خير فتى # و خيرهم لطارق إذا أتى

و رب نضو طرق الحي سرى # صادف زادا و حديثا ما اشتهى

إن الحديث جانب من القرى

و قال الآخر:

لحافي لحاف الضيف و البيت بيته # و لم يلهني عنه غزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القرى # و تعلم نفسي أنه سوف يهجع

و لذلك قال عمرو بن الأهتم (1) :

فقلت له أهلا و سهلا و مرحبا # فهذا مبيت صالح و صديق

---

(1) عمرو بن سنان شاعر و خطيب و سيد مدح الزبرقان بن بدر و هجاه و لم يكذب في مديحه و هجائه فأعجب النبي به و قال «إن من الشعر حكما و إن من البيان سحرا» .

و قال آخر:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله # و يخصب عندي و المحل جديب

و ما الخصب للأضياف أن يكثر القرى # و لكنما وجه الكريم خصيب

ثم قال اللّه تبارك و تعالى في باب آخر من صفة قريش و العرب: **أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَذَا** و قال: **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي اَلْأَبْصَارِ** و قال: **اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ اَلْأَمْثَال** . و قال: **وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ اَلْجِبَال** .

و على هذا المذهب قال: **وَ إِنْ يَكَادُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ** . و قد قال الشاعر في نظر الأعداء بعضهم إلى بعض:

يتقارضون إذا التقوا في موقف # نظرا يزيل مواطئ الأقدام

و قال اللّه تبارك و تعالى: **وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ، لأن مدار الأمر على البيان و التبيين، و على الأفهام و التفهم. و كلما كان اللسان أبين كان أحمد كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد.

و المفهم لك و المتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم و كذلك المعلم و المتعلم. هكذا ظاهر هذه القضية، و جمهور هذه الحكومة، إلا في الخاص الذي لا يذكر، و القليل الذي يشهر.

و ضرب اللّه عز و جل مثلا لعيّ اللسان و رداءة البيان، حين شبه أهله بالنساء و الولدان، فقال تعالى: **أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي اَلْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي اَلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** . و لذلك قال النمر بن تولب:

و كل خليل عليه الرعا # ث و الحبلات، ضعيف ملق

الرعاث: القرطة. و الحبلات: كل ما تزينت به المرأة من حسن الحلى، و الواحدة حبلة.

و ليس، حفظك اللّه، مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، و سقطات الخطل يوم إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العيّ من اختلال الحجة، و عن

الحصر من فوت درك الحاجة. و الناس لا يعيرون الخرس، و لا يلومون من استولى على بيانه العجز. و هم يذمون الحصر، و يؤنبون العيّ، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء، و تعاطيا مناظرة البلغاء، تضاعف عليهما الذم و ترادف عليهما التأنيب. و مماتنة العيّ الحصر للبليغ المصقع، في سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق (1) ، و احدهما ألوم من صاحبه، و الألسنة إليه أسرع.

و ليس اللجلاج (2) و التمتام، و الألثغ و الفأفاء، و ذو الحبسة و الحكلة (3)

و الرتة (4) و ذو اللفف (5) و العجلة، في سبيل الحصر في خطبته، و العييّ في مناضلة خصومه، كما أن سبيل المفحم عند الشعراء، و البكي (6) عند الخطباء، خلاف سبيل المسهب الثرثار، و الخطل المكثار.

ثم اعلم-أبقاك اللّه-أن صاحب التشديق و التقعير (7) و التقعيب من الخطباء و البلغاء مع سماجة التكلف، و شنعة التزيد، أعذر من عييّ يتكلف الخطابة، و من حصر يتعرض لأهل الاعتياد و الدربة. و مدار اللائمة و مستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف، و بيانا يمازجه التزيد. إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام، أقبح من تعاطي البليغ الخطيب، و من تشادق الأعرابي القح و انتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني و الألفاظ، و في التحبير و الارتجال، إنه البحر الذي لا ينزح، و الغمر الذي لا يسبر، أيسر من انتحال الحصر المنخوب إنه في مسلاخ (8) التام الموفر، و الجامع

---

(1) الشاعر المفلق: الشاعر المجيد المبدع.
(2) اللجلاج: الذي يتصف بثقل اللسان و نقص الكلام.
(3) الحكلة: كالعجمة، عدم إبانة الكلام.
(4) الرتة: العجلة في الكلام.
(5) اللفف: البطء بالكلام.
(6) البكيء: القليل الكلام.
(7) التقعير: إخراج الكلام من قعر الفم و مثله التقعيب.
(8) المنخوب: الجبان الضعيف القلب. و المسلاخ: الجلد.

المحكك (1) ، و إن كان النبي صلّى اللّه عليه و آله قد قال: «إياي و التشادق» ، و قال: «أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون» (2) ، و قال: «من بدا جفا» ، و عاب الفدادين و المتزيدين، في جهارة الصوت و انتحال سعة الأشداق، و رحب الغلاصم و هدل الشفاه، و أعلمنا ان ذلك في أهل الوبر أكثر، و في أهل المدر أقل فإذا عاب المدري بأكثر مما عاب به الوبري (3) ، فما ظنك بالمولد القروي و المتكلف البلدي. فالحصر المتكلف و العيي المتزيد، ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده. و هو أعذر، لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى. فمن أسوأ حالا-أبقاك اللّه- ممن يكون ألوم من المتشدقين، و من الثرثارين المتفيهقين، و ممن ذكره النبي صلّى اللّه عليه و آله نصا، و جعل النهي عن مذهبه مفسرا، و ذكر مقته له و بغضه إياه.

لثغة واصل بن عطاء و أخباره

و لما علم واصل بن عطاء (4) أنه ألثغ فاحش اللثغ، و إن مخرج ذلك منه شنيع، و أنه إذا كان داعية مقالة، و رئيس نحلة، و أنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل و زعماء الملل، و أنه لا بد له من مقارعة الأبطال، و من الخطب الطوال و أن البيان يحتاج إلى تمييز و سياسة، و إلى ترتيب و رياضة، و إلى تمام الآلة و إحكام الصنعة، و إلى سهولة المخرج و جهارة المنطق، و تكميل الحروف و إقامة الوزن، و إن حاجة المنطق إلى الحلاوة و الطلاوة، كحاجته إلى الجزالة و الفخامة، و إن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، و تثنى به الأعناق، و تزين به المعاني، و علم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، و اللسان

---

(1) المحكك: المنجذ، الذي جرب الأمور و عرفها.
(2) المتفيهقون: الذين يتوسعون في الكلام و يفتحون به أفواههم، مأخوذ من الفهق، و هو الامتلاء و الاتساع.
(3) المدري: الحضري، و مباني أهل الحضر بالمدر، و هو قطع الطين اليابس. الوبري: ساكن البادية، و البدو يتخذون بيوتهم من الوبر.
(4) واصل بن عطاء: مؤسس مذهب الاعتزال، خالف الخوارج و المرجئة في حكم مرتكب الكبائر، و قال إنه ليس كافرا و لا مؤمنا بل فاسق (المنزلة بيت المنزلتين) . عاش بين سنتي 80-181 هـ.

المتمكن و القوة المتصرفة، كنحو ما أعطى اللّه تبارك و تعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق و التسديد، مع لباس التقوى و طابع النبوة، و مع المحنة و الاتساع في المعرفة، و مع هدي النبيين و سمت المرسلين، و ما يغشيهم اللّه به من القبول و المهابة. و لذلك قال بعض شعراء النبي صلّى اللّه عليه و آله:

لو لم تكن فيه آيات مبينة # كانت بداهته تنبيك بالخبر

و مع ما أعطى اللّه تبارك و تعالى موسى، عليه السلام، من الحجة البالغة، و من العلامات الظاهرة، و البرهانات الواضحة، إلى أن حل اللّه تلك العقدة و أطلق تلك الحبسة، و أسقط تلك المحنة. و من أجل الحاجة إلى حسن البيان، و إعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة–رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، و إخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك و يغالبه، و يناضله و يساجله، و يتأتى لستره و الراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول، و اتسق له ما أمل.

و لو لا استفاضة هذا الخبر و ظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا، و لطرافته معلما، لما استجزنا الإقرار به، و التأكيد له. و لست أعني خطبه المحفوظة و رسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، و إنما عنيت محاجة الخصوم و مناقلة الأكفاء، و مفاوضة الإخوان.

و اللثغة في الراء تكون بالغين و الذال و الياء، و الغين أقلها قبحا، و أوجدها في كبار الناس و بلغائهم و أشرافهم و علمائهم.

و كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم، بالغين، فإذا حمل على نفسه و قوم لسانه أخرج الراء. و قد ذكره في ذلك أبو الطروق الضبي فقال:

عليم بإبدال الحروف و قامع # لكل خطيب يغلب الحق باطله

و كان واصل بن عطاء قبيح اللثغة شنيعها، و كان طويل العنق جدا، و لذلك قال بشار الأعمى:

ما لي أشايع غزالا له عنق # كنقنق الدوّ إن ولى و إن مثلا (1)

عنق الزرافة ما بالي و بالكم # أ تكفرون رجالا أكفروا رجلا

فلما هجا واصلا و صوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، و قال:

الأرض مظلمة و النار مشرقة # و النار معبودة مذ كانت النار

و جعل واصل بن عطاء غزالا، و زعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلّى اللّه عليه و آله، فقيل له: و علي أيضا؟فأنشد:

و ما شر الثلاثة أم عمرو # بصاحبك الذي لا تصبحينا

قال واصل بن عطاء عند ذلك: «أ ما لهذا الأعمى الملحد المشنف (2)

المكني بأبي معاذ من يقتله. أما و اللّه لو لا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية (3) ، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، و يقتله في جوف منزله و في يوم حفله، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلي أو سدوسي» .

قال إسماعيل بن محمد الأنصاري، و عبد الكريم بن روح الغفاري: قال أبو حفص عمر بن أبي عثمان الشمري: أ لا تريان كيف تجنب الراء في كلامه هذا و أنتما للذي تريان من سلامته و قلة ظهور التكلف فيه لا تظنان به التكلف، مع امتناعه من حرف كثير الدوران في الكلام. أ لا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار، و ابن برد، و المرعث، جعل المشنف بدلا من المرعث، و الملحد بدلا من الكافر، و قال: لو لا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية، و لم يذكر المنصورية و لا المغيرية (4) ، لمكان الراء، و قال: لبعثت إليه من يبعج بطنه، و لم يقل: لأرسلت إليه، و قال: على مضجعه، و لم يقل: على فراشه.

---

(1) النقنق، بكسر النونين: ذكر النعام، و الدو و الدوية و الداوية: الفلاة.

(2) المشنف: الذي لبس الشنف، و هو بالفتح: القرط في الأذن.

(3) الغالية: فرقة من فرق الشيعة غالت في آرائها (انظر: فرق الشيعة للنوبختي، و الفرق بين الفرق للبغدادي) .

(4) المنصورية: إحدى فرق الشيعة الغالية، نسبة إلى أبي منصور العجلي الكوفي قال بنبوة علي و أبنائه ثم ادعى النبوة، فتبرأ منه جعفر الصادق.

و المغيرية: إحدى فرق الشيعة الغالية، نسبة إلى المغيرة بن سعيد مولى خالد بن عبد اللّه العشيري، ادعى النبوة و إحياء الموتى و قال بالتناسخ. فقتله خالد بن عبد اللّه القسري (انظر:

فرق الشيعة للنوبختي) .

و كان إذا أراد أن يذكر البر قال: القمح أو الحنطة. و الحنطة لغة كوفية و القمح لغة شامية. هذا و هو يعلم أن لغة من قال بر، أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة. و قال أبو ذؤيب الهذلي:

لا درّ دري إن أطعمت نازلهم # قرف الحتيّ [1] و عندي البر مكنوز

و قال أمية بن أبي الصلت في مديح عبد اللّه بن جدعان:

له داع بمكة مشمعل # و آخر فوق دارته ينادي

إلى ردح من الشيزي عليها # لباب البر يلبك بالشهاد [2]

و قال بعض القرشيين يذكر قيس بن معديكرب و مقدمه مكة في كلمة له:

قيس أبو الأشعث بطريق اليمن # لا يسأل السائل عنه ابن من

أشبع آل اللّه من بر عدن

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «أ ترون أني لا أعرف رقيق العيش؟ لباب البر بصغار المعزى» .

و سمع الحسن رجلا يعيب الفالوذق، فقال: «لباب البر، بلعاب النحل، بخالص السمن، ما عاب هذا مسلم!» .

و قالت عائشة: «ما شبع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا» .

و أهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، و لذلك تجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة و البصرة و الشام و مصر.

---

(1) قرف الحتي: قشر المقل.

(2) ردح من الشيزي: جفاف من الخشب.

حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح (1) قال: قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، و أكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم. أنتم تسمون القدر برمة و تجمعون البرمة على برام، و نحن نقول قدر و نجمعها على قدور، و قال اللّه عز و جل:

وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ . و أنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية، و تجمعون هذا الاسم على علالي، و نحن نسميه غرفة و نجمعها على غرفات و غرف. و قال اللّه تبارك و تعالى: غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ و قال: وَ هُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ . و أنتم تسمون الطلع الكافور و الا غريض و نحن نسميه الطلع. و قال اللّه تبارك و تعالى: وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا. أ لا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، و لذلك يسمون البطيخ الخربز، و يسمون السميط الرزدق (2) ، و يسمون المصوص المزور (3) ، و يسمون الشطرنج الاشترنج، في غير ذلك من الأسماء و كذلك أهل الكوفة، فإنهم يسمون المسحاة بال، و بال بالفارسية.

و لو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس و أقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه، إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النبط و أقصى بلاد العرب.

و يسمي أهل الكوفة الحوك الباذروج (4) ، و الباذروج بالفارسية، و الحوك كلمة عربية. و أهل البصرة إذ التقت أربع طرق يسمونها مربعة، و يسميها أهل الكوفة الجهار سوك، و الجهار سوك بالفارسية. و يسمون السوق و السويقة

---

(1) عبد الكريم بن روح: أحد الرواة الذين أخذ عنهم الجاحظ و قد ذكره مرارا في كتبه و قد اتصل بمحمد بن المناذر الشاعر و عالم اللغة في عصره.
(2) السميط: الآجر المصفوف.
(3) المصوص: لحم ينقع في الخل و يطبخ.
(4) الباذروج: ريحانة معروفة.

«و ازار» ، و الوازار بالفارسية. و يسمون القثاء خيارا، و الخيار بالفارسية. و يسمون المجدوم ويذي ، بالفارسية.

و قد يستخف الناس ألفاظا و يستعملونها و غيرها أحق بذلك منها. أ لا ترى أن اللّه تبارك و تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع و العجز الظاهر. و الناس لا يذكرون السغب و يذكرون الجوع في حال القدرة و السلامة. و كذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. و العامة و أكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر و بين ذكر الغيث. و لفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، و إذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين. أ لا تراه لا يجمع الأرض أرضين، و لا السمع أسماعا. و الجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر و أولى بالاستعمال. و قد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.

و العامة ربما استخفت أقل اللغتين و أضعفهما، و تستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا و تدع ما هو أظهر و أكثر، و لذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار و لم يسر ما هو أجود منه، و كذلك المثل السائر.

و قد يبلغ الفارس و الجواد الغاية في الشهرة و لا يرزق ذلك الذكر و التنويه بعض من هو أولى بذلك منه. أ لا ترى العامة أن ابن القرية (1) عندها أشهر في الخطابة من سحبان وائل. و عبيد اللّه بن الحر (2) أذكر عندهم في الفروسية من زهير بن ذؤيب. و كذلك مذهبهم في عنترة بن شداد، و عتيبة بن الحارث

---

(1) ابن القرية، هو أبو سليمان أيوب بن زيد، كان أعرابيا أميا و هو معدود في جملة الخطباء المشهورين، قتله الحجاج بن يوسف سنة 84.

(2) عبيد اللّه بن الحر الجعفي: قائد من الشجعان الأبطال، و كان بينه و بين مصعب بن الزبير منافسة، صمد عبيد اللّه لرجال مصعب صمودا، و لكن أصحابه تفرقوا عنه فخاف أن يؤسر فألقى بنفسه في الفرات فمات غرقا. و كان عبيد اللّه شاعرا فحلا.

ابن شهاب. و هم يضربون المثل بعمرو بن معديكرب، و لا يعرفون بسطام بن قيس (1) .

و في القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة و الزكاة، و الجوع و الخوف، و الجنة و النار، و الرغبة و الرهبة، و المهاجرين و الأنصار، و الجن و الإنس.

قال قطرب: أنشدني ضرار بن عمرو (2) قول الشاعر في واصل بن عطاء:

و يجعل البر قمحا في تصرفه # و جانب الراء حتى احتال للشعر

و لم يطق مطرا و القول يعجله # فعاذ بالغيث إشفاقا من المطر

قال و سألت عثمان البري (3) : كيف كان واصل يصنع في العدد، و كيف كان يصنع بعشرة و عشرين و أربعين، و كيف كان يصنع بالقمر و البدر و يوم الأربعاء و شهر رمضان، و كيف كان يصنع بالمحرم و صفر و ربيع الأول و ربيع الآخر و جمادى الآخرة و رجب؟فقال: ما لي فيه قول إلا ما قال صفوان:

ملقن ملهم فيما يحاوله # جم خواطره جواب آفاق

و أنشدني ديسم (4) قال: أنشدني أبو محمد اليزيدي:

و خلة اللفظ في الياءات إن ذكرت # كخلة اللفظ في اللامات و الألف

و خصلة الراء فيها غير خافية # فاعرف مواقعها في القول و الصحف

---

(1) بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، سيد شيبان، و من أشهر فرسان العرب في الجاهلية، أدرك الإسلام و لم يسلم، و قتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة.

(2) ضرار بن عمرو، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية، و كان في بدء أمره تلميذا لواصل بن عطاء المعتزلي، ثم خالفه فقال إن أفعال العباد مخلوقة للّه حقيقة و العبد يكتسبها اكتسابا. و أنكر الطبائع و التولد و الكمون. و ذهب الى أن الأجسام في الطبيعة تتألف من أعراض اجتمعت.

(3) هو أبو سلمة عثمان بن مقسم البري الكندي البصري. عرف بوضع الحديث و القول بالقدر.

(4) هو ديسم العنزي أحد من هجاهم بشار.

يزعم أن هذه الحروف أكثر ترددا من غيرها، و الحاجة إليها أشد. و اعتبر ذلك بأن تأخذ عدة رسائل و عدة خطب من جملة خطب الناس و رسائلهم، فإنك متى حصلت جميع حروفها، و عددت كل شكل على حدة، علمت أن هذه الحروف الحاجة إليها أشد.

قال أبو عثمان: فمن ذلك ما خبرنا به الأصمعي قال: أنشدني المعتمر ابن سليمان لإسحاق بن سويد العدوي:

برئت من الخوارج لست منهم # من الغزال منهم و ابن باب [1]

و من قوم إذا ذكروا عليا # يردون السلام على السحاب

و لكني أحب بكل قلبي # و أعلم أن ذاك من الصواب

رسول اللّه و الصديق حبا # به أرجو غدا حسن الثواب

و في مثل ذلك قال بشار:

ما لي أشايع غزالا له عنق # كنقنق الدو إن ولى و إن مثلا

و من ذلك قول معدان الشميطي [2] :

يوم تشفى النفوس من يعصر اللؤ # م و يثني بسامة الرحّال [3]

و عدي و تيمها و ثقيف # و أميّ و تغلب و هلال

لا حرورا و لا النواصب تنجو # لا و لا صحب واصل الغزال [4]

---

(1) يعني بالغزال واصل بن عطاء. و ابن باب هو عمرو بن عبيد، صاحب واصل و شريكه في تأسيس مذهب الاعتزال. توفي بمران سنة 144.

(2) هو أبو السري معدان الأعمى الشميطي المديبري، و نسبته إلى الشميطية، و هي فرقة من الشيعة الإمامية الرافضة، تنتمي الى أحمر بن شميط صاحب المختار. و قد قتلهما معا مصعب بن الزبير.

(3) يعصر: أبو قبيلة، و هو يعصر بن سعد بن قيس بن غطفان. و سامة، هو سامة بن لؤي، و لقبه بالرحال لأن أخاه عامر بن لؤي توعده حين فقا عينه، فرحل إلى عمان هاربا حيث لقي حتفه في الطريق.

(4) النواصب، و الناصبية، و أهل النصب: المتدينون ببغض علي، لأنهم نصبوا له أي عادوه.

و قد ذكرهم في أماكن عديدة في كتبه و لا سيما في مقدمة الحيوان.

و كان بشار كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بشار بالرجعة، و يكفر جميع الأمة. و كان قد قال في تفضيله على خالد بن صفوان (1) و شبيب ابن شيبة (2) ، و الفضل بن عيسى، يوم خطبوا عند عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز والي العراق:

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة # في خطبة بدهت من غير تقدير

و إن قولا يروق الخالدين معا # لمسكت مخرس عن كل تحبير

لأنه كان مع ارتجاله الخطبة التي نزع منها الراء، كانت مع ذلك أطول من خطبهم. و قال بشار:

تكلفوا القول و الأقوام قد حفلوا # و حبروا خطبا ناهيك من خطب

فقام مرتجلا تغلي بداهته # كمرجل القين لما حف باللهب

و جانب الراء لم يشعر بها أحد # قبل التصفح و الإغراق في الطلب

و قال في كلمة له يعني تلك الخطبة:

فهذا بديه لا كتحبير قائل # إذا ما أراد القول زوره شهرا

فلما انقلب عليهم بشار و مقاتله لهم بادية، هجوه و نفوه، فما زال غائبا حتى مات عمرو بن عبيد. و قال صفوان الأنصاري:

متى كان غزال له ابن حوشب # غلام كعمرو أو كعيسى بن حاضر (3)

أ ما كان عثمان الطويل ابن خالد # أو القرم حفص نهية للمخاطر (4)

له خلف شعب الصين في كل ثغرة # إلى سوسها الأقصى و خلف البرابر

---

(1) هو خالد بن صفوان عبد اللّه بن أهتم، علم من أعلام الخطابة، و قد وفد إلى هشام، و كان مطلاقا.
(2) هو شبيب بن شيبة بن عبد اللّه بن الأهتم. من رهط صفوان و من منافسيه.
(3) عيسى بن حاضر، أحد رجال المعتزلة، و أحد أصحاب عمرو بن عبيد.
(4) هو حفص الفرد، ذكر أنه من المجبرة، و ناظر أبا الهذيل العلاف فأفحمه أبو الهذيل.

رجال دعاة لا يفلّ عزيمهم # تهكم جبار و لا كيد ماكر

إذا قال مروا في الشتاء تطوعوا # و إن كان صيف لم يخف شهر ناجر

بهجرة أوطان و بذل و كلفة # و شدة أخطار و كد المسافر

فأنجح مسعاهم و أثقب زندهم # و أورى بفلج للمخاصم قاهر [1]

و أوتاد أرض اللّه في كل بلدة # و موضع فتياها و علم التشاجر

و ما كان سحبان يشق غبارهم # و لا الشدق من حيي هلال بن عامر

و لا الناطق النخار و الشيخ دغفل # إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر

و لا القالة الأعلون رهط مكحّل # إذا نطقوا في الصلح بين العشائر [2]

بجمع من الجفين راض و ساخط # و قد زحفت بدّاؤهم للمحاضر

-الجفان: بكر و تميم. و الروقان: بكر و تغلب. و الغاران: الأزد و تميم. و يقال ذلك لكل عمارة من الناس، و هي الجمع، و هم العمائر أيضا:

غار. و الجف أيضا: قشر الطلعة-.

تلقب بالغزال واحد عصره # فمن لليتامى و القبيل المكاثر

و من لحروري و آخر رافض # و آخر مرجي و آخر جائر

و أمر بمعروف و إنكار منكر # و تحصين دين اللّه من كل كافر

يصيبون فصل القول في كل موطن # كما طبّقت في العظم مدية جازر

تراهم كأن الطير فوق رءوسهم # على عمة معروفة في المعاشر

و سيماهم معروفة في وجوههم # و في المشي حجاجا و فوق الأباعر

و في ركعة تأتي على الليل كله # و ظاهر قول في مثال الضمائر

و في قص هداب و احفاء شارب # و كور على شيب يضيء لناظر

و عنفقة مصلومة و لنعله # قبالان في ردن رحيب الخواصر [3]

فتلك علامات تحيط بوصفهم # و ليس جهول القوم في علم خابر

(1) أثقب الزند: قدحه فأخرج منه النار. و أورى الزند: ثقبه.
(2) مكحل، هو عمرو بن الأهتم المنقري.
(3) العنفقة: ما بين الشفة السفلى و الذقن. قبال النعل: زمامها.

و في واصل يقول صفوان:

فما مس دينارا و لا صر درهما # و لا عرف الثوب الذي هو قاطعه

و فيه يقول أسباط بن واصل الشيباني:

و أشهد أن اللّه سماك واصلا # و أنك محمود النقيبة و الشيم

و لما قام بشار بعذر إبليس في أن النار خير من الأرض، و ذكر واصلا بما ذكره به صفوان:

زعمت بأن النار أكرم عنصرا # و في الأرض تحيا بالحجارة و الزند

و تخلق في أرحامها و أرومها # أعاجيب لا تحصى بخط و لا عقد (1)

و في القعر من لج البحار منافع # من اللؤلؤ المكنون و العنبر الورد

كذلك سر الأرض في البحر كله # و في الغيضة الغناء و الجبل الصلد

و لا بد من أرض لكل مطير # و كل سبوح في الغمائر من جد (2)

كذاك و ما ينساح في الأرض ماشيا # على بطنه مشي المجانب للقصد (3)

و يسري على جلد يقيم حزوزه # تعمج ماء السيل في صبب حرد (4)

و في قلل الأجبال خلف مقطم # زبرجد أملاك الورى ساعة الحشد

و في الحرة الرجلاء تلفى معادن # لهن مغارات تبجس بالنقد (5)

من الذهب الإبريز و الفضة التي # تروق و تصبي ذا القناعة و الزهد

و كل فلز من نحاس و آنك # و من زئبق حي و نوشاذر يسدي (6)

---

(1) الأروم: جمع أرومة، و هي الأصل. العقد: ضرب من الحساب.

(2) الغمائر: جمع غمير، و هو الماء الكثير. الجد، بالضم و الفتح: شاطئ النهر، أي لا بد لكل سابح من شاطئ.

(3) ينساح: يمشي على بطنه.

(4) التعمج: التلوي. الصبب: الموضع المنحدر. الحرد: المتنحي المعتزل.

(5) الحرة: أرض حجارتها سوداء. الرجلاء: التي لا يستطاع المشي فيها لخشونتها و صعوبتها.

تبجس بالنقد: تنفجر بالذهب و الفضة.

(6) الفلز: جواهر الأرض كلها. الآنك: الرصاص قال كراع: هو القصدير. و جعل الزئبق حيا لسرعة حركته. النوشاذر: حجر صاف.

و فيها زرانيخ و مكر و مرتك # و من مرقشيشا غير كاب و لا مكدي (1)

و فيها ضروب القار و الشب و المها # و أصناف كبريت مطاولة الوقد (2)

ترى العرق منها في المقاطع لائحا # كما قدّت الحسناء حاشية البرد

و من إثمد جون و كلس و فضة # و من توتياء في معادنه هندي

و في كل أغوار البلاد معادن # و في ظاهر البيداء من مستو نجد

و كل يواقيت الأنام و حليها # من الأرض و الأحجار فاخرة المجد

و فيها مقام الخل و الركن و الصفا # و مستلم الحجاج من جنة الخلد

و في صخرة الخضر التي عند حوتها # و في الحجر الممهي لموسى على عمد (3)

و في الصخرة الصماء تصدع آية # لام فصيل ذي رغاء و ذي وخد (4)

مفاخر للطين الذي كان أصلنا # و نحن بنوه غير شك و لا جحد

فذلك تدبير و نفع و حكمة # و أوضح برهان على الواحد الفرد

أ تجعل عمرا و النطاسي واصلا # كأتباع ديصان و هم قمش المد

و تفخر بالميلاء و العلج عاصم # و تضحك من جيد الرئيس أبي الجعد

و تحكي لذى الأقوام شنعة رأيه # لتصرف أهواء النفوس إلى الرد

و سميته الغزال في الشعر مطنبا # و مولاك عند الظلم قصته مردي

-يقول: إن مولاك ملاح، لأن الملاحين إذا تظلموا رفعوا المرادي-.

فيا ابن حليف الطين و اللؤم و العمى # و أبعد خلق اللّه من طرق الرشد

أ تهجو أبا بكر و تخلع بعده # عليا و تعزو كل ذاك إلى برد

كأنك غضبان على الدين كله # و طالب ذحل لا يبيت على حقد (5)

رجعت إلى الأمصار من بعد واصل # و كنت شريدا في التهائم و النجد (6)

(1) الزرنيخ: معدن له ألوان كثيرة، منها الأصفر و الأحمر و الأغبر. المكر: طين أحمر يصبغ به. المرتك: مبيض الرصاص. المرقشيشا: صنف من الحجارة يستخرج منه النحاس.
(2) المها: جمع مهاة، البلورة التي تلمع لشدة بياضها.
(3) أمهى الحجر: ظهر ماؤه، إشارة إلى ضرب موسى بعصاه الحجر.
(4) الوخد: ضرب من سير الإبل.
(5) الذحل: الثأر.
(6) التهائم: الأرض المنصوبة إلى البحر. و النجد: ما غلظ من الأرض و أشرف و استوى.

أ تجعل ليلى الناعظية نحلة # و كل عريق في التناسخ و الرد

عليك بدعد و الصدوف و فرتني # و حاضنتي كسف و زاملتي هند [1]

تواثب أقمارا و أنت مشوه # و أقرب خلق اللّه من شبه القرد

و لذلك قال فيه حماد عجرد [2] بعد ذلك:

و يا أقبح من قرد # إذا ما عمي القرد

و يقال إنه لم يجزع بشار من شيء قط جزعه من هذا البيت.

و ذكر الشاعر و ذكر أخويه لأمه فقال:

لقد ولدت أم الأكيمه أعرجا # و آخر مقطوع القفا ناقص العضد [3]

و كانوا ثلاثة مختلفي الآباء و الأم واحدة، و كلهم ولد زمنا [4] . و لذلك قال بعض من يهجوه:

إذا دعاه الخال أقعى و نكص # و هجنة الأقراف فيه بالحصص [5]

و قال الشاعر:

لا تشهدنّ بخارجي مطرف # حتى ترى من نجله أفراسا [6]

---

(1) عليك بالغزل بالنساء.
(2) حماد عجرد: شاعر عباسي معاصر لبشار تهاجى مع بشار.
(3) الأكيمه: مصغر الأكمه، و هو الذي ولد أعمى.
(4) الزمن: ذو العاهة.
(5) هجنة الأقراف: الهجنة من قبل الأب.
(6) الخارجي المطرف: الحصان العصامي الجودة.

و قال صفوان الأنصاري في بشار و أخويه، و كان يخاطب أمهم:

ولدت خلدا و ذيخا في تشتمه # و بعده خززا يشتد في الصعد

ثلاثة من ثلاث فرقوا فرقا # فاعرف بذلك عرق الخال في الولد

الخلد: ضرب من الجرذان يولد أعمى. و الذيخ: ذكر الضباع، و هو أعرج. و الخزز: ذكر الأرانب، و هو قصير اليدين لا يلحقه الكلب في الصعد.

و قال بعد ذلك سليمان الأعمى، أخو مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر، في اعتذار بشار لإبليس و هو يخبر عن كرم خصال الأرض:

لا بد للأرض إن طابت و إن خبثت # من أن تحيل إليها كل مغروس

و تربة الأرض إن جيدت و إن قحطت # فحملها أبدا في أثر منفوس

و بطنها بفلزّ الأرض ذو خبر # بكل ذي جوهر في الأرض مرموس

-الفلزّ: جوهر الأرض من الذهب و الفضة و النحاس و الآنك و غير ذلك-.

و كل آنية عمت مرافقها # و كل منتقد فيها و ملبوس

و كل ماعونها كالملح مرفقة # و كلها مضحك من قول إبليس

و قال بعض خلعاء بغداد:

عجبت من إبليس في كبره # و قبح ما أظهر من نيّته

تاه على آدم في سجدة # و صار قوادا لذريته

و ذكره بهذا المعنى سليمان الأعمى، اخو مسلم الأنصاري، فقال:

يأبى السجود له من فرط نخوته # و قد تحول في مسلاخ قواد

و قال صفوان في شأن واصل و بشار، و في شأن النار و الطين في كلمة له:

و في جوفها للعبد أستر منزل # و في ظهرها يقضي فرائضه العبد

تمج لفاظ الملح مجا و تصطفي # سبائك لا تصدا و إن قدم العهد

و ليس بمحص كنه ما في بطونها # حساب و لا خط و إن بلغ الجهد

فسائل بعبد اللّه في يوم حفله # و ذاك مقام لا يشاهده و غد

أقام شبيب و ابن صفوان قبله # بقول خطيب لا يجانبه القصد

و قام ابن عيسى ثم قفاه واصل # فأبدع قولا ما له في الورى ند

فما نقصته الراء إذ كان قادرا # على تركها و اللفظ مطرد سرد

ففضل عبد اللّه خطبة واصل # و ضوعف في قسم الصلات له الشكد (1)

فأقنع كلّ القوم شكر حبائهم # و قلل ذاك الضعف في عينه الزهد

قد كتبنا احتجاج من زعم أن واصل بن عطاء كان غزالا، و احتجاج من دفع ذلك عنه، و يزعم هؤلاء أن قول الناس واصل الغزال، كما يقولون خالد الحذّاء، و كما يقولون هشام الدستوائي (2) . و إنما قيل ذلك لأن الإباضية (3)

كانت تبعث إليه من صدقاتها ثيابا دستوائية، فكان يكسوها الأعراب الذين يكونون بالجناب، فأجابوه إلى قول الاباضية، و كانوا قبل ذلك لا يزوجون الهجناء، فأجابوه إلى التسوية و زوجوا هجينا، فقال الهجين في ذلك:

إنا وجدنا الدستوائيينا # الصائمين المتعبدينا

أفضل منكم حسبا و دينا # أخزى الإله المتكبرينا

أ فيكم من ينكح الهجينا (4)

و قال: إنما قيل ذلك لواصل لأنه كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين، إلى أبي عبد اللّه مولى قطن الهلالي، و كذلك كانت حال خالد الحذّاء الفقيه

---

(1) الشكد: الجزاء و العطاء.

(2) هو أبو بكر هشام بن أبي عبد اللّه سنبر الدستوائي البصري البكري.

(3) الإباضية: فرقة من فرق الخوارج، نسبة إلى عبد اللّه بن إباض، الخارج في أيام مروان بن محمد.

(4) الهجين: ولد الأمة.

و كما قالوا: أبو مسعود البدري، لأنه كان نازلا على ذلك الماء. و كما قالوا:

أبو مالك السدي، لأنه كان يبيع الخمر في سدة المسجد.

و هذا الباب مستقصى في كتاب «الأسماء و الكنى» ، و قد ذكرنا جملة منه في كتاب «أبناء السراري و المهيرات» .

حروف اللثغة

ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة و ما يحضرني منها:

قال أبو عثمان: و هي أربعة أحرف: القاف، و السين، و اللام، و الراء.

فأما التي هي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط!لأنه ليس من الحروف المعروفة، و إنما هو مخرج من المخارج، و المخارج لا تحصى و لا يوقف عليها. و كذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم، و ليس ذلك في شيء أكثر منه في لغة الخوز. و في سواحل البحر من اسياف فارس ناس كثير، كلامهم يشبه الصفير. فمن يستطيع أن يصور كثيرا من حروف الزمزمة و الحروف التي تظهر من فم المجوسي إذا ترك الإفصاح من معانيه، و أخذ في باب الكناية و هو على الطعام؟!فاللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء، كقولهم لأبي يكسوم: أبي يكثوم، و كما يقولون بثرة، إذا أرادوا بسرة. و بثم اللّه إذا أرادوا بسم اللّه.

و الثانية اللثغة التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف طاء، فإذا أراد أن يقول: قلت له، قال: طلت له، و إذا أراد أن يقول قال لي، قال: طال لي.

و أما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله: اعتلك: اعتييك، و بدل جمل: جمى. و آخرون يجعلون اللام كافا، كالذي عرض لعمر أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا، قال: مكعكة في هذا.

و أما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف: فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال:

عمي، فيجعل الراء ياء. و منهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال: عمغ، فيجعل الراء غينا. و منهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال: عمذ، فيجعل الراء ذالا. و إذا أنشد قول الشاعر (1) :

و استبدت مرة واحدة # إنما العاجز من لا يستبد

قال:

و استبدت مذة واحدة # إنما العاجز من لا يستبد

فمن هؤلاء علي بن الجنيد بن فريدي.

و منهم من يجعل الراء ظاء معجمة، فإذا أراد أن يقول:

و استبدت مرة واحدة # إنما العاجز من لا يستبد

يقول:

و استبدت مظة واحدة # إنما العاجز من لا يستبد

و منهم من يجعل الراء غينا معجمة، فإذا أراد أن ينشد هذا البيت قال:

و استبدت مغة واحدة # إنما العاجز من لا يستبد

كما الذي لثغته بالياء، إذا أراد أن يقول: «و استبدت مرة واحدة» يقول «و استبدت مية واحدة» .

و أما اللثغة الخامسة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء، و لسليمان بن يزيد العدوي الشاعر، فليس إلى تصويرها سبيل. و كذلك اللثغة التي تعرض في السين كنحو ما كان يعرض لمحمد بن الحجاج، كاتب داود بن محمد، كاتب أم جعفر، فإن تلك أيضا ليست لها صورة في الخط ترى بالعين، و إنما يصورها اللسان و تتأدى إلى السمع. و ربما اجتمعت في الواحد لثغتان في

(1) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي، رائد الغزل الإباحي في العصر الأموي

حرفين، كنحو لثغة شوشي، صاحب عبد اللّه بن خالد الأموي، فإنه كان يجعل اللام ياء و الراء ياء. قال مرة: مو ياي و يي ايي. يريد مولاي ولي الري. و اللثغة التي في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهن و أوضعهن لذي المروءة، ثم التي على الظاء، ثم التي على الذال فأما التي على الغين فهي أيسرهن، و يقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده و أحد لسانه، و تكلف مخرج الراء على حقها و الإفصاح بها، لم يك بعيدا من أن تجيبه الطبيعة، و يؤثر فيها ذلك التعهد أثرا حسنا.

و قد كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم، بالغين، و كان إذا شاء أن يقول عمرو، و لعمري، و ما أشبه ذلك على الصحة قاله، و لكنه كان يستثقل التكلف و التهيؤ لذلك، فقلت له: إذا لم يكن المانع إلا هذا العذر فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف و التتبع شهرا واحدا أن لسانك كان يستقيم.

فأما من تعتريه اللثغة في الضاد و ربما اعتراه أيضا في الصاد و الراء حتى إذا أراد أن يقول مضر قال مضى، فهذا و أشباهه لاحقون بشوشي.

و قد زعم ناس من العوام أن موسى عليه السلام كان ألثغ، و لم يقفوا من الحروف التي كانت تعرض له على شيء بعينه. فمنهم من جعل ذلك خلقة، و منهم من زعم أنه إنما اعتراه حين قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون لفرعون:

«لا تقتل طفلا لا يعرف التمر من الجمر» . فلما دعا له فرعون بهما جميعا تناول جمرة فأهوى بها إلى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه.

و أما اللثغة في الراء فتكون بالياء و الظاء و الذال و الغين، و هي أقلها قبحا و أوجدها في ذوي الشرف و كبار الناس و بلغائهم و علمائهم.

و كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم، بالغين، فإذا حمل على نفسه و قوم لسانه أخرج الراء على الصحة فتأتى له ذلك. و كان يدع ذلك استثقالا أنا سمعت ذلك منه.

قال: و كان الواقدي (1) يروي عن بعض رجاله، أن لسان موسى كانت عليه شأمة فيها شعرات. و ليس يدل القرآن على شيء من هذا، لأنه ليس في قوله: وَ اُحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي دليل على شيء دون شيء.

الفأفأة و التمتمة

و قال الأصمعي: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام، و إذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء. و أنشد لرؤبة بن العجاج:

يا حمد ذات المنطق التمتام # كأن وسواسك في اللمام

حديث شيطان بني هنام

و بعضهم ينشد:

يا حمد ذات المنطق النمنام

و ليس ذلك بشيء، و إنما هو كما قال أبو الزحف (2) :

لست بفأفاء و لا تمتام # و لا كثير الهجر في الكلام

و أنشد أيضا للخولاني في كلمة له:

إن السياط تركن لاستك منطقا # كمقالة التمتام ليس بمعرب

فجعل الخولاني التمتام غير معرب عن معناه، و لا مفصح بحاجته.

اللفف

و قال أبو عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف، و قيل بلسانه لفف. و أنشدني لأبي الزحف الراجز:

---

(1) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد من أهل المدينة، تولى القضاء للمأمون في بغداد، و نبغ في السير و المغازي و الأخبار، عاش بين سنتي 130-207 هـ.

(2) هو عطاء بن الخطفي ابن عم الشاعر الأموي جرير.

كأن فيه لففا إذا نطق # من طول تحبيس و هم و أرق

كأنه لما جلس وحده و لم يكن له من يكلمه، و طال عليه ذلك، أصابه لفف في لسانه.

و كان يزيد بن جابر، قاضي الأزارقة (1) بعد المقعطل، يقال له الصموت، لأنه لما طال صمته ثقل عليه الكلام، فكان لسانه يلتوي، و لا يكاد يبين.

و أخبرني محمد بن الجهم أن مثل ذلك اعتراه أيام محاربة الزط (2) ، من طول التفكر و لزوم الصمت.

قال: و أنشدني الأصمعي:

حديث بني قرط إذا ما لقيتهم # كنزو الدبا في العرفج المتقارب (3)

قال ذلك حين كان في كلامهم عجلة. و قال سلمة بن عياش (4) :

كأن بني رألان إذ جاء جمعهم # فراريج يلقى بينهن سويق

فقال ذلك لدقة أصواتهم و عجلة كلامهم.

اللجلجة

و قال اللهبي في اللجلاج:

ليس خطيب القوم باللجلاج # و لا الذي يزحل كالهلباج (5)

و رب بيداء و ليل داج # هتكته بالنص و الإدلاج

---

(1) فرقة من فرق الخوارج، نسبة إلى زعيمهم نافع بن الأزرق.
(2) الزط: قوم من الهند، استوطنوا جنوب العراق، و ثاروا في خلافة المأمون.
(3) بنو قرط: بطن من بني بكر بن كلاب. الدبا: الجراد قبل أن يطير.
(4) سلمة بن عياش: شاعر بصري أدرك الدولة العباسية و مدح أبناء سليمان بن علي.
(5) يزحل: يزل عن مقامه. الهلباج: الأحمق الشديد الحمق.

و قال محمد بن سلام الجمحي: كان عمر بن الخطاب، رحمه اللّه، إذا رأى رجلا يتلجج في كلامه، قال: «خالق هذا و خالق عمرو بن العاص واحد» .

الحبسة و الحكلة

و يقال في لسانه حبسة، إذا كان الكلام يثقل عليه و لم يبلغ حد الفأفاء و التمتام. و يقال في لسانه عقلة، إذا تعقل عليه الكلام. و يقال في لسانه لكنة، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب، و جذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول. فإذا قالوا في لسانه حكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، و عجز أداة اللفظ، حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال.

و قال رؤبة بن العجاج:

لو أنني أوتيت علم الحكل # علم سليمان كلام النمل

و قال محمد بن ذؤيب (1) ، في مديح عبد الملك بن صالح:

و يفهم قول الحكل لو أن ذرة # تساود أخرى لم يفته سوادها

و قال التيمي في هجائه لبني تغلب:

و لكن حكلا لا تبين و دينها # عبادة أعلاج عليها البرانس

النحنحة و السعلة

قال: و أنشدني سحيم بن حفص، في الخطيب الذي تعرض له النحنحة و السعلة، و ذلك إذا انتفخ سحره، و كبا زنده، و نبا حده، فقال:

نعوذ باللّه من الإهمال # و من كلال الغرب في المقال

و من خطيب دائم السعال

(1) محمد بن ذؤيب الفقيمي شاعر راجز من شعراء الدولة العباسية.

و أنشدني ابن الأعرابي:

إن زيادا ليس بالبكيّ # و لا بهياب كثير العيّ

و أنشدني بعض أصحابنا:

ناديت هيذان و الأبواب مغلقة # و مثل هيذان سنّى فتحة الباب [1]

كالهندواني لم تفلل مضاربه # وجه جميل و قلب غير وجاب [2]

و قال آخر:

إذا اللّه سنى عقد شيء تيسرا

و قال بشر بن المعتمر [3] ، في مثل ذلك:

و من الكبائر مقول متتعتع # جم التنحنح متعب مبهور

و ذلك أنه شهد ريسان، أبا بحير بن ريسان، يخطب. و قد شهدت أنا هذه الخطبة و لم أر جبانا قط أجرأ منه، و لا جريئا قط أجبن منه.

الخطباء الشعراء

و قال الأشل الأزرقي–من بعض أخوال عمران بن حطان الصفري القعدي–في زيد بن جندب الإيادي خطيب الأزارقة، و قد اجتمعا في بعض المحافل، فقال بعد ذلك الأشل البكري:

نحنح زيد و سعل # لما رأى وقع الأسل

ويل أمه إذا ارتجل # ثم أطال و احتفل

---

(1) سنى: فتح و سهل.

(2) الهندواني: السيف المطبوع من حديد الهند. تفلل: تثلم. الوجاب: الخفاق المضطرب من الخوف.

(3) بشر بن المعتمر: متكلم معتزلي من الطبقة السادسة، و رئيس معتزلة بغداد. و كان إلى ذلك شاعرا، له قصيدة تقع في أربعين ألف بيت يرد فيها على جميع الفرق. توفي سنة 226 هـ.

و قد ذكر الشاعر زيد بن جندب الإيادي، الخطيب الأزرقي، في مرثيته لأبي داود بن حريز الإيادي، حيث ذكره بالخطابة و ضرب المثل بخطباء إياد، فقال:

كقس إياد أو لقيط بن معبد # و عذرة و المنطيق زيد بن جندب

و زيد بن جندب هو الذي قال في الاختلاف الذي وقع بين الأزارقة:

قل للمحلين قد قرت عيونكم # بفرقة القوم و البغضاء و الهرب

كنا أناسا على دين ففرقنا # طول الجدال و خلط الجد باللعب

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم # عن الجدال و أغناهم عن الخطب

إني لأهونكم في الأرض مضطربا # ما لي سوى فرسي و الرمح من نشب

و أما عذرة المذكور في البيت الأول فهو عذرة بن حجيرة الخطيب الإيادي. و يدل على قدره فيهم، و على قدره في اللسن و في الخطب، قول شاعرهم:

و أي فتى صبر على الأين و الظما # إذ اعتصروا للوح ماء فظاظها (1)

إذا ضرجوها ساعة بدمائها # و حل عن الكوماء عقد شظاظها (2)

فإنك ضحاك إلى كل صاحب # و أنطق من قس غداة عكاظها

إذا شغب المولى مشاغب معشر # فعذرة فيها آخذ بكظاظها (3)

فلم يضرب هذا الشاعر الإيادي المثل لهذا الخطيب الإيادي، إلا برجل من خطباء إياد، و هو قس بن ساعدة. و لم يضرب صاحب مرثية أبي داود بن حريز الإيادي المثل إلا بخطباء إياد فقط، و لم يفتقر إلى غيرهم، حيث قال في عذرة بن حجيرة:

---

(1) اللوح: العطش. الفظاظ: جمع فظ، و هو ماء الكرش.
(2) الكوماء: الناقة العظيمة السنام. الشظاظ: العود الذي يدخل في عروة الجوالق.
(3) الكظاظ: ممارسة الشدة و ملازمتها.

كقس إياد أو لقيط بن معبد # و عذرة و المنطيق زيد بن جندب

و أول هذه المرثية قوله:

نعى ابن حريز جاهل بمصابه # فعمّ نزارا بالبكا و التحوب [1]

نعاه لنا كالليث يحمي عرينا # و كالبدر يعشي ضوؤه كل كوكب

و أصبر من عود و أهدى إذا سرى # من النجم في داج من الليل غيهب [2]

و أذرب من حد السنان لسانه # و أمضى من السيف الحسام المشطب [3]

زعيم نزار كلها و خطيبها # إذا قام طأطأ رأسه كل مشغب

سليل قروم سادة ثم قالة # يبذون يوم الجمع أهل المحصب

كقس إياد أو لقيط بن معبد # و عذرة و المنطيق زيد بن جندب

في كلمة له طويلة. و إياهم عنى الشاعر بقوله:

يرمون بالخطب الطوال و تارة # وحي الملاحظ خيفة الرقباء

قال: أخبرني محمد بن عباد بن كاسب، كاتب زهير و مولى بجيلة من سبي دابق، و كان شاعرا راوية، و طلابة للعلم علامة، قال: سمعت أبا داود ابن حريز يقول و قد جرى شيء من ذكر الخطب و تحبير الكلام و اقتضابه، و صعوبة ذلك المقام و أهواله، فقال: «تلخيص المعاني رفق. و الاستعانة بالغريب عجز، و التشادق من غير أهل البادية بغض، و النظر في عيون الناس عي، و مس اللحية هلك، و الخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب» .

قال: و سمعته يقول: «رأس الخطابة الطبع، و عمودها الدربة، و جناحاها رواية الكلام، و حليها الإعراب، و بهاؤها تخير الألفاظ. و المحبة مقرونة بقلة الاستكراه» . و أنشدني بيتا له في صفة خطباء إياد:

---

(1) التحوب: البكاء في جزع و صياح.

(2) العود، بالفتح: الجمل المسن و فيه بقية.

(3) الذرب: الحدة. الحسام: القاطع. المشطب: الذي فيه طرائق في متنه.

يرمون بالخطب الطوال و تارة # وحي الملاحظ خيفة الرقباء

فذكر المبسوط في موضعه، و المحذوف في موضعه، و الموجز، و الكناية و الوحي باللحظ و دلالة الإشارة. و أنشدني له الثقة في كلمة له معروفة:

الجود أخشن مسا يا بني مطر # من أن تبزّكموه كف مستلب

ما أعلم الناس إن الجود مدفعة # للذم لكنه يأتي على النشب

قال: ثم لم يحفل بها، فادعاها مسلم بن الوليد الأنصاري، أو ادعيت له. و كان أحد من يجيد قريض الشعر و تحبير الخطب.

و في الخطباء من يكون شاعرا و يكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفوها بينا، و ربما كان خطيبا فقط و بيّن اللسان فقط.

فمن الخطباء الشعراء، الأبيناء الحكماء: قس بن ساعدة الإيادي.

و الخطباء كثر، و الشعراء أكثر منهم، و من يجمع الشعر و الخطابة قليل.

و منهم: عمرو بن الأهتم المنقري، و هو المكحل، قالوا: كأن شعره في مجالس الملوك حلل منشورة. قيل لعمر بن الخطاب رحمه اللّه: «قيل للأوسية أي منظر أحسن؟فقالت: قصور بيض في حدائق خضر» ، فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب، بيت عدي بن زيد العبادي:

كدمى العاج في المحاريب أو كالــ # بيض في الروض زهره مستنير

قال: فقال قسامة بن زهير: «كلام عمرو بن الأهتم آنق، و شعره أحسن» . هذا، و قسامة أحد أبيناء العرب.

و من الخطباء الشعراء: البعيث المجاشعي، و اسمه خداش بن بشر بن بيبة.

و من الخطباء الشعراء: الكميت بن زيد الأسدي، و كنيته أبو المستهل.

و من الخطباء الشعراء: الطرماح بن حكيم الطائي، و كنيته أبو نفر. قال

القاسم بن معن: قال محمد بن سهل راوية الكميت: أنشدت الكميت قول الطرماح:

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت # عرى المجد و استرخى عنان القصائد

قال: فقال الكميت: أي و اللّه، و عنان الخطابة و الرواية.

قال أبو عثمان الجاحظ: و لم ير الناس أعجب حالا من الكميت و الطرماح. و كان الكميت عدنانيا عصبيا، و كان الطرماح قحطانيا عصبيا. و كان الكميت شيعيا من الغالية، و كان الطرماح خارجيا من الصفرية. و كان الكميت يتعصب لأهل الكوفة، و كان الطرماح يتعصب لأهل الشام. و بينهما مع ذلك من الخاصة و المخالطة ما لم يكن بين نفسين قط، ثم لم يجر بينهما صرم و لا جفوة و لا إعراض، و لا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه. و لم ير الناس مثلهما إلا ما ذكروا من حال عبد اللّه بن يزيد الإباضي، و هشام بن الحكم الرافضي (1) ، فإنهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة و المصاحبة.

و قد كانت الحال بين خالد بن صفوان و شبيب بن شيبة، الحال التي تدعو إلى المفارقة بعد المنافسة و المحاسدة، للذي اجتمع فيهما من اتفاق الصناعة و القرابة و المجاورة، فكان يقال: لو لا أنهما أحكم تميم لتباينا تباين الأسد و النمر. و كذلك كانت حال هشام بن الحكم الرافضي، و عبد اللّه بن يزيد الإباضي، إلا أنهما أفضلا على سائر المتضادين، بما صارا إليه من الشركة في جميع تجارتهما. و ذكر خالد بن صفوان شبيب بن شيبة فقال: «ليس له صديق في السر، و لا عدو في العلانية» ، فلم يعارضه شبيب. و تدل كلمة خالد هذه على أنه يحسن أن يسب سب الأشراف.

و من الشعراء الخطباء: عمران بن حطان، و كنيته أبو شهاب، أحد بني عمرو بن شيبان أخوة سدوس.

---

(1) هشام بن الحكم: متكلم شيعي كبير ولد في الكوفة و نشأ في واسط و انتقل إلى بغداد و اتصل بجعفر الصادق و ابنه موسى الكاظم و توفي مستترا في الكوفة سنة 199 ه

فمن بني عمرو بن شيبان مع قلتهم من الخطباء و العلماء و الشعراء عمران ابن حطان رئيس القعد من الصفرية، و صاحب فتياهم، و مفزعهم عند اختلافهم.

و منهم: دغفل بن حنظلة النسابة، الخطيب العلامة. و منهم القعقاع بن شور. و سنذكر شأنهم إذا انتهينا إلى موضع ذكرهم إن شاء اللّه.

و من الخطباء الشعراء: نصر بن سيار، أحد بني ليث بن بكر، صاحب خراسان، و هو يعد في أصحاب الولايات و الحروب، في التدبير، و في العقل و شدة الرأي.

و من الخطباء الشعراء العلماء: زيد بن جندب الإيادي، و قد ذكرنا شأنه.

و من الخطباء الشعراء: عجلان بن سحبان الباهلي، و سحبان هذا هو سحبان وائل، و هو خطيب العرب.

و من الخطباء الشعراء العلماء، و ممن قد تنافر إليه الأشراف: أعشى همدان.

و من الشعراء الخطباء: عمران بن عصام العنزي، هو الذي أشار على عبد الملك بخلع عبد العزيز أخيه، و البيعة للوليد بن عبد الملك، في خطبته المشهورة و قصيدته المذكورة. و هو الذي لما بلغ عبد الملك بن مروان قتل الحجاج له قال: و لم قتله، ويله؟أ لا رعى له قوله فيه:

و بعثت من ولد الأغر معتب # صقرا يلوذ حمامه بالعرفج

فإذا طبخت بناره أنضجتها # و إذا طبخت بغيرها لم تنضج

و هو الهزبر إذا أراد فريسة # لم ينجها منه صياح مهجهج [1]

و من خطباء الأمصار و شعرائهم و المولدين منهم: بشار الأعمى، و هو

(1) هجهج بالسبع: صاح به و زجره.

بشار بن برد، و كنيته أبو معاذ، و كان من أحد موالي بني عقيل. فإن كان مولى أم الظباء على ما يقول بنو سدوس، و على ما ذكره حماد عجرد، فهو من موالي بني سدوس. و يقال إنه من أهل خراسان نازلا في بني عقيل. و له مديح كثير في فرسان أهل خراسان و رجالاتهم. و هو الذي يقول:

من خراسان و بيتي في الذرى # و لدى المسعاة فرعي قد بسق

و قال:

و إني لمن قوم خراسان دارهم # كرام و فرعي فيهم ناضر بسق

و كان شاعرا راجزا، و سجاعا خطيبا، و صاحب منثور و مزدوج. و له رسائل معروفة.

و أنشد عقبة بن رؤبة، عقبة بن سلم، رجزا يمتدحه به، و بشار حاضر، فأظهر بشار استحسان الأرجوزة، فقال له عقبة بن رؤبة هذا طراز يا أبا معاذ لا تحسنه. فقال بشار: أ لمثلي يقال هذا الكلام؟أنا و اللّه أرجز منك و من أبيك و من جدك. ثم غدا على عقبة بن سلم بأرجوزته التي أولها:

يا طلل الحيّ بذات الصمد # باللّه خبّر كيف كنت بعدي

و فيها يقول:

اسلم و حييت أبا الملد # للّه أيامك في معدّ

و فيها يقول:

الحر يلحى و العصا للعبد # و ليس للملحف مثل الرد

و فيها يقول:

و صاحب كالدمل الممد # حملته في رقعة من جلدي

و ما درى ما رغبتي من زهدي

أي لم أره زهدا فيه و لا رغبة. ذهب إلى قول الأغر الشاعر:

لقد كنت في قوم عليك أشحة # بنفسك، لو لا أن من طاح طائح

يودون لو خاطوا عليك جلودهم # و هل يدفع الموت النفوس الشحائح

و المطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي، و السيد الحميري، و أبو العتاهية، و ابن أبي عيينة. و قد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل و سلما الخاسر، و خلف بن خليفة (1) . و أبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء، و بشار أطبعهم كلهم.

و من الخطباء الشعراء و من يؤلف الكلام الجيد، و يصنع المناقلات الحسان و يؤلف الشعر و القصائد الشريفة، مع بيان عجيب و رواية كثيرة، و حسن دل و إشارة: عيسى بن يزيد بن دأب، أحد بني ليث بن بكر، و كنيته أبو الوليد.

و من الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة و الشعر الجيد و الرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتابي، و كنيته أبو عمرو، و على ألفاظه و حذوه و مثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري، و مسلم بن الوليد الأنصاري و أشباههما.

و كان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع. و لم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار، و ابن هرمة.

و العتابي من ولد عمرو بن كلثوم، و لذلك قال:

إني امرؤ هدم الإقتار مأثرتي # و اجتاح ما بنت الأيام من خطري

أيام عمرو بن كلثوم يسوّده # حيا ربيعة و الأفناء من مضر

أرومة عطلتني من مكارمها # كالقوس عطلها الرامي من الوتر

---

(1) من شعراء الحماسة، و كان يقال له «الأقطع» لأنه قطعت يده في سرقة، فاستعاض عنها بأصابع من جلود، و كان من معاصري جرير و الفرزدق.

و دل في هذه القصيدة على أنه كان قصيرا بقوله:

نهى ظراف الغواني عن مواصلتي # ما يفجأ العين من شيبي و من قصري

و من الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر و الخطب، و الرسائل الطوال و القصار، و الكتب الكبار المخلدة، و السير الحسان المدونة، و الأخبار المولدة: سهل بن هارون بن راهيوني (1) الكاتب، صاحب كتاب ثعلة و عفرة، في معارضة كتاب كليلة و دمنة، و كتاب الإخوان و كتاب المسائل، و كتاب المخزومي و الهذلية، و غير ذلك من الكتب.

و من الخطباء الشعراء علي بن إبراهيم بن جبلة بن مخرمة، و يكنى أبا الحسن و سنذكر كلام قس بن ساعدة و شأن لقيط بن معبد، و هند بنت الخس، و جمعة بنت حابس، و خطباء إياد، إذا صرنا إلى ذكر خطباء القبائل إن شاء.

اللّه.

و لإياد و تميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله هو الذي روى كلام قس بن ساعدة و موقفه على جمله بعكاظ و موعظته، و هو الذي رواه لقريش و العرب، و هو الذي عجب من حسنه و أظهر من تصويبه. و هذا إسناد تعجز عنه الأماني و تنقطع دونه الآمال. و إنما وفق اللّه ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، و لإظهاره معنى الإخلاص و إيمانه بالبعث. و لذلك كان خطيب العرب قاطبة.

و كذلك ليس لأحد في ذلك مثل الذي لبني تميم، لأن النبي عليه السلام لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر (2) قال: «مانع لحوزته، مطاع في أدنيه» . فقال الزبرقان: «أما إنه قد علم أكثر مما قال، و لكنه حسدني شرفي» . فقال عمرو: «أما لئن قال ما قال فو اللّه ما علمته إلا ضيق الصدر،

---

(1) سهل بن هارون: أديب فارسي الأصل شعوبي المذهب اتصل بالمأمون و عمل في بيت الحكمة. و قد نسب إليه الجاحظ رسالة في مدح البخل ضمنها كتابه «البخلاء» .

(2) عمرو بن الأهتم و الزبرقان بن بدر من سادات تميم وفدا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و كلماه من وراء الحجرات. عرفا باللسن و البلاغة و الخطابة و الشعر.

زمر المروءة لئيم الخال، حديث الغنى» ، فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، و رأى الإنكار في عيني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: «يا رسول اللّه، رضيت فقلت أحسن ما علمت، و غضبت فقلت أقبح ما علمت، و ما كذبت في الأولى و لقد صدقت في الآخرة» . فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله عند ذلك: «إن من البيان لسحرا» .

فهاتان الخصلتان خصت بهما إياد و تميم، دون جميع القبائل.

و دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان، فأشار له إلى الوساد فقال له: اجلس. فجلس على الأرض، فقال له معاوية: و ما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد؟فقال يا أمير المؤمنين، إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال: «لا تغش السلطان حتى يملك، و لا تقطعه حتى ينساك، و لا تجلس له على فراش و لا وساد، و اجعل بينك و بينه مجلس رجل أو رجلين، فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له، فيكون قيامك زيادة له، و نقصانا عليك» . حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين، لعله إن يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني، فقال معاوية:

«لقد أوتيت تميم الحكمة، مع رقة حواشي الكلم» . و أنشأ يقول:

يا أيها السائل عما مضى # و علم هذا الزمن العائب

إن كنت تبغي العلم أو أهله # أو شاهدا يخبر عن غائب

فاعتبر الأرض بسكانها # و اعتبر الصاحب بالصاحب

و ذهب الشاعر في مرثية أبي دؤاد في قوله:

و أصبر من عود و أهدى إذا سرى # من النجم في داج من الليل غيهب

إلى شبيه بقول جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب، حين وقف على قبر عامر بن الطفيل فقال: «كان و اللّه لا يضل حتى يضل النجم، و لا

يعطش حتى يعطش البعير، و لا يهاب حتى يهاب السيل، و كان و اللّه خير ما يكون حين لا تظن نفس بنفس خيرا» .

و كان زيد بن جندب أشغى أفلح (1) و لو لا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة.

و قال عبيدة بن هلال اليشكري في هجائه له:

أشغى عقبناة و ناب ذو عصل (2) # و فلح باد و سن قد نصل

و قال عبيدة أيضا فيه:

و لفوك أشنع حين تنطق فاغرا # من في قريح قد أصاب بريرا (3)

و قد قال الكميت:

تشبه في الهام آثارها # مشافر قرحى أكلن البريرا

و قال النمر بن تولب في شنعة أشداق الجمل:

كم ضربة لك تحكي فاقراسية # من المصاعب في أشداقه شنع (4)

القراسية: بعير أضجم (5) . و الضجم اعوجاج في الفم، و الفقم مثله.

و الروق: ركوب السن الشفة.

و في الخطباء من كان أشغى، و من كان أشدق، و من كان أروق، و من كان أضجم، و من كان أفقم. و في كل ذلك قد روينا الشاهد و المثل.

---

(1) الشغا: اختلاف نبتة الأسنان بالطول و القصر، و الدخول و الخروج. و الفلح: شق في الشفة العليا، فإذا كان في العليا فهو علم.

(2) العقبناة: العقاب الحديدة المخالب. و العصل: الالتواء.

(3) القريح: المصاب بالقرحة، فيهدل لذلك مشفره. و البرير: الأول من ثمر الأراك.

(4) المصاعب: جمع مصعب، و هو الفحل.

(5) أضجم: البعير المعوج الفم.

و روى الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي، عن عبد الملك بن عمير، قال: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة، مع المصعب بن الزبير، فما رأيت خصلة تذم في رجل إلا و قد رأيتها فيه: كان صعل الرأس أحجن الأنف، أغضف الأذن (1) ، متراكب الأسنان، أشدق، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، باخق العين (2) ، خفيف العارضين، أحنف الرجلين، و لكنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه.

و لو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضا لمنعه. و لو لا أنه لم يجد بدا من أن يجعل له شيئا على حال لما أقر بأنه إذا تكلم جلى عن نفسه.

و قوله في كلمته هذه كقول هند بنت عتبة، حين أتاها نعي يزيد بن أبي سفيان، فقال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون معاوية خلف من يزيد، فقالت هند: «و مثل معاوية لا يكون خلفا من أحد، فو اللّه إن لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها، لخرج من أي أعراضها شاء» . و لكنا نقول:

المثل الأحنف يقال: «إلا أنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه» ؟ ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات. قال ابن الأعرابي: طلق أبو رمادة امرأته حين وجدها لثغاء، و خاف أن تجيئه بولد ألثغ، فقال:

لثغاء تأتي بحيفس ألثغ # تميس في الموشيّ و المصبّغ

الحيفس: الولد القصير الصغير.

و أنشدني ابن الأعرابي كلمة جامعة لكثير من هذه المعاني، و هي قول الشاعر:

اسكت و لا تنطق فأنت حبحاب (3) # كلّك ذو عيب و أنت عياب

(1) صعل الرأس: دقيقه. أحجن: مقبل الروثة نحو الفم. أغضف: مسترخ.
(2) البخق: أن تخسف العين بعد العور.
(3) الحبحاب: الصغير الجسم المتداخل العظام.

إن صدق القوم فأنت كذاب # أو نطق القوم فأنت هياب

أو سكت القوم فأنت قبقاب [1] # أو أقدموا يوما فأنت وجاب [2]

و أنشدني في هذا المعنى أيضا:

و لست بدميجة في الفرا # ش وجابة يحتمي أن يجيبا

و لا ذي قلازم عند الحياض # إذا ما الشريب أراب الشريبا

الدميجة: الثقيل عن الحركة. و القلازم: كثرة الصياح. و أنشدني:

رب غريب ناصح الجيب # و ابن أب متهم الغيب

و رب عياب له منظر # مشتمل الثوب على العيب

و أنشدني أيضا:

و أجرأ من رأيت بظهر غيب # على عيب الرجال ذوو العيوب.

أثر الأسنان في البيان

و قال سهل بن هارون: «لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، و تكميل آلة البيان، لما نزع ثناياه» .

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه في سهيل بن عمرو الخطيب: «يا رسول اللّه، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا.

و إنما قال ذلك لأن سهيلا كان أعلم من شفته السفلى.

و قال خلاد بن يزيد الأرقط: خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام، و كان في كلامه صفير يخرج في موضع ثناياه المنزوعة، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه، إلا أنه فضله بحسن المخرج

---

(1) قبقاب: كثير الكلام.

(2) الوجاب: الجبان الفرق.

و السلامة من الصفير، فذكر عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر، سلامة لفظ زيد لسلامة أسنانه، فقال في كلمة له:

قلت قوادحها و تمّ عديدها # فله بذاك مزية لا تنكر

و يروى: «صحت مخارجها و تم حروفها» . المزية: الفضيلة.

و زعم يحيى بن نجيم بن معاوية بن زمعة، أحد رواة أهل البصرة.

قال: قال يونس بن حبيب، في تأويل قول الأحنف بن قيس:

أنا ابن الزافرية أرضعتني # بثدي لا أجد و لا وخيم

أتمتني فلم تنقص عظامي # و لا صوتي إذا جد الخصوم

قال: إنما عنى بقوله عظامي أسنانه التي في فمه، و هي التي إذا تمت تمت الحروف، و إذا نقصت نقصت الحروف.

و قال يونس: و كيف يقول مثله: «أتمتني فلم تنقص عظامي» و هو يريد بالعظام عظام اليدين و الرجلين و هو أحنف من رجليه جميعا. مع قول الحتات له: «و اللّه إنك لضئيل، و إن أمك لورهاء» . و كان أعرف بمواقع العيوب و أبصر بدقيقها و جليلها. و كيف يقول ذلك و هو نصب عيون الأعداء و الشعراء و الأكفاء، و هو أنف مضر الذي تعطس عنه، و أبين العرب و العجم قاطبة.

قالوا: و لم يتكلم معاوية على منبر جماعة منذ سقطت ثناياه في الطست.

قال أبو الحسن و غيره: لما شق على معاوية سقوط مقادم فيه قال له يزيد ابن معن السلمي: «و اللّه ما بلغ أحد سنك إلا أبغض بعضه بعضا، ففوك أهون علينا من سمعك و بصرك» . فطابت نفسه.

قال: و سألت مباركا الزنجي الفاشكار (1) ، و لا أعلم زنجيا بلغ في

(1) الفاشكار: الفلاح. الفشكرة: الفلاحة.

الفشكرة مبلغه، فقلت له: لم تنزع الزنج ثناياها؟و لم يحدد ناس منهم أسنانهم؟فقال: أما أصحاب التحديد فللقتال و النهش، و لأنهم يأكلون لحوم الناس، و متى حارب ملك ملكا فأخذه أسيرا أو قتيلا أكله، و كذلك إذا قاتل بعضهم بعضا أكل الغالب منهم المغلوب. و أما أصحاب القلع فإنهم قالوا:

نظرنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهنا أن تشبه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم، فكم تظنهم- أكرمك اللّه-فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا.

و في هذا كلام يقع في كتاب الحيوان:

و قال أبو الهندي في اللثغ:

سقيت أبا المطرّح إذ أتاني # و ذو الرعثات منتصب يصيح

شرابا تهرب الذبان منه # و يلثغ حين يشربه الفصيح

و قال محمد بن عمرو الرومي، مولى أمير المؤمنين: قد صحت التجربة و قامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف، منه إذا سقط أكثرها، و خالف أحد شطريها الشطر الآخر.

و قد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقطت جميع أسنانهم، و بعد أن بقي منها الثلث أو الربع.

فمن سقطت جميع أسنانه و كان معنى كلامه مفهوما: الوليد بن هشام القحذمي صاحب الأخبار. و منهم أبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبي، و كان ذا بيان و لسن.

و كان عبيد اللّه بن أبي غسان ظريفا يصرف لسانه كيف شاء، و كان الإلحاح على القيء قد برد أسنانه، حتى لا يرى أحد منها شيئا إلا أن تطلع في لحم اللثة، أو في أصول منابت الأسنان.

و كان سفيان بن الأبرد الكلبي كثيرا ما يجمع بين الحار و القار، فتساقطت أسنانه جمع، و كان في ذلك كله خطيبا بينا.

و قال أهل التجربة: إذا كان في اللحم الذي فيه مغارز الأسنان تشمير و قصر سمك (1) ذهبت الحروف و فسد البيان. و إذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئا يفرعه و يصكه، و لم يمر في هواء واسع المجال، و كان لسانه يملأ جوبة فمه، لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفر، و الجزء المحتمل. و يؤكد ذلك قول صاحب المنطق (2) ، فإنه زعم في كتاب الحيوان أن الطائر و السبع و البهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح و أبين، و أحكى لما يلقن و لما يسمع، كنحو الببغاء و الغداف و غراب البين، و ما أشبه ذلك، و كالذي يتهيأ من أفواه السنانير إذا تجاوبت، من الحروف المقطعة المشاركة لمخارج حروف الناس. و أما الغنم فليس يمكنها أن تقول إلا «ما» . و الميم و الباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال، كقولهم: ماما، و بابا، لأنهما خارجان من عمل اللسان، و إنما يظهران بالتقاء الشفتين. و ليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص و العجز من فم الأهتم، من الفاء و السين إذا كانا في وسط الكلمة فأما الضاد فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن، إلا أن يكون المتكلم أعسر يسرا، مثل عمر بن الخطاب رحمه اللّه، فإنه كان يخرج الضاد من أي شدقيه شاء. فأما الأيمن و الأعسر و الأضبط، فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد.

و كذلك الأنفاس مقسومة على المنخرين، فحالا يكون في الاسترواح و دفع البخار من الجوف من الشق الأيمن، و حالا يكون من الشق الأيسر، و لا يجتمعان على ذلك في وقت إلا أن يستكره ذلك مستكره، أو يتكلفه متكلف، فأما إذا ترك أنفاسه على سجيتها لم تكن إلا كما قالوا.

و قالوا: الدليل على أن من سقط جميع أسنانه أن عظم اللسان نافع له، قول كعب بن جعيل ليزيد بن معاوية، حين أمره بهجاء الأنصار، فقال له:

---

(1) التشمير: التقليص. و السمك، بالفتح: الارتفاع.

(2) صاحب المنطق يعني به الفيلسوف اليوناني أرسطو و قد لقب بصاحب المنطق لأنه هو الذي أرسى أصول هذا العلم و وضع فيه كتابا ضخما ذكره الجاحظ في الحيوان و قال إنه عسير الفهم. أما كتاب الحيوان لأرسطو فقد اطلع عليه الجاحظ و رجع إليه كثيرا عند ما ألف كتاب الحيوان.

«أ رادي أنت إلى الكفر بعد الإيمان، لا أهجو قوما نصروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و آووه، و لكني سأدلك على غلام في الحي، كافر كأن لسانه لسان ثور» . يعني الأخطل.

و جاء في الحديث: «إن اللّه تبارك و تعالى يبغض الرجل الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة الخلا بلسانها» .

قالوا: و يدل على ذلك قول حسان بن ثابت، حين قال له النبي عليه السلام: «ما بقي من لسانك؟» . فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أرنبته، ثم قال: «و اللّه إن لو وضعته على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، و ما يسرني به مقول من معد» .

و أبو السمط مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة، و أبوه و ابنه في نسق واحد، يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف أنفهم.

و تقول الهند: لو لا أن الفيل مقلوب اللسان لكان أنطق من كل طائر يتهيأ في لسانه كثير من الحروف المقطعة المعروفة.

و قد ضرب الذين زعموا أن ذهاب جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف من ذهاب الشطر أو الثلثين، في ذلك مثلا، فقالوا: الحمام المقصوص جناحاه جميعا أجدر أن يطير من الذي يكون جناحاه أحدهما وافرا و الآخر مقصوصا. قالوا: و علة ذلك التعديل و الاستواء، و إذا لم يكن ذلك كذلك ارتفع أحد شقيه و انخفض الآخر، فلم يجذف و لم يطر.

و القطا من الطير قد يتهيأ من أفواهها أن تقول: قطاقطا. و بذلك سميت و يتهيأ من أفواه الكلاب العينات و الفاءات و الواوات، كنحو قولها: وو وو، و كنحو قولها: عف عف.

قال الهيثم بن عدي: قيل لصبي: من أبوك؟فقال: وو وو، لأن أباه كان يسمى كلبا.

قال: و لكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين، و استعمال الجرامقة للعين (1) .

و قال الأصمعي: ليس للروم ضاد، و لا للفرس ثاء، و لا للسرياني ذال.

تنافر الألفاظ و الحروف

قال: و من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، و إن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر:

و قبر حرب بمكان قفر # و ليس قرب قبر حرب قبر

و لما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتعتع و لا يتلجلج، و قيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن، صدقوا بذلك.

و من ذلك قول ابن يسير في أحمد بن يوسف حين استبطأه:

هل معين على البكا و العويل # أم معز على المصاب الجليل

ميّت مات و هو في ورق العيش # مقيم به و ظل ظليل (2)

في عداد الموتى و في عامري الدن # يا أبو جعفر أخي و خليلي

لم يمت ميتة الوفاة و لكن # مات عن كل صالح و جميل

لا أذيل الآمال بعدك إني # بعدها بالآمال حق بخيل

كم لها وقفة بباب كريم # رجعت من نداه بالتعطيل (3)

ثم قال:

لم يضرها، و الحمد للّه، شيء # و انثنت نحو عزف نفس ذهول

---

(1) الجرامقة: طائفة من الكلدانيين، أي السريانيين.
(2) ورق العيش: نضرته و حداثته.
(3) التعطيل: الاخلاء و ترك الشيء ضياعا.

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض.

و أنشدني أبو العاصي قال: أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى:

و بعض قيض القوم أولاد علة # يكد لسان الناطق المتحفظ [1]

و قال أبو العاصي: و أنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي:

و شعر كبعر الكبش فرق بينه # لسان دعي في القريض دخيل

أما قول خلف:

و بعض قريض القوم أولاد علة

فإنه يقول: إذا كان الشعر مستكرها، و كانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. و إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مئونة.

قال: و أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ واحدا، و سبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.

و أما قوله «كبعر الكبش» ، فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف و لا متجاور. و كذلك حروف الكلام و أجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملسا و لينة المعاطف سهلة، و تراها مختلفة متباينة، و متنافرة مستكرهة، تشق على اللسان و تكده، و الأخرى تراها سهلة لينة، و رطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، و حتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد.

---

(1) أولاد علة: بنو رجل واحد من أمهات شتى.

و قال سحيم بن حفص: قالت بنت الحطيئة للحطيئة: «تركت قوما كراما و نزلت في بني كليب بعر الكبش» . فعاتبهم بتفرق بيوتهم.

فقيل لهم: فأنشدونا بعض ما لا تتباين ألفاظه، و لا تتنافر أجزاؤه.

فقالوا: قال الثقفي:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته # إن الدليل الذي ليست له عضد

تنبو يداه إذا ما قل ناصره # و يأنف الضيم إن أثرى له عدد

رمتني و ستر اللّه بيني و بينها # عشية آرام الكناس رميم [1]

رميم التي قالت لجارات بيتها # ضمنت لكم ألا يزال يهيم

ألا رب يوم لو رمتني رميتها # و لكن عهدي بالنضال قديم

و أنشدوا:

و لست بدميجة في الفرا # ش وجّابة يحتمي أن يجيبا

و لا ذي قلازم عند الحياض # إذا ما الشريب أراب الشريبا

و قال أبو نوفل بن سالم لرؤبة بن العجاج: يا أبا الجحاف، مت إذا شئت. قال: و كيف ذلك؟قال: رأيت عقبة بن رؤبة ينشد رجزا أعجبني.

قال: إنه يقول، لو كان لقوله قران!و قال الشاعر:

مهاذبة مناجبة قران # منادبة كأنهم الأسود

و أنشد ابن الأعرابي:

و بات يدرس شعرا لا قران له # قد كان نقّحه حولا فما زادا

و قال الآخر، بشار:

فهذا بديه لا كتحبير قائل # إذا ما أراد القول زوره شهرا

(1) ستر اللّه: الاسلام أو الشيب. آرام الكنائس: و هو اسم موضع. رميم: اسم خليلته.

فهذا في اقتران الألفاظ. فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء و لا القاف و لا الطاء و لا الغين، بتقديم و لا بتأخير. و الزاي لا تقارن الظاء و لا السين و لا الضاد و لا الذال، بتقديم و لا بتأخير. و هذا باب كبير. و قد يكتفي بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري.

اللكنة

و قد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة، و يكون لفظه متخيرا فاخرا، و معناه شريفا كريما، و يعلم مع ذلك السامع لكلامه و مخارج حروفه أنه نبطي. و كذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة، فإنك تعلم مع إعرابه و تخير ألفاظه في مخرج كلامه، إنه خراساني. و كذلك إن كان من كتاب الأهواز.

و مع هذا إنا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم، لا يغادر من ذلك شيئا. و كذلك تكون حكايته للخراساني و الأهوازي و الزنجي و السندي و الأجناس و غير ذلك. نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، فإذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جمعت كل طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد. و تجده يحكي الأعمى بصور ينشئها لوجهه و عينيه و أعضائه، لا تكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله، فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في أعمى واحد.

و لقد كان أبو دبوبة الزنجي، مولى آل زياد، يقف بباب الكرخ، بحضرة المكارين (1) ، فينهق، فلا يبقى حمار مريض و لا هرم حسير، و لا متعب بهير إلا نهق. و قبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة، فلا تنبعث لذلك، و لا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبوبة يحركه. و قد كان جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد. و كذلك كان في نباح الكلاب. و لذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل

(1) المكارين: جمع مكار، و هو من يكريك دابته تنتفع بها بالكراء.

العالم الكبير، لأنه يصور بيديه كل صورة، و يحكي بفمه كل حكاية، و لأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم، و يأكل الحيوان كما تأكل السباع و إن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا.

و إنما تهيأ و أمكن الحاكية لجميع مخارج الأمم، لما أعطى اللّه الإنسان من الاستطاعة و التمكين، و حين فضله على جمع الحيوان بالمنطق و العقل و الاستطاعة. بطول استعمال التكلف ذلت جوارحه لذلك. و متى ترك شمائله على حالها، و لسانه على سجيته، كان مقصورا بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه. و هذه القضية مقصورة على هذه الجملة من مخارج الألفاظ، و صور الحركات و السكون. فأما حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكنت في الألسنة خلاف هذا الحكم. أ لا ترى أن السندي إذا جلب كبيرا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا و لو أقام في عليا تميم، و في سفلى قيس، و بين عجز هوازن، خمسين عاما. و كذلك النبطي القح، خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط، لأن النبطي القح يجعل الزاي سينا، فإذا أراد أن يقول زورق قال سورق، و يجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مشمعل، قال مشمئل.

و النخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية و أهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول ناعمة، و تقول شمس، ثلاث مرات متواليات.

و الذي يعتري اللسان مما يمنع من البيان أمور: منها اللثغة التي تعتري الصبيان إلى أن ينشئوا، و هو خلاف ما يعتري الشيخ الهرم الماج (1) ، المسترخي الحنك، المرتفع اللثة، و خلاف ما يعتري أصحاب اللكن من العجم، و من ينشأ من العرب مع العجم، فمن اللكن ممن كان خطيبا، أو شاعرا، أو كاتبا داهيا زياد بن سلمى أبو أمامة، و هو زياد الأعجم. قال أبو عبيدة: كان ينشد قوله:

فتى زاده السلطان في الود رفعة # إذا غير السلطان كل خليل

(1) الماج: الهرم الذي يمج ريقه و لا يستطيع حبسه.

قال: فكان يجعل السين شيئا و الطاء تاء، فيقول: «فتى زاده الشلتان» .

و منهم سحيم عبد بني الحسحاس، قال له عمر بن الخطاب رحمه اللّه و أنشد قصيدته التي يقول أولها:

عميرة ودع إن تجهزت غاديا # كفى الشيب و الإسلام للمرء ناهيا

فقال له عمر: لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك. فقال له: ما سعرت. يريد ما شعرت، جعل الشين المعجمة سينا غير معجمة.

و منهم عبيد اللّه بن زياد والي العراق، قال لهانئ بن قبيصة: أهرري سائر اليوم!يريد أ حروري.

و منهم صهيب بن سنان النمري، صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله كان يقول: إنك لهائن، يريد إنك لخائن. و صهيب بن سنان يرتضخ لكنة رومية، و عبيد اللّه بن زياد يرتضخ لكنة فارسية، و قد اجتمعا على جعل الحاء هاء.

و ازدانقاذار لكنته لكنة نبطية، و كان مثلهما في جعل الحاء هاء. و بعضهم يروي أنه أملى على كاتب له فقال: اكتب: «الهاصل ألف كر (1) » فكتبها الكاتب بالهاء كاللفظ بها فأعاد عليه الكلام، فأعاد الكاتب. فلما فطن لاجتماعهما على الجهل قال: أنت لا تهسن أن تكتب، و أنا لا أهسن أن أملي، فاكتب: «الجاصل ألف كر» : فكتبها بالجيم معجمة.

و منهم أبو مسلم صاحب الدعوة، و كان حسن الألفاظ جيد المعاني، و كان إذا أراد أن يقول: قلت لك، قال: كلت لك. فشارك في تحويل القاف كافا عبيد اللّه بن زياد. كذلك خبرنا أبو عبيدة.

قال: و إنما أتي عبيد اللّه بن زياد في ذلك أنه نشأ في الأساورة عند شيرويه الاسواري، زوج أمه مرجانة.

---

(1) الكر، بالضم مكيال لأهل العراق ستون قفيزا.

و قد كان في آل زياد غير واحد يسمى شيرويه. قال: و في دار شيرويه عاد علي بن أبي طالب زيادا من علة كانت به.

فهذا ما حضرنا من لكنة البلغاء و الخطباء و الشعراء و الرؤساء. فأما لكنة العامة و من لم يكن له حظ في المنطق فمثل فيل مولى زياد فإنه قال مرة لزياد «اهدوا لنا همار وهش» . يريد حمار وحش. فقال زياد: ما تقول ويلك! قال: «أهدوا إلينا أيرا» . يريد عيرا. فقال زياد: الأول أهون!و فهم ما أراد.

و قالت أم ولد لجرير بن الخطفي، لبعض ولدها: «وقع الجردان في عجان أمكم» (1) ، فأبدلت الذال من الجرذان دالا و ضمت الجيم، و جعلت العجين عجانا. و قال بعض الشعراء في أم ولد له، يذكر لكنتها:

أول ما أسمع منها في السحر # تذكيرها الأنثى و تأنيث الذكر

و السوءة السوآء في ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر، قالت: الكمر.

و قال ابن عباد: ركبت عجوز سندية جملا، فلما مضى تحتها متخلعا اعتراها كهيئة حركة الجماع، فقالت: هذا الذمل يذكرنا بالسر. تريد أنه يذكرها بالوطء، فقلبت السين شينا و الجيم ذالا. و هذا كثير.

و باب آخر من اللكنة. قيل لنبطي: لم ابتعت هذه الأتان؟قال:

«أركبها و تلد لي» فجاء بالمعنى بعينه و لم يبدل الحروف بغيرها، و لا زاد فيها و لا نقص، و لكنه فتح المكسور حين قال و تلد لي، و لم يقل تلد لي.

قال: و الصقلبي يجعل الذال المعجمة دالا في الحروف.

---

(1) الجردان، بالضم: قضيب ذوات الحوافر، أو هي عام. و العجان ما بين السوأتين.

باب البيان

حد البيان

قال بعض جهابذة الألفاظ و نقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، و المتخلجة في نفوسهم، و المتصلة بخواطرهم، و الحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، و بعيدة وحشية، و محجوبة مكنونة، و موجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، و لا حاجة أخيه و خليطه، و لا معنى شريكه و المعاون له على أموره، و على ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. و إنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، و أخبارهم عنها، و استعمالهم إياها. و هذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، و تجليها للعقل، و تجعل الخفي منها ظاهرا، و الغائب شاهدا، و البعيد قريبا. و هي التي تلخص الملتبس، و تحل المنعقد، و تجعل المهمل مقيدا، و المقيد مطلقا، و المجهول معروفا، و الوحشي مجلوفا، و الغفل موسوما، و الموسوم معلوما.

و على قدر وضوح الدلالة و صواب الإشارة، و حسن الاختصار، و دقة المدخل، يكون إظهار المعنى. و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح، و كانت الإشارة أبين

و أنور، كان أنفع و أنجع. و الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت اللّه عز و جل يمدحه، و يدعو إليه و يحث عليه. بذلك نطق القرآن، و بذلك تفاخرت العرب، و تفاضلت أصناف العجم.

و البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، و هتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، و من أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر و الغاية التي يجري القائل و السامع، إنما هو الفهم و الأفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعلم–حفظك اللّه–أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، و ممتدة إلى غير نهاية، و أسماء المعاني مقصورة معدودة، و محصلة محدودة.

أدوات البيان الخمس

و جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. و النصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، و لا تقصر عن تلك الدلالات، و لكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، و حلية مخالفة لحلية أختها، و هي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، و عن أجناسها و أقدارها، و عن خاصها و عامها، و عن طبقاتها في السار و الضار، و عما يكون منها لغوا بهرجا، و ساقطا مطرحا.

قال أبو عثمان: و كان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، و لكنا أخّرناه لبعض التدبير.

و قالوا: البيان بصر و العي عمى، كما أن العلم بصر و الجهل عمى.

و البيان من نتاج العلم، و العي من نتاج الجهل.

و قال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، و العلم رائد العقل، و البيان ترجمان العلم.

و قال صاحب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق المبين.

و قالوا: حياة المروءة الصدق، و حياة الروح العفاف، و حياة الحلم العلم، و حياة العلم البيان.

و قال يونس بن حبيب: ليس لعيي مروءة، و لا لمنقوص البيان بهاء، و لو حك بيافوخه أعنان السماء.

و قالوا: شعر الرجل قطعة من كلامه، و ظنه قطعة من علمه، و اختياره قطعة من عقله.

و قال ابن التوأم: الروح عماد البدن، و العلم عماد الروح، و البيان عماد العلم.

قد قلنا في الدلالة باللفظ. فأما الإشارة فباليد، و بالرأس، و بالعين و الحاجب و المنكب، إذا تباعد الشخصان، و بالثوب و بالسيف. و قد يتهدد رافع السيف و السوط، فيكون ذلك زاجرا، و مانعا رادعا، و يكون وعيدا و تحذيرا.

و الإشارة و اللفظ شريكان، و نعم العون هي له، و نعم الترجمان هي عنه. و ما أكثر ما تنوب عن اللفظ، و ما تغني عن الخط. و بعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، و حلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها و دلالاتها. و في الإشارة بالطرف و الحاجب و غير ذلك من الجوارح، مرفق كبير و معونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، و يخفونها من الجليس و غير الجليس. و لو لا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، و لجهلوا هذا الباب البتة. و لو لا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. و قد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها # إشارة مذعور و لم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا # و أهلا و سهلا بالحبيب المتيم

و قال الآخر:

و للقلب على القلب # دليل حين يلقاه

و في الناس من الناس # مقاييس و أشباه

و في العين غنى للمر # ء أن تنطق أفواه

و قال الآخر في هذا المعنى:

و معشر صيد ذوي تجلّه # ترى عليهم للندى أدلّه

و قال الآخر:

ترى عينها عيني فتعرف وحيها # و تعرف عيني ما به الوحي يرجع

و قال آخر:

و عين الفتى تبدي الذي في ضميره # و تعرف بالنجوى الحديث المعمسا

و قال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها # من المحبة أو بغض إذا كانا

و العين تنطق و الأفواه صامته # حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

هذا و مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت.

و الصوت هو آلة اللفظ، و الجوهر الذي يقوم به التقطيع، و به يوجد التأليف. و لن تكون حركات اللسان لفظا و لا كلاما موزونا و لا منثورا إلا بظهور الصوت، و لا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع و التأليف. و حسن الإشارة باليد و الرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل و الشكل (1) و التقتل و التثني (2) ، و استدعاء الشهوة، و غير ذلك من الأمور.

(1) الشكل، دل المرأة و غنجها و غزلها.

(2) التقتل: الاختيال.

قد قلنا في الدلالة بالإشارة. فأما الخط، فمما ذكر اللّه عز و جل في كتابه من فضيلة الخط و الإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه عليه السلام: **اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ اَلْأَكْرَمُ. `اَلَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. `عَلَّمَ اَلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** . و أقسم به في كتابه المنزل، على نبيه المرسل، حيث قال: **ن. وَ اَلْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ** ، و لذلك قالوا: القلم أحد اللسانين. كما قالوا: قلة العيال أحد اليسارين.

و قالوا: القلم أبقى أثرا، و اللسان أكثر هذرا.

و قال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام.

و قالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، و القلم مطلق في الشاهد و الغائب، و هو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن.

و الكتاب يقرأ بكل مكان، و يدرس في كل زمان، و اللسان لا يعدو سامعه، و لا يتجاوزه إلى غيره.

و أما القول في العقد، و هو الحساب دون اللفظ و الخط، فالدليل على فضيلته، و عظم قدر الانتفاع به قول اللّه عز و جل: **فَالِقُ اَلْإِصْبَاحِ وَ جَعَلَ اَللَّيْلَ سَكَناً وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ اَلْعَزِيزِ اَلْعَلِيمِ** . و قال جل و تقدس: **اَلرَّحْمَنُ `عَلَّمَ اَلْقُرْآنَ. `خَلَقَ اَلْإِنْسَانَ `عَلَّمَهُ اَلْبَيَانَ. `اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** . و قال جل و عز: **هُوَ اَلَّذِي جَعَلَ اَلشَّمْسَ ضِيَاءً وَ اَلْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِينَ وَ اَلْحِسَابَ مَا خَلَقَ اَللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ** . و قال:

وَ جَعَلْنَا اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اَللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ اَلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِينَ وَ اَلْحِسَابَ .

و الحساب يشتمل على معان كثيرة و منافع جليلة، و لو لا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن اللّه عز و جل معنى الحساب في الآخرة. و في عدم اللفظ و فساد الخط و الجهل بالعقد فساد جل النعم، و فقدان جمهور المنافع، و اختلال كل ما جعله اللّه عز و جل لنا قواما، و مصلحة و نظاما.

و أما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، و المشيرة بغير اليد. و ذلك ظاهر في خلق السموات و الأرض، و في كل صامت و ناطق، و جامد و نام، و مقيم و ظاعن، و زائد و ناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، و العجماء معربة من جهة البرهان. و لذلك قال الأول:

«سل الأرض فقل: من شق أنهارك، و غرس أشجارك، و جنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا» .

و قال بعض الخطباء: «أشهد أن السموات و الأرض آيات و آلات و شواهد قائمات، كل يؤدي عنك الحجة و يشهد لك بالربوبية موسومة بآثار قدرتك، و معالم تدبيرك، التي تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر، و رجم الظنون. فهي على اعترافها لك، و افتقارها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات و لا تحدك الأوهام، و إن حظ الفكر فيك، الاعتراف لك» .

و قال خطيب من الخطباء، حين قام على سرير الاسكندر و هو ميت:

«الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، و هو اليوم أوعظ منه أمس» .

و متى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه و إن كان صامتا، و أشار إليه و إن كان ساكتا. و هذا القول شائع في جميع اللغات، و متفق عليه مع إفراط الاختلافات.

و قال عنترة بن شداد العبسي جعل نعيب الغراب خبرا للزاجر:

حرق الجناح كأن لحيي رأسه # جلمان بالأخبار هش مولع

الحرق: الأسود. شبه لحييه بالجلمين، لأن الغراب يخبر بالفرقة و الغربة و يقطع كما يقطع الجلمان. و أنشدني أبو الرديني العكلي، في تنسم الذئب الريح و استنشائه و استرواحه:

يستخبر الريح إذا لم يسمع # بمثل مقراع الصفا الموقع

المقراع: الفأس التي يكسر بها الصخر. و الموقع. المحدد. يقال وقعت الحديدة إذا حددتها. و قال آخر، و هو الراعي:

إن السماء و إن الريح شاهدة # و الأرض تشهد و الأيام و البلد

لقد جزيت بني بدر ببغيهم # يوم الهباءة يوما ما له قود

و قال نصيب في هذا المعنى، يمدح سليمان بن عبد الملك:

أقول لركب صادرين لقيتهم # قفا ذات أوشال و مولاك قارب (1)

قفوا خبرونا عن سليمان إنني # لمعروفه من أهل ودان طالب (2)

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله # و لو سكتوا أثنت عليك الحقائب

و هذا كثير جدا.

أحسن الكلام

و قال علي رحمه اللّه: «قيمة كل امرئ ما يحسن» . فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية، و مجزئة مغنية، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، و غير مقصرة عن الغاية. و أحسن الكلام ما كان قليلة يغنيك عن كثيره، و معناه في ظاهر لفظه، و كان اللّه عز و جل قد ألبسه من الجلالة، و غشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه، و تقوى قائله. فإذا كان المعنى شريفا و اللفظ بليغا، و كان صحيح الطبع، بعيدا من الاستكراه، و منزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. و متى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، و نفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها اللّه من التوفيق و منحها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، و لا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة.

---

(1) القارب: طالب الماء. و أراد بالمولى نفسه.

(2) ودان: موضع بين مكة و المدينة قريب من الجحفة.

و قد قال عامر بن عبد قيس: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، و إذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان» .

و قال الحسن رحمه اللّه، و سمع رجلا يعظ، فلم تقع موعظته بموضع من قلبه، و لم يرق عندها، فقال له: «يا هذا، إن بقلبك لشر أو بقلبي» .

و قال علي بن الحسين بن علي رحمه اللّه: لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، و جملة الحال في صواب التبيين، لأعربوا عن كل ما تخلج في صدورهم، و لوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم. و على أن درك ذلك كان لا يعدمهم في الأيام القليلة العدة، و الفكرة القصيرة المدة، و لكنهم من بين مغمور بالجهل، و مفتون بالعجب و معدول بالهوى عن باب التثبت، و مصروف بسوء العادة عن فضل التعلم.

و قد جمع محمد بن علي بن الحسين صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتين، فقال: «صلاح شأن جميع التعايش و التعاشر، ملء مكيال ثلثاه فطنة، و ثلثه تغافل» . فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير، و لا حظا في الصلاح لأن الإنسان لا يتغافل إلا عن شيء قد فطن له و عرفه.

و ذكر هذه الثلاثة الأخبار إبراهيم بن داحة، عن محمد بن عمير. و ذكرها صالح بن علي الأفقم، عن محمد بن عمير. و هؤلاء جميعا من مشايخ الشيع، و كان ابن عمير أغلاهم.

و أخبرني إبراهيم بن السندي، عن علي بن صالح الحاجب، عن العباس ابن محمد قال: قيل لعبد اللّه بن عباس: أنّى لك هذا العلم؟قال: «قلب عقول، و لسان سئول» . و قد رووا هذا الكلام عن دغفل بن حنظلة العلامة.

و عبد اللّه أولى به منه. و الدليل على ذلك قول الحسن: إن أول من عرف بالبصرة ابن عباس، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة، ففسرها حرفا حرفا، و كان مثجا يسيل غربا.

المثج: السائل الكثير، و هو من الثجاج. و الغرب، هاهنا: الدوام.

هشام بن حسان و غيره، قال: قيل للحسن: يا أبا سعيد، إن قوما زعموا أنك تذم ابن عباس. قالوا: فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: إن ابن عباس كان من الإسلام بمكان، إن ابن عباس كان من القرآن بمكان، و كان و اللّه له لسان سئول، و قلب عقول، و كان و اللّه مثجا يسيل غربا.

قالوا: و قال علي بن عبد اللّه بن عباس: من لم يجد مس الجهل في عقله، و ذل المعصية في قلبه، و لم يستبن موضع الخلة في لسانه، عند كلال حده عن حد خصمه، فليس ممن ينزع عن ريبة، و لا يرغب عن حال معجزة، و لا يكترث لفصل ما بين حجة و شبهة.

قالوا: و ذكر محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس، بلاغة بعض أهله فقال: إني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله.

و هذا كلام شريف نافع، فاحفظوا لفظه و تدبروا معناه، ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد، و الدني الساقط، يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ، فإذا ضرب بجرانه و مكن لعروقه، استفحل الفساد و بزل، و تمكن الجهل و قرح (1) ، فعند ذلك يقوى داؤه، و يمتنع دواؤه، لأن اللفظ الهجين الردي، و المستكره الغبي، أعلق باللسان، و آلف للسمع، و أشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشريف، و المعنى الرفيع الكريم. و لو جالست الجهال و النوكى، و السخفاء و الحمقى، شهرا فقط، لم تنق من أوضار كلامهم، و خبال معانيهم، بمجالسة أهل البيان و العقل دهرا، لأن الفساد أسرع إلى الناس، و أشد التحاما بالطبائع. و الإنسان بالتعلم و التكلف، و بطول الاختلاف إلى العلماء، و مدارسة كتب الحكماء، يجود لفظه و يحسن أدبه، و هو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلم، و في فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير.

(1) بزل: بلغ سن البزول، و هو التاسعة. قرح: بلغ سن القروح و القارح من ذي الحافر بمنزلة البازل من الإبل.

و مما يؤكد قول محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس، قول بعض الحكماء حين قيل له: متى يكون الأدب شرا من عدمه؟قال: إذا كثر الأدب، و نقصت القريحة.

و قد قال بعض الأولين: «من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه» . و هذا كله قريب بعضه من بعض.

و ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب رحمه اللّه فقال: «كان و اللّه أفضل من أن يخدع، و أعقل من أن يخدع» .

و قال محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس: «كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، و كفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد و المثل» .

و كان عبد الرحمن بن إسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة، قال: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، و لا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع.

قال أبو عثمان: أما أنا فأستحسن هذا القول جدا.

باب البلاغة

حد البلاغة

الحمد للّه، و لا حول و لا قوة إلا باللّه، و صلّى اللّه على محمد خاصة، و على أنبيائه عامة.

خبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان، و حدثني محمد بن أبان–و لا أدري كاتب من كان–قالا:

قيل للفارسي: ما البلاغة؟قال: معرفة الفصل من الوصل.

و قيل لليوناني: ما البلاغة؟قال: تصحيح الأقسام، و اختيار الكلام.

و قيل للرومي: ما البلاغة؟قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، و الغزارة يوم الإطالة.

و قيل للهندي: ما البلاغة؟قال: وضوح الدلالة، و انتهاز الفرصة، و حسن الإشارة.

و قال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، و المعرفة بمواضع الفرصة.

ثم قال: و من البصر بالحجة، و المعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الافصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، و ربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، و أحق بالظفر.

قال: و قال مرة: جماع البلاغة التماس حسن الموقع، و المعرفة بساعات القول، و قلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، و بما شرد عليك من اللفظ أو تعذر.

ثم قال: و زين ذلك كله، و بهاؤه و حلاوته و سناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، و الألفاظ معدلة، و اللهجة نقية. فإن جامع ذلك السن و السمت و الجمال و طول الصمت، فقد تم كل التمام، و كمل كل الكمال.

مفهوم البلاغة عند سهل بن هارون

و خالف عليه سهل بن هارون في ذلك، و كان سهل في نفسه عتيق الوجه، حسن الشارة، بعيدا من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، و برقة الذهن قبل المخاطبة، و بدقة المذهب قبل الامتحان و بالنبل قبل التكشف. فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده و إن أدخل ذلك على حالة النقص.

قال سهل بن هارون: لو أن رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا و كان أحدهما جميلا جليلا بهيا، و لباسا نبيلا، و ذا حسب شريفا، و كان الآخر قليلا قميئا، و باذّ الهيئة دميما (1) ، و خامل الذكر مجهولا، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، و في وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع و عامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، و للباذ الهيئة على ذي

(1) باذ الهيئة: رث الهيئة.

الهيئة، و لشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به، و لصار التعجب منه سببا للعجب به، و لصار الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أحقر، و من بيانه أيأس، و من حسده أبعد. فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، و ظهر منه خلاف ما قدروه، تضاعف حسن كلامه في صدورهم، و كبر في عيونهم لأن الشيء من غير معدنه أغرب، و كلما كان أغرب كان أبعد في الوهم و كلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، و كلما كان أطرف كان أعجب، و كلما كان أعجب كان أبدع. و إنما ذلك كنوادر كلام الصبيان و ملح المجانين، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد، و تعجبهم به أكثر. و الناس موكلون بتعظيم الغريب، و استطراف البعيد، و ليس لهم في الموجود الراهن، و فيما تحت قدرتهم من الرأي و الهوى، مثل الذي زهّد الجيران في عالمهم، و الاصحاب في الفائدة من صاحبهم. و على هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم، و يرحلون إلى النازح عنهم، و يتركون من هو أعم نفعا و أكثر في وجوه العلم تصرفا، و أخف مئونة و أكثر فائدة و لذلك قدّم بعض الناس الخارجي (1) على العريق، و الطارف على التلبد و كان يقول: إذا كان الخليفة بليغا و السيد خطيبا، فإنك تجد جمهور الناس و أكثر الخاصة فيهما على أمرين: إما رجلا يعطي كلامهما من التعظيم و التفضيل، و الإكبار و التبجيل، على قدر حالهما في نفسه، و موقعهما من قلبه، و إما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيهما، و الخوف من أن يكون تعظيمه لهما يوهمه من صواب قولهما، و بلاغة كلامهما، ما ليس عندهما حتى يفرط في الإشفاق، و يسرف في التهمة. فالأول يزيد في حقه للذي له في نفسه، و الآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه، و لإشفاقه من أن يكون مخدوعا في أمره.

فإذا كان الحب يعمي عن المساوئ فالبغض أيضا يعمي عن المحاسن. و ليس يعرف حقائق مقادير المعاني، و محصول حدود لطائف الأمور، إلا عالم حكيم، و معتدل الأخلاط عليم، و إلا القويّ المنة، الوثيق العقدة، و الذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم، و السواد الأكبر.

---

(1) الخارجي: العصامي، ضد العريق أو التليد.

و كان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة و الجهارة، و بالحلاوة و الفخامة، و جودة اللهجة و الطلاوة.

و إذا صرنا إلى ذكر ما يحضرنا من تسمية خطباء بني هاشم، و بلغاء رجال القبائل، قلنا في وصفهما على حسب حالهما، و الفرق الذي بينهما و لأننا عسى أن نذكر جملة من خطباء الجاهليين و الإسلاميين، و البدويين و الحضريين، و بعض ما يحضرنا من صفاتهم و أقدارهم و مقاماتهم، و باللّه التوفيق.

ثم رجع القول بنا إلى ذكر الإشارة.

و روى أبو شمر (1) عن معمّر أبي الأشعث (2) ، خلاف القول الأول في الإشارة و الحركة عند الخطبة، و عند منازعة الرجال و مناقلة الأكفاء.

و كان أبو شمر إذا نازع لم يحرّك يديه و لا منكبيه، و لم يقلب عينيه، و لم يحرّك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. و كان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، و بالعجز عن بلوغ إرادته. و كان يقول:

ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام (3) عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة، و بالزيادة في المسألة، حتى حرّك يديه و حل حبوته، و حبا إليه حتى أخذ بيديه. و في ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم. و كان الذي غرّ أبا شمر و موّه له هذا الرأي، أن أصحابه كانوا يستمعون منه، و يسلمون له و يميلون إليه، و يقبلون كل ما يورده عليهم، و يثبته عندهم، فلما طال عليه توقيرهم له، و ترك مجاذبتهم إياه، و خفت مئونة الكلام عليه–نسي حال منازعة الأكفاء و مجاذبة

---

(1) أبو شمر: مرجئ قدري يقول إن الإيمان هو المعرفة و الاقرار باللّه و بما جاء من عنده و ما عرف بالعقل من عدل و توحيد.

(2) معمر بن الأشعث: هو معمر بن عباد السلمي (215 هـ) معتزلي و صاحب فرقة المعمرية.
قال بالطبع و الكمون و نفى الصفات الأزلية عن اللّه.

(3) النظام: صاحب فرقة النظامية و شيخ الجاحظ (160–231 هـ) قال إن الاجسام تنقسم إلى ما لا نهاية، و أحدث القول بالطفرة، كما قال بالكمون.

الخصوم. و كان شيخا وقورا، و زمّيتا ركينا (1) ، و كان ذا تصرف في العلم، و مذكورا بالفهم و الحلم.

مفهوم البلاغة عند الهند

قال معمّر، أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند، مثل منكة و بازيكر و قلبرقل و سندباد و فلان و فلان: ما البلاغة عند الهند؟قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، و لكن لا أحسن ترجمتها لك، و لم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، و تلخيص لطائف معانيها.

قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها:

أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. و ذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة و لا الملوك بكلام السوقة. و يكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، و لا يدقق المعاني كلّ التدقيق، و لا ينقح الألفاظ كل التنقيح، و لا يصفها كل التصفية، و لا يهذبها غاية التهذيب، و لا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، و من قد تعوّد حذف فضول الكلام، و إسقاط مشتركات الألفاظ، و قد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة و المبالغة، لا على جهة الاعتراض و التصفح، و على وجه الاستطراف و التظرف. قال: و من علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، و تلك الحال له وفقا، و يكون الاسم له لا فاضلا و لا مفضولا، و لا مقصرا، و لا مشتركا، و لا مضمّنا، و يكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه، و يكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، و يكون لفظه مونقا، و لهول تلك المقامات معاودا. و مدار الأمر على أفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، و الحمل عليهم على أقدار منازلهم، و أن تواتيه آلاته، و تتصرف معه أداته، و يكون في التهمة لنفسه معتدلا، و في

(1) الزميت: الحليم الساكن القليل الكلام. الركين: الرزين.

حسن الظن بها مقتصدا، فإنه إن تجاوز مقدار الحقّ في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، و إن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها، آمنها فأودعها تهاون الآمنين. و لكل ذلك مقدار من الشغل، و لكل شغل مقدار من الوهن، و لكل وهن مقدار من الجهل.

و قال إبراهيم بن هانئ، و كان ماجنا خليعا، و كثير العبث متمردا. و لو لا أن كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجد، لما جعلته صلة الكلام الماضي. و ليس في الأرض لفظ يسقط البتة، و لا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن.

قال إبراهيم بن هانئ: من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، و يكون شيخا بعيد مدى الصوت. و من تمام آلة الزّمر أن تكون الزامرة سوداء.

و من تمام آلة المغني أن يكون فاره البرذون. برّق الثياب عظيم الكبر، سيّئ الخلق. و من تمام آلة الخمار أن يكون ذميا، و يكون اسمه أذين أو شلوما، أو مازيار، أو ازدانقاذار، أو ميشا، و يكون أرقط الثياب، مختوم العنق. و من تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا، و يكون الداعي إلى اللّه صوفيا. و من تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع، عظيم الرأس. و لذلك قال ابن سنان الجديدي، لراشد بن سلمة الهذلي: «ما أنت بعظيم الرأس و لا ثقيل السمع فتكون سيدا، و لا بأرسح فتكون فارسا» .

و قال شبيب بن شيبة الخطيب، لبعض فتيان بني منقر: «و اللّه ما مطلت مطل الفرسان، و لا فتقت فتق السادة» .

و قال الشاعر:

فقبّلت رأسا لم يكن رأس سيد # و كفا ككف الضبّ أو هي أحقر

فعاب صغر رأسه و صغر كفه، كما عاب الشاعر كف عبد اللّه بن مطيع (1)

العدوي، حين وجدها غليظة جافية، فقال:

---

(1) الشاعر هو فضالة بن شريك و قد هجا عبد اللّه بن مطيع بن الأسود والي عبد اللّه بن الزبير على الكوفة عند ما طرده المختار بن أبي عبيد الثقفي عنها.

دعا ابن مطيع للبياع فجئته # إلى بيعة قلبي لها غير آلف

فناولني خشناء لما لمستها # بكفي ليست من أكف الخلائف

و هذا الباب يقع (في كتاب الجوارح) (1) مع ذكر البرص و العرج و العسر و الأدر و الصلع و الحدب و القرع، و غير ذلك من علل الجوارح. و هو وارد عليكم إن شاء اللّه بعد هذا الكتاب.

و قال إبراهيم بن هانئ: من تمام آلة الشيعي أن يكون وافر الجمة، صاحب بازيكند (2) . و من تمام آلة صاحب الحرس أن يكون زمّيتا قطوبا أبيض اللحية، أقنى أجنى (3) ، و يتكلم بالفارسية.

و أخبرني إبراهيم بن السندي قال: دخل العماني الراجز على الرشيد، لينشده شعرا، و عليه قلنسوة طويلة، و خف ساذج، فقال: إياك أن تنشدني إلا و عليك عمامة عظيمة الكور و خفان دمالقان (4) .

قال إبراهيم: قال أبو نصر: فبكر عليه من الغد و قد تزيّا بزي الأعراب، فأنشده ثم دنا فقبّل يده، ثم قال: يا أمير المؤمنين، قد و اللّه أنشدت مروان و رأيت وجهه و قبلت يده و أخذت جائزته، و أنشدت المنصور و رأيت وجهه و قبلت يده و أخذت جائزته، و أنشدت المهدي و رأيت وجهه و قبلت يده و أخذت جائزته. و أنشدت الهادي و رأيت وجهه و قبلت يده و أخذت جائزته. هذا إلى كثير من أشباه الخلفاء و كبار الأمراء، و السادة الرؤساء، و لا اللّه إن رأيت فيهم أبهى منظرا، و لا أحسن وجها، و لا أنعم كفا، و لا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين. و و اللّه لو ألقي في روعي أني أتحدث عنك ما قلت لك ما قلت.

---

(1) أنظر حول هذا الكتاب: كشاف آثار الجاحظ الذي نشرناه ملحقا برسائل الجاحظ الكلامية.
طبعة دار و مكتبة الهلال.

(2) بازيكند: نوع من الثياب، فارسية.
(3) الأقنى: المرتفع أعلى الأنف المحدودب وسطه. الأجنى: تسهيل الأجنإ، و هو الأحدب الظهر.
(4) الدمالق: المستدير الأملس.

قال: فأعظم له الجائزة على شعره، و أضعف له على كلامه، و أقبل عليه فبسطه، حتى تمنى و اللّه جميع من حضر أنهم قاموا ذلك المقام.

مفهوم البلاغة عند العرب

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول. قال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصحّار بن عياش العبديّ (1) . ما هذه البلاغة التي فيكم؟قال:

شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عرض القوم:

يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبسر و الرطب، أبصر منهم بالخطب. فقال له صحار: أجل و اللّه، إنا لنعلم أن الريح لتلقحه، و أن البرد ليعقده، و أن القمر ليصبغه، و إن الحر لينضجه.

و قال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟قال: الإيجاز. قال له معاوية: و ما الإيجاز؟قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، و تقول فلا تخطئ.

فقال له معاوية: أ و كذلك تقول يا صحار؟قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطئ و لا تخطئ.

و شأن عبد القيس عجب، و ذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين:

ففرقة وقعت بعمان و شقّ عمان، و هم خطباء العرب، و فرقة وقعت إلى البحرين و شقّ البحرين، و هم من أشعر قبيل في العرب، و لم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية و في معدن الفصاحة. و هذا عجب.

و من خطبائهم المشهورين: صعصعة بن صوحان، و زيد بن صوحان، و سيحان بن صوحان. و منهم صحار بن عياش. و صحار من شيعة عثمان، و بنو صوحان من شيعة علي.

و منهم مصقلة بن رقبة، و رقبة بن مصقلة، و كرب بن رقبة.

---

(1) صحار بن عياش العبدي (40 هـ) عالم بالأنساب و خطيب مصقع.

و إذا صرنا إلى ذكر الخطباء و النسابين، ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر ما يحضرنا، و باللّه التوفيق.

قال لي ابن الأعرابي (1) : قال لي المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟قال لي: الإيجاز في غير عجز، و الإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟قال: حذف الفضول، و تقريب البعيد.

قال ابن الأعرابي، قيل لعبد اللّه بن عمر: لو دعوت اللّه لنا بدعوات.

فقال: اللهم ارحمنا و عافنا و ارزقنا!فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. فقال: نعوذ باللّه من الإسهاب.

---

(1) ابن الأعرابي: محمد بن زياد، مولى بني هاشم في الكوفة (150-231 هـ) اجتمع به الجاحظ و روى عنه كثيرا من الأشعار و الأخبار.

إياس بن معاوية

ذكر ناس من البلغاء و الخطباء و الأبيناء و الفقهاء و الأمراء ممن كان لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ و الزلل منهم: زيد بن صوحان. و منهم: أبو واثلة إياس ابن معاوية المزنيّ (1) ، القاضي القائف، و صاحب الزّكن، و المعروف بجودة الفراسة. و لكثرة كلامه قال له عبد اللّه بن شبرمة (2) : «أنا و أنت لا نتفق. أنت لا تشتهي أن تسكت و أنا لا أشتهي أن أسمع» .

و أتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق، فاستولى على المجلس، و رأوه أحمر دميما باذّ الهيئة، قشفا، فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا إليه و قالوا له: الذنب مقسوم بيننا و بينك، أتيتنا في زيّ مسكين، تكلمنا بكلام الملوك.

---

(1) عاش في العصر الأموي، و قد ولاه عمر بن عبد العزيز على قضاء الكوفة توفي عام 122 هـ.
(2) عبد اللّه بن شبرمة الضبي عاش في الدولة العباسية (72–144 هـ) و ولاه المنصور قضاء الكوفة.

و رأيت ناسا يستحسنون جواب إياس بن معاوية حين قيل له: ما فيك عيب غير أنك معجب بقولك. قال: أ فأعجبكم قولي؟قالوا: نعم. قال:

فأنا أحقّ بأن أعجب بما أقول، و بما يكون مني منكم.

و الناس، حفظك اللّه، لم يضعوا ذكر العجب في هذا الموضع.

و المعيب عند الناس ليس هو الذي لا يعرف ما يكون منه من الحسن. و المعرفة لا تدخل في باب التسمية بالعجب، و العجب مذموم. و قد جاء في الحديث:

«إن المؤمن من ساءته سيئته و سرّته حسنته» . و قيل لعمر: فلان لا يعرف الشر. قال: «ذاك أجدر أن يقع فيه» . و إنما العجب اسراف الرجل في السرور بما يكون منه و الإفراط في استحسانه، حتى يظهر ذلك في لفظه و في شمائله. و هو الذي وصف به صعصعة بن صوحان، المنذر بن الجارود، عند علي بن أبي طالب رحمه اللّه، فقال: «أما إنه مع ذلك لنظار في عطفيه، تفّال في شراكيه، تعجبه حمرة برديه» .

قال أبو الحسن: قيل لإياس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال:

فتسمعون صوابا أم خطأ؟قالوا: لا، بل صوابا. قال: «فالزيادة من الخير خير» . و ليس كما قال، للكلام غاية، و لنشاط السامعين نهاية، و ما فضل عن قدر الاحتمال و دعا إلى الاستثقال و الملال، فذلك الفاضل هو الهذر، و هو الخطل، و هو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه.

و ذكر الأصمعي أن عمر بن هبيرة لما أراده على القضاء قال: إني لا أصلح له. قال: و كيف ذلك؟قال: لأنني عييّ، و لأني حديد. قال ابن هبيرة: أما الحدة فإن السوط يقوّمك، و أما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسن بك أحدا، و أما العيّ فقد عبرت عما تريد.

فإن كان إياس عند نفسه عييا فذاك أجدر بأن يهجر الإكثار.

و بعد فما نعلم أحدا رمى إياسا بالعيّ، و إنما عابوه بالإكثار.

و ذكر صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث، قال ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض، إلا ما كان من الحجاج ابن يوسف، و إياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا.

و قال قائل لإياس: لم تعجل بالقضاء؟فقال إياس: كم لكفك من أصبع؟قال: خمس. قال: عجلت. قال: لم يعجل من قال بعد ما قتل الشيء علما و يقينا. قال إياس: فهذا هو جوابي لك.

و كان كثيرا ما ينشد قول النابغة الجعدي:

أبى لي البلاء و أني امرؤ # إذا ما تبينت لم أرتب

قال: و مدح سلمة بن عياش، سوار بن عبد اللّه (1) ، بمثل ما وصف به إياس نفسه حين قال:

و أوقف عند الأمر ما لم يضح له # و أمضى إذا ما شك من كان ماضيا

و كتب عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه، إلى عديّ بن أرطأة: إنّ قبلك رجلين من مزينة، فولّ أحدهما قضاء البصرة. يعني بكر بن عبد اللّه المزني و إياس بن معاوية. فقال بكر: و اللّه ما أحسن القضاء، فإن كنت صادقا فما يحل لك أن توليني، و إن كنت كاذبا إنها لأحراهما.

و كانوا إذا ذكروا البصرة قالوا: شيخها الحسن، و فتاها بكر.

و قال إياس بن معاوية: لست بخب و الخب لا يخدعني. و قال:

الخبّ (2) لا يخدع ابن سيرين، و هو يخدع أبي و يخدع الحسن.

---

(1) سوار بن عبد اللّه العنبري (245 هـ) فقيه قاض و أديب و شاعر وثقه أحمد بن حنبل.
(2) الخب: الخداع.

و دخل الشام و هو غلام، فتقدّم خصما له، و كان الخصم شيخا كبيرا، إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان، فقال له القاضي: أتقدم شيخا كبيرا؟ قال: الحق أكبر منه. قال: اسكت. قال: فمن ينطق بحجتي. قال: لا أظنك تقول حقا حتى تقوم. قال: لا إله إلا اللّه، (أ حقا أم باطلا؟) . فقام القاضي فدخل على عبد الملك من ساعته، فخبره بالخبر، فقال عبد الملك:

اقض حاجته الساعة و أخرجه من الشام، لا يفسد عليّ الناس.

فإذا كان إياس و هو غلام يخاف على جماعة أهل الشام، فما ظنك به و قد كبرت سنه، و عضّ على ناجذه.

و جملة القول في إياس أنه كان من مفاخر مضر، و من مقدمي القضاة، و كان فقيه البدن، دقيق المسلك في الفطن، و كان صادق الحدس نقابا (1) ، و كان عجيب الفراسة ملهما، و كان عفيف الطعم، كريم المداخل و الشيم، وجيها عند الخلفاء، مقدما عند الأكفاء. و في مزينة خير كثير.

ثم رجعنا إلى القول الأول.

و منهم ربيعة الرأي (2) ، و كان لا يكاد يسكت. قالوا: و تكلّم يوما فأكثر و أعجب بالذي كان منه، فالتفت إلى أعرابي كان عنده فقال: يا أعرابيّ: ما تعدون العيّ فيكم؟قال: ما كنت فيه منذ اليوم.

و كان يقول: الساكت بين النائم و الأخرس.

عبد اللّه بن حفص

و منهم عبيد اللّه بن محمد بن حفص التيمي (3) . و محمد بن حفص هو

---

(1) الحدس: الظن و التخمين. النقاب: الرجل العلامة الفطن.

(2) ربيعة الرأي، أبو عثمان ربيعة بن فروح مولى تيم، عرض عليه أبو العباس السفاح القضاء فلم يقبل. توفي بالأنبار سنة 136 هـ.

(3) خطيب مفوه معاصر للجاحظ مات سنة 288 هـ.

ابن عائشة، ثم قيل لعبيد اللّه ابنه: ابن عائشة. و كان كثير العلم و السماع، متصرفا في الخبر و الأثر. و كان من أجواد قريش، و كان لا يكاد يسكت، و هو في ذلك كثير الفوائد. و كان أبوه محمد بن حفص عظيم الشأن، كثير العلم، بعث إليه ينخاب خليفته في بعض الأمر، فأتاه في حلقته في المسجد، فقال له في بعض كلامه: أبو من أصلحك اللّه؟فقال له: هلا عرفت هذا قبل مجيئك!و إن كان لا بد منه فاعترض من شئت فسله. فقال له: إني أريد أن تخليني. قال: أ في حاجة لك أم في حاجة لي؟قال: بل في حاجة لي.

قال: فألقني في المنزل قال: فإن الحاجة لك. قال: ما دون إخواني ستر.

محمد بن مسعر

و منهم محمد بن مسعر العقيليّ، و كان كريما كريم المجالسة، يذهب مذهب النساك، و كان جوادا. مرّ صديق له من بني هاشم بقصر له و بستان نفيس، فبلغه أنه استحسنه، فوهبه له.

و منهم أحمد بن المعذل بن غيلان، كان يذهب مذهب مالك رحمه اللّه، و كان ذا بيان و تبحر في المعاني، و تصرف في الألفاظ.

الحسن بن سهل

و ممن كان يكثر الكلام جدا الفضل بن سهل، ثم الحسن بن سهل في أيامه.

و حدثني محمد بن الجهم و داود بن أبي داود قالا: جلس الحسن بن سهل في مصلّى الجماعة، لنعيم بن خازم، فأقبل نعيم حافيا حاسرا و هو يقول: ذنبي أعظم من السماء، ذنبي أعظم من الهواء، ذنبي أعظم من الماء قالا: فقال له الحسن بن سهل: على رسلك، تقدمت منك طاعة، و كان آخر أمرك إلى توبة، و ليس للذنب بينهما مكان، و ليس ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو.

و من هؤلاء علي بن هشام، و كان لا يسكت، و لا أدري كيف كان كلامه.

قال: و حدّثني مهدي بن ميمون، قال: حدثنا غيلان بن جرير، قال:

كان مطرّف بن عبد اللّه يقول: «لا تطعم طعامك من لا يشتهيه» . يقول: لا تقبل بحديثك على ما لا يقبل عليه بوجهه.

و قال عبد اللّه بن مسعود: «حدّث الناس ما حدجوك بأبصارهم، و أذنوا لك بأسماعهم، و لحظوك بأبصارهم، و إذا رأيت منهم فترة فأمسك» .

ابن السماك

قال: و جعل ابن السماك (1) يوما يتكلم، و جارية له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟قالت: ما أحسنه، لو لا أنك تكثر ترداده. قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد ملّه من فهمه.

عباد بن العوام، عن شعبة عن قتادة قال: مكتوب في التوراة: «لا يعاد الحديث مرتين» .

سفيان بن عيينة، عن الزهري قال: «إعادة الحديث أشد من نقل الصخر» .

و قال بعض الحكماء: «من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مئونة الاستماع منك» .

و جملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، و لا يؤتى على وصفه. و إنما ذلك على قدر المستمعين، و من يحضره من العوام و الخواص.

---

(1) ابن السماك، هو محمد بن صبيح العجلي بالولاء، كوفي وفد على هارون الرشيد و وعظه فأبكاه، أخذ عنه أحمد بن حنبل، توفي سنة 183 هـ.

و قد رأينا اللّه عز و جل ردد ذكر قصة موسى و هود، و هارون و شعيب، و إبراهيم و لوط، و عاد و ثمود. و كذلك ذكر الجنة و النار و أمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب و أصناف العجم، و أكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب.

و أما أحاديث القصص و الرقة فإني لم أر أحدا يعيب ذلك.

و ما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ و ترداد المعاني عيّا، إلا ما كان من النخار بن أوس العذري، فإنه كان إذا تكلم في الحمالات (1) و في الصفح و الاحتمال، و صلاح ذات البين، و تخويف الفريقين من التفاني و البوار–كان ربما ردد الكلام عن طريق التهويل و التخويف، و ربما حمى فنخر.

جعفر بن يحيى

و قال ثمامة بن أشرس (2) : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء و التمهل، و الجزالة و الحلاوة، و افهاما يغنيه عن الإعادة. و لو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإعادة.

و قال مرة: ما رأيت أحدا كان لا يتحبّس و لا يتوقّف، و لا يتلجلج و لا يتنحنح، و لا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد، و لا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصّى عليه طلبه، أشد اقتدارا، و لا أقلّ تكلفا، من جعفر بن يحيى.

و قال ثمامة: قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، و يجلي عن مغزاك، و تخرجه عن الشركة، و لا تستعين عليه بالفكرة. و الذي لا بد له منه، أن يكون سليما من التكلف، بعيدا من الصنعة، بريئا من التعقد، غنيا عن التأويل.

---

(1) الحمالة: الدية.

(2) ثمامة بن أشرس النميري (231 هـ) شيخ الطبقة السابعة في المعتزلة كان له دالة على المأمون الذي جعله مستشاره. قال إن الإنسان قادر على أعماله.

و هذا هو تأويل قول الأصمعيّ: «البليغ من طبق المفصل (1) ، و أغناك عن المفسّر» .

و خبرني جعفر بن سعيد، رضيع أيوب بن جعفر و حاجبه، قال: ذكرت لعمرو بن مسعدة (2) ، توقيعات جعفر بن يحيى، فقال: قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب و أسافلها فوجدتها أجود اختصارا و أجمع للمعاني.

قال: و وصف أعرابي أعرابيا بالإيجاز و الإصابة فقل: «كان و اللّه يضع الهناء مواضع النقب (3) » . يظنون أنه نقل قول دريد بن الصمة، في الخنساء بنت عمرو بن الشريد، إلى ذلك الموضع، و كان دريد قال فيها:

ما إن رأيت و لا سمعت به # في الناس طالي أينق جرب

متبذلا تبدو محاسنه # يضع الهناء مواضع النقب

و يقولون في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز: «فلان يفل المحز، و يصيب المفصل» . و أخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز.

و أنشدني أبو قطن الغنويّ، و هو الذي يقال له شهيد الكرم، و كان أبين من رأيته من أهل البدو و الحضر:

فلو كنت مولى قيس عيلان لم تجد # عليّ لمخلوق من الناس درهما

و لكنني مولى قضاعة كلها # فلست أبالي أن أدين و تغرما

أولئك قوم بارك اللّه فيهم # على كلّ حال ما أعفّ و أكرما

جفاة المحز لا يصيبون مفصلا # و لا يأكلون اللحم إلا تخذما

---

(1) طبق المفصل: أصابه إصابة محكمة فأبان العضو من العضو.

(2) عمرو بن مسعدة أحد كتاب المأمون، توفي سنة 217 هـ، أما جعفر بن سعيد و أيوب بن جعفر فمعتزليان معاصران للجاحظ كان الأول بخيلا، و الثاني عالما بأخبار الدولة العباسية و رجالها.

(3) الهناء: نوع من القطران تطلى به الإبل. النقب: أول ما يبدو من الجرب.

يقول: هم ملوك و أشباه الملوك، و لهم كفاة فهم لا يحسنون إصابة المفصل.

و أنشدني أبو عبيدة في مثل ذلك:

و صلع الرءوس عظام البطون # جفاة المحزّ غلاظ القصر

و لذلك قال الراجز:

ليس براعي إبل و لا غنم # و لا بجزّار على ظهر و ضم

و قال الآخر، و هو ابن الزبعري:

و فتيان صدق حسان الوجو # ه لا يجدون لشيء ألم

من آل المغيرة لا يشهدو # ن عند المجازر لحم الوضم

و قال الراعي في المعنى الأول:

فطبقن عرض القفّ ثم جزعنه # كما طبقت في العظم مدية جازر [1]

و أنشد الأصمعي:

و كف فتى لم يعرف السلخ قبلها # تجور يداه في الأديم و تجرح

و أنشد الأصمعي:

لا يمسك العرف إلا ريث يرسله # و لا يلاطم عند اللحم في السوق

و قد فسر ذلك لبيد بن ربيعة، و بيّنه و ضرب به المثل، حيث قال في الحكم بين عامر بن الطفيل، و علقمة بن علاثة:

يا هرم بن الأكرمين منصبا # أنك قد أوتيت حكما معجبا

فطبّق المفصل و اغنم طيبا

---

(1) عرض القف: وسطه. جزعنه: قطعنه.

يقول: احكم بين عامر بن الطفيل و علقمة بن علاثة بكلمة فصل، و بأمر قاطع، فتفصل بها بين الحق و الباطل، كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين.

و قد قال الشاعر في هرم:

قضى هرم يوم المريرة بينهم # قضاء امرئ بالأولية عالم

قضى ثم ولى الحكم من كان أهله # و ليس ذنابي الريش مثل القوادم

و يقال في الفحل إذا لم يحسن الضّراب: جمل عياياء، و جمل طباقاء.

و قالت امرأة في الجاهلية تشكو زوجها: «زوجي عياياء طباقاء، و كل داء له دواء» .

حتى جعلوا ذلك مثلا للعيي الفدم، و الذي لا يتجه للحجة. و قال الشاعر:

طباقاء لم يشهد خصوما و لم يقد # ركابا إلى أكوارها حين تعكف (1)

و ذكر زهير بن أبي سلمى الخطل فعابه فقال:

و ذي خطل في القول يحسب أنه # مصيب فما يلمم به فهو قائله

عبأت له حلما و أكرمت غيره # و أعرضت عنه و هو باد مقاتله

و قال غيره:

شمس إذا خطل الحديث أوانس # يرقبن كل مجذّر تتبال

الشمس، مأخوذ من الخيل، و هي الخيل المرحة الضاربة بأذنابها من النشاط. و المجذّر: القصير–و التتبال: القصير الدنيء.

و قال أبو الأسود الدؤلي، و كان من المقدمين في العلم، و اسم أبي الأسود ظالم بن عمرو:

---

(1) الكور، بالضم: الرحل بأداته. تعكف: تحبس.

و شاعر سوء يهضب القول ظالما # كما اقتمّ أعشى مظلم الليل حاطب

يهضب: يكثر. و الأهاضيب: المطر الكثير. اقتمّ: افتعل من القمامة.

و أنشد:

أعوذ باللّه الأعزّ الأكرم # من قولي الشيء الذي لم أعلم

تخبّط الأعمى الضرير الأيهم

و قال إبراهيم بن هرمة (1) ، في تطبيق المفصل–و تلحق هذه المعاني بأخواتها قبل:

و عميمة قد سقت فيها عائرا # غفلا و منها عائر موسوم

طبّقت مفصلها بغير حديدة # فرأى العدو غناي حيث أقوم

ثمامة بن أشرس

و هذه الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس، فوصف بها جعفر بن يحيى، كان ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه، و استولى عليها دون جميع أهل عصره و ما علمت أنه كان في زمانه قروي و لا بلدي، كان بلغ من حسن الأفهام مع قلة عدد الحروف، و لا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف، ما كان بلغه. و كان لفظه في وزن إشارته، و معناه في طبقة لفظه، و لم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك.

قال بعض الكتاب: معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه، الواضحة في مخارج كلامه، كما وصف الخريمي شعر نفسه في مديح أبي دلف، حيث يقول:

له كلم فيك معقولة # إزاء القلوب كركب وقوف

(1) إبراهيم بن هرمة الفهري شاعر أموي أدرك الدولة العباسية و مدح المنصور و عمر طويلا.

و أول هذه القصيدة قوله:

أبا دلف دلفت حاجتي # إليك و ما خلتها بالدلوف

و يظنون أن الخريمي إنما احتذى في هذا البيت على كلام أيوب بن القريّة حين قال له بعض السلاطين: ما أعددت لهذا الموقف؟قال: «ثلاثة حروف كأنهن ركب وقوف: دنيا، و آخرة، و معروف» .

شبيب بن شيبة

و حدثني صالح بن خاقان، قال: قال شبيب بن شيبة: «الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء، و بمدح صاحبه، و أنا موكل بتفضيل جودة القطع، و بمدح صاحبه. و حظ جودة القافية و إن كانت كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت» . ثم قال شبيب: «فإن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة، فقدم أحكام البلوغ في طلب السلامة من الخطل، قبل التقدم في أحكام البلوغ في شرف التجويد. و إياك أن تعدل بالسلامة شيئا، فإن قليلا كافيا خير من كثير غير شاف» .

و يقال إنهم لم يروا خطيبا قط بلديا إلا و هو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفا أيام رياضته كلها، إلى أن يتوقح و تستجيب له المعاني، و يتمكن من الألفاظ، إلا شبيب بن شيبة، فإنه قد ابتدأ بحلاوة و رشاقة، و سهولة و عذوبة، فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره.

قالوا: و لما مات شبيب بن شيبة أتاهم صالح المري (1) ، في بعض من أتاهم للتعزية، فقال: «رحمة اللّه على أديب الملوك، و جليس الفقراء، و أخي المساكين» .

(1) صالح المري أحد رواة الحديث البلغاء، توفي سنة 172 هـ.

و قال الراجز (1) :

إذا غدت سعد على شبيبها # على فتاها و على خطيبها

من مطلع الشمس إلى مغيبها # عجبت من كثرتها و طيبها

عودة إلى مفهوم البلاغة عند العتابي و عمرو بن عبيد و ابن المقفع

حدثني صديق لي قال: قلت للعتابيّ: ما البلاغة؟قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة و لا حبسة و لا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، و يفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق، و تصوير الباطل في صورة الحق. قال: فقلت له: قد عرفت الإعادة و الحبسة، فما الاستعانة؟قال: أ ما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، و يا هذا، و يا هيه، و اسمع مني و استمع إلي، و افهم عني، أ و لست تفهم، أ و لست تعقل. فهذا كله و ما أشبهه عيّ و فساد.

قال عبد الكريم بن روح الغفاري، حدثني عمر الشمري، قال: قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟قال: ما بلغ بك الجنة، و عدل بك عن النار، و ما بصرك مواقع رشدك و عواقب غيك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال:

من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، و من لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبي صلّى اللّه عليه و آله: «أنا معشر الأنبياء بكاء» أي قليلو الكلام. و منه قيل رجل بكيء. و كانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. قال: قال السائل: ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول، و من سقطات الكلام، ما لا يخافون من فتنة السكوت و من سقطات الصمت. قال السائل: ليس هذا أريد. قال عمرو: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ، في حسن الإفهام، قال: نعم. قال: إنك إن أوتيت تقرير حجة اللّه في عقول المكلفين، و تخفيف المئونة على المستمعين و تزيين تلك المعاني

(1) أبو نخلة الراجز شاعر عاصر شبيبا و مدحه بأرجوزة على بذلة خلعها عليه.

في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، و نفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب و السنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب و استوجبت على اللّه جزيل الثواب. قلت لعبد الكريم من هذا الذي صبر له عمرو هذا الصبر؟ قال: قد سألت عن ذلك أبا حفص فقال: و من كان يجترئ عليه هذه الجرأة إلا حفص بن سالم.

قال عمر الشمري: كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم، فإذا تكلم لم يكد يطيل. و كان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه. و إذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف، و لا خير في شيء يأتيك به التكلف.

و قال بعضهم–و هو من أحسن ما اجتبيناه و دوّناه–لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، و لفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.

و كان مويس بن عمران (1) يقول: لم أر أنطق من أيوب بن جعفر، و يحيى بن خالد.

و كان ثمامة يقول: لم أر أنطق من جعفر بن يحيى بن خالد.

و كان سهل بن هارون يقول: لم أر أنطق من المأمون أمير المؤمنين.

و قال ثمامة: سمعت جعفر بن يحيى يقول لكتّابه: «إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا» .

و سمعت أبا العتاهية يقول: «لو شئت أن يكون حديثي كله شعرا موزونا لكان» .

---

(1) مويس بن عمران متكلم معتزلي مرجئ، عده ابن المرتضى في الطبقة السابعة من المعتزلة، جعل من بيته ناديا للجدل الكلامي، و كان الجاحظ يرتاده، و يعجب في كرمه، وسعة صدره. توفي سنة 241 هـ.

و قال إسحاق بن حسان بن قوهيّ (1) : لم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفع احد قط. سئل ما البلاغة؟قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت، و منها ما يكون في الاستماع، و منها ما يكون في الإشارة، و منها ما يكون في الاحتجاج، و منها ما يكون جوابا، و منها ما يكون ابتداء، و منها ما يكون شعرا، و منها ما يكون سجعا و خطبا، و منها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، و الإشارة إلى المعنى، و الإيجاز، هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين، و في إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، و الإطالة في غير إملال، و ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته. كأنه يقول: فرّق بين صدر خطبة النكاح و بين صدر خطبة العيد، و خطبة الصلح و خطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، و لا يشير إلى مغزاك، و إلى العمود الذي إليه قصدت، و الغرض الذي إليه نزعت. قال: فقيل له:

فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟قال: إذا أعطيت كلّ مقام حقه، و قمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، و أرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد و العدو، فإنه لا يرضيهما شيء. و أما الجاهل فلست منه و ليس منك. و رضا جميع الناس شيء لا تناله. و قد كان يقال: «رضا الناس شيء لا ينال» .

قال: و السنّة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب و يقصر المجيب. أ لا ترى أن قيس بن خارجة بن سنان، لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخّرة راحلتي الحاملين في شأن حمالة داحس و الغبراء (2) ، و قال: ما لي فيها أيها العشمتان (3) ؟قالا له: بل ما عندك؟قال: عندي قرى كلّ نازل، و رضا كل

(1) إسحاق بن حسان بن قوهي: شاعر عباسي اتصل بيحيى بن خالد و مدحه.
(2) الحمالة: الدية يحملها قوم عن قوم. و داحس و الغبراء اسما حصان و فرس أدى الرهان عليهما إلى نشوب حرب في الجاهلية بين قبيلتي عبس و ذبيان.
(3) العشمة: الشيخ الهرم انحنى ظهره.

ساخط، و خطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل و أنهى فيها عن التقاطع؟قالوا: فخطب يوما إلى الليل فما أعاد فيها كلمة و لا معنى فقيل لأبي يعقوب: هلا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهي عن التقاطع؟أ و ليس الأمر بالصه هو النهي عن القطيعة؟ قال: أ و ما علمت أن الكناية و التعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح و الكشف.

قال: و سئل ابن المقفع عن قول عمر رحمه اللّه: «ما يتصعدني كلام كما تتصعدني خطبة النكاح» قال: ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، و نظر الحداق من قرب في أجواف الحداق. و لأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء و أكفاء، فإذا علا المنبر صاروا سوقة و رعية.

و قد ذهب ذاهبون إلى أن تأويل قول عمر يرجع إلى أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه، فيكون قد قال زورا و غرّ القوم من صاحبه. و لعمري إن هذا التأويل ليجوز إذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة. فأما عمر بن الخطاب، رحمه اللّه، و أشباهه من الأئمة الراشدين، فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح.

و روى أبو مخنف، عن الحارث الأعور (1) ، قال: «و اللّه لقد رأيت عليا و إنه ليخطب قاعدا كقائم، و محاربا كمسالم» . يريد بقوله: قاعدا، خطبة النكاح.

و قال الهيثم بن عديّ: لم تكن الخطباء تخطب قعودا إلا في خطبة النكاح.

توشيح الخطب بآي القرآن و الأشعار

و كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، و في الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء و الوقار و الرقة، و سلس الموقع.

(1) كان الحارث الأعور من رجال حرب صفين و أبو مخنف راوية أخباري كوفي مات نحو 170 ه

قال الهيثم بن عديّ: قال عمران بن حطّان: إن أول خطبة خطبتها، عند زياد–أو عند ابن زياد–فأعجب بها الناس، و شهدها عمي و أبي. ثم إني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن.

و أكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر و لا يكرهونه في الرسائل، إلا أن تكون إلى الخلفاء.

و سمعت مؤمّل بن خاقان، و ذكر في خطبته تميم بن مرّ، فقال: «إن تميما لها الشرف العود، و العز الأقعس، و العدد الهيضل (1) . و هي في الجاهلية القدام، و الذروة و السنام. و قد قال الشاعر:

فقلت له و أنكر بعض شأني # أ لم تعرف رقاب بني تميم

و كان المؤمّل و أهله يخالفون جمهور بني سعد في المقالة، فلشدة تحدّبه على سعد و شفقته عليهم، كان يناضل عند السلطان كل من سعى على أهل مقالتهم، و إن كان قوله خلاف قولهم، حدبا عليهم.

و كان صالح المريّ، القاص العابد، البليغ، كثيرا ما ينشد في قصصه و في مواعظه، هذا البيت:

فبات يروّي أصول الفسيل # فعاش الفسيل و مات الرجل

و أنشد الحسن في مجلسه، و في قصصه و في مواعظه:

ليس من مات فاستراح بميت # إنما الميت ميت الأحياء

و أنشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، الخطيب القاص السجاع، إما في قصصه، و إما في خطبة من خطبه، رحمه اللّه:

(1) العز الأقعس: المنيع. الهيضل: الكثير.

أرض تخيّرها لطيب مقيلها # كعب بن مامة و ابن أمّ دواد

جرت الرياح على محلّ ديارهم # فكأنهم كانوا على ميعاد

فأرى النعيم و كلّ ما يلهى به # يوما يصير إلى بلى و نفاد

و قال أبو الحسن: خطب عبيد اللّه بن الحسن (1) على منبر البصرة في العيد و أنشد في خطبته:

أين الملوك عن حظّها غفلت # حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

تلك المدائن بالآفاق خالية # أمست خلاء و ذاق الموت بانيها

قال: و كان مالك بن دينار يقول في قصصه: «ما أشد فطام الكبير» .

و هو كما قال القائل:

و تروض عرسك بعد ما هرمت # و من العناء رياضة الهرم

و مثله أيضا قول صالح بن عبد القدوس:

و الشيخ لا يترك أخلاقه # حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى جهله # كذي الضنى عاد إلى نكسه

و قال كلثوم بن عمرو العتابيّ:

و كنت امرأ لو شئت أن تبلغ المدى # بلغت بأدنى نعمة تستديمها

و لكن فطام النفس أثقل محملا # من الصخرة الصماء حين ترومها

جهارة الصوت و التشديق في الخطب

و كانوا يمدحون الجهير الصوت، و يذمون الضئيل الصوت، و لذلك تشادقوا في الكلام، و مدحوا سعة الفم، و ذموا صغر الفم.

(1) عبيد اللّه بن الحسن العنبري البصري قاضي و فقيه و محدث توفي في البصرة عام 168 هـ.

قال: و حدثني محمد بن يسير الشاعر قال: قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة و ضخم الهامة، و رحب الشدق، و بعد الصوت.

و سأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المخش، و كان جزع عليه جزعا شديدا، فقال: صف لي المخشّ. فقال: كان أشدق خرطمانيا (1) ، سائلا لعابه، كأنما ينظر من قلتين (2) ، و كأن ترقوته بوان أو خالفة (3) ، و كأن منكبه كركرة جمل ثقال (4) . فقأ اللّه عينيّ إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله.

قال: و قلت لأعرابي: ما الجمال؟قال: «غئور العينين، و اشراف الحاجبين، و رحب الشدقين» .

و قال دغفل بن حنظلة النسابة، و الخطيب العلامة، حين سأله معاوية عن قبائل قريش، فلما انتهى إلى بني مخزوم قال: «معزى مطيرة، علتها قشعريرة، إلا بني المغيرة، فإن فيهم تشادق الكلام، و مصاهرة الكرام» .

و قال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

تشادق حتى مال بالقول شدقه # و كل خطيب لا أبا لك أشدق

و أنشد أبو عبيدة:

و صلع الرءوس عظام البطون # رحاب الشداق غلاظ القصر (5)

قال: و تكلم يوما عند معاوية الخطباء فأحسنوا، فقال: و اللّه لأرمينهم بالخطيب الأشدق!قم يا يزيد فتكلم.

---

(1) الخرطماني: الكبير الأنف.
(2) القلت: النقرة في الصخرة.
(3) البوان: عمود في الخباء. الخالفة: عمود من أعمدة البيت.
(4) الكركرة: الصدر. الثقال: البطيء.
(5) القصر: أصول الأعناق.

و هذا القول و غيره من الأخبار و الأشعار، حجة لمن زعم أن عمرو بن سعيد لم يسم الأشدق للفقم و لا للفوه.

و قال يحيى بن نوفل، في خالد بن عبد اللّه القسري:

بلّ السراويل من خوف و من وهل # و استطعم الماء لما جدّ في الهرب

و ألحن الناس كلّ الناس قاطبة # و كان يولع بالتشديق في الخطب

و يدلّك على تفضيلهم سعة الأشداق، و هجائهم ضيق الأفواه، قول الشاعر:

لحى اللّه أفواه الدّبى من قبيلة # إذا ذكرت في النائبات أمورها

و قال آخر:

و أفواه الدبى حاموا قليلا # و ليس أخو الحماية كالضجور

و إنما شبه أفواههم بأفواه الدبى، لصغر أفواههم و ضيقها.

و على ذلك المعنى هجا عبدة بن الطبيب حيي بن هزّال و ابنيه، فقال:

تدعو بنييك عبّادا و حذيمة # فا فأرة شجها في الجحر محفار

و قد كان العباس بن عبد المطلب جهيرا (1) جهير الصوت. و قد مدح بذلك، و قد نفع اللّه المسلمين بجهارة صوته يوم حنين، حين ذهب الناس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول اللّه.

فتراجع القوم، و أنزل اللّه عزّ و جلّ النصر و أتى بالفتح.

ابن الكلبيّ عن أبيه عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، يمكو حول البيت، فيسمع ذلك من حراء.

قال اللّه عز و جل: **وَ مَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ اَلْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً** ، فالتصدية: التصفيق. و المكاء: الصفير أو شبيه بالصفير. و لذلك قال عنترة:

(1) الجهير: ذو الهيئة الحسنة.

و حليل غانية تركت مجدلا # تمكو فريصته كشدق الأعلم

و قال العجير السلولي في شدة الصوت:

و منهن قرعي كلّ باب كأنما # به القوم يرجون الأذين نسور

فجئت و خصمي يصرفون نيوبهم # كما قصّبت بين الشفار جزور

لدى كلّ موثوق به عند مثلها # له قدم في الناطقين خطير

فظل رداء العصب ملقى كأنه # سلى فرس تحت الرجال عقير (1)

لو ان الصخور الصم يسمعن صلقنا # لرحن و في أعراضهن فطور (2)

الصلق: شدة الصوت. و فطور: شقوق.

و قال مهلهل:

و لو لا الريح أسمع أهل حجر # صليل البيض تقرع بالذكور

و الصريف: صوت احتكاك الأنياب، و الصليل صوت الحديد هاهنا. و في شدة الصوت قال الأعشى في وصف الخطيب بذلك:

فيهم الخصب و السماحة و النج # دة جمعا و الخاطب الصلاّق (3)

و قال بشار بن برد في ذلك يهجو بعض الخطباء:

و من عجب الأيام أن قمت ناطقا # و أنت ضئيل الصوت منتفخ السحر

و وقع بين فتى من النصارى و بين ابن فهريز المطران (4) كلام، فقال له الفتى:

---

(1) العصب: ضرب من البرود. السلى: الجلدة يكون فيها الولد.

(2) الأعراض: الجوانب و النواحي.

(3) الصلاق: الشديد الصوت.

(4) ابن فهريز هو عبد يشوع، كان مطران حران ثم الموصل، نقل بعض كتب المنطق و الفلسفة إلى العربية، أبطل وحدة الأقنوم التي قال بها اليعقوبية و الملكانية.

ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجهل منك!و كان ابن فهريز في نفسه أكثر الناس علما و أدبا، و كان حريصا على الجثلقة. فقال للفتى: و كيف حللت عندك هذا المحل؟ قال: لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق (1) إلا مديد القامة، و أنت قصير القامة، و لا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الحلق، و أنت دقيق الصوت رديء الحلق، و لا نتخذه إلا و هو وافر اللحية عظيمها و أنت خفيف اللحية صغيرها، و أنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلا زاهدا في الرئاسة، و أنت أشد الناس عليها كلبا، و أظهرهم لها طلبا. فكيف لا تكون أجهل الناس و خصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة، و أنت قد شغلت في طلبها بالك، و أسهرت فيها ليلك. و قال أبو الحجناء في شدة الصوت:

إني إذا ما زبّب الأشداق # و التجّ حولي النقع و اللقلاق (2)

ثبت الجنان مرجم ودّاق المرجم: الحاذق بالمراجمة بالحجارة. و الودّاق الذي يسيل الحجارة كالودق من المطر.

و جاء في الحديث: « «من وقي شرّ لقلقه و قبقبه و ذبذبه وقي الشر» .

يعني لسانه و بطنه و فرجه.

و قال عمر بن الخطاب في بواكي خالد بن الوليد بن المغيرة: «و ما عليهن أن يرقن من دموعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة» .

و جاء في الأثر: «ليس منا من حلق أو صلق، أو سلق، أو شق» .

و مما مدح به العماني هارون الرشيد، بالقصيد دون الرجز، قوله:

جهير العطاس شديد النّياط # جهير الرواء جهير النغم

و يخطو على الأين خطو الظليم # و يعلو الرجال بجسم عمم

---

(1) (الجاثليق: القسيس الأكبر، و رتبته أسمى من رتبة المطران.
(2) زبب الأشداق: ظهر عليها الزبد. اللقلقة: الصوت و الجلبة.

النياط: معاليق القلب. و الأين: الاعياء. و الظليم: ذكر النعام. و يقال إنه لعمم الجسم، و إن جسمه لعمم، إذا كان تاما. و منه قيل نبت عمم و أعتم النبت، إذا تم.

و كان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبين عن يمين و شمال، ثم طاف بأوسع من خطو الظليم، و أسرع من رجع يد الذئب.

و قد أخبرني إبراهيم بن السندي بمحصول ذرع ذلك الخطو، إلا إني أحسبه فراسخ فيما رأيته يذهب إليه.

و قال إبراهيم: و نظر إليه أعرابي في تلك الحال و الهيئة فقال:

خطو الظليم ريع ممسى فانشمر

ريع: فزع. ممسى: حين المساء. انشمر: جد في الهرب.

و حدثني إبراهيم بن السندي قال: لما أتى عبد الملك بن صالح وفد الروم و هو في بلادهم، أقام على رأسه رجالا في السماطين لهم قصر و هام و مناكب و أجسام، و شوارب و شعور، فبينا هم قيام يكلمونه و منهم رجل وجهه في قفا البطريق إذ عطس عطسة ضئيلة، فلحظه عبد الملك، فلم يدر أي شيء أنكر منه، فلما مضى الوفد قال له: ويلك، هلا إذ كنت ضيق المنخر كزّ الحيشوم، أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج؟! و في تفضيل الجهارة في الخطب يقول شبّة بن عقال بعقب خطبته عند سليمان بن علي بن عبد اللّه بن عباس:

ألا ليت أمّ الجهم و اللّه سامع # ترى، حيث كانت بالعراق، مقامي

عشية بذّ الناس جهري و منطقي # و بذّ كلام الناطقين كلامي

و قال طحلاء يمدح معاوية بالجهارة و بجودة الخطبة:

ركوب المنابر و ثابها # معنّ بخطبته مجهر

تريع إليه هوادي الكلام # إذا ضلّ خطبته المهذر

معن: تعن له الخطبة فيخطبها مقتضبا لها. تريع: ترجع إليه. هوادي الكلام: أوائله. فأراد أن معاوية يخطب في الوقت الذي يذهب كلام المهذر فيه. و المهذر: المكثار.

و زعموا أن أبا عطية عفيفا النصري، في الحرب التي كانت بين ثقيف و بين بني نصر، لما رأى الخيل بعقوته يومئذ دوائس نادى: يا صباحاه!أتيتم يا بني نصر. فألقت الحبالى أولادها من شدة صوته. قالوا: فقال ربيعة بن مسعود يصف تلك الحرب و صوت عفيف

عقاما ضروسا بين عوف و مالك # شديدا لظاها تترك الطفل أشيبا

و كانت جعيل يوم عمرو أراكة # أسود الغضى غادرن لحما متربّا [1]

و يوم بمكروثاء شدت معتّب # بغاراتها قد كان يوما عصبصبا [2]

فأسقط أحبال النساء بصوته # عفيف و قد نادى بنصر فطرّبا

و كان أبو عروة، الذي يقال له أبو عروة السباع، يصيح بالسبع و قد احتمل الشاة، فيخليها و يذهب هاربا على وجهه. فضرب به الشاعر المثل–و هو النابغة الجعدي–فقال:

و أزجر الكاشح العدو إذا اغتا # بك عندي زجرا على أضم

زجر أبي عروة السباع إذا # أشفق أن يلتبسن بالغنم

و أنشد أبو عمرو الشيباني لرجل من الخوارج يصف صيحة شبيب بن يزيد ابن نعيم. قال أبو عبيدة و أبو الحسن: كان شبيب يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه، فلا يلوي أحد على أحد. و قال الشاعر فيه:

إن صاح يوما حسبت الصخر منحدرا # و الريح عاصفة و الموج يلتطم

قال أبو العاصي: أنشدني أبو محرز خلف بن حيان، و هو خلف الأحمر مولى الأشعريين، في عيب التشادق:

---

(1) عمرو و أراكة: موضعان.
(2) مكروثاء: موضع. العصبصب: الشديد.

له حنجر رحب و قول منقح # و فصل خطاب ليس فيه تشادق

إذا كان صوت المرء خلف لهاته # و أنحى بأشداق لهن شقاشق

و قبقب يحكي مقرما في هبابه # فليس بمسبوق و لا هو سابق [1]

و قال الفرزدق:

شقاشق بين أشداق و هام

و أنشد خلف:

و ما في يديه غير شدق يميله # و شقشقة خرساء ليس لها نعب

متى رام قولا خالفته سجية # و ضرس كقعب القين ثلّمه الشعب

و أنشد أبو عمرو و ابن الأعرابي:

و جاءت قريش قريش البطاح # هي العصب الأوّل الداخلة

يقودهم الفيل و الزندبيل # و ذو الضرس و الشفة المائلة

ذو الضرس و ذو الشفة، هو خالد بن سلمة المخزومي الخطيب.

و الزندبيل أبان و الحكم ابنا عبد الملك بن بشر بن مروان. يعني دخولهم على ابن هبيرة.
و الزندبيل: الأنثى من الفيلة، فيما ذكر أبو اليقظان بن حفص.

و قال غيره: هو الذكر. فلم يقفوا من ذلك على شيء.

و قال الشاعر في خالد بن سلمة المخزومي:

فما كان قائلهم دغفل # و لا الحيقطان و لا ذو الشّفة

قوله «دغفل» يريد دغفل بن يزيد بن حنظلة الخطيب الناسب.

و الحيقطان: عبد أسود، و كان خطيبا لا يجارى.

---

(1) المقرم: الفحل المكرم. الهباب: النشاط.

و أنشد بعض أصحابنا:

و قافية لجلجتها فرددتها # لذي الضرس لو أرسلتها قطرت دما

و قال الفرزدق: أنا عند الناس أشعر العرب، و لربما كان نزع ضرس أيسر عليّ من أن أقول بيت شعر.

قال: و أنشدنا منيع:

فجئت و وهب كالخلاة يضمّها # إلى الشدق أنياب لهن صريف [1]

فقعقعت لحيي خالد و اهتضمته # بحجة خصم بالخصوم عنيف

أبو يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير، قال: سئل (الحارث) بن أبي ربيعة [2] عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه فقال: كم كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم بكتاب اللّه، و الفقه في السنة، و الهجرة إلى اللّه و رسوله، و البسطة في العشيرة، و النجدة في الحرب، و البذل للماعون.

و قال الآخر:

و لم تلفني فهّا و لم تلف حجتي # ملجلجة أبغي لها من يقيمها [3]

و لا بتّ أزجيها قضيبا و تلتوي # أراوغها طورا و طورا أضيمها [4]

و أنشدني أبو الرديني العكلي:

فتى كان يعلو مفرق الحق قوله # إذا الخطباء الصيد عضّل قيلها [5]

---

(1) الخلاة: الرطب من النبات. الصريف: الصوت.
(2) هو أخو عمر بن أبي ربيعة المخزومي و لكنه كان رجلا وفيا صالحا حاول أن يصد أخاه عن غزله الإباحي.
(3) الفه: العي. الملجلجة: المضطربة.
(4) أزجيها: أسوقها. القضيب: المقتضبة ليس لها حسن. أضرمها: انتقصها.
(5) عضل: صعب خروجه.

و قال الخريمي في تشادق علي بن الهيثم:

يا علي بن هيثم يا سماقا # قد ملأت الدنيا علينا نفاقا

خل لحييك يسكنان و لا تضرب # على تغلب بلحييك طاقا

لا تشادق إذا تكلمت و اعلم # أن للناس كلهم أشداقا

و كان علي بن الهيثم جوادا، بليغ اللسان و القلم.

و قال أبو يعقوب الخريمي: ما رأيت كثلاثة رجال يأكلون الناس أكلا حتى إذا رأوا ثلاثة رجال ذابوا كما يذوب الملح في الماء، و الرصاص في النار: كان هشام بن محمد علامة نسابة، و راوية للمثالب عيابة، فإذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص في النار. و كان علي بن الهيثم مفقعا نيا صاحب تفقيع و تقعير، و يستولي على كلام أهل المجلس لا يحفل بشاعر و لا بخطيب، فإذا رأى موسى الضبي ذاب كما يذوب الرصاص عند النار. و كان علويه المغني واحد الناس في الرواية و في الحكاية، و في صنعة الغناء و جودة الضرب، و في الإطراب و حسن الحلق، فإذا رأى مخارقا ذاب كما يذوب الرصاص عند النار.

ثم رجع بنا القول إلى ذكر التشديق و بعد الصوت.

قال أبو عبيدة: كان عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب، رديفا للملوك، و رحّالا إليهم، و كان يقال له عروة الرحال، فكان يوم أقبل مع ابن الجون، يريد بني عامر، فلما انتهى إلى واردات مع الصبح، قال له عروة: إنك قد عرفت طول صحبتي لك، و نصيحتي إياك، فأذن لي فأهتف بقومي هتفة.

قال: نعم، و ثلاثا. فقام فنادى: يا صباحاه!ثلاث مرات. قال: فسمعنا شيوخنا يزعمون أنه أسمع أهل الشعب، فتلببوا للحرب، و بعثوا الربايا، ينظرون من أين يأتي القوم.

قال: و تقول الروم: لو لا ضجة أهل رومية و أصواتهم، لسمع الناس جميعا صوت وجوب القرص في المغرب.

و أعيب عندهم من دقة الصوت و ضيق مخرجه و ضعف قوته، أن يعتري الخطيب البهر و الارتعاش، و الرعدة و العرق.

قال أبو الحسن: قال سفيان بن عيينة: تكلم صعصعة عند معاوية فعرق، فقال معاوية: بهرك القول!فقال صعصعة: «إن الجياد نضاحة بالماء» .

و الفرس إذا كان سريع العرق، و كان هشا، كان ذلك عيبا. و كذلك هو في الكثرة، فإذا أبطأ ذلك و كان قليلا قيل: قد كبا، و هو فرس كاب. و ذلك عيب أيضا.

و أنشدني ابن الأعرابي، لأبي مسمار العكلي، في شبيه بذلك قوله:

للّه در عامر إذا نطق # في حفل أملاك و في تلك الحلق [1]

ليس كقوم يعرفون بالسرق # من خطب الناس و مما في الورق

يلفقون القول تلفيق الخلق # من كل نضاح الذفارى بالعرق

إذا رمته الخطباء بالحدق

(و الذفارى هنا: يعني بدن الخطيب. و الذفريان للبعير، و هما اللحمتان في قفاه) .

و إنما ذكر خطب الأملاك لأنهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر. و لذلك قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «ما يتصعدني كلام كما تتصعدني خطبة النكاح» .

و قال العماني:

لا ذفر هش و لا بكابي # و لا بلجلاج و لا هياب

الهش: الذي يجود بعرقه سريعا، و ذلك عيب. و الذفر: الكثير العرق.

---

(1) الأملاك: التزويج و عقد النكاح.

و الكابي: الذي لا يكاد يعرق، كالزند الكابي الذي لا يكاد يوري. فجعل له العماني حالا بين حالين إذا خطب، و خبر أنه رابط الجأش، معاود لتلك المقامات.

و قال الكميت بن زيد–و كان خطيبا–: «إن للخطبة صعداء، و هي على ذي اللب أرمى» .

و قولهم: أرمى و أربى سواء يقال: فلان قد أرمى على المائة و أربى.

و لم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى و لا تخلّص إلى خاصته. و إنما يجترئ على الخطبة الغر الجاهل الماضي، الذي لا يثنيه شيء، أو المطبوع الحاذق، الواثق بغزارته و اقتداره، فالثقة تنفي عن قلبه كل خاطر يورث اللجلجة و النحنحة، و الانقطاع و البهر و العرق.

و قال عبيد اللّه بن زياد، و كان خطيبا، على لكنة كانت فيه: «نعم الشيء الأمارة، لو لا قعقعة البرد، و التشزن للخطب» (1) .

و قيل لعبد الملك بن مروان: عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين! قال: «و كيف لا يعجل عليّ و أنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين» . يعني خطبة الجمعة و بعض ما يعرض من الأمور.

و قال بعض الكلبيين.

فإذا خطبت على الرجال فلا تكن # خطل الكلام تقوله مختالا

و اعلم بأن من السكوت إبانة # و من التكلم ما يكون خبالا

بشر بن المعتمر يقنن أصول البلاغة

مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السّكوني الخطيب، و هو

(1) التشزن: التأهب و الاستعداد.

يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظّارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا و اطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره و تنميقه، و كان أول ذلك الكلام:

خذ من نفسك ساعة نشاطك و فراغ بالك و إجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، و أشرف حسبا، و أحسن في الأسماع، و أحلى في الصدور، و أسلم من فاحش الخطاء، و أجلب لكلّ عين و غرّة، من لفظ شريف و معنى بديع. و أعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد و المطاولة و المجاهدة، و بالتكلف و المعاودة. و مهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، و خفيفا على اللسان سهلا، و كما خرج من ينبوعه و نجم من معدنه. و إياك و التوعّر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، و التعقيد هو الذي يستهلك معانيك، و يشين ألفاظك. و من أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، و من حقهما أن تصونهما عما يفسدهما و يهجنهما، و عما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، و ترتهن نفسك بملابستهما و قضاء حقهما. فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، و فخما سهلا، و يكون معناك ظاهرا مكشوفا، و قريبا معروفا، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، و إما عند العامة إن كنت للعامة أردت. و المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، و كذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة.

و إنما مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة، مع موافقة الحال، و ما يجب لكل مقام من المال. و كذلك اللفظ العامي و الخاصيّ. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، و بلاغة قلمك، و لطف مداخلك، و اقتدارك على نفسك، إلى أن تفعم العامة معاني الخاصة، و تكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، و لا تجفو عن الاكفاء، فأنت البليغ التام.

قال بشر: فلما قرئت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان.

قال أبو عثمان (1) : أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، و لا ساقطا سوقيا. و إذا سمعتموني أذكر العوامّ فإني لست أعني الفلاحين و الحشوة (2) و الصناع و الباعة، و لست أعني أيضا الأكراد في الجبال. و سكان الجزائر في البحار، و لست أعني من الأمم مثل البربر و الطيلسان (3) ، و مثل موقان و جيلان (4) ، و مثل الزنج و أشباه الزنج. و إنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، و فارس، و الهند، و الروم. و الباقون همج و أشباه الهمج. و أما العوام من أهل ملتنا و دعوتنا، و لغتنا و أدبنا و أخلاقنا، فالطبقة التي عقولها و أخلاقها فوق تلك الأمم و لم يبلغوا منزلة الخاصة منا. على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا.

ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بشر بن المعتمر، و إلى ما ذكر من الأقسام.

قال بشر: فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك و لا تعتريك و لا تسمح لك عند أول نظرك و في أول تكلّفك، و تجد اللفظة لم تقع موقعها و لم تصر إلى قرارها و إلى حقها من أماكنها المقسومة لها، و القافية لم تحل في مركزها و في نصابها، و لم تتصل بشكلها، و كانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، و النزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، و لم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد. فإن أنت تكلفتهما و لم تكن حاذقا مطبوعا و لا محكما لشأنك، بصيرا بما عليك و ما لك، عابك من أنت أقل عيبا منه، و رأى من هو دونك أنه فوقك.

فإن ابتليت بأن تتكلّف القول، و تتعاطى الصنعة، و لم تسمح لك الطباع في أول وهلة، و تعاصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل و لا تضجر، و دعه بياض يومك و سواد ليلتك، و عاوده عند نشاطك و فراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة

---

(1) قال أبو عثمان: عبارة مقحمة من الناسخ.
(2) الحشوة: أرذال الناس.
(3) الطيلسان: اقليم واسع في بلاد الخزر و الديلم.
(4) موقان و جيلان: أهل طبرستان و ما وراءها.

و المواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق. فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، و من غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، و أخفّها عليك، فإنك لم تشتهه و لم تنازع إليه إلا و بينكما نسب، و الشيء لا يحنّ إلا إلى ما يشاكله، و إن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، و لا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة و المحبة. فهذا هذا.

و قال: ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما و لكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

فإن كان الخطيب متكلما تجنّب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، و إلى تلك الألفاظ أميل، و إليها أحنّ و بها أشغف، و لأن كبار المتكلمين و رؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، و أبلغ من كثير من البلغاء. و هم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، و هم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، و هم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكلّ خلف، و قدوة لكل تابع. و لذلك قالوا العرض و الجوهر، و أيس و ليس (1) ، و فرقوا بين البطلان و التلاشي، و ذكروا الهذية و الهوية و الماهية و أشباه ذلك. و كما وضع الخليل بن أحمد (2) لأوزان القصيد و قصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، و تلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل، و البسيط، و المديد، و الوافر، و الكامل، و أشباه ذلك، و كما ذكر الأوتاد

(1) أيس و ليس: الوجود و العدم، استعمل الكندي هاتين اللفظتين في رسائله الفلسفية و كان معاصرا للجاحظ.
(2) الخليل بن أحمد الفراهيدي عاش في القرن الثاني للهجرة و وضع علم العروض و علم الموسيقى و علم المعاجم. و قد ذكره الجاحظ في بعض رسائله.

و الأسباب، و الخرم و الزحاف. و قد ذكرت العرب في أشعارها السناد و الإقواء و الإكفاء، و لم أسمع بالإيطاء. و قالوا في القصيد و الرجز و السجع و الخطب، و ذكروا حروف الرويّ و القوافي، و قالوا هذا بيت و هذا مصراع. و قد قال جندل الطهوي حين مدح شعره:

لم أقو فيهن و لم أساند

و قال ذو الرمة:

و شعر قد أرقت له غريب # أجنبه المساند و المحالا

و قال أبو حزام العكليّ (1) :

بيوتا نصبنا لتقويمها # جذول الربيئين في المربأة

بيوتا على الها لها سجعة # بغير السناد و لا المكفأة

و كما سمى النحويون، فذكروا الحال و الظروف و ما أشبه ذلك، لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين و أبناء البلديين علم العروض و النحو. و كذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم.

قالوا: و قبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين، أو على منبر جماعة، أو في سدة دار الخلافة، أو في يوم جمع و حفل، أما في إصلاح بين العشائر، و احتمال دماء القبائل، و استلال تلك الضغائن و السخائم، فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن، رفيع المكان: «ثم إن اللّه عز و جل بعد أن أنشأ الخلق و سوّاهم و مكّن لهم، لاشاهم فتلاشوا» . و لو لا أن المتكلم افتقر إلى أن يلفظ بالتلاشي لكان ينبغي أن يؤخذ فوق يده.

(1) أبو حزام العكلي: هو غالب بن الحارث، عاش في العصر العباسي الأول، حفل شعره بالغريب.

و خطب آخر في وسط دار الخلافة، فقال في خطبته: «و أخرجه اللّه من باب الليسية، فأدخله في باب الأيسية» .

و قال مرة أخرى في خطبة له: «هذا فرق ما بين السارّ و الضارّ، و الدفاع و النفاع» .

و قال مرة أخرى: «فدلّ ساتره على غامره، و دل غامره على منحله» .

فكاد إبراهيم بن السّندي يطير شققا، و ينقد غيظا. هذا و إبراهيم من المتكلمين، و الخطيب لم يكن من المتكلمين.

و إنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني. و قد تحسن أيضا ألفاظ المتكلمين في مثل شعر أبي نواس و في كل ما قالوه على وجه التظرّف و التملّح، كقول أبي نواس:

و ذات خد مورّد # قوهية المتجرد [1]

تأمّل العين منها # محاسنا ليس تنفد

فبعضها قد تناهى # و بعضها يتولد

و الحسن في كل عضو # منها معاد مردد

و كقوله:

يا عاقد القلب مني # هلا تذكّرت حلا

تركت مني قليلا # من القليل أقلا

يكاد لا يتجزا # أقلّ في اللفظ من لا

و قد يتملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية، كقول العماني للرشيد، في قصيدته التي مدحه فيها:

---

(1) قوهية: بيضاء.

من يلقه من بطل مسرند # في زغفة محكمة بالسرد [1]

تجول بين رأسه و الكرد

يعني العنق. و فيها يقول أيضا:

لما هوى بين غياض الأسد # و صار في كفّ الهزبر الورد

آلى يذوق الدهر آب سرد [2]

و كقول الآخر:

و دلهني وقع الأسنة و القنا # و كافر كوبات لها عجر قفد [3]

بأيدي رجال ما كلامي كلامهم # يسوموننني مردا و ما أنا و المرد

و مثل هذا موجود في شعر (أبي) العذافر الكندي و غيره، و يمكن أيضا أن يكون الشعر مثل شعر بحر و شاذ، و أسود بن أبي كريمة. و كما قال يزيد ابن ربيعة بن مفرغ [4] .

آب است نبيذ است # عصارات زبيب است

سميّه روسبيد است [5]

و قال أسود بن أبي كريمة:

لزم الغرّام ثوبي # بكرة في يوم سبت [6]

---

(1) المسرند: من يغلب و يعلو. الزغفة: الدرع اللينة المحكمة. السرد: الزرد.

(2) آب سرد: ماء بارد.

(3) المدله: الساهي القلب، الذاهب العقل. العجر: العقدة في الخشب. قفد: الغليظ العنق.

(4) يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري: شاعر أموي هجا أبا سفيان و اتهمه بالزنا، فسقاه عبيد اللّه بن زياد نبيذا ممزوجا بالشبرم و طوفه في الأسواق فكان يسلح و الصبيان يتبعونه يسألونه عما به فكان يجيبهم بهذه الأبيات.

(5) آب: ماء. أي أن النبيذ ما هو إلا ماء، أو عصارات الزبيب. روسبيد: مشهورة. سمية:
أم زياد بن أبيه.

(6) الغرام: المطالبون بالدين.

فتمايلت عليهم # ميل زنكي بمستي [1]

قد حسا الداذي صرفا # أو عقارا بايخست [2]

ثم گفتم دور باد # ويحكم آن خر كفت [3]

إن جلدي دبغته # أهل صنعاء بجفت [4]

و أبو عمرة عندي # آن كوربد نمست [5]

جالس!ندر مكناد # أيا عمد ببهشت [6]

طبقات الكلام

و كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، و ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقي. و كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل و السخيف، و المليح و الحسن، و القبيح و السمج، و الخفيف و الثقيل، و كله عربي، و بكلّ قد تكلموا، و بكلّ قد تمادحوا و تعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل، و لا بينهم في ذلك تفاوت، فلم ذكروا العييّ و البكيء، و الحصر و المفحم، و الخطل و المسهب، و المتشدّق، و المتفيهق، و المهمار، و الثرثار، و المكثار و الهمار، و لم ذكروا الهجر و الهذر، و الهذيان و التخليط و قالوا: رجل تلقّاعة [7] ، و فلان يتلهيع في خطبته [8] . و قالوا: فلان

---

(1) «عليه مثل زنكي «تحريف. الزنكي: الزنجي. مستى السكر و إدمان الشراب.
(2) الداذي: نبت له عنقود مستطيل. العقار: الخمر. بايخست: الشراب على الريق بالفارسية.
(3) كفتم: قلت. دور باد: معاذ اللّه. آن: اسم إشارة. خر: البليد الأحمق. كفت: قال.
(4) جفت: ثمرة.
(5) أبو عمرة: كنية الجوع. كور: أعمى أو أعور. معناه كان أعمى و ليس ثملا.
(6) أندر بمعنى في. مكناد بمعنى لا تجعل. ببهشت: في الجنة.
(7) التلقاعة: الكثير الكلام.
(8) تلهيع: أفرط.

يخطئ في جوابه، و يحيل في كلامه، و يناقض في خبره. و لو لا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء.

و أنا أقول: إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع و لا آنق، و لا ألذ في الأسماع، و لا أشد اتصالا بالعقول السليمة، و لا أفتق للسان، و لا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، و العلماء البلغاء.

و قد أصاب القوم في عامة ما وصفوا، إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني. و قد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، و ربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الألفاظ، و الشريف الكريم من المعاني. كما أن النادرة الباردة جدا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدا. و إنما الكرب الذي يختم على القلوب، و يأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارة و لا باردة، و كذلك الشعر الوسط، و الغناء الوسط، و إنما الشأن في الحار جدا و البارد جدا.

و كان محمد بن عباد بن كاسب يقول: و اللّه لفلان أثقل من مغن وسط و أبغض من ظريف وسط.

و متى سمعت–حفظك اللّه–بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها و مخارج ألفاظها، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها و أخرجتها مخارج كلام المولدين و البلديين، خرجت من تلك الحكاية و عليك فضل كبير. و كذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، و ملحة من ملح الحشوة و الطغام، فإياك و أن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الامتاع بها، و يخرجها من صورتها، و من الذي أريدت له، و يذهب استطابتهم إياها و استملاحهم لها.

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير و التقعيب، و التشديق و التمطيط و الجهورة و التفخيم. و أقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، و بقرب مجامع الأسواق.

و لأهل المدينة ألسن ذلقة، و ألفاظ حسنة، و عبارة جيدة. و اللحن في عوامهم فاش، و على من لم ينظر في النحو منهم غالب.

و اللحن من الجواري الظراف، و من الكواعب النواهد، و من الشواب الملاح، و من ذوات الخدور الغرائر، أيسر. و ربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف، و لكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد. و كما يستملحون اللثغة إذا كانت حديثة السن، و مقدودة مجدولة، فإذا أسنت و اكتهلت تغير ذلك الاستملاح.

و ربما كان اسم الجارية غليّم أو صبيّة أو ما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة، و عجوزا شهلة، و حملت اللحم و تراكم عليها الشحم، و صار بنوها رجالا و بناتها نساء، فما أقبح حينئذ أن يقال لها: يا غليم كيف أصبحت؟و يا صبية كيف أمسيت.

و لأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل، و قالت أم عمرو و ذهبت أم حكيم. نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدم في تلك الكنى و قد فسرنا ذلك كله في كتاب الأسماء و الكنى، و الألقاب و الأنباز (1) :

و قد قال مالك بن أسماء (2) في استملاح اللحن من بعض نسائه:

أ مغطّى مني على بصر للـــ # حب أم أمنت أكمل الناس حسنا

و حديث ألذه هو مما # ينعت الناعتون يوزن و زنا

منطق صائب و تلحن أحيا # نا و أحلى الحديث ما كان لحنا

عيون المعاني

و هم يمدحون الحذق و الرفق، و التخلص إلى حبات القلوب، و إلى

(1) راجع كشاف آثار الجاحظ الذي نشرناه ملحقا برسائل الجاحظ الكلامية، طبعة دار و مكتبة الهلال، بيروت، سنة 1987.
(2) مالك بن أسماء شاعر أموي غزل، تزوج الحجاج أخته هندا.

إصابة عيون المعانى. و يقولون: أصاب الحق في الجملة. و يقولون: قرطس فلان، و أصاب القرطاس، إذا كان أجود إصابة من الأول. فإن قالوا: رمى فأصاب الغرّة، و أصاب عين القرطاس، فهو الذي ليس فوقه أحد.

و من ذلك قولهم: فلان يفلّ الحزّ، و يصيب المفصل، و يضع الهناء مواضع النقب.

و قال زرارة بن جزء، حين أتى عمر بن الخطاب رحمه اللّه فتكلم عنده و رفع حاجته إليه.

أتيت أبا حفص و لا يستطيعه # من الناس إلا كالسنان طرير

فوفقني الرحمن لما لقيته # و للباب من دون الخصوم صرير

قروم غيارى عند باب ممنّع # تنازع ملكا يهتدي و يجور

فقلت له قولا أصاب فؤاده # و بعض كلام الناطقين غرور

و في شبيه بذلك يقول عبد الرحمن بن حسان حيث يقول:

رجال أصحاء الجلود من الخنا # و ألسنة معروفة أين تذهب

و في إصابة فصّ الشيء و عينه، يقول ذو الرمة في مديح بلال بن أبي بردة الأشعري:

تناخي عند خير فتى يمان # إذا النكباء عارضت الشمالا (1)

و خيرهم مآثر أهل بيت # و أكرمهم و إن كرموا فعالا

و أبعدهم مسافة غور عقل # إذا ما الأمر في الشبهات عالا (2)

و لبّس بين أقوام فكل # أعدّ له الشغازب و المحالا (3)

و كلهم ألدّ له كظاظ # أعدّ لكل حال القوم حالا (4)

فصلت بحكمة فأصبت منها # فصوص الحق فانفصل انفصالا

---

(1) النكباء: كل ريح تهب بين ريحين.
(2) عال: عظم و تفاقم.
(3) الشغازب: ضرب من الحيلة في الصراع. المحال: الحيلة.
(4) الكظاظ: تجاوز الحد في العداوة.

و كان أبو سعيد الرأي، و هو شرشير المدني يعيب أبا حنيفة، فقال الشاعر:

عندي مسائل لا شرشير يحسنها # عند السؤال و لا أصحاب شرشير

و لا يصيب فصوص الحقّ نعلمه # إلا حنيفية كوفية الدور

و مما قالوا في الإيجاز، و بلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة، قول ثابت فطنة:

ما زلت بعدك في هم يجيش به # صدري و في نصب قد كاد يبليني

لا أكثر القول فيما يهضبون به # من الكلام، قليل منه يكفيني [1]

إني تذكرت قتلى لو شهدتهم # في غمرة الموت لم يصلوا بها دوني

و قال رجل من طي و مدح كلام رجل فقال: «هذا كلام يكتفى بأولاه، و يشتفى بأخراه» .

و قال أبو و جزة السعدي، من سعد بن بكر، يصف كلام رجل:

يكفي قليل كلامه و كثيره # ثبت إذا طال النضال مصيب

و من كلامهم الموجز في أشعارهم العكلي، في صفة قوس:

في كفه معطية منوع # موثقة صابرة جزوع

و قال الآخر، و وصف سهم رام أصاب حمارا، فقال:

حتى نجا من جوفه و ما نجا [2]

و قال الآخر و هو يصف ذئبا:

---

(1) يهضبون في الحديث: يخوضون فيه مع ارتفاع صوت.

(2) أي نجا السهم من جوف الحمار و لم ينج الحمار من الهلاك.

أطلس يخفي شخصه غباره # في شدقه شفرته و ناره [1]

هو الخبيث عينه فراره # بهم بني محارب مزداره [2]

و وصف الآخر ناقة فقال:

خرقاء إلا أنها صناع

يصف سرعة نقل يديها و رجليها، إنها تشبه المرأة الخرقاء، و هي الخرقاء في أمرها الطياشة. و قال الآخر و وصف سهما صاردا، فقال:

ألقى على مفطوحها مفطوحا # غادر داء و نجا صحيحا

المفطوح الأول للقوس، و هو العريض، و هو هاهنا موضع مقبض القوس. و المفطوح الثاني: السهم العريض. يعني أنه ألقى على مقبض القوس سهما عريضا.

و قال الآخر:

إنك يا ابن جعفر لا تفلح # الليل أخفى و النهار أفضح

و قالوا في المثل: «الليل أخفى للويل» . و قال رؤبة يصف حمارا:

حشرج في الجوف سحيلا و شهق # حتى يقال ناهق و ما نهق

الحشرجة: صوت الصدر. و السحيل: صوت الحمار إذا مدّه.

و الشهيق: أن يقطّع الصوت.

و قال بعض ولد العباس بن مرداس السّلمي، في فرس أبي الأعور السلمي:

---

(1) أراد أنه يسرع العدو فيثير من الغبار ما يخفي ما هو. الشفرة: السكين العريضة. عنى أنه قد استغنى بأنيابه عن معالجة مطعمه بالشفرة ثم بالنار.

(2) يعني: تعرف خبثه في عينه إذا أبصرته. يضرب مثلا لمن يدل ظاهره على باطنه.

جاء كلمع البرق جاش ناظرة # يسبح أولاه و يطفو آخره

فما يمس الأرض منه حافره

قوله: جاش ناظره، أي جاش بمائه. و ناظر البرق: سحابه. يسبح، يعني يمد ضبعيه، فإذا مدهما علا كفله. و قال الآخر:

إن سرك الأهون فابدأ بالأشد

و قال العجّاج:

مكّن السيف إذا السيف انأطر # من هامة الليث إذا ما الليث هر

كجمل البحر إذا خاض جسر # غوارب اليمّ إذا اليم هدر

حتى يقال حاسر و ما حسر

قالوا: جمل البحر سمكة طولها ثلاثون ذراعا. يقول: هذا الرجل يبعد كما تبعد هذه السمكة بجسارة، لا يردها شيء، حتى يقال كاشف و ما انكشف البحر.

يقال: البحر حاسر و جازر. يقول: حتى يحسب الناس من ضخم ما يبدو من هذا الجمل، أن الماء قد نضب عنه، و إن البحر حاسر. و قال آخر:

يا دار قد غيّرها بلاها # كأنما بقلم محاها

أخربها عمران من بناها # و كرّ ممساها على مغناها

و طفقت سحابة تغشاها # تبكي على عراصها عيناها

قوله: أخربها عمران من بناها، يقول: عمّرها بالخراب. و أصل العمران مأخوذ من العمر، و هو البقاء، فإذا بقي الرجل في داره فقد عمرها. فيقول:

إن مدة بقائه فيها و قام مقام العمران في غيرها، سمي بالعمران. و قال الشاعر:

يا عجّل الرحمن بالعذاب # لعامرات البيت بالخراب

يعني الفار. يقول: هذا عمرانها، كما يقول الرجل: «ما نرى من خيرك و رفدك، إلا ما يبلغنا من خطبك علينا، و فتّك في أعضادنا» .

و قال اللّه عز و جل: هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ اَلدِّينِ . و العذاب لا يكون نزلا، و لكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم، سمي باسمه.

و قال الآخر:

فقلت أطعمني عمير تمرا # فكان تمري كهرة و زبرا [1]

و التمر لا يكون كهرة و لا زبرا، و لكنه على ذا. و قال اللّه عز و جل:

وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ، و ليس في الجنة بكرة و لا عشي، و لكن على مقدار البكر و العشيات. و على هذا قول اللّه عز و جل: وَ قَالَ اَلَّذِينَ فِي اَلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ . و الخزنة: الحفظة. و جهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ و لا يختار دخولها إنسان فيمنع منها، و لكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به.

قوله: ممساها، يعني مساءها. و مغناها: موضعها الذي أقيم فيه.

و المغاني: المنازل التي كان بها أهلوها. و طفقت، يعني ظلت. تبكي على عراصها عيناها، عيناها هاهنا للسحاب. و جعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، و تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه. و يقال لكل جوبة منفتقة ليس فيها بناء: عرصة.

و قال أبو عمرو بن العلاء: اجتمع ثلاثة من الرواة فقال لهم قائل: أي نصف بيت شعر أحكم و أوجز؟فقال أحدهم: قول حميد بن ثور الهلالي:

و حسبك داء أن تصح و تسلما

و لعل حميدا أن يكون أخذه عن النمر بن تولب، فإن النمر قال:

يحبّ الفتى طول السلامة و الغنى # فكيف ترى طول السلامة يفعل

و قال أبو العتاهية:

---

(1) الكهرة: الانتهار. الزبر: الزجر و المنع.

أسرع في نقص امرئ تمامه

ذهب إلى كلام الأول: «كل ما أقام شخص، و كل ما ازداد نقص، و لو كان الناس يميتهم الداء، إذا لأعاشهم الدواء» .

و قال الثاني من الرواة الثلاثة: بل قول أبي خراش الهذلي (1) :

نوكل بالأدنى و إن جل ما يمضي

و قال الثالث من الرواة: بل قول أبي ذؤيب الهذلي:

و إذا ترد إلى قليل تقنع

فقال قائل: هذا من مفاخر هذيل: أن يكون ثلاثة من الرواة لم يصيبوا في جميع أشعار العرب إلا ثلاثة أنصاف، اثنان منها لهذيل وحدها. فقيل لهذا القائل: إنما كان الشرط أن يأتوا بثلاثة أنصاف مستغنيات بأنفسها، و النصف الذي لأبي ذؤيب لا يستغنى بنفسه، و لا يفهم السامع معنى هذا النصف حتى يكون موصولا بالنصف الأول، لأنك إذا أنشدت رجلا لم يسمع بالنصف الأول و سمع:

و إذا ترد إلى قليل تقنع

قال: من هذه التي ترد إلى قليل فتقنع. و ليس المضمن كالمطلق.

و ليس هذا النصف مما رواه هذا العالم، و إنما الرواية قوله:

و الدهر ليس بمعتب من يجزع

و مما مدحوا به الإيجاز و الكلام الذي هو كالوحي و الإشارة، قول أبي دؤاد ابن حريز الإياديّ:

يرمون بالخطب الطوال و تارة # وحي الملاحظ خيفة الرقباء

(1) أبو خراش الهذلي هو خويلد بن مرة، شاعر مخضرم مات في خلافة عمر بن الخطاب.

فمدح كما ترى الإطالة في موضعها، و الحذف في موضعه.

و مما يدل على شغفهم و كلفهم، و شدة حبهم للفهم و الإفهام، قول الأسدي في صفة كلام رجل نعت له موضعا من تلك السباسب التي لا أمارة فيها، بأقلّ اللفظ و أوجزه، فوصف إيجاز الناعت، و سرعة فهم المنعوت له، فقال:

بضربة نعت لم تعد غير أنني # عقول لأوصاف الرجال ذكورها

و هذا كقولهم لابن عباس: أنّى لك هذا العلم؟قال: «قلب عقول، و لسان سئول» . و قال الراجز:

و مهمهين قدفين مرتين # جبتهما بالنعت لا بالنعتين [1]

ظهراهما مثل ظهور الترسين # قطعته بالأمّ لا بالسمتين

و قالوا في التحذير من ميسم الشعر، و من شدة وقع اللسان، و من بقاء أثره على الممدوح و المهجو، قال امرؤ القيس بن حجر:

و لو عن نثا غيره جاءني # و جرح اللسان كجرح اليد

و قال طرفة بن العبد:

بحسام سيفك أو لسانك و الكلم # الأصيل كأرغب الكلم

قال: و أنشدني محمد بن زياد [2] :

لحيت شماسا كما تلحى العصي # سبّا لو أن السب يدمي لدمي

---

(1) المهمه: القفر المخوف. القذف: البعيد. المرت: التي لا ماء فيها و لا نبات. وصف نفسه بالحذق و المهارة.

(2) محمد بن زياد: هو الراوية المعروف بابن الأعرابي، عاصر الجاحظ و قد أخذ عنه الكثير من الشعر و اللغة، توفي سنة 231 هـ.

من نفر كلهم نكس دني # محامد الرذل مشاتيم السّري

مخابط العكم مواديع المطي # متارك الرفيق بالخرق النّطي [1]

و أنشد محمد بن زياد:

تمنى أبو العفّاق عندي هجمة # تسهّل مأوى ليلها بالكلاكل

و لا عقل عندي غير طعن نوافذ # و ضرب كأشداق الفصال الهوادل

و سب يود المرء لو مات قبله # كصدع الصفا فلّقته بالمعاول

الهجمة: القطعة من النوق فيها فحل. و الكلكل: الصدر. و الفصال:

جمع فصيل، و هو ولد الناقة إذا فصل عنها. و الهوادل: العظام المشافر.

و العقل هاهنا الدية. و العاقلة: أهل القاتل الأدنون و الأبعدون. و الصفا: جمع صفاة و هي الصخرة. و قال طرفة:

رأيت القوافي يتّلجن موالجا # تضايق عنها إن تولّجها الأبر

و قال الأخطل:

حتى أقروا و هم مني على مضض # و القول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

و قال العمانيّ:

إذ هن في الريط و في الموادع # ترمى إليهنّ كبذر الزارع

الريط: الثياب، واحدها ريطة، و الريطة: كل ملاءة لم تكن لفقين.

و الحلة لا تكون إلا ثوبين. و الموادع: الثياب التي تصون غيرها، واحدها ميدعة.

و قالوا: «الحرب أولها شكوى، و أوسطها نجوى، و آخرها بلوى» .

و كتب نصر بن سيار، إلى ابن هبيرة، أيام تحرك أمر السواد بخراسان:

(1) العكم: العدل. المخابط: طلب المعروف. مواديع المطي: مطيهم مودوعة لا يجدونها الخرق: القفر. و النطي: البعيد.

أرى خلل الرماد وميض جمر # فيوشك أن يكون له اضطرام

فإن النار بالعودين تذكى # و إن الحرب أولها الكلام

فقلت من التعجب ليت شعري # أ أيقاظ أمية أم نيام

فإن كانوا لحينهم نياما # فقل قوموا فقد طال المنام

و قال بعض المولدين:

إذا نلت العطيّة بعد مطل # فلا كانت، و إن كانت جزيله

فسقيا للعطية ثم سقيا # إذا سهلت، و إن كانت قليله

و للشعراء ألسنة حداد # على العورات موفية دليله

و من عقل الكريم إذا اتقاهم # و داراهم مداراة جميله

إذا وضعوا مكاويهم عليه، # و إن كذبوا، فليس لهنّ حيله (1)

و قالوا: «مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها» .

و مما قالوا في صفة اللسان قول الأسدي، أنشدنيها ابن الأعرابي:

و أصبحت أعددت للنائبا # ت عرضا بريئا و عضبا صقيلا (2)

و وقع لسان كحد السنا # ن و رمحا طويل القناة عسولا (3)

و قال الأعشى:

و أدفع عن أعراضكم و أعيركم # لسانا كمقراض الخفاجيّ ملحبا

الملحب: القاطع.

الخفاجي: رجل اسكاف منسوب إلى خفاجة.

---

(1) المكاوي: يعني لواذع الهجاء.
(2) العضب: السيف القاطع.
(3) العسول: المضطرب.

و قال ابن هرمة:

قل للذي ظل ذا لونين يأكلني # لقد خلوت بلحم عادم البشم

إياك لا ألزمن لحييك من لجمي # نكلا ينكل قرّاصا من اللجم [1]

إني امرؤ لا أصوغ الحلي تعمله # كفّاي، لكن لساني صائغ الكلم

و قال الآخر:

إني بغيت الشعر و ابتغاني # حتى وجدت الشعر في مكاني

في عيبة مفتاحها لساني

و أنشد:

إني و إن كان ردائي خلقا # و برنكاني سملا قد أخلقا [2]

قد جعل اللّه لساني مطلقا

الفصاحة و اللحن

قال أبو عثمان [3] : و العتّابيّ حين زعم أن كلّ من أفهمك حاجته فهو بليغ فلم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين و البلديين قصده و معناه، بالكلام الملحون، و المعدول عن جهته، و المصروف عن حقه، إنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه. و نحن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له: لم اشتريت هذه الأتان؟قال: «اركبها و تلد لي» . و قد علمنا أن معناه كان صحيحا.

و قد فهمنا قول الشيخ الفارسي حين قال لأهل مجلسه: «ما من شر من دين» و إنه قال حين قيل له: و لم ذاك يا أبا فلان؟قال: «من جرّى يتعلقون» . و ما نشك أنه قد ذهب مذهبا، و أنه كما قال.

---

(1) النكل: اللجام. القرص: القطع.

(2) البرنكان: كساء من صوف.

(3) قال أبو عثمان: عبارة مقحمة من الناسخ.

و قد فهمنا معنى قول أبي الجهير الخراساني النخاس، حين قال له الحجاج أ تبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟قال: «شريكاننا في هوازها، و شريكاننا في مداينها. و كما تجيء نكون» . قال الحجاج: ما تقول، ويلك! فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ و كلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز و بالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها.

و قلت لخادم لي: في أي صناعة أسلموا هذا الغلام؟قال: «في أصحاب سند نعال» يريد: في أصحاب النعال السندية. و كذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذي دونه: «اكتب لي قل خطين و ريحني منه» .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة و اللكنة، و الخطأ و الصواب، و الاغلاق و الإبانة، و الملحون و المعرب، كله سواء، و كله بيانا. و كيف يكون ذلك كله بيانا، و لو لا طول مخالطه السامع للعجم و سماعه للفاسد من الكلام، لما عرفه. و نحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا. و أهل هذه اللغة و أرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي و الصقلبي، و إن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم. فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيرا من إرادته. و كذلك الكلب، و الحمار، و الصبي الرضيع.

و إنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء. و أصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا: «مكره أخاك لا بطل» . و: «إذا عز أخاك فهن» . و من لم يفهم هذا لم يفهم قولهم: ذهبت إلى أبو زيد، و رأيت أبي عمرو. و متى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا و أشباهه بهرجوه و لم يسمعوا منه، لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة و تنقص البيان. لأن تلك اللغة إنما انقادت و استوت، و اطردت و تكاملت، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة، و في تلك الجيرة.

و لفقد الخطأ من جميع الأمم.

و لقد كان بين زيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة، و بينه يوم مات بون بعيد، على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة و أول موضع العجمة، و كان لا ينفك من رواة و مذاكرين.

و زعم أصحابنا البصريون عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: لم أر قرويين أفصح من الحسن و الحجاج، و كان–زعموا–لا يبرّئهما من اللحن.

و زعم أبو العاصي أنه لم ير قرويا قط لا يلحن في حديثه، و فيما يجري بينه و بين الناس، إلا ما تفقده من أبي زيد النحوي، و من أبي سعيد المعلم.

و قد روى أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لأعرابي: «كيف أهلك» قالها بكسر اللام. قال الأعرابي: صلبا. لأنه أجابه على فهمه، و لم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله و عياله.

و سمعت ابن بشير و قال له أبو الفضل العنبريّ: إني عثرت البارحة بكتاب، و قد التقطته، و هو عندي، و قد ذكروا أن فيه شعرا، فإن أردته وهبته لك. قال ابن بشير: أريده إن كان مقيّدا. قال: و اللّه ما أدري أ مقيّد هو أم مغلول. و لو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته.

و حكى الكسائي أنه قال لغلام بالبادية: من خلقك؟و جزم القاف، فلم يدر ما قال، و لم يجبه، فرد عليه السؤال فقال الغلام: لعلك تريد من خلقك.

و كان بعض الأعراب إذا سمع رجلا يقول نعم في الجواب، قال: «نعم و شاء؟» ، لأن لغته نعم. و قيل لعمر بن لجأ: قل «إنا من المجرمين منتقمين» . قال: (إنّا من المجرمين منتقمون) .

و أنشد الكسائي كلاما دار بينه و بين بعض فتيان البادية فقال:

عجب ما عجب أعجبني # من غلام حكمي أصلا

قلت هل أحسست ركبا نزلوا # حضنا ما دونه قال هلا [1]

(1) حضن: جبل بنجد.

قلت بيّن ما هلا هل نزلوا # قال حوبا ثم ولى عجلا (1)

لست أدري عندها ما قال لي # أنعم ما قال لي أم قال لا

تلك منه لغة تعجبني # زادت القلب خبالا خبلا (2)

قال أبو الحسن: قال مولى زياد: أهدوا لنا همار وهش. قال: أي شيء تقول ويلك؟قال: «أهدوا لنا أيرا» ، يريد: أهدوا لنا عيرا. قال زياد:

ويلك، الأول خير.

و قال الشاعر يذكر جارية له لكناء:

أكثر ما أسمع منها بالسحر # تذكيرها الأنثى و تأنيث الذكر

و السوأة السوآء في ذكر القمر

فزياد قد فهم عن مولاه، و الشاعر قد فهم عن جاريته و لكنهما لم يفهما عنهما من جهة افهامهما لهما، و لكنهما لما طال مقامهما في الموضع الذي يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب، صارا يفهمان هذا الضرب من الكلام.

مديح اللسان

ذكر ما قالوا في مديح اللسان بالشعر الموزون و اللفظ المنثور، و ما جاء في الأثر و صح به الخبر.

قال الشاعر:

أرى الناس في الأخلاق أهل تخلق # و أخبارهم شتى فعرف و منكر

قريبا تدانيهم إذا ما رأيتهم # و مختلفا ما بينهم حين تخبر

فلا تحمدن الدهر ظاهر صفحة # من المرء ما لم تبل ما ليس يظهر

---

(1) هلا هنا بمعنى نعم. حوب: زجر للبعير.

(2) هذا الشعر منسوب للشاعر الأموي عمر بن لجأ بن حدير الذي لجت المهاجاة بينه و بين جرير.

فما المرء إلا الأصغران: لسانه # و معقوله، و الجسم خلق مصور

و ما الزين في ثوب تراه و إنما # يزين الفتى مخبوره حين يخبر

فإن طرّة راقتك منه فربما # أمر مذاق العود و العود أخضر

و قال سويد بن أبي كاهل في ذلك:

ودعتني برقاها إنها # تنزل الأعصم من رأس اليفع (1)

تسمع الحدّاث قولا حسنا # لو أرادوا مثله لم يستطع

و لسانا صيرفيا صارما # كذباب السيف ما مسّ قطع (2)

و قال جرير:

و ليس لسيفي في العظام بقية # و للسيف أشوى وقعة من لسانيا

و قال آخر:

و جرح السيف تدمله فيبرا # و يبقى الدهر ما جرح اللسان

و قال آخر:

أبا ضبيعة لا تعجل بسيئة # إلى ابن عمك و اذكره بإحسان

أ ما تراني و أثوابي مقاربة # ليست بخز و لا من حر كتان (3)

فإن في المجد همّاتي و في لغتي # علوية و لساني غير لحّان

و فيما مدحوا به الأعرابي إذا كان أديبا، أنشدني ابن أبي كريمة، أو ابن كريمة، و اسمه أسود:

ألا زعمت عفراء بالشام إنني # غلام جوار لا غلام حروب

---

(1) الأعصم: الوعل الذي في يديه بياض. اليفع: المرتفع من الأرض.

(2) ذباب السيف: حده.

(3) المقارب: الرخيص.

و إني لأهذي بالأوانس كالدمى # و إني بأطراف القنا للعوب

و إني على ما كان من عنجهيتي # و لوثة أعرابيتي لأديب [1]

و قال ابن هرمة:

للّه درّك من فتى فجعت به # يوم البقيع حوادث الأيام

هش إذا نزل الوفود ببابه # سهل الحجاب مؤدب الخدام

فإذا رأيت شقيقه و صديقه # لم تدر أيهما أخو الأرحام

و قال كعب بن سعد الغنوي:

حبيب إلى الزوار غشيان بيته # جميل المحيا شبّ و هو أديب

إذا ما تراءاه الرجال تحفظوا # فلم تنطق العوراء و هو قريب [2]

و قال الحارثي.

و تعلم أني ماجد و تروعها # بقية أعرابية في مهاجر

و قال الآخر:

و إن امرأ في الناس يعطى ظلامة # و يمنع نصف الحق منه لرائع

أ الموت يخشى أثكل اللّه أمّه # أم العيش يرجو نفعه و هو ضائع

و يطعم ما لم يندفع في مريثه # و يمسح أعلى بطنه و هو جائع

و أن العقول فاعلمن أسنة # حداد النواحي أرهفتها المواقع [3]

و يقولون: «كأن لسانه لسان ثور» .

و حدثني من سمع أعرابيا يمدح رجلا برقة اللسان فقال: «كأن و اللّه لسانه أرق من ورقة، و ألين من سرقة» [4] .

---

(1) اللوثة: الحماقة.

(2) العوراء: الكلمة القبيحة.

(3) المواقع: جمع ميقعة: و هي المسن.

(4) السرق: قطعة من الحرير.

و قال النبي صلّى اللّه عليه و آله لحسان بن ثابت: ما بقي من لسانك؟فأخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته. ثم قال: «و اللّه ما يسرني به مقول من معد، و اللّه إن لو وضعته على حجر لفلقه، أو على شعر لحلقه» .

قال: و سمعت أعرابيا يصف بلسانه رجل، فقال: «كان يشول بلسانه شولان البروق، و يتخلل به تخلل الحية» . و أظن هذا الأعرابي أبا الوجيه العكليّ.

يشول: يرفع. البروق: الناقة إذا طلبت الفحل فإنها حينئذ ترفع ذنبها.

و إنما سمي شوّال شوّالا لأن النوق شالت بأذنابها فيه. فإن قال قائل: قد يتفق أن يكون شوّال في وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه، فلم بقي هذا الاسم عليه، و قد ينتقل ما له لزم عنه، قيل له: إنما جعل هذا الاسم له سمة حيث اتفق أن شالت النوق بأذنابها فيه، فبقي عليه كالسمة، و كذلك رمضان إنما سمي لرمض الماء فيه و هو في شدة الحر، فبقي عليه في البرد. و كذلك ربيع، إنما سمي لرعيهم الربيع فيه، و إن كان قد يتفق هذا الاسم في وقت البرد و الحر.

قال: و وصف أعرابي رجلا فقال: أتيناه فأخرج لسانه كأنه مخراق لاعب (1) .

قال و قال العباس بن عبد المطلب للنبي صلّى اللّه عليه و آله: يا رسول اللّه، فيم الجمال؟ قال: في اللسان.

قال: و كان مجاشع بن دارم خطيبا سليطا، و كان نهشل بكيئا منزورا (2) ، فلما خرجا من عند بعض الملوك عذله مجاشع في تركه الكلام، فقال له نهشل: إني و اللّه لا أحسن تكذابك و لا تأثامك، تشول بلسانك شولان البروق، و تخلل تخلل الباقرة.

و قالوا: أعلى جميع الخلق مرتبة الملائكة، ثم الإنس، ثم الجن.

---

(1) المخراق: منديل يطوى فيضرب به.
(2) المنزور: القليل الكلام.

و إنما صار لهؤلاء المزية على جميع الخلق بالعقل، و بالاستطاعة على التصرف، و بالمنطق.

قال: و قال خالد بن صفوان: ما الإنسان لو لا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملة.

قال: و قال رجل لخالد بن صفوان: ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار و تتدارسون الآثار، و تتناشدون الأشعار، وقع عليّ النوم؟قال: لأنك حمار في مسلاخ إنسان (1) .

و قال صاحب المنطق (2) : حد الإنسان الحي الناطق المبين.

و قال الأعور الشني (3) :

و كائن ترى من صامت لك معجب # زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف و نصف فؤاده # فلم يبق إلا صورة اللحم و الدم

و لما دخل ضمرة بن ضمرة، على النعمان بن المنذر، زرى عليه، للذي رأى من دمامته و قصره و قلته. فقال النعمان: «تسمع بالمعيديّ لا أن تراه» .

فقال: أبيت اللعن!إن الرجال لا تكال بالقفزان، و لا توزن بالميزان، و ليست بمسوك يستقى بها، و إنما المرء بأصغريه: قلبه و لسانه، إن صال صال بجنان، و إن قال قال ببيان» .

و اليمانية تجعل هذا للصقعب النهدي. فإن كان ذلك كذلك فقد أقروا بأن نهدا من معد (4) .

---

(1) المسلاخ: الجلد.

(2) صاحب المنطق: هو الفيلسوف اليوناني أرسطو.

(3) الأعور الشني: هو بشر بن منقذ بن أسد، حضر يوم الجمل مع علي. و البيتان ليسا له بل هما وردا في معلقة زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي الحكيم.

(4) ضمرة بن ضمرة من سادات تميم في الجاهلية، و الصقعب النهدي من سادات بني نهد في الجاهلية و ممن وفد على النعمان بن المنذر.

و كان يقال: «عقل الرجل مدفون تحت لسانه» .

أبو الحسن: قال: قال الحسن: «لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان له قال، و إن كان عليه سكت. و قلب الجاهل من وراء لسانه، فإن همّ بالكلام تكلم به له أو عليه» .

قال أبو عبيدة: قال أبو الوجيه: حدثني الفرزدق قال: كنا في ضيافة معاوية بن أبي سفيان، و معنا كعب بن جعيل التغلبي، فقال له يزيد: إن ابن حسان-يريد عبد الرحمن بن حسان-قد فضحنا!فاهج الأنصار. قال: أ رادّي أنت إلى الإشراك بعد الإيمان، لا أهجو قوما نصروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و لكني أدلك على غلام منا نصراني كأن لسانه لسان ثور. يعني الأخطل.

و قال سعد بن أبي وقاص، لعمر ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم، و قد كانوا كلموه في الرضا عنه. قال: هذا الذي أغضبني عليه، إني سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم، كما تلحس الأرض البقرة بلسانها» .

قال: و قال معاوية لعمرو بن العاص: «يا عمرو، إن أهل العراق قد أكرهوا عليّا على أبي موسى، و أنا و أهل الشام راضون بك، و قد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأي، فأجد الحز، و طبق المفصل، و لا تلقه برأيك كله» .

و العجب من قول ابن الزبير للأعراب: «سلاحكم رث، و حديثكم غث. و كيف يكون هذا و قد ذكروا أنه كان من أحسن الناس حديثا، و أن أبا نضرة و عبيد اللّه بن أبي بكرة إنما كانا يحكيانه. فلا أدري إلا أن يكون حسن حديثه هو الذي ألقى الحسد بينه و بين كلّ حسن الحديث.

و قد ذكروا أن خالد بن صفوان تكلم في بعض الأمر، فأجابه رجل من أهل المدينة بكلام لم يظن خالد أن ذلك الكلام كان عنده، فلما طال بهما المجلس كأن خالدا عرض له ببعض الأمر، فقال المدني: «يا أبا صفوان، ما لي من ذنب إلا اتفاق الصناعتين» . ذكر ذلك الأصمعي.

قال فضّال الأزرق: قال رجل من بني منقر: تكلم خالد بن صفوان في صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله، فإذا أعرابي في بتّ (1) ، ما في رجليه حذاء، فأجابه بكلام وددت و اللّه أني كنت متّ و إن ذلك لم يكن، فلما رأى خالد ما نزل بي قال: يا أخا منقر، كيف نجاريهم، و إنما نحكيهم، و كيف نسابقهم و إنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم، فليفرخ روعك فإنه من مقاعس، و مقاعس لك. فقلت: يا أبا صفوان، و اللّه ما ألومك على الأولى، و لا أدع حمدك على الأخرى.

قال أبو اليقظان: قال عمر بن عبد العزيز: «ما كلمني رجل من بني أسد إلا تمنيت أن يمد له في حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه» .

و قال يونس بن حبيب (2) : ليس في بني أسد إلا خطيب، أو شاعر، أو قائف، أو زاجر، أو كاهن، أو فارس. قال: و ليس في هذيل إلا شاعر أو رام، أو شديد العدو.

الترجمان بن هريم بن عدي بن أبي طحمة (3) قال: دعي رقبة بن مصقلة، أو كرب بن رقبة إلى مجلس ليتكلم فيه، فرأى مكان أعرابي في شملة، فأنكر موضعه، فسأل الذي عن يمينه عنه فخبره أنه الذي أعدوه لجوابه، فنهض مسرعا لا يلوي على شيء، كراهة أن يجمع بين الديباجتين فيتضع عند الجميع.

و قال خلاد بن يزيد: لم يكن أحد بعد أبي نضرة أحسن حديثا من سلم ابن قتيبة. قال: و كان يزيد بن عمر بن هبيرة يقول: احذفوا الحديث كما يحذفه سلم بن قتيبة.

---

(1) البت: كساء غليظ.

(2) يونس بن حبيب الضبي: عالم بالنحو و اللغة، أخذ عنه سيبويه و الكسائي و الفراء و أبو عبيدة و أبو زيد، توفي سنة 182 هـ.

(3) الترجمان بن هريم بن عدي بن أبي طحمة: عامل الأمويين على الأهواز.

و يزعمون أنهم لم يروا محدثا قط صاحب آثار كان أجود حذفا و أحسن اختصارا للحديث من سفيان بن عيينة [1] . سألوه مرة عن قول طاوس في ذكاة الجراد، فقال: ابنه عنه: «ذكاته [2] صيده» .

مديح قوة العارضة

و كانوا يمدحون شدة العارضة، و قوة المنة، و ظهور الحجة، و ثبات الجنان، و كثرة الريق، و العلو على الخصم، و يهجون بخلاف ذلك.

قال الشاعر:

طباقاء لم يشهد خصوما و لم يعش # حميدا و لم يشهد حلالا و لا عطرا

و قال أبو زبيد الطائيّ:

و خطيب إذا تمعرت الأو # جه يوما في مأقط مشهود [3]

طباقاء، يقال للبعير إذا لم يحسن الضراب: جمل عياياء، و جمل طباقاء. و هو هاهنا للرجل الذي لا يتجه للحجة. الحلال: الجماعات.

و يقال حي حلال إذا كانوا متجاورين مقيمين. و العطر هنا: العرس المأقط: الموضع الضيق، و المأقط: الموضع الذي يقتتل فيه. و قال نافع بن خليفة الغنوي:

و خصم لدى باب الأمير كأنهم # قروم فشا فيها الزوائر و الهدر

دلفت لهم دون المنى بملمة # من الدرّ في أعقاب جوهرها شذر

إذا القوم قالوا أدن منها وجدتها # مطبّقة يهماء ليس لها خصر

القروم: الجمال المصاعب. الزوائر: الذين يزئرون. و الهدر: صوته عند هيجه، و يقال له الهدير. دلفت، أي نهضت نهوضا رويدا. و الدليف:

---

(1) سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي محدث ثقة توفي سنة 197 هـ.
(2) الذكاة: الذبح.
(3) تمعر: تغير و اصفر.

المشي الرويد. قوله أدن منها، أي قللها و اختصرها. وجدتها مطبقة، أي قد طبقتهم بالحجة. و اليهماء: الأرض التي لا يهتدى فيها الطريق. و يهماء هاهنا، يعني التي لا يهتدي إليها و يضل الخصوم عندها، (و الأيهم من الرجال: الحائر الذي لا يهتدي لشيء. و أرض يهماء، إذا لم يكن فيها علامة) .

و قال الأسلع بن قصاف الطّهويّ:

فداء لقومي كل معشر حارم # طريد و مخذول بما جرّ مسلم [1]

هم أفحموا الخصم الذي يستقيدني # و هم فصموا حجلي و هم حقنوا دمي [2]

بأيد يفرّجن المضيق و ألسن # سلاط و جمع ذي زهاء عرمرم

إذا شئت لم تعدم لدى الباب منهم # جميل المحيا واضحا غير توأم

الزهاء: الكثرة، هاهنا. و العرموم من العرامة، و هي الشراسة و الشدة.

التوأمان: الأخوان المولودان في بطن.

و قال التميميّ في ذلك:

أ ما رأيت الألسن السلاطا # إن الندى حيث ترى الضغاطا [3]

و الجاه و الأقدام و النشاطا

ذهب في البيت الأخير إلى قول الشاعر:

يسقط الطير حيث ينتثر الحـــ # بّ و تغشى منازل الكرماء

و إلى قول الآخر:

يرفضّ عن بيت الفقير ضيوفه # و ترى الغنى يهدي لك الزوارا

---

(1) جر: جنى جناية. المسلم: الذي أسلمه قومه.
(2) يستقيده: يطلب القود منه. فصموا: كسروا. حجلا القيد: حلقتاه.
(3) الضغاط: الزحام. يعني أن الزحام حيث ترى الكرم.

و أنشدوا في المعنى الأول:

و خطيب قوم قدموه أمامهم # ثقة به متخمّط تيّاح

جاوبت خطبته فظل كأنه # لما خطبت مملّح بملاح

المتخمط: المتكبر مع غضب. و التياح المتيح: الذي يعرض في كل شيء و يدخل فيما لا يعنيه. و قوله مملّح بملاح، أي متقبّض كأنه ملح من الملح.

و أنشد أيضا:

أرقت لضوء برق في نشاص # تلألأ في مملأة غصاص

النشاص: السحاب الأبيض المرتفع بعضه فوق بعض، و ليس بمنبسط.

تلألأ، التلألؤ: ظهور البرق في سرعة. مملأة بالماء غصاص: قد غصت بالماء.

لواقح دلّح بالماء سحم # تمج الغيث من خلل الخصاص

اللواقح: التي قد لقحت من الريح. و الدلح: الدانية الظاهرة المثقلة بالماء. سحم: سود. و الخصاص، هاهنا: خلل السحاب.

سل الخطباء هل سبحوا كسبحي # بحور القول أو غاصوا مغاصي

لساني بالنثير و بالقوافي # و بالأسجاع أمهر في الغواص

(النثير: الكلام المنثور. القوافي: خواتم أبيات الشعر. الأسجاع:

الكلام المزدوج على غير وزن) .

من الحوت الذي في لجّ بحر # مجيد الغوص في لجج المغاص

لعمرك إنني لأعف نفسي # و أستر بالتكرم من خصاصي [1]

---

(1) الخصاص: هنا الفقر و الحاجة.

و أنشد لرجل من بني ناشب بن سلامة بن سعد بن مالك بن ثعلبة:

لنا قمر السماء و كل نجم # يضيء لنا إذا القمران غارا [1]

و من يفخر بغير ابني نزار # فليس بأول الخطباء جارا [2]

و أنشد للأقرع [3] :

إني امرؤ لا أقيل الخصم عثرته # عند الأمير إذا ما خصمه ظلعا

ينير وجهي إذا جد الخصام بنا # و وجه خصمي تراه الدهر ملتمعا [4]

و أنشد:

تراه بنصري في الحفيظة واثقا # و إن صدّ عني العين منه و حاجبه

و إن خطرت أيدي الكماة وجدتني # نصورا إذا ما استيبس الريق عاصبه

عاصبه: يابسه، يعتصم به حتى يتم كلامه. الكماة: جمع كميّ، و الكميّ الرجل المتكمّي بالسلاح، يعني المتكفر به المتستر. و يقال كمى الرجل شهادته يكميها، إذا كتمها و سترها. و قال ابن أحمر و ذكر الريق و الاعتصام به:

هذا الثناء و أجدر أن أصاحبه # و قد يدوّم ريق الطامع الأمل

و قال الزبير بن العوام، و هو يرقّص عروة ابنه:

أبيض من آل أبي عتيق # مبارك من ولد الصدّيق

ألذه كما ألذ ريقي

---

(1) القمران: الشمس و القمر.

(2) ابنا نزار: ربيعة و مضر.

(3) الأقرع القشيري: الأشيم بن معاذ بن سنان، و قيل معاذ بن كليب بن حزن، عاش في عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي، و له نقائض مع جعفر بن علبة الحارثي اللص.

(4) التمع لونه: ذهب و تغير.

و قالت امرأة من بني أسد:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد # بعمرو بن مسعود و بالسيد الصمد

فمن كان يعيا بالجواب فإنه # أبو معقل لا حجر عنه و لا صدد

أثاروا بصحراء الثوية قبره # و ما كنت أخشى إن تناءى به البلد

تناءى: تبعد. و الثوية: موضع بناحية الكوفة. و من قال الثوية فهي تصغير الثوية.

و قال أوس بن حجر في فضالة بن كلدة:

أبا دليجة من يوصي بأرملة # أم من لأشعث ذي طمرين طملال

أم من يكون خطيب القوم إن حفلوا # لدى الملوك أولي كيد و أقوال

و «هدمين: و هما ثوبان خلقان. يقال ثوب أهدام، إذا كان خلقا.

و الطملال: الفقير. و قال أيضا فيه:

أ لهفي على حسن آلائه # على الجابر الحي و الحارب

و رقبته حتمات الملو # ك بين السّرادق و الحاجب (1)

و يكفي المقالة أهل الدحا # ل غير معيب و لا عائب (2)

رقبته، أي انتظاره إذن الملوك. و جعله بين السرادق و الحاجب ليدل على مكانته من الملوك. و أنشد أيضا:

و خصم غضاب ينغضون رءوسهم # أولي قدم في الشغب صهب سبالها (3)

ضربت لهم أبط الشمال فأصبحت # يردّ غواة آخرين نكالها

ابط الشمال، يعني الفؤاد، لأنه لا يكون إلا في تلك الناحية. و قال شتيم بن خويلد (4) :

---

(1) الحتمات: جمع حتمة: بمعنى القضاء.

(2) الدحال: المراوغة و المخادعة.

(3) نغض رأسه: حركه. الصهب السبال: كناية عن الأعداء. الصهبة: الشقرة و الحمرة.

(4) شتيم بن خويلد الفزاري: شاعر جاهلي مغمور.

و قلت لسيدنا يا حليـــ # م إنك لم تأس أسوا رفيقا

أعنت عديا على شأوها # تعادي فريقا و تبقي فريقا

زحرت بها ليلة كلها # فجئت بها مؤيدا خنفقيقا

تأسو: تداوي، أسوا و أسى، مصدران. و الآسي: الطبيب. و مؤيد:

داهية. خنفقيق: داهية أيضا. الشأو: الغلوة لركض الفرس.

و أنشد لآدم مولى بلعنبر، يقولها لابنه:

يا بأبي أنت و يا فوق البئب # يا بأبي خصيك من خصي و زب

أنت الحبيب و كذا قول المحب # جنبك اللّه معاريض الوصب

حتى تفيد و تداوي ذا الجرب # و ذا الجنون من سعال و كلب

و الحدب حتى يستقيم ذو الحدب # و تحمل الشاعر في اليوم العصب

على مباهير كثيرات التعب # و إن أراد جدل صعب أرب

خصومة تثقب أوساط الركب # أظلعته من رتب إلى رتب

حتى ترى الأبصار أمثال الشهب # يرمى بها أشوس ملحاح كلب

مجرب الشدات ميمون مذبّ

الوصب: المرض. و العصب: الشديد. يقال يوم عصب و عصيب و عصبصب، إذا كان شديدا. مباهير: متاعيب قد علاهم البهر. أرب، يقال رجل أريب و أرب، و له أرب، إذا كان عاقلا أديبا حازما. أظلعته يقال ظلع الرجل، إذا خمع في مشيه. الرتبة: واحدة الرتب و الرتبات، و هي الدرج.

أي تخرجه من شيء إلى شيء. و الأشوس: الذي ينظر بمؤخر عينه.

ملحاح: ملح، من الإلحاح على الشيء. كلب، أي الذي قد كلب.

مذب. أي يذب عن حريمه و عن نفسه.

و قالت ابنة وثيمة، ترثي أباها وثيمة بن عثمان:

الواهب المال التلا # د ندى و يكفينا العظمه

و يكون مدرهنا إذا # نزلت مجلحة عظيمه

و احمر آفاق السما

ء و لم تقع في الأرض ديمه # و تعذّر الآكال حتى

كان أحمدها الهشيمه # لا ثلة ترعى و لا

إبل و لا بقر مسيمه # ألفيته مأوى الأرا

مل و المدفّعة اليتيمه # و الدافع الخصم الألدّ

إذا تفوضح في الخصومه # بلسان لقمان بن عا

د و فصل خطبته الحكيمه # ألجمتهم بعد التدا

فع و التجاذب في الحكومه

التلاد: القديم من المال. و الطارف: المستفاد. و المدرة: لسان القوم المتكلم عنهم. مجلحة، أي داهية مصممة. احمرّ آفاق السماء، أي اشتد البرد و قل المطر و كثر القحط. و ديمة: واحدة الديم، و هي الأمطار الدائمة مع سكون. تعذر: تمنع. الآكال: جمع أكل، و هو ما يؤكل. و الهشيمة: ما تهشم من الشجر، أي وقع و تكسر. الثلة: الضأن الكثيرة، و لا يقال للمعزى ثلة، و لكن حيلة، فإذا اجتمعت الضأن و المعزى قيل لهما ثلة. مسيمة، أي صارت في السوم و دخلت فيه، و السوم: الرعي. و سامت تسوم، أي رعت ترعى. و منه قول اللّه: **وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ** .

لقمان بن عاد

و كانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد (1) الأكبر و الأصغر لقيم بن لقمان في النباهة و القدر، و في العلم و الحكم، و في اللسان و الحلم. و هذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون. و لارتفاع قدره و عظم شأنه، قال النمر بن تولب:

لقيم بن لقمان من أخته # فكان ابن أخت له و ابنما

(1) لقمان بن عاد، ورد ذكره في القرآن، قيل إنه عبد حبشي لرجل من بني إسرائيل، أعتقه و عاش في زمن داود. و قيل إنه حر و اسمه لقمان بن باعورا، و قيل إنه ابن أخت أيوب أو ابن خالته.

ليالي حمّق فاستحصنت # عليه فغر بها مظلما

فغرّ بها رجل محكم # فجاءت به رجلا محكما

و ذلك أن أخت لقمان قالت لإمرأة لقمان: إني امرأة محمقة، و لقمان رجل محكم منجب، و أنا في ليلة طهري، فهبي لي ليلتك. ففعلت فباتت في بيت امرأة لقمان، فوقع عليها فأحبلها بلقيم، فلذلك قال النمر بن تولب ما قال:

و المرأة إذا ولدت الحمقى فهي محمقة، و لا يعلم ذلك حتى يرى ولد زوجها من غيرها أكياسا.

و قالت امرأة ذات بنات:

و ما أبالي أن أكون محمقه # إذا رأيت خصية معلّقه

و قال آخر:

أزرى بسعيك أن كنت امرأ حمقا # من نسل ضاوية الأعراق محماق

ضاوية الأعراق، أي ضعيفة الأعراق نحيفتها. يقال رجل ضاو، و فيه ضاوية، إذا كان نحيفا قليل الجسم. و جاء في الحديث: «اغتربوا لا تضووا» . أي لا يتزوج الرجل القرابة القريبة، فيجيء ولده ضاويا. و الفعل منه ضوي يضوى ضوى. و الأعراق: الأصول. و المحماق: التي عادتها أن تلد الحمقى.

و لبغضهم البنات قالت إحدى القوابل:

أيا سحاب طرّقي بخير # و طرّقي بخصية و أير [1]

و لا ترينا طرف البظير

(1) طرقت المرأة: نشب ولدها و لم يسهل خروجه.

و قال الآخر (1) في إنجاب الأمهات، و هو يخاطب بني أخوته:

عفاريتا عليّ و أخذ مالي # و عجزا عن أناس آخرينا

فهلا غير عمكم ظلمتم # إذا ما كنتم متظلمينا

فلو كنتم لكيّسة أكاست # و كيس الأم أكيس للبنينا

و لكن أمكم حمقت فجئتم # غثاثا ما نرى فيكم سمينا

و كان لنا فزارة عمّ سوء # و كنت له كشر بني الأخينا

و لبغض البنات هجر أبو حمزة الضبّي خيمة امرأته، و كان يقيل و يبيت عند جيران له، حين ولدت امرأته بنتا، فمرّ يوما بخبائها و إذا هي ترقصها و تقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا # يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا # تاللّه ما ذلك في أيدينا

و إنما نأخذ ما أعطينا # و نحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

قال: فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته و ابنتها.

و هذا الباب يقع في كتاب الإنسان، و في فصل ما بين الذكر و الأنثى، تاما، و ليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان و التبيين، قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارئ الكتاب، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم، كان ذلك أروح على قلبه، و أزيد في نشاطه إن شاء اللّه.

و قد قال الأول في تعظيم شأن لقيم بن لقمان:

قومي أصبحيني فما صيغ الفتى حجرا # لكن رهينة أحجار و أرماس

قومي اصبحيني فإن الدهر ذو غير # أفنى لقيما و أفنى آل هرماس (2)

(1) إنه رافع بن هريم، شاعر جاهلي مخضرم، أدرك الإسلام و أسلم.
(2) الهرماس: نهر نصيبين. اصبحيني، الصبوح: شرب الصباح.

اليوم خمر و يبدو في غد خبر # و الدهر من بين إنعام و ابآس

فاشرب على حدثان الدهر مرتفعا # لا يصحب الهم قرع السن بالكاس

و قال أبو الطمحان القينيّ (1) في ذكر لقمان:

إن الزمان و لا تفنى عجائبه # فيه تقطع ألآف و أقران

أمست بنو القين أفراقا موزعة # كأنهم من بقايا حيّ لقمان

و قد ذكرت العرب هذه الأمم البائدة، و القرون السالفة. و لبعضهم بقايا قليلة، و هم أشلاء في العرب متفرقون مغمورون، مثل جرهم و جاسم و وبار، و عملاق، و أميم، و طسم و جديس، و لقمان و الهرماس، و بني الناصور و قيل بن عتر، و ذي جدن. و قد يقال في بني الناصور إن أصلهم من الروم، فأما ثمود فقد خبر اللّه عز و جل عنهم فقال: و ثمودا فما أبقى، و قال: فهل ترى لهم من باقية. فأنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن، يزعم أن قبائل العرب من بقايا ثمود.

و كان أبو عبيدة يتأول قوله: **وَ ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ، إن ذلك إنما وقع على الأكثر، و على الجمهور الأكبر. و هذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم، و ليس له أن يجيء إلى خبر عام مرسل غير مقيد و خبر مطلق غير مستثنى منه، فيجعله خاصا كالمستثنى منه. و أي شيء بقي لطاعن أو متأول بعد قوله: **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ** . فكيف يقول ذلك إذا كنا نحن قد نرى منهم في كل حي باقية. معاذ اللّه من ذلك.

و رووا أن الحجاج قال على المنبر يوما: تزعمون أنّا من بقايا ثمود، و قد قال اللّه عز و جل: **وَ ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** .

فأما الأمم البائدة من العجم، مثل كنعان و يونان و أشباه ذلك، فكثير و لكن العجم ليس لها عناية بحفظ شأن الأموات و لا الأحياء.

(1) أبو الطمحان: حنظلة بن الشرق، شاعر جاهلي أدرك الإسلام و أسلم.

و قال المسيّب بن علس، في ذكر لقمان:

و إليك أعملت المطية من # سهل العراق و أنت بالفقر

أنت الرئيس إذا هم نزلوا # و تواجهوا كالأسد و النمر

لو كنت من شيء سوى بشر # كنت المنور ليلة البدر

و لأنت أجود بالعطاء من الـــ # ريان لما جاد بالقطر

و لأنت أشجع من أسامة إذ # نقع الصراخ ولج في الذعر [1]

و لأنت أبين حين تنطق من # لقمان لما عيّ بالأمر

و قال لبيد بن ربيعة الجعفري:

و اخلف قسا ليتني و لو أنني # و أعيا على لقمان حكم التدبر

فإن تسأليا كيف نحن فإننا # عصافير من هذا الأنام المسحّر

السحر: الرئة. و المسحر: المعلل بالطعام و الشراب. و المسحر: المخدوع كما قال إمرؤ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب # و نسحر بالطعام و بالشراب

أي نعلل. فكأنا نخدع و نسحر بالطعام و الشراب.

و قال الفرزدق:

لئن حومتي هابت معدّ حياضها # لقد كان لقمان بن عاد يهابها

و قال الآخر [2] :

إذا ما مات ميت من تميم # فسرك أن يعيش فجيء بزاد

بخبز أو بلحم أو بتمر # أو الشيء الملفف في البجاد [3]

تراه يطوّف الآفاق حرصا # ليأكل رأس لقمان بن عاد

(1) نقع الصراخ: ارتفع.

(2) نسبت الأبيات ليزيد بن الصعق الكلابي، كما نسبت لأبي مهوش الفقعسي.
(3) البجاد: الكساء.

و قال أفنون التغلبي:

لو أنني كنت من عاد و من إرم # ربيت فيهم و لقمان و ذي جدن

و قال الآخر (1) :

ما لذة العيش و الفتى # للدهر و الدهر ذو فنون

أهلك طسما و قبل طسم # أهلك عادا و ذا جدون

و أهل جاس و مأرب بعـــ # د حيّ لقمان و التقون

و اليسر للعسر، و التغنّي # للفقر، و الحي للمنون

ذم فضول الكلام و مدح الصمت

قال: و هم و إن كانوا يحبون البيان و الطلاقة، و التحبير و البلاغة، و التخلص و الرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة و الهذر، و التكلف، و الإسهاب و الإكثار، لما في ذلك من التزيد و المباهاة، و اتباع الهوى، و المنافسة في الغلو. و كانوا يكرهون الفضول في البلاغة، لأن ذلك يدعو إلى السّلاطة، و السلاطة تدعو إلى البذاء. و كل مراء في الأرض فإنما هو من نتاج الفضول.

و من حصّل كلامه و ميزه، و حاسب نفسه، و خاف الإثم و الذم، أشفق من الضراوة و سوء العادة، و خاف ثمرة العجب و هجنة النفج، و ما في حب السمعة من الفتنة، و ما في الرّياء من مجانبة الإخلاص.

و لقد دعا عبادة بن الصامت بالطعام، بكلام ترك فيه المحاسنة، فقال شدّاد بن أوس (2) : إنه قد ترك فيه المحاسنة، فاسترجع ثم قال: «ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إلا مزمومة مخطوطة» .

---

(1) نسبت الأبيات إلى سليمان بن ربيعة بن عامر بن ثعلبة.

(2) شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي، ابن أخي حسان بن ثابت، كان عالما حليما.

قال: و روى حمّاد بن سلمة، عن أبي حمزة، عن إبراهيم (1) قال:

«إنما يهلك الناس في فضول الكلام، و فضول المال» .

و قال: دع المعاذر، فإن أكثرها مفاجر» . و إنما صارت المعاذر كذلك لأنها داعية إلى التخلص بكلّ شيء.

و قال سلاّم بن أبي مطيع: قال لي أيوب (2) : «إياك و حفظ الحديث» خوفا عليه من العجب.

و قال إبراهيم النخعيّ: «دع الاعتذار، فإنه يخالط الكذب» .

قالوا: و نظر شاب و هو في دار ابن سيرين إلى فرش في داره، فقال: ما بال تلك الآجرة أرفع من الآجرة الأخرى؟فقال ابن سيرين: «يا ابن أخي إن فضول النظر تدعو إلى فضول القول» .

و زعم إبراهيم بن السندي قال: أخبرني من سمع عيسى بن علي يقول:

«فضول النظر من فضول الخواطر، و فضول النظر تدعو إلى فضول القول، و فضول القول تدعو إلى فضول العمل، و من تعوّد فضول الكلام ثم تدارك استصلاح لسانه، خرج إلى استكراه القول، و إن أبطأ أخرجه إبطاؤه إلى أقبح من الفضول» .

قال أبو عمرو بن العلاء: أنكح ضرار بن عمرو الضبي ابنته معبد بن زرارة، فلما أخرجها إليه قال لها: «يا بنية أمسكي عليك الفضلين» . قالت:

و ما الفضلان؟قال: فضل الغلمة، و فضل الكلام.

و ضرار بن عمرو هو الذي قال: «من سره بنوه ساءته نفسه» . و هو الذي لما قاله له المنذر: كيف تخلصت يوم كذا و كذا، و ما الذي نجاك؟قال:

«تأخير الأجل، و إكراهي نفسي على المق الطوال» .

---

(1) إبراهيم النخعي الكوفي الفقيه عاش بين سنتي 50-96 هـ.

(2) هو أيوب بن أبي تميمة السختياني البصري الفقيه، روى عن نافع و عطاء و عكرمة و روى عنه الأعمش و قتادة و آخرون.

المقّاء: المرأة الطويلة. و المق: جماعة النساء الطوال. و المق أيضا:

الخيل الطوال.

و كان أخوته قد استشالوه حتى ركب فرسه و رفع عقيرته بعكاظ، فقال:

«ألا إن خير حائل أم (1) فزوجوا الأمهات» . و ذلك أنه صرع بين القنا، فأشبل عليه أخوته لأمه حتى أنقذوه (2) .

قال: و كان أعرابي يجالس الشعبي (3) فيطيل الصمت، فسئل عن طول صمته فقال: «أسمع فأعلم، و أسكت فأسلم» .

و قالوا: «لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب» .

و قالوا: «مقتل الرجل بين لحييه و فكيه» .

و أخذ أبو بكر الصديق، رحمه اللّه، بطرف لسانه و قال: «هذا الذي أوردني الموارد» .

و قالوا: ليس شيء أحقّ بطول سجن من لسان.

و قالوا: اللسان سبع عقور.

و قال النبي عليه السلام: «و هل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم» .

و قال ابن الأعرابي، عن بعض أشياخه: تكلم رجل عند النبي عليه السلام فخطل في كلامه، فقال النبي صلّى اللّه عليه و آله: «ما أعطي العبد شرا من طلاقة اللسان» .

---

(1) الحائل: التي لم تحمل.

(2) أشبل عليه: عطف عليه، أعانه.

(3) هو عامر بن عبد اللّه بن شرحبيل الشعبي الحميري، راوية و قاض، ولد في الكوفة سنة 19 هـ و توفي سنة 103 هـ.

و قال العائشي، و خالد بن خداش: حدثنا مهدي بن ميمون، عن غيلان ابن جرير، عن مطرّف بن عبد اللّه بن الشّخير و عن أبيه قال: قدمنا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله في وفد فقلنا: يا رسول اللّه، أنت سيدنا، و أنت أطولنا علينا طولا (1) ، و أنت الجفنة الغراء (2) . فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «أيها الناس، قولوا بقولكم و لا يستفزنكم الشيطان، فإنما أنا عبد اللّه و رسوله» .

قال: و قال خالد بن عبد اللّه القسري، لعمر بن عبد العزيز: من كانت الخلافة زانته فقد زيّنتها، و من كانت شرفته فقد شرّفتها. فأنت كما قال الشاعر:

و تزيدين أطيب الطيب طيبا # أن تمسّيه أين مثلك أينا

و إذا الدر زان حسن وجوه # كان للدر حسن وجهك زينا

فقال عمر: إن صاحبكم أعطي مقولا، و لم يعط معقولا.

و قال الشاعر:

لسانك معسول و نفسك شحّة # و دون الثريا من صديقك مالكا

و أخبرنا بإسناد له، أن أناسا قالوا لابن عمر: ادع اللّه لنا بدعوات.

فقال: «اللهم ارحمنا و عافنا و ارزقنا» . فقالوا: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن.

قال: نعوذ باللّه من الإسهاب.

و قال أبو الأسود الدؤلي (3) ، في ذكر الإسهاب، يقولها في الحارث بن عبد اللّه بن أبي ربيعة بن المغيرة، و الحارث هو القباع، و كان خطيبا من وجوه

---

(1) الطول: الفضل.

(2) الغراء: البيضاء، أي أنها مملوءة بالشحم و الدهن.

(3) أبو الأسود الدؤلي: عاش في خلافة علي بن أبي طالب و اتصل به، و أسهم في وضع أسس النحو كما قرض الشعر.

قريش و رجالهم. و إنما سمي القباع لأنه أتي بمكتل (1) لأهل المدينة، فقال إن هذا المكتل لقباع!فسمي به. و القباع: الواسع الرأس القصير. و قال الفرزدق فيه لجرير:

و قبلك ما أعييت كاسر عينه # زيادا فلم تقدر عليّ حبائله

فأقسمت لا آتيه تسعين حجة # و لو كسرت عنق القباع و كاهله

و قال أبو الأسود:

أمير المؤمنين جزيت خيرا # أرحنا من قباع بني المغيرة

بلوناه و لمناه فأعيا # علينا ما يمر لنا مريرة

على أن الفتى نكح أكول # و مسهاب مذاهبه كثيرة

و قال الشاعر (2) :

إياك إياك المراء فإنه # إلى الشر دعّاء و للصرم جالب

و قال أبو العتاهية:

و الصمت أجمل بالفتى # من منطق في غير حينه

كلّ امرئ في نفسه # أعلى و أشرف من قرينه

و كان سهل بن هارون يقول: «سياسة البلاغة أشد من البلاغة، كما أن التوقي على الدواء أشد من الدواء» .

و كانوا يأمرون بالتبين و التثبت، و بالتحرز من زلل الكلام، و من زلل الرأي، و من الرأي الدبريّ. و الرأي الدبري هو الذي يعرض من الصواب بعد مضي الرأي الأول و فوت استدراكه.

و كانوا يأمرون بالتحلم و التعلم، و بالتقدم في ذلك أشد التقدم.

---

(1) المكتل: زنبيل كبير.

(2) نسب البيت للفضل بن عبد الرحمن القرشي، ينهى به ابنه عن الجدل.

و قال الأحنف: قال عمر بن الخطاب: «تفقهوا قبل أن تسودوا» . و كان يقول رحمه اللّه: «السؤدد مع السواد» .

و أنشدوا لكثيّر عزّة:

و في الحلم و الإسلام للمرء وازع # و في ترك طاعات الفؤاد المتيّم

بصائر رشد للفتى مستبينة # و أخلاق صدق علمها بالتعلم

الوازع: الناهي، و الوزعة: جمع وازع، و هم الناهون و الكافون.

و قال الأفوه الأودي:

أضحت قرينة قد تغير بشرها # و تجهمت بتحية القوم العدا

ألوت بإصبعها و قالت إنما # يكفيك مما لا ترى ما قد ترى

و أنشد (1) :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها # فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك تعذر إن وعظت و يقتدى # بالقول منك و يقبل التعليم

قالوا: و كان الأحنف بن قيس أشد الناس سلطانا على نفسه.

و قالوا: و كان الحسن أترك الناس لما نهي عنه. و قال الآخر:

لا تعذراني في الإساءة إنه # شرار الرجال من يسيء فيعذر

و قال الكميت بن زيد الأسدي:

و لم يقل بعد زلة لهم # عدّوا المعاذير إنما حسبوا

و أنشدني محمد بن يسير، للأحوص بن محمد:

---

(1) نسب البيتان لأبي الأسود الدؤلي في القصيدة التي يقول فيها:

يا أيها الرجل المعلم غيره # هلا لغيرك كان ذا التعليم

قامت تخاصرني بقنّتها # خود تأطر غادة بكر

كلّ يرى أن الشباب له # في كلّ مبلغ لذة عذر

تخاصرني: آخذ بيدها و تأخذ بيدي. و القنة: الموضع الغليظ من الأرض في صلابة. و الخود: الحسنة الخلق. تأطر: تتثنى. و الغادة: الناعمة الليّنة.

و قال جرير في فوت الرأي:

و لا يتقون الشر حتى يصيبهم # و لا يعرفون الأمر إلا تدبّرا

قال: و مدح النابغة ناسا بخلاف هذه الصفة، فقال:

و لا يحسبون الخير لا شر بعده # و لا يحسبون الشر ضربة لازب

لازب و لازم، واحد، و اللازب في مكان آخر: اليابس. قال اللّه عز و جل: **مِنْ طِينٍ لَازِبٍ** . و اللزبات: السنون الجدبة.

و أنشد:

هفا هفوة كانت من المرء بدعة # و ما مثله من مثلها بسليم

فإن يك أخطأ في أخيكم فربما # أصاب التي فيها صلاح تميم

قال: و قال قائل عند يزيد بن عمر بن هبيرة: و اللّه ما أتى الحارث بن شريح بيوم خير قط. قال: فقال الترجمان بن هريم: «إلا يكن أتى بيوم خير فقد أتى بيوم شر» . ذهب الترجمان بن هريم إلى مثل معنى قول الشاعر:

و ما خلقت بنو زمّان إلا # أخيرا بعد خلق الناس طرّا

و ما فعلت بنو زمّان خيرا # و لا فعلت بنو زمّان شرّا

و من هذا الجنس من الأحاديث، و هو يدخل في باب الملح، قال الأصمعي: «وصلت بالعلم، و نلت بالملح» .

و قال رجل مرة: «أبي الذي قاد الجيوش، و فتح الفتوح، و خرج على الملوك، و اغتصب المنابر» . فقال له رجل من القوم: لا جرم، لقد أسر و قتل و صلب!قال: فقال له المفتخر بأبيه: دعني من أسر أبي و قتله و صلبه، أبوك أنت حدث نفسه بشيء من هذا قط؟

البيان منزلة بين الإسهاب و الإيجاز

قد سمعنا رواية القوم و احتجاجهم، و أنا أوصيك ألا تدع التماس البيان و التبيين إن ظننت أن لك فيها طبيعة، و إنهما يناسبانك بعض المناسبة، و يشاكلانك في بعض المشاكلة، و لا تهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوة القريحة، و يستبد بها سوء العادة. و إن كنت ذا بيان و أحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة و البلاغة، و بقوة المنّة يوم الحفل، فلا تقصر في التماس أعلاها سورة (1) ، و أرفعها في البيان منزلة. و لا يقطعنّك تهييب الجهلاء، و تخويف الجبناء، و لا تصرفنك الروايات المعدولة عن وجوهها، المتأولة على أقبح مخارجها.

و كيف تطيعهم بهذه الروايات المعدولة، و الأخبار المدخولة، و بهذا الرأي الذي ابتدعوه من قبل أنفسهم، و قد سمعت اللّه تبارك و تعالى، ذكر داود النبي صلوات اللّه عليه، فقال: **وَ اُذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا اَلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** إلى قوله:

وَ فَصْلَ اَلْخِطَابِ . فجمع له بالحكمة البراعة في العقل، و الرجاحة في الحلم، و الاتساع في العلم، و الصواب في الحكم، و جمع له بفصل الخطاب تفصيل المجمل، و تلخيص الملتبس، و البصر بالحزّ في موضع الحز، و الحسم في موضع الحسم.

و ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله شعيبا النبي عليه السلام، فقال: «كان شعيب خطيب الأنبياء» . و ذلك عند بعض ما حكاه اللّه في كتابه، و جلاه لأسماع عباده.

---

(1) السورة: المنزلة الرفيعة.

فكيف تهاب منزلة الخطباء و داود عليه السلام سلفك، و شعيب إمامك مع ما تلوناه عليك في صدر هذا الكتاب من القرآن الحكيم، و الآي الكريم. و هذه خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله مدونة محفوظة، و مخلدة مشهورة، و هذه خطب أبي بكر و عمر و عثمان و علي، رضي اللّه عنهم.

و قد كان لرسول اللّه شعراء ينافحون عنه و عن أصحابه بأمره، و كان ثابت ابن قيس بن الشماس الأنصاري خطيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، لا يدفع ذلك أحد.

فأما ما ذكرتم من الإسهاب و التكلف، و الخطل و التزيد، فإنما يخرج إلى الإسهاب المتكلف، و إلى الخطل المتزيد.

فأما أرباب الكلام، و رؤساء أهل البيان، و المطبوعون المعددون، و أصحاب التحصيل و المحاسبة، و التوقي و الشفقة، و الذين يتكلمون في صلاح ذات البين، و في إطفاء نائرة، أو في حمالة (1) ، أو على منبر جماعة، أو في عقد أملاك بين مسلم و مسلمة–فكيف يكون كلام هؤلاء يدعو إلى السلاطة و المراء، و إلى الهذر و البذاء، و إلى النفج و الرياء. و لو كان هذا كما يقولون لكان علي ابن أبي طالب، و عبد اللّه بن عباس أكثر الناس فيما ذكرتم. فلم خطب صعصعة بن صوحان عند علي بن أبي طالب، و قد كان ينبغي للحسن البصري أن يكون أحقّ التابعين بما ذكرتم؟ قال الأصمعي: قيل لسعيد بن المسيب (2) : هاهنا قوم نساك يعيبون إنشاد الشعر. قال: «نسكوا نسكا أعجميا» .

و قد زعمتم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: «شعبتان من شعب النفاق: البذاء، و البيان. و شعبتان من شعب الإيمان: الحياء، و العيّ» . و نحن نعوذ باللّه أن يكون القرآن يحث على البيان و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يحث على العيّ، و نعوذ باللّه أن

(1) النائرة: العداوة و الفتنة. الحمالة: الدية يحملها قوم عن قوم.
(2) سعيد بن المسيب المخزومي القرشي، فقيه كبير و راوية مشهور. توفي عام 94 هـ.

يجمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بين البذاء و البيان. و إنما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار، و وقع اسم العي على كل شيء قصر عن المقدار. فالعي مذموم و الخطل مذموم، و دين اللّه تبارك و تعالى بين المقصر و الغالي.

و هاهنا روايات كثيرة مدخولة، و أحاديث معلولة. رووا أن رجلا مدح الحياء عند الأحنف، و أن الأحنف قال ثمّ: يعود ذلك ضعفا. و الخير لا يكون سببا للشر. و لكننا نقول: إن الحياء اسم لمقدار من المقادير ما زاد على ذلك المقدار فسمه ما أحببت. و كذلك الجود اسم لمقدار من المقادير، فالسرف اسم لما فضل عن ذلك المقدار. و للحزم مقدار، فالجبن اسم لما فضل عن ذلك المقدار. و للإقتصاد مقدار، فالبخل اسم لما خرج عن ذلك المقدار.

و للشجاعة مقدار، فالتهور و الخدب اسم لما جاوز ذلك المقدار.

و هذه أحاديث ليست لعامتها أسانيد متصلة، فإن وجدتها متصلة لم تجدها محمودة، و أكثرها جاءت مطلقة ليس لها حامل محمود و لا مذموم. فإذا كانت الكلمة حسنت استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن. فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة، و تنسب إلى هذا الأدب، فقرضت قصيدة، أو حبرت خطبة، أو ألّفت رسالة، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك، أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله و تدعيه، و لكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب، فإن رأيت الأسماع تصغي له، و العيون تحدج إليه، و رأيت من يطلبه و يستحسنه، فانتحله. فإن كان ذلك في ابتداء أمرك، و في أول تكلفك فلم تر له طالبا و لا مستحسنا، فلعله أن يكون ما دام ريّضا قضيبا (1) ، أن يحل عندهم محل المتروك. فإذا عاودت أمثال ذلك مرارا، فوجدت الأسماع عنه منصرفة، و القلوب لاهية، فخذ في غير هذه الصناعة، و اجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه، أو زهدهم فيه.

(1) الريض: الذي ابتدأ في رياضته. القضيب: الذي لم يمهر في الرياضة.

و قال الشاعر:

إن الحديث تغر القوم خلوته # حتى يلجّ بهم عي و إكثار

و في المثل المضروب: «كل مجر في الخلاء مسرّ» ، و لم يقولوا مسرور. و كل صواب.

فلا تثق في كلامك برأي نفسك، فإني ربما رأيت الرجل متماسكا و فوق المتماسك، حتى إذا صار إلى رأيه في شعره، و في كلامه، و في ابنه، رأيته متهافتا و فوق المتهافت.

و كان زهير بن أبي سلمى، و هو أحد الثلاثة المتقدمين، يسمي كبار قصائده «الحوليات» .

و قال نوح بن جرير: قال الحطيئة: «خير الشعر الحوليّ المنقّح» .

قال و قال: البعيث الشاعر، و كان أخطب الناس: «إني و اللّه ما أرسل الكلام قضيبا خشيبا (1) ، و ما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك» .

و كنت أظن أن قولهم «محكك» كلمة مولدة، حتى سمعت قول الصعب بن علي الكناني:

أبلغ فزارة أن الذئب آكلها # و جائع سغب شرّ من الذيب

أزل أطلس ذو نفس محككة # قد كان طار زمانا في اليعاسيب (2)

و تكلم يزيد بن أبان الرقاشي، ثم تكلم الحسن، و أعرابيان حاضران فقال أحدهما لصاحبه: كيف رأيت الرجلين؟فقال: أما الأول فقاصّ مجيد، و أما الآخر فعربي محكك.

قال: و نظر أعرابي إلى الحسن، فقال له رجل: كيف تراه؟قال: أرى خيشوم حرّ.

---

(1) الخشيب: السيف الذي لم يصقل.
(2) الأزل: السريع، الأطلس: ما لونه أغبر إلى أسود.

قالوا: و أرادوا عبد اللّه بن وهب الراسبي (1) على الكلام يوم عقدت له الخوارج الرئاسة فقال: «و ما أنا و الرأي الفطير، و الكلام القضيب» !و لما فرغوا من البيعة له قال: «دعوا الرأي يغبّ، فإن غبوبه يكشف لكم عن محضه» .

و قيل لابن التوأم الرقاشي: تكلم. فقال: «ما أشتهي الخبز إلا بائتا» .

قال: و قال عبيد اللّه بن سالم لرؤبة: مت يا أبا الجحاف إذا شئت.

قال: و كيف ذاك؟قال: رأيت اليوم عقبة بن رؤبة ينشد شعرا له أعجبني.

قال: فقال رؤبة: نعم إنه ليقول و لكن ليس لشعره قران. و قال الشاعر:

مهاذبة مناجبة قران # منادبة كأنهم الأسود

يريد بقوله «قران» التشابه و الموافقة.

و قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك!قال: و بم ذلك؟ قال: لأني أقول البيت و أخاه، و أنت تقول البيت و ابن عمه.

قال: و ذكر بعضهم شعر النابغة الجعدي، فقال: «مطرف بآلاف، و خمار بواف (2) » . و كان الأصمعي يفضله من أجل ذلك. و كان يقول:

«الحطيئة عبد لشعره» . عاب شعره حين وجده كله متخيرا منتخبا مستويا، لمكان الصنعة و التكلف، و القيام عليه.

و قالوا: لو أن شعر صالح بن عبد القدوس (3) و سابق البربري (4) كان مفرقا في أشعار كثيرة، لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات،

---

(1) عبد اللّه بن وهب الراسبي الأزدي: خرج على علي بأربعة آلاف، و قتل في معركة النهروان سنة 38 هـ.
(2) المطرف: رداء من خر. الوافي: الدرهم الذي يزن مثقالا.
(3) صالح بن عبد القدوس قتله المهدي متهما بالزندقة في بغداد، كان شاعرا حكيما و متكلما واعظا بالبصرة.
(4) سابق بن عبد اللّه البربري شاعر زاهد عاش في العصر الأموي و وفد على عمر بن عبد العزيز.

و لصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق. و لكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر، و لم تجر مجرى النوادر. و متى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع.

قال: و قال بعض الشعراء لرجل: أنا أقول في كلّ ساعة قصيدة، و أنت تقرضها في كل شهر. فلم ذلك؟قال: لأني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبل من شيطانك.

قال: و أنشد عقبة بن رؤبة (أباه رؤبة) بن العجاج شعرا و قال له: كيف تراه؟قال: يا بنيّ إن أباك ليعرض له مثل هذا يمينا و شمالا فما يلتفت إليه.

و قد رووا مثل ذلك في زهير و ابنه كعب.

قال: و قيل لعقيل بن علّفة: لم لا تطيل الهجاء؟قال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق» .

و قيل لأبي المهوّش: لم لا تطيل الهجاء؟قال: لم أجد المثل النادر إلا بيتا واحدا، و لم أجد الشعر السائر إلا بيتا واحدا.

قال: و قال مسلمة بن عبد الملك لنصيب الشاعر: ويحك يا أبا الحجناء، أ ما تحسن الهجاء؟قال: أ ما تراني أحسن مكان عافاك اللّه: لا عافاك اللّه! و لاموا الكميت بن زيد على الإطالة، فقال: «أنا على القصار أقدر» .

و قيل للعجاج: ما لك لا تحسن الهجاء؟قال: هل في الأرض صانع إلا و هو على الإفساد أقدر.

و قال رؤبة: «الهدم أسرع من البناء» .

و هذه الحجج التي ذكروها عن نصيب و الكميت و العجاج و رؤبة، إنما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم. و هذا منهم جهل إن كانت هذه الأخبار صادقة و قد يكون الرجل له طبيعة في الحساب و ليس له طبيعة في الكلام،

و تكون له طبيعة في التجارة و ليست له طبيعة في الفلاحة، و تكون له طبيعة في الحداء أو في التغيير، أو في القراءة بالألحان، و ليت له طبيعة في الغناء و إن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحون. و تكون له طبيعة في الناي و ليس له طبيعة في السرناي (1) ، و تكون له طبيعة في قصبة الراعي و لا تكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين، و يكون له طبع في صناعة اللحون و لا يكون له طبع في غيرهما، و يكون له طبع في تأليف الرسائل و الخطب و الأسجاع و لا يكون له طبع في قرض بيت شعر. و مثل هذا كثير جدا.

و كان عبد الحميد الأكبر، و ابن المقفع، مع بلاغة أقلامهما و ألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما يذكر مثله.

و قيل لابن المقفع في ذلك، فقال: الذي أرضاه لا يجيئني، و الذي يجيئني لا أرضاه» .

و هذا الفرزدق و كان مستهترا بالنساء، و كان زير غوان، و هو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور، مع حسده لجرير. و جرير عفيف لم يعشق امرأة قط، و هو مع ذلك أغزل الناس شعرا.

و في الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، و منهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، و منهم من يجمعها كجرير و عمر بن لجأ، و أبي النجم، و حميد الأرقط، و العماني. و ليس الفرزدق في طواله بأشعر منه في قصاره.

و في الشعراء من يخطب و فيهم من لا يستطيع الخطابة، و كذلك حال الخطباء في قريض الشعر. و الشاعر نفسه قد تختلف حالاته.

و قال الفرزدق: أنا عند الناس أشعر الناس و ربما مرت علي ساعة و نزع ضرس أهون عليّ من أن أقول بيتا واحدا.

---

(1) السرناي: كلمة فارسية، معناها البوق الذي ينفخ فيه و يزمر.

و قال العجاج: لقد قلت أرجوزتي التي أولها:

بكيت و المحتزن البكيّ # و إنما يأتي الصبا الصبي

أطربا و أنت قنسري [1] # و الدهر بالإنسان دواري

و أنّا بالرمل، في ليلة واحدة، فانثالت عليّ قوافيها انثيالا، و إني لأريد اليوم دونها في الأيام الكثيرة فما أقدر عليه.

و قال لي أبو يعقوب الخريمي: خرجت من منزلي أريد الشماسية، فابتدأت القول في مرثية لأبي التختاخ، فرجعت و اللّه و ما أمكنني بيت واحد.

و قال الشاعر:

و قد يقرض الشعر البكيّ لسانه # و تعيي القوافي المرء و هو خطيب

أقوال بليغة

من القول في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز من ملتقطات كلام الناس.

قال بعض الناس: «من التوقي ترك الإفراط في التوقي» .

و قال بعضهم: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون» .

و قال الشاعر:

قدر اللّه وارد # حين يقضى وروده

فأرد ما يكون إن # لم يكن ما تريده

و قيل لأعرابي في شكاته: كيف تجدك؟قال: «أجدني أجد ما لا أشتهي و أشتهي ما لا أجد، و أنا في زمان من جاد لم يجد، و من وجد لم يجد» .

---

(1) القنسري: الكبير المسن.

و قيل لابن المقفع أ لا تقول الشعر؟قال: الذي يجيئني لا أرضاه، و الذي أرضاه لا يجيئني.

و قال بعض النساك: «أنا لما لا أرجو أرجى مني لما أرجو» .

و قال بعضهم: «أعجب من العجب، ترك التعجب من العجب» .

و قال عمر بن عبد العزيز لعبد بني مخزوم: «إني أخاف اللّه فيما تقلدت» . قال: لست أخاف عليك أن تخاف، و إنما أخاف عليك ألا تخاف.

و قال الأحنف لمعاوية: أخافك إن صدقتك، و أخاف اللّه إن كذبتك.

و قال رجل من النساك لصاحب له و هو يكيد بنفسه: أما ذنوبي فإني أرجو لها مغفرة اللّه، و لكني أخاف على بناتي الضيعة. فقال له صاحبه: فالذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجه لحفظ بناتك.

و قال رجل من النساك لصاحب له: ما لي أراك حزينا؟قال: كان عندي يتيم أربّيه لأوجر فيه، فمات و انقطع عنا أجره. إذ بطل قيامنا بمئونته. فقال له صاحبه!فاجتلب يتيما آخر يقوم لك مقام الأول. قال: أخاف ألا أصيب يتيما في سوء خلقه!قال له صاحبه: أما أنا فلو كنت في موضعك منه لما ذكرت سوء خلقه.

و قال آخر: و سمعه أبو هريرة النحوي و هو يقول: ما يمنعني من تعلم القرآن إلا أني أخاف أن أضيعه. قال: أما أنت فقد عجلت له التضييع، و لعلك إذا تعلمته لم تضيعه.

و قال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سيّد قومك؟قال: أنا. قال: لو كنت كذلك لم تقله!

ما قيل في الحق و الباطل

و قالوا في حسن البيان، و في التخلّص من الخصم بالحقّ و الباطل، و في تخليص الحق من الباطل، و في الإقرار بالحق، و في ترك الفخر بالباطل.

قال أعرابي و ذكر حماس بن ثامل فقال:

برئت إلى الرحمن من كلّ صاحب # أصاحبه إلا حماس بن ثامل

و ظني به بين السماطين أنه # سينجو بحق أو سينجو بباطل

و قال العجير السلوليّ:

و إن ابن زيد لابن عمي و إنه # لبلاّل أيدي جلّة الشول بالدم

طلوع الثنايا بالمطايا و إنه # غداة المرادي للخطيب المقدم

يسرك مظلوما و يرضيك ظالما # و يكفيك ما حملته حين تغرم

الشول: جمع شائلة، و هي الناقة التي قد جف لبنها. و إذا شالت بذنبها بعد اللقاح فهي شائل، و جمعها شوّل. المرادي: المصادم و المقارع، يقال رديت الحجر بصخرة أو بمعول، إذا ضربته بها لتكسره. و المرادة: الصخرة التي يكسر بها الحجارة. و قال ابن ربع الهذلي (1) :

أعين ألا فابكي رقيبة إنه # وصول لأرحام و معطاء سائل

فأقسم لو أدركته لحميته # و إن كان لم يترك مقالا لقائل

و قال بعض اليهود، و هو الربيع بن أبي الحقيق من بني النضير (2) :

سائل بنا خابر أكمائنا # و العلم قد يلقى لدى السائل

إنّا إذا مالت دواعي الهوى # و أنصت السامع للقائل

و اعتلج الناس بألبابهم # نقضي بحكم عادل فاصل

لا نجعل الباطل حقا و لا # نلطّ دون الحق بالباطل

نكره أن تسفه أحلامنا # فنخمل الدهر مع الخامل

و قال آخر و ذكر حماسا أيضا:

---

(1) ابن ربع الهذلي هو عبد مناف بن ربع الهذلي. شاعر جاهلي مغمور.

(2) شاعر جاهلي أدرك الإسلام و لم يسلم.

أتاني حماس بابن ماه يسوقه # ليبغيه خيرا و ليس بفاعل

ليعطي عبسا مالنا، و صدورنا # من الغيظ تغلي مثل غلي المراجل

و قافية قيلت لكم لم أجد لها # جوابا إذا لم تضربوا بالمناصل

فأنطق في حق بحق و لم يكن # ليرحض عنكم قالة الحق باطلي

ليرحض، أي ليغسل. و الراحض: الغاسل. و المرحاض: الموضع الذي يغسل فيه.

و قال عمرو بن معديكرب:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم # نطقت و لكن الرماح أجرّت

الجرار: عود يعرض في فم الفصيل، أو يشق به لسانه، لئلا يرضع.

فيقول: قومي لم يطعنوا بالرماح فأثني عليهم، و لكنهم فروا فأسكت كالمجرّ الذي في فمه الجرار.

و قال أبو عبيدة: صاح رؤبة في بعض الحروب التي كانت بين تميم و الأزد: يا معشر بني تميم، أطلقوا من لساني.

قال: و أبصر رجلا منهم قد طعن فارسا طعنة، فصاح: «لا عيّا و لا شللا!» و العرب تقول: «عي أبأس من شلل» . كأن العي فوق كلّ زمانة.

و قالت الجهنيّة:

ألا هلك الحلو الحلال الحلاحل # و من عنده حلم و علم و نائل [1]

و ذو خطب يوما إذا القوم أفحموا # تصيب مرادي قوله ما يحاول

بصير بعورات الكلام إذا التقى # شريجان بين القوم: حق و باطل

أتيّ لما يأتي الكريم بسيفه # و إن أسلمته جنده و القبائل

و ليس بمعطاء الظلامة عن يد # و لا دون أعلى سورة المجد قابل [2]

(1) الحلال: الذي لا ريبة فيه. الحلاحل: السيد الشجاع.

(2) عن يد: عن قهر و ذل و استسلام.

الحلاحل: السيّد. شريجان: جنسان مختلفان في كلّ شيء.

و أنشد أبو عبيدة في الخطيب يطول كلامه، و يكون ذكورا لأول خطبته و للذي بنى عليه أمره، و إن شغب شاغب فقطع عليه كلامه، أو حدث عند ذلك حدث يحتاج فيه إلى تدبير آخر، وصل الثاني من كلامه بالأوّل، حتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر، فأنشد:

و إن أحدثوا شغبا يقطّع نظمها # فإنك وصّال لما قطع الشغب

و لو كنت نسّاجا سددت خصاصها # بقول كطعم الشهد مازجه العذب

و قال نصيب:

و ما ابتذلت ابتذال الثوب ودّكم # و عائد خلقا ما كان يبتذل

و علمك الشيء تهوى أن تبيّنه # أشفى لقلبك من أخبار من تسل

و قال آخر:

لعمرك ما ودّ اللسان بنافع # إذا لم يكن أصل المودة في الصدر

و قال آخر:

تعلّم فليس المرء يولد عالما # و ليس أخو علم كمن هو جاهل

و إنّ كبير القوم لا علم عنده # صغير إذا التفت عليه المحافل

و قال آخر:

فتى مثل صفو الماء ليس بباخل # عليك و لا مهد ملاما لباخل

و لا قائل عوراء تؤذي جليسه # و لا رافع رأسا بعوراء قائل

و لا مسلم مولى لأمر يصيبه # و لا خالط حقا مصيبا بباطل

و لا رافع أحدوثة السوء معجبا # بها بين أيدي المجلس المتقابل

يرى أهله في نعمة و هو شاحب # طوي البطن مخماص الضحى و الأصائل (1)

(1) طوي البطن ضامره: المخماص: الجائع.

و قالت أخت يزيد بن الطثريّة [1] :

أرى الأثل من بطن العقيق مجاوري # قريبا و قد غالت يزيد غوائله

فتى قد قد السيف لا متضائل # و لا رهل لبّاته و بآدله [2]

فتى لا يرى خرق القميص بخصره # و لكنما توهي القميص كواهله

إذا نزل الأضياف كان عذوّرا # على الحيّ حتى تستقلّ مراجله [3]

مضى و ورثناه دريس مفاضة # و أبيض هنديا طويلا حمائله [4]

يسرّك مظلوما و يرضيك ظالما # و كل الذي حملته فهو حامله

أخو الجدّ إن جدّ الرجال و شمروا # و ذو باطل إن شئت ألهاك باطله [5]

يصير هذا الشعر و ما أشبهه مما وقع في هذا الباب، إلى الشعر الذي في أول الفصل.

مدح اللسن و البيان و الكلام الجميل المعدل

باب شعر و غير ذلك من الكلام مما يدخل في باب الخطب.

قال الشاعر:

عجبت لأقوام يعيبون خطبتي # و ما منهم في موقف بخطيب

و قال آخر:

إن الكلام من الفؤاد و إنما # جعل اللسان على الفؤاد دليلا

لا يعجبنّك من خطيب قوله # حتى يكون مع البيان أصيلا

---

(1) هو يزيد بن سلمة بن عامر، و الطثرية أمه نسبت إلى حي الطثر من اليمن، توفي سنة 126 هـ. و اسم أخته الشاعرة زينب.

(2) اللبة: المنحر. البادلة: اللحم بين الإبطين.

(3) العذور: السيئ الخلق. تستقل: تحمل و ترفع.

(4) المفاضة: الدرع الواسعة. الدرع الدريس: الخلق.

(5) هذه الجملة الأخيرة ليست للجاحظ، على الأرجح لأنها بعيدة عن أسلوبه.

و أنشد آخر:

أبرّ فما يزداد إلا حماقة # و نوكا و إن كانت كثيرا مخارجه [1]

و قد يكون رديء العقل جيد اللسان.

و قال أبو العباس الأعمى [2] :

إذا وصف الإسلام أحسن وصفه # بفيه، و يأبى قلبه و يهاجره

و إن قام قال الحق ما دام قائما # تقيّ اللسان كافر بعد سائره

و قال قيس بن عاصم المنقريّ [3] يذكر ما في بني منقر من الخطابة:

إني امرؤ لا يعتري خلقي # دنس يفنّده و لا أفن

من منقر في بيت مكرمة # و الأصل ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقوم قائلهم # بيض الوجوه مصاقع لسن

لا يفطنون لعيب جارهم # و هم لحفظ جوارهم فطن

و من هذا الباب و ليس منه في الجملة، قول الآخر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها # إشارة مذعور و لم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا # و أهلا و سهلا بالحبيب المسلّم

و قال نصيب [4] ، مولى عبد العزيز بن مروان:

يقول فيحسن القول ابن ليلى # و يفعل فوق أحسن ما يقول

---

(1) أبر: غلب. النوك: الحمق.

(2) أبو العباس الأعمى: هو السائب بن فروخ، تشيع لبني أمية و مدحهم، و توفي سنة 126 هـ.

(3) قيس بن عاصم المنقري التميمي شاعر فارسي مخضرم صحب النبي زمانا و حسن إسلامه بعد أن اشتهر بوأد بناته في الجاهلية.

(4) هو نصيب بن رباح النوبي، شاعر فحل، تعصب للسودان. أنظر رسالة السودان و البيضان للجاحظ ضمن رسائله.

و قال آخر:

ألا رب خصم ذي فنون علوته # و إن كان ألوى يشبه الحق باطله [1]

فهذا هو معنى قول العتابي: «البلاغة إظهار ما غمض من الحق، و تصوير الباطل في صورة الحق» . و قال الشاعر، و هو كما قال:

عجبت لإدلال العييّ بنفسه # و صمت الذي كان بالقول أعلما

و في الصمت ستر للعييّ و إنما # صحيفة لبّ المرء أن يتكلما

و موضع «الصحيفة» من هذا البيت، موضع ذكر «العنوان» في شعره الذي رثى عثمان بن عفان، رحمه اللّه، به حيث يقول:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به # يقطّع الليل تسبيحا و قرآنا

و أنشد أيضا:

ترى الفتيان كالنخل # و ما يدريك ما الدخل

و كلّ في الهوى ليث # و فيما نابه فسل

و ليس الشأن في الوصل # و لكن أن يرى الفصل

و قال كسرى أنو شروان، لبزرجمهر: أي الأشياء خير للمرء العييّ؟ قال: عقل يعيش به. قال: فإن لم يكن له عقل؟قال: فإخوان يسترون عليه. قال: فإن لم يكن له إخوان؟قال: فمال يتحبّب به إلى الناس. قال:

فإن لم يكن له مال؟قال: فعيّ صامت. قال: فإن لم يكن له. قال: فموت مريح.

و قال موسى بن يحيى بن خالد: قال أبو علي: «رسائل المرء في كتبه أدل على مقدار عقله، و أصدق شاهدا على غيبه لك، و معناه فيك، من أضعاف ذلك على المشافهة و المواجهة» .

(1) الألوى: الشديد الخصومة.

و وصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العصب، و كالحلل و المعاطف، و الديباج و الوشي، و أشباه ذلك.

و أنشدني أبو الجماهر جندب بن مدرك الهلاليّ:

لا يشترى الحمد أمنية # و لا يشترى الحمد بالمقصر

و لكنما يشترى غاليا # فمن يعط قيمته يشتر

و من يعتطفه على مئزر # فنعم الرداء على المئزر

و أنشدني لابن ميادة (1) :

نعم إنني مهد ثناء و مدحة # كبرد اليماني يربح البيع تاجره

و أنشد:

فإن أهلك فقد أبقيت بعدي # قوافي تعجب المتمثّلينا

لذيذات المقاطع محكمات # لو أن الشّعر يلبس لارتدينا

و قال أبو قردودة، يرثي ابن عمار (2) قتيل النعمان و نديمه، و وصف كلامه، و قد كان نهاه عن منادمته:

إني نهيت ابن عمار و قلت له # لا تأمنن أحمر العينين و الشعره

إن الملوك متى تنزل بساحتهم # تطر بنارك من نيرانهم شرره

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا # و منطقا مثل وشي اليمنة الحبره

و قال الشاعر (3) في مديح أحمد بن أبي دؤاد:

---

(1) ابن ميادة هو الرماح بن أبرد نسبة إلى أمه ميادة. مات في صدر خلافة المنصور بعد أن مدحه.

(2) ابن عمار: هو عمرو بن عمار الطائي، كان شاعرا خطيبا أعجب به النعمان بن المنذر فاتخذه نديما ثم قتله.

(3) ينسب ياقوت الأبيات للجاحظ نفسه. و من عادة الجاحظ أن يبقى شعره غفلا، أنظر رسالته إلى القواد و رسالته إلى أبي الفرج.

و عويص من الأمور بهيم # غامض الشخص مظلم مستور

قد تسهّلت ما توعّر منه # بلسان يزينه التحبير

مثل وشي البرود هلهله النسج # و عند الحجاج در نثير

حسن الصمت و المقاطع أما # نطق القوم و الحديث يدور

ثم من بعد لحظة تورث اليسر # و عرض مهذّب موفور

و مما يضم إلى هذا المعنى و ليس منه، قول جميل بن معمر:

نمت في الروابي من معدّ و أفلجت # على الخفرات الغرّ و هي وليد

أناة على نيرين أضحى لداتها # بلين بلاء الرّيط و هي جديد

نمت: شبت. الروابي من معد: البيوت الشريفة. و أصل الرابية و الرباوة: ما ارتفع من الأرض. أفلجت: أظهرت. و الخفرات: الحييات.

الأناة: المرأة التي فيها فتور عند القيام. و قوله على نيرين، وصفها بالقوة، كالثوب الذي ينسج على نيرين، و هو الثوب الذي له سديان، كالديباج و ما أشبهه. أضحى لداتها، اللدة: القرينة في المولد و المنشأ فيقول: إن أقرانها قد بلين، و هي جديد لحسن غذائها و دوام نعمتها.

و من هذا الشكل و ليس منه بعينه قول الشاعر:

على كلّ ذي نيرين زيد محاله # محالا و في أضلاعه زيد أضلعا

المحال: محال الظهر، و هي فقاره، واحدها محالة.

و قال أبو يعقوب الخريميّ الأعور: أول شعر قلته هذان البيتان:

بقلبي سقام لست أحسن وصفه # على أنه ما كان فهو شديد

تمر به الأيام تسحب ذيلها # فتبلى به الأيام و هو جديد

و قال الآخر:

أبى القلب إلا أمّ عمرو و حبها # عجوزا و من يحبب عجوزا يفنّد
كبرد اليماني قد تقادم عهده # و رقعته ما شئت في العين و اليد

و قال ابن هرمة:

إن الأديم الذي أصبحت تعركه # جهلا لذو نغل باد و ذو حلم

و لن يئطّ بأيدي الخالقين و لا # أيدي الخوالق إلا جيّد الأدم

و في غير هذا الباب و هو قريب منه قول ذو الرمة:

و في قصر حجر من ذؤابة عامر # إمام هدى مستبصر الحكم عادله

كأن على أعطافه ماء مذهب # إذا سمل السّربال طارت رعابله

الرعابل: القطع. و شواء مرعبل: مقطع. و رعبلت الشيء أي قطعته. و يقال ثوب سمل و أسمال. و يقال سمل الثوب و أسمل، إذا خلق.

و هو الذي يقول:

حوراء في دعج صفراء في نعج # كأنها فضة قد مسها ذهب

الحور: شدة بياض العين. و الدعج: شدة سواد الحدقة. و النعج:

اللين. قالوا: لأن المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحمرة، و بالعشيّ يضرب إلى الصفرة. و لذلك قال الأعشى:

بيضاء ضحوتها و صفــ # راء العشية كالعراره

و قال آخر:

قد علمت بيضاء صفراء الأصل # لأغنينّ اليوم ما أغنى رجل

و قال بشار بن برد:

و خذي ملابس زينة # و مصبّغات فهي أفخر

و إذا دخلت تقنّعي # بالحمر إنّ الحسن أحمر

و هذان أعميان قد اهتديا من حقائق هذا الأمر إلى ما لا يبلغه تمييز البصير. و لبشار خاصة في هذا الباب ما ليس لأحد، و لو لا أنه في كتاب الرجل

و المرأة، و في باب القول في الإنسان من كتاب الحيوان، أليق و أزكى، لذكرناه في هذا الموضع.

و مما ذكروا فيه الوزن قوله:

زني القول حتى تعرفي عند وزنهم # إذا رفع الميزان كيف أميل

و قال ابن الزبير الأسديّ، و اسمه عبد اللّه (1) :

أعاذل غضي بعض لومك إنني # أرى الموت لا يرضى بدين و لا رهن

و إني أرى دهرا تغيّر صرفه # و دنيا أراها لا تقوم على وزن

و يذكرون الكلام الموزون و يمدحون به، و يفضّلون إصابة المقادير، و يذمون الخروج من التعديل.

قال جعفر بن سليمان: ليس طيب الطعام بكثرة الإنفاق و جودة التوابل، و إنما الشأن في إصابة القدر. و قال طارق بن أثال الطائي:

ما إن يزال ببغداد يزاحمنا # على البراذين أشباه البراذين

أعطاهم اللّه أموالا و منزلة # من الملوك بلا عقل و لا دين

ما شئت من بغلة سفواء ناجية # و من أثاث و قول غير موزون (2)

و أنشدني بعض الشعراء:

رأت رجلا أودى السفار بجسمه # فلم يبق إلا منطق و جناجن

إذا حسرت عنه العمامة راعها # جميل الحفوف أغفلته الدواهن

فإن أك معروق العظام فإنني # إذا ما وزنت القوم بالقوم وازن

(الجناجن: عظام الصدر) .

---

(1) ابن الزبير الأسدي: عبد اللّه بن الزبير الخزيمي. ولد و نشأ في الكوفة في العصر الأموي، و قد تعصب للأمويين و مدحهم، و لما غلب ابن الزبير على الكوفة مال إليه و مدحه، و مات أعمى في خلافة عبد الملك بن مروان.

(2) سفواء: خفيفة سريعة.

و قال مالك بن أسماء في بعض نسائه و كانت لا تصيب الكلام كثيرا، و ربما لحنت:

أ مغطّى مني على بصري للحب # أم أنت أكمل الناس حسنا

و حديث ألذه هو مما # ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب و تلحن أحيا # نا و خير الحديث ما كان لحنا

و قال طرفة في المقدار و إصابته:

فسقى ديارك غير مفسدها # صوب الربيع و ديمة تهمي

طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضارّ. و قال النبي صلّى اللّه عليه و آله في دعائه: «اللهم اسقنا سقيا نافعا» . لأن المطر ربما جاء في غير أبّان الزراعات، و ربما جاء و التمر في الجرن، و الطعام في البيادر، و ربما كان في الكثرة مجاوزا لمقدار الحاجة. و قال النبي صلّى اللّه عليه و آله: «اللهم حوالينا و لا علينا» .

و قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. قال: و لم؟قال: لأني أقول البيت و أخاه، و أنت تقول البيت و ابن عمه.

و عاب رؤبة شعر ابنه فقال: «ليس لشعره قران» . و جعل البيت أخا البيت إذا أشبهه و كان حقه أن يوضع إلى جنبه. و على ذلك التأويل قال الأعشى:

أبا مسمع أقصر فإن قصيدة # متى تأتكم تلحق بها أخواتها

و قال اللّه عز و جل: **وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا** .

و قال عمرو بن معديكرب:

و كلّ أخ مفارقه أخوه # لعمر أبيك إلا الفرقدان

و قالوا فيما هو أبعد معنى و أقل لفظا. قال الهذليّ:

أ عامر لا آلوك إلا مهنّدا # و جلد أبي عجل وثيق القبائل

و يعني بأبي عجل الثور.

و قالوا فيما هو أبعد من هذا. قال ابن عسلة الشيباني، و اسمه عبد المسيح:

و سمّاع مدجنة تعللنا # حتى ننام تناوم العجم

فصحوت و النمري يحسبها # عمّ السماك و خالة النجم

النجم واحد و جمع. و النجم: الثريا في كلام العرب. مدجنة، أي سحابة دائمة.

و قال أبو النجم فيما هو أبعد من هذا، و وصف العير و المعيوراء و هو الموضع الذي يكون فيه الأعيار:

و ظل يوفي الأكم ابن خالها

فهذا مما يدل على توسعهم في الكلام، و حمل بعضه على بعض، و اشتاق بعضه من بعض.

و قال النبي صلّى اللّه عليه و آله: «نعمت العمة لكم النخلة» ، حين كان بينها و بين الناس تشابه و تشاكل و نسب من وجوه. و قد ذكرنا في ذلك كتاب الزرع و النخل.

و في مثل ذلك قال بعض الفصحاء:

شهدت بأن التمر بالزبد طيب # و أن الحبارى خالة الكروان

لأن الحبارى، و إن كانت أعظم بدنا من الكروان، فإن اللون و عمود الصورة واحد، فلذلك جعلها خالته، و رأى أن ذلك قرابة تستحق بها هذا القول.

قال كعب الأشقريّ (1) :

إلا أكن في الأرض أخطب قائما # فإني على ظهر الكميت خطيب

و قال ثابت قطنة:

فإلا أكن فيهم خطيبا فإنني # بسمر القنا و السيف جدّ خطيب

(1) هو كعب بن معدان الأشقري، من أصحاب المهلب بن أبي صفرة، اشترك في حروب الأزارقة الخوارج و كان شاعرا و فارسا و خطيبا.

و قالت ليلى الأخيلية:

حتى إذا رفع اللواء رأيته # تحت اللواء على الخميس زعيما

و قال آخر:

عجبت لأقوام يعيبون خطبتي # و ما منهم في مأقط بخطيب

و هؤلاء يفخرون بأن خطبهم التي عليها يعتمدون، السيوف و الرماح و إن كانوا خطباء.
و قال دريد بن الصّمّة:

أبلغ نعيما و أوفى إن لقيتهما # إن لم يكن كان في سمعيهما صمم

فلا يزال شهاب يستضاء به # يهدي المقانب ما لم تهلك الصّمم

عاري الأشاجع معصوب بلمته # أمر الزعامة في عرنينه شمم

المقانب: جمع مقنب، و المقنب: الجماعة من الخيل ليست بالكثيرة.

و الأشاجع: عروق ظاهر الكف، و هي مغرز الأصابع. و اللمة: الشعرة التي ألمّت بالمنكب. و زعيم القوم: رأسهم و سيدهم الذي يتكلم عنهم و الزعامة: مصدر الزعيم الذي يسود قومه. و قوله «معصوب بلمته» أي يعصب برأسه كل أمر. عرنينه: أنفه.

و قال أبو العباس الأعمى، مولى بني بكر بن عبد مناة في بني عبد شمس:

ليت شعري أ فاح رائحة المســـ # ك و ما إن أخال بالخيف إنسي

حين غابت بنو أمية عنه # و البهاليل من بني عبد شمس

خطباء على المنابر فرسا # ن عليها و قالة غير خرس

لا يعابون صامتين و إن قا # لوا أصابوا و لم يقولوا بلبس

بحلوم إذا الحلوم استخفّت # و وجوه مثل الدنانير ملس

و قال العجاج:

و حاصن من حاصنات ملس # من الأذى و من قراف الوقس

المحصنة: ذوات الزوج. و الحاصن: العفيف. و الوقس: العيب.

و قال امرؤ القيس:

و يا ربّ يوم قد أروح مرجّلا # حبيبا إلى البيض الكواعب أملسا

و قال أبو العباس الأعمى:

و لم أر حيا مثل حي تحملوا # إلى الشام مظلومين منذ بريت

أعزّ و أمضى حين تشتجر القنا # و أعلم بالمسكين حيث يبيت

و أرفق بالدنيا بأولى سياسة # إذا كاد أمر المسلمين يفوت

إذا مات منهم سيد قام سيد # بصير بعورات الكلام زميت

و قال آخر:

لا يغسل العرض من تدنّسه # و الثوب إن مسّ مدنسا غسلا

و زلّة الرّجل تستقال و لا # يكاد رأي يقيلك الزللا

و قال آخر في الزلل:

أ لهفي إذ عصيت أبا يزيد # و لهفي إذ أطعت أبا العلاء

و كانت هفوة من غير ريح # و كانت زلّة من غير ماء

و قال آخر:

فإنك لم ينذرك أمرا تخافه # إذا كنت فيه جاهلا مثل خابر

و قال ابن وابصةاسمه سالم (1) ، في مقام قام فيه مع ناس من الخطباء:

يا أيها المتحلي غير شيمته # و من سجيته الإكثار و الملق

أعمد إلى القصد فيما أنت راكبه # إن التخلق يأتي دونه الخلق

(1) سالم بن وابصة شاعر أموي و فارس، مدح عبد الملك بن مروان و اتصل به و حظي عنده كالأخطل.

صدت هنيدة لما جئت زائرها # عني بمطروفة إنسانها غرق

و راعها الشيب في رأسي فقلت لها # كذاك يصفرّ بعد الخضرة الورق

بل موقف مثل حد السيف قمت به # أحمي الذمار و ترميني به الحدق

فما زللت و لا ألفيت ذا خطل # إذا الرجال على أمثالها زلقوا

قال: و أنشدني لأعرابي من باهلة:

سأعمل نصّ العيس حتى يكفّني # غنى المال يوما أو غنى الحدثان

فللموت خير من حياة يرى لها # على الحر بالإقلال و سم هوان

متى يتكلم يلغ حسن حديثه # و إن لم يقل قالوا عديم بيان

كأن الغنى عن أهله، بورك الغنى # بغير لسان ناطق بلسان

و في مثلها في بعض الوجوه قال عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإني # رأيت الناس شرهم الفقير

و أهونهم و أحقرهم لديهم # و إن أمسى له كرم و خير (1)

و يقصى في النديّ و تزدريه # حليلته و ينهره الصغير (2)

و تلقى ذا الغنى و له جلال # يكاد فؤاد صاحبه يطير

قليل ذنبه و الذنب جم # و لكنّ الغنى ربّ غفور

و قال ابن عباس رحمه اللّه: «الهوى إله معبود» . و تلا قول اللّه عزّ و جل: **أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اِتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اَللَّهُ عَلى عِلْمٍ** .

و قال أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (3) :

تلك عرساي تنطقان على عمد # لي اليوم قول زور و هتر

---

(1) الخير: الشرف و الأصل.

(2) النديّ: مجلس القوم.

(3) أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المبشرين و الصحابة الذين أسلموا مبكرا. توفي عام 50 هـ. و الأبيات مختلف في نسبتها إليه.

سألتاني الطلاق أن رأتا ما # لي قليلا قد جئتماني بنكر

فلعلّي إن يكثر المال عندي # و يعرّي من المغارم ظهري

و ترى أعبد لنا و أواق # و مناصيف من خوادم عشر

و نجرّ الأذيال في نعمة زو # ل تقولان ضع عصاك لدهر

وى كأن من يكن له نشب يحبب # و من يفتقر يعش عيش ضرّ

و يجنّب سر النجي و لكن # أخا المال محضر كلّ سرّ

المناصيف: الخدم واحدهم منصف و ناصف، و قد نصف القوم ينصفهم نصافة، إذا خدمهم. نعمة زول: حسنة. و الزول: الخفيف الظريف، و جمعه أزوال.

و قال عبيد بن الأبرص في نحو هذا و ليس كمثله:

تلك عرسي غضبى تريد زيالي # أ لبين تريد أم لدلال

إن يكن طبّك الفراق فلا أحفل # إن تعطفي صدور الجمال

أو يكن طبك الدلال فلو في # سالف الدهر و الليالي الخوالي

كنت بيضاء كالمهاة و إذ آ # تيك نشوان مرخيا أذيالي

فاتركي مطّ حاجبيك و عيشي # معنا بالرجاء و التأمال

زعمت أنني كبرت و أني # قلّ مالي و ضن عني الموالي

و صحا باطلي و أصبحت شيخا # لا يواتي أمثالها أمثالي

إن تريني تغيّر الرأس مني # و علا الشيب مفرقي و قذالي

فبما أدخل الخباء على مهضومة # الكشح طفلة كالغزال

فتعاطيت جيدها ثم مالت # ميلان الكثيب بين الرمال

ثم قالت فدى لنفسك نفسي # و فداء لمال أهلك مالي

الكشح: الخصر. و قوله: «مهضومة» ، أراد لطيفة. و الطفلة: الرخصة الناعمة.

آراء في الخطباء و الشعراء و العلماء

قال: و خرج عثمان بن عفان-رحمه اللّه-من داره يوما، و قد جاء عامر ابن عبد قيس. فقعد في دهليزه، فلما خرج رأى شيخا دميما أشغى ثطّا، في عباءة، فأنكره و أنكر مكانه، فقال: يا أعرابي، أين ربك؟فقال: بالمرصاد! و الشغي: تراكب الأسنان و اختلافها. ثط: صغير اللحية.

و يقال إن عثمان بن عفان لم يفحمه أحد قط غير عامر بن عبد قيس.

و نظر معاوية إلى النخار بن أوس العذري، الخطيب الناسب، في عباءة في ناحية من مجلسه، فأنكره و أنكر مكانه زراية منه عليه، فقال: من هذا؟ فقال النخار: يا أمير المؤمنين، إن العباءة لا تكلمك، و إنما يكلمك من فيها! قال: و نظر عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه إلى هرم بن قطبة، ملتفا في بتّ في ناحية المسجد، و رأى دمامته و قلته، و عرف تقديم العرب له في الحكم و العلم، فأحب أن يكشفه و يسبر ما عنده، فقال: أ رأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر؟يعني علقمة بن علاثة، و عامر بن الطفيل. فقال: يا أمير المؤمنين: لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة. فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: لهذا العقل تحاكمت العرب إليك.

و نظر عمر إلى الأحنف و عنده الوفد، و الأحنف ملتف في بتّ له (1) ، فترك جميع القوم و استنطقه، فلما تبعّق منه ما تبعّق، و تكلم بذلك الكلام البليغ المصيب، و ذهب ذلك المذهب، لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد له الرئاسة ثابتا له ذلك، إلى أن فارق الدنيا.

و نظر النعمان بن المنذر إلى ضمرة بن ضمرة، فلما رأى دمامته و قلته قال: «تسمع بالمعيديّ لا أن تراه» ، هكذا تقوله العرب. فقال ضمرة:

---

(1) البت: كساء غليظ.

«أبيت اللعن، إن الرجال لا تكال بالقفزان، و لا توزن في الميزان، و إنما المرء بأصغريه: قلبه و لسانه» .

و كان ضمرة خطيبا، و كان فارسا شاعرا شريفا سيّدا.

و كان الرمق بن زيد مدح أبا جبيلة الغساني، و كان الرّمّق دميما قصيرا، فلما أنشده و حاوره، قال: «عسل طيب في ظرف سوء» .

قال: و كلّم علباء بن الهيثم السدوسي عمر بن الخطاب، و كان علباء أعور دميما، فلما رأى براعته و سمع بيانه، أقبل عمر يصعّد فيه بصره و يحدره، فلما خرج قال عمر: «لكل أناس في جميلهم خبر» .

و قال أبو عثمان (1) : و أنشدت سهل بن هارون، قول سلمة بن الخرشب و شعره الذي أرسل به إلى سبيع التغلبي في شأن الرهن التي وضعت على يديه في قتال عبس و ذبيان، فقال سهل بن هارون: و اللّه لكأنه قد سمع رسالة عمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في سياسة القضاء و تدبير الحكم (2) .

و القصيدة قوله:

أبلغ سبيعا و أنت سيدنا # قدما و أوفى رجالنا ذمما

إن بغيضا و إن إخوتها # ذبيان قد ضرموا الذي اضطرما

نبّيت أن حكّموك بينهم # فلا يقولنّ بئس ما حكما

إن كنت ذا خبرة بشأنهم # تعرف ذا حقهم و من ظلما

و تنزل الأمر في منازله # حكما و علما و تحضر الفهما

و لا تبالي من المحق و لا المبطل # لا ألة و لا ذمما

فاحكم و أنت الحكيم بينهم # لن يعدموا الحكم ثابتا صتما

(1) العبارة «و قال أبو عثمان» مقحمة من الناسخ.
(2) أورد الجاحظ هذه الرواية من قبل.

و اصدع أديم السواء بينهم # على رضا من رضي و من رغما

إن كان مالا فقضّ عدّته # مالا بمال و إن دما فدما

حتى ترى ظاهر الحكومة # مثل الصبح جلى نهاره الظلما

هذا و إن لم تطق حكومتهم # فانبذ إليهم أمورهم سلما

الصتم: الصحيح القوي، يقال رجل صتم، إذا كان شديدا.

و قال العائشي: كان عمر بن الخطاب-رحمه اللّه-أعلم الناس بالشعر، و لكنه كان إذا ابتلي بالحكم بين النجاشي و العجلاني (1) ، و بين الحطيئة و الزبرقان، كره أن يتعرض للشعراء، و استشهد للفريقين رجالا، مثل حسان بن ثابت و غيره، ممن تهون عليهم سبالهم، فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم، و كان الذي ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعا للفريقين، و يكون هو قد تخلص بعرضه سليما، فلما رآه من لا علم له يسأل هذا و هذا، ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيره.

و قال: و لقد أنشدوه شعرا لزهير-و كان لشعره مقدّما-فلما انتهوا إلى قوله:

و إن الحقّ مقطعه ثلاث # يمين أو نفار أو جلاء

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق و تفصيله بينها، و إقامته أقسامها:

و إن الحق مقطعه ثلاث # يمين أو نفار أو جلاء

يردّدن البيت من التعجب.

---

(1) النجاشي هو قيس بن عمر بن كعب شرب الخمر في رمضان فجلده علي فهرب إلى معاوية. و سمي النجاشي لسواد لونه كالأحباش. أما العجلاني فهو تميم بن أبي مقبل من عجلان أسلم و لكنه ظل يبكي أهل الجاهلية.

و أنشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب الطويلة التي على اللام، فلما بلغ المنشد إلى قوله:

و المرء ساع لشيء ليس يدركه # و العيش شحّ و إشفاق و تأميل

قال عمر متعجبا:

و العيش شح و إشفاق و تأميل

يعجّبهم من حسن ما قسّم و ما فصّل.

و أنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت التي على العين، و هو ساكت، فلما انتهى المنشد إلى قوله:

الكيس و القوة خير من الإشفاق و الفهمة و الهاع أعاد عمر البيت و قال:

الكيس و القوة خير من الإشفاق و الفهّة و الهاع و جعل عمر يردد البيت و يتعجب منه.

قال محمّد بن سلام، عن بعض أشياخه قال: كان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر.

و قال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم و يفخم شأنهم، و يهول على عدوهم و من غزاهم، و يهيب من فرسانهم و يخوف من كثرة عددهم، و يهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر و الشعراء، و اتخذوا الشعر مكسبة و رحلوا إلى السوقة، و تسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. و لذلك قال الأول: «الشعر أدنى مروءة السري، و أسرى مروءة الدنيّ» . ــ

قال: و لقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبيانيّ، و لو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة.

و روى مجالد عن الشعبي قال: ما رأيت رجلا مثلي، و ما أشاء أن ألقى رجلا أعلم مني بشيء إلا لقيته.

و قال الحسن البصري: يكون الرجل عابدا و لا يكون عاقلا، و يكون عابدا عاقلا و لا يكون عالما. و كان مسلم بن يسار (1) عاقلا عالما عابدا.

قال: و كان يقال: فقه الحسن، و ورع ابن سيرين، و عقل مطرّف، و حفظ قتادة.

قال: و ذكرت البصرة، فقيل: شيخها الحسن، و فتاها بكر بن عبد اللّه المزنيّ.

قال: و الذين بثوا العلم في الدنيا أربعة: قتادة، و الزهري، و الأعمش، و الكلبيّ.

و جمع سليمان بن عبد الملك بين قتادة و الزهري، فغلب قتادة الزهري، فقيل لسليمان في ذلك، فقال: إنه فقيه مليح. فقال القحذمي: لا، و لكنه تعصب للقرشية، و لانقطاعه إليهم، و لروايته فضائلهم.

و كان الأصمعي يقول: «وصلت بالعلم، و نلت بالملح» .

و كان سهل بن هارون يقول: «اللسان البليغ و الشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد، و أعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر، و بلاغة القلم» .

و المسجديون (2) يقولون: من تمنى رجلا حسن العقل، حسن البيان، حسن العلم، تمنى شيئا عسيرا.

---

(1) مسلم بن يسار فقيه راوية عالم، روى عن ابن عباس و روى عنه ابن سيرين، و كان مفتي أهل البصرة قبل الحسن البصري، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة 100 هـ.

(2) المسجديون: الذين يرتادون المسجد كثيرا في البصرة و الكوفة.

ذم النوك

و كانوا يعيبون النّوك و العيّ و الحمق، و أخلاق النساء و الصبيان. قال الشاعر:

إذا ما كنت متخذا خليلا # فلا تثقن بكلّ أخي إخاء

و إن خيرت بينهم فألصق # بأهل العقل منهم و الحياء

فإن العقل ليس له إذا ما # تفاضلت الفضائل من كفاء

و إن النوك للأحساب داء # و أهون دائه داء العياء

و من ترك العواقب مهملات # فأيسر سعيه سعي العناء

فلا تثقنّ بالنوكي لشيء # و إن كانوا بني ماء السماء

فليسوا قابلي أدب فدعهم # و كن من ذاك منقطع الرجاء

و قال آخر في التضييع و النّوك:

و من ترك العواقب مهملات # فأيسر سعيه أبدا تباب

فعش في جدّ أنوك ساعدته # مقادير يخالفها الصواب

ذهاب المال في حمد و أجر # ذهاب لا يقال له ذهاب

و قال آخر في مثل ذلك:

أرى زمنا نوكاه أسعد أهله # و لكنما يشقى به كلّ عاقل

مشى فوقه رجلاه و الرأس تحته # فكبّ الأعالي بارتفاع الأسافل

و قال الآخر:

فلم أر مثل الفقر أوضع للفتى # و لم أر مثل المال أرفع للرّذل

و لم أر عزّا لامرئ كعشيرة # و لم أر ذلا مثل نأي عن الأصل

و لم أر من عدم أضر على امرئ # إذا عاش وسط الناس من عدم العقل

و قال آخر:

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم # و لاقهم بالنوك فعل أخي الجهل

و خلّط إذا لاقيت يوما مخلّطا # يخلّط في قول صحيح و في هزل

فإني رأيت المرء يشقى بعقله # كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

و قال آخر:

و أنزلني طول النوى دار غربة # إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

فحامقته حتى يقال سجية # و لو كان ذا عقل لكنت أعاقله

و قال بشر بن المعتمر:

و إذا الغبي رأيته مستغنيا # أعيا الطبيب و حيلة المحتال

و أنشدني آخر:

و للدهر أيام فكن في لباسه # كلبسته يوما أجدّ و أخلقا

و كن أكيس الكيسي إذا ما لقيتهم # و إن كنت في الحمقى فكن أنت أحمقا

و أنشدني آخر:

و لا تقربي يا بنت عمي بوهة # من القوم دفناسا غبيا مفندا (1)

و إن كان أعطى رأس ستين بكرة # و حكما على حكم و عبدا مولدا

ألا فاحذري لا توردنّك هجمة # طوال الذرى جبسا من القوم قعددا (2)

و أنشدني آخر:

كسا اللّه حيي تغلب ابنة وائل # من اللؤم أظفارا بطيئا نصولها

إذا ارتحلوا عن دار ضيم تعاذلوا # عليها وردوا وفدهم يستقيلها

و أنشدني آخر:

و إن عناء إن تفهّم جاهلا # و يحسب جهلا أنه منك أفهم

---

(1) البوهة: الرجل الضعيف الطائش. الدفناس: الأحمق. المفند: الضعيف الرأي.

(2) الهجمة من الإبل: قريب من المائة. الجبس: الجبان. القعدد: الجبان اللئيم القاعد عن الحرب.

و قال جرير:

و لا يعرفون الشر حتى يصيبهم # و لا يعرفون الأمر إلا تدبّرا

و قال الأعرج المعني الطائي (1) :

لقد علم الأقوام إن قد فررتم # و لم تبدأهم بالمظالم أولا

فكونوا كداعي كرة بعد فرة # ألا ربّ من قد فر ثمّت أقبلا

فإن أنتم لم تفعلوا فتبدلوا # بكل سنان معشر الغوث مغزلا

و اعطوهم حكم الصبي بأهله # و إني لأرجو أن يقولوا بأن لا

و يقال: «أظلم من صبي» و «أكذب من صبي» و «أخرق من صبي» .

و أنشد:

و لا تحكما حكم الصبي فإنه # كثير على ظهر الطريق مجاهله

قال: و سئل دغفل بن حنظلة، عن بني عامر فقال: «أعناق ظباء، و أعجاز نساء» . قيل: فما تقول في أهل اليمن؟قال: «سيّد و أنوك» (2) .

---

(1) الأعرج المعني الطائي: هو عدي بن عمرو بن سويد الطائي شاعر مخضرم أدرك الإسلام و أسلم.

(2) الأنوك: الأحمق.

باب في ذكر المعلمين (1)

و من أمثال العامة: «أحمق من معلم كتّاب» . و قد ذكرهم صقلاب فقال:

و كيف يرجّى الرأي و العقل عند من # يروح على أنثى و يغدو على طفل

و في قول بعض الحكماء: «لا تستشيروا معلما و لا راعي غنم و لا كثير القعود مع النساء» . و قالوا: «لا تدع أم صبيك تضربه، فإنه أعقل منها و إن كانت أسن منه» . و قد سمعنا في المثل: «أحمق من راعي ضأن ثمانين» .

فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا و قد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء صلى اللّه عليهم. و لعمري إن الفدّادين من أهل الوبر و رعاة الإبل ليتنبلون على رعاة الغنم، و يقول أحدهم لصاحبه: «إن كنت كاذبا فحلبت قاعدا» . و قال الآخر:

---

(1) طرق الجاحظ هذا الموضوع في رسالة مستقلة هي رسالة المعلمين نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الأدبية، طبعة دار الهلال، بيروت 1987.

ترى حالب المعزى إذا صرّ قاعدا # و حالبهن القائم المتطاول

و قال امرأة من غامد، في هزيمة ربيعة بن مكدّم، لجمع غامد وحده:

ألا هل أتاها على نأيها # بما فضحت قومها غامد

تمنيتم مائتي فارس # فردكم فارس واحد

فليت لنا بارتباط الخيو # ل ضأنا لها حالب قاعد

و قد سمعنا قول بعضهم: الحمق في الحاكة و المعلمين و الغزالين. قال:

و الحاكة أقل و أسقط من أن يقال لها حمقى. و كذلك الغزالون، لأن الأحمق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد ثم يجيء بخطإ فاحش و الحائك ليس عنده صواب جيد في فعال و لا مقال، إلا أن يجعل جودة الحياكة من هذا الباب، و ليس هو من هذا في شيء.

و يقال: فلان أحمق. فإذا قالوا مائق، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه، و كذلك إذا قالوا أنوك. و كذلك إذا قالوا رقيع. و يقولون: فلان سليم الصدر، ثم يقولون عيي، ثم يقولون أبله. و كذلك إذا قالوا معتوه و مسلوس و أشباه ذلك.

قال أبو عبيدة: يقال للفارس شجاع، فإذا تقدم في ذلك قيل بطل، فإذا تقدم شيئا قيل بهمة، فإذا صار إلى الغاية قيل أليس. و قال العجاج:

أ ليس عن حوبائه سخيّ

و هذا المأخذ يجري في الطبقات كلها: من جود و بخل، و صلاح و فساد، و نقصان و رجحان. و ما زلت أسمع هذا القول في المعلمين.

و المعلمون عندي على ضربين: منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، و منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد

الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة. فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي، و محمد بن المستنير الذي يقال له قطرب (1) ، و أشباه هؤلاء يقال لهم حمقى. و لا يجوز هذا القول على هؤلاء و لا على الطبقة التي دونهم. فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية و سفلة، فما هم في ذلك إلا كغيرهم. و كيف تقول مثل ذلك في هؤلاء و فيهم الفقهاء و الشعراء و الخطباء، مثل الكميت بن زيد، و عبد الحميد الكاتب، و قيس بن سعد (2) ، و عطاء بن أبي رباح (3) ، و مثل عبد الكريم بن أبي أمية (4) ، و حسين المعلم (5) ، و أبي سعيد المعلم.

و من المعلمين: الضحاك بن مزاحم. و أما معبد الجهني و عامر الشعبي، فكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان. و كان معبد يعلم سعيدا، و منهم أبو سعيد المؤدب، و هو غير أبي سعيد المعلم، و كان يحدث عن هشام بن عروة و غيرهم. و منهم عبد الصمد بن عبد الأعلى، و كان معلم ولد عتبة بن أبي سفيان. و كان إسماعيل بن علي ألزم بعض بنيه عبد اللّه بن المقفع ليعلمه.

و كان أبو بكر عبد اللّه بن كيسان معلما. و منهم محمد بن السكن (6) .

و ما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم، و لا أحسن بيانا، من أبي الوزير و أبي عدنان المعلمين، و حالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا.

و قد قال الناس في أبي البيداء، و في أبي عبد اللّه الكاتب، و في الحجاج بن

---

(1) قطرب: عالم نحوي كبير تتلمذ لسيبويه، و كان دائب التحصيل فلقبه بالقطرب (دويبة لا تفتر عن الدبيب) توفي سنة 206 هـ.
(2) قيس بن سعد كان صاحب شرطة النبي و حارب في صفين مع علي ثم التحق بمعاوية.
(3) عطاء بن أبي رباح: اسمه أسلم القرشي المكي، كان معلم كتاب و فقيها توفي سنة 114 هـ.
(4) عبد الكريم بن أبي أمية البصري روى عن أنس و نافع و توفي سنة 127 هـ.
(5) حسين المعلم عمل معلما في البصرة و توفي سنة 145 هـ.
(6) محمد بن السكن: كان معلما و مؤذن مسجد بني شعرة، كما كان محدثا ضعيفا.

يوسف و أبيه ما قالوا، و قد أنشدوا مع هذا الخبر شاهدا من الشعر على أن الحجاج و أباه كانا معلمين بالطائف.

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول.

قالوا: أحق الناس بالرحمة عالم يجري عليه حكم جاهل.

قال: و كتب الحجاج إلى المهلب يعجله في حرب الأزارقة و يسمعه، فكتب إليه المهلب: «إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره» .

خير الكلام الوسط

و قال بعض الربانيين (1) من الأدباء، و أهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق و التعمّق، و يبغض الإغراق في القول، و التكلّف و الاجتلاب (2) ، و يعرف أكثر ادواء الكلام و دوائه، و ما يعتري المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول، و ما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع، و الذي يورث الاقتدار من التهكم و التسلط، و الذي يمكن الحاذق و المطبوع من التمويه للمعاني، و الخلابة و حسن المنطق، فقال في بعض مواعظه: «أنذركم حسن الألفاظ، و حلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا و أعاره البليغ مخرجا سهلا، و منحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى، و لصدرك أملا. و المعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، و ألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، و أربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، و حسب ما زخرفت. فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض (3) ، و صارت المعاني في معنى

---

(1) الرباني: العالم الراسخ في العلم.
(2) الاجتلاب: أن يجتلب معاني سواه لفقره في معانيه.
(3) المعارض: جمع معرض: ثوب تجلى فيه الجارية.

الجواري. و القلب ضعيف، و سلطان الهوى قوي، و مدخل خدع الشيطان خفي» .

فاذكر هذا الباب و لا تنسه، و لا تفرّط فيه، فإن عمر بن الخطاب رحمه اللّه لم يقل للأحنف بن قيس-بعد أن احتبسه حولا مجرّما، (1) ليستكثر منه، و ليبالغ في تصفح حاله و التنقير عن شأنه-: «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قد كان خوّفنا كل منافق عليم، و قد خفت أن تكون منهم» إلا لما كان راعه من حسن منطقه، و مال إليه لما رأى من رفقه و قلة تكلّفه، و لذلك قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

«» إن من البيان لسحرا» -و قال عمر بن عبد العزيز لرجل أحسن في طلب حاجة و تأتى لها بكلام وجيز، و منطق حسن: «هذا و اللّه السحر الاحلال» . و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «لا خلابة» .

فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي و الوحشي، و لا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، و شغلك في التخلص إلى غرائب المعاني. و في الاقتصاد بلاغ، و في التوسط مجانبة للوعورة، و خروج من سبيل من لا يحاسب نفسه.

و قد قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها # نجاة و لا تركب ذلولا و لا صعبا

و قال الآخر:

لا تذهبنّ في الأمور فرطا # لا تسألنّ إن سألت شططا

و كن من الناس جميعا وسطا

و ليكن كلامك ما بين المقصر و الغالي، فإنك تسلم من المحنة عند العلماء، و من فتنة الشيطان.

و قال أعرابي للحسن: علمني دينا و سوطا، لا ذاهبا شطوطا، و لا هابطا هبوطا. فقال له الحسن: لئن قلت ذاك إن خير الأمور أوساطها.

(1) مجرم: تام، كامل.

و جاء في الحديث: «خالطوا الناس و زايلوهم» .

و قال علي بن أبي طالب رحمه اللّه: «كن في الناس وسطا و امش جانبا» .

و قال عبد اللّه بن مسعود في خطبته: «و خير الأمور أوساطها، و ما قل و كفى خير مما كثر و ألهى، نفس تنجيها، خير من إمارة لا تحصيها» .

و كانوا يقولون: أكره الغلوّ كما تكره التقصير.

و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقول لأصحابه: «قولوا بقولكم و لا يستحوذنّ عليكم الشيطان» . و كان يقول: «و هل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم» .

باب من الخطب القصار من خطب السلف، و مواعظ من مواعظ النساك، و تأديب من تأديب العلماء

قال رجل لأبي هريرة النحويّ: أريد أن أتعلّم العلم و أخاف أن أضيّعه.

فقال: «كفى بترك العلم إضاعة» .

و سمع الأحنف رجلا يقول: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر» .

فقال الأحنف: «الكبير أكبر عقلا، و لكنه أشغل قلبا» .

و قال أبو الدرداء: ما لي أرى علماءكم يذهبون و جهالكم لا يتعلمون.

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «إن اللّه لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، و لكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا و أضلوا» .

قالوا: و لذلك قال عبد اللّه بن عباس رحمه اللّه، حين دلّى زيد بن ثابت في القبر، رحمه اللّه: «من سرّه أن يرى كيف ذهاب العلم فلينظر، فهكذا ذهابه» .

و قال بعض الشعراء في بعض العلماء:

أبعدت من يومك الفرار فما # جاوزت حيث انتهى بك القدر

لو كان ينجي من الردى حذر # نجّاك مما أصابك الحذر

يرحمك اللّه من أخي ثقة # لم يك في صفو ودّه كدر

فهكذا يفسد الزمان و يفنى الـــ # علم منه و يدرس الأثر

قال: و قال قتادة: لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى نبي اللّه موسى عليه السلام، إذ قال للعبد الصالح: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا) .

أبو العباس التميمي قال: قال طاوس: «الكلمة الصالحة صدقة» .

و قال ثمامة بن عبد اللّه بن أنس، عن أبيه عن جده، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنه قال: «فضل لسانك تعبّر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة» .

و قال الخليل: «تكثّر من العلم لتعرف، و تقلّل منه لتحفظ» .

و قال الفضيل (1) : «نعمت الهدية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقيها إلى أخيه» .

و كان يقال: يكتب الرجل أحسن ما يسمع، و يحفظ أحسن ما يكتب.

و كان يقال: اجعل ما في كتبك بيت مال: و ما في قلبك للنفقة.

و قال أعرابي: حرف في قلبك خير من عشرة في طومارك (2) .

و قال عمر بن عبد العزيز: «ما قرن شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم، و من عفو إلى قدرة» .

---

(1) الفضيل: هو الفضيل بن عياض التميمي، ولد بخراسان و قدم الكوفة ثم مكة و مات بها سنة 187 هـــ. عرف بالزهد و العبادة.

(2) الطومار: الصحيفة.

و كان ميمون بن سياه (1) ، إذا جلس إلى قوم قال: إنّا قوم منقطع بنا.

فحدثونا أحاديث نتجمل بها.

قال: و فخر سليم مولى زياد، بزياد عند معاوية، فقال معاوية:

أسكت، فو اللّه ما أدرك صاحبك شيئا بسيفه إلا و قد أدركت أكثر منه بلساني.

و ضرب الحجاج أعناق أسرى، فلما قدموا إليه رجلا لتضرب عنقه قال:

و اللّه لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو!فقال الحجاج: أف لهذه الجيف، أ ما كان فيها أحد يحسن مثل هذا الكلام!و أمسك عن القتل.

و قال بشير الرّجّال: «إني لأجد في قلبي حرا لا يذهبه إلا برد العدل أو حر السنان» .

قال: و قدموا رجلا من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتضرب عنقه، و دخل على عبد الملك ابن له صغير قد ضربه المعلم، و هو يبكي، فهمّ عبد الملك بالمعلم، فقال له الخارجي: دعوه يبكي فإنه أفتح لجرمه، و أصح لبصره، و أذهب لصوته. قال له عبد الملك: أ ما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ قال الخارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء! فأمر بتخلية سبيله.

قال: و قال زياد على المنبر: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يقطع بها ذنب عنز مصور (2) ، لو بلغت أمامه سفك بها دمه» .

و قال: و قال إبراهيم بن أدهم (3) : «أعربنا كلامنا فما نحن نلحن، و لحنّا في أعمالنا فما نعرب حرفا» . و أنشد:

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا # فلا ديننا يبقى و لا ما نرقع

---

(1) ميمون بن سياه: روى عن أنس و الحسن البصري، و لقب بسيد القراء.
(2) المصور: التي انقطع لبنها، المصر: قلة اللبن.
(3) إبراهيم بن أدهم البلخي، زهد في الدنيا و ترك ثروته الطائلة و هام على وجهه يعيش حياة تقشف حتى مات سنة 161 هـ.

قال: و عزل عمر زيادا عن كتابة أبي موسى الأشعري، في بعض قدماته فقال له زياد: أ عن عجز أم عن خيانة؟قال: لا عن واحدة منهما، و لكني أكره أن أحمل على العامّة فضل عقلك.

قال: و بلغ الحجاج موت أسماء بن خارجة فقال: هل سمعتم بالذي عاش ما شاء و مات حين شاء! قال: و كان يقال: «كدر الجماعة خير من صفو الفرقة» .

قال أبو الحسن: مرّ عمر بن ذر (1) ، بعبد اللّه بن عياش المنتوف (2) ، و قد كان سفه عليه فأعرض عنه، فتعلق بثوبه ثم قال له: «يا هناه، إنّا لم نجد لك إن عصيت اللّه فينا خيرا من أن نطيع اللّه فيك» .

و هذا كلام أخذه عمر بن ذر، عن عمر بن الخطاب رحمه اللّه. قال عمر: «إني و اللّه ما أدع حقا للّه لشكاية تظهر، و لا لضب يحتمل، و لا لمحاباة بشر، و إنك و اللّه ما عاقبت من عصى اللّه فيك بمثل أن نطيع اللّه فيه» .

قال: و كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص: «يا سعد سعد بني أهيب، إن اللّه إذا أحبّ عبدا حبّبه إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من اللّه بمنزلتك من الناس، و اعلم أن ما لك عند اللّه مثل ما للّه عندك» .

قال: و مات ابن لعمر بن ذر فقال: «أي بنيّ، شغلني الحزن لك، عن الحزن عليك» .

و قال رجل من بني مجاشع: جاء الحسن في دم كان فينا، فخطب فأجابه رجل فقال: قد تركت ذلك للّه و لوجوهكم. فقال الحسن: لا تقل هكذا، بل قل: للّه ثم لوجوهكم. و آجرك اللّه.

---

(1) عمر بن ذر بن عياش الهمداني الكوفي المتكلم المرجئ توفي سنة 153 هـ.

(2) عبد اللّه بن عياش الهمداني الكوفي، راوية أخبار و أدب نادم المنصور و روى عن الشعبي كما روى عنه الهيثم بن عدي.

و قال: و مرّ رجل بأبي بكر و معه ثوب، فقال: أ تبيع الثوب؟فقال: لا عافاك اللّه. فقال أبو بكر رضي اللّه عنه: لقد علّمتم لو كنتم تعلمون. قل:

لا، و عافاك اللّه.

قال: و سأل عمر بن الخطاب رجلا عن شيء فقال: اللّه أعلم. فقال عمر: لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن اللّه أعلم. إذا سئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليقل: لا أدري.

و كان أبو الدرداء يقول: أبغض الناس إليّ أن أظلمه من لا يستعين عليّ بأحد إلا باللّه.

و ذكر ابن ذر الدنيا فقال: كأنكم زادكم في حرصكم عليها ذمّ اللّه لها.

و نظر أعرابي إلى مال له كثير، من الماشية و غيرها، فقال: «ينعة، و لكل ينعة استحشاف (1) » . فباع ما هناك من ماله، ثم يمّم ثغرا من ثغور المسلمين، فلم يزل به حتى أتاه الموت.

قال: و تمنى قوم عند يزيد الرقاشي، فقال: أتمنى كما تمنيتم؟قالوا:

تمنّه. قال: «ليتنا لم نخلق، و ليتنا إذ خلقنا لم نعص، و ليتنا إذ عصينا لم نمت، و ليتنا إذ متنا لم نبعث، و ليتنا إذ بعثنا لم نحاسب، و ليتنا إذ حوسبنا لم نعذّب، و ليتنا إذ عذبنا لم نخلّد» .

و قال الحجاج: «ليت اللّه إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا، فرفع عنا الهم بالمأكل و المشرب و الملبس و المنكح. أوليته إذا أوقعنا في هذه الدنيا كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام بما ينجّي من عذابه.

فبلغ كلامهما عبد اللّه بن الحسن بن حسن، أو علي بن الحسين، فقال: ما علما في التمني شيئا، ما اختاره اللّه فهو خير.

(1) الاستحشاف: اليبس و التقبض.

و قال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على اللّه أنه لا يعصى إلا فيها، و لا ينال ما عنده إلا بتركها.

قال شريح (1) : «الحدة كناية عن الجهل» .

و قال أبو عبيدة: «العارضة (2) كناية عن البذاء» .

قال: و إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل، و إذا قالوا للعامل مستقص فتلك كناية عن الجور.

و قال الشاعر، أبو تمام الطائي:

كذبتم ليس يزهى من له حسب # و من له نسب عمّن له أدب

إني لذو عجب منكم أرددده # فيكم، و في عجبي من زهوكم عجب

لجاجة لي فيكم ليس يشبهها # إلا لجاجتكم في أنكم عرب

و قيل لأعرابية مات ابنها: ما أحسن عزاءك عن ابنك؟قالت: إن مصيبته أمّنتني من المصائب بعده.

قال: و قال سعيد بن عثمان بن عفان رحمه اللّه لطويس المغني: أيّنا أسنّ أنا أم أنت يا طويس؟فقال: «بأبي أنت و أمي، لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب» . فانظر إلى حذقه و إلى معرفته بمخارج الكلام، كيف لم يقل: زفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك. و هكذا كان وجه الكلام فقلب المعنى.

قال: و قال رجل من أهل الشام: كنت في حلقة أبي مسهر (3) ، في

---

(1) شريح بن الحارث بن قيس الكندي الكوفي القاضي. عينه عمر قاضيا على الكوفة و أقره عليها عثمان، و ولاه زياد قضاء البصرة، توفي سنة 72 هـ.

(2) العارضة: القدرة على الكلام.

(3) هو عبد الأعلى بن مسهر الغساني، امتحنه المأمون في خلق القرآن و حبسه في بغداد و مات فيها سنة 218 هـ.

مسجد دمشق، فذكرنا الكلام و براعته، و الصمت و نبالته، فقال: كلا إن النجم ليس كالقمر، إنك تصف الصمت بالكلام، و لا تصف الكلام بالصمت.

و قال الهيثم بن صالح لابنه و كان خطيبا: يا بني إذا قلّلت من الكلام أكثرت من الصواب، و إذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب. قال: يا أبه، فإن أكثرت و أكثرت؟- يعني كلاما و صوابا-قال: يا بني، ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك! قال: و قال ابن عباس: «لو لا الوسواس، ما باليت أ لا أكلم الناس» .

قال: و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «ما تستبقوه من الدنيا تجدوه في الآخرة» .

و قال رجل للحسن: إني أكره الموت. قال: ذاك أنك أخّرت مالك، و لو قدمته لسرك أن تلحق به.

قال: و قال عامر بن الظرب العدواني: «الرأي نائم، و الهوى يقظان، فمن هنالك يغلب الهوى الرأي» .

و قال: مكتوب في الحكمة: «اشكر لمن أنعم عليك، و أنعم على من شكر لك» .

و قال بعضهم: «أيها الناس، لا يمنعنّكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا» .

و قال عبد الملك على المنبر: «أ لا تنصفوننا يا معشر الرعية؟تريدون منا سيرة أبي بكرة و عمر و لم تسيروا في أنفسكم و لا فينا بسيرة رعية أبي بكر و عمر، أسأل اللّه أن يعين كلا على حال» .

و قال رجل من العرب: «أربع لا يشبعن من أربعة: أنثى من ذكر، و عين من نظر، و أرض من مطر، و أذن من خبر» .

قال: و قال موسى ع لأهله: **اُمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا**

بِخَبَرٍ ، فقال بعض المعترضين: فقد قال: أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ . فقال أبو عقيل: «لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل، و من الجائع المقرور» .

و قال لبيد بن ربيعة:

و مقام ضيق فرجته # ببيان و لسان و جدل

لو يقوم الفيل أو فيّاله # زلّ عن مثل مقامي و زحل

و لدى النعمان مني موطن # بين فاثور أفاق فالدّحل (1)

إذ دعتني عامر أنصرها # فالتقى الألسن كالنبل الدّول (2)

فرميت القوم رشقا صائبا # ليس بالعصل و لا بالمقثعل (3)

فانتضلنا و ابن سلمى قاعد # كعتيق الطير يغضي و يجل

و قبيل من لكيز شاهد # رهط مرجوم، و رهط ابن المعل

و قال لبيد أيضا:

و أبيض يجتاب الخروق على الوجى # خطيبا إذا التفّ المجامع فاصلا

يجتاب: يفتعل من الجوب، و هو أن يجوب البلاد، أي يدخل فيها و يقطعها. و الخروق: جمع خرق، و الخرق: الفلاة الواسعة. و الوجى:

الحفا، مقصور كما ترى، و أنه ليتوجى في مشيته، و هو وج. و قال رؤبة:

به الرذايا من وج و مسقط

و قال أيضا لبيد:

لو كان حيّ في الحياة مخلّدا # في الدهر أدركه أبو يكسوم

و الحارثان كلاهما و محرّق # أو تبع أو فارس اليحموم (4)

---

(1) فاثور: موضع بنجد. أفاق: موضع في بلاد بني يربوع. الدحل ماء بنجد.

(2) الدول: المتداول.

(3) الرشق: أن يرمى بالسهام كلها. العصل: المعوجة. المقثعل الذي لم يبر بريا جيدا.

(4) أبو يكسوم: كنية أبرهة ملك الحبشة الذي غزا الكعبة. و الحارثان: هما الحارث الأكبر و الحارث الأصغر من ملوك الغساسنة في الشام. و محرق: عمرو بن هند ملك الحيرة اللخمي الذي حرق تميم و فارس اليحموم هو النعمان بن المنذر و اليحموم حصانه.

فدعي الملامة ويب غيرك إنه # ليس النوال بلوم كل كريم

و لقد بلوتك و ابتليت خليقتي # و لقد كفاك معلمي تعليمي

و له أيضا:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم # و بقيت في خلف كجلد الأجرب

يتأكّلون مغالة و خيانة # و يعاب قائلهم و إن لم يشغب

و الخلف: البقية الصالحة من ولد الرجل و أهله. و الخلف ضد هذا.

و قال زيد بن جندب، في ذكر الشّغب:

ما كان أغنى رجالا ضلّ سعيهم # عن الجدال و أغناهم عن الشّغب

و قال آخر في الشغب:

إني إذا عاقبت ذو عقاب # و إن تشاغبني فذو شغاب

و قال ابن أحمر بن العمرّد (1) :

و كم حلّها من تيجان سميدع # مصافي الندى ساق بيهماء مطعم

التيجان: الذي يعرض في كل شيء ليغنى فيه و السميدع: الكريم.

و الندى: السخاء. و اليهماء: الأرض التي لا يهتدى فيها لطريق.

طوي البطن متلاف إذا هبت الصّبا # على الأمر غواص و في الحي شيظم (2)

و قال:

هل لامني قوم لموقف سائل # أو في مخاصمة اللجوج الأصيد

---

(1) هو عمرو بن أحمد بن العمرد شاعر مخضرم توفي زمن عثمان.

(2) طوي: خالي البطن، جائع. الشيظم: الطلق الوجه، الهش.

الأصيد: السيد الرافع رأسه، الشامخ بأنفه.

و قال في التطبيق:

فلما أن بدا القعقاع لجت # على شرك تناقله نقالا

تعاورن الحديث و طبّقته # كما طبقت بالنعل المثالا (1)

قال: و هذا التطبيق غير التطبيق الأول. و قال آخر:

لو كنت ذا علم علمت و كيف لي # بالعلم بعد تدبّر الأمر

يعني إدبار الأمر.

عودة إلى المفاضلة بين الصمت و الكلام

و قال المعترض على أصحاب الخطابة و البلاغة:

قال لقمان لابنه: «أي بنيّ، إني قد ندمت على الكلام، و لم أندم على السكوت» . و قال الشاعر:

ما أن ندمت على سكوتي مرة # و لقد ندمت على الكلام مرارا

و قال الآخر:

خلّ جنبيك لرام # و امض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير # لك من داء الكلام

إنما المسلم من ألـــ # جم فاه بلجام

و قال الآخر في الاحتراس و التحذير:

اخفض الصوت إن نطقت بليل # و التفت بالنهار قبل الكلام

(1) القعقاع: طريق. الشرك: الطرق التي تخفى عليك. المناقلة: سرعة نقل القوائم.

و قال آخر في مثل ذلك:

لا أسأل الناس عما في ضمائرهم # ما في الضمير لهم من ذاك يكفيني

و قال حمزة بن بيض (1) :

لم يكن عن جناية لحقتني # لا يساري و لا يميني جنتني

بل جناها أخ عليّ كريم # و على أهلها براقش تجني

لأن هذه الكلبة، و هي براقش، نبحت غزّى، قد مروا من ورائهم و قد رجعوا خائبين مخفقين، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها و استباحوهم، و لو سكتت كانوا قد سلموا. (فضرب ابن بيض به المثل) .

و قال الأخطل:

تنقّ بلا شيء شيوخ محارب # و ما خلتها كانت تريش و لا تبري

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت # فدلّ عليها صوتها حية البحر

النقيق: صياح الضفادع.

و قالوا: «الصمت حكم و قليل فاعله» .

و قالوا: «استكثر من الهيبة صامت» .

و قيل لرجل من كلب طويل الصمت: بحق ما سمتكم العرب خرس العرب. فقال: «أسكت فأسلم، و أسمع فأعلم» .

و كانوا يقولون: «لا تعدلوا بالسلامة شيئا» .

و لا تسمع الناس يقولون: جلد فلان حين سكت، و لا قتل فلان حين صمت. و تسمعهم يقولون: جلد فلان حين قال كذا، و قتل حين قال كذا و كذا.

و في الحديث المأثور: «رحم اللّه من سكت فسلم، أو قال فغنم» .

(1) حمزة بن بيض: شاعر أموي ماجن متكسب بشعر مدح المهلب بن أبي صفرة و ولده و حظي عندهما.

و السلامة فوق الغنيمة، لأن السلامة أصل و الغنيمة فرع.

و قال النبي صلّى اللّه عليه و آله: «إن اللّه يبغض البليغ الذي يتخلّل بلسانه، تخلل الباقرة بلسانها» .

و قيل: «لو كان الكلام من فضة، لكان السكوت من ذهب» .

قال صاحب البلاغة و الخطابة، و أهل البيان و حب التبيّن: إنما عاب النبي صلّى اللّه عليه و آله المتشادقين و الثرثارين و الذي يتخلّل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها، و الأعرابيّ المتشادق، و هو الذي يصنع بفكيه و بشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلف ذلك منكم فهو أعيب، و الذم له ألزم.

و قد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، و لم يكن الناس جميعا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق و الانتفاع، و مدار العلم على الشاهد و المثل، و إنما حثوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول، أسرع منهم إلى معرفة خطأ الصمت. و معنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله، و إلا فإن السكوت عن قول الحقّ في معنى النطق بالباطل. و لعمري إن الناس إلى الكلام لأسرع، لأن في أصل التركيب أن الحاجة إلى القول و العمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل، و السكوت عن جميع القول. و ليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، و لا الكلام كله أفضل من السكوت كله، بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت. و قد قال اللّه عز و جل: **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ** . فجعل سمعه و كذبه سواء.

و قال الشاعر:

بني عدي ألا يا انهوا سفيهكم # إن السفيه إذا لم ينه مأمور

و قال آخر:

فإن أنا لم آمر و لم أنه عنكما # ضحكت له حتى يلجّ و يستشري

و كيف يكون الصمت أنفع، و الإيثار له أفضل، و نفعه لا يكاد يجاوز رأس

صاحبه، و نفع الكلام يعم و يخص، و الرواة لم ترو سكوت الصامتين، كما روت كلام الناطقين، و بالكلام ارسل اللّه أنبياءه لا بالصمت، و مواضع الصمت المحمودة قليلة، و مواضع الكلام المحمودة كثيرة، و طول الصمت يفسد اللسان.

و قال بكر بن عبد اللّه المزني: «طول الصمت حبسة» كما قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «ترك الحركة عقلة» .

و إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، و تبلّدت نفسه، و فسد حسّه.

و كانوا يروون صبيانهم الأرجاز، و يعلّمونهم المناقلات، و يأمرونهم برفع الصوت و تحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللهاة، و يفتح الجرم (1) .

و اللسان إذا أكثرت تقليبه رق و لان، و إذا أقللت تقليبه و أطلت إسكاته جسأ و غلظ.

و قال عباية الجعفيّ: «لو لا الدربة و سوء العادة لأمرت فتياننا أن يماري بعضهم بعضا» .

و أية جارحة منعتها الحركة، و لم تمرّنها على الاعتمال، أصابها من التعقّد على حسب ذلك لمنع. و لم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله للنابغة الجعدي: «لا يفضض اللّه فاك» ؟ و لم قال لكعب بن مالك: «ما نسي اللّه لك مقالك ذلك» ؟و لم قال لهيذان بن شيخ: «ربّ خطيب من عبس» ؟و لم قال لحسان: «هيّج الغطاريف على بني عبد مناف، و اللّه لشعرك أشد عليهم من وقع السهام، في غبش الظلام» (2) ؟ و ما نشك أنه عليه السلام قد نهى عن المراء، و عن التزيد و التكلف، و عن كل ما ضارع الرياء و السمعة، و النفج و البذخ، و عن التهاتر و التشاعب، و عن المماتنة و المغالبة (3) . فأما نفس البيان، فكيف ينهى عنه.

---

(1) الجرم: الحلق.
(2) الغبش: شدة الظلمة.
(3) المماتنة: المعارضة في الجدل و الخصومة.

و أبين الكلام كلام اللّه، و هو الذي مدح التبيين و أهل التفصيل. و في هذا كفاية إن شاء اللّه.

و قال دغفل بن حنظلة: إن للعلم أربعة: آفة، و نكدا، و إضاعة، و استجاعة. فآفته النسيان، و نكده الكذب، و إضاعته وضعه في غير موضعه، و استجاعته أنك لا تشبع منه.

و إنما عاب الاستجاعة لسوء تدبير أكثر العلماء، و لخرق سياسة أكثر الرواة، لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد و الجمع، عن تحفظ ما قد حصلوه، و تدبّر ما قد دونوه، كان ذلك الازدياد داعيا إلى النقصان، و ذلك الربح سببا للخسران. و جاء في الحديث: «منهومان لا يشبعان: منهوم في العلم، و منهوم في المال» .

و قالوا: علم علمك، و تعلم علم غيرك، فإذا أنت قد علمت ما جهلت، و حفظت ما علمت.

و قال الخليل بن أحمد: اجعل تعلمك دراسة لعلمك، و اجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك.

و قال بعضهم-و أظنه بكر بن عبد اللّه المزنيّ-: لا تكدّوا هذه القلوب و لا تهملوها، فخير الفكر ما كان عقب الجمام، و من أكره بصره عشي. و عاودوا الفكرة عند نبوات القلوب، و اشحذوها بالمذاكرة، و لا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امتحنتم ببعض الاستغلاق، فإن من أدام قرع الباب ولج.

و قال الشاعر:

إذا المرء أعيته السيادة ناشئا # فمطلبها كهلا عليه شديد

و قال الأحنف: «السؤدد مع السواد» . و تقول الحكماء: «من لم ينطق بالحكمة قبل الأربعين لم يبلغ فيها» . و أنشد:

و دون الندى في كل قلب ثنية # لها مصعد حزن و منحدر سهل

و ودّ الفتى في كل نيل ينيله # إذا ما انقضى، لو أن نائله جزل

و قال الهذلي:

و إن سيادة الأقوام فاعلم # لها صعداء مطلبها طويل

أ ترجو أن تسود و لا تعنّى # و كيف يسود ذو الدّعة البخيل

صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: «ما رأيت عقول الناس إلا و قد كاد يتقارب بعضها من بعض، إلا ما كان من الحجاج و إياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس» .

أبو الحسن قال: سمعت أبا الصغدي الحارثي يقول: كان الحجّاج أحمق، بنى مدينة واسط في بادية النبط ثم حماهم دخولها. فلما مات دلفوا إليها من قريب.

و سمعت قحطبة الخشني يقول: كان أهل البصرة لا يشكون أنه لم يكن بالبصرة رجل أعقل من عبيد اللّه بن الحسن، و عبيد اللّه بن سالم.

و قال معاوية لعمرو بن العاص: إن أهل العراق قد قرنوا بك رجلا طويل اللسان، قصير الرأي، فأجد الحزّ و طبّق المفصل، و إياك أن تلقاه برأيك كله.

باب ما قالوا فيه من الحديث الحسن الموجز المحذوف، القليل الفضول

قال الشاعر:

لها بشر مثل الحرير و منطق # رقيق الحواشي لا هراء و لا نزر

و قال ابن أحمر:

تضع الحديث على مواضعه # و كلامها من بعده نزر

و قال الآخر:

حديث كطعم الشهد حلو صدوره # و إعجازه الخطبان دون المحارم [1]

و قال بشار بن برد:

أنس غرائر ما هممن بريبة # كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من أنس الحديث زوانيا # و يصدهن عن الخنا الإسلام

---

(1) الخطبان: نبت شديد المرارة.

و لبشار أيضا:

و كأنرصفحديثها # قطع الرياض كسين زهرا

و تخال ما جمعت عليــ # ه ثيابها ذهبا و عطرا

و كأن تحت لسانها # هاروت ينفث فيه سحرا

و لبشار العقيلي:

و فتاة صبّ الجمال عليها # بحديث كلذة النشوان

و قال الأخطل:

فأسرين خمسا ثم أصبحن غدوة # يخبّرن أخبارا ألذّ من الخمر

و قال بشار:

و حديث كأنه قطع الرو # ض و فيه الصفراء و الحمراء

و أخبرنا عامر بن صالح أن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز كتب إلى امرأته، و عنده إخوان له، بهذه الأبيات:

إن عندي أبقاك ربّك ضيفا # واجبا حقّهم كهولا و مردا

طرقوا جارك الذي كان قدما # لا يرى من كرامة الضيف بدّا

فلديه أضيافه قد قراهم # و هم يشتهون تمرا و زبدا

فلهذا جرى الحديث و لكن # قد جعلنا بعض الفكاهة جدا

و أنشد الهذلي:

كرّوا الأحاديث عن ليلى إذا بعدت # إن الأحاديث عن ليلى لتلهيني

و قال الهذلي أيضا:

و إن حديثا منك لو تبذلينه # جنى النحل أو ألبان عوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث نتاجها # تشاب بماء مثل ماء المفاصل

العوذ: جمع عائذ، و هي الناقة إذا وضعت، فإذا مشى ولدها فهي مرشح فإذا تبعها فهي متلية، لأنه يتلوها. و هي في هذا كله مطفل. فإن كان أول ولد ولدته فهي بكر. ماء المفاصل فيه قولان: أحدهما أن المفاصل ما بين الجبلين واحدها مفصل، و إنما أراد صفاء الماء، لأنه ينحدر عن الجبال، لا يمر بطين و لا تراب. و يقال إنها مفاصل البعير. و ذكروا أن فيها ماء له صفاء و عذوبة.

و في الكلام الموزون يقول عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر:

الزم الصمت إن في الصمت حكما # و إذا أنت قلت قولا فزنه

و قال أبو ذؤيب:

و سرب يطلّى بالعبير كأنه # دماء ظباء بالنحور ذبيح

بذلت لهن القول إنك واجد # لما شئت من حلو الكلام، مليح

السرب: الجماعة من النساء و البقر و الطير و الظباء. و يقال: فلان آمن السرب، بفتح السين، أي آمن المسلك. و يقال فلان واسع السرب و خلي السرب، أي المسالك و المذاهب. و إنما هو مثل مضروب للصدر و القلب. و عن الأصمعي:

فلان واسع السرب، مكسور، أي واسع الصدر، بطيء الغضب.

و أنشد للحكم بن ريحان، من بني عمرو بن كلاب:

يا أجدل الناس إن جادلته جدلا # و أكثر الناس إن عاتبته عللا

كأنما عسل رجعان منطقها # إن كان رجع كلام يشبه العسلا

و قال القطامي:

و في الخدور غمامات برقن لنا # حتى تصيّدننا من كل مصطاد

يقتلننا بحديث ليس يعلمه # من يتقين و لا مكنونه بادي

فهن ينبذن من قول يصبن به # مواقع الماء من ذي الغلّة الصادي

ينبذن: يلقين. الغلة و الغليل: العطش الشديد. و الصادي: العطشان أيضا، و الاسم الصّدى. و أنشد للأخطل:

شمس إذا خطل الحديث أوانس # يرقبن كلّ مجذّر تنبال

أنف كأن حديثهن تنادم # بالكأس كلّ عقيلة مكسال

الشّمس: النوافر. و التنبال: القصير. و الأنف: جمع آنفة، و هي المنكرة للشيء غير راضية. العقيلة: المصونة في أهلها. و عقيلة كل شيء خيرته. و المكسال: ذات الكسل عن الحركة.

و قال أبو العميثل عبد اللّه بن خليد:

لقيت ابنة السهميّ زينب عن عفر # و نحن حرام مسي عاشرة العشر

و إني و إياها لحتم مبيتنا # جميعا، و مسرانا مغذ و ذو فتر

فكلمتها ثنتين كالثلج منهما # على اللوح و الأخرى أحرّ من الجمر

يقال: ما يلقانا إلا عن عفر، أي بعد مدة. مسي: أي وقت المساء.

يقال أغذّ السير، إذا جد فيه و أسرع. و اللوح بالفتح: العطش، يقال لاح الرجل يلوح لوحا، و التاح يلتاح التياحا، إذا عطش. و اللوح بالفتح أيضا الذي يكتب فيه. و اللوح بالضم: الهواء، يقال: «لا أفعل ذلك و لو نزوت في اللوح» ، أو «حتى تنزو في اللوح» .

و أنشد:

و إنّا لنجري بيننا حين نلتقي # حديثا له وشي كحبر المطارف [1]

حديث كطعم القطر في المحل يشتفى # به من جوى في داخل القلب لاطف

المحل: الجدب، و سنة محول. و أمحل البلد فهو ماحل و ممحل، و زمان ماحل و ممحل. الجوى هاهنا: شدة الحب حتى يمرض صاحبه.

لاطف: لطيف. و أنشد للشماخ بن ضرار الثعلبي:

(1) الحبر: الوشي، المطارف: جمع مطرف ثوب من خز.

يقر بعيني أن أنبأ أنها # و إن لم أنلها أيّم لم تزوّج

و كنت إذا لاقيتها كان سرّنا # و ما بيننا مثل الشواء الملهوج

يريد أنهما كانا على عجلة من خوف الرقباء. و الملهوج: المعجل الذي لم ينتظر به النضج.

و قال جران العود:

فنلنا سقاطا من حديث كأنه # جنى النحل أو أبكار كرم يقطف

حديثا لو أن البقل يولى بمثله # زها البقل و اخضرّ العضاه المصنّف

زها: بدا زهره. العضاه: جمع عضة، و هي كل شجرة ذات شوك، إلا القتادة فإنها لا تسمى عضة.

و قال الكميت بن زيد:

و حديثهن إذا التقين # تهانف البيض الغرائر

و إذا ضحكن عن العذاب # لنا المسفات الثواغر

كان التهلل بالتبسم # لا القهاقه بالقراقر

التهانف: تضاحك في هزء. الغرائر: جمع غريرة، و هي المرأة القليلة الخبرة، الغمرة. و العذاب، يريد الثغر. و المسفات: اللثات التي قد أسفّت بالكحل أو بالنئور، و ذلك أن تغرز بالإبرة و يذر عليها الكحل فيعلوها حوة.

و التهلل، يقال تهلل وجهه، إذا أشرق و أسفر. و قال الآخر:

و لما تلاقينا جرى من عيوننا # دموع كففنا غربها بالأصابع

و نلنا سقاطا من حديث كأنه # جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع

سقاط الحديث: ما نبذ منه و لفظ به. يقال ساقطت فلانا الحديث سقاطا. الوقائع و الوقيع: مناقع الماء في متون الصخور، الواحدة وقيعة. ـــ

و قال أشعث بن سميّ:

هل تعرف المبدأ إلى السنام # ناط به سواحر الكلام

كلامها يشفي من السقام

المبدأ و سنام: موضعان. ناط به: أي صار إليه.

و قال الراجز و وصف عيون الظباء بالسحر و ذكر قوسا فقال:

صفراء فرع خطموها بوتر # لأم ممرّ مثل حلقوم النغر

حدت ظبات أسهم مثل الشرر # فصرّعتهن بأكناف الحفر

حور العيون بابليات النظر # يحسبها الناظر من وحش البشر

اللام من كلّ شيء: الشديد. و الممر: المحكم الفتل، و حبل مرير مثله. النغر: البلبل. و الظبات: ظبة، و هي حد السيف و السنان و غيرهما.

و قال آخر:

و حديثها كالقطر يسمعه # راعي سنين تتابعت جدبا

فأصاخ يرجو أن يكون حيا # و يقول من طمع هيا ربّا

باب من الأسجاع في الكلام

قال عمر بن ذرّ، رحمه اللّه: «اللّه المستعان على ألسنة تصف، و قلوب تعرف، و أعمال تخلف» .

و لما مدح عتيبة بن مرداس عبد اللّه بن عباس قال: لا أعطي من يعصي الرحمن، و يطيع الشيطان، و يقول البهتان.

و في الحديث المأثور، قال: «يقول العبد مالي مالي، و إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، و أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت» .

و قال النّمر بن تولب:

أعاذل إن يصبح صداي بقفرة # بعيدا نآني صاحبي و قريبي

تري أن ما أبقيت لم أك ربّه # و أن الذي أمضيت كان نصيبي

الصدى هاهنا: طائر يخرج من هامة الميت إذا بلي، فينعى إليه ضعف وليّه و عجزه عن طلب طائلته، و هذا كانت تقوله الجاهلية، و هو هنا مستعار.

أي أن أصبحت أنا.

و وصف أعرابي رجلا فقال: «صغير القدر، قصير الشّبر، ضيّق الصدر، لئيم النجر، عظيم الكبر، كثير الفخر» .

الشبر: قدر القامة، تقول: كم شبر قميصك، أي كم عدد أشباره.

و النّجر: الطباع.

و وصف بعض الخطباء رجلا فقال: «ما رأيت أضرب لمثل، و لا أركب لجمل، و لا أصعد في قلل منه» .

و سأل بعض الأعراب رسولا قدم من أهل السند: كيف رأيتم البلاد؟ قال: «ماؤها وشل، و لصها بطل، و تمرها دقل (1) . إن كثر الجند بها جاعوا، و إن قلوا بها ضاعوا» .

و قيل لصعصعة بن معاوية: من أين أقبلت؟فقال: من الفجّ العميق.

قيل: فأين تريد؟قال: البيت العتيق. قالوا: هل كان من مطر؟قال: نعم، حتى عفّى الأثر، و أنضر الشجر، و دهدى الحجر (2) .

و استجار عون بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود، بمحمد بن مروان بنصيبين، و تزوج بها امرأة، فقال محمد: كيف ترى نصيبين؟قال: «كثيرة العقارب قليلة الأقارب» . يريد بقوله «قليلة» كقول القائل: فلان قليل الحياء، ليس يريد أن هناك حياء و إن قلّ. يضعون قليلا في موضع ليس.

و ولي العلاء الكلابي عملا خسيسا، بعد أن كان على عمل جسيم، فقال: «العنوق بعد النّوق» (3) .

قال: و نظر رجل من العبّاد إلى باب بعض الملوك فقال: «باب جديد، و موت عتيد و نزع شديد، و سفر بعيد» .

---

(1) الدقل: رديء الثمر.
(2) دهدهت الحجر و دهدهته: قذفته و دحرجته من أعلى إلى أسفل.
(3) العنوق جمع عناق: المعزاة.

و قيل لبعض العرب: أي شيء تمنّى، و أي شيء أحب إليك؟فقال:

لواء منشور، و الجلوس على السرير، و السلام عليك أيها الأمير» .

و قيل لآخر، و صلى ركعتين فأطال فيهما، و قد كان أمر بقتله: أ جزعت من الموت؟ فقال: إن أجزع فقد أرى كفنا منشورا، و سيفا مشهورا، و قبرا محفورا.

و يقال إن هذا الكلام تكلم به حجر بن عديّ الكنديّ عند قتله.

و قال عبد الملك بن مروان لأعرابي: ما أطيب الطعام؟فقال: «بكرة سنمة، معتبطة غير ضمنة، في قدور رذمة، بشفار خذمة، في غداة شبمة» .

فقال عبد الملك: و أبيك لقد أطيبت.

معتبطة: منحورة من غير داء، يقال اعتبط الإبل و الغنم، إذا ذبحت من غير داء. و لهذا قيل للدم الخالص عبيط. و العبيط: ما ذبح من غير علة. غير ضمنة: غير مريضة. رذمة: سائلة من امتلائها. بشفار خذمة: قاطعة. غداة شبمة: باردة. و الشبم: البرد.

و قالوا: «لا تغتر بمناصحة الأمير، إذا غشك الوزير» .

و قالوا: «من صادق الكتّاب أغنوه، و من عاداهم أفقروه» . و قالوا: «اجعل قول الكذاب ريحا، تكن مستريحا» .

و قيل لعبد الصّمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، و تلزم نفسك القوافي و إقامة الوزن؟قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، و لكني أريد الغائب و الحاضر، و الراهن و الغابر، فالحفظ إليه أسرع، و الآذان لسماعه أنشط، و هو أحق بالتقييد و بقلة التفلّت. و ما تكلمت به العرب من جيّد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشرة، و لا ضاع من الموزون عشره.

قالوا: فقد قيل للذي قال: يا رسول اللّه، أ رأيت من لا شرب و لا أكل،

و لا صاح و استهلّ، أ ليس مثل ذلك يطلّ. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «أسجع كسجع الجاهلية» قال عبد الصمد: لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن، لما كان عليه بأس، و لكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق في الكلام.

و قال غير عبد الصمد: وجدنا الشعر: من القصيد و الرجز، قد سمعه النبي صلّى اللّه عليه و آله فاستحسنه و أمر به شعراءه، و عامة أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قد قالوا شعرا، قليلا كان ذلك أم كثيرا، و استمعوا و استنشدوا. فالسجع و المزدوج دون القصيد و الرجز، فكيف يحلّ ما هو أكثر و يحرم ما هو أقلّ. و قال غيرهما: إذا لم يطل ذلك القول، و لم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة، أو ملتمسة متكلفة، و كان ذلك كقول الأعرابي لعامل الماء: «حلّئت ركابي، و خرّقت ثيابي، و ضربت صحابي» -حلّئت ركابي، أي منعت إبلي من الماء و الكلأ.

و الركاب: ما ركب من الإبل-قال: «أ و سجع أيضا؟» . قال الأعرابي: فكيف أقول؟لأنه لو قال حلّئت إبلي أو جمالي أو نوقي أو بعراني أو صرمتي، لكان لم يعبر عن حق معناه، و إنما حلّئت ركابه، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب. و كذلك قوله: و خرقت ثيابي، و ضربت صحابي. لأن الكلام إذا قل وقع وقوعا لا يجوز تغييره، و إذا طال الكلام وجدت في القوافي ما يكون مجتلبا، و مطلوبا مستكرها.

و يدخل على من طعن في قوله: **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** . و زعم أنه شعر، لأنه في تقدير مستفعلن مفاعلن، و طعن في قوله في الحديث عنه: «هل أنت إلا إصبع دميت؟و في سبيل اللّه ما لقيت» -فيقال له: اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس و خطبهم و رسائلهم، لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيرا، و مستفعلن مفاعلن. و ليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا. و لو أن رجلا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات. و كيف يكون هذا شعرا و صاحبه لم يقصد إلى الشعر؟و مثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام. و إذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر و المعرفة بالأوزان و القصد إليها، كان ذلك شعرا. و هذا قريب، و الجواب سهل بحمد اللّه.

و سمعت غلاما لصديق لي، و كان قد سقي بطنه (1) ، و هو يقول لغلمان مولاه: «اذهبوا بي إلى الطبيب و قولوا قد اكتوى» . و هذا الكلام يخرج وزنه على خروج فاعلاتن مفاعلن، فاعلاتن مفاعلن مرتين. و قد علمت أن هذا الغلام لم يخطر على باله قط أن يقول بيت شعر أبدا. و مثل هذا كثير، و لو تتبعته في كلام حاشيتك و غلمانك لوجدته.

و كان الذي كرّه الأسجاع بعينها و إن كانت دون الشعر في التكلف و الصنعة، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، و كانوا يدعون الكهانة و أن مع كلّ واحد منهم رئيا من الجن مثل حازي جهينة (2) ، و مثل شقّ و سطيح، و عزّى سلمة و أشباههم، كانوا يتكهنون و يحكمون بالأشجاع، كقوله: «و الأرض و السماء، و العقاب الصقعاء (3) ، واقعة ببقعاء (4) ، لقد نفر المجد بني الشعراء، للمجد و السناء» .

و هذا الباب كثير. أ لا ترى أن ضمرة بن ضمرة، و هرم بن قطبة، و الأقرع ابن حابس، و نفيل بن عبد العزّى كانوا يحكمون و ينفّرون بالأسجاع. و كذلك ربيعة بن حذار.

قالوا: فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، و لبقيتها فيهم و في صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم.

و قد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين، فيكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلا ينهونهم.

و كان الفضل بن عيسى الرّقاشي سجّاعا في قصصه. و كان عمرو بن عبيد، و هشام بن حسان، و أبان بن أبي عياش، يأتون مجلسه. و قال له داود ابن أبي هند: لو لا أنك تفسر القرآن برأيك لأتيناك في مجلسك. قال: فهل

---

(1) سقي بطنه: اجتمع فيه ماء أصفر.
(2) الحازي: الكاهن.
(3) الصقعاء: التي في وسط رأسها بياض.
(4) البقعاء: الأرض ذات الحصى الصغار.

تراني أحرّم حلالا، أو أحلّل حراما؟و إنما كان يتلو الآية التي فيها ذكر الجنة و النار، و الموت و الحشر، و أشباه ذلك.

و قد كان عبد الصمد بن الفضل، و أبو العباس القاسم بن يحيى، و عامة قصاص البصرة، و هم أخطب من الخطباء، يجلس إليهم عامة الفقهاء.

و قد كان النهي ظاهرا عن مرثية أمية بن أبي الصلت لقتلى أهل بدر، كقوله:

ما ذا ببدر بالعقنــ # قل مرازبة جحاجح

هلا بكيت على الكرام # بني الكرام أولي الممادح

و روى ناس شبيها بذلك في هجاء الأعشى لعلقمة بن علاثة. فلما زالت العلة زال النهي.

و قال وائلة بن خليفة، في عبد الملك بن المهلّب:

قد صبرت للذلّ أعواد منبر # تقوم عليها، في يديك قضيب

بكى المنبر الغربي إذ قمت فوقه # و كادت مسامير الحديد تذوب

رأيتك لما شبت أدركك الذي # يصيب سراة الأسد حين تشيب

سفاهة أحلام و بخل بنائل # و فيك لمن عاب المزون عيوب

قال: و خطب الوليد بن عبد الملك فقال: «إن أمير المؤمنين كان يقول: إن الحجاج جلدة ما بين عينيّ، ألا و إنه جلدة وجهي كله» .

و خطب الوليد أيضا فذكر استعماله يزيد بن أبي مسلم بعد الحجاج فقال:

«كنت كمن سقط منه درهم فأصاب دينارا» .

شبيب بن شيبة قال: حدثني خالد بن صفوان قال: خطبنا يزيد بن المهلّب بواسط فقال: «إني قد أسمع قول الرعاع: قد جاء مسلمة، و قد جاء العباس، و قد جاء أهل الشام، و ما أهل الشام إلا تسعة أسياف، سبعة منها معي، و اثنان منها عليّ، و أما مسلمة فجرادة صفراء. و أما العباس فنسطوس

ابن نسطوس، أتاكم في برابرة و صقالبة، و جرامقة و جراجمة، و أقباط و أنباط، و أخلاط من الناس. إنما أقبل إليكم الفلاحون الأوباش كأشلاء اللّجم. و اللّه ما لقوا قوما قط كحدّكم و حديدكم، و عدّكم و عديدكم. أعيروني سواعدكم ساعة من نهار تصفقون بها خراطيمهم (1) ، فإنما هي غدوة أو روحة حتى يحكم اللّه بيننا و بين القوم الفاسقين» .

ثم دعا بفرس، فأتي بأبلق، فقال: تخليط و ربّ الكعبة!ثم ركب فقاتل فكثره الناس فانهزم عنه أصحابه، حتى بقي في إخوته و أهله، فقتل و انهزم باقي أصحابه. و في ذلك يقول الشاعر (2) :

كل القبائل بايعوك على الذي # تدعو إليه طائعين و ساروا

حتى إذا حمي الوغى و جعلتهم # نصب الأسنة أسلموك و طاروا

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن # عارا عليك و بعض قتل عار

و مدح الشاعر بشار، عمر هزار مرد العتكي (3) ، بالخطب و ركوبه المنابر، بل رثاه و أبّنه فقال:

ما بال عينك دمعها مسكوب # حربت (4) فأنت بنومها محروب

و كذاك من صحب الحوادث لم يزل # تأتي عليه سلامة و نكوب

يا أرض ويحك أكرميه فإنه # لم يبق للعتكي فيك ضريب

أبهى على خشب المنابر قائما # يوما و أحزم إذ تشب حروب

و قال: كان سوّار بن عبد اللّه، أول تميمي خطب على منبر البصرة. ثم خطب عبيد اللّه بن الحسن.

و ولي منبر البصرة أربعة من القضاة فكانوا أمراء: بلال بن أبي بردة بن

---

(1) الصفق: الضرب، الخرطوم: الأنف.
(2) الشعر لثابت قطنة قاله يوم العقر.
(3) هو عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة المهلبي كان شجاعا فسمي هزار مرد أي ألف رجل بالفارسية ولاه المنصور على السند ثم على افريقية. قتل سنة 151 هـ.
(4) حربت: سلبت.

أبي موسى الأشعري، و سوار، و عبيد اللّه، و أحمد بن أبي رباح. فكان بلال قاضيا ابن قاض ابن قاض.

و قال رؤبة:

فأنت يا ابن القاضيين قاضي # معتزم على الطريق ماضي

قال أبو الحسن المدائني: كان عبيد اللّه بن الحسن حيث وفد على المهدي معزيا و مهنئا، أعد له كلاما، فبلغه أن الناس قد أعجبهم كلامه فقال لشبيب بن شيبة: إني و اللّه ما ألتفت إلى هؤلاء، و لكن سل لي عبيد اللّه الكاتب عنه. فسأله فقال: ما أحسن ما تكلم به!على أنه أخذ مواعظ الحسن، و رسائل غيلان (1) ، فلقح بينهما كلاما. فأخبره بذلك شبيب، فقال عبيد اللّه:

لا و اللّه إن أخطأ حرفا واحدا.

و كان محمد بن سليمان (2) له خطبة لا يغيرها، و كان يقول: «إن اللّه و ملائكته» . فكان يرفع الملائكة، فقيل له في ذلك، فقال: خرّجوا لها وجها. و لم يكن يدع الرفع.

قال: و صلى بنا خزيمة يوم النحر، فخطب، فلم يسمع من كلامه إلا ذكر أمير المؤمنين الرشيد، و ولي عهده محمد.

قال: و كان إسحاق بن شمّر يدار به إذا فرغ المنبر. قال الشاعر:

أمير المؤمنين إليك نشكو # و إن كنا نقول بغير عذر

غفرت ذنوبنا و عفوت عنا # و ليست منك أن تعفو بنكر

فإن المنبر البصريّ يشكو # على العلات إسحاق بن شمر

أضبي على خشبات ملك # كمركب ثعلب ظهر الهزبر

(1) غيلان الدمشقي من رواد القدرية في العصر الأموي، غضب عليه عبد الملك بن مروان فصلبه بباب دمشق.
(2) والي البصرة من قبل المنصور، ثم ولي الكوفة و عزل عنها مرارا توفي سنة 173 هـ.

و قال بعض شعراء العسكر، يهجو رجلا من أهل العسكر:

ما زلت تركب كل شيء قائم # حتى اجترأت على ركوب المنبر

ما زال منبرك الذي دنسته # بالأمس منك كحائض لم تطهر

فلأنظرنّ إلى المنابر كلها # و إلى الأسرّة باحتقار المنظر

و قال آخر:

فما منبر دنّسته يا ابن أفكل # بزاك و لو طهّرته بابن طاهر (1)

عبد اللّه بن المبارك، عن بعض أشياخه، عن الشعبيّ قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «البرّ ثلاثة: المنطق، و النظر، و الصمت. فمن كان منطقة في غير ذكر فقد لغا، و من كان نظره في غير اعتبار فقد سها، و من كان صمته في غير فكر فقد لها» .

و قال علي بن أبي طالب: «أفضل العبادة الصمت، و انتظار الفرج» .

و قال يزيد بن المهلّب، و هو في الحبس: « وا لهفاه على طليّة (2) بمائة ألف، و فرج في جبهة أسد» .

و قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: «استغزروا الدموع بالتذكر» . و قال الشاعر:

و لا يبعث الأحزان مثل التذكر

حفص بن ميمون قال، سمعت عيسى بن عمر (3) يقول: سمعنا الحسن يقول: «اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة، و اعصوها، فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شرّ غاية. و حادثوها بالذكر، فإنها سريعة الدثور» .

---

(1) أفكل: ثلم من أعلامهم. الزاكي: الطاهر.

(2) الطلية: الفرس، أو الكأس المطلية.

(3) عيسى بن عمر: علم من أعلام النحو و اللغة و القراءة أخذ عن الحسن البصري، و أخذ عنه سيبويه؛ و كان يقعّر في كلامه، و توفي سنة 149 هـ.

اقدعوا: انهوا. طلعة: أي تطلع إلى كل شيء. حادثوا، أي اجلوا و اشحذوا. و الدثور: يقال: دثر أثر فلان، إذا ذهب، كما يقال درس و عفا.

قال: فحدّثت بهذا الحديث أبا عمرو بن العلاء، فتعجب من كلامه.

و قال الشاعر:

سمعن بهيجا أوجفت فذكرته # و لا يبعث الأحزان مثل التذكر

الوجيف: سير شديد، يقال: وجف الفرس و البعير و أوجفته. و مثله الايضاع، و هو الإسراع. أراد: بهيجا أقبلت مسرعة.

و من الأسجاع قول أيوب بن القريّة، و قد كان دعي للكلام و احتبس القول عليه، فقال: «قد طال السهر، و سقط القمر، و اشتد المطر، فما ينتظر» .

فأجابه فتى من عبد القيس فقال: «قد طال الأرق، و سقط الشفق و كثر اللثق، فلينطق من نطق» .

اللثق: الندى و الوحل.

و قال أعرابي لرجل: «نحن و اللّه آكل منكم للمأدوم، و أكسب منكم للمعدوم، و أعطى منكم للمحروم» .

و وصف أعرابي رجلا فقال: «إن رفدك لنجيح، و إن خيرك لسريح، و إن منعك لمريح» .

سريح: عجل. و مريح: أي مريح من كدّ الطلب.

و قال عبد الملك لأعرابي: ما أطيب الطعام؟فقال: «بكرة سنمة، في قدور رذمة، بشفار حذمة، في غداة شبمة» . فقال عبد الملك: و أبيك لقد أطيبت.

و سئل أعرابي فقيل له: ما أشدّ البرد؟فقال: «ريح جربياء (1) ، في ظلّ عماء (2) ، في غبّ سماء (3) » .

و دعا أعرابي فقال: «اللهم إني أسألك البقاء و النماء، و طيب الأتاء، و حط الأعداء، و رفع الأولياء» . الأتاء: الرزق.

قال: و قال إبراهيم النخعي لمنصور بن المعتمر: «سل مسألة الحمقى، و احفظ حفظ الكيسى (4) » .

و وصفت عمّة حاجز اللصّ حاجزا (5) ، ففضلته و قالت: «كان حاجز لا يشبع ليلة يضاف، و لا ينام ليلة يخاف» .

و وصف بعضهم فرسا فقال: «أقبل بزبرة الأسد، و أدبر بعجز الذئب» .

الزبرة: مغرز العنق، و يقال للشعر الذي بين كتفيه. وصفه بأنه محطوط الكفل.

قال: و لما اجتمع الناس، و قامت الخطباء لبيعة يزيد، و أظهر قوم الكراهة قام رجل من عذرة يقال له يزيد بن المقنّع، فاخترط من سيفه شبرا ثم قال: أمير المؤمنين هذا–و أشار بيده إلى معاوية–فإن مات فهذا–و أشار بيده إلى يزيد–فمن أبى فهذا–و أشار بيده إلى سيفه. فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

قالوا: و لما قامت خطباء نزار عند معاوية فذهبت في الخطب كل مذهب، قام صبرة بن شيمان، فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّا حي فعال، و لسنا حي مقال، و نحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا» .

---

(1) الجربياء: ريح تهب بين الجنوب و الصبا.
(2) العماءة: السحابة الكثيفة المطبقة.
(3) في غب سماء: بعد أن تقطع يوما. السماء: المطر.
(4) الكيسي: جمع كيس. معظم هذه الأقوال سبق ورودها في هذا الكتاب.
(5) حاجز بن عوف بن الحارث شاعر صعلوك من شعراء الجاهلية المقلين.

قال: و لما وفد الأحنف في وجوه أهل البصرة إلى عبد اللّه بن الزبير، تكلم أبو حاضر الأسيدي و كان خطيبا جميلا، فقال له عبد اللّه بن الزبير:

أسكت، فو اللّه لوددت أنّ لي بكل عشرة من أهل العراق رجلا من أهل الشام، صرف الدينار بالدرهم. قال: يا أمير المؤمنين، إن لنا و لك مثلا، أ فتأذن في ذكره؟قال: نعم. قال: مثلنا و مثلك و مثل أهل الشام، كقول الأعشى حيث يقول:

علّقتها عرضا و علقت رجلا # غيري و علّق أخرى غيرها الرجل

أحبك أهل العراق، و أحببت أهل الشام، و أحب أهل الشام عبد الملك ابن مروان.

عليّ بن مجاهد (1) ، عن حميد بن أبي البختري قال: ذكر معاوية لابن الزبير بيعة يزيد، فقال ابن الزبير: إني أناديك و لا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تقدم، و تفكر قبل أن تندم، فإن النظر قبل التقدم، و التفكر قبل التندم» . فضحك معاوية ثم قال: تعلمت أبا بكر السّجاعة عند الكبر، إن في دون ما سجعت به على أخيك ما يكفيك. ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير.

أخبرنا ثمامة بن أشرس، قال: لما صرفت اليمانية من أهل مزّة، الماء عن أهل دمشق، و وجهوه إلى الصحارى، كتب إليهم أبو الهيذام: «إلى بني استها أهل مزة، ليمسينني الماء أو لتصبحنكم الخيل» قال: فوافاهم الماء قبل أن يعتموا. فقال أبو الهيذام: «الصدق ينبي عنك لا الوعيد» . و حدثني ثمامة عن من قدم عليه من أهل دمشق قال: لما بايع الناس يزيد بن الوليد، و أتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكؤ و التحبّس، كتب إليه:

(1) علي بن مجاهد الفقيه القاضي الراوية، روى عن ابن إسحاق و الثوري و جماعة، و روى عنه أحمد بن حنبل و غيره.

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. من عبد اللّه أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان بن محمد. أما بعد فإني أراك تقدّم رجلا و تؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. و السلام» .

و هاهنا مذاهب تدل على أصالة الرأي، و مذاهب تدل على تمام النفس، و على الصلاح و الكمال، لا أرى كثيرا من الناس يقفون عليها.

و استعمل عبد الملك بن مروان نافع بن علقمة بن نضلة، بن صفوان بن محرّث خال مروان، على مكة، فخطب ذات يوم و أبان بن عثمان بحذاء المنبر، فشتم طلحة و الزبير، فلما نزل قال لأبان: أرضيتك من المدهنين في أمير المؤمنين؟قال: لا و اللّه و لكن سؤتني، حسبي أن يكونا شركا في أمره.

فما أدري أيهما أحسن كلاما: أبان بن عثمان هذا، أم إسحاق بن عيسى، فإنه قال: «أعيذ عليّا باللّه أن يكون قتل عثمان، و أعيذ باللّه أن يقتله علي» . فمدح عليّا بكلام سديد غير نافر، و مقبول غير وحشيّ، و ذهب إلى معنى الحديث في قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «أشد أهل النار عذابا من قتل نبيا أو قتله نبيّ» . يقول: لا يتفق أن يقتله نبي بنفسه إلا و هو أشدّ خلق اللّه معاندة و أجرؤهم على معصية. و قال هذا: لا يجوز أن يقتله علي إلا و هو مستحق للقتل.

قال: خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بعشر كلمات: حمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، و إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى لا يدري ما اللّه صانع به، و بين أجل قد بقي لا يدري ما اللّه قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، و من دنياه لآخرته، و من الشبيبة قبل الكبرة، و من الحياة قبل الموت، فو الذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، و لا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» . ــ

أبو الحسن المدائني قال: تكلم عمار بن ياسر يوما فأوجز، فقيل له: لو زدتنا. فقال: أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بإطالة الصلاة و قصر الخطب.

محمد بن إسحاق (1) ، عن يعقوب بن عتبة، عن شيخ من الأنصار من بني زريق، أن عمر بن الخطاب رحمه اللّه لما أتي بسيف النعمان بن المنذر دعا جبير بن مطعم فسلّحه إياه، ثم قال: يا جبير، ممن كان النعمان؟قال: من أشلاء قنص بن معدّ. و كان جبير أنسب العرب، و كان أخذ النسب عن أبي بكر الصديق رحمه اللّه. و عن جبير أخذ سعيد بن المسيّب.

و روي عن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: قلت لسعيد بن المسيب:

علّمني النسب. قال: أنت رجل تريد أن تسابّ الناس.

قال: و ثلاثة في نسق واحد كانوا أصحاب نسب: عمر بن الخطاب رحمه اللّه، أخذ ذلك من الخطاب، و الخطاب بن نفيل، و نفيل بن عبد العزّى، تنافر إليه عبد المطلب و حرب بن أمية، فنفّر عبد المطلب، أي حكم لعبد المطلب، و المنافرة: المحاكمة.

قال: و النسّاب أربعة: دغفل بن حنظلة، و عميرة أبو ضمضم، و صبح الحنفي، و ابن الكيّس النمري.

قال الأصمعي: دغفل بن حنظلة، و النسابة البكري، و كان نصرانيا. و لم يسمّه.

ذكر كلمات خطب بهن سليمان بن عبد الملك:

قال: «اتخذوا كتاب اللّه إماما، و ارضوا به حكما، و اجعلوه قائدا، فإنه ناسخ لما قبله، و لم ينسخه كتاب بعده» .

---

(1) محمد بن إسحاق المدني، صاحب سيرة النبي، راوية كبير أخذ عن يعقوب بن عتبة، و توفي سنة 152 هـ.

قال: و كان أول كلام بارع سمعوه منه: «الكلام فيما يعنيك خير من السكوت عما يضرك، و السكوت عما لا يعنيك خير من الكلام فيما يضرك» .

خلاّد بن يزيد الأرقط قال: سمعت من يخبرنا عن الشعبي قال: ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا تمنيت أن يسكت خوفا من أن يسيء، إلا زيادا، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاما.

و كان نوفل بن مساحق (1) ، إذا دخل على امرأته صمت، و إذا خرج من عندها تكلم، فرأته يوما كذلك فقالت: أما عندي فتطرق، و أما عند الناس فتنطق. قال: لأني أدقّ عن جليلك، و تجلين عن دقيقي.

قال أبو الحسن: قاد عياش بن الزبرقان بن بدر، إلى عبد الملك بن مروان خمسة و عشرين فرسا، فلما جلس لينظر إليها نسب كل فرس منها إلى جميع آبائه و أمهاته، و حلف على كل فرس بيمين غير اليمين التي حلف بها على الفرس الآخر، فقال عبد الملك بن مروان: عجبي من اختلاف إيمانه أشد من عجبي من معرفته بأنساب الخيل.

و قال: كان للزبرقان بن بدر ثلاثة أسماء: القمر، و الزبرقان، و الحصين. و كانت له ثلاث كنى: أبو شذرة، و أبو عياش، و أبو العباس.

و كان عياش ابنه خطيبا ماردا شديد العارضة شديد الشكيمة وجيها، و له يقول جرير:

أعياش قد ذاق القيون مرارتي # و أوقدت ناري فادن دونك فاصطل

فقال عياش: إني إذا لمقرور. قالوا: فغلّب عليه.

عودة إلى تراجم بعض الخطباء و البلغاء

ذكر أسماء الخطباء و البلغاء و الأبيناء و ذكر قبائلهم و أنسابهم.

(1) نوفل بن مساحق القرشي، استقضي المدينة و توفي سنة 47 هـ.

كان التدبير في أسماء الخطباء و حالاتهم و أوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم، و أسماء أهل الإسلام على منازلهم، و نجعل لكلّ قبيلة منهم خطباء، و نقسم أمورهم بابا بابا على حدته، و نقدّم من قدمه اللّه و رسوله عليه السلام في النسب، و فضله في الحسب. و لكني لما عجزت عن نظمه و تنضيده، تكلفت ذكرهم في الجملة. و اللّه المستعان، و به التوفيق، و لا حول و لا قوة إلا به.

الفضل الرقاشي

كان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس، و كان متكلما قاصا مجيدا، و كان يجلس إليه عمرو بن عبيد، و هشام بن حسان، و أبان بن أبي عياش، و كثير من الفقهاء. و هو رئيس الفضيلة، و إليه ينسبون. و خطب إليه ابنته سوادة بنت الفضل، سليمان بن طرخان التيمي، فزوّجه فولدت له المعتمر ابن سليمان. و كان سليمان مباينا للفضل في المقالة، فلما ماتت سوادة شهد الجنازة المعتمر و أبوه، فقدّما الفضل.

و كان الفضل لا يركب إلا الحمير، فقال له عيسى بن حاضر: إنك لتؤثر الحمير على جميع المركوب، فلم ذلك؟قال: لما فيها من المرافق و المنافع.

قلت: مثل أي شيء؟قال: لا تستبدل بالمكان على قدر اختلاف الزمان، ثم هي أقلها داء و أيسرها دواء، و أسلم صريعا، و أكثر تصريفا، و أسهل مرتقى و أخفض مهوى، و أقل جماحا، و أشهر فارها، و أقل نظيرا، يزهى راكبه و قد تواضع بركوبه، و يكون مقتصدا و قد أسرف في ثمنه.

قال: و نظر يوما إلى حمار فاره تحت سلم بن قتيبة، فقال: «قعدة نبيّ و بذلة جبار» .

و قال عيسى بن حاضر: ذهب إلى حمار عزيز، و إلى حمار المسيح، و إلى حمار بلعم. و كان يقول: لو أراد أبو سيارة عميلة بن أعزل، أن يدفع بالموسم على فرس عربي، أو جمل مهريّ لفعل، و لكنه ركب عيرا أربعين

عاما، لانه كان يتأله (1) . و قد ضرب به المثل فقالوا: «أصح من عير أبي سيارة» .

و الفضل هو الذي يقول في قصصه: «سل الأرض فقل: من شق أنهارك، و غرس أشجارك، و جنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا» .

و كان عبد الصمد بن الفضل أغزر من أبيه و أعجب و أبين و أخطب.

و قال: و حدثني أبو جعفر الصوفي القاص قال: تكلم عبد الصمد في خلق البعوضة و في جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة.

قال: و كان بزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، من أصحاب أنس و الحسن، و كان يتكلم في مجلس الحسن، و كان زاهدا عابدا، و عالما فاضلا، و كان خطيبا، و كان قاصا مجيدا.

قال أبو عبيدة: كان أبوهم خطيبا، و كذلك جدهم، و كانوا خطباء الأكاسرة فلما سبوا و ولد لهم الأولاد في بلاد الإسلام و في جزيرة العرب، نزعهم ذلك العرق، فقاموا في أهل هذه اللغة كمقامهم في أهل تلك اللغة، و فيهم شعر و خطب، و ما زالوا كذلك حتى أصهر إليهم الغرباء ففسد ذلك العرق و دخله الخور.

قس بن ساعدة

و من خطباء إياد قسّ بن ساعدة، و هو الذي قال فيه النبي صلّى اللّه عليه و آله: «رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر و هو يقول: أيها الناس اجتمعوا و اسمعوا و عوا.

من عاش مات، و من مات فات، و كل ما هو آت» .

و هو القائل في هذه: «آيات محكمات، مطر و نبات، و آباء و أمهات، و ذاهب و آت، ضوء و ظلام، و بر و أثام، و لباس و مركب، و مطعم و مشرب،

(1) التأله: التنسك و التعبد.

و نجوم تمور، و بحور لا تغور، و سقف مرفوع، و مهاد موضوع، و ليل داج، و سماء ذات أبراج. ما لي أرى الناس يموتون و لا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم حبسوا فناموا» .

و هو القائل: «يا معشر إياد، أين ثمود و عاد، و أين الآباء و الأجداد. أين المعروف الذي لم يشكر، و الظلم الذي لم ينكر. أقسم قسّ قسما باللّه، إن للّه دينا هو أرضى له من دينكم هذا» .

و أنشدوا له:

في الذاهبين الأوليــ # ن من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا # للموت ليس لها مصادر

و رأيت قومي نحوها # يمضي الأصاغر و الأكابر

لا يرجع الماضي و لا # يبقى من الباقين غابر

أيقنت أني لا محا # لة حيث صار القوم صائر

زيد بن علي بن الحسين

و من الخطباء زيد بن عليّ بن الحسين. و كان خالد بن عبد اللّه (1) أقرّ على زيد بن علي، و داود بن علي، و أيوب بن سلمة المخزومي، و على محمد بن عمر بن علي، و على سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، فسأل هشام زيدا عن ذلك فقال: أحلف لك. قال: و إذا حلفت أصدقك قال زيد: اتّق اللّه. قال: أو مثلك يا زيد يأمر مثلي بتقوى اللّه. قال هشام: بلغني أنك تريد الخلافة، و لا تصلح لها، لأنك ابن أمة. قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم ع ابن أمة، و إسحاق صلّى اللّه عليه و آله. فعندها قال له: قم. قال: إذن لا تراني إلا حيث تكره!و لما خرج من الدار قال: «ما أحب أحد الحياة قط إلا ذل» . فقال له سالم مولى هشام: لا يسمعنّ هذا الكلام منك أحد.

(1) خالد بن عبد اللّه القسري، عامل العراق من قبل هشام بن عبد الملك. قتل في عهد الوليد بن يزيد سنة 126 هـ.

و قال محمد بن عمير: إن زيدا لما رأى الأرض قد طبّقت (1) جورا، و رأى قلّة الأعوان و تخاذل الناس، كانت الشهادة أحبّ الميتات إليه.

و كان زيد كثيرا ما ينشد:

شرّده الخوف و أزرى به # كذاك من يكره حرّ الجلاد

منخرق الخفّين يشكو الوجى # تنكبه أطراف مرو حداد

قد كان في الموت له راحة # و الموت حتم في رقاب العباد

و قال: و كان كثيرا ما ينشد شعر العبسيّ في ذلك:

إن المحكّم ما لم يرتقب حسبا # أو يرهف السيف أو حدّ القنا جنفا

من عاذ بالسيف لاقى فرصة عجبا # موتا على عجل أو عاش منتصفا

و لما بعث يوسف بن عمر برأس زيد، و نصر بن خزيمة، مع شبّة بن عقال، و كلف آل أبي طالب أن يبرءوا من زيد، و يقوم خطباؤهم بذلك. فأول من قال عبد اللّه بن الحسن، فأوجز في كلامه ثم جلس، ثم قام عبد اللّه بن جعفر، فأطنب في كلامه، و كان شاعرا بيّنا، و خطيبا لسنا، فانصرف الناس و هم يقولون: ابن الطيّار أخطب الناس!فقيل لعبد اللّه بن الحسن في ذلك، فقال: لو شئت أن أقول لقلت، و لكن لم يكن مقام سرور. فأعجب الناس ذلك منه.

هند بنت الخس و جمعة بنت حابس

و من أهل الدهاء و النّكراء (2) ، و من أهل اللسن و اللقن، و الجواب العجيب، و الكلام الفصيح، و الأمثال السائرة، و المخارج العجيبة: هند بنت الخسّ، و هي الزرقاء، و جمعة بنت حابس. و يقال إن حابسا من إياد.

---

(1) طبقت: ملئت و عمت و غشيت. طبق السحاب الجو: غشاه.

(2) النكراء: الدهاء و الفطنة.

و قال عامر بن عبد اللّه الفزاريّ جمع بين هند و جمعة، فقيل لجمعة: أي الرجال أحب إليك؟فقالت: «الشنق الكتد (1) ، الظاهر الجلد، الشديد الجذب بالمسد» . و قيل لهند: أي الرجال أحب إليك؟قالت: «القريب الأمد، الواسع البلد، الذي يوفد إليه و لا يفد» .

و قد سئلت هند عن حر الصيف و برد الشتاء، فقالت: «من جعل بؤسا كأذى» و قد ضرب بها المثل. فمن ذلك قول ليلى بنت النّضر الشاعرة:

و كنز بن جدعان دلالة أمّه # و كانت كبنت الخسّ أو هي أكبر

و قال ابن الأعرابي: يقال بنت الخس، و بنت الخص، و بنت الخسف و هي الزرقاء. و قال يونس: لا يقال إلا بنت الأخسّ.

و قال أبو عمرو بن العلاء: داهيتا نساء العرب هند الزرقاء، و عنز الزرقاء، و هي زرقاء اليمامة.

و قال اليقطريّ: قيل لعبد اللّه بن الحسن: ما تقول في المراء؟قال: ما عسى أن أقول في شيء يفسد الصداقة القديمة، و يحلّ العقدة الوثيقة، فإن أقل ما فيه أن يكون دربة للمغالبة، و المغالبة من أمتن أسباب الفتنة إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لما أتاه السائب بن صيفي فقال: أ تعرفني يا رسول اللّه؟قال: «كيف لا أعرف شريكي الذي كان لا يشاريني و لا يماريني» . قال: فتحولت إلى زيد بن علي فقلت له: الصمت خير أم الكلام؟قال: أخزى اللّه المساكتة، فما أفسدها للبيان، و أجلبها للحصر. و اللّه للمماراة أسرع في هدم العيّ من النار في يبيس العرفج، و من السيل في الحدور.

و قد عرف زيد أن المماراة مذمومة، و لكنه قال: المماراة على ما فيها أقل ضررا من المساكتة التي تورث البلدة، و تحل العقدة، و تفسد المنّة، و تورث عللا، و تولّد أدواء أيسرها العيّ. فإلى هذا المعنى ذهب زيد.

(1) الشنق: الطويل. الكتد: أعلى الكتف.

و من الخطباء: خالد بن سلمة المخزومي من قريش، و أبو حاضر، و سالم ابن أبي حاضر، و قد تكلم عند الخلفاء.

و من الخطباء بني أسيد: الحكم بن يزيد بن عمير، و قد رأس. و من اهل اللسن منهم و البيان: الحجاج بن عمر بن يزيد.

سعيد بن العاصي و ابنه عمرو و حفيده سعيد

و من الخطباء: سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية. قال:

و قيل لسعيد بن المسيّب: من أبلغ الناس؟قال: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله. فقيل: ليس عن هذا نسألك. قال: معاوية و ابنه، و سعيد و ابنه، و ما كان ابن الزبير دونهم، و لكن لم يكن لكلامه طلاوة.

فمن العجب أن ابن الزبير قد ملأ دفاتر العلماء كلاما، و هم لا يحفظون لسعيد بن العاص و ابنه من الكلام إلا ما لا بال له.

و كان سعيد جوادا، و لم ينزع قميصه قط، و كان أسود نحيفا، و كان يقال له «عكة العسل» (1) . و قال الحطيئة:

سعيد فلا يغررك قلة لحمه # تخدّد (2) عنه اللحم فهو صليب

و كان أول من خشّ الإبل في نفس عظم الأنف. و كان في تدبيره اضطراب. و قال قائل من أهل الكوفة:

يا ويلنا قد ذهب الوليد # و جاءنا مجوعا سعيد

ينقصفيالصّاع و لا يزيد

قال: الأمراء تتحبب إلى الرعية بزيادة المكاييل، و لو كان المذهب في الزيادة في الأوزان كالمذهب في زيادة المكاييل ما قصروا، كما سأل الأحنف عمر بن الخطاب الزيادة في المكاييل. و لذلك اختلفت أسماء المكاييل، كالزيادي و الفالج، و الخالدي. حتى صرنا إلى هذا الملجم اليوم.

---

(1) العكة: زق صغير.
(2) تخدد اللحم: هزل و نقص.

ثم من الخطباء: عمرو بن سعيد، و هو الأشدق، يقال إن ذلك إنما قيل لتشادقه في الكلام. و قال آخرون: بل كان أفقم مائل الذقن، و لذلك قال عبيد اللّه بن زياد حين أهوى إلى عبد اللّه بن معاوية: يدك عني يا لطيم الشيطان، و يا عاصي الرحمن. و قال الشاعر:

و عمرو لطيم الجنّ و ابن محمد # بأسوإ هذا الأمر يلتبسان

ذكر ذلك عن عوانة. و هذا خلاف قول الشاعر:

تشادق حتى مال بالقول شدقه # و كل خطيب لا أبا لك أشدق

و قال: و قد كان معاوية قد دعا به في غلمة من قريش، فلما استنطقه قال: «إن أول كل مركب صعب، و إن مع اليوم غدا» . و قال له: إلى من أوصى بك أبوك؟قال: إن أبي أوصى إليّ و لم يوص بي قال: و بأي شيء أوصاك؟قال: بألا يفقد إخوانه منه إلا شخصه. قال: فقال معاوية عند ذلك: إن ابن سعيد هذا لأشدق. فهذا يدل عندهم على أنه إنما سمي بالأشدق لمكان التشادق.

ثم كان بعد عمرو بن سعيد، سعيد بن عمرو بن سعيد، و كان ناسبا خطيبا، و أعظم الناس كبرا. و قيل له عند الموت: إن المريض ليستريح إلى الأنين، و إلى أن يصف ما به إلى الطبيب. فقال:

أجاليد من ريب المنون فلا ترى # على هالك عينا لنا الدهر تدمع

و دخل على عبد الملك مع خطباء قريش و أشرافهم، فتكلموا من قيام.

و تكلم و هو جالس، فتبسم عبد الملك و قال: لقد رجوت عثرته، و لقد أحسن حتى خفت عثرته.

فسعيد بن عمرو بن سعيد، خطيب ابن خطيب ابن خطيب.

سهيل بن عمرو

و من الخطباء: سهيل بن عمرو الأعلم أحد بني حسل بن معيص و كان

يكنى أبا يزيد، و كان عظيم القدر، شريف النفس، صحيح الإسلام. و كان عمر قال للنبي صلّى اللّه عليه و آله: يا رسول اللّه، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «لا أمثّل فيمثّل اللّه بي و إن كنت نبيا. دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاما تحمده» . فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قام خطيبا فقال: «أيها الناس، إن يكن محمد قد مات فاللّه حيّ لم يمت. و قد علمتم أني أكثركم قتبا (1) في بر، و جارية في بحر، فأقروا أميركم و أنا ضامن إن لم يتمّ الأمر أن أردّها عليكم» ، فسكن الناس. و هو الذي قال يوم خرج آذن عمر، و هو بالباب و عيينة بن حصن، و الأقرع بن حابس، و فلان و فلان، فقال الآذن: أين بلال، أين صهيب، أين سلمان، أين عمار؟فتمعّرت وجوه القوم، فقال سهيل: لم تتمعّر وجوهكم؟!دعوا و دعينا فأسرعوا و أبطأنا، و لئن حسدتموهم على باب عمر، لما أعد اللّه لهم في الجنة أكثر.

عبد اللّه بن عروة بن الزبير

و من الخطباء: عبد اللّه بن عروة بن الزبير. قالوا: و كان خالد بن صفوان يشبّه به. و ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود من خالد بن صفوان و شبيب بن شيبة، للذي يحفظه الناس و يدور على ألسنتهم من كلامهما. و ما أعلم أن أحدا ولّد لهما حرفا واحدا.

النسابون الخطباء

و من النسابين من بني العنبر ثم من بني المنذر: الحنتف بن يزيد بن جعونة. و هو الذي تعرض له دغفل بن حنظلة العلامة عند ابن عامر بالبصرة، فقال له: متى عهدك بسجاح أمّ صادر؟فقال: «ما لي بها عهد منذ أضلت أمّ حلس» ، و هي بعض أمهات دغفل. فقال له: نشدتك باللّه، أ نحن كنا لكم أكثر غزوا في الجاهلية أم أنتم لنا؟قال: بل أنتم فلم تفلحوا و لم تنجحوا، غزانا فارسكم و سيدكم و ابن سيدكم، فهزمناه مرة و أسرناه مرة، و أخذنا في فدائه

(1) القتب: رحل صغير.

خدر أمه. و غزانا أكثركم غزوا، و أنبهكم في ذلك ذكرا، فأعرجناه ثم أرجلناه.

فقال ابن عامر: أسألكما باللّه لمّا كففتما.

و كان عبد اللّه بن عامر، و مصعب بن الزبير، يحبان أن يعرفا حالات الناس، فكانا يغريان بين الوجوه و بين العلماء، فلا جرم أنهما كانا إذا سبّا أوجعا.

و كان أبو بكر رحمه اللّه أنسب هذه الأمة، ثم عمر، ثم جبير بن مطعم، ثم سعيد بن المسيّب، ثم محمد بن سعيد بن المسيب. و محمد هذا هو الذي نفى آل عنكثة المخزوميين فرفع ذلك إلى والي المدينة فجلده الحدّ.

و كان ينشد:

و يربوع بن عنكثة ابن أرض # و أعتقه هبيرة بعد حين

يعني هبيرة بن أبي وهب المخزومي.

و من النسابين العلماء: عتبة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، و كان من ذوي الرأي و الدهاء، و كان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف. و عمر بن عبد الرحمن خامس خمسة في الشرف.. و كان هو الساعي بين الأسد و تميم في الصلح.

و من بني حرقوص: شعبة بن القعم، و كان ذا لسان و جواب و عارضة، و كان وصافا فصيحا، و بنوه عبد اللّه، و عمر، و خالد كلهم كانوا في هذه الصفة، غير أن خالدا كان قد جمع مع اللسن و العلم، الحلاوة و الظرف.

و كان الحجاج بن يوسف لا يصبر عنه.

و من بني أسيّد بن عمرو بن تميم، أبو بكر بن الحكم، كان ناسبا راوية شاعرا، و كان أبلى الناس لسانا، و أحسنهم منطقا، و أكثرهم تصرفا. و هو الذي يقول له رؤبة:

لقد خشيت أن تكون ساحرا # راوية مرا و مرا شاعرا

و منهم معلّل بن خالد، أحد بني أنمار بن الهجيم، و كان نسابة علامة، راوية صدوقا مقلّدا. و ذكر للمنتجع بن نبهان فقال: كان لا يجارى و لا يمارى.

و منهم من بني العنبر، ثم من بني عمرو بن جندب: أبو الخنساء عبّاد بن كسيب، و كان شاعرا علامة، و راوية نسابة، و كانت له حرمة بأبي جعفر المنصور.

و منهم عمرو بن خولة، كان ناسبا خطيبا، و راوية فصيحا، من ولد سعيد ابن العاصي. و الذي أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو إسحاق بن يحيى ابن طلحة.

و كان يحيى بن عروة بن الزبير ناسبا عالما، ضربه إبراهيم بن هشام المخزومي والي المدينة حتى مات، لبعض القول. و كان مصعب بن عبد اللّه ابن ثابت ناسبا عالما، و من ولده الزبيري عامل الرشيد على المدينة و اليمن.

و منهم ثم من قريش: محمد بن حفص، و هو ابن عائشة، و يكنى أبا بكر. و ابنه عبيد اللّه، كان يجري مجراه، و يكنى أبا عبد الرحمن.

و من بني خزاعيّ بن مازن: أبو عمرو و أبو سفيان، ابنا العلاء بن عمار ابن العريان. فأما أبو عمرو فكان أعلم الناس بأمور العرب، مع صحة سماع و صدق لسان. حدثني الأصمعي قال: جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي. قال: و قال مرة: «لقد كثر هذا المحدث و حسّن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته» . يعني شعر جرير و الفرزدق و أشباههما.

و حدثني أبو عبيدة قال: كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب و العربية، و بالقرآن و الشعر، و بأيام العرب و أيام الناس. و كانت داره خلف دار جعفر بن سليمان قال:

و كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء، قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرّأ فأحرقها كلها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه. و كانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية.

و في أبي عمرو بن العلاء يقول الفرزدق: ــ

ما زلت أفتح أبوابا و أغلقها # حتى أتيت أبا عمرو بن عمّار

قال: فإذا كان الفرزدق و هو راوية الناس و شاعرهم و صاحب أخبارهم يقول فيه مثل هذا القول، فهو الذي لا يشك في خطابته و بلاغته.

و قال يونس: لو لا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس.

و قال في أبي عمر مكّي بن سوادة:

الجامع العلم ننساه و يحفظه # و الصادق القول إن أنداده كذبوا

و كان أبو سفيان بن العلاء ناسبا، و كلاهما كناهما أسماؤهما. و كذلك أبو عمرو بن العلاء بن لبيد، و أبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبيّ، خليفة عيسى ابن شبيب المازني على شرط البصرة.

و كان عقيل بن أبي طالب ناسبا عالما بالأمهات، بيّن اللسان سديد الجواب، لا يقوم له أحد.

و كان أبو الجهم بن حذيفة العدويّ ناسبا شديد العارضة، كثير الذّكر للأمهات بالمثالب.

و من رؤساء النسابين: دغفل بن حنظلة، أحد بني عمرو بن شيبان، لم يدرك الناس مثله لسانا و علما و حفظا. و من هذه الطبقة زيد بن الكيّس النمري.

و من نسابي كلب: محمد بن السائب، و هشام بن محمد بن السائب، و شرقي بن القطاميّ. و كان أعلاهم في العلم و من ضرب به المثل، حماد بن بشر.

و قال سماك العكرمي:

فسائل دغفلا و أخا هلال # و حمّادا ينبّؤك اليقينا

و قد ذكرنا دغفلا. و أخو هلال هو زيد بن الكيّس. و بنو هلال حي من النمر بن قاسط.

و قال مسكين بن أنيف الدارميّ في ذلك:

و عند الكيّس النمريّ علم # و لو أمسى بمنخرق الشمال

و قال ثابت قطنة:

فما العضّان لو سئلا جميعا # أخو بكر و زيد بني هلال [1]

و لا الكلبيّ حماد بن بشر # و لا من فاد في الزمن الخوالي [2]

و قال زياد الأعجم:

بل لو سألت أخا ربيعة دغفلا # لوجدت في شيبان نسبة دغفل

إن الأحابن و الذين يلونهم # شرّ الأنام و نسل عبد أغزل

يهجو فيها بني الحبناء:

و منهم: أبو إياس النصري. و كان أنسب الناس، و هو الذي قال: كانوا يقولون أشعر العرب أبو دؤاد الإياديّ، و عديّ بن زيد العبادي.

و كان أبو نوفل بن أبي عقرب، علامة ناسبا خطيبا فصيحا، و هو رجل من كنانة، أحد بني عريج.

و من بني كنانة ثم من بني ليث، ثم من بني الشدّاح: يزيد بن بكر بن دأب. و كان يزيد عالما ناسبا، و راوية شاعرا. و هو القائل:

اللّه يعلم في عليّ علمه # و كذاك علم اللّه في عثمان

و ولد يزيد يحيى و عيسى. فعيسى هو الذي يعرف في العامة بابن دأب، و كان من أحسن الناس حديثا و بيانا، و كان شاعرا راوية، و كان صاحب رسائل و خطب، و كان يجيدهما جدا.

---

(1) العض: الداهية من الرجال.

(2) فاد: هلك.

و من آل دأب: حذيفة بن دأب، و كان عالما ناسبا. و في آل دأب علم بالنسب و الخبر.

أبو الأسود الدؤلي

و كان أبو الأسود الدؤلي، و اسمه ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، خطيبا عالما، و كان قد جمع شدة العقل و صواب الرأي و جودة اللسان، و قول الشعر و الظرف. و هو يعد في هذه الأصناف، و في الشيعة، و في العرجان، و في المفاليج. و على كل شيء من هذا شاهد سيقع في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

و قال الخسّ لابنته هند: أريد شراء فحل لإبلي. قالت: «إن اشتريته فاشتره أسجع الخدين، غائر العينين، أرقب، أحزم أعكى، أكوم، إن عصي غشم، و إن أطيع تجرثم» .

و هي التي قالت لما قيل لها: ما حملك على أن زنيت بعبدك؟قالت:

«طول السواد، و قرب الوساد» .

السّواد: السرار. أسجع: سهل واسع يقال: «ملكت فأسجع» .

أرقب: غليظ الرقبة. أحزم: منتفخ المحزم. أعكى: العكوة مغرز الوركين في المؤخر، تصفه بشدة الوركين. إن عصي غشم: إن عصته الناقة غصبها نفسها. تجرثم: أي بقي، مأخوذ من الجرثومة، و هي الطين و التراب يجمع حول النخلة، ليقوّيها. تصفه بالصبر و القوة على الضّراب. أكوم: عظيم السنام.

و قال الشاعر:

و يفهم قول الحكل لو أن ذرة # تساود أخرى لم يفته سوادها

يقال: في لسانه حكلة، إذا كان شديد الحبسة مع لثغ.

قالوا: و عاتب هشام بن عبد الملك زيد بن علي، فقال له: بلغني عنك

شيء. قال: يا أمير المؤمنين، أحلف لك؟قال: و إذا حلفت لي أصدّقك؟ قال: نعم، إن اللّه لم يرفع أحدا فوق ألا يرضى به، و لم يضع أحدا دون ألا يرضى منه.

عبيد اللّه العائشي

و كان أبو ظبيان التيمي العائشي خطيبا، فدخل عليه ابنه عبيد اللّه و هو يكيد بنفسه، فقال له: أ لا أوصي بك الأمير. قال: لا. قال: و لم؟قال:

إذا لم يكن للحيّ إلا وصيّة الميّت فالحي هو الميت.

و كان عبيد اللّه أفتك الناس، و أخطب الناس. و هو الذي أتى باب مالك ابن مسمع و معه نار، ليحرّق عليه داره، و قد كان نابه أمر فلم يرسل إليه قبل الناس، فأشرف عليه مالك فقال: مهلا يا أبا مطر، فو اللّه إن في كنانتي سهما أنا به أوثق مني بك. قال: و إنك لتعدني في كنانتك، فو اللّه لو قمت فيها لطلتها، و لو قعدت فيها لخرقتها. قال مالك: مهلا، أكثر اللّه في العشيرة مثلك!قال: لقد سألت اللّه شططا! و دخل عبيد اللّه على عبد الملك بن مروان، بعد أن أتاه برأس مصعب بن الزبير، و معه ناس من وجوه بكر بن وائل، فأراد أن يقعد معه على سريره فقال له عبد الملك: ما بال الناس يزعمون أنك لا تشبه أباك؟قال: و اللّه لأنا أشبه بأبي من الليل بالليل، و الغراب بالغراب، و الماء بالماء، و لكن إن شئت أنبأتك بمن لا يشبه أباه. قال: و من ذاك؟قال: من لم يولد لتمام، و لم تنضجه الأرحام، و من لم يشبه الأخوال و الأعمام. قال: و من ذاك؟قال: ابن عمي سويد بن منجوف. قال عبد الملك: أ و كذلك أنت يا سويد؟قال: نعم. فلما خرجا من عنده أقبل عليه سويد فقال: وريت بك زنادي!و اللّه ما يسرني أنك كنت نقصته حرفا واحدا مما قلت له و أن لي حمر النّعم. قال: و أنا و اللّه ما يسرني بحلمك اليوم عني سود النعم.

قال: و أتى عبيد اللّه عتّاب بن ورقاء، و عتاب على أصبهان، فأعطاه

عشرين ألف درهم، فقال: و اللّه ما أحسنت فأحمدك، و لا اسأت فأذمك، و إنك لأقرب البعداء، و أبعد القرباء.

قال: و قال أشيم بن شقيق بن ثور، لعبيد اللّه بن زياد بن ظبيان: ما أنت قائل لربك و قد حملت رأس مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان؟ قال: أسكت، فأنت يوم القيامة أخطب من صعصعة بن صوحان إذا تكلمت الخوارج.

فما ظنك ببلاغة رجل عبيد اللّه بن زياد يضرب به المثل! و إنما أردنا بهذا الحديث خاصة، الدلالة على تقديم صعصعة بن صوحان في الخطب. و أدل من كلّ دلالة استنطاق عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

و كان عثمان بن عروة (1) أخطب الناس، و هو الذي قال: «الشكر و إن قلّ، ثمن لكل نوال و إن جلّ» .

و كان ثابت بن عبد اللّه بن الزبير، من أبين الناس، و لم يكن خطيبا.

قسامة بن زهير

و كان قسامة بن زهير أحد بني رزام بن مازن، مع نسكه و زهده و منطقه، من أبين الناس، و كان يعدل بعامر بن عبد قيس في زهده و منطقه. و هو الذي قال: «روّحوا هذه القلوب تع الذكر» . و هو الذي قال: «يا معشر الناس، إن كلامكم أكثر من صمتكم، فاستعينوا على الكلام بالصمت، و على الصواب بالفكر» . و هو الذي كان رسول عمر في البحث عن شأن المغيرة و شهادة أبي بكرة (2) .

---

(1) عثمان بن عروة بن الزبير بن العوام (136 هـ) خطيب و عالم من سادات قريش.

(2) أبو بكرة: هو نفيع بن الحارث أسلم و مات في خلافة عمر. كنى بأبي بكرة لأنه كان أول من تدلى من حصن الطائف و أسلم. و المغيرة بن شعبة صحابي اتهم بامرأة يقال لها أم جميل و شهد عليه أبو بكرة.

خالد بن يزيد بن معاوية

و كان خالد بن يزيد بن معاوية، خطيبا شاعرا، و فصيحا جامعا، و جيّد الرأي كثير الأدب، و كان أول من ترجم كتب النجوم و الطب و الكيمياء.

و من خطباء قريش: خالد بن سلمة المخزومي و هو ذو الشفة. و قال الشاعر في ذلك:

فما كان قائلهم دغفل # و لا الحيقطان و لا ذو الشّفة

و من خطباء العرب عطارد بن حاجب بن زرارة، و هو كان الخطيب عند النبي صلّى اللّه عليه و آله، و قال فيه الفرزدق بن غالب:

و منا خطيب لا يعاب و حامل # أغر إذا التفت عليه المجامع

عون بن عبد اللّه بن مسعود

و من الخطباء: عون بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود، و كان مع ذلك راوية ناسبا شاعرا، و لما رجع عن قول المرجئة إلى قول الشيعة قال:

و أول ما نفارق غير شك # نفارق ما يقول المرجئونا

و قالوا مؤمن من أهل جور # و ليس المؤمنون بجائرينا

و قالوا مؤمن دمه حلال # و قد حرمت دماء المؤمنينا

و كان حين هرب إلى محمد بن مروان في فلّ ابن الأشعث ألزمه ابنه يؤدّبه و يقوّمه، فقال له يوما: كيف ترى ابن أخيك؟قال: «ألزمتني رجلا إن غبت عنه عتب، و إن أتيته حجب، و إن عاتبته غضب» .

ثم لزم عمر بن عبد العزيز، و كان ذا منزلة منه. قالوا: و له يقول جرير:

يا أيّها الرجل المرخي عمامته # هذا زمانك إني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه # إني لدى الباب كالمصفود في قرن

و قد رآك وفود الخافقين معا # و مذ وليت أمور الناس لم ترني

الجارود بن أبي سبرة

و كان الجارود بن أبي سبرة و يكنى أبا نوفل، من أبين الناس و أحسنهم حديثا، و كان راوية علامة، شاعرا مفلقا، و كان من رجال الشيعة. و لما استنطقه الحجّاج قال: ما ظننت أن بالعراق مثل هذا. و كان يقول: ما أمكنني وال قط من أذنه إلا غلبت عليه، ما خلا هذا اليهودي-يعني بلال بن أبي بردة-و كان عليه متحاملا، فلما بلغه أنه دهق (1) حتى دقت ساقه، و جعل الوتر في خصييه، أنشأ يقول:

لقد قرّ عيني أن ساقيه دقّتا # و أن قوى الأوتار في البيضة اليسرى

بخلت و راجعت الخيانة و الخنا # فيسرك اللّه المقدّس للعسرى

فما جذع سوء خرّب السوس جوفه # يعالجه النجار يبرى كما تبرى

و إنما ذكر الخصية اليسرى لأن العامة تقول: إن الولد منها يكون.

عبد اللّه بن عباس

و من الخطباء الذين لا يضاهون و لا يجارون: عبد اللّه بن عباس. قالوا:

خطبنا بمكة، و عثمان محاصر، خطبة لو شهدتها الترك و الديلم لأسلمتا.

قال: و ذكره حسان بن ثابت فقال:

إذا قال لم يترك مقالا لقائل # بملتقطات لا ترى بينها فضلا

كفى و شفى ما في النفوس و لم يدع # لذي إربة في القول جدا و لا هزلا

سموت إلى العليا بغير مشقة # فنلت ذراها لا دنيا و لا و غلا

و قال الحسن: كان عبد اللّه بن عباس أول من عرّف بالبصرة، صعد المنبر فقرأ البقرة و آل عمران، ففسرهما حرفا حرفا، و كان و اللّه مثجّا يسيل غربا، و كان يسمى البحر و حبر قريش. و قال فيه النبي صلّى اللّه عليه و آله: «اللهم فقهه في الدين، و علمه التأويل» و قال عمر: «غص غوّص» . و نظر إليه يتكلم فقال:

---

(1) الدهق: خشبتان تشد بهما الساق للتعذيب.

شنشنة أعرفها من أخزم

الشعر لأبي أخزم الطائي، و هو جد أبي حاتم طيء أو جدّ جده، و كان له ابن يقال له أخزم فمات و ترك بنين فتوثبوا يوما على جدهم أبي أخزم فأدموه، فقال:

إن بنيّ رمّلوني بالدم # شنشنة أعرفها من أخزم

أي أنهم أشبهوا أباهم في طبيعته و خلقه. و أحسبه كان به عاقا. هكذا ذكر ابن الكلبيّ. و الشنشنة مثل الطبيعة و السجية.

فأراد عمر رحمه اللّه أني أعرف فيك مشابه من أبيك، في رأيه و عقله.

و يقال إنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس.

داود بن علي

و من خطباء بني هاشم أيضا: داود بن عليّ، و يكنى أبا سليمان، و كان أنطق الناس و أجودهم ارتجالا و اقتضابا للقول، و يقال إنه لم يتقدّم في تحبير خطبة قط. و له كلام كثير معروف محفوظ، فمن ذلك خطبته على أهل مكة:

«شكرا شكرا. أما و اللّه ما خرجنا لنحتفر فيكم نهرا، و لا لنبني فيكم قصرا. أظن عدو اللّه أن لن نظفر به أن أرخي له في زمامه، حتى عثر في فضل خطامه. فالآن عاد الأمر في نصابه، و طلعت الشمس من مطلعها، و الآن أخذ القوس باريها، و عادت النبل إلى النزعة، و رجع الحق إلى مستقره، في أهل بيت نبيّكم: أهل بيت الرأفة و الرحمة» .

عبد اللّه بن الحسن بن الحسن

و من خطباء بني هاشم: عبد اللّه بن الحسن بن الحسن، و هو القائل لابنه إبراهيم أو محمد:

«أي بنيّ، إني مؤد إليك حق اللّه في تأديبك، فأد إلي حق اللّه في حسن الاستماع. أي بني، كفّ الأذى، و ارفض البذا، و استعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك نفسك فيها إلى القول، فإن للقول ساعات يضرّ فيها الخطأ، و لا ينفع فيها الصواب. و احذر مشورة الجاهل و إن كان ناصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا، يوشك أن يورّطاك بمشورتهما، فيسبق إليك مكر العاقل، و غرارة الجاهل» .

قال الحسن بن خليل: كان المأمون قد استثقل سهل بن هارون، فدخل عليه سهل يوما و الناس عنده على منازلهم، فتكلم المأمون بكلام فذهب فيه كلّ مذهب، فلما فرغ المأمون من كلامه أقبل سهل بن هارون على ذلك الجمع فقال:

«ما لكم تسمعون و لا تعون، و تشاهدون و لا تفقهون، و تنظرون و لا تبصرون. و اللّه إنه ليفعل و يقول في اليوم القصير مثل ما فعل بنو مروان و قالوا في الدهر الطويل. عربكم كعجمهم، و عجمكم كعبيدهم، و لكن كيف يعرف الدواء من لا يشعر بالداء» .

قال: فرجع له المأمون بعد ذلك إلى الرأي الأول.

أولاد سليمان بن علي بن عبد اللّه بن العباس

و من خطباء بني هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان: سليمان بن جعفر والي مكة. قال المكي: سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون: إنه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام إلا و سليمان أبين منه قاعدا، و أخطب منه قائما.

و كان داود بن جعفر إذا خطب اسحنفر فلم يردّه شيء (1) ، و كان في لسانه شبيه بالرتة (2) .

---

(1) اسحنفر: اتسع في كلامه، أسهب.
(2) الرتة: العجمة في الكلام.

و كان أيوب فوق داود في الكلام و البيان، و لم تكن له مقامات داود في الخطب.

و قال إسحاق بن عيسى لداود بن جعفر: بلغني أن معاوية قال للنخار بن أوس: ابغني محدّثا؟قال: و معي يا أمير المؤمنين تريد محدّثا؟قال: نعم، استريح منك إليه، و منه إليك، و أنا لا أستريح إلى غير حديثك، و لا يكون صمتك في حال من الحالات أوفق لي من كلامك.

و كان إسماعيل بن جعفر، من أرق الناس لسانا و أحسنهم بيانا.

و من خطباء بني هاشم: جعفر بن حسن بن الحسن بن علي، و كان أحد من ينازع زيدا في الوصية، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما فقط.

و جماعة من ولد العباس في عصر واحد، لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي و في الكمال و الجلالة، و في العلم بقريش و الدولة، و برجال الدعوة، مع البيان العجيب، و الغور البعيد، و النفوس الشريفة، و الأقدار الرفيعة، و كانوا فوق الخطباء و فوق أصحاب الأخبار، و كانوا يجلون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك.

منهم عبد الملك بن صالح. قال: و سأله الرشيد و سليمان بن أبي جعفر و عيسى بن جعفر شاهدان، فقال له: كيف رأيت أرض كذا و كذا؟قال:

عسافي ريح و منابت شيح، قال: فأرض كذا و كذا، قال: «هضاب حمر، و براث عفر» . قال: حتى أتى على جميع ما أراد. قال: فقال عيسى لسليمان: و اللّه ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الكلام الهضبة: الجبل ينبسط على الأرض، و جمعها هضب. و البراث: الأماكن اللينة السهلة، واحدها برث. و قوله عفر، أي حمرتها كحمرة التراب. و الظبي الأعفر: الأحمر، لأن حمرته كذلك: و العفر التراب، و منه قيل: ضربه حتى عفّره، أي ألحقه بالتراب.

و من هؤلاء: عبد اللّه بن صالح، و العباس بن محمد، و إسحاق بن

عيسى، و إسحاق بن سليمان، و أيوب بن جعفر. هؤلاء كانوا أعلم بقريش و بالدولة و برجال الدعوة، من المعروفين برواية الأخبار.

و كان إبراهيم بن السندي يحدثني عن هؤلاء بشيء هو خلاف ما في كتب الهيثم بن عديّ و ابن الكلبيّ. و إذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزوّر (1) .

نصر و إبراهيم السنديان

و كان عبد اللّه بن علي، و داود بن علي يعدلان بأمّة من الأمم.

و من مواليهم: إبراهيم و نصر ابنا السنديّ.

فأما نصر فكان صاحب أخبار و أحاديث، و كان لا يعدو حديث ابن الكلبيّ و الهيثم بن عدي.

و أما إبراهيم فإنه كان رجلا لا نظير له: كان خطيبا، و كان ناسبا، و كان فقيها، و كان نحويا عروضيا، و حافظا للحديث، راوية للشعر شاعرا و كان فخم الألفاظ شريف المعاني، و كان كاتب القلم كاتب العمل، و كان يتكلم بكلام رؤبة، و يعمل في الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور (2) ، و كان منجّما طبيبا، و كان من رؤساء المتكلمين، و عالما بالدولة و برجال الدعوة، و كان أحفظ الناس لما سمع، و أقلهم نوما و أصبرهم على السهر.

جحدب التميمي

و من خطباء تميم: جحدب. و كان خطيبا راوية، و كان قضى على جرير في بعض مذاهبه، فقال جرير:

---

(1) زور الكلام: قومه و أتقنه.

(2) دهقان تولى الخراج زمن عبيد اللّه بن زياد والي البصرة.

قبح الإله و لا يقبّح غيره # بظرا تفلّق عن مفارق جحدب

و هو الذي كان لقيه خالد بن سلمة المخزوميّ الخطيب الناسب، فقال:

و اللّه ما أنت من حنظلة الأكرمين، و لا سعد الأكثرين، و لا عمرو الأشدين، و ما في تميم خير بعد هؤلاء. فقال له جحدب: و اللّه إنك لمن قريش، و ما أنت من بيتها و لا نبوتها، و لا من شوراها و خلافتها، و لا من أهل سدانتها و سقايتها.

و هو شبيه بما قال خالد بن صفوان، للعبدري، فإنه قال له: «هشمتك هاشم، و أمّتك أمية، و خزمتك مخزوم، و أنت من عبد دارها، و منتهى عارها، تفتح لها الأبواب إذا أقبلت، و تغلقها إذا أدبرت» .

عبد اللّه بن شبرمة

و من ولد المنذر: عبد اللّه بن شبرمة بن طفيل بن هبيرة بن المنذر. و كان فقيها عالما قاضيا، و كان راوية شاعرا، و كان خطيبا ناسبا، و كان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي، و كان يكنى أبا شبرمة. و قال يحيى بن نوفل فيه:

لما سألت الناس أين المكرمة # و العز و الجرثومة المقدّمة

و أين فاروق الأمور المحكمة # تتابع الناس على ابن شبرمه

و ابن شبرمة الذي يقول فيه ابن أبي ليلى:

و كيف ترجّى لفصل القضاء # و لم تصب الحكم في نفسكا

و تزعم أنك لابن الجلاح # و هيهات دعواك من أصلكا

قال: و قال رجل من فقهاء المدينة: من عندنا خرج العلم. قيل: من، فقال ابن شبرمة: نعم ثم لم يرجع إليكم.

قال: و قال عيسى بن موسى: دلوني على رجل أولّيه مكان كذا و كذا فقال ابن شبرمة: أصلح اللّه الأمير، هل لك في رجل إن دعوتموه أجابكم و إن تركتموه لم يأتكم، ليس بالملح طلبا، و لا بالممعن هربا؟

و سئل عن رجل، فقال: إن له شرفا و بيتا و قدما. فنظروا فإذا هو ساقط من السفلة. فقيل له في ذلك، فقال: ما كذبت، شرفه أذناه، و قدمه التي يمشي عليها، و لا بد من أن يكون له بيت يأوي إليه.

قال أبو إسحاق (1) : قد لعمري كذب، إنما هو كقول القائل حين سأله بعض من أراد تزويج حرمته عن رجل، فقال: «هو يبيع الدواب» . فلما نظروا في أمره وجدوه يبيع السنانير، فلما سئل عن ذلك قال: ما كذبت، لأن السنور دابة.

قال أبو إسحاق: بل لعمري لقد كذب، هذا مثل قول القائل حين سئل عن رجل في تزويج امرأة فقال: «رزين المجلس، نافذ الطعنة» . فحسبوه سيدا فارسا، فنظروا فوجدوه خياطا!فسئل عن ذلك فقال: ما كذبت، لطويل الجلوس، جيد الطعن بالإبرة.

قال أبو إسحاق: بل لعمري لقد كذب، لأنه قد غرّهم منه.

و كذلك لو سأله رجل عن رجل يريد أن يسلفه مالا عظيما، فقال: «هو يملك مالا ما كان يبيعه بمائة ألف و مائة ألف» ، فلما بايعه الرجل وجده معدما ضعيف الحيلة، فلما قيل له في ذلك قال: ما كذبت، لأنه يملك عينيه و أذنيه و أنفه و شفتيه و يديه. حتى عد جميع أعضائه و جوارحه.

و من قال للمستشير هذا القول فقد غره و ذلك ما لا يحل في دين، و لا يحسن في الحرية. و هذا القول معصية للّه، و المعصية لا تكون صدقا و أدنى منازل هذا الخبر أن لا يسمى صدقا، فأما التسمية له بالكذب فإن فيها كلاما يطول.

---

(1) هو إبراهيم بن سيار النظام، أستاذ الجاحظ، و رئيس فرقة من فرق المعتزلة. قال إن الأجسام تتجزأ إلى ما لا نهاية، كما قال بالطفرة و الكمون. و قد روى الجاحظ الكثير من آرائه و أقواله. توفي سنة 221 هـ على الأرجح.

خالد بن صفوان

و من الخطباء المشهورين في العوامّ، و المقدمين في الخواصّ: خالد بن صفوان الأهتمي، زعموا جميعا أنه كان عند أبي العباس أمير المؤمنين و كان من سمّاره و أهل المنزلة عنده، ففخر عليه ناس من بلحارث بن كعب و أكثروا في القول، فقال أبو العباس: لم لا تتكلم يا خالد؟فقال: أخوال أمير المؤمنين و أهله قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين و عصبته فقل. قال خالد: «و ما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد، و دابغ جلد، و سائس قرد، و راكب عرد (1) ، دل عليهم هدهد، و غرّقتهم فأرة، و ملكتهم امرأة» . فلئن كان خالد قد فكر و تدبر هذا الكلام إنه للراوية الحافظ، و المؤلف المجيد، و لئن كان هذا شيئا حضره حين حرّك و بسط فما له نظير في الدنيا.

فتأمل هذا الكلام فإنك ستجده مليحا مقبولا، و عظيم القدر جليلا. و لو خطب اليماني بلسان سحبان وائل حولا كريتا (2) ، ثم صكّ بهذه الفقرة ما قامت له قائمة.

و كان أذكر الناس لأول كلامه، و أحفظهم لكل شيء سلف من منطقه.

و قال مكيّ بن سوادة في صفته له:

عليم بتنزيل الكلام ملقّن # ذكور لما سدّاه أول أولا

يبذّ قريع القوم في كل محفل # و إن كان سحبان الخطيب و دغفلا

ترى خطباء الناس يوم ارتجاله # كأنهم الكروان عاين أجدلا

الكروان: جمع كروان، و هو ذكر الحبارى. و الأجدل: الصقر و كان يقارض شبيب بن شيبة، لاجتماعهما على القرابة و المجاورة و الصناعة، فذكر شبيب مرة عنده فقال: «ليس له صديق في السر، و لا عدو في العلانية» . و هذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة.

---

(1) العرد: الحمار.
(2) حول كريت: تام.

و كان خالد جميلا و لم يكن بالطويل، فقالت له امرأته: إنك لجميل يا أبا صفوان. قال: و كيف تقولين هذا و ما فيّ عمود الجمال و لا رداؤه و لا برنسه.

فقيل له: ما عمود الجمال؟فقال: الطول، و لست بطويل، و رداؤه البياض، و لست بأبيض، و برنسه سواد الشعر، و أنا أشمط، و لكن قولي: إنك لمليح ظريف.

و خالد يعد في الصلعان، و لكلام خالد كتاب يدور في أيدي الورّاقين.

خطباء ضبة

و كان الأزهر بن عبد الحارث بن ضرار بن عمرو الضبي، عالما ناسبا.

و من خطباء بني ضبة: حنظلة بن ضرار، و قد أدرك الإسلام و طال عمره حتى أدرك يوم الجمل، و قيل له: ما بقي منك؟قال: «أذكر القديم و أنسى الحديث، و آرق بالليل، و أنام وسط القوم» .

و من خطباء بني ضبة و علمائهم: مثجور بن غيلان بن خرشة، و كان مقدّما في المنطق، و هو الذي كتب إلى الحجاج: «إنهم قد عرضوا عليّ الذهب و الفضة، فما ترى أن آخذ؟» قال: «أرى أن تأخذ الذهب» . فذهب عنه هاربا ثم قتله بعد. و ذكره القلاخ بن حزن المنقري فقال:

أمثال مثجور قليل و مثله # فتى الصدق إن صفّقته كل مصفق

و ما كنت أشريه بدنيا عريضة # و لا بابن خال بين غرب و مشرق

إذا قال بذ القائلين مقاله # و يأخذ من أكفائه بالمخنّق

خطباء الخوارج

و من الخطباء الخوارج، قطريّ بن الفجاءة (1) ، و له خطبة طويلة

(1) قطري بن الفجاءة المازني، زعيم الخوارج زمن مصعب بن الزبير و الحجاج بن يوسف الثقفي. ظل يقاتل الجيوش الأموية عشرين سنة.

مشهورة، و كلام كثير محفوظ، و كانت له كنيتان: كنية في السلم، و هي أبو محمد، و كنية في الحرب، و هي أبو نعامة.

و كانت كنية عامر بن الطفيل في الحرب غير كنيته في السلم: كان يكنى في الحرب بأبي عقيل، و في السلم بأبي عليّ.

و كان يزيد بن مزيد (1) يكنى في السلم بأبي خالد، و في الحرب بأبي الزبير.

و قال مسلم بن الوليد الأنصاري:

لو لا سيوف أبي الزبير و خيله # نشر الوليد بسيفه الضحّاكا

و فيه يقول:

لو لا يزيد و أيام سلفت # عاش الوليد مع الغاوين أعواما

سلّ الخليفة سيفا من بني مطر # يمضي فيخترق الأجسام و الهاما

إذا الخلافة عدت كنت أنت لها # عزا و كان بنو العباس حكّاما

أ لا تراه قد ذكر قتل الوليد! و قد كان خالد بن يزيد اكتنى بها في الحرب، في بعض أيامه بمصر.

و هذا الباب مستقصى مع غيره في أبواب الكنى و الأسماء، و هو وارد عليكم إن شاء اللّه.

و من خطباء الخوارج: ابن صديقة، و هو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة، و كان صفريا، و كان خطيبا ناسبا، و يشوب ذلك ببعض الظرف و الهزل.

---

(1) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني نسيب معن بن زائدة، أمير شجاع ولاه الرشيد على أرمينية و قاتل الوليد بن طريف الشيباني الخارجي و قتله سنة 179 هـ.

و من علماء الخوارج: شبيل بن عزرة الضبعي، صاحب الغريب. و كان راوية خطيبا، و شاعرا ناسبا، و كان سبعين سنة رافضيا ثم انتقل خارجيا صفريا.

و من علماء الخوارج: الضحّاك بن قيس الشيباني، و يكنى أبا سعيد، و هو الذي ملك العراق، و سار في خمسين ألفا، و بايعه عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز، و سليمان بن هشام، و صليا خلفه، و قال شاعرهم:

أ لم تر أن اللّه أظهر دينه # و صلّت قريش خلف بكر بن وائل

و كان ابن عطاء الليثي يسامر الرشيد، و كان صاحب أخبار و أسمار و علم بالأنساب، و كان أظرف الناس و أحلاهم.

و كان عبد العزيز بن عبد اللّه بن عامر بن كريز، راوية ناسبا، و عالما بالعربية فصيحا.

عبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر

و كان عبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر من أبين الناس و أفصحهم.

و كان مسلمة عبد الملك يقول: إني لأنحّي كور العمامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى.

و كانوا يقولون: أشبه قريش نغمة و جهارة بعمرو بن سعيد، عبد الأعلى ابن عبد اللّه بن عامر.

قال: و قال بعض الأمراء-و أظنه بلال بن أبي بردة لأبي نوفل الجارود بن أبي سبرة: ما ذا تصنعون عند عبد الأعلى إذا كنتم عنده؟قال: يشاهدنا بأحسن استماع، و أطيب حديث، ثم يأتي الطباخ فيمثل بين يديه فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندي لون كذا و كذا و جدي كذا، و دجاجة كذا، و من الحلواء كذا.

قال: و لم يسأل عن ذلك؟قال: ليقصر كل رجل عما لا يشتهي، حتى يأتيه ما يشتهي. ثم يأتون بالخوان فيتضايق و تتسع، و يقصّر و نجتهد، فإذا شبعنا

خوّى تخوية الظليم (1) ، ثم أقبل يأكل أكل الجائع المقرور. قال: و الجارود هو الذي قال: «سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل» . و هو الذي قال: «عليكم بالمربد (2) ، فإنه يطرد الفكر، و يجلو البصر، و يجلب الخبر، و يجمع بين ربيعة و مضر» .

قال: و صعد عثمان المنبر فأرتج عليه، فقال: «إن أبا بكر و عمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالا، و أنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب، و ستأتيكم الخطب على وجهها، و تعلمون إن شاء اللّه» .

الأبرش الكلبي

قال: و شخص يزيد بن عمر بن هبيرة إلى هشام بن عبد الملك فتكلم، فقال هشام: ما مات من خلف هذا. فقال الأبرش الكلبي: ليس هناك، أ ما تراه يرشح جبينه لضيق صدره!قال يزيد: ما لذلك رشح و لكن لجلوسك في هذا الموضع.

و كان الأبرش ثلاّبة نسّابة، و كان مصاحبا لهشام بن عبد الملك، فلما أفضت إليه الخلافة سجد و سجد من كان عنده من جلسائه، و الأبرش شاهد لم يسجد. فقال له: ما منعك أن تسجد يا أبرش؟قال: و لم أسجد و أنت اليوم معي ماشيا، و غدا فوقي طائرا. قال: فإن طرت بك معي؟قال: أتراك فاعلا؟قال: نعم. قال: فالآن طاب السجود.

قال: و دخل يزيد بن عمر على المنصور و هو يومئذ أمير، فقال: «يا أيها الأمير، إن عهد اللّه لا ينكث، و عقده لا يحل، و إن إمارتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها، و جنبوهم مرارتها» .

قال سهل بن هارون: دخل قطرب النحوي على المخلوع فقال: يا أمير

---

(1) الظليم: ذكر النعام. التخوية: أن يفرج ما بين عضديه و جنبيه.
(2) المربد: سوق من أسواق العرب، بالقرب من البصرة.

المؤمنين، كانت عدتك أرفع من جائزتك-و هو يتبسم-قال سهل: فاغتاظ الفضل بن الربيع، فقلت له: إن هذا الحصر و الضعف، و ليس هذا من الجلد و القوة. أ ما تراه يفتل أصابعه، و يرشح جبينه.

قال: و قال عبد الملك بن سلمة المخزوميّ: من أخطب الناس؟قال أنا. قال: ثم من؟قال: سيد جذام-يعني روح بن زنباع-قال: ثم من؟ قال: أخيفش ثقيف-يعني الحجاج-قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين.

قال: ويحك، جعلتني رابع أربعة. قال: نعم، هو ما سمعت.

و من خطباء الخوارج و علمائهم و رؤسائهم في الفتيا، و شعرائهم، و رؤساء قعدهم: عمران بن حطّان. و من علمائهم و شعرائهم و خطبائهم:

حبيب بن خدرة الهلالي، و عداده في بني شيبان.

و ممن كان يرى رأي الخوارج: أبو عبيدة النحويّ معمر بن المثنى، مولى تيم بن مرة. و لم يكن في الأرض خارجي و لا جماعي أعلم بجميع العلم منه.

و ممن كان يرى رأي الخوارج: الهيثم بن عدي الطائي ثم البحتريّ.

و ممن كان يرى رأي الخوارج: شعيب بن رئاب الحنفي، أبو بكار، صاحب أحمد بن أبي خالد، و محمد بن حسان السكسكيّ.

و من الخوارج من علمائهم و رؤسائهم: مسلم بن كورين، و كنيته أبو عبيدة و كان إباضيا، و من علماء الصفرية.

و ممن كان مقنعا في الأخبار لأصحاب الخوارج و الجماعة جميعا: مليل، و أظنه من بني تغلب. و من أهل هذه الصفة أصفر بن عبد الرحمن، من أخوال طوق بن مالك.

و من خطبائهم و فقهائهم و علمائهم: المقعطل، قاضي عسكر الأزارقة، أيام قطريّ.

و من شعرائهم و رؤسائهم و خطبائهم: عبيدة بن هلال اليشكري.

و كان في بني السّمين من بني شيبان، خطباء العرب، و كان ذلك فيهم فاشيا، و لذلك قال الأخطل:

فأين السمين لا يقوم خطيبها # و أين ابن ذي الجدّين لا يتكلم

و قال سحيم بن حفص: كان يزيد بن عبد اللّه بن رؤيم الشيباني من أخطب الناس، خطب عند يزيد بن الوليد، فأمر للناس بعطاءين.

و من الخطباء معبد بن طوق العنبري، دخل على بعض الأمراء فتكلم و هو قائم فأحسن، فلما جلس تتعتع في كلامه فقال له: ما أظرفك قائما، و أموقك قاعدا!قال: إني إذا قمت جددت، و إذا قعدت هزلت. قال: ما أحسن ما خرجت منها.

و من خطباء عبد القيس: مصقلة بن رقبة، و رقبة بن مصقلة، و كرب بن رقبة.

و العرب تذكر من خطب العرب «العجوز» و هي خطبة لآل رقبة، و متى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها. و «العذراء» و هي خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عذرها. و «الشوهاء» ، و هي خطبة سحبان وائل، و قيل لها ذلك من حسنها، و ذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر و لم يخطب خطيب.

و كان ابن عمار الطائي خطيب مذحج كلها، فبلغ النعمان حديثه فحمله على منادمته، و كان النعمان أحمر العينين، أحمر الجلد أحمر الشعر، و كان شديد العربدة قتالا للندماء، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته، فلما قتله رثاه فقال:

إني نهيت ابن عمار و قلت له # لا تأمنن أحمر العينين و الشعره

إن الملوك متى تنزل بساحتهم # تطر بنارك من نيرانهم شرره

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا # و منطقا مثل وشي اليمنة الحبره

قال الأصمعي: و هو كقوله:

و منطق خرّق بالعواسل # لذ كوشي اليمنة المراحل [1]

الزبرقان بن بدر

قال: و سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله عمرو بن الأهتم عن الزّبرقان بن بدر، فقال:

«إنه لمانع لحوزته، مطاع في أدنيه» . قال الزبرقان: إنه يا رسول اللّه ليعلم مني أكثر مما قال، و لكنه حسدني شرفي، فقصر بي. قال عمرو: «هو و اللّه زمر المروءة، ضيّق العطن، لئيم الخال» . فنظر النبي صلّى اللّه عليه و آله في عينيه، فقال:

«يا رسول اللّه، رضيت فقلت أحسن ما علمت، و غضبت فقلت أقبح ما علمت، و ما كذبت في الأولى و لقد صدقت في الآخرة» . فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

«إن من البيان لسحرا» .

قال: و تكلم رجل في حاجة عند عمر بن عبد العزيز: و كانت حاجته في قضائها مشقة، فتكلم الرجل بكلام رقيق موجز، و تأتّى لها، فقال عمر: و اللّه إن هذا للسحر الحلال.

و من أصحاب الأخبار و الآثار أبو بكر بن عبد اللّه بن محمد بن أبي سبرة [2] ، و كان القاضي قبل أبي يوسف.

و من أصحاب الأخبار: أبو هنيدة و أبو نعامة، العدويان.

أيوب بن القرية

و من الخطباء: أيوب بن القرّيّة، و هو الذي دخل على الحجاج قال له:

ما أعددت لهذا الموقف؟قال: «ثلاثة حروف، كأنهن ركب وقوف: دنيا

---

(1) العواسل: الرماح اللدية. المراحل: التي نقش فيها تصاوير الرحال.

(2) أبو بكر بن سبرة فقيه المدينة و مفتيها، قدم بغداد و استقضاه المهدي عليها، و لما توفي سنة 162 هـ خلفه أبو يوسف في القضاء.

و آخرة و معروف» . ثم قال له في بعض القول: «أقلني عثرتي، و أسغني ريقي، فإنه لا بد للجواد من كبوة، و للسيف من نبوة، و للحليم من هفوة» .

قال: كلا و اللّه حتى أوردك نار جهنم. أ لست القائل برستقاباد: تغدّوا الجدي قبل أن يتعشاكم؟ و قال: و من خطباء غطفان في الجاهلية: خويلد بن عمرو، و العشراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سميّ بن مازن بن فزارة. و خويلد خطيب يوم الفجار.

بنو الكواء

و من أصحاب الأخبار و النسب و الخطب و أهل البيان: الوضاح بن خيثمة.

و من أصحاب الأخبار و النسب و الخطب و الحكم عند أصحاب النفورات (1) بنو الكوّاء، و إياهم يعني مسكين بن أنيف الدارمي، حين ذكر أهل هذه الطبقة فقال:

كلانا شاعر من حيّ صدق # و لكنّ الرحى فوق الثفال

و حكّم دغفلا و ارحل إليه # و لا ترح المطيّ من الكلال

تعال إلى بني الكوّاء يقضوا # بعلمهم بأنساب الرجال

هلم إلى ابن مذعور شهاب # ينبّئ بالسوافل و العوالي

و عند الكيّس النمري علم # و لو أضحى بمنخرق الشمال

كعب بن لؤي

و من الخطباء القدماء: كعب بن لؤي، و كان يخطب على العرب عامة، و يحض كنانة على البرّ، فلما مات أكبروا موته، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي إلى عام الفيل.

(1) النفورة: الحكومة.

شبيب بن شيبة

و من الخطباء العلماء الأبيناء، الذين جروا من الخطابة على أعراق قديمة: شبيب بن شيبة، و هو الذي يقول في صالح بن أبي جعفر المنصور و قد كان المنصور أقام صالحا فتكلم، فقال شبيب: «ما رأيت كاليوم أبين بيانا، و لا أجود لسانا، و لا أربط جنانا، و لا أبلّ ريقا، و لا أحسن طريقا، و لا أغمض عروقا من صالح. و حق لمن كان أمير المؤمنين أباه، و المهدي أخاه، أن يكون كما قال زهير:

يطلب شأو أمرين قدّما حسنا # نالا الملوك و بذّا هذه السّوقا [1]

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما # على تكاليفه فمثله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل # فمثل ما قدما من صالح سبقا [2]

قال: و خرج شبيب من دار الخليفة يوما فقال له قائل: كيف رأيت الناس؟قال: رأيت الداخل راجيا و الخارج راضيا.

قال: و قال خالد بن صفوان: «اتقوا مجانيق البغضاء» ، يريد الدعاء.

قال: و قال شبيب بن شيبة: «أطلب فإنه دليل على المروءة، و زيادة في العقل، و صاحب في الغربة، و صلة في المجلس» .

و قال شبيب للمهدي يوما: «أراك اللّه في بنيك ما أرى أباك فيك، و أرى اللّه بنيك فيك ما أراك في أبيك» .

و قال أبو الحسن: قال زيد بن علي بن الحسين: «أطلب ما يعنيك و اترك ما لا يعنيك، فإن في ترك ما لا يعنيك دركا لما يعنيك، و إنما تقدم على ما قدمت، و لست تقدم على ما أخرت. فآثر ما تلقاه غدا، على ما لا تراه أبدا» .

---

(1) الشأو: السبق. بذ: غلب. السوق: جمع سوقة، و هم أوساط الناس.

(2) المهل: التقدم. يعني هو معذور أن سبقاه لأنهما أخذا مهلة قبله فتقدماه.

أبو الحسن، عن إبراهيم بن سعد قال: قال خالد بن صفوان: «ما الإنسان لو لا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملة» .

خطباء قريش

أبو الحسن قال: كان أبو بكر خطيبا، و كان عمر خطيبا، و كان عثمان خطيبا و كان عليّ أخطبهم. و كان من الخطباء: معاوية، و يزيد، و عبد الملك، و معاوية بن يزيد، و مروان، و سليمان، و يزيد بن الوليد، و الوليد بن عبد الملك و عمر بن عبد العزيز. و من خطباء بني هاشم: زيد بن علي، و عبد اللّه بن الحسن، و عبد اللّه بن معاوية، خطباء لا يجارون. و من خطباء النساك و العباد: الحسن بن أبي الحسن البصري، و مطرف بن عبد اللّه الحرشي، و مورّق العجلي و بكر بن عبد اللّه المزني، و محمد بن واسع الأزديّ، و يزيد بن أبان الرّقاشي و مالك بن دينار السامي.

و ليس الأمر كما قال، في هؤلاء القاص المجيد، و الواعظ البليغ، و ذو المنطق الوجيز. فأما الخطب فإنّا لا نعرف أحدا يتقدم الحسن البصري فيها.

و هؤلاء و إن لم يسموا خطباء فإن الخطيب لم يكن يشق غبارهم.

أبو الحسن قال: حدثني أبو سليمان الحميريّ قال: كان هشام بن عبد الملك يقول: إني لأستصفق العمامة الرقيقة تكون على أذني إذا كان عندي عبد الأعلى بن عبد اللّه، مخافة أن يسقط عني من حديثه شيء.

و من الخطباء من بني عبد اللّه بن غطفان: أبو البلاد (1) ، كان راوية ناسبا. و منهم هاشم بن عبد الأعلى الفزاريّ و من الخطباء: حفص بن معاوية الغلابي و كان خطيبا، و هو الذي قال حين أشرك سليمان بن علي بينه و بين مولى له على دار القتب: أشركت بيني و بين غير الكفيّ، و وليتني غير السنيّ» .

(1) أبو البلاد الكوفي راوية طلق اللسان رغم عماه عاش زمن الدولة الأموية و عاصر جريرا الفرزدق.

خطباء بني هلال بن عامر

و من بني هلال بن عامر: زرعة بن ضمرة، و هو الذي قيل فيه: «لو لا غلو فيه ما كان كلامه إلا الذهب» . و قام عند معاوية بالشام خطيبا فقال معاوية:

يا أهل الشام هذا خالي فائتوني بخال مثله. و كان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة، من أخطب الناس، و هو أحد من كان تخلص من الحجاج من فلّ بن الأشعث بالكلام اللطيف.

و قال سحيم بن حفص: و من الخطباء عاصم بن عبد اللّه بن يزيد الهلالي تكلم هو و عبد اللّه بن الأهتم، عند عمر بن هبيرة، ففضل عاصما عليه. قال سحيم: فقال قائل يومئذ: الخل حامض ما لم يكن ماء.

خطباء تميم

و من خطباء بني تميم: عمرو بن الأهتم. كان يدعى «المكحّل» لجماله، و هو الذي قيل فيه: إنما شعره حلل منشرة بين أيدي الملوك، تأخذ منه ما شاءت. و لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه.

و من بني منقر: عبد اللّه بن الأهتم، و كان خطيبا ذا مقامات و وفادات.

و من الخطباء: صفوان بن عبد اللّه بن الأهتم، و كان خطيبا رئيسا، و ابنه خالد ابن صفوان، و قد وفد إلى هشام، و كان من سمار أبي العباس.

و منهم: عبد اللّه بن عبد اللّه بن الأهتم، و قد ولي خراسان، و وفد على الخلفاء، و خطب عند الملوك. و من ولده شبيب بن شيبة بن عبد اللّه بن عبد اللّه بن الأهتم، و عبد اللّه بن عبد اللّه بن عبد اللّه بن الأهتم، و خاقان بن الأهتم هو عبد اللّه بن عبد اللّه بن عبد اللّه بن الأهتم.

و من خطبائهم: محمد الأحول بن خاقان، و كان خطيب بني تميم، و قد رأيته و سمعت كلامه.

و من خطبائهم: معمر بن خاقان و قد وفد.

و من خطبائهم: مؤمّل بن خاقان. و قال أبو الزبير الثقفي: ما رأيت خطيبا من خطباء الأمصار أشبه بخطباء البادية، من المؤمّل بن خاقان.

و من خطبائهم: خاقان بن المؤمل بن خاقان، و كان صباح بن خاقان، ذا علم و بيان و معرفة، و شدة عارضة، و كثرة رواية، مع سخاء و احتمال و صبر على الحق، و نصرة للصديق، و قيام بحق الجار.

و من بني منقر: الحكم بن النضر، و هو أبو العلاء المنقري، و كان يصرّف لسانه حيث شاء، بجهارة و اقتدار.

و من خطباء بني صريم بن الحارث: الخزرج بن الصدي.

و من خطباء بني تميم ثم من مقاعس: عمارة بن أبي سليمان. و من ولد مالك بن سعد: عبد اللّه و جبر ابنا حبيب، كانا ناسبين عالمين أديبين دينين.

و من ولد مالك بن سعد: عبد اللّه العباس ابنا رؤبة، و كان العباس علاّمة عالما، ناسبا راوية، و كان عبد اللّه أرجز الناس و أفصحهم، و كان يكنى أبا الشعشاء، و هو العجّاج.

أصحاب الأخبار

و من أصحاب الأخبار و النسب: أبو بكر الصديق، رحمة اللّه عليه، ثم جبير بن مطعم، ثم سعيد بن المسيب، ثم قتادة، و عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة المسعودي الذي قال في كلمة له في عمر بن عبد العزيز، و عبد اللّه بن عمرو بن عثمان بن عفان:

مسّا تراب الأرض منه خلقتما # و فيه المعاد و المصير إلى الحشر

و لا تأنفا أن ترجعا فتسلّما # فما حشي الإنسان شرا من الكبر

فلو شئت أدلي فيكما غير واحد # علانية أو قال عندي في سرّ

فإن أنا لم آمر و لم أنه عنكما # ضحكت له حتى يلجّ و يستشري

و هو الذي قيل له كيف تقول الشعر مع النّسك و الفقه؟قال: «إن المصدور لا يملك أن ينفث» .

و قد ذكر المصدور أبو زبيد الطائي في صفة الأسد فقال:

للصدر منه عويل فيه حشرجة # كأنما هو من أحشاء مصدور

خطباء هذيل

و من خطباء هذيل: أبو المليح الهذلي أسامة بن عمير، و منهم أبو بكر الهذلي، كان خطيبا قاصا، و عالما بيّنا، و عالما بالأخبار و الآثار. و هو الذي لما فخر أهل الكوفة قال: «لنا الساج و العاج، و الديباج و الخراج، و النهر العجّاج» .

خطباء قحطان

ذكر أسماء الكهان و الحكام و الخطباء و العلماء من قحطان.

قالوا: أكهن العرب و أسجعهم سلمة بن أبي حيّة، و هو الذي يقال له عزّى سلمة. و منهم من خطباء عمان: مرّة بن فهم التليد، و هو الخطيب الذي أوفده المهلب إلى الحجاج.

و من العتيك: بشر بن المغيرة بن أبي صفرة، و هو الذي قال لبني المهلّب «يا بني عمي، إني و اللّه قد قصّرت عن شكاة العاتب، و جاوزت شكاة المستعتب، حتى كأني لست موصولا و لا محروما، فعدوني امرأ خفتم لسانه، أو رجوتم شكره. و إني و إن قلت هذا فلما أبلاني اللّه بكم أعظم مما أبلاكم بي» .

و من خطباء اليمن ثم من حمير: الصباح بن شفي الحميريّ، كان أخطب العرب. و منهم ثم من الأنصار: قيس بن شمّاس. و منهم: ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي صلّى اللّه عليه و آله. و منهم: روح بن زنباع، و هو الذي لما همّ به معاوية قال: «لا تشتمن بي عدوا أنت و قمته (1) ، و لا تسوءن فيّ صديقا أنت

(1) وقم : قهر و أذل.

سررته، و لا تهدمن مني ركنا أنت بنيته. هلا أتى حلمك و إحسانك على جهلي و إساءتي» .

و من خطبائهم الأسود بن كعب، الكذّاب العنسيّ (1) . و كان طليحة (2)

خطيبا و شاعرا و سجّاعا كاهنا ناسبا. و كان مسيلمة الكذاب (3) بعيدا من ذلك كله.

و ثابت بن قيس بن شماس هو الذي قال لعامر، حين قال: أما و اللّه لئن تعرضت لعنّي و فنّي، و ذكاء سنّي (4) لتولينّ عني» ، فقال له ثابت: «أما و اللّه لئن تعرضت لسبابي، و شبا أنيابي (5) ، و سرعة جوابي، لتكرهن جنابي» قال:

فقال النبي صلّى اللّه عليه و آله: «يكفيك اللّه و ابنا قيلة» .

لعني: أي لما يعن لي و يعرض. فني: مذهبي في الفن.

و أخذت هذا الحديث من رجل يضع الأخبار فأنا أتهمه.

و من خطباء الأنصار: بشر بن عمرو بن محصنة، و هو أبو عمرة الخطيب.

و من خطباء الأنصار: سعد بن الربيع، و هو الذي اعترضت ابنته النبي صلّى اللّه عليه و آله، فقال لها: من أنت؟قالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد: سعد بن الربيع. و منهم خال حسان بن ثابت، و فيه يقول حسان:

---

(1) الأسود بن كعب من بني عبس بن مالك، تنبأ باليمن و قتله قيس بن مكشوح المرادي سنة 11 هـ. كان يركب حمارا راضه يأمره أن يجثو فيجثو فدعي بذي الحمار.

(2) طليحة بن خويلد الأسدي الخزيمي، تنبأ في قبيلته فوجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد فهزمه و استسلم و أسلم سنة 11 هـ و مات بها سنة 21 هـ.

(3) ذكاء السن: تمامه.

(4) شبا الأنياب: حدها.

(5) مسيلمة الكذاب هو ثمامة بن مسيلمة بن حبيب الحنفي من أهل اليمامة، تنبأ و أتى بأسجاع عارض بها القرآن مثل: و الشمس و ضحاها، في ضوئها و مجلاها، و الليل إذا عداها، يطلبها ليغشاها فأدركها حتى آتاها و أطفأ نورها و محاها» . و قوله: «يا ضفدع نقي نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين و لا الشرب تمنعين» . وجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد فهزمه و قتله.

إن خالي خطيب جابية الجو # لان عند النعمان حين يقوم

و إياه يعني حسان بقوله:

ربّ خال لي لو أبصرته # سبط المشية في اليوم الخصر

و منهم من الرواة و النسابين و العلماء: شرقي بن القطامي الكلبي، و محمد ابن السائب الكلبي، و عبد اللّه عياش الهمداني، و هشام بن محمد بن السائب الكلبي. و الهيثم بن عدي الطائي، و أبو رق الهمداني و اسمه عطية بن الحارث، و أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي، و محمد بن عمر الأسلمي الواقدي، و عوانة الكلبي، و ابن أبي عيينة المهلّبي، و الخليل بن أحمد الفراهيدي، و خلف بن حيان الأحمر الأشعري.

قالوا: و منا في الجاهلية عبيد بن شريّة، و منا شقّ بن الصعب، و منا ربيع ابن ربيعة السطيح الذئبي.

و منا المأمور الحارثي، و الديّان بن عبد المدان، الشريفان الكاهنان و منهم عمرو بن حنظلة بن نهد الحكم، و له يقول القائل:

عمرو بن حنظلة بن نهد # من خير ناس في معد

و منهم أبو السطّاح اللخمي، و جمع معاوية بينه و بين دغفل بن حنظلة البكري. و منهم أبو الكباس الكندي، و منهم أظفر بن مخوس الكندي و كانا ناسبين عالمين.

و من أصحاب الأخبار و الآثار عبد اللّه بن عقبة بن لهيعة و يكنى أبا عبد الرحمن.

و من القدماء في الحكمة و الرئاسة و الخطابة عبيد بن شريّة الجرهمي، و أسقف نجران، و أكيدر صاحب دومة الجندل، و أفيعي نجران و ذرب بن حوط، و عليم بن جناب و عمرو بن ربيعة–و هو لحي–بن حارثة بن عمرو مزيقياء.

و جذيمة بن مالك الأبرش، و هو أول من أسرج الشّمع و رمى بالمنجنيق.

ذكر النساك و الزهاد من أهل البيان

عامر بن عبد قيس، وصلة بن أشيم (1) ، و عثمان بن أدهم، و صفوان بن محرز (2) و الأسود بن كلثوم، و الربيع بن خشيم (3) ، و عمرو بن عتبة بن فرقد (4) ، و هرم بن حيّان، و مؤرّق العجلي، و بكر بن عبد اللّه المزني، و مطرّف ابن عبد اللّه بن الشخّير الحرشيّ.

و بعد هؤلاء: مالك بن دينار، و حبيب أبو محمد (5) ، و يزيد الرقاشي، و صالح المريّ، و أبو حازم الأعرج (6) ، و زياد مولى عياش بن أبي ربيعة (7) ، و عبد الواحد بن زيد، و حيان أبو الأسود، و دهثم أبو العلاء.

و من النساء: رابعة القيسية (8) ، و معاذة العدوية امرأة صلة بن أشيم و أم الدرداء (9) .

و من نساء الخوارج: البلجاء، و غزالة (10) ، و قطام، و حمّادة، و كحيلة، و من نساء الغالية: ليلى الناعظية، و الصّدوف، و هند.

---

(1) هو صلة بن أشيم العدوي، تنسك و تزوج من الناسكة معاذة العدوية، و استشهد في غزاة جرت بعيد تولية الحجاج على العراق سنة 75 هـ.
(2) صفوان بن محرز المازني البصري، كان زاهدا راوية فقيها توفي عام 74 هـ.
(3) الربيع بن خشيم الثوري الكوفي من التابعين الثقات المتعبدين توفي عام 63 هـ.
(4) هو عمرو بن عتبة بن فرقد السلمي الكوفي روى مثل صفوان و الربيع عن ابن مسعود و قتل في تستر في خلافة عثمان.
(5) هو حبيب بن محمد البصري العجمي الأصل، زاهد مشهور أخذ عن الحسن البصري و ابن سيرين و أخذ عنه حماد.
(6) هو سلمة بن دينار الأعرج المدني مولى الأسود المخزومي. كان قاصا و محدثا ثقة. توفي سنة 140 هـ.
(7) زياد بن أبي زياد ميسرة، زاهد كان عمر بن عبد العزيز يكرمه و طلبه من مولاه فأعتقه توفي سنة 135 هـ.
(8) رابعة القيسية: هي رابعة بنت إسماعيل العدوية القيسية البصرية، زاهدة مشهورة ورعة توفيت سنة 135 هـ.
(9) أم الدرداء زوجة أبي الدرداء الصحابي. كانت متعبدة زاهدة.
(10) غزالة الشيبانية زوج شبيب بن يزيد الشيباني. اشتهرت بتقاها و شجاعتها حتى خافها الحجاج.

و ممن كان من النساك ممن أدركناه: أبو الوليد، و هو الحكم الكندي، و محمد بن محمد الحمراوي.

و من القدماء ممن يذكر بالقدر و الرئاسة، و البيان و الخطابة و الحكمة و الدهاء و النكراء: لقمان بن عاد، و لقيم بن لقمان، و مجاشع بن دارم، و سليط بن كعب بن يربوع، سموه بذلك لسلاطة لسانه. و قال جرير:

إن سليطا كاسمه سليط

و لؤي بن غالب، و قس بن ساعدة، و قصي بن كلاب.

و من الخطباء البلغاء و الحكام الرؤساء: أكثم بن صيفي، و ربيعة بن حذار، و هرم بن قطبة، و عامر بن الظّرب، و لبيد بن ربيعة، و كان من الشعراء.

أسماء الصوفية من النساك ممن كان يجيد الكلام

كلاب، و كليب، و هاشم الأوقص، و أبو هاشم الصوفيّ، و صالح بن عبد الجليل.

و من القدماء العلماء بالنسب و بالعرب: الخطفي و هو جد جرير بن عطية ابن الخطفي، و هو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع.

و إنما سمي الخطفي لأبيات قالها، و هي:

يرفعن بالليل إذا ما أسدفا # أعناق جنّان و هاما رجّفا

و عنقا باقي الرسيم خيطفا

العنق: ضرب من السير، و هو المسبطر، فإذا ارتفع عن العنق قليلا فهو التزيّد، فإذا ارتفع عن ذاك فهو الذّميل. و الرسيم فوق الذميل. و الخيطف:

السريع، أي يخطف كما يخطف البرق. و خيطف من الخطف، و الياء في خيطف زائدة، كما قالوا رجل صيرف من الصرف، و رجل جيدر من الجدر و هو القصر. و أصل الخطف الأخذ في سرعة ثم استعير لكل سريع.

ذكر القصاصالأبيناء

قصّ الأسود بن سريع، و هو الذي قال:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة # و إلا فإني لا أخالك ناجيا

و قص الحسن و سعيد ابنا أبي الحسن. و كان جعفر بن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة و أقرأ القرآن في مسجد البصرة و قص إبراهيم التيمي. و قص عبيد بن عمر الليثيّ و جلس إليه عبد اللّه بن عمر. حدثني بذلك عمرو بن فائد بإسناد له.

و من القصاص: أبو بكر الهذلي و هو عبد اللّه بن سلمى، و كان بيّنا خطيبا صاحب أخبار و آثار. و قص مطرّف بن عبد اللّه بن الشخير في مكان أبيه. و من كبار القصاص ثم من هذيل: مسلم بن جندب و كان قاص مسجد النبي صلّى اللّه عليه و آله بالمدينة، و كان إمامهم و قارئهم، و فيه يقول عمر بن عبد العزيز: «من سره أن يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب» .

و من القصاص: عبد اللّه بن عرادة بن عبد اللّه بن الوضين، و له مسجد في بني شيبان.

و من القصاص: موسى بن سيّار الاسواري، و كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، و كان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه، و الفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب اللّه و يفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين. و اللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكرناه من لسان موسى بن سيار الأسواري.

و لم يكن في هذه الأمة بعد أبي موسى الأشعري أقرأ في محراب من موسى بن سيار ثم عثمان بن سعيد بن أسعد، ثم يونس النحوي، ثم

المعلى. ثم قص في مسجده أبو علي الاسواري، و هو عمرو بن فائد (1) ، ستا و ثلاثين سنة، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة، فما ختم القرآن حتى مات، لأنه كان حافظا للسير، و لوجوه التأويلات فكان ربما فسر آية واحدة في عدة أسابيع، كأن الآية ذكر فيها يوم بدر، و كان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك الأحاديث كثيرا. و كان يقص في فنون من القصص، و يجعل للقرآن نصيبا من ذلك. و كان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب، و يحتجّ به. و خصاله المحمودة كثيرة.

ثم قص من بعده القاسم بن يحيى، و هو أبو العباس الضرير، لم يدرك في القصاص مثله. و كان يقص معهما. و بعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف، و يزعمون أن أبا عليّ لم تسمع منه كلمة غيبة قط، و لا عارض أحدا قط من المخالفين و الحساد و البغاة بشيء من المكافأة.

فأما صالح المري، فكان يكنى أبا بشر، و كان صحيح الكلام رقيق المجلس. فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب (2) ، لما دخل البصرة و توارى عند مرحوم العطار قال له مرحوم: هل لك أن تأتي قاصّا عندنا هاهنا، فتتفرّج بالخروج و النظر إلى الناس، و الاستماع منه؟فأتاه على تكرّه، كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه، فلما أتاه و سمع منطقه، و سمع تلاوته للقرآن، و سمعه يقول حدثنا شعبة (3) عن قتادة، و حدثنا قتادة عن الحسن، رأى بيانا لم يحتسبه، و مذهبا لم يكن يظنّه، فأقبل سفيان على مرحوم فقال: ليس هذا قاصّا، هذا نذير!

---

(1) هو عمرو بن قائد الاسواري معتزلي أخذ عن عمرو بن عبيد و اتصل بأمير البصرة محمد بن سليمان. مات بعد سنة 200 هـ بقليل.

(2) سفيان بن حبيب، محدث بصري ثقة، توفي سنة 183 هـ.

(3) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي الواسطي البصري، راوية و محدث كثير الرواية.
عاش بين سنتي 82-160 هـ.

ما قيل في المخاصر و العصي و غيرهما

كانت العرب تخطب بالمخاصر (1) ، و تعتمد على الأرض بالقسيّ، و تشير بالعصي و القنا. نعم حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسها، و لذلك قال الشاعر (2) :

في كفّه خيزران ريحه عبق # بكف أروع في عرنينه شمم

يغضي حياء و يغضى من مهابته # فما يكلم إلا حين يبتسم

إن قال قال بما يهوى جميعهم # و إن تكلم يوما ساخت الكلم

يكاد يمسكه عرفان راحته # ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

و قال الشاعر قولا فسر فيه ما قلنا. قال:

مجالسهم خفض الحديث و قولهم # إذا ما قضوا في الأمر وحي المخاصر

و قال الكميت بن زيد:

و نزور مسلمة المهذ # ب بالمؤبّدة السّوائر

بالمذهبات المعجبا # ت لمفحم منا و شاعر

و أهل التجاوب في المحا # فل و المقاول بالمخاصر

فهم كذلك في المجا # لس و المحافل و المشاعر

و كما قال الأنصاري في المجامع حيث يقول:

و سارت بنا سيّارة ذات سورة # بكوم المطايا و الخيول الجماهر

يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا # ملوكا بأرض الشام فوق المنابر

يصيبون فصل القول في كل خطبة # إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر

---

(1) المخاصر: جمع مخصرة، و هي ما يمسكه الإنسان بيده من عصا أو مقرعة أو عنزة أو عكازة أو قضيب.

(2) هو الفرزدق، و الأبيات من قصيدة طويلة يمدح فيها علي بن الحسين عند ما رأى الناس في موسم الحج يفسحون له الطريق لاستلام الحجر بينما لا يأبهون لهشام بن عبد الملك.

و في المخاصر و العصي و في خدّ وجه الأرض بالعصي، قال الحطيئة:

أم من لخصم مضجعين قسيّهم # صعر خدودهم عظام المفخر

و قال لبيد بن ربيعة في الإشارة:

غلب تشذّر بالذّحول كأنها # جنّ البديّ رواسيا أقدامها [1]

و قال في خد وجه الأرض بالعصي و القسي:

نشين صحاح البيد كلّ عشية # بعوج السّراء عند باب محجب

عوج: جمع عوجاء، و هي هاهنا القوس. السراء: شجر تعمل منه القسي. و في مثله يقول الشاعر:

إذا اقتسم الناس فضل الفخار # أطلنا على الأرض ميل العصا

و قال الآخر:

كتبت لنا في الأرض يوم محرّق # أيامنا في الأرض يوما فيصلا

و قال لبيد بن ربيعة في ذكر القسي:

ما إن أهاب إذا السرادق غمّه # قرع القسيّ و أرعش الرّعديد

و قال معن بن أوس المزني [2] :

ألا من مبلغ عني رسولا # عبيد اللّه إذ عجل الرّسالا

تعاقل دوننا أبناء ثور # و نحن الأكثرون حصى و مالا

إذا اجتمع القبائل جئت ردفا # وراء الماسحين لك السّبالا [3]

---

(1) الغلب: الغلاظ الأعناق. تشذر: يتوعد بعضهم بعضا. الذحول: جمع ذحل: الحقد و الثأر. البدي: موضع هوية البادية.
(2) معن بن أوس: شاعر مخضرم، عاش إلى عهد ابن الزبير و مدح عددا من الصحابة.
(3) السبال، جمع سبلة: مقدم اللحية. و مسح اللحى كناية عن التهديد و التوعد.

فلا تعطي عصا الخطباء فيهم # و قد تكفي المقادة و المقالا

فإنكم و ترك بني أبيكم # و أسرتكم تجرون الحبالا

و ودّكم العدي ممن سواكم # لكالحيران يتبع الضلالا

و مما قالوا في حمل القناة قوله:

إلى امرئ لا تخطاه الرفاق، و لا # جدب الخوان إذا ما استنشئ المرق

صلب الحيازيم لا هذر الكلام إذا # هزّ القناة و لا مستعجل زهق

و كما قال جرير بن الخطفي:

من للقناة إذا ما عي قائلها # أم للأعنة يا شبّ بن عمّار

و قال: و مثل هذا قول أبي المجيب الربعي: «ما تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة، فعند ذلك يفضحك أو يحمدك» . يقول: إذا قام يخطب.

و في كتاب جبل بن يزيد: «احفظ أخاك إلا من نفسه» .

و قال عبد اللّه بن رؤبة: سأل رجل رؤبة عن أخطب بني تميم، فقال:

«خداش بن لبيد بن بينة» يعني البعيث. و إنما قيل له البعيث لقوله:

تبعّث مني ما تبعّث بعد ما # أمرّت حبالي كل مرّتها شذرا

و زعم سحيم بن حفص أنه كان يقال: أخطب بني تميم البعيث إذ أخذ القناة.

و قال يونس: لعمري لئن كان مغلبا في الشعر لقد كان غلّب في الخطب.

سبب تسمية بعض الشعراء

و من الشعراء من يغلب شيء قاله في شعره، على اسمه و كنيته، فيسمى به بشر كثير. فمنهم البعيث هذا. و منهم عوف بن حصن بن حذيفة بن بور، غلب عليه عويف القوافي لقوله:

سأكذب من قد كان يزعم أنني # إذا قلت شعرا لا أجيد القوافيا

فسمي عويف القوافي لذلك.

و منهم: يزيد بن ضرار التغلبي، غلب على اسمه المزرّد، لقوله:

فقلت تزرّدها عبيد فإنني # لدرد الموالي في السّنين مزرّد [1]

فسمي المزرّد.

و منهم: عمرو بن سعد بن مالك، غلب عليه مرقّش، و ذلك لقوله:

الدار قفر و الرسوم كما # رقّش في ظهر الأديم قلم

فسمي مرقشا. و منهم: شأس بن نهار العبدي، غلب عليه الممزّق لقوله:

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل # و إلا فأدركني و لما أمزّق

فسمي الممزق. و منهم: جرير بن عبد المسيح الضبعي، غلب عليه المتلمس لقوله:

فهذا أوان العرض حيّ ذبابه # زنابيره و الأزرق المتلمّس

و منهم: عمرو بن رياح السّلمي، أبو خنساء ابنة عمرو، و غلب الشريد على اسمه لقوله:

تولّى إخوتي و بقيت فردا # وحيدا في ديارهم شريدا

فسمي الشريد. و هذا كثير.

(1) الدرد: جمع أدرد: الذي ذهبت أسنانه. في السنين: في الجدب. مزرد: من تزرد إذا تسرع.

اللفظ الغريب ليس فصيحا

قال: و دخل رجل من قيس عيلان على عبد الملك بن مروان، فقال زبيريّ عميري!و اللّه لا يحبك قلبي أبدا!فقال: «يا أمير المؤمنين، إنما بجزع من فقدان الحب المرأة، و لكن عدل و إنصاف» .

و قال عمر لأبي مريم الحنفي، قاتل زيد بن الخطاب: «لا يحبك قلبي أبدا حتى تحبّ الأرض الدم المسفوح» . و هذا مثل قول الحجاج: «و اللّه لأقلعنك قلع الصّمغة» ، لأن الصمغة اليابسة إذا قرفت (1) عن الشجرة انقلعت انقلاع الجلبة (2) . و الأرض لا تنشف الدم المسفوح و لا تمصه، فمتى جف الدم و تجلّب لم تره أخذ من الأرض شيئا.

و من الخطباء: الغضبان بن القبعثريّ (3) ، و كان محبوسا في سجن الحجاج، فدعا به يوما، فلما رآه قال: إنك لسمين!قال: القيد و الرتعة (4) ، و من يكن ضيفا للأمير يسمن» .

و قال يزيد بن عياض (5) : لما نقم الناس على عثمان، خرج يتوكأ على مروان، و هو يقول: «لكل أمّة آفة، و لكل نعمة عاهة، و إن آفة هذه الأمة عيّابون طعّانون، يظهرون لكم ما تحبون، و يسرون ما تكرهون، طغام مثل النعام، يتبعون أول ناعق، لقد نقموا عليّ ما نقموه على عمر، و لكن قمعهم عمر و وقمهم. و اللّه إني لأقرب ناصرا و أعز نفرا. فضل فضل من مالي، فما لي لا أفعل في الفضل ما أشاء» .

---

(1) قرفت: قلعت.
(2) الجلبة: القشرة تعلو الجرح.
(3) الغضبان بن القبعثري الشيباني من زعماء مروانية أهل العراق الذين كان عبد الملك يرعى جانبهم.
(4) الرتعة: الخصب.
(5) يزيد بن عياض الليثي، محدث من أهل المدينة توفي بالبصرة في خلافة المهدي.

قال: و رأيت الناس يتداولون رسالة يحيى بن يعمر (1) ، على لسان يزيد ابن المهلب: «إنّا لقينا العدوّ فقتلنا طائفة و أسرنا طائفة، و لحقت طائفة بعراعر الأودية و اهضام الغيطان، و بتنا بعرعرة الجبل، و بات العدو بحضيضه» . قال:

فقال الحجاج: ما يزيد بأبي عذر هذا الكلام. فقيل له: إن معه يحيى بن يعمر! فأمر بأن يحمل إليه فلما أتاه قال: أين ولدت؟قال: بالأهواز. قال: فأنّى لك هذه الفصاحة؟قال: أخذتها عن أبي.

عراعر الأودية: أسافلها. و عراعر الجبال: أعاليها. و أهضام الغيطان:

مداخلها. و الغيطان: جمع غائط، و هو الحائط ذو الشجر.

و رأيتهم يديرون في كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مرارا، فقال له يحيى بن يعمر: «أ إن سألتك ثمن شكرها و شرك، أنشأت تطلّها و تضهلها» .

قالوا: الضهل: التقليل. و الشكر: الفرج. و الشبر: النكاح. و تطلها:

تذهب بحقها، يقال دم مطلول. و يقال بئر ضهول، أي قليلة الماء.

قال: فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده اللّه من صفة البلاغة و الفصاحة. و إن كانوا إنما دوّنوه في الكتب، و تذاكروه في المجالس لأنه غريب، فأبيات من شعر العجاج و شعر الطّرمّاح و أشعار هذيل، تأتي لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك. و لو خاطب بقوله: «أ إن سألتك ثمن شكرها و شبرك أنشأت تطلها و تضهلها» الأصمعي، لظننت أنه سيجهل بعض ذلك. و هذا ليس من أخلاق الكتاب و لا من آدابهم.

قال أبو الحسن: كان غلام يقعّر في كلامه، فأتى أبا الأسود الدؤلي

---

(1) يحيى بن يعمر فقيه لغوي سمع أبا هريرة و ابن عمر و أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، ولاه قتيبة بن مسلم قضاء خراسان، توفي سنة 129 هـ. و قد وجه الرسالة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي.

يلتمس بعض ما عنده، فقال له أبو الأسود: ما فعل أبوك؟قال: «أخذته الحمى فطبخته طبخا، و فنخته فنخا، و فضخته فضخا، فتركته فرخا» .

فنخته: أضعفته. و الفنيخ: الرخو الضعيف. و فضخته: دقته.

فقال أبو الأسود: «فما فعلت امرأته التي كانت تهارّه و تشارّه، و تجارّه (1)

و تزارّه» ؟قال: «طلقها فتزوّجت غيره، فرضيت و حظيت و بظيت» . قال أبو الأسود: قد عرفنا رضيت و حظيت، فما بظيت؟قال: حرف من الغريب لم يبلغك. قال أبو الأسود: يا بني كل كلمة لا يعرفها عمك فاسترها كما تستر السنور جعرها.

تزارّه: تعاضه. و الزر: العض. و حظيت: من الحظوة. و بظيت: اتباع لحظيت.

قال أبو الحسن: مرّ أبو علقمة النحويّ ببعض طرق البصرة، و هاجت به مرة، فوثب عليه قوم منهم فأقبلوا يعضون إبهامه و يؤذّنون في أذنه، فأفلت منهم فقال: «ما لكم تتكأكئون عليّ كما تتكأكئون على ذي جنّة، افرنقعوا عني» .

قال دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية.

قال أبو الحسن: و هاج بأبي علقمة الدم فأتوه بحجام، فقال للحجام:

«اشدد قصب الملازم، و أرهف ظبات المشارط، و أسرع الوضع و عجّل النزع، و ليكن شرطك و خزا، و مصّك نهزا، و لا تكرهنّ أبيّا، و لا تردّنّ أتيّا» . فوضع الحجام محاجمه في جونته ثم مضى.

فحديث أبي علقمة فيه غريب، و فيه أنه لو كان حجاما مرة ما زاد على ما قال. و ليس في كلام يحيى بن يعمر شيء من الدنيا إلا أنه غريب، و هو أيضا من الغريب بغيض.

و ذكروا عن محمد بن إسحاق قال: لما جاء ابن الزبير و هو بمكة قتل

(1) تهاره: تهر في وجهه كالكلب. تشاره: تعاديه و تخاصمه. تجاره: تلحق به الجريرة.

مروان الضحاك بمرج راهط، قام فينا خطيبا فقال: «إن ثعلب بن ثعلب، حفر بالصحصحة (1) ، فأخطأت استه الحفرة. و الهف أم لم تلدني على رجل من محارب كان يرعى في جبال مكة، فيأتي بالصربة (2) من اللبن فيبيعها بالقبضة من الدقيق، فيرى ذلك سدادا من عيش، ثم أنشأ يطلب الخلافة و وراثة النبوة» .

و أول هذا الكلام مستكره، و هو موجود في كل كتاب. و جار على لسان كل صاحب خبر. و قد سمعت لابن الزبير كلاما كثيرا، ليس هذا في سبيله، و لا يتعلق به.

و قال أبو يعقوب الأعور:

و خلجة ظن يسبق الطرف حزمها # تشيف على غنم و تمكن من ذحل

صدعت بها و القوم فوضى كأنهم # بكارة مرباع تبصبص للفحل

خلجة ظن: أي جذبه ظن، كأنه يجذب صواب الرأي جذبا. و الخلج:

الجذب. تشيف: أي تشرف، يقال أشاف و أشفى بمعنى واحد، أي أشرف.

بكارة مرباع: أي نوق فتايا قد أذلت للفحل. مرباع: أي نوق رئيس، و المرباع: ربع الغنيمة في الجاهلية لصاحب الجيش، و قال ابن عنمة:

لك المرباع منها و الصفايا # و حكمك و النشيطة و الفضول

و قال رجل من بني يربوع:

إلى اللّه أشكو ثم أشكو إليكما # و هل تنفع الشكوى إلى من يزيدها

حزازات حب في الفؤاد و عبرة # أظلّ بأطراف البنان أذودها

يحن فؤادي من مخافة بينكم # حنين المزجّى وجهة لا يريدها

و قد أحسن الآخر حيث قال:

---

(1) الصحصحة و الصحصح: الأرض المستوية الواسعة.

(2) الصربة: اللبن الحامض.

و أكرم نفسي عن مناكح جمة # و يقصر مالي أن أنال الغواليا

و قال الآخر:

و إذا العبد أغلق الباب دوني # لم يحرّم عليّ متن الطريق

و قال الخليع العطاردي: كنا بالبادية إذ نشأ عارض و ما في السماء قزعة (1) معلّقة، و جاء السيل فاكتسح أبياتا من بني سعد، فقلت:

فرحنا بوسميّ تألق ودقه # عشاء فأبكانا صباحا فأسرعا (2)

له طلّة كأن ريّق وبلها # عجاجة صيف أو دخان ترفعا (3)

فكان على قوم سلاما و نعمة # و ألحق عادا آخرين و تبّعا

و قال أبو عطاء السندي، لعبيد اللّه بن العباس الكندي:

قل لعبيد اللّه لو كان جعفر # هو الحي لم يبرح و أنت قتيل

إلى معشر أردوا أخاك و اكفروا # أباك فما ذا بعد ذاك تقول

فقال عبيد اللّه: أقول عض أبو عطاء ببظر أمه!فغلب عليه.

قال أبو عبيدة: قال أبو البصير، في أبي رهم السدوسيّ، و كان يلي الأعمال لأبي جعفر:

رأيت أبا رهم يقرّب منجحا # غلام أبي بشر و يقصي أبا بشر

فقلت ليحيى كيف قرب منجحا # فقال: له أير يزيد على شبر

بعض محتويات الجزء الثاني

و قال أبو عثمان (4) : و قد طعنت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها

---

(1) القزعة: السحابة.

(2) الوسمي: مطر الربيع. الودق: المطر.

(3) الريق: أول كل شيء.

(4) «و قال أبو عثمان» عبارة مقحمة من الناسخ.

المخصرة و القناة و القضيب، و الاتكاء و الاعتماد على القوس، و الخدّ في الأرض، و الإشارة بالقضيب، بكلام مستكره سنذكره في الجزء الثاني إن شاء اللّه. و لا بد من أن نذكر فيه بعض كلام معاوية، و يزيد، و عبد الملك، و ابن الزبير، و سليمان، و عمر بن عبد العزيز، و الوليد بن يزيد بن الوليد، لأن الباقين من ملوكهم لم يذكر لهم من الكلام الذي يلحق بالخطب، و بصناعة المنطق، إلا اليسير. و لا بد من أن نذكر فيه أقسام تأليف جميع الكلام، و كيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون و المنثور، و هو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار و الأسجاع و كيف صار نظمه من أعظم البرهان، و تأليفه من أكبر الحجج. و لا بد من أن نذكر فيه شأن إسماعيل صلّى اللّه عليه و آله و انقلاب لغته بعد أربع عشرة سنة، و كيف نسي لغته التي ربي فيها، و جرى على أعراقها و كيف لفظ بجميع حاجاته بالعربية على غير تلقين و لا ترتيب، و حتى لم تدخله عجمة و لا لكنة و لا حبسة، و لا تعلق بلسانه شيء من تلك العادة، إن شاء اللّه.

و لا بد من ذكر بعض كلام المأمون و مذاهبه، و بعض ما يحضرني من كلام آبائه وجلة رهطه. و لا بد أيضا من ذكر من صعد المنبر فحصر أو خلط، أو قال فأحسن، ليكون أتمّ للكتاب إن شاء اللّه.

و لا بد من ذكر المنابر و لم اتخذت، و كيف كانت الخطباء من العرب في الجاهلية و في صدر الإسلام، و هل كانت المنابر في أمّة قط غير أمتنا، و كيف كانت الحال في ذلك. و قد ذكرنا أن الأمم التي فيها الأخلاق و الآداب و الحكم و العلم أربع، و هي: العرب، و الهند، و فارس، و الروم. و قال حكيم بن عياش الكلبيّ:

أ لم يك ملك أرض اللّه طرّا # لأربعة له متميزينا

لحمير و النجاشي و ابن كسرى # و قيصر غير قول الممترينا

فما أدري بي سبب وضع الحبشة بهذا المكان. و أما ذكره لحمير فإن كان إنما ذهب إلى تتبّع نفسه في الملوك، فهذا له وجه. و أما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان، و لو كان النجاشي في نفسه فوق تبّع و كسرى

و قيصر لما كان أهل مملكته من الحبش في هذا الموضع. و هو لم يفضّل النجاشي لمكان إسلامه، يدل على ذلك تفصيله لكسرى و قيصر. و كان وضع كلامه على ذكر الممالك، ثم ترك الممالك و أخذ في ذكر الملوك. و الدليل على أن العرب أنطق، و إن لغتها أوسع، و إن لفظها أدلّ، و أن أقسام تأليف كلامها أكثر، و الأمثال التي ضربت فيها أجود و أسير. و الدليل على أن البديهة مقصور عليها، و أن الارتجال و الاقتضاب خاصّ فيها، و ما الفرق بين أشعارهم و بين الكلام الذي تسميه الروم و الفرس شعرا. و كيف صار النسيب في أشعارهم و في كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم و في ألحانهم إنما يقال على ألسنة نسائهم، و هذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير. و كيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، فتضع موزونا على موزون، و العجم تمطّط الألفاظ فتقبض و تبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون.

و سنذكر في الجزء الثاني من أبواب العيّ و اللحن و الغلط و الغفلة، أبوابا طريفة، و نذكر فيه النوكى من الوجوه و مجانين العرب، و من ضرب به المثل منهم، و نوادر من كلامهم، و مجانين الشعراء. و لست أعني مثل مجنون بني عامر، و مجنون بني جعدة، و إنما أعني مثل أبي حية في أهل البادية، و مثل جعيفران في أهل الأمصار، و مثل أريسيموس اليوناني.

و سنذكر أيضا بقية أسماء الخطباء و النساك و أسماء الظرفاء و الملحاء، إن شاء اللّه. و سنذكر من كلام الحجاج و غيره، ما أمكننا في بقية هذا الجزء إن شاء اللّه.

من كلام الحجاج و غيره

و قال أبو الحسن المدائني: قال الحجاج لأنس بن مالك، حين دخل عليه في شأن ابنه عبد اللّه، و كان خرج مع ابن الأشعث: «لا مرحبا بك و لا أهلا. لعنة اللّه عليك من شيخ جوّال في الفتنة، مرة مع أبي تراب و مرة مع ابن الأشعث. و اللّه لأقلعنك قلع الصّمغة، و لأعصبنّك عصب السلمة، و لأجرّدنّك

تجريد الضّب» . قال أنس: من يعني الأمير أعزّه اللّه؟قال: إياك أعني، أصمّ اللّه صداك! فكتب أنس بذاك إلى عبد الملك بن مروان، فكتب عبد الملك إلى الحجاج:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، و اللّه لقد هممت أن أركلك ركلة تهوي بها في نار جهنم. قاتلك اللّه، أخيفش العينين أصكّ الرجلين (1) ، أسود الجاعرتين. و السلام» .

و كان الحجاج أخيفش، منسلق الأجفان، و لذلك قام إمام بن أقرم النميري، و كان الحجاج جعله على بعض شرط أبان بن مروان ثم حبسه، فلما خرج قال:

طليق اللّه لم يمنن عليه # أبو داود و ابن أبي كثير

و لا الحجاج عيني بنت ماء # تقلب طرفها حذر الصقور

لأن طير الماء لا يكون أبدا إلا منسلق الأجفان.

قال: و خطب الحجاج يوما فقال في خطبته: «و اللّه ما بقي من الدنيا إلا مثل ما مضى، و لهو أشبه به من الماء بالماء و اللّه ما أحب أن ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه» .

المفضل بن محمد الضبي قال: كتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم: أن أبعث إليّ بالآدم الجعد (2) ، الذي يفهمني و يفهم عني. فبعث إليه غذّام بن شتير فقال الحجاج: للّه درّه!ما كتبت إليه في أمر قط إلا فهم عني و عرف ما أريد.

و قال أبو الحسن و غيره: أراد الحجاج الحج، فخطب الناس فقال:

«أيها الناس، إني أريد الحج، و قد استخلفت عليكم ابني محمدا هذا،

---

(1) الصك: اضطراب الركبتين.

(2) الأدم: الأسود. و الجعد: الخفيف.

و أوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله في الأنصار. إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أوصى أن يقبل من محسنهم، و يتجاوز عن مسيئهم، ألا و إني قد أوصيته ألا يقبل من محسنكم و لا يتجاوز عن مسيئكم. ألا و إنكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي. ستقولون بعدي: لا أحسن اللّه له الصحابة!ألا و إني معجل لكم الإجابة، لا أحسن اللّه عليكم الخلافة» . ثم نزل.

و كان يقول في خطبته: «أيها الناس، إن الكف عن محارم اللّه أيسر من الصبر على عذاب اللّه» .

و قال عمرو بن عبيد رحمه اللّه: كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده و أمر الناس بحفظها و تدبّر معانيها، و هي: «إن اللّه عزّ و جلّ جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته، و أثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسن بنعمة اللّه عليه، و مسيء بخذلان اللّه إياه. و للّه النعمة على المحسن، و الحجة على المسيء. فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه، و رأى العبرة في غيره، بأن يضع الدنيا بحيث وضعها اللّه فيعطي ما عليه منها، و لا يتكثر مما ليس له فيها، فإن الدنيا دار فناء، و لا سبيل إلى بقائها، و لا بد من لقاء اللّه عز و جل. فأحذركم اللّه الذي حذركم نفسه، و أوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها، فلا تقدروا فيها على توبة، و ليست لكم منها أوبة. و أنا أستخلف اللّه عليكم، و أستخلفه منكم» .

و قد روي هذا الكلام عن الحجاج، و زياد أحق به منه.

قال جرير:

تكلّفني ردّ الفوائت بعد ما # سبقن كسبق السيف ما قال عاذله

و قال الكميت بن معروف:

خذوا العقل إن أعطاكم القوم عقلكم # و كونوا كمن سيم الهوان فأربعا [1]

و لا تكثروا فيه الضجاج فإنه # محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

و المثل السابق: «سبق السيف العذل» .

و من أهل الأدب: زكريّاء بن درهم، مولى بني سليم بن منصور، صاحب سعيد بن عمرو الحرشي. و زكرياء هو الذي يقول:

لا تنكروا لسعيد فضل نعمته # لا يشكر اللّه من لا يشكر الناسا

و من أهل الأدب ممن وجهه هشام إلى الحرشي: السّرادق بن عبد اللّه السدوس الفارس. و لما ظفر سلم بن قتيبة بالأزد، كان من الجند في دور الأزد انتهاب و إحراق، و آثار قبيحة، فقام شبيب بن شيبة إلى سلم بن قتيبة فقال:

أيها الأمير، إن هريم بن عدي بن أبي طحمة-و كان غير منطيق-قال ليزيد بن عبد الملك في شأن المهالبة: يا أمير المؤمنين، إنّا و اللّه ما رأينا أحدا ظلم ظلمك، و لا نصر نصرك، و لا عفا عفوك. و إنّا نقول أيضا: أيها الأمير، إنّا و اللّه ما رأينا أحدا ظلم ظلمك، و لا نصر نصرك. فافعل الثالثة نقلها.

قال الهيثم بن عديّ: قام عبد اللّه بن الحجاج التغلبي إلى عبد الملك بن مروان، و قد كان أراد الاتصال به، و كان عبد الملك حنقا عليه، فأقام ببابه حولا لا يصل إليه، ثم ثار في وجهه في بعض ركباته فقال:

أدنو لترحمني و ترتق خلّتي # و أراك تدفعني فأين المدفع

فقال عبد الملك: إلى النار!فقال:

و لقد أذقت بني سعيد حرّها # و ابن الزبير فعرشه متضعضع

فقال عبد الملك: قد كان ذلك، و أنا أستغفر اللّه.

---

(1) العقل: الدية. أربع: أقام في المربع.

و قال أبو عبيدة: كان بين الحجاج و بين العذيل بن الفرخ العجليّ بعض الأمر، فتوعده الحجاج، فقال العذيل:

أخوّف بالحجاج حتى كأنما # يحرّك عظم في الفؤاد مهيض

و دون يد الحجاج من أن تنالني # بساط لأيدي اليعملات عريض [1]

مهامه أشباه كأن سرابها # ملاء بأيدي الغاسلات رحيض [2]

المهيض: الذي قد كسر ثم جبر ثم كسر. اليعملات: العوامل، و الياء زائدة لأنها من عملت.

ثم ظفر به الحجاج فقال: ايه يا عديل، هل نجاك بساطك العريض؟ فقال: أيها الأمير، أنا الذي أقول فيكم:

لو كنت بالعنقاء أو بيسومها # لكان لحجاج عليّ دليل

خليل أمير المؤمنين و سيفه # لكلّ إمام مصطفى و خليل

بنى قبة الإسلام حتى كأنما # هدى الناس من بعد الضلال رسول

فقال له الحجاج: اربح نفسك، و احقن دمك، و إياك و أختها، فقد كان الذي بيني و بين قتلك أقصر من إبهام الحبارى.

قال: و قام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، خطيبا بالمدينة، و كان واليها، ينعي معاوية و يدعو إلى بيعة يزيد، فلما رأى روح بن زنباع إبطاءهم قال:

«أيها الناس، إنّا لا ندعوكم إلى لخم و جذام و كلب، و لكنا ندعوكم إلى قريش و من جعل اللّه له هذا الأمر و اختصه به، و هو يزيد بن معاوية، و نحن أبناء الطعن و الطاعون، و فضالات الموت، و عندنا إن أجبتم و أطعتم من المعونة و العائدة ما شئتم» . فبايع الناس.

---

(1) البساط: الأرض الواسعة.

(2) رحيض: مغسول.

قال: و خطب إبراهيم بن إسماعيل، من ولد المغيرة المخزومي فقال:

«أنا ابن الوحيد، من شاء أجزر نفسه صقرا يلوذ حمامة بالعرفج» .

ثم قال:

استوسقي أحمرة الوجين # سمعن حسّ أسد حرون

فهن يضرطن و ينتزين

ثم قال: «و اللّه إني لأبغض القرشي أن يكون فظا» . يا عجبا لقوم يقال لهم من أبوكم فيقولون: أمنا من قريش.

فتكلم رجل من عرض الناس و هو يخطب، فقال غيره: مه فإن الإمام يخطب. فقال: إنما أمرنا بالإنصات عند قراءة القرآن، لا عند ضراط أحمرة الوجين.

و قال آخر: سمعت عمر بن هبيرة و هو يقول على هذه الأعواد في دعائه:

اللهم إني أعوذ بك من عدو يسري، و من جليس يغري، و من صديق يطري.

قال أبو الحسن: كان نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرّث، خال مروان، واليا على مكة و المدينة، و كان شاهرا سيفه لا يغمده، و بلغه أن فتى من بني سهم يذكره بكل قبيح، فلما أتي به و أمر بضرب عنقه قال الفتى:

لا تعجل عليّ، و دعني أتكلم. قال: أ و بك كلام؟قال: نعم و أزيد، يا نافع وليت الحرمين تحكم في دمائنا و أموالنا، و عندك أربع عقائل من العرب، و بنيت ياقوته بين الصفا و المروة–يعني داره–و أنت نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث، أحسن الناس وجها، و أكرمهم حسبا، و ليس لنا من ذلك إلا التراب، لم نحسدك على شيء منه، و لم ننفسه عليك، فنفست علينا أن نتكلم. قال:

فتكلم حتى ينفك فكّاك.

عليّ بن مجاهد، عن الجعد بن أبي الجعد، قال: قال صعصعة بن صوحان: ما أعياني جواب أحد ما أعياني جواب عثمان، دخلت عليه فقلت:

أخرجنا من ديارنا و أموالنا أن قلنا ربنا اللّه!فقال: نحن الذين أخرجنا من ديارنا و أموالنا أن قلنا ربنا اللّه، فمنا من مات بأرض الحبشة و منا من مات بالمدينة.

قال: و قال الحجاج على منبره: «و اللّه لألحونّكم لحو العصا، و لأعصبنّكم عصب السلمة، و لأضربنّكم ضرب غرائب الإبل. يا أهل العراق، و يا أهل الشقاق و النفاق، و مساوئ الأخلاق، إني سمعت تكبيرا ليس بالتكبير الذي يراد به اللّه في الترغيب و لكنه التكبير الذي يراد به الترهيب. و قد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف فتنة. أي بني اللكيعة و عبيد العصا، و أبناء الإماء، و اللّه لئن قرعت عصا عصا لأتركنكم كأمس الدابر» .

مالك بن دينار قال: ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق و ما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه و أنه صادق، لبيانه و حسن تخلصه بالحجج.

قال: و قسم الحجاج مالا، فأعطى منه مالك بن دينار، و أراد أن يدفع منه إلى حبيب أبي محمد فأبي أن يقبل منه شيئا، ثم مر حبيب بمالك، فإذا هو يقسم ذلك المال، فقال له مالك: أبا محمد، لهذا قبلناه!قال له حبيب:

دعني مما هناك، أسألك باللّه الحجاج اليوم أحب إليك أم قبل اليوم؟قال: بل اليوم. فقال حبيب: فلا خير في شيء حبب إليك الحجاج.

و مرّ غيلان بن خرشة الضّبيّ، مع عبد اللّه بن عامر، على نهر أمّ عبد اللّه الذي يشق البصرة، فقال عبد اللّه: ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر!فقال غيلان: أجل و اللّه أيها الأمير، يعلّم القوم صبيانهم فيه السباحة، و يكون لسقياهم و مسيل مياههم، و تأتيهم فيه ميرتهم. قال: ثم مر غيلان يساير زيادا على ذلك النهر، و قد كان عادى ابن عامر، فقال زياد: ما أضر هذا النهر، بأهل هذا المصر!قال غيلان: أجل و اللّه أيها الأمير، تنزّ منه دورهم، و تغرق فيه صبيانهم، و من أجله يكثر بعوضهم.

فالذين كرهوا البيان إنما كرهوا مثل هذا المذهب، فأما نفس حسن البيان فليس يذمه إلا من عجز عنه. و من ذم البيان مدح العيّ، و كفى بهذا خبالا.

و لخالد بن صفوان كلام في الجبن المأكول، ذهب فيه شبيها بهذا المذهب.

قال: و رجع طاوس عن مجلس محمد بن يوسف، و هو يومئذ والي اليمن، فقال: ما ظننت أن قول سبحان اللّه معصية للّه حتى كان اليوم.

سمعت رجلا أبلغ ابن يوسف عن رجل كلاما فقال رجل من أهل المجلس:

سبحان اللّه!كالمستعظم لذلك الكلام. فغضب ابن يوسف.

قال أبو الحسن و غيره، قالوا: دخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، و كان دميما، فلما رآه قال: على رجل أجرّك رسنك، و سلّطك على المسلمين، لعنة اللّه!قال: يا أمير المؤمنين، إنك رأيتني و الأمر عني مدبر، و لو رأيتني و الأمر عليّ مقبل لاستعظمت من أمري ما استصغرت!قال:

فقال سليمان: أ فترى الحجاج بلغ قعر جهنّم بعد!قال: يا أمير المؤمنين، يجيء الحجاج يوم القيامة بين أبيك و أخيك، قابضا على يمين أبيك و شمال أخيك، فضعه من النار حيث شئت.

و ذكر يزيد بن المهلب، يزيد بن أبي مسلم، بالعفة عن الدينار و الدرهم و همّ بأن يستكفيه مهما من أمره، قال: فقال عمر بن عبد العزيز: أ فلا أدلك على من هو أزهد في الدرهم و الدينار منه، و هو شرّ خلق اللّه؟قال: من هو؟ قال: إبليس.

قال: و قال أسيلم بن الأحنف، للوليد بن عبد الملك قبل أن يستخلف:

أصلح اللّه الأمير، إذا ظننت ظنا فلا تحققه، و إذا سألت الرجال فسلهم عمّا تعلم، فإذا رأوا سرعة فهمك لما تعلم ظنوا ذلك بك فيما لا تعلم، و دس من يسألك لك عما تعلم، فإذا رأوا سرعة فهمك لما تعلم ظنوا ذلك بك فيما لا تعلم، و دس من يسأل لك عما لا تعلم.

و كان أسيلم بن الأحنف الأسدي، ذا بيان و أدب و عقل و جاه، و هو الذي يقول فيه الشاعر: ــ

ألا أيها الركب المخبون هل لكم # بسيّد أهل الشام تحبوا و ترجعوا

أسيلم ذاكم لا خفا بمكانه # لعين ترجّي أو لأذن تسمّع

من النفر البيض الذين إذا انتموا # و هاب الرجال حلقة الباب قعقعوا

جلا الأزفر الأحوى من المسك فرقه # و طيب الدّهان رأسه فهو أنزع

إذا النفر السود اليمانون حاولوا # له حوك برديه أرقّوا و أوسعوا

و هذا الشعر من أشعار الحفظ و المذاكرة.

الهيثم بن عدي قال: قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك، بعد ما استخلف، فأمرهم بشتم الحجاج، فقاموا يشتمونه، فقال بعضهم إن عدو اللّه الحجاج، كان عبدا زبابا، قنّورا ابن قنّور (1) ، لا نسب له في العرب. فقال سليمان: أي شتم هذا؟إن عدو اللّه الحجاج كتب إليّ:

«إنما أنت نقطة من مداد، فإن رأيت فيّ ما رأى أبوك و أخوك كنت لك كما كنت لهما، و إلا فأنا الحجاج و أنت النقطة، فإن شئت محوتك، و إن شئت أثبتك» .. فالعنوه لعنة اللّه!فأقبل الناس يلعنون، فقام ابن أبي بردة بن أبي موسى فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرك عن عدو اللّه بعلم. قال: هات.

قال: كان عدو اللّه يتزيّن تزيّن المومسة، و يصعد على المنبر فيتكلم بكلام الأخيار، و إذا نزل عمل الفراعنة و أكذب في حديثه من الدجال.

فقال سليمان لرجاء بن حيوة: هذا و أبيك الشتم لا ما تأتي به هذه السّفلة. و عن عوانة قال: قطع ناس من عمرو بن تميم و حنظلة، على الحجاج ابن يوسف، فكتب إليهم:

من الحجاج بن يوسف. أما بعد فإنكم قد استصحبتم الفتنة–و قال بعضهم قد استنجتم الفتنة–فلا عن حق تقاتلون، و لا عن منكر تنهون، و أيم اللّه إني لأهمّ أن يكون أول ما يرد عليكم من قبلي خيل تنسف الطارف و التالد، و تخلي النساء أيامى، و الأبناء يتامى، و الديار خرابا، و السواد بياضا، فأيّما

(1) الزباب: الجاهل. القنور: العبد.

رفقة مرّت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذي يليه. تقدمة مني إليكم، و السعيد من وعظ بغيره. و السلام.

مسلمة بن محارب قال: كان الحجاج يقول: «أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة (1) ، إذا شاء خطب، و إذا شاء سكت» .

يعني الحسن. فيقول: لم ينصب نفسه للخطاب.

قال: و لما اجتمعت الخطباء عند معاوية في شأن يزيد، و فيهم الأحنف، قام رجل من حمير، فقال: إنّا لا نطيق أفواه الكمال-يزيد الجمال-عليهم المقال، و علينا الفعال. و قول هذا الحميري: إنّا لا نطيق أفواه الكمال، يدل على تشادق خطباء نزار.

سفيان بن عيينة قال: قال ابن عباس: «إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله» .

و قال عمر بن عبد العزيز: «من قال لا أدري فقد أحرز نصف العلم» .

لأن الذي له على نفسه هذه القوة قد دلنا على جودة التثبت، و كثرة الطلب، و قوة المنّة.

قال: و قيل لعيسى بن مريم عليه السلام: من نجالس؟قال: من يزيد في علمكم منطقه، و يذكركم اللّه رؤيته، و يرغبكم في الآخرة عمله.

قال: و مر المسيح ع بقوم يبكون، فقال: ما بال هؤلاء يبكون؟قيل له: يخافون ذنوبهم. قال: اتركوها يغفر لكم.

الوصافي (2) قال: دخل الهيثم بن الأسود بن العريان، و كان خطيبا شاعرا، على عبد الملك بن مروان فقال له: كيف تجدك؟فقال: أجدني قد

---

(1) الاخصاص: جمع خص، البيت من القصب.

(2) الوصافي هو عبيد اللّه بن الوليد الوصافي العجلي من الكوفة، راوية و محدث متهم بروايته، روى عن طاوس و محارب و جماعة و روى عنه الثوري.

ابيضّ مني ما كنت أحب أن يسودّ، و اسودّ مني ما كنت أحب أن يبيضّ، و اشتدّ مني ما كنت أحب أن يلين، و لان مني ما كنت أحب أن يشتد. ثم أنشد:

اسمع أنبيك بآيات الكبر # نوم العشاء و سعال بالسحر

و قلة النوم إذا الليل اعتكر # و قلة الطعم إذا الزاد حضر

و سرعة الطرف و تحميج النظر # و تركي الحسناء في قبل الطّهر (1)

و حذرا ازداده إلى حذر # و الناس يبلون كما يبلى الشجر

و قال الآخر: «مروا الأحداث بالمراء، و الكهول بالفكر» . فقال عبد اللّه ابن الحسن: «المراء رائد الغضب، فأخزى اللّه عقلا يأتيك بالغضب» .

و قالوا: أربعة تشتدّ معاشرتهم: الرجل المتواني، و الرجل العالم، و الفرس المرح، و الملك الشديد المملكة.

و قال غاز أبو مجاهد، يعارضه: أربعة تشتد مئونتهم: النديم المعربد، و الجليس الأحمق، و المغني التائه، و السفلة تقرّأ (2) .

و كان أبو شمر الغساني يقول: أقبل عليّ فلان باللحظ و اللفظ، و ما الكلام إلا زجر أو وعيد.

قال: و قال عمير بن الحباب (3) ، و روى ذلك عنه مسعر (4) : ما أغرت على حي في الجاهلية أحزم امرأة و لا أعجز رجلا من كلب، و لا أحزم رجلا و لا أعجز امرأة من تغلب.

قال: و قامت امرأة من تغلب إلى الجحّاف بن حكيم حين أوقع بالبشر، فقتل الرجال، و بقر بطون النساء، فقالت له: «فضّ اللّه فاك، و أصمّك

---

(1) قبل الطهر: أول الطهر بعد الحيض.
(2) السفلة: الأرذال، تقرّأ: تنسك.
(3) عمير بن الحباب بن سليم شاعر عاش في العصر الأموي و قتل قرب تكريت.
(4) هو مسعر بن ظهير الهلالي الكوفي، راوية ثقة فاضل توفي سنة 155 هـ.

و أعماك، و أطال سهادك، و أقل رقادك، فو اللّه إن قتلت إلا نساء أسافلهن دميّ، و أ عليهن ثديّ» . فقال الجحاف لمن حوله: «لو لا أن تلد مثلها لخليت سبيلها» . فبلغ ذلك الحسن فقال: «إنما الجحاف جذوة من نار جهنم» .

و كان عامر بن الظّرب العدواني حكيما، و كان خطيبا رئيسا. و هو الذي قال: «يا معشر عدوان، إن الخير ألوف عزوف، و لن يفارق صاحبه حتى يفارقه، و إني لم أكن حليما حتى اتبعت الحكماء، و لم أكن سيدكم حتى تعبّدت لكم» .

و قال أعشى بني شيبان:

و ما أنا في أمري و لا في خليقتي # بمهتضم حقي و لا قارع سني

و لا مسلم مولاي من شر ما جنى # و لا خائف مولاي من شر ما أجني

و إن فؤادا بين جنبي عالم # بما أبصرت عيني و ما سمعت أذني

و فضّلني في العقل و الشعر أنني # أقول بما أهوى و أعرف ما أعني

و قال رجل من ولد العباس: ليس ينبغي للقرشي أن يستغرق شيئا من العلم إلا علم الأخبار، فأما غير ذلك فالنتف و الشدو (1) من القول.

و قال آخر:

و صافية تعشي العيون رقيقة # رهينة عام في الدنان و عام

أدرنا بها الكأس الرؤية بيننا # من الليل حتى انجاب كلّ ظلام

فما ذر قرن الشمس حتى كأننا # من العيّ نحكي أحمد بن هشام

و مرّ رجل من قريش بفتى من ولد عتّاب بن أسيد (2) و هو يقرأ كتاب سيبويه، فقال: أف لكم، علم المؤدّبين و همة المحتاجين!

---

(1) الشدو: كل شيء قليل من كثير.

(2) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، أسلم عند فتح مكة و استعمله الرسول على مكة عند ما خرج إلى حنين، ثم أقره أبو بكر عليها حتى توفيا معا في يوم واحد.

و قال ابن عتّاب: يكون الرجل نحويا عروضيا، و قساما فرضيا، و حسن الكتاب جيد الحساب، حافظا للقرآن، راوية للشعر، و هو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما. و لو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم، لأن النحوي الذي ليس عنده إمتاع، كالنجار الذي يدعى ليعلق بابا و هو أحذق الناس، ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب فيقال له انصرف. و صاحب الامتاع يراد في الحالات كلها.

خبّرنا عبيد اللّه بن زيد السفياني قال: عوّد نفسك الصبر على الجليس السوء، فإنه لا يكاد يخطئك.

و قال سهيل بن عبد العزيز: من ثقل عليك بنفسه، و غمّك في سؤاله، فأعره أذنا صمّاء، و عينا عمياء.

سهيل بن أبي صالح (1) عن أبيه قال: كان أبو هريرة إذا استثقل رجلا قال:

اللهم اغفر له و أرحنا منه! و قال ابن أبي أمية (2) :

شهدت الرقاشيّ في مجلس # و كان إليّ بغيضا مقيتا

فقال اقترح يا أبا جعفر # فقلت اقترحت عليك السكوتا

و قال ابن عباس: «العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء بأحسنه» .

المدائني عن العباس بن عامر، قال: خطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز أخته فقال:

«الحمد للّه رب العزة و الكبرياء، و صلى اللّه على محمد خاتم الأنبياء أما

---

(1) سهيل بن أبي صالح ذكوان السمان الزيات، و كان كأبيه ذكوان محدثا يثق بأبي هريرة، و توفي في ولاية أبي جعفر المنصور.

(2) هو محمد بن أمية بن أبي أمية، كاتب و شاعر ظريف معاصر لأبي العتاهية.

بعد فقد أحسن بك ظنا من أودعك حرمته، و اختارك و لم يختر عليك و قد زوجناك على ما في كتاب اللّه، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» .

قال: و خطب أعرابي و أعجله القول و كره أن تكون خطبته بلا تحميد و لا تمجيد، فقال: «الحمد للّه، غير ملال لذكر اللّه، و لا إيثار غيره عليه» . ثم ابتدأ القول في حاجته.

و سأل أعرابي ناسا فقال: «سأجعل اللّه حظّكم في الخير، و لا جعل حظّ السائل منكم عذرة صادقة» .

و كتب إبراهيم بن سيّابة (1) إلى صديق له كثير المال، كثير الدخل، كثير الناضّ (2) يستسلف منه نفقة، فكتب إليه: «العيال كثير، و الدخل قليل، و الدّين ثقيل، و المال مكذوب عليه» . فكتب إليه إبراهيم: «إن كنت كاذبا فجعلك اللّه صادقا، و إن كنت مليما فجعلك اللّه معذورا» .

و قال الشاعر:

لعل مفيدات الزمان يفدنني # بني صامت في غير شيء يضيرها

قال: و قال أعرابي: «اللهم لا تنزلني بماء سوء فأكون امرأ سوء» . و قال أعرابي: «اللهم قني عثرات الكرام» .

قال: و سمع مجاشع الرّبعيّ رجلا يقول: الشحيح أعذر من الظالم. فقال: أخزى اللّه شيئين خيرهما الشح.

قال: و أنشدنا أبو فروة:

إني امتدحتك كاذبا فأثبتني # لما امتدحتك، ما يثاب الكاذب

---

(1) إبراهيم بن سيّابة، شاعر عباسي من موالي الهاشميين صاحب إبراهيم الموصلي و ابنه إسحاق فمدحهما و تغنيا بشعره و قرباه من الخلفاء و الوزراء.

(2) الناض: الدراهم.

و أنشدني عليّ بن معاذ:

ثالبني عمرو و ثالبته # فأثم المثلوب و الثالب

قلت له خيرا و قال الخنا # كلّ على صاحبه كاذب

أبو معشر، قال: لما بلغ عبد اللّه بن الزبير قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد قام خطيبا فقال: «إن أبا ذبّان قتل لطيم الشيطان. كذلك نولّي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون» .

و لما جلس عثمان بن عفان على المنبر قال: «يا أيها الناس، إن اللّه قد فتح عليكم افريقية، و قد بعث إليكم ابن أبي سرح، عبد اللّه الزبير بالفتح، قم يا ابن الزبير» . قال: فقمت فخطبت، فلما نزلت قام فقال: «يا أيها الناس، انكحوا النساء على آبائهن و إخوتهن، فإني لم أر لأبي بكر الصديق ولدا أشبه به من هذا» . و قال الخريمي:

و أعددته ذخرا لكلّ مصيبة # و سهم المنايا بالذخائر مولع

و ذكر أبو العيزار جماعة من الخوارج بالأدب و الخطب فقال:

و مسوّم للموت يركب ردعه # بين القواضب و القنا الخطار [1]

يدنو و ترفعه الرماح كأنه # شلو تنشّب في مخالب ضاري

فثوى صريعا و الرماح تنوشه # إن الشراة قصيرة الاعمار [2]

أدباء إما جئتهم خطباء # ضمناء كل كتيبة جرّار [3]

و لما خطب سفيان بن الأبرد الأصمّ الكلبي، فبلغ في الترهيب و الترغيب المبالغ، و رأى عبيدة بن هلال اليشكري أن ذلك قد فتّ في أعضاد أصحابه:

أنشأ يقول:

---

(1) ركب ردعه: خر صريعا.

(2) ثوى: هلك، مات. تنوشه: تتناوله، تهلكه.

(3) ضمناء: مفردها ضمين، كفيل.

لعمري لقد قام الأصمّ بخطبة # لها في صدور المسلمين غليل

لعمري لئن أعطيت سفيان بيعتي # و فارقت ديني إنني لجهول

و لما قام أحد الخطباء الذين تكلموا عند رأس الاسكندر قال أحدهم:

«الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، و هو اليوم أوعظ منه أمس» . فأخذه أبو العتاهية فقال:

بكيتك يا عليّ بدرّ عيني # فما أغنى البكاء عليك شيّا

طوتك خطوب دهرك بعد نشر # كذاك خطوبه نشرا وطيا

كفى حزنا بدفنك ثم أني # نفضت تراب قبرك عن يديّا

و كانت في حياتك لي عظات # و أنت اليوم أوعظ منك حيا

و من الأسجاع الحسنة قول الأعرابية حين خاصمت ابنها إلى عامل الماء فقالت: «أ ما كان بطني لك وعاء؟أ ما كان حجري لك فناء؟أ ما كان ثديي لك سقاء؟» . فقال ابنها: «لقد أصبحت خطيبة، رضي اللّه عنك» . لأنها قد أتت على حاجتها بالكلام المتخير كما يبلغ ذلك الخطيب بخطبته.

و قال النّمر بن تولب:

و قالت ألا فاسمع نعظك بخطبة # فقلت سمعنا فانطقي و أصيبي

فلن تنطقي حقا و لست بأهله # فقبّحت مما قائل و خطيب

قال أبو عباد كاتب ابن أبي خالد: ما جلس أحد قط بين يدي إلا تمثل لي أني سأجلس بين يديه.

قال اللّه عز و جل: **وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً** . ليس يريد بلاغة اللسان، و إن كان اللسان لا يبلغ من القلوب حيث يريد إلا بالبلاغة.

قال: و كانت خطبة قريش في الجاهلية–يعني خطبة النساء–: «باسمك اللهم، ذكرت فلانة و فلان بها مشغوف. باسمك اللهم، لك ما سألت و لنا ما أعطيت» .

و لما مات عبد الملك بن مروان صعد الوليد المنبر فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: «لم أر مثلها مصيبة، و لم أر مثلها ثوابا: موت أمير المؤمنين، و الخلافة بعده. إنّا للّه و إنّا إليه راجعون. و الحمد للّه رب العالمين على النعمة. انهضوا فبايعوا على بركة اللّه» . فقام إليه عبد اللّه بن همّام فقال:

اللّه أعطاك التي لا فوقها # و قد أراد الملحدون عوقها

عنك و يأبى اللّه إلا سوقها # إليك حتى قلدوك طوقها

فبايع الناس.

و قيل لعمرو بن العاص، في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك؟ قال: «أجدني أذوب و لا أثوب، و أجد نجوي أكثر من رزئي، فما بقاء الشيخ على ذلك» .

و قيل لأعرابي كانت به أمراض عدة، كيف تجدك؟قال: «أما الذي يعمدني فحصر و أسر» (1) .

و عن مقاتل قال: سمعت يزيد بن المهلب، يخطب بواسط، فقال: «يا أهل العراق، يا أهل السبق و السباق، و مكارم الأخلاق، إن أهل الشام في أفواههم لقمة دسمة، زبّبت لها الأشداق (2) ، و قاموا لها على ساق، و هم غير تاركيها لكم بالمراء و الجدال، فالبسوا لهم جلود النمور» (3) .

---

(1) يعمدني: يوجعني، حصر: احتباس البطن. أسر: احتباس البول.
(2) زبيت لها الأشداق: أي اجتمع الريق فيها.
(3) لبس جلد النمور: أي تنكر و أظهر العداوة و القوة و الاستعداد للصراع.

الجزء الثاني

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين، و لا حول و لا قوة إلا باللّه، و صلى اللّه على محمد خاصة و على أنبيائه عامة.

أردنا–أبقاك اللّه–أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان و التبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب و ملوكهم، إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر و اعتمدوا على وجه الأرض بأطراف القسيّ و العصيّ، و أشاروا عند ذلك بالقضبان و القنيّ. و في كل ذلك قد روينا الشاهد الصادق، و المثل السائر. و لكنا أحببنا أن نصيّر صدر هذا الباب كلاما من كلام رسول رب العالمين، و السلف المتقدمين، و الجلة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، و قادة هذا الأنام، و ملح الأرض، و حليّ الدنيا، و النجوم التي لا يضل معها الساري، و المنار الذي يرجع إليه الباغي، و الحزب الذي كثر اللّه به القليل، و أعز به الذليل، و زاد الكثير في عدده، و العزيز في ارتفاع قدره. و هم الذين جلوا بكلامهم الأبصار الكليلة، و شحذوا بمنطقهم الأذهان العليلة، فنبهوا

القلوب من رقدتها، و نقلوها عن سوء عادتها، و شفوها من داء القسوة، و غباوة الغفلة، و داووا من العيّ الفاضح، و نهجوا لنا الطريق الواضح. و لو لا الذي أملت في تقديم ذلك و تعجيله، من العمل بالصواب، و جزيل الثواب، لقد كنت بدأت بالرد عليهم، و بكشف قناع دعواهم. على أنّا سنقول في ذلك بعد الفراغ مما هو أولى بنا و أوجب علينا. و اللّه الموفق، و هو المستعان.

باب فى الخطب

أنواع الخطب

و على أن خطباء السلف الطيب، و أهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد، و تستفتح بالتمجيد: «البتراء» .

و يسمون التي لم توشح بالقرآن، و تزين بالصلاة على النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «الشوهاء» .

و قال عمران بن حطّان: خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم أقصّر فيها عن غاية، و لم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن.

و خطب أعرابي فلما أعجله بعض الأمر عن التصدير بالتحميد، و الاستفتاح بالتمجيد، قال: «أما بعد، بغير ملالة لذكر اللّه و لا إيثار غيره عليه، فإنّا نقول كذا، و نسأل كذا» ، فرارا من أن تكون خطبته بتراء أو شوهاء.

و قال شبيب بن شيبة: «الحمد للّه، صلّى اللّه على رسول اللّه. أما بعد، فإنّا نسأل كذا، و نبذل كذا» .

و بنا-حفظك اللّه-أعظم الحاجة إلى أن يسلّم كتابنا هذا من النّبز (1)

القبيح و الشّوه (2) المشين، و اللقب السّمج المعيب، بل قد يجب أن نزيد في بهائه، و نستميل القلوب إلى اجتبائه، إذ كان الأمل فيه بعيدا، و كان معناه شريفا ثمينا.

ثم اعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب، من أهل المدر و الوبر،

(1) النبز: اللقب
(2) الشوه: القبح

و البدو و الحضر، على ضربين: منها الطّوال، و منها القصار، و لكل ذلك مكان يليق به، و موضع يحسن فيه. و من الطوال ما يكون مستويا في الجودة، و متشاكلا في استواء الصنعة، و منها ذوات الفقر الحسان، و النّتف الجياد.

و ليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، و إنما حظه التخليد في بطون الصحف. و وجدنا عدد القصار أكثر، و رواة العلم إلى حفظها أسرع. و قد أعطينا كل شكل من ذلك قسطه من الاختيار، و وفيناه حظه من التمييز، و نرجو ألا نكون قصرنا في ذلك. و اللّه الموفق.

هذا سوى ما رسمنا في كتابنا هذا من مقطعات كلام العرب الفصحاء و جمل كلام الأعراب الخلص، و أهل اللسن من رجالات قريش و العرب، و أهل الخطابة من أهل الحجاز، و نتف من كلام النساك، و مواعظ من كلام الزهاد، مع قلة كلامهم، و شدة توقّيهم. و ربّ قليل يغني عن الكثير، كما أن ربّ كثير لا يتعلق به صاحب القليل. بل رب كلمة تغني عن خطبة، و تنوب عن رسالة.

بل رب كناية تربي على افصاح، و لحظ يدل على ضمير، و إن كان ذلك الضمير بعيد الغاية، قائما على النهاية. و متى شاكل أبقاك اللّه ذلك اللفظ معناه، و أعرب عن فحواه، و كان لتلك الحال وفقا، و لذلك القدر لفقا، و خرج من سماجة الاستكراه، و سلّم من فساد التكلف، كان قمينا بحسن الموقع، و بانتفاع المستمع، و أجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين، و يحمي عرضه من اعتراض العائبين، و ألا نزال القلوب به معمورة، و الصدور مأهولة. و متى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيرا من جنسه، و كان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبّب إلى النفوس، و اتصل بالأذهان، و التحم بالعقول.

و هشّت إليه الأسماع، و ارتاحت له القلوب، و خفّ على ألسن الرواة، و شاع في الآفاق ذكره، و عظم في الناس خطره، و صار ذلك مادة للعالم الرئيس، و رياضة للمتعلم الريّض. فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة، و مصلحة حال الخاصة، و كان ممن يعمّ و لا يخصّ، و ينصح و لا يغش، و كان مشغوفا بأهل الجماعة، شنفا (1) لأهل الاختلاف و الفرقة، جمعت له الحظوظ من

(1) شنف: أبغض.

أقطارها، و سيقت إليه القلوب بأزمتها، و جمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته، و جبلت على تصويب إرادته. و من أعاره اللّه من معونته نصيبا، و أفرغ عليه من محبته ذنوبا، جلبت إليه المعاني، و سلس له النظام، و كان قد أعفى المستمع من كد التكلف، و أراح قارئ الكتاب من علاج التفهم. و لم أجد في خطب السلف الطيب و الأعراب الأقحاح، ألفاظا مسخوطة، و لا معاني مدخولة، و لا طبعا رديئا، و لا قولا مستكرها. و أكثر ما تجد ذلك في خطب المولدين، و في خطب البلديين المتكلفين، و من أهل الصنعة المتأدبين، و سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال و الاقتضاب، أم كان من نتاج التحبير و التفكير.

طبقات الشعراء

و من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (1) ، و زمنا طويلا، يردد فيها نظره، و يجيل فيها عقله، و يقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، و تتبعا على نفسه، فيجعل عقله، زماما على رأيه، و رأيه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، و إحرازا لما خوله اللّه تعالى من نعمته. و كانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، و المقلّدات، و المنقّحات، و المحكّمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذا، و شاعرا مفلقا.

و في بيوت الشعر الأمثال و الأوابد، و منها الشواهد، و منها الشوارد.

و الشعراء عندهم أربع طبقات. فأولهم: الفحل الخنذيذ. و الخنذيذ هو التام. قال الأصمعي: قال رؤبة: «الفحولة هم الرواة» . و دون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق، و دون ذلك الشاعر فقط، و الرابع الشعرور. و لذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء:

يا رابع الشعراء كيف هجوتني # و زعمت أني مفحم لا أنطق

(1) كريت: كامل.

فجعله سكيتا مخلفا و مسبوقا مؤخرا.

و سمعت بعض العلماء يقول: طبقات الشعراء ثلاث: شاعر، و شويعر، و شعرور. قال: و الشويعر مثل محمد بن حمران بن أبي حمران، سماه بذلك امرؤ القيس بن حجر.

و منهم من بني ضبة المفوّف، شاعر بني حميس، و هو الشويعر، و لذلك قال العبدي:

أ لا تنهي سراة بني حميس # شويعرها فويلية الأفاعي

قبيلة تردّد حيث شاءت # كزائدة النعامة في الكراع

فويلية الأفاعي: دويبة سوداء فوق الخنفساء.

و الشويعر أيضا صفوان بن عبد ياليل، من بني سعد بن ليث، و يقال إن اسمه ربيعة بن عثمان. و هو الذي يقول:

فسائل جعفرا و بني أبيها # بني البزري بطخفة و الملاح [1]

و أفلتنا أبو ليلى طفيل # صحيح الجلد من أثر السلاح

و قد زعم ناس أن الخنذيذ من الخيل هو الخصي. و كيف يكون ذلك.

كذلك مع قول الشاعر:

يا ليتني بالخبث لم أر مثلها # أمرّ قرى منها و أكثر باكيا

و أكثر خنذيذا يجر عنانه # إلى الماء لم يترك له السيف ساقيا

و قال بشر بن أبي خازم:

و خنذيذ ترى الغرمول منه # كطي الزقّ علّقه التّجار

(1) البزري: لقب بني بكر. طخفة و الملاح: موضعان.

و أبين من ذلك قال البرجمي:

و خناذيذ خصية و فحولا

و يدل على ما قلنا قول القيسي:

دعوت بني سعد إليّ فشمّرت # خناذيذ من سعد طوال السواعد

و كان زهير بن أبي سلمى يسمي كبار قصائده الحوليات.

و قد فسر سويد بن كراع العكليّ ما قلنا، في قوله:

أبيت بأبواب القوافي كأنما # أصادي بها سربا من الوحش نزّعا

أكالئها حتى أعرّس بعد ما # يكون سحيرا أو بعيدا فأهجعا (1)

عواصي إلا ما جعلت أمامها # عصا مربد تغشى نحورا و أذرعا (2)

أهبت بغرّ الآبدات فراجعت # طريقا أملته القصائد مهيعا (3)

بعيدة شأو، لا يكاد يردها # لها طالب حتى يكلّ و يظلعا

إذا خفت أن تروى عليّ رددتها # وراء التراقي خشية أن تطلعا

و جشمني خوف ابن عفان ردها # فثقفتها حولا حريدا و مربعا

و قد كان في نفسي عليها زيادة # فلم أر إلا أن أطيع و أسمعا

و لا حاجة بنا مع هذه الفقر إلى الزيادة في الدليل على ما قلنا، و لذلك قال الحطيئة: «خير الشعر الحولي المحكك» . و قال الأصمعي: «زهير بن أبي سلمى، و الحطيئة و أشباههما، عبيد الشعر» . و كذلك كل من جوّد في جميع شعره، و وقف عند كل بيت قاله، و أعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة. و كان يقال: لو لا إن الشعر قد كان استعبدهم و استفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف و أصحاب الصنعة، و من يلتمس قهر الكلام، و اغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين، الذين

---

(1) أكالئها: أراقبها. أعرس: أنزل في السحر.
(2) المربد: محبس الابل.
(3) الآبد: المتوحش. أملت: سلكت. مهيع: واسع.

تأتيهم المعاني سهوا و رهوا (1) ، و تنثال عليهم الألفاظ انثيالا. و إنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي و رؤبة. و لذلك قالوا في شعره: مطرف بآلاف و خمار بواف. و قد كان يخالف في ذلك جميع الرواة و الشعراء. و كان أبو عبيدة يقول و يحكي ذلك عن يونس.

و من تكسب بشعره و التمس به صلات الأشراف و القادة، و جوائز الملوك و السادة، في قصائد السماطين، و بالطوال التي تنشد يوم الحقل، لم يجد بدا من صنيع زهير و الحطيئة و أشباههما، فإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام و تركوا المجهود، و لم نرهم من ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب، اقتدارا عليه، و ثقة بحسن عادة اللّه عندهم فيه. و كانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير و مهمات الأمور، ميّثوه (2) في صدورهم، و قيدوه على أنفسهم، فإذا قوّمه الثقاف و أدخل الكير، و قام على الخلاص، أبرزوه محكما منقحا، و مصفى من الأدناس مهذبا. قال الربيع بن أبي الحقيق لأبي ياسر النضيري:

فلا تكثر النجوى و أنت محارب # تؤامر فيها كل نكس مقصر

و قال عبد اللّه بن وهب الراسبي: «إياي و الرأي الفطير» .

و كان يستعيذ باللّه من الرأي الدّبري، الذي يكون من غير روية، و كذلك الجواب الدبري.

و قال سبحان وائل: «شر خليطيك السئوم المحزّم» لأن السئوم لا يصبر، و إنما التفاضل في الصبر. و المحزم صعب لا يعرف ما يراد منه، و ليس الحزم إلا بالتجارب، و بأن يكون عقل الغريزة سلما إلى عقل التجربة. و لذلك قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: «رأي الشيخ أحب إلينا من جلد الشاب» .

---

(1) السهو و الرهو: السهل اللين.
(2) ميث: ذلل، يسر.

و لذلك كرهوا ركوب الصعب حتى يذل، المهر الأرن إلا بعد رياضة (1)

و لم يحولوا المعانيق هماليج إلا بعد طول التخليع (2) ، و لم يحلبوا الزبون إلا بعد الإبساس (3) .

من أقوال رسول اللّه و أحاديثه و خطبه

و سنذكر من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، مما لم يسبقه إليه عربي، و لا شاركه فيه أعجمي، و لم يدّع لأحد و لا ادّعاه أحد، مما صار مستعملا و مثلا سائرا.

فمن ذلك قوله: «يا خيل اللّه اركبي» ، و قوله: «مات حتف أنفه» ، و قوله: «لا تنتطح فيه عنزان» ، و قوله: «الآن حمي الوطيس» .

و لما قال عديّ بن حاتم (4) في قتل عثمان رحمه اللّه: «لا تحبق فيه عناق» (5) قال له معاوية بن أبي سفيان بعد أن فقئت عينه و قتل ابنه: يا أبا طريف، هل حبقت في قتل عثمان عناق؟قال: أى و اللّه، و التيس الأكبر! فلم يصر كلامه مثلا، و صار كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مثلا.

و من ذلك قوله لأبي سفيان بن حرب: «كل الصيد في جوف الفرا» .

و من ذلك قوله: «هدنة على دخن، و جماعة على أقذاء» (6) ، و من ذلك قوله: «لا يلسع المؤمن من جحر مرتين» .

---

(1) الارن: النشيط.
(2) المعانيق: السريعة. هماليج: التي تسير متبخترة. تخليع: سير مفكك.
(3) الزبون: الناقة التي تضرب حالبها. الابساس: صوت الراعي و هو يسكن الناقة عند الحلب.
(4) عدي بن حاتم الطائي الذي ضرب به المثل في الجود كان نصرانيا فأسلّم و اشترك في فتوح العراق و سكن الكوفة و تشيع لعلي و شهد معه الجمل و صفين و عمر طويلا نحو 120 سنة.
(5) تحبق فيه عناق: تضرط عنز
(6) هدنة على دخن: على حقد، مثل يضرب لمن يضمر عداوة و يبدي ودا.

أ لا ترى أن الحارث بن حدّان، حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب، قال: «أيها الناس، اتقوا الفتنة، فإنها تقبل بشبهة، و تدبر ببيان، و إن المؤمن لا يلسع من جحر تين» ، فضرب بكلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المثل، ثم قال: «اتقوا عصبا تأتيكم من الشام، كأنها دلاء قد انقطع و ذمها» .

و قال ابن الأشعث لأصحابه، و هو على المنبر: «قد علمنا إن كنا نعلم، و فهمنا إن كنا نفهم، أن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين، و قد و اللّه لسعت بكم من جحر ثلاث مرات، و أنا أستغفر اللّه من كل ما خالف الإيمان، و اعتصم به من كل ما قارب الكفر» .

و أنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه و كثر عدد معانيه، و جلّ عن الصنعة، و نزّه عن التكلف، و كان كما قال اللّه تبارك و تعالى: قل يا محمد: وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . فكيف و قد عاب التشديق، و جانب أصحاب التقعيب، و استعمل المبسوط في موضع البسط، و المقصور في موضع القصر، و هجر الغريب الوحشي، و رغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، و لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، و شيد بالتأييد، و يسر بالتوفيق. و هو الكلام الذي ألقى اللّه عليه المحبة، و غشاه بالقبول و جمع له بين المهابة و الحلاوة، و بين حسن الأفهام، و قلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، و قلة حاجة السامع إلى معاودته.

لم تسقط له كلمة، و لا زلت به قدم، و لا بارت له حجة، و لم يقم له خصم، و لا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلام القصار، و لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، و لا يحتج إلا بالصدق، و لا يطلب الفلج (1) إلا بالحق، و لا يستعين بالخلابة، و لا يستعمل المواربة، و لا يهمز و لا يلمز (2) ، و لا يبطئ و لا يعجل، و لا يسهب و لا يحصر. ثم لم يسمع الناس

---

(1) الفلج: الفوز.

(2) الهمز: العيب في الغيبة. اللمز: العيب في الحضور.

بكلام قط أعم نفعا، و لا أقصد لفظا، و لا أعدل وزنا، و لا أجمل مذهبا، و لا أكرم مطلبا، و لا أحسن موقعا، و لا أسهل مخرجا، و لا أفصح معنى، و لا أبين في فحوى، من كلامه صلّى اللّه عليه و سلّم كثيرا.

قال: و لم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتظرف و المتكلف للغناء. و لا يكادون يضعون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها.

قال قيس بن الخطيم:

فما المال و الأخلاق إلا معارة # فما اسطعت من معروفها فتزوّد

و إني لأغنى الناس عن متكلّف # يرى الناس ضلالا و ليس بمهتد

و قال ابن قميئة:

و حمال أثقال إذا هي أعرضت # عن الأصل لا يسطيعها المتكلّف

قال محمد بن سلاّم: قال يونس بن حبيب: «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم» .

و قد جمعت لك في هذا الكتاب جملا التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار. و لعل بعض من يتسع في العلم، و لم يعرف مقادير الكلم، يظن أنّا قد تكلفنا له من الامتداح و التشريف و من التزيين و التجويد ما ليس عنده، و لا يبلغه قدره. كلا و الذي حرم التزيد على العلماء، و قبح التكلف عند الحكماء، و بهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه! فمن كلامه صلّى اللّه عليه و سلّم حين ذكر الأنصار فقال: «أما و اللّه ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع، و تكثرون عند الفزع» . و قال: «الناس كلهم سواء كأسنان المشط» ، و «المرء كثير بأخيه» ، و «لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له» . و قال الشاعر:

سواء كأسنان الحمار فلا ترى # لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا

و قال آخر:

شبابهم و شيبهم سواء # فهم في اللوم أسنان الحمار

و إذا حصلت تشبيه الشاعر و حقيقته، و تشبيه النبي صلّى اللّه عليه و سلّم و حقيقته، عرفت فضل ما بين الكلامين.

و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، و يسعى بذمتهم أدناهم، و يرد عليهم أقصاهم، و هم يد على من سواهم» .

فتفهم رحمك اللّه، قلة حروفه، و كثرة معانيه.

و قال عليه السلام: «اليد العليا خير من اليد السفلى، و ابدأ بمن تعول» .

و قال: «لا تجن يمينك على شمالك» . و ذكر الخيل فقال: «بطونها كنز، و ظهورها حرز» ، و قال: «خير المال سكة مأبورة، و فرس مأمورة» (1) .

و قال: «خير المال عين ساهرة، لعين نائمة» . و قال: «نعمت العمة لكم النخلة، تغرس في أرض خوارة (2) ، و تشرب من عين خرارة» . و قال:

«المطعمات في المحل، الراسخات في الوحل» . و قال: «الحمى في أصول النخل» . و ذكر الخيل فقال: «أعرافها دفاؤها، و أذنابها مدابها» ، و «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» . و قال: «ليس منا من حلق أو صلق أو شق» (3) . و قال: «نهيتكم عن عقوق الأمهات، و وأد البنات، و منع و هات» . و قال: «الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة» . و قال: «ما أملق تاجر صدوق» . و جاء في الحديث: «ما قل و كفى خير مما كثر و ألهى» .

و قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، و انتحال المبطلين، و تأويل الجاهلين» .

---

(1) أبر: أصلح و القح. مأمورة: منتجة.
(2) خوارة: سهلة.
(3) أي حلق الشعر عند الرزيئة. الصلق: رفع الصوت. الشق: شق الثياب.

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الخير في السيف، و الخير مع السيف، و الخير بالسيف» . و قال: «لا يوردن مجرب على مصح» . و قال: «لا تزال أمتي صالحا أمرها ما لم تر الأمانة مغنما و الصدقة مغرما» . و قال: «رأس العقل بعد الإيمان باللّه مداراة الناس» ، و «لن يهلك امرؤ بعد مشورة» . و قال: «المستشار مؤتمن» . و قال: «المستشار بالخيار، إن شاء قال و إن شاء أمسك» ، و قال: «رحم اللّه عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم» . و قال: «افصلوا بين حديثكم بالاستغفار» . و قال: «استعينوا على طول المشي بالسعي» .

و قال للخاتنة: «يا أم عطية، أشمّيه و لا تنهكيه، فإنه أسرى للوجه، و أحظى عند الزوج» ، و قال: «لا تجلسوا على ظهر الطريق، فإن أبيتم فغضوا الأبصار و ردوا السلام، و اهدوا الضال، و أعينوا الضعيف» . و قال: «إن اللّه يرضى لكم ثلاثا و يكره لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا، و أن تعتصموا بحبله جميعا و لا تفرّقوا، و أن تناصحوا من ولاه اللّه أمركم. و يكره لكم قيل و قال، و كثرة السؤال، و إضاعة المال» . و قال: «يقول ابن آدم:

مالي مالي. و إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو وهبت فأمضيت» . «لو أن لابن آدم واديين من ذهب لسأل إليهما ثالثا» . و «لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، و يتوب اللّه على من تاب» . و قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، و إن اللّه مستعملكم فيها، فناظر كيف تعملون» . و قال: «إن أحبكم إلي و أقربكم مني مجلسا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون و يؤلفون. و إن أبغضكم إلي و أبعدكم مني مجلسا يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» . و قال: «إياي و التشادق» ، و قال: «إياكم و الفرج في الصلاة» ، و قال: «إياكم و الفرج في الصلاة» ، و قال: «لا يؤمّن ذو سلطان في سلطانه و لا يجلس على فراش تكرمته إلا بإذنه» . و قال: «إياكم و المشارّة، فإنها تميت الغرّة، و تحيي العرّة» . و قال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعّانا» . و كان يقول: «أعوذ باللّه من الأيهمين، و بوار الأيّم» (1) . و كان

(1) الايهمان: الاعميان، اي المطر و الحريق. الايم: التي لا زوج لها.

يقول: «أعوذ باللّه من دعاء لا يسمع، و من قلب لا يخشع، و من علم لا ينفع» .

و قال له رجل: يا رسول اللّه، أوصني بشيء ينفعني اللّه به. قال: «أكثر ذكر الموت يسلك عن الدنيا، و عليك بالشكر، فإنه يزيد في النعمة، و أكثر الدعاء، فإنك لا تدري متى يستجاب لك. و إياك و البغي، فإن اللّه قد قضى أنه من بغى عليه لينصرنّه اللّه، و قال: يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم.

و إياك و المكر، فإن اللّه قد قضى ألا يحيق المكر السيئ إلا بأهله» .

و قيل يا رسول اللّه، أي الأعمال أفضل؟فقال: «اجتناب المحارم، و ألا يزال فوك رطبا من ذكر اللّه» .

و قيل له: أي الأصحاب أفضل؟قال: «الذي إذا ذكرت أعانك، و إذا نسيت ذكرك» .

و قيل: أي الناس شر؟قال: «العلماء إذا فسدوا» .

و قال «دب اليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد و البغضاء. و البغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا أقول حالقة الشعر. و الذي نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابوا. أ لا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم؟» فقالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: «أفشوا السلام، و صلوا الأرحام» .

و قال: «تهادوا تحابوا» .

و عن الحسن قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أوصاني ربي بتسع. أوصاني بالاخلاص في السر و العلانية، و بالعدل في الرضى و الغضب، و بالقصد في الغنى و الفقر، و أن أعفو عمن ظلمني، و أعطي من حرمني، و أصل من قطعني و أن يكون صمتي فكرا، و نطقي ذكرا، و نظري عبرا» .

و ثلاث كلمات رويت مرسلة، و قد رويت لأقوام شتى، و قد يجوز أن يكونوا حكوها و لم يسندوها. منها قوله: «لو تكاشفتم لما تدافنتم» .

و منها قوله: «الناس بأزمانهم، أشبه منهم بآبائهم» . و منها قوله: «ما هلك امرؤ عرف قدره» .

و قد ذكر اسماعيل بن عياش، عن عبد اللّه بن دينار قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه كره لكم العبث في الصلاة، و الرفث في الصيام، و الضحك عند المقابر» . و قال: «إذا أذنت فترسل، و إذا أقمت فاحذم» (1)

و حدثنا اسماعيل بن عياش الحمصي، عن الحسن بن دينار عن الخصيب بن جحدر، عن رجل، عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم» .

و من حديث أنس بن مالك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «قيدوا العلم بالكتاب» . و قال: «يقول اللّه: لو لا رجال خشع، و صبيان رضع، و بهائم رتع، لصببت عليكم العذاب صبا» .

و من حديث عبد اللّه بن المبارك يرفعه قال: «إذا ساد القبيل فاسقهم، و كان زعيم القوم أرذلهم، و أكرم الرجل اتقاء شره، فلينتظروا البلاء» .

و من أحاديث ابن ابي ذئب عن المقبري، عن ابي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ستحرصون على الامارة، فنعمت المرضع، و بئست الفاطمة» .

و من حديث عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يحكم الحاكم بين اثنين و هو غضبان» .

و من حديث عبد اللّه بن المبارك، قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

يقول: «إن قوما ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا، فصار لكل رجل موضع، فنقر رجل موضعه بفأس فقالوا: ما تصنع؟قال: هو فكاني أصنع به ما شئت. فإن أخذوا على يديه نجا و نجوا، و إن تركوه هلك و هلكوا» .

و قال: «علق سوطك حيث يراه أهلك» .

---

(1) حذم: أسرع.

و دخل السائب بن صيفي، على النبي صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه، أ تعرفني؟فقال: «كيف لا أعرف شريكي الذي كان لا يشاريني و لا يماريني» .

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يؤتى بالوالي الذي يجلد فوق ما أمره اللّه تعالى فيقول له الرب تعالى: أي عبدي، لم جلدت فوق ما أمرتك به؟فيقول: رب غضبت لغضبك. فيقول: أ كان ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي؟!ثم يؤتى بالمقصر فيقول: عبدي، لم قصرت عما أمرتك به؟فيقول: رب، رحمته. فيقول: أ كان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي؟!قال: فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لا أعرفه، إلا أنه قال: صيرهما إلى النار» .

وكيع قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر، عن قزعة قال: قال لي ابن عمر: أودعك كما ودعني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أستودع اللّه دينك و أمانتك و خواتم عملك» .

و قال: «كل أرض بسمائها» .

و روى سعيد بن عفير عن ابن لهيعة، عن أشياخه، أن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم كتب إلى وائل بن حجر الحضرمي و لقومه: «من محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على الأقيال العباهلة من أهل حضر موت، بإقام الصلاة و إيتاء الزكاة: على التيعة شاة، و التيمة لصاحبها (1) ، و في السيوب الخمس (2) . لا خلاط، و لا وراط (3) ، و لا شناق (4) ، و لا شغار. فمن أجبى (5) فقد أربى. و كل مسكر حرام» .

و من حديث راشد بن سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا تغالوا بالنساء

---

(1) التيعة: الاربعون من الابل. التيمة: الشاة الزائدة.
(2) السيوب: المال المتروك في الجاهلية.
(3) الوراط: الخديعة و الغش.
(4) الشناق: ما بين الفريضتين من الابل. الشغار: أن يزوج الواحد الآخر حريمته، على ان يبادله الآخر حريمته.
(5) أجبى: باع الزرع قبل ادراكه.

فإنما هن سقيا اللّه» . و قال: «خير نساء ركبن الابل صوالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره. و أرعاه على بعل في ذات يده» .

مجالد عن الشعبي قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «اللهم أذهب ملك غسان وضع مهور كندة» .

و الذي يدلك على أن اللّه عز و جل قد خصه بالايجاز و قلة عدد اللفظ، مع كثرة المعاني، قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «نصرت بالصبا و أعطيت جوامع الكلم» . و مما رووا عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من استعماله الأخلاق الكريمة، و الافعال الشريفة و كثرة الأمر بها، و النهي عما خالف عنها، قوله: «من لم يقبل من متنصل عذرا، صادقا كان أو كاذبا، لم يرد علي الحوض» . و قال في آخر وصيته: «اتقوا اللّه في الضعيفين» .

و كلمته جارية من السبي فقال لها: من أنت؟فقالت: أنا بنت الرجل الجواد حاتم. فقال صلّى اللّه عليه و سلّم: «ارحموا عزيزا ذل، ارحموا عالما ضاع بين جهال» .

و قال: «سرعة المشي تذهب ببهاء المؤمن» .

و عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن الأحاديث ستكثر عني بعدي كما كثرت عن الأنبياء من قبلي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب اللّه، فما وافق كتاب اللّه، فهو عني، قلته أو لم أقله» .

و سئلت عائشة رضي اللّه عنها عن خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: «خلق القرآن» ، و تلت قول اللّه تبارك و تعالى: (و إنك لعلى خلق عظيم) .

و قال محمد بن علي: أدب اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم بأحسن الآداب، فقال:

خُذِ اَلْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْجَاهِلِينَ فلما وعى قال: **مَا آتَاكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اِتَّقُوا اَللَّهَ** .

حدثنا علي بن مجاهد، عن هشام بن عروة، قال: سمع عمر بن الخطاب رحمه اللّه رجلا ينشد:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره # تجد خير نار عندها خير موقد

فقال عمر: ذاك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قد كان الناس يستحسنون قول الأعشى:

تشبّ لمقرورين يصطليانها # و بات على النار الندى و المحلق

فلما قال الحطيئة البيت الذي كتبناه قبل هذا سقط بيت الأعشى.

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يزال المسروق منه في تهمة من هو بريء، حتى يكون أعظم جرما من السارق» .

و قال ابو الحسن: أجرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الخيل و سبق بينها، فجاء فرس له أدهم سابقا، فجثا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على ركبتيه و قال: «ما هو إلا بحر» .

فقال عمر بن الخطاب: كذب الحطيئة حيث يقول:

و إن جياد الخيل لا تستفزنا # و لا جاعلات العاج فوق المعاصم

و قد زعم ناس من العلماء أنه لم يستفزه سبق فرسه، و لكنه أراد إظهار حب الخيل و تعظيم شأنها.

و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يأكل على الأرض، و يجلس على الأرض و يلبس العباء، و يجالس المساكين، و يمشي في الأسواق، و يتوسد يده، و يقصّ من نفسه، و يلطع أصابعه، و لا يأكل متكئا، و لم يرقط ضاحكا ملء فيه. و كان يقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، و اشرب كما يشرب العبد، و لو دعيت إلى ذراع لأجبت، و لو أهدي إلي كراع لقبلت» . و لم يأكل قط وحده، و لا ضرب عبده، و لا ضرب أحدا بيده إلا في سبيل ربه. و لو لم يكن من كرم عفوه و ثخانة حلمه، إلا ما كان منه يوم فتح مكة، لقد كان ذلك من أكمل الكمال و أوضح البرهان. و ذلك أنه حين دخل مكة عنوة و قد قتلوا أعمامه و بني أعمامه، و أولياءه و أنصاره، بعد أن حصروه في الشعاب، و عذبوا أصحابه بأنواع العذاب، و جرحوه في بدنه، و آذوه في نفسه، و سفهوا عليه، و أجمعوا

على كيده. فلما دخلها بغير حمدهم، و ظهر عليها على صغر منهم، قام خطيبا فيهم، فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: «أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم و هو أرحم الراحمين» .

و إنما نقول في كل باب بالجملة من ذلك المذهب، و إذا عرفتم أول كل باب كنتم خلقاء أن تعرفوا الأواخر بالأوائل، و المصادر بالموارد.

خطبة النبي صلّى اللّه عليه و سلّم في الوداع

قال صلّى اللّه عليه و سلّم: الحمد للّه، نحمده و نستعينه، و نستغفره و نتوب إليه، و نعوذ باللّه من شرور أنفسنا، و من سيئات أعمالنا. من يهد اللّه فلا مضلّ له، و من يضلل فلا هادي له. و اشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله. أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه، و أحثكم على طاعته، و أستفتح بالذي هو خير. أما بعد، أيها الناس أسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم و أموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ألا هل بلّغت؟اللهم أشهد!.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذي ائتمنه عليها. و إن ربا الجاهلية موضوع، و إن أول ربا أبدا به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. و إن دماء الجاهلية موضوعة، و إن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. و إن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة (1) و السقاية. و العمد قود (2) ، و شبه العمد ما قتل بالعصا و الحجر، و فيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

---

(1) السدانة: خدمة الكعبة.
(2) العمد قود: قتل القاتل بالقتيل.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، و لكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما و يحرّمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم اللّه فيحلوا ما حرم اللّه. إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات و الأرض. و إن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا في كتاب اللّه يوم خلق السموات و الأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات و واحد فرد: ذو القعدة و ذو الحجة و المحرّم، و رجب الذي بين جمادي و شعبان.

ألا هل بلّغت؟اللهم أشهد!.

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا، و لكم عليهن حق. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، و لا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، و لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن اللّه قد أذن لكم أن تعضلوهن و تهجروهن في المضاجع، و تضربوهن ضربا غير مبرّح، فإن انتهين و أطعنكم فعليكم رزقهن و كسوتهن بالمعروف و إنما النساء عندكم عوان (1) لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة اللّه، و استحللتم فروجهن بكلمة اللّه. فاتقوا اللّه في النساء و استوصوا بهن خيرا.

ألا هل بلغت؟اللهم أشهد!.

أيها الناس، إنما المؤمنون أخوة، و لا يحل لامرئ مسلّم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.

ألا هل بلغت؟اللهم أشهد!.

فلا ترجعنّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإن قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب اللّه.

---

(1) عوان: من عانية، السيرة.

ألا هل بلغت؟اللهم اشهد.

أيها الناس، إن ربكم واحد، و إن أباكم واحد، كلكم لآدم و آدم من تراب. أكرمكم عند اللّه أتقاكم، إن اللّه عليم خبير. و ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟اللهم أشهد! قالوا: نعم. قال: فليبلّغ الشاهد الغائب.

أيها الناس، إن اللّه قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية، و لا تجوز وصية في أكثر من الثلث. و الولد للفراش، و للعاهر الحجر. من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين، لا يقبل منه صرف و لا عدل. و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

و عن الحسن قال: جاء قيس بن عاصم إلى النبي صلّى اللّه عليه و سلّم فلما رآه قال: هذا سيد أهل الوبر. فقال: يا رسول اللّه، خبرني عن المال الذي لا تكون عليّ فيه تبعة من ضيف ضافني، أو عيال كثروا علي. قال: «نعم المال الأربعون، و الأكثر الستون، و ويل لأصحاب المئين إلا من أعطى في رسلها و نجدتها، و أطرق فحلها (1) ، و أفقر ظهرها (2) ، و نحر سمينها، و أطعم القانع و المعتر (3) » . قال: يا رسول اللّه، ما أكرم هذه الأخلاق و أحسنها، و ما يحل بالوادي الذي أكون فيه أكثر من إبلي. قال: فكيف تصنع بالطروقة؟قال:

تغدو الابل و يغدو الناس، فمن شاء أخذ برأس بعيد فذهب به. قال: فكيف تصنع في الافقار؟قال إني لأفقر البكر الضرع، و الناب المسنة. قال: فكيف تصنع بالمنيحة (4) ؟قال: إني لأمنح في كل سنة مائة. قال: فأي المال

(1) أطرق فحلها: أعاره ليضرب في ابله.
(2) افقر ظهرها: اعاره للركوب.
(3) القانع و المعتر: السائل و الطالب.
(4) المنيحة: ان يطعم الرجل لبن شاته لآخر.

أحب إليك، أمالك أم مال مولاك؟قال: بل مالي. قال: «فمالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت. و ما سوى ذلك للوارث» .

و ذكر أبو المقدام هشام بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال:

دخلت على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه، فجعلت أحد النظر إليه، فقال لي: يا ابن كعب، ما لك تحد النظر إلي؟قلت: لما نحل من جسمك، و تغير من لونك. قال: فكيف لو رأيتني بعد ثالثة في قبري، و قد سالت حدقتاي على وجنتي و ابتدر فمي و أنفي صديدا ودودا، كنت و اللّه أشدّ نكرة لي. أعد علي حديثا كنت حدثتنيه عن عبد اللّه بن عباس. قال: سمعت ابن عباس يقول: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن لكل شيء شرفا، و إن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة، و من أحب أن يكون أعز الناس فليتق اللّه. و من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على اللّه. و من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يدي اللّه أوثق منه بما في يديه» ، ثم قال: «أ لا أنبئكم بشرار الناس؟» فقالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: «من نزل وحده، و منع رفده، و جلد عبده» . ثم قال: «أ لا أنبئكم بشر من ذلك؟» قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: «من لا يقيل عثرة، و لا يقبل معذرة، و لا يغفر ذنبا» .

ثم قال: «أ لا أنبئكم بشر من ذلك؟» قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: «من يبغض الناس و يبغضونه. إن عيسى بن مريم عليه السلام قام خطيبا في بني اسرائيل فقال: يا بني اسرائيل، لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، و لا تمنعوها أهلها فتظلموهم، و لا تظلموا و لا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم. يا بني اسرائيل، الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، و أمر تبين غيه فاجتنبوه، و أمر اختلف فيه فإلى اللّه فردوه» .

و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «كل قوم على زينة من أمرهم، و مفلحة في أنفسهم، يزرون على من سواهم. و يتبين الحق في ذلك بالمقايسة بالعدل عند أولى الألباب من الناس» .

و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «من رضي رقيقه فليمسكه، و من لم يرض فليبعه، فلا تعذبوا خلق اللّه» .

و قال في آخر ما أوصى به: «اتقوا اللّه في الضعيفين» .

قال ابن ثوبان عن ابيه، عن مكحول، عن جبير بن نفير، عن مالك بن يخامر عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «عمران بيت المقدس خراب يثرب، و خراب يثرب خروج الملحمة، و خروج الملحمة فتح القسطنطينية، و فتح القسطنطينية خروج الدجال» ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه، ثم قال: «إن هذا لحقّ كما إنك هاهنا» . أو «كما أنك قاعد» ، يعني معاذا.

صالح المري عن الحسن البصري، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: حصنوا أموالكم بالزكاة و داووا مرضاكم بالصدقة، و استقبلوا البلاء بالدعاء» .

كثير بن هشام، عن عيسى بن ابراهيم، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الجمعة حجّ المساكين» .

قال عوف، عن الحسن، أن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «اتقوا اللّه في النساء فإنهن عندكم عوان، و إنما أخذتموهن بأمانة اللّه، و استحللتم فروجهن بكلمة اللّه» .

الواقدي، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن ابيه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يحبّ الجواد من خلقه» .

أبو عبد الرحمن الأشجعي، عن يحيى بن عبيد اللّه، عن ابيه عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما خلا يهوديّ بمسلّم قط إلا همّ بقتلة» ، و يقال: «حدث نفسه بقتله» .

ابو عاصم النبيل، قال: حدثنا عبيد اللّه بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على اللّه أن نحرّم لحمه على النار» .

اسماعيل بن عياش، عن الحسن بن دينار، عن الخصيب بن جحدر، عن رجل، عن معاذ بن جبل، عن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم» .

و عن عبد ربه بن أعين، عن عبد اللّه بن ثمامة بن أنس، عن أبيه عن جده قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قيدوا العلم بالكتاب» و قال: «فضل جاهك تعود به على أخيك الذي لا جاه له صدقة منك عليه، و فضل لسانك تعبر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة منك عليه، و فضل علمك تعود به على أخيك الذي لا علم عنده صدقة منك عليه، و فضل قوتك ترده على أخيك الذي لا قوة له صدقة منك عليه، و اماطتك الأذى عن الطريق صدقة منك على أهله» .

كلمات بليغة

و إنما مدار الأمور و الغاية التي يجري إليها، الفهم ثم الافهام، و الطلب ثم التثبت.

و قال عمرو بن العاص: «ثلاثة لا أملّهم: جليسي ما فهم عني، و ثوبي ما سترني، و دابتي ما حملت رجليّ» .

و ذكر الشعبي ناسا فقال: «ما رأيت مثلهم أشد تنابذا في مجلس و لا أحسن تفهّما عن محدّث» .

و وصف سهل بن هارون رجلا فقال: «لم أر أحسن منه فهما لجليل، و لا أحسن تفهما لدقيق» .

و قال سعيد بن سلّم لأمير المؤمنين المأمون: «لو لم أشكر اللّه إلا على حسن ما أبلاني في أمير المؤمنين، من قصده إلي بحديثه، و إشارته إلي بطرفه، لقد كان ذلك من أعظم ما تفرضه الشريعة، و توجيه الحرية» . فقال المأمون: «لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدّثت، و حسن

التفهّم إذا حدّثت، ما لم يجد عند أحد فيمن مضى، و لا يظن أنه يجده فيمن بقي» .

و قال له مرة أخرى: «و اللّه إنك لتستقفي حديثي، و تقف عند مقاطع كلامي، و تخبر عنه بما كنت قد أغفلته» .

و قال أبو الحسن: قالت امرأة لزوجها: ما لك إذا خرجت إلى اصحابك تطلّقت و تحدثت، و إذا كنت عندي تعقدت و أطرقت؟قال: «لأنني أجل عن دقيقك، و تدقين عن جليلي» .

و قال أبو مسهر: «ما حدثت رجلا قط إلا أعجبني حسن إصغائه، حفظ عني أم ضيع» .

و قال أبو عقيل بن درست: «نشاط القائل على قدر فهم المستمع» .

و قال أبو عباد كاتب أحمد بن ابي خالد: «للقائل على السامع ثلاث:

جمع البال، و الكتمان، و بسط العذر» .

و قال أبو عباد: «إذا أنكر القائل عيني المستمع فليستفهمه عن منتهى حديثه، و عن السبب الذي أجرى ذلك القول له: فإن وجده قد أخلص له الاستماع أتم له الحديث، و إن كان لاهيا عنه حرمه حسن الحديث و نفع المؤانسة، و عرفه بفسولة (1) الاستماع، و التقصير في حق المحدث» .

و أبو عباد هذا هو الذي قال: «ما جلس بين يدي رجل قط إلا تمثل لي إني سأجلس بين يديه» .

و ذكر رجل من القرشيين عبد الملك بن مروان، و عبد الملك يومئذ غلام، فقال: «إنه لآخذ بأربع، و تارك لأربع: آخذ بأحسن الحديث إذا حدث، و بأحسن الاستماع إذا حدّث، و بأيسر المئونة إذا خولف، و بأحسن البشر إذا لقي و تارك لمحادثة اللئيم، و منازعة اللجوج، و مماراة السفيه، و مصاحبة المأفون» .

(1) الفسولة: الضعف، الحمق.

و ذم بعض الحكماء رجلا فقال: «يحزم قبل أن يعلم، و يغضب قبل أن يفهم» .

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه في بعض رسائله إلى قضاته: «الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك» .

و لا يمكن تمام الفهم إلا مع تمام فراغ البال.

و قال مجنون بني عامر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى # فصادف قلبي فارغا فتمكنا

و كتب مالك بن أسماء بن خارجة إلى أخيه عيينة بن أسماء بن خارجة:

أعيين هلاّ إذ شغفت بها # كنت استعنت بفارغ العقل

أقبلت ترجو الغوث من قبلي # و المستغاث إليه في شغل

و قال صالح المري: «سوء الاستماع نفاق» . و قد لا يفهم المستمع إلا بالتفهم، و قد يتفهم أيضا من لا يفهم. و قال الحارث بن حلزة:

و حبست فيها الركب أحدس في # كل الأمور و كنت ذا حدس

و قال النابغة الجعدي:

أبى لي البلاء و أني امرؤ # إذا ما تبينت لم أرتب

و قال آخر:

تحلم عن الأدنين و استبق ودّهم # و لن تستطيع الحلم حتى تحلّما

و المثل السائر على وجه الدهر قولهم: «العلم بالتعلم» .

و إذا كانت البهيمة إذا أحست شيئا من أسباب القانص، أحدت نظرها، و استفرغت قواها في الاسترواح، و جمعت بالها للتسمع–كان الانسان العاقل أولى بالتثبّت، و أحق بالتعرف.

و لما اتهم قتيبة بن مسلّم، أبا مجلز لاحق بن حميد، ببعض الأمر، قال له أبو مجلز: «أيها الأمير تثبت، فإن التثبت نصف العفو» .

و قال الاحنف: «تعلمت الحلم من قيس بن عاصم» .

و قال فيروز حصين: «كنت أختلف إلى دار الاستخراج أتعلم الصبر» .

و قال سهل بن هارون: «بلاغة اللسان رفق، و العيّ خرق» . و كان كثيرا ما ينشد قول شتيم بن خويلد:

و لا يشعبون الصّدع بعد تفاقم # و في رفق أيديكم لذي الصدع شاعب

خطبة أبي بكر في الملوك

و قال ابراهيم الانصاري، و هو ابراهيم بن محمد المفلوج، من ولد أبي زيد القارئ: الخلفاء و الأئمة و أمراء المؤمنين ملوك، و ليس كل ملك يكون خليفة و إماما، و لذلك فصل بينهم أبو بكر رحمه اللّه في خطبته، فإنه لما فرغ من الحمد و الصلاة على النبي قال: «ألا أن أشقى الناس في الدنيا و الآخرة الملوك!» . فرفع الناس رءوسهم، فقال: «ما لكم أيها الناس، إنكم لطعانون عجلون. إن من الملوك من إذا ملك زهده اللّه فيما في يديه، و رغبه فيما في يدي غيره، و انتقصه شطر أجله، و أشرب قلبه الاشفاق، فهو يحسد على القليل، و يتسخط الكثير، و يسأم الرخاء، و تنقطع عنه لذة الباءة (1) ، و لا يستعمل العبرة، و لا يسكن إلى الثقة. فهو كالدرهم القسي، و السراب الخادع، جذل الظاهر، حزين الباطن، فإذا وجبت نفسه، و نضب عمره، وضحا ظله (2) ، حاسبه اللّه فأشد حسابه، و أقل عفوه، إلا من آمن باللّه، و حكم بكتابه و سنة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم. ألا إن الفقراء هم المرحومون ألا و إنكم اليوم على خلافة النبوة، و مفرق المحجة. و إنكم سترون بعدي ملكا عضوضا، و ملكا عنودا (3) ، و أمة شعاعا، و دما مباحا. فإن كانت للباطل نزوة، و لأهل الحق

---

(1) الباءة: النكاح.
(2) ضحا ظله: تقلص، مات.
(3) عضوض: شديد، عنيف عنود: طاغ، عات.

جولة، يعفو لها الاثر، و يموت لها البشر، و تحيا بها الفتن، و تموت لها السنن، فالزموا المساجد، و استشيروا القرآن، و اعتصموا بالطاعة، و لا تفارقوا الجماعة. و ليكن الابرام بعد المشاورة، و الصفقة بعد طول التناظر. أيّ بلادكم خرشنة؟فإنكم سيفتح عليكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها» .

كلام أبي بكر الصديق (ر) لعمر حين استخلفه عند موته.

إني مستخلفك من بعدي، و موصيك بتقوى اللّه. إنّ للّه عملا بالليل لا يقبله بالنهار، و عملا بالنهار لا يقبله بالليل، و إنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة. و إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، و ثقله عليهم، و حقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا.

و إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل و خفته عليهم في الدنيا و حقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا. إن اللّه ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، و التجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت:

إني أخاف ألا أكون من هؤلاء. و ذكر أهل النار فذكرهم بأسوإ أعمالهم، و لم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء. و ذكر آية الرحمة مع آية العذاب، ليكون العبد راهبا، و لا يتمنى على اللّه إلا الحق، و لا يلقي بيده إلى التهلكة. فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحبّ إليك من الموت، و هو آتيك. و إن ضيعت وصيتي، فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، و لست بمعجز اللّه.

وصيةعمر للخليفة من بعده.

أوصيك بتقوى اللّه لا شريك له، و أوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا: أن تعرف لهم سابقتهم. و أوصيك بالأنصار خيرا، فاقبل من محسنهم، و تجاوز عن مسيئهم. و أوصيك بأهل الأمصار خيرا، فإنهم ردء (1) العدو، و جباة الأموال

(1) الردء: المعين.

و الفيء (1) لا تحمل إلا عن فضل منهم. و أوصيك بأهل البادية خيرا، فإنهم أصل العرب، و مادة الاسلام: أن تأخذ من حواشي (2) أموال أغنيائهم، فترد على فقرائهم. و أوصيك بأهل الذمة خيرا: أن تقاتل من ورائهم و لا تكلفهم فوق طاقتهم، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد (3) و هم صاغرون.

و أوصيك بتقوى اللّه و شده الحذر منه، و مخافة مقته، أن يطلع منك على ريبة.

و أوصيك أن تخشى اللّه في الناس و لا تخشى الناس في اللّه. و أوصيك بالعدل في الرعية و التفرغ لحوائجهم و ثغورهم. و لا تؤثر غنيهم على فقيرهم، فإن ذلك- بإذن اللّه- سلامة لقلبك، و حط لوزرك، و خير في عاقبة أمرك، حتى تفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك، و يحول بينك و بين قلبك. و آمرك أن تشتد في أمر اللّه، و في حدوده و معاصيه، على قريب الناس و بعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد الرأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمه. و اجعل الناس سواء عندك، لا تبال على من وجب الحق، و لا تأخذك في اللّه لومة لائم. و إياك و الأثرة و المحاباة، فيما ولاك اللّه مما أفاء اللّه على المؤمنين، فتجور و تظلم، و تحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه اللّه عليك.

و قد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا و الآخرة، فإن اقترفت (4) لدنياك عدلا و عفة مما بسط اللّه لك، اقترفت به إيمانا و رضوانا، و إن غلبك الهوى و مالت بك شهوة، اقترفت به سخط اللّه و معاصيه. و أوصيك أ لا ترخص لنفسك و لا لغيرك في ظلم أهل الذمة. و قد أوصيتك و حضضتك، و نصحت لك، أبتغي بذلك وجه اللّه و الدار الآخرة. و اخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسي و ولدي، فإن عملت بالذي وعظتك، و انتهيت إلى الذي أمرتك، أخذت به نصيبا وافيا، و حظا وافرا. و إن لم تقبل ذلك و لا يهمك، تنزل معاظم الأمور عند الذي يرضى اللّه به عنك، يكن ذلك بك انتقاصا، و رأيك فيه مدخولا،

---

(1) الفيء: الغنيمة و الخراج.
(2) الحواشي: صغار الابل.
(3) عن يد: عن ذل.
(4) اقترفت: اكتسبت، اقتنيت.

لأن الأهواء مشتركة. و رأس كل خطيئة، و الداعي إلى كل هلكة إبليس و قد أضل القرون السالفة قبلك فأوردهم النار، و لبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالاة لعدو اللّه، و الداعي إلى معاصيه!ثم اركب الحق و خض إليه الغمرات، و كن واعظا لنفسك، و أنشدك اللّه لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم، و رحمت صغيرهم، و وقرت عالمهم، و لا تضربهم فيذلوا، و لا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، و لا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم، و لا تجمّرهم (1) في البعوث فتقطع نسلهم، و لا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، و لا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم.

هذه وصيتي إياك، و أشهد اللّه عليك، و أقرأ عليك السلام.

رسالة عمر (ر) إلى ابي موسى الأشعري.

رواها ابن عيينة، و أبو بكر الهذلي و مسلمة بن محارب، رووها عن قتادة.

و رواها أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم، عن عبيد اللّه بن ابي حميد الهذلي عن ابي المليح أسامة الهذلي. أن عمر بن الخطاب كتب إلى ابي موسى الأشعري:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، و سنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس (2) بين الناس في مجلسك و وجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، و لا يخاف ضعيف من جورك. البينة على من ادعى و اليمين على من أنكر، و الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما. و لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، و هديت فيه لرشدك، أن ترجع عنه إلى الحق فإن الحق قديم، و مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك، مما لم يبلغك في كتاب اللّه و لا في سنة النبي صلّى اللّه عليه و سلّم. أعرف الأمثال

(1) لا تجمرهم: لا تحبسهم عند العدو.
(2) آس: سو أجعل كل واحد أسوة الآخر.

و الأشباه، و قس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها إلى اللّه، و أشبهها بالحق فيما ترى. و اجعل للمدعي حقا غائبا أو بينة، أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، و إلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك انفى للشك، و أجلى للعمى، و ابلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلودا في حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو قرابة، فإن اللّه قد تولى منكم السرائر و درأ عنكم الشبهات. ثم إياك و القلق و الضجر، و التأذي بالناس، و التنكر للخصوم في مواطن الحق، التي يوجب اللّه بها الأجر، و يحسن بها الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه و بين اللّه تبارك و تعالى، و لو على نفسه، يكفه اللّه ما بينه و بين الناس، و من تزين للناس بما يعلم اللّه منه خلاف ذلك هتك اللّه ستره، و أبدى فعله. فما ظنك بثواب غير اللّه في عاجل رزقه، و خزائن رحمته. و السلام عليك.

أول

خطبة لعلي بن ابي طالب (ر)

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أول خطبة خطبها علي بن ابي طالب رحمه اللّه أنه قال بعد أن حمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على نبيه:

أما بعد فلا يرعينّ مرع إلا على نفسه (1) ، فإن من أرعى على غير نفسه شغل عن الجنة و النار أمامه. ساع مجتهد ينجو، و طالب يرجو، و مقصر في النار. ثلاثة، و اثنان: ملك طار بجناحيه، و نبي أخذ اللّه بيديه، و لا سادس.

هلك من ادعى، وردي من اقتحم، فإن اليمين و الشمال مضلة، و الوسطى الجادة، منهج عليه باقي الكتاب و السنة، و آثار النبوة. إن اللّه داوى هذه الأمة بدواءين: السيف و السوط، فلا هوادة عند الإمام فيهما، استتروا ببيوتكم و أصلحوا فيما بينكم، و التوبة من ورائكم. من أبدى صفحته للحق هلك. قد كانت لكم أمور ملتم علي فيها ميلة لم تكونوا عندي فيها بمحمودين و لا مصيبين. أما إني لو أشاء لقلت عفا اللّه عما سلف. سبق الرجلان و قام الثالث، كالغراب همّته بطنه، يا ويحه، لو قصّ جناحاه و قطع رأسه لكان خيرا

(1) الارعاء: المراعاة.

له. انظروا فإن أنكرتم فأنكروا، و إن عرفتم فآزروا. حق و باطل، و لكل أهل، و لئن أمر الباطل لقديما فعل، و لئن قلّ الحق لربما و لعل. ما أدبر شيء فأقبل. و لئن رجعت عليكم أموركم أنكم لسعداء، و إني لأخشى أن تكونوا في فترة و ما علينا إلا الاجتهاد.

قال أبو عبيدة: و روى فيها جعفر بن محمد:

ألا أن أبرار عترتي، و أطائب أرومتي، أحلم الناس صغارا، و أعلم الناس كبارا. ألا و إنّا أهل بيت من علم اللّه علمنا، و بحكم اللّه حكمنا، و من قول صادق سمعنا. و أن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، و إن لم تفعلوا يهلككم اللّه بأيدينا. معنا راية الحق، من تبعها لحق، و من تأخر عنها غرق، ألا و إن بنا ترد دبرة (1) كل مؤمن، و بنا تخلع ربقة (2) الذل من أعناقكم، و بنا غنم، و بنا فتح اللّه لا بكم، و بنا يختم لا بكم.

خطبة لعلي بن ابي طالب أيضا (ر) في الآخرة

.

أما بعد فإنّ الدنيا قد أدبرت و آذنت بوداع، و إن الآخرة قد أقبلت و أشرفت باطّلاع. و إن المضمار اليوم و السباق غدا. ألا و أنتم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله، و لم يضرره أمله و من قصر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله، و ضره أمله.

ألا فاعملوا اللّه في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة. ألا و إني لم أر كالجنة نام طالبها، و لا كالنار نام هاربها. ألا و إنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، و من لم يستقم به الهدي يجر به الضلال. ألا و إنكم قد أمرتم بالظعن، و دللتم على الزاد، و إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى و طول الأمل.

---

(1) الدبرة: الهزيمة.
(2) الربقة: الحبل.

خطبة علي في الجهاد

قالوا: أغار سفيان بن عوف الأزدي ثم الغامدي على الأنبار، زمان علي ابن ابي طالب رضي اللّه عنه، و عليها حسان–أو ابن حسان–البكري فقتله، و أزال تلك الخيل عن مسالحها، فخرج علي بن ابي طالب رضي اللّه عنه حتى جلس على باب السّدة، فحمد اللّه و اثنى عليه و صلّى على نبيه ثم قال:

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللّه ثوب الذل، و شمله البلاء، و لزمه الصّغار، و سيم الخسف، و منع النّصف. ألا و إني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا و نهارا، و سرا و إعلانا، و قلت لكم: أغزوهم قبل أن يغزوكم، فو اللّه ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم و تخاذلتم، و ثقل عليكم قولي و اتخذتموه وراءكم ظهريّا، حتى شنّت عليكم الغارات. هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، و قتل حسان–أو ابن حسان–البكري، و أزال خيلكم عن مسالحها، و قتل منكم رجالا صالحين. و لقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة و الأخرى المعاهدة، فينزع حجلها و قلبها و رعاثها (1) ثم انصرفوا وافرين، ما كلم رجل منهم كلما، فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا أسفا، ما كان عندي به ملوما، بل كان به عندي جديرا. فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم، و فشلكم عن حقكم. فقبحا لكم و ترحا، حين صرتم هدفا يرمى، و فيئا ينتهب، يغار عليكم و لا تغيرون، و تغزون و لا تغزون، و يعصى اللّه و ترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: حمّارة القيظ، أمهلنا ينسلخ عنا الحرّ و إذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم: أمهلنا ينسلخ عنا القرّ. كلّ ذا فرار من الحر و القر. فإذا كنتم من الحر و القر تفرون، فأنتم و اللّه من السيف أفر، يا أشباه الرجال و لا رجال، و يا أحلام الأطفال و عقول ربات الحجال وددت أن اللّه قد أخرجني من بين ظهرانيكم و قبضني إلى رحمته من بينكم. و اللّه لوددت أني لم أركم، و لم أعرفكم. معرفة و اللّه جرّت ندما. قد وريتم صدري غيظا، و جرّعتموني الموت

---

(1) الحجل: الخلخال. القلب: السوار. الرعاث: القرط.

أنفاسا، و أفسدتم علي رأيي بالعصيان و الخذلان، حتى قالت قريش: ابن ابي طالب شجاع و لكن لا علم له بالحرب. للّه أبوهم، و هل منهم أحد أشدّ لها مراسا أو أطول لها تجربة مني؟ لقد مارستها و ما بلغت العشرين، فها أنا ذا قد نيفت على الستين و لكن لا رأي لمن لا يطاع.

قال: فقام له رجل من الأزد يقال له فلان بن عفيف، ثم أخذ بيد ابن أخ له فقال: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين لا أملك إلا نفسي و ابن أخي فأمرنا بأمرك فو اللّه لنمضين له و لو حال دون أمرك شوك الهراس (1) و جمر الغضى. فقال لهما علي: و أين تبلغان ما أريد، رحمكما اللّه.

خطبة علي في الشكوى من أنصاره

قام فيهم خطيبا فقال:

أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤكم. كلامكم يوهي الصمّ الصلاب، و فعلكم يطمع فيكم عدوكم. تقولون في المجالس كيت و كيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد (2) . ما عزت دعوة من دعاكم، و لا استراح قلب من قاساكم، أعاليل بأضاليل. سألتموني التأخير دفاع ذي الدّين المطول.

هيهات لا يمنع الضيم الذليل، و لا يدرك الحقّ إلا بالجدّ. أيّ دار بعد داركم تمنعون؟أم أيّ أمام بعدي تقاتلون. المغرور و اللّه من غررتموه، و من فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. أصبحت و اللّه لا أصدّق قولكم، و لا أطمع في نصركم، فرّق اللّه بيني و بينكم، و أعقبني بكم من هو خير لي منكم، لوددت أن لي بكل عشرة منكم رجلا من بني فراس بن غنم، صرف الدينار بالدرهم.

خطبة عبد اللّه بن مسعود رحمه اللّه

أصدق الحديث كتاب اللّه، و أوثق العرى كلمة التقوى، و خير الملل ملة إبراهيم صلّى اللّه عليه و سلّم، و أحسن السّنن سنة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و شر الأمور محدثاتها، و خير

---

(1) الهراس: شجر كثير الشوك.
(2) حيدي حياد: عبارة يقولها الهارب الفار.

الأمور عزائمها، ما قل و كفى خير مما أكثر و ألهى. نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها، خير الغنى غنى النفس. خير ما ألقى في القلب اليقين. الخمر جماع الآثام. النساء حمالة الشيطان. الشباب شعبة من الجنون. حب الكفاية مفتاح المعجزة. من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبرا (1) . و لا يذكر اللّه إلا نزرا. أعظم الخطايا اللسان الكذوب. سباب المؤمن فسق، و قتاله كفر. و أكل لحمه معصية. و من يتألّ على اللّه يكذبه و من يغفر يغفر له. مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا عفي عنه. الشقي من شقي في بطن أمه. السعيد من وعظ بغيره. الأمور بعواقبها. ملاك الأمر خواتمه. أحسن الهدي هدي الأنبياء.

أقبح الضلالة بعد الهدى. أشرف الموت الشهادة. من يعرف البلاء يصبر عليه. من لا يعرف البلاء ينكره.

خطبة عتبة بن غزوان السلمي بعد فتح الابلة

حمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على النبي صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال:

أما بعد فإن الدنيا قد تولّت حذّاء (2) مدبرة، و قد آذنت أهلها بصرم، و إنما بقي منها صبابة كصبابة (3) الاناء يصطبّها صاحبها. ألا و إنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى في النار من شفيرها فيهوي فيها سبعين عاما لا يدرك لها قعرا.

و اللّه لتملأنّ. أ فعجبتم و لقد ذكر لنا أن بين مصراعين من الجنة مسيرة أربعين سنة، و ليأتينّ عليه وقت و هو كظيظ بالزحام. و لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني و بين سعد بن مالك فائتزرت بنصفها و ائتزر بنصفها، فما أصبح اليوم أحد منا حيا إلا أصبح أميرا على مصر من الأمصار. و إني أعوذ باللّه من أن أكون في نفسي عظيما، و عند اللّه صغيرا. و إنها لم تكن نبوة قطّ إلا تناسخت حتى يكون عاقبتها ملكا و ستخبرون الأمراء بعدي فتعرفون و تنكرون.

---

(1) الدبر: آخر الوقت.
(2) حذاء: سريعة الادبار.
(3) صبابة: الماء و الشراب في الاناء.

خطبة من خطب معاوية (ر)

رواها شعيب بن صفوان، و زاد فيها البقطريّ و غيره، قالوا: لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له: من بالباب؟قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك. فقال: ويحك، و لم؟قال: لا أدري، قال: فو اللّه ما لهم بعدي إلا الذي يسوؤهم. و أذن للناس فدخلوا، فحمد و أثنى عليه و أوجز ثم قال:

أيها الناس، أنا قد أصبحنا في دهر عنود (1) ، و زمن شديد، يعدّ فيه المحسن مسيئا، و يزداد فيه الظالم عتوا، و لا ننتفع بما علمناه، و لا نسأل عما جهلناه، و لا نتخوف قارعة حتى تحلّ بنا. فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، و كلال حدّه، و نضيض وفره (2) . و منهم المصلت لسيفه، المجلب بخيله و رجله، المعلن بسره، قد أشرط لذلك نفسه، و أوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه (3) ، و لبئس المتجر أن تراها لنفسك ثمنا، و مما لك عند اللّه عوضا.

و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، و لا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، و قارب من خطوه و شمّر من ثوبه، و زخرف نفسه للأمانة، و اتخذ ستر اللّه ذريعة إلى المعصية. و منهم من أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه، و انقطاع من سببه، فقصرت به الحال عن أمله. فتحلى باسم القناعة، و تزين بلباس الزهادة و ليس من ذلك في مراح و لا مغدى. و بقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع، و أراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد نادّ (4) ، و خائف منقمع، و ساكت مكعوم، وداع مخلص، و موجع ثكلان، قد أخملتهم التقية، و شملتهم الذلة، فهم في بحر أجاج، أفواههم ضامزة (5) ، و قلوبهم قرحة، و قد وعظوا حتى ملوا، و قهروا حتى ذلوا، و قتلوا حتى قلوا. فلتكن الدنيا في

---

(1) عنود: جائر.
(2) نضيض وفره: قليل ماله. أشرط نفسه: أعدها.
(3) يفرع: يعلو.
(4) نادّ: نافر.
(5) ضامزة: ساكنة.

عيونكم أصغر من حثالة القرظ، و قراضة الجلمين (1) . و اتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من يأتي بعدكم. فارفضوها ذميمة، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم.

و في هذه الخطبة أبقاك اللّه ضروب من العجب: منها أن الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية، و منها أن هذا المذهب تصنيف الناس، و في الأخبار عما هم عليه من القهر و الاذلال، و من التقية و الخوف أشبه بكلام علي رضي اللّه عنه و معانيه و حاله منه بحال معاوية. و منها أنّا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد، و لا يذهب مذاهب العباد.

و إنما نكتب لكم و نخبر بما سمعناه، و اللّه أعلم بأصحاب الأخبار، و بكثير منهم.

خطبة زياد بالبصرة.

و هي التي تدعى البتراء

قال أبو الحسن المدائني، و غيره، ذكر ذلك عن مسلمة بن محارب، و عن أبي بكر الهذلي قالا: قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن أبي سفيان و ضم إليه خراسان و سجستان، و الفسق بالبصرة كثير فاش ظاهر.

قالا: فخطب خطبة بتراء، لم يحمد اللّه فيها، و لم يصل على النبي.

و قال غيره: بل قال:

الحمد للّه على أفضاله و إحسانه، و نسأله المزيد من نعمه و إكرامه. اللهم كما زدتنا نعما فألهمنا شكرا.

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، و الضلالة العمياء، و الغيّ الموفي بأهله

(1) الجلمين: المقص الذي يجز به وبر الابل.

على النار، ما فيه سفهاؤكم و يشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، و لا ينحاش (1) عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب اللّه، و لم تسمعوا ما أعدّ اللّه من الثواب الكريم لأهل طاعته، و العذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمد الذي لا يزول، أ تكونون كمن طرفت عينه الدنيا، و سدّت مسامعه الشهوات، و اختار الفانية على الباقية، و لا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من تركككم الضعيف يقهر و يؤخذ ماله، و هذه المواخير المنصوبة و الضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، و العدد غير قليل. أ لم تكن منهم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل و غارة النهار؟!أقربتم القرابة، و باعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، و تغضون على المختلس.

أ ليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صنع من لا يخاف عاقبة و لا يرجو معادا. ما أنتم بالحلماء، و لقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام، ثم اطرقوا وراءكم كنوسا في مكانس الريب. حرام عليّ الطعام و الشراب حتى أسوّيها بالأرض، هدما و احراقا. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوّله: لين في غير ضعف، و شدة في غير عنف. و إني أقسم باللّه لآخذنّ الولي بالولي، و المقيم بالظاعن، و المقبل بالمدبر، و المطيع بالعاصي، و الصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم. إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، و إذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ (2) و اعلموا أن عندي أمثالها. من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه. فإياي و دلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه. و قد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة و يرجع اليكم. و إيّاي و دعوة الجاهلية، فإني لا آخذ داعيه بها إلا قطعت لسانه. و قد أحدثتم احداثا لم تكن، و قد أحدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن غرّق قوما غرّقناه، و من أحرق قوما أحرقناه، و من نقب بيتا نقبنا عن قلبه، و من نبش

---

(1) انحاش: نفر، ارتد.
(2) اغتمز: استضعف.

قبرا دفناه فيه حيا. فكفوا عني أيديكم و ألسنتكم، أكف عنكم يدي و لساني. و لا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه و قد كانت بيني و بين أقوام أحن فجعلت ذلك دبر أذني و تحت قدمي، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا، و من كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته. إني و اللّه لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم أكشف له قناعا، و لم أهتك له سترا، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم، و أرعوا (1) على أنفسكم، فرب مسوء بقدومنا سنسرّه و مسرور بقدومنا سنسوؤه.

أيها الناس، أنّا أصبحنا لكم سادة، و عنكم ذادة، نسوسكم بسلطان اللّه الذي أعطانا، و نذود عنكم بفيء اللّه الذي خولنا. فلنا عليكم السمع و الطاعة فيما أخببنا، و لكم علينا العدل و الانصاف فيما ولينا. فاستوجبوا عدلنا و فيئنا بمناصحتكم لنا، و اعلموا إني مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة منكم و لو أتاني طارقا بليل، و لا حابسا عطاء و لا رزقا عن ابانه، و لا مجمرا لكم بعثا. فادعوا اللّه بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون، و كهفكم الذي إليه تأوون، و متى يصلحوا تصلحوا. و لا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم، و يطول له حزنكم، و لا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيه لكان شرا لكم. أسأل اللّه أن يعين كلا على كل. و إذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله و أيم اللّه أن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي.

قال: فقام إليه عبد اللّه بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير، لقد أوتيت الحكمة و فصل الخطاب. فقال له: كذبت، ذلك نبي اللّه داود صلّى اللّه عليه و سلّم.

فقام الأحنف بن قيس فقال: أيها الأمير، إنما المرء بجدّه، و الجواد بشدّه و قد بلغك جدك أيها الأمير ما ترى، و إنما الثناء بعد البلاء، و الحمد بعد العطاء، و أنا لن نثني حتى نبتلي. فقال زياد: صدقت.

---

(1) الارعاء: الرفق، الايفاء.

فقام إليه أبو بلال مرداس بن أديّة (1) ، و هو يهمس و يقول: أنبأنا اللّه بغير ما قلت، فقال: (و إبراهيم الذي و فى. ألا تزر وازرة وزر أخرى. و أن ليس للانسان إلا ما سعى) . و أنت تزعم إنك تأخذ البريء بالسقيم، و المطيع بالعاصي، و المقبل بالمدبر. فسمعه زياد فقال: أنا لا نبلغ ما نريد فيك و في أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضا.

و قال الشعبي: ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا أن يسيء، إلا زيادا، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما.

أبو الحسن المدائني قال: قال الحسن: أوعد عمر فعوفي، و أوعد زياد فابتلي.

قال: و قال الحسن تشبه زياد بعمر فأفرط، و تشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس.

مقطعات و خطب قصيرة

قال أبو عثمان: قد ذكرنا من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و خطبه صدرا، و ذكرنا من خطب السلف رحمهم اللّه جملا، و سنذكر من مقطّعات الكلام، و تجاوب البلغاء، و مواعظ النساك، و نقصد من ذلك إلى القصار دون الطوال، ليكون ذلك أخفّ على القارئ، و أبعد من السآمة و الملل. ثم نعود بعد ذلك إلى الخطب المنسوبة إلى أهلها إن شاء اللّه. و لا قوة إلا باللّه.

قال ابو الحسن المدائني: قدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي، على المهلّب بن ابي صفرة، في بعض أيامه مع الأزارقة، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم فقال: «شدّ اللّه الاسلام بتلاحقكم، فو اللّه لئن لم تكونوا أسباط نبوة إنكم لأسباط ملحمة» .

---

(1) مرداس بن أدية: أحد زعماء الخوارج، خرج زمن يزيد بن معاوية قرب البصرة على عبيد اللّه بن زياد فوجه اليه حملة و هزمه و قتل سنة 61 هـ.

و قال أبو الحسن: دخل الهذيل بن زفر الكلابي، على يزيد بن المهلب في حملات لزمته، و نوائب نابته، فقال له: «أصلحك اللّه، إنه قد عظم شأنك، و ارتفع قدرك أن يستعان بك، أو يستعان عليك. و لست تفعل شيئا من المعروف إلا و أنت أكبر منه. و ليس العجب من أن تفعل و لكن العجب من أن لا تفعل» . قال يزيد: حاجتك. فذكرها، فأمر له بها، و أمر له بمائة ألف، فقال: أما الحمالات فقد قبلتها، و أما المال فليس هذا موضعه.

عيسى بن يزيد بن دأب، عمّن حدثه عن رجل كان يجالس ابن عباس قال: قال عثمان بن أبي العاصي الثقفي لبنيه: «يا بني، إني قد أمجدتكم في أمهاتكم، و أحسنت في مهنة أموالكم، و إني ما جلست في ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه. و الناكح مغترس، فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه. و العرق السوء قلما ينجب و لو بعد حين» . قال: فقال ابن عباس: «يا غلام، أكتب لنا هذا الحديث» .

قال: و لما همت ثقيف بالارتداد قال لهم عثمان: «معاشر ثقيف، لا تكونوا آخر العرب إسلاما، و أولهم ارتدادا» .

قال: و سمعت إعرابيا ذكر يوما قريشا، فقال: «كفى بقريش شرفا إنهم أقرب الناس نسبا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أقربهم بيتا من بيت اللّه» .

الأصمعي قال: قيل لعقيل بن علّفة أ تهجو قومك؟قال: الغنم إذا لم يصفر بها لم تشرب.

قال: و قيل لعقيل: لم لا تطيل الهجاء؟قال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق» .

قال: و سأل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه عمرو بن معد يكرب، عن سعد قال: كيف أميركم؟قال: «خير أمير. نبطي في حبوته، عربي في نمرته، أسد في تامورته (1) ، يعدل في القضية، و يقسم بالسوية، و ينفر في

(1) التامورة: العرين.

السرية، و ينقل إلينا حقّنا كما تنقل الذّرّة» . فقال عمر: لشد ما تقارضتما الثناء.

قال: و لما تورّد الحارث بن قيس الجهضمي بعبيد اللّه بن زياد، منزل مسعود بن عمرو العتكي، عن غير إذن، فأراد مسعود إخراجه من منزله، قال عبيد اللّه: قد أجارتني ابنة عمك عليك، و عقدها العقد الذي يلزمك، و هذا ثوبها عليّ و طعامها في مذاخيري (1) ، و قد التف علي منزلك. و شهد له الحارث بذلك.

قال: مرّ الشعبي بناس من الموالي يتذاكرون النحو فقال: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده.

قال: و تكلم عبد الملك بن عمير، و إعرابي حاضر، فقيل له: كيف ترى هذا الكلام؟فقال: لو كان الكلام يؤتدم به لكان هذا الكلام مما يؤتدم به.

و قال جرير: «العذرة طرف من البخل» .

و قال جرير: «الخرس خير من الخلابة» .

و قال ابو عمر الضرير: «البكم خير من البذاء» .

قال: و قدم الهيثم بن الأسود بن العريان على عبد الملك بن مروان فقال. كيف تجدك؟قال: أجدني قد أبيض مني ما كنت أحب أن يسود، و أسودّ مني ما كنت أحب أن يبيضّ، و اشتد مني ما كنت أحب أن يلين، و لان مني ما كنت أحب أن يشتد. ثم أنشد:

اسمع أنبئك بآيات الكبر # نوم العشاء و سعال بالسحر

و قلة النوم إذا الليل اعتكر # و قلة الطعم إذا الزاد حضر

(1) المذاخير: المصارين.

و سرعة الطرف و تحميج النظر # و تركى الحسناء في قبل الطهر
و حذرا ازداده إلى حذر # و الناس يبلون كما يبلى الشجر

و قال أكثم بن صيفي: الكرم حسن الفطنة و حسن التغافل، و اللؤم سوء الفطنة و سوء التغافل.

و قال أكثم بن صيفي: تباعدوا في الديار تقاربوا في المودة.

و قال آخر لبنيه: تباذلوا تحابوا.

قال: و دخل عيسى بن طلحة بن عبيد اللّه، على عروة بن الزبير و قد قطعت رجله، فقال له عيسى: و اللّه ما كنا نعدّك للصراع، و لقد أبقى اللّه لنا أكثرك: أبقى لنا سمعك و بصرك، و لسانك و عقلك، و يديك و إحدى رجليك.

فقال له عروة: و اللّه يا عيسى ما عزّاني أحد بمثل ما عزّيتني به.

و كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه: «أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن، و بالآخرة لم تزل» .

قال: و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «اقرءوا القرآن تعرفوا به، و اعملوا به تكونوا من أهله، و لن يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية اللّه، و لن يقرّب من أجل، و لن يباعد من رزق، أن يقوم رجل بحق، أو يذكر بعظيم» .

و قال إعرابي لهشام بن عبد الملك: أتت علينا ثلاثة أعوام. فعام أكل الشحم، و عام أكل اللحم، و عام انتقى العظم (1) . و عندكم أموال، فإن كانت للّه فادفعوها إلى عباد اللّه، و إن كانت لعباد اللّه فادفعوها إليهم، و إن كانت لكم فتصدقوا، فإن اللّه يجزي المتصدقين. قال: فهل من حاجة غير ذلك؟قال: ما ضربت إليك أكباد الابل أدّرع الهجير، و أخوض الدجى لخاص دون عام.

(1) انتقى: استخرج.

قال شداد الحارثي، و يكنى أبا عبيد اللّه: قلت لأمة سوداء بالبادية: لمن أنت يا سوداء؟ قالت: لسيد الحضر يا أصلع. قال: قلت لها: أ و لست بسوداء!قالت: أ و لست بأصلع؟قلت: ما أغضبك من الحق؟قالت: الحق أغضبك!لا تسبب حتى ترهب، و لأن تتركه أمثل.

و قال الأصمعي: قال عيسى بن عمر: قال ذو الرمة: قاتل اللّه امة آل فلان ما كان أفصحها!سألتها كيف المطر عندكم؟فقالت: غثنا ما شئنا.

و أنا رأيت عبدا أسود لبني أسيد، قدم عليهم من شقّ اليمامة، فبعثوه ناطورا، و كان وحشيا محرّما، لطول تعزّبه كان في الابل، و كان لا يلقى إلا الأكرة، فكان لا يفهم عنهم، و لا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن اليّ، و سمعته يقول: لعن اللّه بلادا ليس فيها عرب. قاتل الشاعر حيث يقول:

حرّ الثرى مستعرب التراب

أبا عثمان، إن هذه العريب في جميع الناس كمقدار القرحة في جميع جلد الفرس، فلولا أن اللّه رق عليهم فجعلهم في حاشية لطمست هذه العجمان آثارهم، أ ترى الأعيار إذا رأت العتاق لا ترى لها فضلا، و اللّه ما أمر اللّه نبيه بقتلهم إلا لضنه بهم، و لا ترك قبول الجزية منهم إلا تنزيها لهم.

و قال الأحنف بن قيس: أسرع الناس إلى الفتنة أقلهم حياء من الفرار.

قال: و لما مات أسماء بن خارجة (1) ، فبلغ الحجاج موته، قال: هل سمعتم بالذي عاش ما شاء، ثم مات حين شاء.

و قال سلّم بن قتيبة: ربّ المعروف أشد من ابتدائه.

أبو هلال، عن قتادة قال: قال أبو الأسود: إذا أردت أن تكذب صاحبك فلقّنه.

---

(1) اسماء بن خارجة بن حصن الفزاري من سادات قومه في الكوفة فارس اشترك في قتل الحسين بن علي، و طلبه المختار فهرب الى الشام فأطرق داره.

و قال أبو الأسود: إذا أردت أن تعظّم فمت، و إذا أردت أن تفحم عالما فاحضره جاهلا.

و قال: و قيل لأعرابي: ما يدعوك إلى نومة الضحى؟فقال: مبردة في الصيف، مسخنة في الشتاء.

و قال أعرابي: نومة الضحى مجعرة مجفرة (1) مبخرة.

و جاء في الحديث: «الولد مبخلة مجبنة» .

قال: و نظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال رمضان، فقال أما و اللّه لئن أثرتموه لتمسكنّ منه بذنابى عيس أغبر.

و قال أسماء بن خارجة: إذا قدمت المصيبة تركت التعزية.

و قال: إذا قدم الإخاء سمج الثناء.

و قال إسحاق بن حسان: لا تشمت الأمراء و لا الأصحاب القدماء.

و سئل أعرابي عن راع له فقال: هو السارح الآخر، و الرائح الباكر، و الحالب العاصر: و الحاذف (2) الكاسر.

قال: و قال عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده:

ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بنيّ إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، و القبيح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب اللّه، و لا تكرههم عليه فيملوه، و لا تتركهم منه فيهجروه، ثم روّهم من الشعر أعفه، و من الحديث أشرفه، و لا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، و علمهم سير الحكماء و أخلاق الأدباء، و جنبهم محادثة النساء، و تهددهم بي و أدّبهم دوني،

---

(1) مجعرة: يبس الطبيعة. مجفرة: مقطعة للنكاح، منقصة للماء.
(2) الحاذف: الذي يضرب بعصاه.

و كن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، و لا تتكل على عذري، فإني قد اتكلت على كفايتك، و زد في تأديبهم أزرك في بري إن شاء اللّه.

محمد بن حرب الهلالي قال: كتب إبراهيم بن أبي يحيى الاسلمي، إلى المهدي يعزيه على ابنته: أما بعد فإن أحق من عرف حق اللّه عليه فيما أخذ منه، من عظّم حقّ اللّه عليه فيما أبقي له. و اعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك، و إن الباقي بعدك هو المأجور فيك، و إن أجر الصابرين فيما يصابون به، أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه.

قال: و قال سهل بن هارون: التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة.

و قال صالح بن عبد القدوس:

إن يكن ما به أصبت جليلا # فذهاب العزاء فيه أجلّ

كل آت لا شك آت و ذو الجهـ # ـل معنى و الهم و الحزن فضل

و قال لقمان لابنه؛ يا بني إياك و الكسل و الضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤدّ حقا، و إذا ضجرت لم تصبر على حق.

قال: و كان يقال: أربع لا ينبغي لأحد أن يأنف منهن و إن كان شريفا أو أميرا: قيامه عن محله لأبيه، و خدمته لضيفه، و قيامه على فرسه، و خدمته للعالم.

و قال بعض الحكماء: إذا رغبت في المكارم، فاجتنب المحارم.

و كان يقال: لا تغتر بمودة الأمير، إذا غشك الوزير.

و كتب بعضهم: أما بعد فقد كنت لنا كلك، فاجعل لنا بعضك، و لا ترض إلا بالكل منا لك.

و وصف بعض البلغاء اللسان فقال: اللسان أداة يظهر بها حسن البيان، و ظاهر يخبر عن ضمير، و شاهد ينبئك عن غائب، و حاكم يفصل به الخطاب و ناطق يرد به الجواب، و شافع تدرك به الحاجة، و واصف تعرف به الحقائق، و معزّ ينفى به الحزن، و مؤنس تذهب به الوحشة، و واعظ ينهى عن القبيح، و مزين يدعو إلى الحسن، و زارع يحرث المودة، و حاصد يستأصل الضغينة، و مله يونق الأسماع.

و قال بعض الأوائل: إنما الناس أحاديث، فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثا فافعل.

و لما وصل عبد العزيز بن زرارة إلى معاوية قال: يا أمير المؤمنين، لم أزل أستدل بالمعروف عليك، و أمتطي النهار إليك، فإذا ألوى بي الليل فقبض البصر و عفّي الأثر، أقام بدني و سافر أملي و النفس تلوّم، و الاجتهاد يعذر فإذ قد بلغتك فقطني.

قال: قال لقمان لابنه: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، و لا الشجاع إلا في الحرب، و لا تعرف أخاك إلا عند الحاجة إليه.

و قال أبو العتاهية:

أنت ما استغنيت عن صا # حبك الدهر أخوه

فإذا احتجت إليه # ساعة مجّك فوه

و قال علي بن الحسين لابنه: يا بني، اصبر على النائبة، و لا تتعرض للحقوق، و لا تجب أخاك إلى شيء مضرته عليك أعظم من منفعته له.

و قال الأحنف: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات.

و قال: رب غيظ تجرّعته مخافة ما هو أشد منه.

و قالوا: من كثر كلامه كثر سقطه، و من طال صمته كثرت سلامته.

قال: و قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل.

محمد بن حرب الهلالي، عن أبي الوليد الليثي قال: خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب العدواني ابنته «عمرة» ، و هي أم عامر بن صعصعة فقال عامر بن الظّرب: يا صعصعة: إنك قد أتيتني تشتري مني كبدي، و أرحم ولدي عندي، غير أني، أطلبتك أو رددتك، فالحسيب كفء الحسيب، و الزوج الصالح أب بعد أب، و قد انكحتك مخافة ألا أجد مثلك أفر من السر إلى العلانية. أنصح ابنا، و أدع ضعيفا قويا. يا معشر عدوان: خرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رغبة و لا رهبة. اقسم لو لا قسم الحظوظ على قدر المجدود، لما ترك الأول للآخر شيئا يعيش به.

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: «أوصيكم بأربع لو ضربتم إليها آباط الابل لكنّ لها أهلا: لا يرجونّ أحد منكم إلا ربه، و لا يخافنّ إلا ذنبه، و لا يستحي أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، و لا إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه. و إن الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذهب الجسد، و كذلك إذا ذهب الايمان.

قال: و مدح علي بن أبي طالب رجل فأفرط فقال علي-و كان يتهمه-:

«أنا دون ما تقول، و فوق ما في نفسك» .

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن.

و قال له مالك الأشتر: كيف وجد أمير المؤمنين أهله؟فقال: كخير امرأة، قبّاء جباء!قال: و هل يريد الرجال من النساء غير ذلك يا أمير المؤمنين؟قال: لا، حتى تدفئ الضجيع، و تروي الرضيع.

قال: و وقف رجل على عامر الشعبي فلم يدع قبيحا إلا رماه به، فقال له عامر: إن كنت كاذبا فغفر اللّه لك، و إن كنت صادقا فغفر اللّه لي.

و قال إبراهيم النخعي لسليمان الأعمش-و أراد أن يماشيه-: إن الناس إذا رأونا معا قالوا: أعمش و أعور!قال: و ما عليك أن يأثموا و نؤجر؟قال: و ما علينا أن يسلموا و نسلّم! قال أبو الحسن: كان هشام بن حسان إذا ذكر يزيد بن المهلب، قال:

إن كانت السفن لتجري في جوده.

و قال: مكتوب في الحكمة: التوفيق خير قائد، و حسن الخلق خير قرين، و الوحدة خير من جليس السوء.

و قال: و كان مالك بن دينار يقول: ما أشد فطام الكبير. و كان ينشد قول الشاعر:

و تروض عرسك بعد ما هرمت # و من العناء رياضة الهرم

و قال صالح المري: كن إلى الاستماع أسرع منك إلى القول، و من خطاء الكلام أشدّ حذرا من خطاء السكوت.

و قال الحسن بن هانئ:

خلّ جنبيك لرام # و امض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير # لك من داء الكلام

إنما السالم من ألجم # فاه بلجام

ربما استفتحت بالمز # ح مغاليق الحمام

أبو عبيدة و أبو الحسن: تكلم جماعة من الخطباء عند مسلمة بن عبد الملك، فأسهبوا في القول، ثم اقترح المنطق منهم رجل من أخريات الناس،

فجعل لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن منه. فقال مسلمة: ما شبهت كلام هذا بعقب كلام هؤلاء إلا بسحابة لبّدت عجاجة (1) .

و قال أبو الحسن: علم أعرابي بنيه الخراءة فقال: ابتغوا الخلا، و ابعدوا عن الملا (2) ، و اعلوا الضّرا (3) ، و استقبلوا الريح، و أفجّوا إفجاج (4)

النعامة، و امتسحوا بأشملكم.

و روي عن الحسن أنه قال: لما حضرت قيس بن عاصم الوفاة دعا بنيه فقال: يا بني احفظوا عني، فلا أحد أنصح لكم مني. إذا مت فسوّدوا كباركم، و لا تسوّدوا صغاركم فيسفّه الناس كباركم و تهونوا عليهم، و عليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم، و يستغنى به عن اللئيم. و إياكم و مسألة الناس، فإنها شر كسب المرء.

سئل دغفل النسّابة عن بني عامر بن صعصعة، فقال: أعناق ظباء، و أعجاز نساء. قيل: فتميم؟قال: حجر أخشن، أن دنوت منه آذاك، و إن تركته خلاك. قيل: فاليمن؟قال: سيد و أنوك.

و كانوا يقولون: لا تستشيروا معلما، و لا راعي غنم، و لا كثير القعود مع النساء.

عقال بن شبة قال: كنت رديفا لأبي، فلقيه جرير على بغل، فحياه أبي و ألطفه، فقلت له: أبعد ما قال؟قال: يا بني أ فأوسّع جرحي؟ قال: و دعا جرير رجلا من شعراء بني كلاب إلى مهاجاته، فقال الكلابي أن نسائي بأمتهنّ، و لم تدع الشعراء في نسائك مترقعا (5) .

---

(1) العجاجة: الغبار.
(2) الخلا: بيت الخلاء.
(3) الضراء: الارض الفضاء المستوية.
(4) افجاج: فتح الرجلين و تباعد ما بينهما.
(5) بامتهن: بحالتهن، بشأنهم. مترقع: موضع الشتم.

و قال جرير: أنا لا أبتدي و لكن أعتدي.

و كان الحسن في جنازة فيها نوائح و معه رجل، فهم الرجل بالرجوع فقال الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحا تركت له حسنا، أسرع ذلك في دينك.

قال أبو عبيدة: لقي القريعيّ الزبرقان بن بدر فقال: كيف كنت بعدي أبا شذرة؟فقال: كما يسرك محيلا مجربا.

قال: و كان عبد الملك بن مروان يقول: جمع أبو زرعة-يعني روح بن زنباع-طاعة أهل الشام، و دهاء أهل العراق، و فقه أهل الحجاز.

و ذكر لعمر بن الخطاب إتلاف شباب من قريش أموالهم فقال: حرفة أحدهم أشد عليّ من عيلته.

و قال عمر بن الخطاب: حرفة يعاش بها، خير من مسألة الناس.

و قال زياد: لو أن لي ألف درهم و لي بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره. و لو أن عندي عشرة دراهم لا أملك غيرها و لزمني حق لوضعتها فيه.

و قال عمرو بن العاص: البطنة تذهب الفطنة.

و قال معاوية: ما رأيت رجلا يستهتر بالباءة إلا تبينت ذلك في منته (1) .

قال: الأصمعي: و قال أبو سليمان الفقعسي لأعرابي من طيئ:

أ بامرأتك حمل. قال: لا و ذو بيته في السماء، ما أدري، و اللّه ما لها ذئب تشتال به، و ما آتيها إلا و هي ضبعة (شديدة الشهوة) .

قال أبو الحسن المدائني: اتخذ يزيد بن المهلب بستانا في داره بخراسان، فلما ولي قتيبة بن مسلم خراسان جعل ذلك لإبله، فقال له مرزبان

(1) منته: قوته، طاقته.

مروان: هذا كان بستانا ليزيد، اتخذته لإبلك!فقال قتيبة، إن أبي كان أشتربان (يريد جمالا) ، و أبو يزيد كان بستان بان.

و قال الحجاج بن يوسف لعبد الملك بن مروان: لو كان رجل من ذهب لكنته. قال: و كيف ذلك؟قال؟لم تلدني أمة بيني و بين آدم ما خلا هاجر.

قال: لو لا هاجر لكنت كلبا من الكلاب.

قال: و مات ابن لعبيد اللّه بن الحسن، فعزّاه صالح المريّ فقال: إن كانت مصيبتك في ابنك أحدثت لك عظة في نفسك فنعم المصيبة مصيبتك، و إن تكن أحدثت لك عظة في نفسك فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ابنك.

قال: و عزى عمرو بن عبيد أخاه في ابن مات له، فقال: ذهب ابوك و هو أصلك، و ذهب ابنك و هو فرعك، فما حال الباقي بعد ذهاب أصله و فرعه.

قال: و كان يزيد بن عمر بن هبيرة يقول: احذفوا الحديث كما يحذفه سلم بن قتيبة.

قال: و قال رجل من بني تميم لصاحب له: اصحب من يتناسى معروفه عندك، و يتذكر إحسانك إليه، و حقوقك عليه.

و عذل عاذل شعيب بن زياد على شرب النبيذ، فقال: لا أتركه حتى يكون شرّ عملي.

و قال المأمون: اشربه ما استبشعته، فإذا سهل عليك فاتركه.

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كتب أحدهم كتابا فليترّبه. فإن التراب مبارك، و هو أنجح للحاجة» .

و نظر صلّى اللّه عليه و سلّم إلى رجل في الشمس، فقال: «تحول إلى الظل فإنه مبارك» .

و قال المغيرة بن شعبة: لا يزال الناس بخير ما تعجبوا من العجب.

و كان يقال: ترك الضحك من العجب، أعجب من الضحك بغير عجب.

قال: قدم سعيد بن العاصي على معاوية فقال: كيف تركت أبا عبد الملك؟فقال: منفذا لأمرك، ضابطا لعملك. فقال له معاوية: إنما هو كصاحب الخبزة كفى إنضاجها فأكلها. فقال سعيد: كلا إنه بين قوم يتهادون فيما بينهم كلاما كوقع النبل، سهما لك و سهما عليك. قال: فما باعد بينه و بينك؟ فقال: خفته على شرفي، و خافني على مثله. قال: فأي شيء كان له عندك في ذلك؟فقال: أسوءه حاضرا و أسره غائبا.

قال: يا أبا عثمان، تركتنا في هذه الحروب. قال: نعم: تحملت الثقل و كفيت الحزم، و كنت قريبا لو دعيت لأجبت، و لو أمرت لأطعت. قال معاوية: يا أهل الشام: هؤلاء قومي و هذا كلامهم.

قال: و كان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العتكيّ، فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك، و الحجاج حاضر، قال زياد: «يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، و سهمك الذي لا يطيش، و خادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم» . فلم يكن بعد ذلك أحد أخف على قلبه منه.

و قال شبيب بن شيبة لسلم بن قتيبة: و اللّه ما أدري أي يوميك أشرف:

أ يوم ظفرك أم يوم عفوك.

قال: و قال غلام لأبيه–و قد قال له: لست لي ابنا–: و اللّه لأنا أشبه بك منك بأبيك، و لأنت أشد تحصينا لأمي من أبيك لأمك.

و كتب عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر ذي الجناحين إلى رجل من إخوانه:

«أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. ابتدأتني بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولك في

أخائك، و أيأسني آخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحا، و لا أنا في غد و انتظاره منك على ثقة. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف.

و السلام.

و كتب إلى أبي مسلم صاحب الدعوة أيضا، من الحبس:

«من الأسير في يديه، بلا ذنب إليه، و لا خلاف عليه. أما بعد فآتاك اللّه حفظ الوصية، و منحك نصيحة الرعية، و ألهمك عدل القضية، فإنك مستودع ودائع، و مولى صنائع، فاحفظ ودائعك بحسن صنائعك، فالودائع عارية و الصنائع مرعية، و ما النعم عليك و علينا فيك بمنزور نداها، و لا بمبلوغ مداها. فنبه للتفكر قلبك، و اتق اللّه ربك، و أعط من نفسك لمن هو تحتك ما تحبّ أن يعطيك من هو فوقك: من العدل و الرآفة، و الأمن من المخافة، فقد أنعم اللّه عليك بأن فوض أمرنا إليك. فاعرف لنا لين شكر المودة، و اغتفار مس الشدة، و الرضا بما رضيت، و القناعة بما هويت، فإن علينا من سهك (1)

الحديد و ثقله أذى شديدا، مع معالجة الأغلال، و قلة رحمة العمال، الذين تسهيلهم الغلظة، و تيسيرهم الفظاظة، و إيرادهم علينا الغموم، و توجيههم إلينا الهموم، زيارتهم الحراسة، و بشارتهم الإياسة. فإليك بعد اللّه نرفع كربة الشكوى، و نشكو شدة البلوى، فمتى تمل إلينا طرفا، و تولنا منك عطفا، تجد عندنا نصحا صريحا، و ودا صحيحا، لا يضيع مثلك مثله، و لا ينفي مثلك أهله، فارع حرمة من أدركت بحرمته، و اعرف حجة من فلجت بحجته، فإن الناس من حوضك رواء، و نحن منه ظماء، يمشون في الابراد، و نحن نرسف في الأقياد، بعد الخير و السعة، و الخفض و الدعة. و اللّه المستعان، و عليه التكلان، صريخ (2) الأخيار، و منجي الأبرار. الناس من دولتك في رخاء،

(1) السهك: رائحة الصدأ.
(2) الصريخ: المغيث.

و نحن منها في بلاء، حين أمن الخائفون، و رجع الهاربون. رزقنا اللّه منك التحنن، و ظاهر علينا منك التمنن، فإنك أمين مستودع، و رائد مصطنع.

و السلام و رحمة اللّه.

قال هشام بن الكلبي، قال: حدثني خالد بن سعيد، عن أبيه قال:

شكت بنو تغلب السنة إلى معاوية، فقال: كيف تشكون الحاجة مع ارتجاع البكارة، و اجتلاب المهارة؟! ابن الكلبي قال: كتب معاوية إلى قيس بن سعد، و هو والي مصر لعلي ابن أبي طالب رضي اللّه عنه:

أما بعد فإنما أنت يهوديّ بن يهودي. إن ظفر أحبّ الفريقين إليك عزلك و استبدل بك، و إن ظفر أبغضهما إليك قتلك و نكل بك. و قد كان أبوك وتر قوسه و رمى غير غرضه، فأكثر الحزّ و أخطأ المفصل، فخذله قومه، و أدركه يومه، ثم مات طريدا بحوران. و السلام.

فكتب إليه قيس بن سعد:

أما بعد فإنك وثن بن وثن، دخلت في الاسلام كرها، و خرجت منه طوعا، لم يقدم إيمانك و لم يحدث نفاقك. و قد كان أبي رحمه اللّه وتر قوسه و رمى غرضه، فشغب عليه، من لم يبلغ كعبه، و لم يشق غباره. و نحن بحمد اللّه أنصار الدين الذي خرجت منه، و أعداء الدين الذي دخلت فيه. و السلام.

و قال أبو عبيدة، و أبو اليقظان، و أبو الحسن: قدم وفد العراق على معاوية، و فيهم الأحنف، فخرج الاذن فقال: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه. فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لو لا عزيمة أمير المؤمنين

لأخبرته أن دافة دفّت (1) ، و نازلة نزلت، و نائبة نابت (2) ، و نابتة نبتت (3) ، كلهم به حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره.

قال: حسبك يا أبا بحر، قد كفيت الشاهد و الغائب.

و قال غيلان بن خرشة للأحنف: ما بقاء ما فيه العرب؟قال: إذا تقلدوا السيوف، و شدوا العمائم، و ركبوا الخيل، و لم تأخذهم حمية الأوغاد. قال غيلان: و ما حمية الأوغاد؟قال: أن يعدوا التواهب فيما بينهم ضيما.

و قال عمر: العمائم تيجان العرب.

و قال: و قيل لأعرابي: ما لك لا تضع العمامة على رأسك؟قال: إن شيئا فيه السمع و البصر لحقيق بالصون.

و قال علي بن ابي طالب رضي اللّه عنه: جمال الرجل في عمّته، و جمال المرأة في حقّها.

و قال الأحنف: استجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال.

قال: و قد جرى ذكر رجل عند الأحنف فاغتابوه فقال: ما لكم و ما له؟ يأكل رزقه، و يكفي قرنه، و تحمل الأرض ثقله.

مسلمة بن محارب قال: قال زياد لحرقة بنت النعمان: ما كانت لذة أبيك؟قالت: إدمان الشراب، و محادثة الرجال.

قال: و قال سليمان بن عبد الملك: قد ركبنا الفاره، و تبطنا الحسناء، و لبسنا اللين حتى استخشناه، و أكلنا الطيب حتى أجمناه (4) . فما اليوم إلى شيء أحوج مني إلى جليس يضع عني مئونة التحفظ.

---

(1) أي ان قوما أتوا من البادية.
(2) النائبة: الضيوف ينوبون قوما و ينزلون عندهم.
(3) اي زاد عددهم بما زاد فيهم من الصغار.
(4) اجمناه: كرهناه، مللناه.

و أشاروا على عبيد اللّه بن زياد بالحقنة، فتفحشها، فقالوا: إنما يتولاها منك الطبيب. فقال: أنا بالصاحب آنس.

و قال معاوية بن أبي سفيان للنخّار بن أوس العذريّ: ابغني محدثا.

فقال أو معي يا أمير المؤمنين؟!!قال: نعم استريح منك إليه، و منه إليك.

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه لأبي مريم الحنفي: و اللّه لا احبك حتى تحبّ الأرض الدم المسفوح: قال: فتمنعني لذلك حقا؟قال: لا. قال: فلا ضير، إنما يأسف على الحب النساء.

و قال عمر لرجل هم بطلاق امرأته، فقال له: لم تطلقها؟قال: لا أحبها. فقال عمرو: أو كل البيوت بنيت على الحب؟فأين الرعاية و التذمم.

قال: و أتى عبد الملك بن مروان برجل فقال: زبيري عميري، و اللّه لا يحبك قلبي أبدا. قال: يا أمير المؤمنين، إنما يبكي على الحب المرأة، و لكن عدل و انصاف.

عبد اللّه بن المبارك، عن هشام بن عروة، قال: نازع مروان، ابن الزبير عند معاوية، فرأى ابن الزبير أن ضلع (1) معاوية مع مروان، فقال ابن الزبير: يا امير المؤمنين: إن لك علينا حقا و طاعة، و إن لك سطة (2) و حرمة فينا، فأطع اللّه نطعك، فإنه لا طاعة لك علينا إلا في حق اللّه. و لا تطرق إطراق الأفعوان في أصول السّخبر (3) .

أبو عبيدة، قال: قيل لشيخ مرة: ما بقي منك؟قال: يسبقني من بين يدي، و يلحقني من خلفي، و أنسى الحديث، و أذكر القديم، و أنعس في الملاء و أسهر في الخلاء، و إذا قمت قربت الأرض مني، و إذا قعدت تباعدت عني.

---

(1) ضلع: ميل.
(2) سطة: وسط.
(3) السخبر: نوع من الشجر.

الأصمعي قال: قلت لأعرابي معه ضاجعة من شاء (1) : لمن هذه؟ قال: هي للّه عندي.

و لما قتل عبد الملك بن مروان مصعبا و دخل الكوفة، قال للهيثم بن الأسود النخعي: كيف رأيت اللّه صنع؟قال: قد صنع خيرا، فخفف الوطأة، و أقل التثريب.

و قال ابن عباس: إذا ترك العالم قول لا أدري فقد أصيبت مقاتله.

قال: و كانوا يستحبون ألا يجيبوا في كل ما سئلوا عنه.

قال: و قال عمر بن عبد العزيز: من قال عند ما لا يدري لا يدري فقد أحرز نصف العلم.

و قال ابن عباس: إن لكل داخل دهشة، فآنسوه بالتحية.

قالوا: و اعتذر رجل إلى سلم بن قتيبة فقال سلم: لا يدعونك أمر قد تخلصت منه، إلى الدخول في أمر لعلك لا تخلص منه.

قال: و كان يقال: دعوا المعاذر فإن أكثرها مفاجر.

و قال: و قال ابراهيم النخعي لعبد اللّه بن عون: تجنب الاعتذار، فإن الاعتذار يخالطه الكذب.

و اعتذر رجل إلى احمد بن أبي خالد فقال لأبي عباد: ما تقول في هذا؟ قال: يوهب له جرمه، و يضرب لعذره أربعمائة.

و قد قال الأول: عذره أعظم من ذنبه.

قال: و قيل لابن عباس: ولد عمر بن أبي ربيعة في الليلة التي مات فيها

(1) الضاجعة: غنم كثير.

عمر بن الخطاب رحمه اللّه فسمي باسمه. فقال ابن عباس: أيّ حق رفع، و أيّ باطل وضع!.

و قال عبد اللّه بن جعفر لابنته: يا بنية، إياك و الغيرة فإنها مفتاح الطلاق، و إياك و المعاتبة فإنها تورث البغضة و عليك بالزينة و الطيب، و اعلمي أن أزين الزينة الكحل، و أطيب الطيب الماء.

قال: و لما نازع ابن الزبير مروان عند معاوية قال ابن الزبير: يا معاوية:

لا تدع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه، و يضرب صفاتهم (1) بمعاوله، فلو لا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشة، و أقل في أنفسنا من خشاشة (2) . و لئن ملك أعنة خيل تنقاد له ليركبن منك طبقا تخافه. قال معاوية: أن يطلب هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه، و أن يتركه فإنما يتركه لمن هو فوقه. و ما أراكم بمنتهين حتى يبعث اللّه إليكم من لا يعطف عليكم بقرابة، و لا يذكركم عند ملمة، يسومكم خسفا، و يوردكم تلفا!فقال ابن الزبير: إذا و اللّه نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد، حافتها الأسل، لها دوي كدوي الريح، تتبع غطريفا من قريش لم تكن أمه براعية ثلة (3) . فقال معاوية: أنا ابن هند، إن أطلقت عقال الحرب أكلت ذروة السنام، و شربت عنفوان المكرع، و ليس للآكل إلا الفلذة، و لا للشارب إلا الرنق (4) .

بكر بن الأسود قال: قال الحسن بن علي لحبيب ابن مسلمة رب مسير لك في غير طاعة اللّه. فقال: أما مسيري إلى أبيك فلا. قال: بلى، و لكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة، فلعمري لئن قام بك في دنياك، لقد قعد بك في دينك. و لو أنك إذ فعلت شرا قلت خيرا، كنت كما قال اللّه تبارك

---

(1) مشاقص: نصل عريض. صفاة: حجر ضخم.
(2) خشاشة: نوع من الحشرات.
(3) ثلة: قطيع غنم.
(4) الرنق: الكدر.

و تعالى: خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً . ، و لكنك كما قال جل و عز:
كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

قال ابو الحسن: سمعت أعرابيا في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث و خمسين و مائة، و هو يقول: أما بعد فإنّا أبناء سبيل، و الضاء طريق، و فلّ سنة، فتصدقوا علينا، فإنه لا قليل من الأجر، و لا غنى عن اللّه، و لا عمل بعد الموت. أما و اللّه إنّا لنقوم هذا المقام و في الصدر حزازة، و في القلب غصة.

و قال الأحنف بخراسان: يا بني تميم، تحابوا تجتمع كلمتكم، و تباذلوا تعتدل أموالكم، و ابدءوا بجهاد بطونكم و فروجكم يصلح لكم دينكم، و لا تغلوا يسلم لكم جهادكم.

و من كلام الأحنف السائر في أيدي الناس: الزم الصحّة يلزمك العمل.

و سئل خالد بن صفوان عن الكوفة و البصرة فقال: «نحن منابتنا قصب، و أنهارنا عجب، و سماؤنا رطب، و أرضنا ذهب» . و قال الأحنف: «نحن أبعد منكم سريّة، و أعظم منكم بحرية، و أكثر منكم ذرّية، و أعذى (1) منكم برية» .

و قال أبو بكر الهذلي: «نحن أكثر منكم ساجا و عاجا، و ديباجا و خراجا، و نهرا عجاجا» .

و كتب صاحب لأبي بكر الهذلي إلى رجل يعزيه عن أخيه: «أوصيك بتقوى اللّه وحده، فإنه خلقك وحده، و يبعثك يوم القيامة وحده. و العجب كيف يعزي ميت عن ميتا. و السلام» .

و قال رجل لابن عياش رحمه اللّه: أيما أحب إليك: رجل قليل الذنوب قليل العمل، أو رجل كثير الذنوب كثير العمل؟فقال: ما أعدل بالسلامة شيئا.

و قال آخر: حماقة صاحبي أشد ضررا علي منها عليه.

شعبة أبو بسطام قال: قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لا أماري أخي، فأما أن أكذبه، و إما أن أغضبه.

---

(1) أعذى من العذاة و هي الارض الطيبة الكريمة المنبت.

و قالوا: أخذ رجل على ابن أبي ليلى كلمة، فقال له ابن أبي ليلى: أهد إلينا من هذا ما شئت.

لما مات ابن أبي ليلى، و عمرو بن عبيد، رحمهما اللّه تعالى، قال أبو جعفر المنصور: ما بقي أحد يستحى منه.

و لما مات عبد اللّه بن عامر قال معاوية: رحم اللّه أبا عبد الرحمن، بمن نفاخر؟.

مسلمة بن محارب قال: قال زياد: ما قرأت كتاب رجل قط إلا عرفت فيه عقله.

أبو معشر قال: لما بلغ عبد اللّه بن الزبير قتل عبد الملك بن مروان عمرو ابن سعيد الأشدق، قام خطيبا. فقال: إن أبا الذّبّان قتل لطيم الشيطان، **كَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** . و لما جاءه قتل أخيه مصعب، قام خطيبا بعد خطبته الأولى. فقال: إن مصعبا قدّم أيره و أخر خيره، و تشاغل بنكاح فلانة و فلانة، و ترك حلبة أهل الشام حتى غشيته في داره. و لئن هلك مصعب إن في آل الزبير منه خلفا.

قالوا: و لما قدم ابن الزبير بفتح أفريقية، أمره عثمان فقام خطيبا، فلما فرغ من كلامه قال عثمان: أيها الناس انكحوا النساء على آبائهن و اخوتهن، فإني لم أر في ولد أبي بكر الصديق أشبه به من هذا.

و سمع عمر بن الخطاب رحمه اللّه أعرابيا يقول: اللهم اغفر لأم أوفى.

قال: و من أمّ أوفى؟قال: امرأتي، و إنها لحمقاء مرغامة (1) ، أكول قامّة (2) ، لا تبقى لها خامّة، غير أنها حسناء فلا تفرك، و أم غلمان فلا تترك.

قالوا: و دفعوا إلى أعرابية علكا لتمضغه، فلم تفعل، فقيل لها في ذلك فقالت: ما فيه إلا تعب الأضراس، و خيبة الحنجرة.

---

(1) مرغامة: مبغضة لبعلها.
(2) قامة: أكول شره.

و كان أبو مسلم استشار مالك بن الهيثم، حين ورد عليه كتاب المنصور في القدوم عليه، فلم يشر عليه في ذلك، فلما قتل أبو مسلم أذكره ذلك، فقال ابن الهيثم: إن أخاك إبراهيم الامام حدّث عن ابيه محمد بن علي أنه قال: لا يزال الرجل يزاد في رأيه ما نصح لمن استشاره، فكنت له يومئذ كذلك، و أنا لك اليوم كذلك..

و قال الحسن: التقدير نصف الكسب، و التودد نصف العقل، و حسن طلب الحاجة نصف العلم.

قال: و قال رجل لعمرو بن عبيد: إني لأرحمك مما يقول الناس فيك.

قال: اسمعتني أذكر فيهم شيئا؟قال: لا، قال: إياهم فارحم.

و مدح نصيب أبو الحجناء عبد اللّه بن جعفر، فأجزل له من كل صنف، فقيل له: أتصنع هذا بمثل هذا العبد الأسود؟قال: أما و اللّه لئن كان جلده أسود أن تناءه لأبيض، و إن شعره لعربي، و لقد استحق بما قال أكثر مما نال، و إنما أخذ رواحل تنصى، و ثيابا تبلى، و ما لا يفنى، و اعطى مديحا يروى، و ثناء يبقى.

و وقف أعرابي في بعض المواسم، فقال: اللهم إن لك علي حقوقا فتصدق بها عليّ، و للناس تبعات فتحملها عني، و قد أوجبت لكل ضعيف قرى و أنا ضيفك، فاجعل قراي في هذه الليلة الجنة.

و وقف أعرابي يسأل قوما فقالوا له: عليك بالصيارفة. فقال هناك و اللّه قرارة اللؤم.

و قال مسلمة: ثلاثة لا أعذرهم: رجل أحفى شاربه ثم أعفاه (1) ، و رجل قصّر ثيابه ثم أطالها، و رجل كان عنده سراري فتزوج حرة.

(1) أحفى شاربه: قصه. أعفاه: أطاله.

أبو إسحاق قال: قال حذيفة: كن في الفتنة كابن لبون، لا ظهر فيركب، و لا لبن فيحلب.

و قال الشاعر و ليس هذا الباب في الخبر الذي قبل هذا:

أ لم تر أن الناب تحلب علبة # و يترك ثلب لا ضراب و لا ظهر [1]

عتبة بن هارون قال: قلت لرؤبة: كيف خلفت ما وراءك؟قال: التراب يابس، و المرعى عابس.

و قال معاوية لعبد اللّه بن عباس: إني لأعلم إنك واعظ نفسه، و لكن المصدور إذا لم ينفث جوي.

و قيل لعبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود: أ تقول الشعر مع النّسك و الفضل و الفقه؟فقال: «لا بد للمصدور من أن ينفث» .

قال أبو الديال شويس: «أنا و اللّه العربي، لا أرقع الجربان، و لا البس التبان، و لا أحسن الرطانة، و لأنا أرسى من حجر، و ما قرقمني إلا الكرم» .

أبو الحسن و غيره قال: قال عمرو بن عتبة بن أبي سفيان، للوليد بن يزيد بن عبد الملك، و هو بالبخراء من أرض حمص: يا أمير المؤمنين، إنك لتستنطقني بالأنس بك، و أكف عن ذلك بالهيبة لك، و أراك تأمن أشياء أخافها عليك، أ فأسكت مطيعا، أم أقول مشفقا؟قال: كل ذلك مقبول منك، و للّه فينا علم غيب نحن صائرون إليه، و تعود فتقول. قال: فقتل بعد أيام.

و كان أيوب السختياني يقول: لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف.

و قال بعضهم: كنت أجالس ابن صعير في النسب، فجلست إليه يوما فسألته عن شيء من الفقه، فقال: أ لك بهذا من حاجة؟عليك بذاك–و أشار

(1) الثلب: الجمل الذي انكسرت انيابه.

إلى سعيد بن المسيّب–فجلست إليه لا أظن أن عالما غيره، ثم تحولت إلى عروة، ففتقت به ثبج بحر (1) .

قال: و قلت لعثمان البرّي: دلني على باب الفقه. قال: اسمع الاختلاف.

و قيل لأعرابي عند من تحب أن يكون طعامك؟قال: عند أم صبي راضع، أو ابن سبيل شاسع، أو كبير جائع، أو ذي رحم قاطع.

و قال بعضهم: إذا اتسعت المقدرة نقصت الشهوة. قال: قلت له: فمن أسوأ الناس حالا؟ قال: من اتسعت معرفته، و بعدت همته، و قويت شهوته، و ضاقت مقدرته.

و ذكر عند عائشة رحمها اللّه فقالت: كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به، و كل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به.

و دخل رجل على أبي جعفر، فقال له: اتق اللّه. فأنكر وجهه. فقال: يا أمير المؤمنين، عليكم نزلت، و لكم قيلت، و إليكم ردّت.

و قال رجل عند مسلمة: ما استرحنا من حائك كندة حتى جاءنا هذا المزوني!فقال له مسلمة: أ تقول هذا لرجل سار إليه قريعا قريش؟يعني نفسه و العباس بن الوليد. إن يزيد بن المهلب حاول عظيما، و مات كريما.

عبد اللّه بن الحسن قال: قال علي بن ابي طالب رحمه اللّه: خصّصنا بخمس: فصاحة، و صباحة، و سماحة، و نجدة، و حظوة–يعني عند النساء.

علي بن مجاهد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت:

جبلت القلوب قلوب الناس على حبّ من أحسن إليها، و بغض من أساء إليها.

---

(1) ثبج البحر: معظمه.

و قال الأصمعي: كتب كتاب حكمة فبقيت منه بقية فقالوا: ما نكتب؟ قالوا: أكتبوا: «يسأل عن كل صناعة أهلها» .

و قال شبيب بن شيبة للمهدي: إن اللّه لم يرض أن يجعلك دون أحد من خلقه، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد أخوف للّه منك.

و قال يحيى بن أكثم: «سياسة القضاء أشد من القضاء» . و قال: «إن من إهانة العلم أن تجاري فيه كل من جاراك» .

قال: حمّل رقبة بن مصقلة من خراسان رجلا إلى امه خمسمائة درهم، فأبى الرجل أن يدفعها إليها حتى تكون معها البينة على أنها أمه، فقالت لخادم لها: اذهبي حتى تأتينا ببعض من يعرفنا، فلما أتاها الرجل برزت فقالت: الحمد للّه، و أشكو إلى اللّه الذي أبرزني و شهر بالفاقة أهلي. فلما سمع الرجل كلامها قال: أشهد إنك أمه، فردي الخادم و لا حاجة بنا إلى أن تجيئي بالبيّنة.

قال: و كان الحسن يقول في خطبة النكاح، بعد حمد اللّه و الثناء عليه:

«أما بعد فإن اللّه جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة، و الأنساب المتفرّقة، و جعل ذلك في سنّة من دينه، و منهاج واضح من أمره، و قد خطب إليكم فلان، و عليه من اللّه نعمة» .

عامر بن سعد قال: سمعت الزّبير يعزي عبد الرحمن على بعض نسائه، فقال و هو قائم على قبرها: لا يصفر ربعك، و لا يوحش بيتك، و لا يضع أجرك. رحم اللّه متوفاك، و أحسن الخلافة عليك.

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستميل بها الكريم، و يستعطف بها اللئيم.

و قال: وليم مصعب بن الزبير على طول خطبته عشية عرفة فقال: أنا قائم و هم جلوس، و أتكلم و هم سكوت، و يضجرون! و قال موسى بن يحيى: كان يحيى بن خالد يقول: ثلاثة أشياء تدل على

عقول أربابها: الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه، و الرسول على مقدار عقل مرسله، و الهدية على مقدار عقل مهديها.

و ذكر أعرابي أميرا فقال: يقضي بالعشوة (1) ، و يطيل النشوة، و يقبل الرشوة.

و قال يزيد بن الوليد: إن النّشوة تحلّ العقدة، و تطلق الحبوة. و قال:

إياكم و الغناء، فإنه مفتاح الزناء.

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: إذا توجه أحدكم في وجه ثلاث مرات فلم يصب خيرا فليدعه.

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: لا تكوننّ كمن يعجز عن شكر ما أوتي، و يبتغي الزيادة فيما بقي، ينهى و لا ينتهي، و يأمر الناس بما لا يأتي، يحب الصالحين و لا يعمل بأعمالهم، و يبغض المسيئين و هو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، و لا يدعها في طول حياته.

و قال أعرابي: خرجت حين انحدرت أيدي النجوم و شالت أرجلها، فلم أزل أصدع الليل حتى انصدع الفجر.

قال: و سألت أعرابيا عن مسافة ما بين بلدين فقال: عمر ليلة، و أديم يوم. و قال آخر: سواد ليلة، و بياض يوم.

و قال بعض الحكماء: لا يضرّك حب امرأة لا تعرفها.

و قال رجل لأبي الدرداء: فلان يقرئك السلام. فقال: هدية حسنة، و محمل خفيف.

و سرق مزبّد نافجة مسك فقيل له: إن كل من غلّ يأتي يوم القيامة بما غل، يحمله في عنقه، فقال: إذا و اللّه أحملها طيبة الريح، خفيفة المحمل

---

(1) العشوة: الامر الملتبس.

قيل: و من ابخل البخل ترك رد السلام.

قال ابن عمر: لعمري إني لأرى حق رجع جواب الكتاب كرد السلام.

و جاء رجل إلى سلمان فقال: يا أبا عبد اللّه، فلان يقرئك السلام.

فقال: أما إنك لو لم تفعل لكانت أمانة في عنقك.

و قال مثني بن زهير لرجل: احتفظ بكتابي هذا حتى توصله إلى أهلي، فمن العجب أن الكتاب ملقّى، و إن السكران موفّى.

و كان عبد الملك بن الحجاج يقول: لأنا للعاقل المدبر أرجى من الأحمق المقبل.

و قال: إياك و مصاحبة الأحمق، فإنه ربما أراد أن ينفعك فضرّك.

و كتب الحجاج إلى عامل له بفارس: «ابعث إلي بعسل من عسل خلار من النحل الأبكار، من الدستفشار، الذي لم تمسه النار» .

و قال الشاعر:

و ما المرء إلا حيث يجعل نفسه # ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

قال: و نظر أبو الحارث جمين، إلى برذون يستقي عليه الماء فقال:

و ما المرء إلا حيث يجعل نفسه

لو أن هذا البرذون هملج ما صنع به هذا.

عمرو بن هدّاب قال: قال سلم بن قتيبة: ربّ المعروف أشدّ من ابتدائه.

و قال محمد بن واسع: «الإبقاء على العمل أشد من العمل» .

و قال يحيى بن أكثم: «سياسة القضاء أشد من القضاء» .

و قال محمد بن محمد الحمراني: «من التوقّي ترك الإفراط في التوقي» .

و قال أبو قرة: «الجوع للحمية أشد من العلة» .

و قال الجمّان: «الحمية إحدى العلتين» . و قال العميّ: «من احتمى فهو على يقين من تعجيل المكروه، و في شك مما يأمل من دوام الصحة» .

و ذكر أعرابي رجلا فقال: حمى المعافى، حنوط المبتلى.

و قال عمر اعتبر عزمه بحميته، و حزمه بمتاع بيته.

و قالوا: أمران لا ينفكّان من الكذب: كثرة المواعيد، و شدة الاعتذار.

و قيل لرجل من الحكماء: ما جماع البلاغة؟قال: معرفة السليم من المعتل، و فصل ما بين المضمّن و المطلق، و فرق ما بين المشترك و المفرد. و ما يحتمل التأويل من المنصوص المقيد.

و قال سهل بن هارون في صدر كتاب له: «وجب على كل ذي مقالة أن يبتدئ بالحمد للّه قبل استفتاحها، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها» .

و قال أبو البلاد:

و انّا وجدنا الناس عودين طيبا # و عودا خبيثا لا يبضّ على العصر

تزين الفتى أخلاقه و تشينه # و تذكر أخلاق الفتى و هو لا يدري

و قال آخر في هذا المعنى:

سابق إلى الخيرات أهل العلا # فإنما الناس أحاديث

كل امرئ في شأنه كادح # فوارث منهم و موروث

و لما قال حمل بن بدر، لبني عبس، و الأسنة في ظهورهم، و البوارق فوق رءوسهم: «نؤدي السبق، و ندي الصبيان و تخلون سربنا، و تسودون العرب» ، انتهره حذيفة فقال: إياك و الكلام المأثور! و قال الشاعر:

اليوم خمر و يبدو في غد خبر # و الدهر من بين إنعام و اباس

قال: و قال أعرابي: «إن المسافر و متاعه لعلى قلت (1) إلا ما وقى اللّه» .

و قالوا: السفر قطعة من العذاب، و صاحب السّوء قطعة من النار.

قال: و جلس معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي رحمه اللّه، فجاءه رجل من بني تميم، فأراده على ذلك فقال: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم و لا نبرأ من موتاكم. فالتفت إلى المغيرة فقال: إن هذا رجل، فاستوص به خيرا.

و قال الشاعر:

قالت أمامة يوم برقة واصل # يا ابن الغدير لقد جعلت تغير

أصبحت بعد زمانك الماضي الذي # ذهبت شبيبته و غصنك أخضر

شيخا دعامتك العصا و مشيّعا # لا تبتغي خبرا و لا تستخبر

قالوا: و كان شريح في الفتنة يستخبر و لا يخبر، و كان الربيع بن خثيم لا يخبر و لا يستخبر، و كان مطرّف بن عبد اللّه يستخبر و يخبر. قالوا: فينبغي أن يكون أعقلهم.

قال أبو عبيدة: كان ابن سيرين لا يستخبر و لا يخبر، و أنا أخبر و أستخبر.

و قال أبو عمرو بن العلاء لأهل الكوفة: لكم حذلقة (2) النّبط و صلفهم، و لنا دهاء فارس و أحلامها.

و أنشد للحارث بن حلزة اليشكري:

لا أعرفنك إن أرسلت قافية # تلقي المعاذير إن لم تنفع العذر

إن السعيد له في غيره عظة # و في التجارب تحكيم و معتبر

---

(1) قلت: هلاك، دمار.
(2) حذلقة: ظرف، كياسة.

و معنى المعاذير هنا على غير معنى قول اللّه تبارك و تعالى في القرآن:

بَلِ اَلْإِنْسَانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَ لَوْ اَلْقى مَعَاذِيرَهُ . و المعاذير هاهنا:

الستور.

و قال: أراد رجل الحج فسلم شعبة بن الحجاج فقال له: أما إنك إن لم تعدّ الحلم ذلا، و لا السفه أنفا، سلم لك حجك.

و قالوا: و كان علي رضي اللّه عنه بالكوفة قد منع الناس من القعود على ظهر الطريق، فكلموه في ذلك فقال: أدعكم على شريطة. قالوا: و ما هي يا أمير المؤمنين؟قال غضّ الأبصار، و ردّ السلام، و إرشاد الضال. قالوا: قد قبلنا. فتركهم.

و كان نوفل بن أبي عقرب، لا يقعد على باب داره، و كان عامرا بالمارة فقيل له: إن في ذلك نشرة (1) ، و صرف النفوس عن الأماني، و اعتبارا لمن اعتبر، و عظة لمن فكر. فقال: إن لذلك حقوقا يعجز عنها ابن خيثمة.

قالوا: و ما هي؟قالوا: غض البصر، و رد التحية، و إرشاد الضال، و ضم اللقطة، و التعرض لطلاب الحوائج، و النهي عن المنكر. و الشغل بفضول النظر، الداعية إلى فضول القول و العمل، عادة إن قطعتها اشتدت وحشتك لها، و إن وصلتها قطعتك عن أمور هي أولى بك منها.

و قال الفضيل بن عياض، لسفيان الثوري دلّني على جليس أجلس إليه.

فقال هيهات، تلك ضالة لا توجد.

و قيل لبعض العلماء: أيّ الأمور أمتع: فقال: مجالسة الحكماء و مذاكرة العلماء.

و قيل لعبد الرحمن بن أبي بكرة: أي الأمور أمتع؟فقال: الأماني.

---

(1) نشرة نسيم.

و قال رجاء بن حيوة، لعبد الملك بن مروان، في أسارى ابن الأشعث:

إن اللّه قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعط اللّه ما يحب من العفو.

و قال هريم بن عدي بن أبي طحمة، ليزيد بن عبد الملك بعد ظفره بيزيد ابن المهلب: ما رأينا أحدا ظلم ظلمك، و لا نصر نصرك، و لا عفا عفوك.

و ذمّ رجل رجلا فقال: سيئ الروية، قليل التقية كثير السعاية، قليل النكاية.

قال: و قال معاوية لمعاوية بن حديج الكندي: ما جرأك على قتل قريش؟قال: ما أنصفتمونا، تقتلون حلماءنا و تلومونا على قتل سفهائكم.

و هو الذي قال لأمّ الحكم بنت أبي سفيان: و اللّه لقد نكحت فما استكرمت، و ولدت فما أنجبت.

أبو بكر بن مسلمة، عن أبي إسحاق القيسي قال: لما قدم قتيبة بن مسلم خراسان قال: «من كان في يديه شيء من مال عبد اللّه بن خازم فلينبذه، و إن كان في فيه فليلفظه، و إن كان في صدره فلينفثه» . فعجب الناس من حسن ما قسّم و فصّل. قال: ثم غبر بعد ذلك عيال عبد اللّه بن خازم و ما بخراسان أحسن حالا منهم.

عنبسة القطان قال: شهدت الحسن و قال له رجل: بلغنا إنك تقول: لو كان علي بالمدينة يأكل من حشفها لكان خيرا له مما صنع. فقال له الحسن:

يا لكع، أما و اللّه لقد فقدتموه سهما من مرامي اللّه، غير سئوم لأمر اللّه، و لا سروقة لمال اللّه، أعطي القرآن عزائمه فيما عليه و له، فأحلّ حلاله، و حرّم حرامه، حتى أورده ذلك رياضا مونقه، و حدائق مغدقة. ذلك علي بن أبي طالب يا لكع.

يزيد بن عقال: قال سمعت عبد الملك بن صالح يوصي ابنه و هو أمير سرية و نحن ببلاد الروم، فقال له: أنت تاجر اللّه لعباده، فكن كالمضارب الكيّس، الذي إن وجد ربحا تجر، و إلا احتفظ برأس المال. و لا تطلب

الغنيمة حتى تحرز السلامة. و كن من احتيالك على عدوك أشدّ خوفا من احتيال عدوك عليك.

و قال بعض الحكماء: لا تصطنعوا إلى ثلاثة معروفا: اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة، و الفاحش فإنه يرى أن الذي صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه، و الأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. و إذا اصطنعت إلى الكرام فازدرع المعروف و احصد الشكر.

قال: و واضع المعروف في غير أهله كالمسرج في الشمس، و الزارع في السبخ.

و مثله البيت السائر في الناس:

و من يصنع المعروف في غير أهله # يلاق الذي لاقى مجير أمّ عامر

و قالوا: من لم يعرف سوء ما يولي لم يعرف حسن ما يولي.

و قال الأيادي صاحب الصرح، الذي اتخذ سلما لمناجاة الرب، و هو الذي كان يقول: «مرضعة و فاطمة. القطيعة و الفجيعة، وصلة الرحم و حسن الكلم.

زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا، و بالشر عقابا. و إن من في الأرض عبيد لمن في السماء. هلكت جرهم و ربلت أياد (1) ، و كذلك الصلاح و الفساد. من رشد فاتبعوه، و من غوى فارفضوه. كل شاة برجلها معلقة» .

و إياه يعني الشاعر بقوله:

و نحن أياد عبيد الاله # و رهط مناجيه في السلم

و نحن ولاة حجاب العتيق # زمان الرعاف على جرهم

(1) ربلت: كثرت.

تعزية امرأة للمنصور على أبي العباس مقدمه من مكة. قالت: أعظم اللّه أجرك، فلا مصيبة أجل من مصيبتك، و لا عوض أعظم من خلافتك.

و قال عثمان بن خريم للمنصور، حين عفا عن أهل الشام في أجلابهم مع عبد اللّه بن علي عمه: يا أمير المؤمنين: لقد أعطيت فشكرت، و ابتليت فصبرت، و قدرت فغفرت.

و قال آخر: يا أمير المؤمنين، الانتقام عدل، و التجاوز فضل، و المتفضل قد تجاوز حد المنصف. فنحن نعيذ أمير المؤمنين باللّه أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين.

و قال آخر: من انتقم فقد شفي غيظ نفسه، و أخذ أقصى حقه. و إذا انتقمت فقد انتصفت، و إذا عفوت فقد تطوّلت. و من أخذ حقه و شفي غيظه لم يجب شكره، و لم يذكر في العالمين فضله. و كظم الغيظ حلم، و الحلم صبر، و التشفي طرف من العجز، و من رضي ألا يكون بين حاله و بين حال الظالم إلا ستر رقيق، و حجاب ضعيف، فلم يجزم في تفضيل الحلم، و في الاستيثاق من ترك دواعي الظلم. و لم تر أهل النهي و المنسوبين إلى الحجا و التقى. مدحوا الحلماء بشدة العقاب، و قد ذكروهم بحسن الصفح، و بكثرة الاغتفار، و شدة التغافل. و بعد فالمعاقب مستعد لعداوة أولياء المذنب، و العافي مستدع لشكرهم، آمن من مكافأتهم أيام قدرتهم، و لأن يثنى عليك باتساع الصدر خير من أن يثنى عليك بضيق الصدر. على أن إقالتك عثرة عباد اللّه موجب لإقالتك عثرتك من رب عباد اللّه، و عفوك عنهم موصول بعفو اللّه عنك، و عقابك لهم موصول بعقاب اللّه لك.

و قالوا: الموت الفادح، خير من اليأس الفاضح.

و قال آخر: لا أقل من الرجاء. فقال آخر: بل اليأس المريح.

و قال عبد اللّه بن وهب الراسبي: ازدحام الجواب مضلة للصواب، و ليس الرأي بالارتحال، و لا الحزم بالاقتضاب، فلا تدعونّك السلامة من خطأ موبق، أو غنيمة نلتها من صواب نادر، إلى معاودته، و التماس الأرباح من قبله. إن

الرأي ليس بنهبى، و خمير الرأي خير من فطيره. و رب شيء غابّه خير من طريه، و تأخيره خير من تقديمه.

و لما قدم بعبد الجبار بن عبد الرحمن، إلى المنصور، قال: يا أمير المؤمنين، قتلة كريمة. قال: وراءك تركتها، يا ابن اللخناء.

و لما احتال أبو الأزهر المهلب بن عبيثر المهري، لعبد الحميد بن ربعي ابن معدان، و أسلمه إلى حميد بن قحطبة، و أسلمه حميد إلى المنصور، فلما صار إلى المنصور قال: لا عذر فأعتذر و قد أحاط بي الذنب، و أنت أولى بما ترى. قال: لست أقتل أحدا من آل قحطبة، بل أهب مسيئهم لمحسنهم، و غادرهم لوفيّهم. قال: إن لم يكن فيّ مصطنع فلا حاجة بي إلى الجاه.

و لست أرضى أن أكون طليق شفيع و عتيق ابن عم. قال: أخرج، فإنك جاهل، أنت عتيقهم ما حييت.

قال زياد بن ظبيان التيمي، لابنه عبيد اللّه بن زياد، و زياد يومئذ يكيد بنفسه و عبيد اللّه غلام: أ لا أوصى بك الأمير زيادا؟قال: لا. قال: و لم؟ قال: إذا لم تكن للحي إلا وصية الميّت فالحي هو الميت.

و دخل عمرو بن سعيد الأشدق بعد موت أبيه على معاوية، و عمرو يومئذ غلام، فقال له معاوية: إلى من أوصى بك أبوك يا غلام؟قال: إن أبي أوصى إليّ و لم يوصى بي. قال:

و بأي شيء أوصاك؟قال: أوصاني ألا يفقد إخوانه منه إلا وجهه. قال معاوية لأصحابه: إن ابن سعيد هذا لأشدق.

و لما داهن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، في شأن إبراهيم بن عبد اللّه و صار سفيان إلى المنصور، أمر الربيع فخلع سواده. و وقف به على رءوس اليمانية في المقصورة يوم الجمعة، ثم قال: يقول لكم أمير المؤمنين: قد عرفتم ما كان من إحساني إليه، و حسن بلائي عنده، و الذي حاول من الفتنة و الغدر، و البغي و شقّ العصا، و معاونة الأعداء، و قد رأى أمير المؤمنين أن يهب مسيئكم لمحسنكم، و غادركم لوفيكم.

و قال يونس بن حبيب: المفحم يأتيه دون ما يرضى، و يطلب فوق ما يقوى.

و ذكر بعض الحكماء أعاجيب البحر و تزيد البحرين، فقال: البحر كثير العجائب، و أهله أصحاب زوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق، و أدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلّما إلى ادعاء المحال.

و قال بعض العرب: «حدث عن البحر و لا حرج، و حدث عن بني إسرائيل و لا حرج، و حدث عن معن و لا حرج» .

و جاء في الحديث: «كفى بالمرء حرصا ركوبه البحر» .

و كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، يصف له البحر فقال:

«يا أمير المؤمنين، البحر خلق عظيم، يركبه خلق صغير، دود على عود» .

و قال الحسن رحمه اللّه: «إملاء الخير خير من الصمت، و الصمت خير من إملاء الشر» .

و قال بعضهم: مروا الأحداث بالمراء، و الكهول بالفكر، و الشيوخ بالصمت.

عبد اللّه بن شداد قال: «أرى داعي الموت لا يقلع، و أرى من مضى لا يرجع. لا تزهدنّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف. و كم من راغب قد كان مرغوبا إليه، و طالب أصبح مطلوبا إليه. و الزمان ذو الوان، و من يصحب الزمان يرى الهوان. و إن غلبت يوما على المال فلا تغلبن على الحيلة على حال. و كن أحسن ما تكون في الظاهر حالا، أقل ما تكون في الباطن مالا» .

و قيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟قال: ببذل الندى، و كفّ الأذى، و نصر المولى.

و قيل لشيخ: أين شبابك؟قال: من طال أمده، و كثر ولده، و قل عدده، و ذهب جلده، ذهب شبابه.

و قال زياد: لا يعد منك من الجاهل كثرة الالتفات، و سرعة الجواب.

و قال عبد الرحمن بن أمّ الحكم: لو لا ثلاث ما باليت متى مت: تزاحف الأحرار إلى طعامي، و بذل الأشراف وجوههم إلي في أمر أجد السبيل إليه، و قول المنادي الصلاة أيها الأمير.

و قال ابن الأشعث: لو لا أربع خصال ما أعطيت بشريا طاعة: لو ماتت أم عمران-يعني امه-و لو شاب رأسي، و لو قرأت القرآن، و لو لم يكن رأسي صغيرا.

و قال معاوية: أعنت على علي بثلاث خصال: كان رجلا يظهر سره، و كنت كتوما لسري. و كان في أخبث جند و أشده خلافا، و كنت في أطوع جند و أقله خلافا. و خلا بأصحاب الجمل فقلت إن ظفر بهم اعتددت بهم عليه وهنا في دينه، و إن ظفروا به كانوا أهون علي شوكة منه. و كنت أحبّ إلى قريش منه. فكم شئت من جامع إلي و مفرق عنه.

جهم بن حسان السليطي قال: قال رجل للأحنف: دلني على حمد بلا مرزئة. قال: الخلق السّجيح، و الكف عن القبيح. ثم اعلموا إن أدوى الداء اللسان البذيء، و الخلق الرديء.

و قال محمد بن حرب الهلالي: قال بعض الحكماء: لا يكوننّ منكم المحدث لا ينصت له، و لا الداخل في سر اثنين لم يدخلاه فيه، و لا الآتي الدعوة لم يدع إليها، و لا الجالس المجلس لا يستحقه. و لا الطالب الفضل من أيدي اللئام، و لا المتعرّض للخير من عند عدوه، و لا المتحمق في الدالة.

قالوا: قل النبي صلّى اللّه عليه و سلّم في معاوية: «للهم علّمه الكتاب و الحساب، و قه العذاب» .

و قال رجل من بني أسد: مات لشيخ منا ابن، فاشتدّ جزعه عليه، فقام إليه شيخ منا فقال: اصبر أبا إمامه، فإنه فرط افترطته، و خير قدمته، و ذخر أحرزته. فقال مجيبا له ولد دفنته، و ثكل تعجلته، و غيب وعدته. و اللّه لئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد.

الأصمعي قال: قال ابن أقيصر: خير الخيل الذي إذا استدبرته جنا، و إذا استقبلته أقعى، و إذا استعرضته استوى و إذا مشى ردى، و إذا ردى دحا.

و نظر ابن أقيصر إلى خيل عبد الرحمن بن أم الحكم، فأشار إلى فرس منها فقال: تجيء هذا سابقة، قالوا: و كيف ذلك؟قال: رأيتها مشت فكتفت (1) ، و خبت فوجفت (2) ، و عدت فنسفت (3) .

و ذكرت أعرابية زوجها فقالت: ذهب ذفره (4) ، و أقبل بخره، و فتر ذكره.

و كان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه ليسمع شعر جرير و الفرزدق، فسأله أبوه عنهما فقال: جرير يغرف من بحر، و الفرزدق ينحت من صخر. فقال:

الذي يغرف من بحر أشعرهما.

قد ذكرنا من مقطعات الكلام و قصار الأحاديث، بقدر ما اسقطنا به مئونة الخطب الطوال. و سنذكر من الخطب المسندة إلى أربابها مقدارا لا يستفرغ مجهود من قرأها، ثم نعود بعد ذلك إلى ما قصر منها و خف، و إلى أبواب قد تدخل في هذه الجملة و إن لم تكن مثل هذه بأعيانها. و اللّه الموفق.

أبو الحسن، عن يحيى بن سعيد، عن ابن خرّبوذ البكري، عن خالد ابن صفوان، قال: دخل عبد اللّه بن عبد اللّه بن الأهتم، على عمر بن عبد العزيز مع العامة، فلم يفجأ عمر إلا و هو ماثل بين يديه يتكلم، فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإن اللّه خلق الخلق غنيا عن طاعتهم، آمنا لمعصيتهم، و الناس يومئذ

---

(1) كتفت: ارتفعت اكتافها في السير.
(2) وجفت: سارت ببعض السرعة.
(3) نسفت: وسعت الخطو.
(4) ذفر: ما تحمله الريح من طيب و نتن.

في المنازل و الرأي مختلفون، و العرب بشرّ تلك المنازل، أهل الوبر و أهل المدر، تحتاز دونهم طيبات الدنيا و رفاغة عيشها (1) : ميتهم في النار وحيهم أعمى. مع ما لا يحصى من المرغوب عنه، و المزهود فيه. فلما أراد اللّه أن ينشر فيهم رحمته، و يسبغ عليهم نعمته، بعث إليهم رسولا منهم عزيزا عليه ما عنتوا، حريصا عليهم، بالمؤمنين رءوفا رحيما، فلم يمنعهم ذلك من أن جرحوه في جسمه، و لقبوه في اسمه، و معه كتاب من اللّه ناطق، و برهان من اللّه صادق، لا يرحل إلا بأمره، و لا ينزل إلا بإذنه. و اضطروه إلى بطن غار، فلما أمر بالعزم أسفر لأمر اللّه لونه، فأفلج اللّه حجته، و أعلى كلمته و أظهر دعوته، ففارق الدنيا نقيا تقيا، مباركا مرضيا. صلّى اللّه عليه و سلّم.

ثم قام بعده أبو بكر رحمه اللّه، فسلك سنته، و أخذ بسبيله، و ارتدّت العرب، فلم يقبل منهم بعد رسول اللّه إلا الذي كان قابلا منهم، فانتضى السيوف من أغمادها، و أوقد النيران من شعلها، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل، فلم يبرح يفصل أوصالهم، و يسقي الأرض دماءهم، حتى أدخلهم في الذي خرجوا عنه، و قررهم بالذي نفروا منه. و قد كان أصاب من مال اللّه بكرا يرتوي عليه، و حبشية ترضع ولدا له، فرأى ذلك غصة عند موته في حلقه، فأدى ذلك إلى الخليفة من بعده، و برئ إليهم منه، و فارق الدنيا نقيا تقيا، على منهاج صاحبه، رحمه اللّه.

ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رحمه اللّه، فمصّر الأمصار، و خلط الشدة باللين، فحسر عن ذراعيه، و شمر عن ساقيه، و أعدّ للأمور أقرانها، و للحرب آلتها، فلما أصابه فتى المغيرة بن شعبة، أمر ابن عباس أن يسأل الناس هل يثبتون قاتله، فلما قيل له: فتى المغيرة، استهل بحمد اللّه ألا يكون اصابه ذو حق في الفيء فيستحل دمه بما استحل من حقه. و قد كان أصاب من مال اللّه بضعا و ثمانين ألفا، فكسر رباعه، و كره بها كفالة أهله

(1) الرفاغة: سعة العيش.

و ولده، فأدى ذلك إلى الخليفة من بعده، و فارق الدنيا تقيا نقيا، على منهاج صاحبيه، رحمه اللّه.

ثم أنّا و اللّه ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظلّع (1) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا، ولدتك ملوكها، و القمتك ثديها، وليتك وضعتها حيث وضعها اللّه.

فالحمد للّه الذي جلا بك حوبتها (2) ، و كشف بك كربتها. امض و لا تلتفت فإنه لا يغني من الحق شيئا. أقول قولي هذا و استغفر اللّه لي و لكم، و للمؤمنين و المؤمنات.

قال: و لما أن قال: «ثم أنّا و اللّه ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظلّع» .

سكت الناس كلهم إلا هشاما، فإنه قال له: كذبت.

خطبة عمر بن عبد العزيز (ر)

أبو الحسن قال: حدثنا المغيرة بن مطرّف، عن شعيب بن صفوان، عن ابيه قال: خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة خطبة لم يخطب بعدها غيرها حتى مات رحمه اللّه. فحمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على نبيه ثم قال:

أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثا و لم تتركوا سدى، و إن لكم معادا يحكم اللّه بينكم فيه. فخاب و خسر من خرج من رحمة اللّه التي وسعت كلّ شيء، و حرم الجنّة التي عرضها السموات و الأرض. و اعلموا أن الأمان غدا لمن خاف اللّه اليوم، و باع قليلا بكثير، و فائتا بباق. أ لا ترون أنكم في اسلاب الهالكين، و سيخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين.

ثم أنتم في كل يوم تشيّعون غاديا و رائحا إلى اللّه، قد قضى نحبه و بلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسّد و لا ممهّد، قد خلع الأسباب، و فارق الأحباب، و باشر التراب، و واجه الحساب، غنيا عما ترك، فقيرا إلى ما قدّم، و أيم اللّه إني لأقول لكم هذه المقالة، و ما أعلم عند أحد

---

(1) ظلع: غمز في المشي، عرج، و هنا يعني المائل عن الحق.
(2) حوبة: هم و غم.

منكم من الذنوب أكثر مما عندي. فاستغفر اللّه لي و لكم. و ما تبلّغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، و ما أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، و لحمتي الذين يلونني (1) ، حتى يستوي عيشنا و عيشكم. و ايم اللّه إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة، لكان اللسان مني ناطقا ذلولا، عالما بأسبابه. لكنه مضى من اللّه كتاب ناطق، و سنّة عادلة دلّ فيها على طاعته، و نهى فيها عن معصيته.

ثم بكى رحمه اللّه فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه، ثم نزل، فلم ير على تلك الأعواد حتى قبضه اللّه إلى رحمته.

خطبة أخرى ذهب عني إسنادها (2)

أما بعد: فإنك ناشئ فتنة و قائد ضلالة، و قد طال جثومها، و اشتدت غمومها، و تلونت مصايد عدو اللّه فيها، و قد نصب الشرك لأهل الغفلة عما في عواقبها. فلن يهدّ عمودها، و لن ينزع أوتادها إلا الذي بيده ملك الأشياء، و هو اللّه الرحمن الرحيم. إلا و إن للّه بقايا من عباده لم يتحيّروا في ظلمتها، و لم يشايعوا أهلها على شبهتها، مصابيح النور في أفواههم تزهر، و ألسنتهم بحجج الكتاب تنطق. ركبوا نهج السبيل، و قاموا على العلم الأعظم، فهم خصماء الشيطان الرجيم، و بهم يصلح اللّه البلاد، و يدفع عن العباد. فطوبى لهم و للمستصبحين بنورهم. أسأل اللّه أن يجعلنا منهم.

خطبة أبي حمزة الخارجي

دخل أبو حمزة الخارجي مكة–و هو أحد نساك الإباضية و خطبائهم، و اسمه يحيى بن المختار–فصعد منبرها متوكئا على قوس له عربية، فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال:

---

(1) اللحمة: القرابة.

(2) نسبت في العقد الفريد الى ابي حمزة الخارجي.

أيها الناس، إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان لا يتأخر و لا يتقدم إلا بإذن اللّه و أمره و وحيه، أنزل اللّه كتابا بيّن له فيه ما يأتي و ما يتقي، و لم يك في شك من دينه، و لا في شبهة من أمره، ثم قبضه اللّه و قد علّم المسلمين معالم دينهم، و ولى أبا بكر صلاتهم، فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولاه رسول اللّه أمر دينهم، فقاتل أهل الردّة، و عمل بالكتاب و السنة، فمضى لسبيله رحمة اللّه عليه.

ثم ولي عمر بن الخطاب رحمه اللّه، فسار بسيرة صاحبه، و عمل بالكتاب و السنة، وجبى الفيء، و فرض الأعطية، و جمع الناس في شهر رمضان، و جلد في الخمر ثمانين، و غزا العدو في بلادهم، و مضى لسبيله رحمة اللّه عليه.

ثم ولي عثمان بن عفان فسار ستّ سنين بسيرة صاحبيه، و كان دونهما ثم سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل، ثم مضى لسبيله.

ثم ولي عليّ بن أبي طالب، فلم يبلغ من الحق قصدا، و لم يرفع له منارا، ثم مضى لسبيله.

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول اللّه و ابن لعينه، فاتخذ عباد اللّه خولا، و مال اللّه دولا، و دينه دغلا، ثم مضى لسبيله، فالعنوه لعنة اللّه.

ثم ولي يزيد بن معاوية، و يزيد الخمور، و يزيد القرود، و يزيد الفهود، الفاسق في بطنه، المأبون في فرجه، فعليه لعنة اللّه و ملائكته.

ثم اقتصهم خليفة خليفة، فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه، و لم يذكره. ثم قال:

ثم ولي يزيد بن عبد الملك الفاسق في دينه، المأبون في فرجه، الذي لم يؤنس منه رشد، و قد قال اللّه تعالى في أموال اليتامى: **فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ، فأمر أمة محمد عليه السلام أعظم. يأكل الحرام و يشرب الخمر، و يلبس الحلة قوّمت بألف دينار، قد ضربت فيها

الأبشار، و هتكت فيها الأستار، و أخذت من غير حلها. حبابة عن يمينه، و سلاّمة عن يساره تغنّيانه، حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: أ لا أطير أ لا أطير!نعم فطر إلى لعنة اللّه، و حريق ناره، و أليم عذابه.

و أما بنو أمية ففرقة الضلالة، بطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظّنة، و يقضون بالهوى، و يقتلون على الغضب، و يحكمون بالشفاعة، و يأخذون الفريضة من غير موضعها، و يضعونها في غير أهلها، و قد بيّن اللّه أهلها فجعلهم ثمانية أصناف، فقال: **إِنَّمَا اَلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ اَلْمَسَاكِينِ وَ اَلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ اَلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي اَلرِّقَابِ وَ اَلْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اَللَّهِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِيلِ** . فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها. تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل اللّه.

و أما هذه الشيع فشيع ظاهرت بكتاب اللّه، و اعلنوا الفرية على اللّه، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين، و لا بعلم نافذ في القرآن، ينقمون المعصية على أهلها، و يعملون إذا ولّوا بها. يصرون على الفتنة، و لا يعرفون المخرج منها، جفاة عن القرآن، أتباع كهان، يؤملون الدول في بعث الموتى، و يعتقدون الرجعة الى الدنيا، قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم، قاتلهم اللّه أنى يؤفكون.

ثم أقبل على أهل الحجاز فقال:

يا أهل الحجاز، أ تعيرونني بأصحابي و تزعمون انهم شباب؟!و هل كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلا شبابا. أما و اللّه إني لعالم بتتايعكم (1) فيما يضركم في معادكم، و لو لا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق ايديكم.

شباب و اللّه مكتهلون في شبابهم، غبية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة و أطلاح (2) سهر، ينظر اللّه إليهم في جوف الليل منحنية

---

(1) تتايع: تهافت. أ

(2) اطلاح جمع طلح و هو المعيي.

أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها، و إذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنه. موصول كلالهم بكلالهم: كلال الليل بكلال النهار. قد أكلت الأرض ركبهم و أيديهم، و أنوفهم و جباههم، و استقلوا ذلك في جنب اللّه، حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت، و الرماح قد أشرعت، و السيوف قد انتضيت، و رعدت الكتيبة بصواعق الموت و برقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد اللّه، و مضى الشباب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، و تخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض، و انحطت عليه طير السماء، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف اللّه، و كم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود للّه. ثم قال: آه آه (ثلاثا) . ثم بكى و نزل.

خطبة قطري بن الفجاءة

صعد قطريّ بن الفجاءة منبر الأزارقة–و هو أحد بني مازن بن عمرو بن تميم–فحمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على نبيه ثم قال:

أما بعد فإني أحذّركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، و راقت بالقليل، و تحببت بالعاجلة و حليت بالآمال، و تزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها و لا تؤمن فجعتها، غرّارة ضرارة، خوّانة غدّارة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، أكّالة غوّالة، بدّالة نقالة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، و الرضا عنها، أن تكون كما قال اللّه: **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ اَلسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ اَلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ اَلرِّيَاحُ وَ كَانَ اَللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً** .

مع إن امرأ لم يكن منها في حبرة إلا اعقبته بعدها عبرة، و لم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرّائها ظهرا، و لم تطلّه غبية رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء، و حرى إذا أضحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متنكرة و إن جانب منها اعذوذب و احلولى، أمرّ عليه منها جانب و أوبى (1) ، و إن آتت امرأ من

(1) أوبى: صار فيه الوباء.

غضارتها و رفاهتها نعما، أرهقته من نوائبها نقما، و لم يمس أمرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف، غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه، و من استكثر منها استكثر مما يوبقه و يطيل حزنه، و يبكي عينه، كم واثق بها قد فجعته، و ذي طمأنينة إليها قد صرعته، و ذي اختيال فيها قد خدعته. و كم من ذي أبهّة فيها قد صيرته حقيرا. و ذي نخوة قد ردته ذليلا، و كم من ذي تاج قد كبّته لليدين و الفم. سلطانها دول، و عيشها رنق، و عذابها أجاج، و حلوها صبر، و غذاؤها سمام، و أسبابها رمام، و قطافها سلع (1) حيّها بعرض موت، و صحيحها بعرض سقم، و منيعها بعرض اهتضام.

مليكها مسلوب، و عزيزها مغلوب، و سليمها منكوب، و جامعها محروب (2) .

مع أن وراء ذلك سكرات الموت، و هول المطّلع و الوقوف بين يدي الحكم العدل، **لِيَجْزِيَ اَلَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ اَلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى** .

أ لستم في مساكن من كان أطول منكم أعمارا، و أوضح آثارا، و أعدّ عديدا أكثف جنودا، و اعند عنودا. تعبدوا الدنيا أي تعبد، و آثروها أيّ إيثار، و ظعنوا عنها بالكره و الصّغار فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب، بل قد أرهقتهم بالفوادح، و ضعضعتهم بالنوائب، و عقرتهم بالمصائب. و قد رأيتم تنكرها لمن دان لها و آثرها، و اخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المسند. هل زودتهم إلا الشقاء، و أحلتهم إلا الضّنك، أو نوّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة. فهذه تؤثرون أم عليها تحرصون، أم إليها تطمئنون. يقول اللّه: **مَنْ كَانَ يُرِيدُ اَلْحَيَاةَ اَلدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ.**

أُولَئِكَ اَلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ إِلاَّ اَلنَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فبئست الدار لمن أقام فيها. فاعملوا و أنتم تعلمون إنكم تاركوها لا بد، فإنما هي كما وصفها اللّه باللعب و اللهو، و قد قال اللّه: **تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ**

(1) سلع: نبات سام.
(2) محروب: مسلوب. أ

آيَةً تَعْبَثُونَ. وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . و ذكر الذين قالوا من أشدّ منا قوة. ثم قال:

حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، و أنزلوا فيها فلا يدعون ضيفانا، و جعل لهم من الضريح أجنان، و من التراب أكفان، و من الرفات جيران، فهم حيرة لا يجيبون داعيا، و لا يمنعون ضيما، إن أخصبوا لم يفرحوا، و إن أقحطوا لم يقنطوا، جميع و هم آحاد، و جيرة و هم أبعاد، متناءون لا يزارون و لا يزورون، حلماء قد ذهبت أضغانهم و جهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، و لا يرجى دفعهم، و كما قال جل و عز: فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ اَلْوَارِثِينَ . استبدلوا بظهر الأرض بطنا، و بالسّعة ضيقا، و بالاهل غربة، و بالنور ظلمة، فجاءوها كما فارقوها: حفاة عراة فرادى: غير أنهم ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، و إلى الخلود الأبد. يقول اللّه: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . فاحذروا ما حذركم اللّه، و انتفعوا بمواعظه، و اعتصموا بحبله. عصمنا اللّه و إياكم بطاعته، و رزقنا و إياكم أداء حقه.

خطبة محمد بن سليمان يوم الجمعة و كان لا يغيرها

الحمد للّه. أحمده و استعينه و استغفره، و أومن به و أتوكل عليه، و أبرأ من الحول و القوة إليه. و اشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، و اشهد أن محمدا عبده و رسوله، أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون. من يعتصم باللّه و رسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى، و سعد في الآخرة و الأولى. و من يعص اللّه و رسوله فقد ضلّ ضلالا بعيدا، و خسر خسرانا مبينا.

أسأل اللّه أن يجعلنا و إياكم ممن يطيعه و يطيع رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، و يتّبع رضوانه، و يتجنب سخطه، فإنما نحن به و له. أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه، و أحثّكم على طاعة اللّه، و أرضى لكم ما عند اللّه، فإن تقوى اللّه أفضل ما تحاثّ الناس عليه،

و تداعوا إليه، و تواصوا به. فاتقوا اللّه ما استطعتم، و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون.

خطبة عبيد اللّه بن زياد

صعد المنبر بعد موت يزيد بن معاوية، و حيث بلغه أن سلمة بن ذؤيب الرياحي قد جمع الجموع يريد خلعه، فقال:

يا أهل البصرة انسبوني، فو اللّه ما مهاجر أبي إلا إليكم، و لا مولدي إلا فيكم، و ما أنا إلا رجل منكم. و اللّه لقد ولاكم أبي و ما مقاتلتكم إلا أربعون ألفا، فبلغ بها ثمانين ألفا، و ما ذريتكم إلا ثمانون ألفا، و قد بلغ بها عشرين و مائة ألف. و أنتم أوسع الناس بلادا، و أكثره جوادا، و أبعده مقادا، و أغنى الناس عن الناس. أنظروا رجلا تولونه أمركم، يكف سفهاءكم، و يجبي لكم فيئكم، و يقسمه فيما بينكم، فإنما أنا رجل منكم.

فما أبوا غيره قال: إني أخاف أن يكون الذي يدعوكم إلى تأميري حداثة عهدكم بأمري.

خطبة معاوية

الهيثم بن عدي، عن أبي بكر بن عيّاش، عن أشياخه قال: لما حضرت معاوية الوفاة و يزيد غائب، دعا معاوية مسلم بن عقبة المري، و الضحاك بن قيس الفهري، فقال:

أبلغا عني يزيد و قولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك و عترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، و من قعد منهم عنك فتعهّده. و انظر إلى أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزل عامل في كل يوم أهون عليك من سلّ مائة ألف سيف ثم لا تدري علا م أنت عليه منهم. ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشّعار دون الدثار (1) ، فإن رابك من

(1) الشعار: ما يلبس تحت الثياب الخارجية. الدثار: الثياب فوق الشعار.

عدوك ريب فارمه بهم، فإن اظفرك اللّه بهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، و لا يقيموا في غير ديارهم فيتأدبوا بغير أدبهم. لست أخاف عليك غير عبد اللّه بن عمر، و عبد اللّه بن الزبير، و الحسين بن علي، فأما عبد اللّه بن عمر فرجل قد وقذه (1) الورع. و أما الحسين فإني أرجو أن يكفيكه اللّه بمن قتل أباه، و خذل أخاه. و أما ابن الزبير فإنه خبّ ضبّ (2) .

و في غير هذه الرواية: «فإن ظفرت بابن الزبير فقطعه إربا إربا» .

فمات معاوية فقام الضحاك بن قيس خطيبا، فقال: «إن أمير المؤمنين معاوية كان أنف العرب و هذه أكفانه و نحن مدرجوه فيها، و مخلون بينه و بين ربه، فمن أراد حضوره بعد الظهر فليحضره» . فصلّى عليه الضحاك بن قيس، ثم قدم يزيد ولده، فلم يقدم أحد على تعزيته حتى دخل عليه عبد اللّه بن همّام السلولي فأنشأ يقول:

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة # و اشكر حباء الذي بالملك حاباكا

لا رزء أصبح في الأقوام قد علموا # كما رزئت و لا عقبى كعقباكا

أصبحت راعي أهل الدين كلهم # فأنت ترعاهم و اللّه يرعاكا

و في معاوية الباقي لنا خلف # إذا نعيت و لا نسمع بمنعاكا

فانفتح الخطباء للكلام بعد ذلك.

خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي

قام بخرسان خطيبا حين خلع فقال:

أ تدرون من تبايعون؟إنما تبايعون يزيد بن ثروان-يعني هبنّقة القيسي كأني بأمير من جاء و حكم، و قد أتاكم يحكم في أموالكم و فروجكم و أبشاركم.

---

(1) وقذه: أثخنه.

(2) خب: خداع. ضب: حاقد.

ثم قال: الاعراب و ما الأعراب، فلعنة اللّه على الأعراب. جمعتكم، كما يجتمع قزع الخريف (1) ، من منابت الشّيح و القيصوم، و منابت القلقل (2) ، و جزيرة أيركاوان تركبون البقر، و تأكلون القضب (3) ، فحملتكم على الخيل، و ألبستكم السلاح، حتى منع اللّه بكم البلاد، و أفاء بكم الفيء.

قالوا: مرنا بأمرك. قال: غرّوا غيري.

و خطب مرة أخرى

فقال: يا أهل العراق، أ لست أعلم الناس بكم: أما هذا الحيّ من أهل العالية فنعم الصدقة. و أما هذا الحي من بكر بن وائل فعلجة بظراء لا تمنع رجليها. و أما هذا الحي من عبد القيس فما ضرب العير بذنبه. و أما هذا الحي من الأزد، فعلوج خلق اللّه و أنباطه. و أيم اللّه لو ملكت أمر الناس لنقشت أيديهم. و أما هذا الحي من تميم فإنهم كانوا يسمون الغدر في الجاهلية:

«كيسان» . قال النمر بن تولب يهجو تميما:

إذا ما دعوا كيسان كان كهولهم # إلى الغدر أدنى من شبابهم المرد

و خطب مرة أخرى

فقال: يا أهل خراسان، قد جربتم الولاة قبلي: أتاكم امية فكان كاسمه أمية الرأي و أمية الدين، فكتب إلى خليفته: إن خراج خراسان و سجستان لو كان في مطبخه لم يكفه. ثم أتاكم بعده أبو سعيد–يعني المهلب بن أبي صفرة–فدوخ بكم ثلاثا، لا تدرون أ في طاعة أنتم أم في معصية. ثم لم يجب فيئا و لم ينك (4) عدوا. ثم أتاكم بنوه بعده مثل أطباء الكلبة، منهم ابن

---

(1) القزع: قطع من السحاب.
(2) القلقل: شجر له حب.
(3) القضب: النبات الاخضر.
(4) نكأه: اصاب منه.

الدحمة حصان يضرب في عانة (1) ، و لقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده، ثم قد أصبحتم قد فتح اللّه عليكم البلاد، و أمن لكم السبل، حتى إن الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند في غير جواز.

خطبة الأحنف بن قيس

قال بعد أن حمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على نبيه:

يا معشر الأزد و ربيعة، انتم إخواننا في الدين، و شركاؤنا في الصهر، و أشقاؤنا في النسب، و جيراننا في الدار، و يدنا على العدو. و اللّه لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، و لأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام. فإن استشرى شنآنكم (2) و أبى حسك صدوركم (3) ، ففي أموالنا وسعة أحلامنا لنا و لكم سعة.

خطبة جامع المحاربي

و من محارب جامع، و كان شيخا صالحا، خطيبا لسنا، و هو الذي قال للحجاج حين بنى مدينة واسط: «بنيتها في غير بلدك، و أورثتها غير ولدك. و كذلك من قطعه العجب عن الاستشارة، و الاستبداد عن الاستخارة» .

و شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق و تنقّم مذهبهم، و تسخط طريقتهم، فقال جامع:

أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنفوك (4) لنسبك، و لا لبلدك، و لا لذات نفسك، فدع ما يبعدهم منك، إلى ما يقرّبهم إليك، و التمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، و ليكن إيقاعك بعد وعيدك، و وعيدك بعد وعدك.

---

(1) عانة: قطيع من الوحش.
(2) الشنآن: العداوة و البغض.
(3) حسك الصدر: الحقد و العداوة.
(4) شنفه: ابغضه.

فقال الحجاج: إني و اللّه ما أرى أن أرد بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف. فقال: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار.

فقال الحجاج: الخيار يومئذ للّه. فقال: أجل، و لكن لا تدري لمن يجعله اللّه. فغضب الحجاج فقال: يا هناه، إنك من محارب. فقال جامع:

و للحرب سمّينا و كنا محاربا # إذا ما القنا أمسى من الطّعن أحمرا

و البيت للخضري.

فقال الحجاج: و اللّه لقد هممت أن أخلع لسانك فاضرب به وجهك.

قال جامع: إن صدقناك أغضبناك، و إن غششناك اغضبنا اللّه. فغضب الأمير أهون علينا من غضب اللّه. قال: أجل. و سكن و شغل الحجاج ببعض الأمر، و انسل جامع فمرّ بين صفوف خيل الشام، حتى جاوزهم إلى خيل أهل العراق. و كان الحجاج لا يخلطهم، فأبصر كبكبة فيها جماعة كثيرة من بكر العراق، و قيس لعراق، و تميم العراق، و أزد العراق فلما رأوه اشرأبوا إليه، و بلغهم خروجه فقالوا له: ما عندك؟دافع اللّه لنا عن نفسك. فقال: ويحكم غموه بالخلع كما يغمكم بالعداوة و دعوا التعادي ما عاداكم، فإذا ظفرتم به تراجعتم و تعافيتم. أيها التميمي، هو أعدى لك من الأزدي، و أيها القيسي، هو أعدى لك من التغلبي. و هل ظفر بمن ناوأه منكم إلا بمن بقي معه منكم.

و هرب جامع من فوره ذلك إلى الشام فاستجار بزفر بن الحارث.

و خطب الحجاج

فقال: اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه، و أرني الغيّ غيا فأجنبه، و لا تكلني إلى نفسي، فأضل ضلالا بعيدا. و اللّه ما أحب أن ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه، و لما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء.

و خطبة له أيضا

الهيثم قال: أنبأني ابن عيّاش عن أبيه قال: خرج الحجاج يوما من القصر بالكوفة، فسمع تكبيرا في السوق، فراعه ذلك، فصعد المنبر، فحمد اللّه و أثنى عليه، و صلّى على نبيه ثم قال:

يا أهل العراق، يا أهل الشقاق و النفاق، و مساوئ الأخلاق، و بني اللكيعة، و عبيد العصا، و أولاد الإماء، و الفقع بالقرقر (1) . إني سمعت تكبيرا لا يراد به اللّه، و إنما يراد به الشيطان. و إنما مثلي و مثلكم ما قال عمرو بن براقة الهمداني:

و كنت ذا قوم غزوني غزوتهم # فهل أنا في ذا يال همدان ظالم

متى تجمع القلب الذكي و صارما # و أنفا حميا تجتنبك المظالم

أما و اللّه لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأمس الدابر.

خطبة الحجاج بعد دير الجماجم

خطب في أهل العراق بعد دير الجماجم فقال:

يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم و الدم، و العصب و المسامع، و الأطراف و الأعضاء، و الشّغاف، ثم أفضى إلى الأمخاخ و الأصماخ، ثم ارتفع فعشّش، ثم باض و فرّخ، فحشاكم نفاقا و شقاقا، و اشعركم خلافا، و اتخذتموه دليلا تتبعونه، و قائدا تطيعونه، و مؤامرا تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان. أ لستم أصحابي بالأهواز، حيث رمتم المكر، و سعيتم بالغدر، و استجمعتم للكفر، و ظننتم أن اللّه يخذل دينه و خلافته، و أنا

(1) الفقع: كمأة البعض. القرقر: الارض المنخفضة.

أرميكم بطرفي: و أنتم تسللون لواذا، و تنهزمون سراعا. ثم يوم الزاوية، كان فشلكم و تنازعكم و تخاذلكم، و براءة اللّه منكم، و نكوص وليكم عنكم، إذ ولّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى اعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه و لا يلوي الشيخ على بنيه، حين عضكم السلاح، و وقصتكم الرماح. ثم يوم دير الجماجم، و ما يوم دير الجماجم؟!به كانت المعارك و الملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيلة، و يذهل الخليل عن خليله.

يا أهل العراق، الكفرات بعد الفجرات، و الغدرات بعد الخترات، و النزوة بعد النزوات!إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم و خنتم و إن امنتم أرجفتم و إن خفتم نافقتم. لا تذكرون حسنة، و لا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استفزّكم عاص، أو استنصركم ظالم، و استعضدكم خالع إلا تبعتموه و آيتموه، و نصرتموه و رجبتموه.

يا أهل العراق، هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه و أنصاره. يا أهل العراق، أ لم تنهكم المواعظ؟أ لم تزجركم الوقائع؟! ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح (1)

عن فراخه، ينفي عنها المدر، و يباعد عنها الحجر، و يكنها من المطر، و يحميها من الضباب، و يحرسها من الذئاب. يا أهل الشام، أنتم الجنّة و الرداء، العدة و الحذاء.

و قال رجل لحذيفة: أخشى أن أكون منافقا. فقال: لو كنت منافقا لم تخش ذلك.

و قال آخر: اعلم أن المصيبة واحدة إن صبرت، و إن لم تصبر فهما مصيبتان. و مصيبتك بأجرك، اعظم من مصيبتك بميتك.

(1) الظليم: ذكر النعام. الرامح: المدافع.

و قال صالح بن عبد القدّوس:

إن يكن ما به أصبت جليلا # فذهاب العزاء فيه أجلّ

و قال آخر: تعز عن الشيء إذا منعته، لقلة ما يصحبك إذا أعطيته، و ما خفّف الحساب و قلله، خير مما كثره و ثقله.

قال: و حدثنا أبو بكر الهذلي–و اسمه سلمي–قال: إذا جمع الطعام أربعا فقد كمل و طاب: إذا كان حلالا، و كثرت الأيدي عليه، و سمي اللّه تعالى في أوله، و حمد في آخره.

خطبة كلثوم بن عمرو

أما بعد فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تزكية نفسه، و لا يعبر عنه في تزكية أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته، و ائتمانه إياهم على حرمته.

خطبة يزيد بن الوليد

قالوا: و لما قتل يزيد بن الوليد ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، قام خطيبا، بعد أن حمد اللّه و اثنى عليه، ثم قال:

و اللّه يا أيها الناس، ما خرجت أشرا و لا بطرا، و لا حرصا، على الدنيا، و لا رغبة في الملك، و ما بي إطراء نفسي، و إني لظلوم لها، و لقد خسرت إن لم يرحمني ربي، و يغفر لي ذنبي، و لكني خرجت غضبا للّه و لدينه، و داعيا إلى اللّه و سنّة نبيه، لما هدمت معالم الهدى، و أطفئ نور التقى، و ظهر الجبار العنيد، و كثرت حوله الحزق و الجنود، المستحلّ لكل حرمة، و الراكب لكل بدعة. مع أنه و اللّه ما كان يؤمن بيوم الحساب، و لا يصدق بالثواب و العقاب.

و إنه لابن عمي في النسب، و كفيئي في الحسب. فلما رأيت ذلك استخرت اللّه في أمره، و سألته أن لا يكلني إلى نفسي، و دعوت إلى ذلك من أجابني من

أهل ولايتي، حتى أراح اللّه منه العباد، و طهر منه البلاد، بحول اللّه و قوته، لا بحولي و قوتي.

أيها الناس، إن لكم علي ألا أضع حجرا على حجر، و لا لبنة على لبنة، و لا أكري (1) نهرا، و لا أكنز مالا، و لا أعطيته زوجا و لا ولدا، و لا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسدّ فقر ذلك البلد و خصاصة أهله، بما يغنيهم، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه. و لا أجمّركم (2)

في ثغوركم فأفتنكم و أفتن أهاليكم، و لا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، و لا احمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم و اقطع نسلهم. و لكم عندي أعطياتكم في كل سنة، و أرزاقكم في كل شهر، حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم. فإن أنا وفيت فعليكم السمع و الطاعة، و حسن الموازرة و المكانفة (3) ، و إن أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني فإن أنا تبت قبلتم مني، و إن عرفتم أحدا يقوم مقامي ممن يعرف بالصلاح، يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم، فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه. و دخل في طاعته.

أيها الناس: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أقول قولي هذا و استغفر اللّه لي و لكم.

فلما بويع مروان بن محمد نبشه و صلبه. و كانوا يقرؤن في الكتب: «يا مبذر الكنوز، و يا سجادا بالأسحار، كانت ولايتك لهم رحمة، و عليهم حجة، أخذوك فصلبوك» .

خطبة يوسف بن عمر

قام خطيبا يوسف بن عمر فقال:

---

(1) اكري: احتفر.
(2) جمره: حبسه في ارض العدو.
(3) المكانفة: المساعدة، المعاونة.

اتقوا اللّه عباد اللّه، فكم من مؤمّل أملا لا يبلغه، و جامع مالا لا يأكله، و مانع ما سوف يتركه، و لعله من باطل جمعه، و من حق منعه، أصابه حراما، و أورثه، عدوا، فاحتمل أصره (1) ، وباء بوزره، و ورد على به آسفا لاهفا، قد خسر الدنيا و الآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

كلام هلال بن وكيع، و زيد بن جبلة و الأحنف بن قيس عند عمر

بشار بن عبد الحميد، عن أبي ريحانة قال: وفد هلال بن وكيع، و الأحنف بن قيس، و زيد بن جبلة على عمر رحمه اللّه، فقال هلال بن وكيع:

يا أمير المؤمنين، أنّا لباب من خلفنا من قومنا، و غرة من وراءنا من أهل مصرنا، و إنك إن تصرفنا بالزيادة في أعطياتنا، و الفرائض لعيالاتنا، يزد ذلك الشريف منا تأميلا، و تكن لذوي الأحساب أبا وصولا. فإنّا أن نكن مع ما نمتّ به من فضائلك، و ندلي به من أسبابك، كالجدّ (2) الذي لا يحلّ و لا يرحل، نرجع بآنف مصلومة و جدود عائرة. فمحنا (3) و أهالينا بسجل من سجالك المترعة.

و قام زيد بن جبلة فقال: يا أمير المؤمنين، سود الشريف و أكرم الحسيب، و أزرع عندنا من أياديك ما نسد به الخصاصة، و نطرد به الفاقة فإنّا بقف (4) من الأرض، يابس الأكناف مقشعر الذروة، لا شجر فيه و لا زرع.

و إنّا من العرب اليوم إذ أتيناك بمرأى و مسمع.

و قام الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين إن مفاتح الخير بيد اللّه، و الحرص قائد الحرمان. فاتق اللّه فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قيلا و لا قالا، و اجعل

---

(1) اصره: ذنبه.
(2) الجد البئر القليلة الماء.
(3) محنا: اعطنا، من الميح اي العطاء.
(4) قف: ما ارتفع من الارض.

بينك و بين رعيتك من العدل و الأنصاف، سببا يكفيك وفادة الوفود، و استماحة الممتاح، فإن كل امرئ إنما يجمع في وعائه، إلا الأقل ممن عسى أن تقتحمه الأعين، و تخونهم الألسن، فلا يوفد إليك يا أمير المؤمنين.

خطبة زياد

و خطب زياد فقال.

استوصوا بثلاثة خيرا: الشريف، و العالم، و الشيخ. فو اللّه لا يأتيني شريف بوضيع استخفّ به إلا انتقمت له منه، و لا يأتيني شيخ بشاب استخف به إلا أوجعته ضربا، و لا يأتيني عالم بجاهل استخفّ به إلا نكلت به.

علي بن سليم قال: قال حاتم طي لعدي ابنه: أي بني، إن رأيت إن الشر يتركك إن تركته فاتركه.

قال: و قال عدي بن حاتم لابن له: قم بالباب فامنع من لا تعرف، و أذن لمن تعرف. فقال: لا و اللّه، لا يكونن أول شيء وليته من أمر الدنيا منع قوم من طعام.

و قال مديني لعبد الملك بن مروان، و دخل عليه بنوه: أراك اللّه في بنيك ما أرى أباك فيك، و أرى بنيك فيك ما أراك في أبيك.

و قال بعض الأعراب و هو يرقص بعض أولاد الخلافة و يقول:

إنّا لنرجوك لتيك تيكا # لها نرجيك و نجتبيكا

هي التي نأمل أن تأتيكا # و أن يرى ذاك أبوك فيكا

كما رأى جدك في أبيكا

و قال ابن شبرمة: ذهب العلم إلا غبرات (1) في أوعية سوء.

(1) الغبرات: البقية من كل شيء.

الهيثم بن عدي، عن ابن عياش، عن أبيه. قال: خرج الحجاج إلى القاوسان فإذا هو بأعرابي في زرع فقال له: ممن أنت؟فقال: من أهل عمان.

قال: فمن أي القبائل؟قال: من الأزد. قال: كيف علمك بالزرع؟قال: إني لأعلم من ذلك علما. قال: فأي الزرع خير؟قال: ما غلظ قصبه، و اعتمّ نبته، و عظمت حبته، و طالت سنبلته. قال: فأي العنب خير؟قال: ما غلظ عموده، و اخضر عوده، و عظم عنقوده. قال: فما خير التمر؟قال: ما غلظ لحاؤه، و دق نواه، ورق سحاه.

من اللغز في الجواب

قالوا: كان الحطيئة يرعى غنما له، و في يده عصا. فمر به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟قال: عجراء (1) من سلم يعني عصاه. قال: إني ضيف.

فقال الحطيئة: للضّيفان أعددتها.

قال ابن سليم: قال قيس بن سعد: اللهم ارزقني حمدا و مجدا، فإنه لا حمد إلا بفعال، و لا مجد إلا بمال.

و قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة: أخرجوا الي رجلا من عقلائكم أسأله عن بعض الأمور. فأخرجوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة الغساني، و هو الذي بنى القصر، و هو يومئذ ابن خمسين و ثلاثمائة سنة فقال له خالد: من أين أقصى أثرك؟قال من صلب أبي. قال: فمن أين خرجت؟قال: من بطن أمي. قال: فعلام أنت؟قال على الأرض. قال:

ففيم أنت؟قال: في ثيابي. قال: ما سنّك؟قال: عظم. قال: أ تعقل، لا عقلت؟قال: أي و اللّه و أقيّد. قال: ابن كم أنت؟قال: ابن رجل واحد.

قال: كم أتى عليك من الدهر؟فقال: لو أتى علي شيء لقتلني. قال: ما تزيدني مسألتك إلا غمّى (2) ؟قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك. قال: اعرب انتم أم نبط؟قال: عرب استنبطنا، و نبط استعربنا. قال: فحرب انتم أم سلم؟قال: سلم. قال: فما بال هذه الحصون؟قال: بنيناها للسفيه حتى يجيء

(1) عجراء: الكثيرة العقد.

(2) غمی: امر ملتبس.

الحليم فينهاه. قال: كم أتت عليك سنة؟قال: خمسون و ثلاثمائة. قال: فما أدركت؟قال: أدركت سفن البحر ترفأ إلينا في هذا الجرف، و رأيت المرأة من أهل الحيرة تأخذ مكتلها على رأسها و لا تتزود إلا رغيفا و غحدا، فلا تزال في قرى مخصبة متواترة حتى ترد الشام. ثم قد اصبحت خرابا يبابا، و ذلك دأب اللّه في العباد و البلاد.

قال: و أتى أزهر بن عبد الحارث رجل من بني يربوع، فقال: أ لا أدخل؟قال: وراءك أوسع لك. قال: قد أحرقت الشمس رجلي. قال: بل عليهما تبردا. فقال: يا آل يربوع!قال: ذليلا دعوت. يا بني دريص، أطعمتكم عاما أو جلّة، فأكلتم جلتكم، و أغرتم على جلة الضيفان.

و قال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القرآن؟قال: أ متفرقا كان فأجمعه. قال: أ تقرؤه ظاهرا؟قال: بل أقرؤه و أنا انظر إليه. قال:

أ فتحفظه؟قال: أ خشيت فراره فأحفظه. قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟قال: لعنه اللّه و لعنك معه. قال: إنك مقتول فكيف تلقى اللّه؟.

قال: ألقى اللّه بعملي و تلقاه أنت بدمي.

و قال لقمان لابنه و هو يعظه: يا بني، أزحم العلماء بركبتيك، و لا تجادلهم فيمقتوك، و خذ من الدنيا بلاغك، و أبق فضول كسبك لآخرتك، و لا ترفض الدنيا كلّ الرفض فتكون عيالا، و على أعناق الرجال كلاّ، و صم صوما يكسر شهوتك، و لا تصم صوما يضر بصلاتك، فإن الصلاة أفضل من الصوم، و كن كالأب لليتيم، و كالزوج للأرملة، و لا تحاب القريب، و لا تجالس السفيه، و لا تخالط ذا الوجهين البتة.

و سمع الأحنف رجلا يطري يزيد عند معاوية، فلما خرج من عنده اسحنفر (1) في ذمهما، فقال له الأحنف: مه، فإن ذا الوجهين لا يكون عند اللّه وجيها.

---

(1) اسحنفر: مضى.

و قال سعيد بن أبي العروبة: لأن يكون لي نصف وجه و نصف لسان، على ما فيهما من قبح المنظر و عجز المخبر، أحب إلي من أن أكون ذا وجهين و ذا لسانين، و ذا قولين مختلفين.

و قال أيوب السختياني: النمام ذو الوجهين أحسن الاستماع، و خالف في الإبلاغ.

حفص بن صالح الأزدي عن عامر الشعبي، قال: كتب عمر إلى معاوية: «أما بعد فإني كتبت إليك بكتاب في القضاء لم آلك و نفسي فيه خيرا. الزم خمس خصال يسلم لك دينك، و تأخذ فيه بأفضل حظك: إذا تقدم إليك خصمان فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة. و أذن الضعيف حتى يشتدّ قلبه و ينبسط لسانه. و تعهد الغريب، فإنك إن لم تتعهده ترك حقه، و رجع إلى أهله، و إنما ضيع حقه من لم يرفق به. و آس بينهم في لحظك و طرفك، و عليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء» .

أبو يوسف، عن المرزمي، عمن حدثه عن شريح، إن عمر بن الخطاب رحمه اللّه كتب إليه:

«لا تشار و لا تمار و لا تضار، و لا تبع و لا تبتع في مجلس القضاء و لا تقض بين اثنين و أنت غضبان» .

و قال عمر بن عبد العزيز: إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل:

علم ما كان قبله، و نزاهة عن الطمع، و حلم عن الخصم، و اقتداء بالأئمة، و مشاورة أهل الرأي.

محمد بن حرب الهلالي قال: لما ولي يزيد بن معاوية سلم بن زياد خراسان، قال له:

«إن أباك كفى أخاه عظيما، و قد استكفيتك صغيرا. فلا تتكلن على عذر مني لك، فقد اتكلت على كفاية منك. و إياك مني قبل أن أقول إياي منك، فإن الظن إذا أخلف مني فيك أخلف منك في. و أنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه. و قد اتعبك أبوك، فلا تريحن نفسك. و كن لنفسك تكن لك، و اذكر في يومك أحاديث غدك، تسعد إن شاء اللّه.

مما قالوا في التشديق و في ذكر الأشداق

.

و قال المازني:

من كان يعلم أن بشرا ملصق # فاللّه يجزيه و ربك أعلم [1]

ينبيك ناظره و قلة لحمه # و تشادق فيه و لون اسحم

إن الصريح المحض فيه دلالة # و العرق منكشف لمن يتوسم

أما لسانك و احتباؤك قاعدا # فزرارة العدسي عندك أعجم [2]

إني لأرجو أن يكون مقالهم # زورا و شانئك الحسود المرغم

و في مثل ذلك يقول مورق العبد:

قد علم الغربيّ و المشرّق # إنك في القوم صميم ملصق

عوداك نبع و هشيم بروق [3] # و أنت جدب و ربيع مغدق

و أنت ليل و نهار مشرق # لو لا عجوز قحمة و دردق [4]

و صاحب جم الحديث مونق # كيف الفوات و الطلوب مورق

شيخ مغيظ و سنان يبرق # و حنجر رحب و صوت مصلق

و شدق ضرغام و ناب يحرق # و شاعر باقي الوسوم مفلق

---

(1) الملصق: من يدعي النسب الى قوم ما.

(2) الاحتباء: الجمع بين الساقين و الظهر في الجلوس. و زرارة العدسي حكيم جاهلي من تميم.

(3) بروق: نبت ضعيف له ثمر اسود صغير، يضرب به المثل في الضعف.

(4) القحمة: الكبيرة المسنة. الدردق: الصبيان الصغار.

باب في صفة الرائد الغيث، و في نعته للأرضبالكلام الغريب

قال أبو المجيب: وصف رائد أرضا جدبة فقال: «اغبّرت جادتها. و درّع مرتعها، و قضم شجرها، و رقت كرشها، و خور عظمها، و التقى سرحاها، و تميّز أهلها، و دخل قلوبهم الوهل، و أموالهم الهزل» .

الجادة و الحرجة و المجبة معناه كله: وسط الطريق و معظمه و منهجه.

و التقى سرحاها، يقول إذا أكل كل سارح ما يليه التقيا عند الماء، و إذا لم يكن للجمال مرعى إلا الشجر وحده رقت أكراشه. و قوله تميز أهلها، تفرقوا في طلب الكلأ. و مرتع مدرع، إذا كان بعيدا من الماء و مرتع قاصر، إذا كان قريبا من الماء. و يقولون ماء مطلب و ماء مطنب إذا ألجأهم إلى طلبه من بعده.

و وصف أعرابي أرضا أحمدها فقال: «خلع شيحها، و أبقل رمثها، و خضب عرفجها، و اتسق نبتها، و اخضرّت قريانها (1) ، و أخوصت

(1) قريان: مجرى الماء في الروض.

بطنانها (1) ، و استحلست آكامها (2) ، و اعتم نبت جراثيمها (3) ، و أجرت بقلتها و درّقتها و خبازتها (4) ، و احورّت خواصر إبلها، و شكرت حلوبتها و سمنت قتوبتها، و عمد ثراها، و عقدت تناهيها، و أماهت ثمادها (5) و وثق الناس بصائرتها» .

قال: يقال: خلع الشيح، إذا أورق. و الخالع من العضاة: الذي لا يسقط ورقه أبدا كالسدر، فإنه لا يتجرد، و كل شجر له شوك فهو عضاة، و الواحد عضة، إلا القتاد، و لا يعبل إلا الأرطي. و أخوصت بطنانها، إذا نبت فيه قضبان دقاق. و خضب عرفجها، يقول: اسود. و أخوص الشجر، و هو الذي لا شوك له. و من العضاة قشره و قصده. فإذا يبست فهي عود. و اتسق نبتها، أي تتام. و أجرت بقلتها، أي نبت فيها مثل الجراء. و العلفة: ثمرة الطلح، و الحبلة للسلم. و احورّت خواصر إبلها، يقول: استرخت عن كثرة الرعي. و شكرت حلوبتها، يقول غزرت، يقال: شكرت الإبل و الغنم، إذا تملأت من الربيع، و هي إبل شكارى، و يقال ضرة شكرى، إذا امتلأت من اللبن، و الضرة: أصل الضرع. و قوله: عمد ثراها، و ذلك إذا قبضت منه على شيء فتعقد و اجتمع من ندوته. يقال عمد الثرى يعمد عمدا، و هو ثرى عمد. فالعمد: إن يجاوز الثرى المنكب، و هو أن يقيس السماء بالمرفق فيقول:

بلغت وضح الكف، ثم الرسغ، ثم العظمة، ثم المرفق، ثم ينصف العضد ثم يبلغ المنكب. فإذا بلغ المنكب قيل عمد الثرى. فيقال إن ذلك حيا سنين.

و التناهي، واحدتها تنهية، و هي مستقر السيل حيث ينتهي الماء. و عقدها: أن يمر السيل مقبلا حتى إذا انتهى منتهاه دار بالإباطح حتى يلتقي طرفا السيل.

و الصائرة: الكلأ و الماء.

!قالوا: قاتل الحجاج ابن الأشعث في المربد، فخطب ابن الأشعث فقال:

---

(1) بطنان: ما غمض من الارض.
(2) استحلس: اخضر.
(3) اعتم النبت: كثر و التف. جراثيم: أماكن مرتفعة عن الارض و مجتمعه.
(4) الذرق: نبت خبازة: بقل معروف عريض الورق.
(5) اماهت: كثر ماؤها. ثماد: حفرات.

«أيها الناس، إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة، تضرب به يمينا و شمالا، فما تلبث أن تموت» .

فمر به رجل من بني قشير فقال: قبح اللّه هذا و رأيه، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم، و يعدهم الأضاليل، و يمنيهم الأباطيل.

و ناس كثير يرون أن الأشعث هو المحسن دون القشيري.

و قال بشار:

و حمد كعصب البرد حمّلت صاحبي # إلى ملك للصالحات قرين

و قال أيضا:

و بكر كنوّار الرياض حديثها # يروق بوجه واضح و قوام

أبو الحسن قال: كان معاوية يأذن للأحنف أوّل من يأذن، فأذن له يوما، ثم أذن لمحمد بن الأشعث حتى جلس بين معاوية و الأحنف، فقال له معاوية: لقد أحسست من نفسك ذلا. إني لم آذن له قبلك إلا ليكون إلي في المجلس دونك، و إنّا كما نملك أموركم كذلك نملك تأديبكم، فأريدوا ما يراد بكم، فإنه أبقى لنعمتكم، و أحسن لأدبكم» .

و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم لأصيل الخزاعي: «يا أصيل، كيف تركت مكة؟» .

قال «تركتها و قد أحجن ثمامها، و أمشر سلمها، و أغدق أذخرها (1) » . فقال عليه السلام: «دع القلوب تقرّ» .

و سأل أبو زياد الكلابي الصقيل العقيلي، حين قدم من البادية، عن طريقه، قال: انصرفت من الحج فأصعدت إلى الرّبذة (2) في مقاط الحرة، و

---

(1) احجن: بدا ورقه. أمشر: خرج ورقه و اكتسى به. أعذق أزهر.
(2) الربذة: قرية قرب المدينة.

صلالا من الربيع (1) ، من خضيمة (2) حمض، و صليّان و قرمل، حتى لو شئت لأنخت إبلي في إذراء القفعاء، فلم ازل في مرعى لا أحسّ منه شيئا حتى بلغت أهلي.

و قال سلام الكلابي: رأيت ببطن فلج منظرا من الكلأ لا أنساه، وجدت الصفراء و الخزامى تضربان نحور الإبل، تحتهما قفعاء و حريث قد اطاع، و امسك بأفواه المال–أي لا تقدر أن ترفع رءوسها–و تركت الحوران ناقعة في الأجارع (3) » .

و ذم أرضا فقال: «وجدنا أرضا مثل جلد الأجرب، تصأى حياتها، و لا يسكت ذئبها، و لا يقيّد راكبها» .

و قال النّضر: قلت لأبي الخضير: ما أعجب ما رأيت من الخصب قال:

كنت أشرب رثيئة تجرها الشفتان جرا، و قارصا قمارصا إذا تجشّأت جدع أنفي، و رأيت الكمأة تدوسها الإبل بمناسمها، و الوضر يشمه الكلب فيعطس.

و قال الأصمعي: قال المنتجع بن نبهان: قال رجل من أهل البادية:

كنت أرى الكلب يمر بالخصفة عليها الخلاصة فيشمها و يمضي عنها.

محمد بن كناسة، قال أخبرني بعض فصحاء أعراب طيء قال: بعث قوم رائدا فقالوا: ما وراءك؟قال: «عشب و تعاشيب، و كمأة متفرقة شبب و تقلعها بأخفافها النيب (4) فقالوا له لم تضع شيئا هذا كذب. فأرسلوا آخر فقالوا: ما وراءك قال: عشب ثأد مأد (5) ، مولى عهد (6) ، متدارك جعد (7) ، أفخاذ نساء بني سعد، تشبع منه الناب و هي تعد» .

---

(1) الصلال: قطع من العشب.
(2) خضيمة: نبت أخضر.
(3) الحوران: ولد الناقة حين يرضع. ناقعة: راوية. الاجارع: الحملة السهلة.
(4) النيب: النوق المسنة.
(5) ثأد مأد: الندي اللين، الناعم.
(6) عهد: مطر بعد مطر.
(7) جعد: مجتمع بعضه الى بعض.

قال لأن النبت إذا كان قليلا وقفت عليه الإبل، و إذا كان كثيرا أمكنها الأكل و هي تعدو.

قال و بعث رجل أولاده يرتادون في خصب، فقال أحدهم: «رأيت بقلا و ماء غيلا، يسيل سيلا، و خوصة تميل ميلا، يحسبها الرائد ليلا» . و قال الثاني: «رأيت ديمة على ديمة، في عهاد (1) غير قديمة، و كلأ تشبع منه الناب قبل الفطيمة» .

و قال ابو مجيب: قيل لأوفى بن عبيد: ايت وادي كذا و كذا فارتده لنا.

فقال: «وجدت به خشبا هرمى، و عشبا شرما» .

قال: و الهرمى: الذي ليس له دخان إذا أوقد، من يبسه و قدمه.

و الشرم. العشب الضخم. يقال: هذا عشب شرم.

و قام هرم بن زيد الكلبي: إذا أحيا الناس قيل: «قد أكلأت الأرض، و احرنفشت العنز لأختها، و لحس الكلب الوضر» .

قال: و احرنفاش العنز: أن ينتفش شعرها، و تنصب روقيها في أحد شقيها لتنطح صاحبتها، و إنما ذلك من الأشر، حين ازدهيت و أعجبتها نفسها. و لحس الكلب الوضر، لما يفضلون منه، لأنهم في الجدب لا يدعون للكلب شيئا يلحسه.

و قال أبو مجيب: إذا أجدب الرائد، قال: «وجدت أرضا أرمى، و أرضا عشمى» .

فأما العشمى: فالتي يرى فيها الشجر الاعشم، و إنما يعشم من الهبوة. و يقال للشيخ: إنما هو عشمة، لاستشنان جلده، و جفوف رأسه، و ثلوب جسمه. فأما الأرمى فالتي قد أرمت، فليس فيها أصل شجر.

قال أبو عبيدة: قال بعض الأعراب: «تركت جرادا كأنها نعامة باركة» ، يريد التفاف نبتها. و هي من بلاد بني تميم.

---

(1) عهاد: حديثة.

و قيل لأعرابي: ما وراءك؟قال: «خلفت أرضا تظالم معزاها» . يقول:

سمنت و أشرت فتظالمت.

و تقول العرب: «ليس أظلم من حية» و تقول: «هو أظلم من ورل» و «أظلم من ذئب» ، كما تقول: «اغدر من ذئب» ، و كما يقولون: «أكسب من ذئب» . قال الأسدي:

لعمرك لو أني أخاصم حية # إلى فقعس ما أنصفتني فقعس

إذا قلت مات الداء بيني و بينهم # أتى حاطب منهم لآخر يقبس

فما لكم طلسا إلي كأنكم # ذئاب الغضى و الذئب بالليل أطلس

و قال الفزاري:

و لو أخاصم أفعى نابها لثق # أو الأساود من صمّ الأهاضيب

أو لو أخاصم ذئبا في أكيلته (1) لجاءني جمعهم يسعى مع الديب يقول: بلغ من ظلم قومنا لنا، أنّا لو خاصمنا الذئاب و الحيات، و بهما يضربون المثل في الظلم، لقضوا لهما علينا.

و قالت العرب: «إذا شبعت الدقيقة لحست الجليلة» هذا في قلة العشب، إنما تلحسه الناقة لقلته و قصره.

و حدثنا أبو زياد الكلابي قال: بعث قوم رائدا لهم بعد سنين تتابعت عليهم، فلما رجع إليهم قالوا له: ما وراءك؟قال: «رأيت بقلا يشبع منه الجمل البروك، و تشكت منه النساء، و همّ الرجل بأخيه» .

أما قوله: «الجمل البروك» فيقول: لو قام قائما لم يتمكن منه لقصره. و أما قوله «و تشكت منه النساء» فإنه مأخوذ من الشكوة، و جمع الشكوة شكاء.

و الشكوة: مسك السخلة ما دامت ترضع. و الشكاء أصغر من الوطاب. يقول:

لم يكثر اللبن بعد فيمخض في الوطاب. و قوله: «و همّ الرجل بأخيه» أي همّ

(1) اكيلة: شاة تنصب فخا فيعاد بها.

أن يدعوه إلى منزله كما كانوا يصنعون في أيام الخصب. و قال غيره: الخصب يدعو إلى طلب الطوائل، و غزو الجيران، و إلى أن يأكل القوي من هو أضعف منه.

و قالوا في الكلاء: كلأ تشبع منه الإبل معقلة، و كلأ حابس فيه كمرسل.

يقول: من كثرته سواء عليك أ حبستها أم أرسلتها.

و يقولون: «كلأ تيجع منه كبد المصرم (1) » .

و أنشد الباهلي:

ثم مطرنا مطرة رويّة # فنبت البقل و لا رعية

و أنشد الأصمعي:

فجنّبت الجيوش أبا زنيب # و جاد على مسارحك السحاب

يجوز أن يكون دعا عليه، و يجوز أن يكون دعا له. و قال الآخر:

أمرعت الأرض، لو أن مالا # لو أن نوقا لك أو جمالا

أو ثلّة من غنم أما لا

و قال ابن الأعرابي: سأل الحجاج رجلا قدم من الحجاز عن المطر، فقال: «تتابعت علينا الاسمية (2) حتى منعت السّفار، و تظالمت المعزى و احتلبت الدّرة بالجرّة» .

لقيط، قال: دخل رجل على الحجاج فسأله عن المطر، فقال: ما أصابني من مطر، و لكني سمعت رائدا يقول: «هلم أظعنكم إلى محله تطفأ فيها النيران، و تتنافس فيها المعزى، و تبقى بها الجرّة حتى تنزل الدرّة» .

أبو زيد، قال: تخاصمت امرأتان إلى ابنة الخسّ في مراعي أبويهما،

---

(1) تيجع: يلحقها الوجع. المصرم: القليل المال.
(2) الاسمية: المطر.

فقالت الأولى: إبل أبي ترعى الإسليح. فقالت ابنة الخس: رغوة و صريح و سنام إطريح (1) . و قالت الأخرى: مرعى إبل أبي الخلّة. قالت ابنة الخس:

سريعة الدّرة و الجرّة.

و قال الأحوص بن جعفر بعد ما كان كبر و عمى، و ينوه يسوقون به: أيّ شيء ترتعي الإبل؟فقالوا: غرف الـــ؟مام و الضّعة، قال: سوقوا. ثم إنها عادت فارتعت بمكان آخر، فقال: أي شيء ترتعي الإبل؟قالوا: العضاة و القضة (2) . قال: عود عويد شيع بعيد. و قال: سوقوا. حتى إذا بلغوا بلدا آخر قال: أي شيء ترتعي الإبل؟قالوا: نصيّا و صلّيانا. قال: مكفتة لرغاها، مطولة لذراها، أرعوا و اشبعوا. ثم سألهم فقال: أي شيء ترتعي الإبل؟ فقالوا: الرّمث. قال: خلقت منه و خلق منها.

قال أبو صاعد الكلائي: و زعم الناس إن أول ما خلقت الإبل من، الرمث. و علامة ذلك إنك لا ترى دابة تريده إلا الإبل.

قال: و قيل لرؤبة: ما وراءك؟قال: الثرى يابس، و المرعى عابس.

قال: و قالت امرأة من الأعراب: أصبحنا ما ترقد لنا فرس، و لا ينام لنا حرس.

قالوا: كان أبو المجيب كثيرا ما يقول: لا أرى امرأة تصبّر عينيها، و لا شريفا يهنأ بعيرا، و لا امرأة تلبس نطاق يمنة.

و خطب بلال بن أبي بردة بالبصرة، فعرف انهم قد استحسنوا كلامه، فقال: أيها الناس لا يمنعنكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا احسن ما تسمعون منا» .

و قال عمر بن عبد العزيز: ما قوم اشبه بالسلف من الأعراب، لو لا جفاء فيهم.

---

(1) الاسليح: نبت يجعل الابل تسلح اذا استكثرت منها. الإطريح الذي مال في احد شقيه.
(2) القضة: نبتة سهلية.

و قال غيلان ابو مروان: إذا أردت أن تتعلم الدعاء، فاسمع دعاء الأعراب.

و قال رجل من بني سليم، و سأله الحجاج عن المطر فقال: أصابتنا سحائب ثلاث: بحوران بقطر و قطر كبار، فكان الصّغار للكبار لحمة. ثم أصابتنا الثانية بسواء فلبّدت الدّماث (1) و دحضت العزاز (2) و صدعت الكمأة عن أماكنها. ثم أصابتنا الثالثة بالقريتين فملأت الإخاذ (3) ، و أفعمت كل واد، و أقبلنا في ماء يجر الضبع و يستخرجها من وجارها (4) .

و قال رجل من بني أسد لمحمد بن مروان و سأله عن المطر فقال: ظهر الإعصار، و كثر الغبار، و أكل ما أشرف من الجنبة (5) و أيقنّا أنه عام سنة.

من نوادر الأخبار و الأشعار

قال أبو الحسن عتّاب: عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، إن الإسكندر كان لا يدخل مدينة إلا هدمها، و قتل أهلها، حتى مر بمدينة كان مؤدبه فيها، فخرج إليه، فألطفه الإسكندر و أعظمه، فقال له: «أيها الملك، إن أحق من زيّن لك أمرك و واتاك على كل ما هويت لأنا، و إن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك، و أحب ألا تشفعني فيهم، و أن تخالفني في كل ما سألتك لهم» . فأعطاه الإسكندر من ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه. فلما توثق منه قال: «فإن حاجتي أن تدخلها و تخربها و تقتل أهلها» . فقال الإسكندر: ليس إلى ذلك سبيل، و لا بد من مخالفتك.

---

(1) الدماث: السهول.
(2) العزاز: ما غلظ من الارض. دحضت: جعلت الارض مزلقة.
(3) الأخاذ: الهز.
(4) الوجار: جحر الضبع.
(5) الجنبة: نبت معتدل فوق البقل و دون الشجر.

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: «أفضل العبادة الصمت، و انتظار الفرج» .

و قال يزيد بن المهلب، و قد طال عليه حبس الحجاج: وا لهفاه على فرج في جبهة أسد، و طليّة بمائة ألف.

و قال الأصمعي: دخل درست بن رباط الفقيمي، على بلال بن أبي بردة و هو في الحبس، فعلم بلال أنه شامت به فقال بلال: ما يسرني بنصيبي من المكروه حمر النعم. فقال درست: فقد أكثر اللّه لك منه.

قال الهيثم بن عدي: كان عدي. سجّان يوسف بن عمر يرفع إلى يوسف بن عمر أسماء الموتى، فقال له عبد اللّه بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري: أقبض هذه العشرة الآلاف الدرهم، و ارفع اسمي في الموتى. قال:

فرفع اسمه في الموتى فقال له يوسف بن عمر: ويحك جئني به. فرجع إليه فأعلمه فقال له: ويحك، اتق اللّه فيّ، فإني أخاف القتل. قال: و أنا أيضا أخاف ما تخاف. ثم قال: قتلك أهون عليّ من قتلي، و لا بد من قتلك. فوضع على وجهه مخدة فذهبت نفسه مع المال.

و أما عبد اللّه بن المقفع (1) فإن صاحب الاستخراج لما ألح عليه في العذاب، قال لصاحب الاستخراج: أ عندك مال و أنا أربحك ربحا ترضاه؟و قد عرفت وفائي و سخائي و كتماني للسر، فعيني مقدار هذا النجم. فأجابه إلى ذلك، فلما صار له مال ترفق به مخافة أن يموت تحت العذاب فيتوى ماله.

و قال رجل لعمرو الغزال: مررت بك البارحة و أنت تقرأ. فقال: لو أخبرتني أي آية كنت فيها لأخبرتك كم بقي من الليل.

---

(1) يجب تصحيح الخبر، لان الذي اتهم باختلاس مال الخراج ابن المقفع الوالد و ليس ابنه الكاتب عبد اللّه بن المقفع. و لذا ينبغي حذف عبد اللّه من الجملة فتصبح كما يلي: و اما ابن المقفع فإن صاحب الاستخراج لما ألح عليه في العذاب... الخ.

و سمع مؤرّج البصري رجلا يقول: أمير المؤمنين يردّ على المظلوم.

فرجع إلى مصحفه فرد على براءة: «بسم اللّه الرحمن الرحيم» .

و كان عبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه يعطش، و قيل له:

إن شربت الماء مت. فأقبل ذات يوم بعض العوّد، فقال: كيف حال أمير المؤمنين؟فقال: أنا صالح و الحمد للّه. ثم أنشأ يقول:

و مستخبر عنا يريد بنا الردى # و مستخبرات و الدموع سواجم

ويلكم اسقوني ماء و إن كان فيه تلف نفسي. فشرب ثم مات.

و كان حبيب بن مسلمة الفهريّ رجلا غزّاء للترك، فخرج ذات مرة إلى بعض غزواته، فقالت له امرأته: أين موعدك؟قال: سرادق الطاغية أو الجنة إن شاء اللّه. قالت: إني لأرجو أن اسبقك إلى أيّ الموضعين كنت به. فجاء فوجدها في سرادق الطاغية تقاتل الترك.

و لما مدح الكميت بن زيد الأسدي مخلّد بن يزيد بن المهلب، فقال له ابن بيض: إنك يا أبا المستهلّ لكجالب التمر إلى هجر!قال: نعم، و لكن تمرنا أجود من تمركم.

و كان السيد الحميري (1) مولعا بالشراب، فمدح أميرا من أمراء الأهواز، ثم صار اليه بمديحه له، فلم يصل إليه. و أغبّ الشراب، فلما كان ذات يوم شرب ثم وصل إليه، فجلس من بعد، فقرّبه و شمّ منه ريح الشراب فقال: ما كنت أظن أبا هاشم يفعل هذا، و لكن يحتمل لمادح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أكثر من هذا–يمازحه–ثم قال: يا جارية هلمي الدواة. ثم كتب إلى بعض وكلائه:

ادفع إلى أبي هاشم مائتي دورق ميبختجا (2) . فقال السيد: لقد كنت أظن الأمير أبلغ ما هو. قال: و أي شيء رأيت من العي؟قال: جمعك بين حرفين

---

(1) السيد الحميري هو إسماعيل بن محمد بن يزيد الحميري مات في خلافة هارون الرشيد، و كان شاعرا متشيعا يذهب مذهب الكيسانية الموالين لمحمد بن الحنفية.

(2) مسختجا: كلمة فارسية معناها النبيذ المطبوخ.

و أنت تجتزي بأحدهما، أمح هذه الخبيثة «نحتجا» ودع «ميا» على حالها.

ففعل، و حمل الكتاب فأخذها عبيطا (1) .

عبد اللّه بن فائد قال: قالت امرأة الحضين بن المنذر للحضين: كيف سدت قومك و أنت بخيل و أنت دميم؟قال: لأني سديد الرأي، شديد الإقدام.

قال: و قال مسلمة بن عبد الملك لهشام بن عبد الملك: كيف تطمع في الخلافة و أنت بخيل و أنت جبان؟قال: لأني حليم و أني عفيف.

و قال زبّان:

إن بني بدر يراع جوف # كل خطيب منهم مؤوف (2)

اهوج لا ينفعه التثقيف

و قال لبيد بن ربيعة:

و أبيض يجتاب الخروق على الوجى # خطيبا إذا التف المجامع فاصلا (3)

و قال في تفصيل العلم و الخطابة، و في مدح الإنصاف، و ذم الشّغب:

و قد بلوتك و ابتليت خليقتي # و لقد كفاك معلمي تعليمي

و قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم # و بقيت في خلف كجلد الأجرب

يتأكلون مغالة و خيانة # و يعاب قائلهم و إن لم يشغب

و قال زيد بن جندب:

ما كان أغنى رجالا ضلّ سعيهم # عن الجدال و أغناهم عن الخطب

---

(1) العبيط: النبيذ الذي لم يطبخ.
(2) يراع جوف: قلم اجوف. مؤوف: ذو آفة.
(3) الوجى: الحفا. الخروق: الفلاة.

و قال لقيط بن زرارة:

إني إذا عاقبت ذو عقاب # و إن تشاغبني فذو شغاب

و قال ابن أحمر:

و كم حلّها من تيحان سميدع # مصافي الندى ساق بيهماء مطعم

طوي البطن متلاف إذا هبّت الصبا # على الأمر غواص و في الحي شيظم

و قال آخر:

و أغرّ منخرق القميص سميدع (1) يدعو ليغزو ظالما فيجاب

قد مد أرسان الجياد من الوجى # فكأنما أرسانها أطناب

و قال آخر:

كريم يغض الطرف عند حيائه # و يدنو و أطراف الرماح دوان

و كالسيف إن لا ينته لان متنه # و حدّاه إن خاشنته خشنان

و قال آخر:

يقيطع طرفه عني سويد # و لم أذكر بسيئة سويدا

توقّ حداد شوك الأرض تسلم # و غير الأسد فاتخذنّ صيدا

و قال آخر:

لا تحسبن الموت موت البلى # فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت و لكنّ ذا # أشدّ من ذاك لذل السؤال

و للحسين بن مطير:

رأت رجلا أودى بوافر لحمه # طلاب المعالي و اكتساب المكارم

(1) السميدع: الشجاع.

خفيف الحشا ضربا (1) كأن ثيابه # على قاطع من جوهر الهند صارم

فقلت لها لا تعجبنّ فإنني # أرى سمن الفتيان إحدى المشاتم

و كان عمر بن الخطاب، رحمه اللّه، إذا رأى عبد اللّه بن عباس يقول في الأمر يعرض من جلة أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، يقول: «غص غوّاص» .

و قال ابن أحمر:

هل لامني قوم لموقف سائل # أو في مخاصمة اللجوج الأصيد

و قال لبيد بن ربيعة في التطبيق على قوله:

يا هرم بن الأكرمين منصبا # إنك أوتيت حكما معجبا

فطبق المفصل و اغنم طيبا

و قال آخر:

فلما إن بدا القعقاع لجّت # على شرك تناقله نقالا

تعاورن الحديث و طبقته # كما طبقت بالنعل المثالا

و قال ابن أحمر:

لو كنت ذا علم علمت و كيف لي # بالعلم بعد تدبّر الأمر

و قال:

ليست بشوشاة الحديث و لا # فتق مغالبة على الأمر

و قال:

تضع الحديث على مواضعه # و كلامها من بعده نزر

---

(1) الضرب: الرجل الخفيف اللحم.

و قال:

و خصم مضلّ في الضّجاج تركته # و قد كان ذا شغب فولى مواتيا

و ذكر علي بن أبي طالب، رحمه اللّه، أكتل بن شمّاخ العكلي، فقال «الصّبيح الفصيح» . و هو أول من اتخذ بيت مال لنفسه في داره.

عبد اللّه بن المبارك، عن معمر عن الحسن عن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «سيكون بعدي أمراء يعطون الحكمة على منابرهم و قلوبهم أنتن من الجيف» .

جعفر بن سليمان الضبعي (1) ، عن مالك بن دينار، قال: غدوت إلى الجمعة، فجلست قريبا من المنبر، فصعد الحجاج المنبر، ثم قال: امرأ زوّر عمله، امرأ حاسب نفسه، امرأ فكر فيما يقرؤه في صحيفته و يراه في ميزانه، امرأ كان عند قلبه زاجرا، و عند همه ذاكرا، امرأ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده إلى طاعة اللّه تبعه و إن قاده إلى معصية اللّه كفه.

و بعث عديّ بن أرطأة إلى المهالبة أبا المليح الهذلي، و عبد اللّه بن عبد اللّه بن الأهتم، و الحسن البصري، فتكلم الحسن فقال عبد اللّه: و اللّه ما تمنيت كلاما قط أحفظه إلا كلام الحسن يومئذ.

قال: و تنقص ابن لعبد اللّه بن عروة بن الزبير عليا رحمه اللّه، فقال له أبوه: و اللّه ما بنى الناس شيئا قط إلا هدمه الدين، و لا بنى الدين شيئا فاستطاعت الدنيا هدمه، أ لم تر إلى علي كيف يظهر بنو مروان من عيبه و ذمه؟ و اللّه لكأنما يأخذون بناصيته رفعا إلى السماء. و ما ترى ما يندبون به موتاهم من التأبين و المديح؟و اللّه لكأنما يكشفون عن الجيف.

أبو الحسن قال: قال عبد اللّه بن الحسن، لابنه محمد، حين أراد

(1) جعفر بن سليمان الضبعي: راوية بصري متشيع روى عن مالك بن دينار و ابن جريج، توفي سنة 178 هـ.

الاستخفاء: «أي بني، إني مؤد إليك حق اللّه في حسن تأديبك، فأدّ إليّ حق اللّه في حسن الاستماع. أي بنيّ، كفّ الأذى، و أرفض البذا، و استعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى القول، فإن للقول ساعات يضر فيها خطاؤه، و لا ينفع صوابه. احذر مشورة الجاهل و إن كان ناصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا، فإنه يوشك أن يورطاك بمشورتهما، فيسبق إليك مكر العاقل و توريط الجاهل.

و كان يقال: من لانت كلمته وجبت محبته، و من طال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه، و من الوحشة ما لا يضره.

باب أن يقول كل إنسان على قدر خلقه و طبعه.

قال قتيبة بن مسلم، لحضين بن المنذر: ما السرور؟قال: امرأة حسناء، و دار قوراء (1) و فرس مرتبط بالفناء.

و قيل لضرار بن الحصين: ما السرور؟قال: لواء منشور، و جلوس على السرير، و السلام عليك أيها الأمير.

و قيل لعبد الملك بن صالح: ما السرور؟قال:

كل الكرامة نلتها # إلا التحية بالسلام

و قيل لعبد اللّه بن الأهتم: ما السرور؟قال: رفع الأولياء، و حطّ الأعداء، و طول البقاء. مع القدرة و النماء.

و قيل للفضل بن سهل: ما السرور؟قال: توقيع جائز، و أمر نافذ.

(1) قوراء: واسعة.

أبو الحسن المدائني قال: قيل لإنسان بحري: أي شيء تتمنّى؟قال: شربة من ماء الفنطاس (1) ، و النوم في ظل الشراع، و ريحا دنبداد (2) .

و قيل لطفيلي: كم اثنان في اثنين؟قال: أربعة أرغفة.

و قال الفلاّس القاصّ: كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر ثلاثمائة و ستين درهما.

و قلت لملاح لي، و ذلك بعد العصر في رمضان: انظر كم بين عين الشمس و بين موضع غروبها من الأرض؟قال: أكثر من مردبين و نصف.

و قال آخر: وقع علينا اللصوص، فأول رجل داخل دخل علينا السفينة في طول هذا المرديّ (3) ، و كان فخذه أغلظ من هذا السكّان، و أسودّ صاحب السفينة حتى صار أشد سوادا من هذا القير.

و أردت الصعود مرة في بعض القناطر، و شيخ ملاح جالس، و كان يوم مطر و زلق، فزلق حماري فكاد يلقيني لجنبي، لكنه تماسك فأقعى على عجزه، فقال الشيخ الملاح: لا إله إلا اللّه، ما أحسن ما جلس على كوثله (4) .

و مررت تبل طين أحمر و معي أبو الحسن النخاس، فلما نظر إلى الطين:

أيّ أواري (5) تجيء من هذا الطين.

و مررنا بالخلد بعد خرابه، فقال، أي اصطبلات تجيء من هذا و قيل لبعضهم: ما المروءة؟قال: طهارة البدن، و الفعل الحسن.

---

(1) فنطاس: حوض.
(2) دنبداد: كلمة فارسية تعني الريح التي تهب من خلف.
(3) المردي: المجذاف.
(4) كوثل: مؤخر السفينة.
(5) اواري: مواضع العلف.

و قيل لمحمد بن عمران: ما المروءة؟قال: أن لا تعمل في السر شيئا تستحي منه في العلانية.

و قيل للأحنف: ما المروءة؟قال: العفة و الحرفة.

و قال طلحة بن عبيد اللّه المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة.

و قيل لأبي هريرة: ما المروءة؟قال: تقوى اللّه، و اصلاح الصنيعة، و الغداء و العشاء بالأفنية.

و نظر بكر بن الأشعر، و كان سجّانا، مرة إلى سور دار بجالة بن عبدة، فقال: لا إله إلا اللّه، أي سجن يجيء من هذا.

و قال إنسان صيرفي: باعني فلان عشرين جريبا، و دانقين و نصفا ذهبا.

قال: و نظر عثمان بن عفان رحمه اللّه إلى عير مقبلة، فقال لأبي ذرّ: ما كنت تحب أن تحمل هذه؟قال أبو ذر: رجالا مثل عمر.

و قيل للزهري، ما الزهد في الدنيا؟فقال: أما أنه ليس بشعث اللمة، و لا قشف الهيئة، و لكنه ظلف (1) النفس عن الشهوة.

و قيل له أيضا: ما الزهد في الدنيا؟قال: ألا يغلب الحرام صبرك و لا الحلال شكرك.

و نظر زاهد إلى فاكهة في السوق، فلما لم يجد شيئا يبتاعها به عزّى نفسه و قال: يا فاكهة، موعدي و إياك الجنة.

قالوا: و مر المسيح عليه السلام بحلق بني اسرائيل، فشتموه، فكلما قالوا شرا قال المسيح صلّى اللّه عليه و سلّم خيرا، فقال له شمعون الصفي: أ كلما قالوا شرا قلت لهم خيرا؟قال المسيح: «كل امرئ يعطي مما عنده» .

و قال بعضهم: قيل لامرئ القيس بن حجر: ما أطيب عيش الدنيا؟

---

(1) ظلف: منع.

قال: بيضاء رعبوبة (1) ، بالطيب مشبوبة (2) ، بالشحم مكروبة (3) .

و سئل عن ذلك الأعشى فقال: صهباء صافية، تمزجها ساقية، من صوب غادية (4) .

و قيل مثل ذلك لطرفة فقال: مطعم شهي، و ملبس دفيّ، و مركب و طيّ.

قال: و كان محمد بن راشد البجلي، يتغدى، و بين يديه شبوطة (5) ، و خياط يقطع له ثيابا، و رآه يلحظ الشبوطة، فقال: قد زعمت إن الثواب يحتاج إلى خرقة، فكم مقدارها؟قال: ذراع في عرض الشبوطة. أ و دخل آخر على رجل يأكل أترجة بعسل، فأراد أن يقول: السلام عليكم، فقال: عليكم.

دخلت جارية رومية على راشد البتي، لتسأل عن مولاتها، فبصرت بحمار قد أدلى في الدار، فقالت: قالت مولاتي: كيف أير حماركم؟-فيما زعم أبو الحسن المدائني-.

و أنشد ابن الأعرابي:

و إذا أظهرت أمرا حسنا # فليكن أحسن منه ما تسرّ

فمسرّ الخير موسوم به # و مسرّ الشرّ موسوم بشر

---

(1) رعبوبة: بيضاء، حسنة، حلوة.
(2) مشبوبة: حسنها ظاهر.
(3) مكروبة: مفتولة، مشدودة.
(4) صوب مطر. غادية سحابة.
(5) شبوطة: نوع من السمك.

و أنشد ابن الأعرابي:

أرى الناس يبنون الحصون و إنما # غوابر آجال الرجال حصونها [1]

و إن من الأعمال دونا و صالحا # فصالحها يبقى و يهلك دونها

و أنشد ابن الأعرابي:

حسب الفتى من عيشه # زاد يبلّغه المحلا

خبز و ماء بارد # و الظلّ حين يريد ظلا

و قال بعض الأعراب:

و ما العيش إلا شبعة و تشرّق # و تمر كأخفاف الرباع و ماء [2]

محمد بن حرب الهلالي قال: قلت لأعرابي: إني لك لوادّ. قال: و إن لك من قلبي لرائدا.

قال: و أتيت أعرابيا في أهله مسلّما عليه، فلم أجده، فقالت لي امرأته: عشّر اللّه خطاك. أي جعلها عشرة أمثالها.

قالوا: و كان سلم بن قتيبة يقول لم يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل.

أبو الحسن قال: قال الحجاج لمعلّم ولده: علم ولدي السباحة قبل الكتابة، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم و لا يصيبون من يسبح عنهم.

أبو عقيل بن درست قال: رأيت أبا هاشم الصوفي مقبلا من جهة النهر، فقلت: في أي شيء كنت اليوم؟قال: في تعلم ما ليس ينسى، و ليس الشيء من الحيوان عنه غنى. قال: قلت و ما ذاك؟قال: السباحة.

---

(1) غوابر: بقايا.

(2) التشرق: الجلوس للشمس.

حدثنا علي بن محمد و غيره قال: كتب عمر بن الخطاب إلى ساكني الأمصار: «أما بعد فعلموا أولادكم العوم و الفروسة، و روّوهم ما سار من المثل، و حسن من الشعر» .

و قال ابن التوأم: علم ابنك الحساب قبل الكتاب، فإن الحساب أكسب من الكتاب، و مئونة تعلمه أيسر، و وجوه منافعه أكثر.

و كان يقال: لا تعلموا بناتكم الكتاب، و لا تروهن الشعر، و علموهن القرآن، و من القرآن سورة النور.

و قال آخر: بنو فلان يعجبهم أن يكون في نسائهم أباضيّات، و يؤخذن بحفظ سورة النور.

و كان ابن التوأم يقول: من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الابناء، أن يعلموهم الكتاب و الحساب و السباحة.

خطب رجل امرأة أعرابية فقالت له: سل عني بني فلان و بني فلان و بني فلان، فعدت قبائل، فقال لها: و ما علمهم بك؟قالت: في كلهم قد نكحت. قال: أراك جلنفعة قد خزّمتك الخزائم (1) . قالت: لا، و لكني جوالة بالرحل عنتريس (2) .

و قال الفرزدق لامرأته النوار: كيف رأيت جريرا؟قالت: رأيتك ظلمته أولا ثم شغرت عنه برجلك آخرا. قال: أنا إنية؟قالت: نعم، أما انه قد غلبك في حلوه، و شاركك في مرّه.

قال: و تغدى صعصعة بن صوحان عند معاوية يوما، فتناول من بين يدي معاوية شيئا فقال: يا ابن صوحان، لقد انتجعت من بعيد!فقال: «من أجدب انتجع» .

---

(1) جلنفعة: مسنة، الخزائم: ما يجعل في أنوف الابل.
(2) عنتريس: صلبة شديدة.

و بصر الفرزدق بجرير محرما فقال: و اللّه لأفسدن على ابن المراغة حجّه.

ثم جاءه مستقبلا له، فجهره بمشقص (1) كان معه، ثم قال:

إنك لاق بالمشاعر من منىّ # فخارا فخبرني بمن أنت فاخر

فقال جرير: لبيك اللهم لبيك. و لم يجبه.

قال: و أدخل مالك بن أسماء سجن الكوفة، فجلس إلى رجل من بني مرة، فاتكأ المريّ عليه يحدثه حتى أكثر و غمه، ثم قال: هل تدري كم قتلنا منكم في الجاهلية؟قال مالك: أما في الجاهلية فلا، و لكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام.

قال المري: و من قتلنا منكم في الإسلام؟قال: أنا، قد قتلتني غما! قال: و دخل رجل من محارب قيس على عبد اللّه بن يزيد الهلالي، و هو عامل على أرمينية، و قد بات في موضع قريب منه غدير فيه ضفادع، فقال عبد اللّه للمحاربي: ما تركتنا أشياخ محارب ننام في هذه الليلة، لشدة أصواتها. فقال المحاربي: أصلح اللّه الأمير، إنها أضلّت برقعا لها، فهي في بغائه (2) . أراد الهلالي قول الأخطل:

تنقّ بلا شيء شيوخ محارب # و ما خلتها كانت تريش و لا تبري

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت # فدلّ عليها صوتها حية البحر

و أراد المحاربي قول الشاعر:

لكلّ هلاليّ من اللؤم برقع # و لابن هلال برقع و قميص

و قال العتبيّ (3) :

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي # فأعرضن عني بالخدود النواضر

---

(1) مشقص: سهم فيه نصل عريض. جهره: راعه.

(2) البغاء: الطلب.

(3) العتبي، محمد بن عبد اللّه العتبي البصري، كان شاعرا و مترسلا و مخبرا، و قد تغزل بامرأة اسمها عتبة، كما وصف الخمر. و توفي سنة 328 هـ.

و كن إذا أبصرنني أو سمعن بي # سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

لئن حجبت عني نواظر أعين # رمين بأحداق المها و الجآذر

فإني من قوم كرام أصولهم # فقدامهم صيغت رءوس المنابر

خلائف في الإسلام في الشرك قادة # بهم و إليهم فخر كلّ مفاخر

و قال لبيد:

و الشاعرون الناطقون أراهم # سلكوا طريق مرقّش و مهلهل

و قال آخر:

أم من لباب إذا ما اشتدّ حاجبه # أم من لخصم بعيد الغور مغوار

و قال حاجب بن دينار المازني:

و نحن بنو الفحل الذي سال بوله # بكلّ بلاد لا يبول بها فحل

أبى الناس و الأقلام أن يحسبوهم # إذا حصل الأجناس أو يحسب الرمل

فإن غضبوا سدوا المشارق، منهم # ملوك و حام كلامهم فصل

و قال أعرابي من بني حنيفة، و هو يمزح:

مر الجراد على زرعي فقلت له # الزم طريقك لا تولع بافساد

فقال منهم خطيب فوق سنبلة # إنّا على سفر لا بدّ من زاد

و قال آخر يهجو بعض الخطباء:

يمان و لا يمون و كان شيخا # شديد اللقم هلقاما خطيبا [1]

و ذهب إلى قول الأحوص:

ذهب الذين أحبّهم فرطا # و بقيت كالمقمور [2] في خلف

من كلّ مطوي على حنق # متضجع يكفى و لا يكفي

---

(1) مان، يمون: كفل و انفق. اللقم: سرعة الأكل. هلقام واسع الشدقين كثير الأكل.

(2) المقمور: المغلوب في القمار.

و قال الحسن بن هانئ:

إذا نابه أمر فإما كفيته # و إما عليه بالكفي تشير

و قال آخر:

ذريني فلا أعيا بما حلّ ساحتي # أسود فأكفي أو أطيع المسوّدا

و قال بشار:

و في العبرات الغرّ صبر على الندى # أولئك حيّ من خزيمة أغلب

و ألام من يمشي ضبيعة، إنّهم # زعانف لم يخطب إليهم محجّب (1)

و كذلك قول أعشى بني ثعلبة:

ما ضرّ غاني نزار أن تفارقه # كلب و جرم إذا أبناؤه اتفقوا

قالت قضاعة إنّا من ذوي يمن # اللّه يعلم، ما برّوا و لا صدقوا

يزداد لحم المناقي في منازلنا # طيبا إذا عز في اعدائنا المرق

و ما خطبنا إلى قوم بناتهم # إلا بأرعن في حافاته الحرق (2)

قوله خطبنا: من الخطبة هاهنا، و هو في الشعر الأول من الخطبة أيضا.

و قال بلعاء بن قيس (3) :

أبيت لنفسي الخسف لما رضوا به # و وليتهم شتمي و ما كنت مفحما

و قال بلعاء بن قيس لسراقة بن مالك بن جعشم:

ألا أبلغ سراقة يا ابن مال # فبئس مقالة الرجل الخطيب

أ ترجو أن تئوب بظعن ليث # فهذا حين تبصر من قريب

---

(1) زعالف: أحياء قليلة في أحياء كثيرة. المحجب: الملك ذو الحجاب.

(2) الأرعن: الجيش العظيم. الحرق: النار.

(3) بلعاء بن قيس اليعمري، شاعر مجيد و قاد قومه في حروبهم و غزواتهم الجاهلية و مات قبيل أيام الفجار.

و قال منصور الضّبّي:

ليت الفتى عجردا منا مكانهم # وليتهم من وراء الأخضر الجاري

قد قام سيدهم عمران يخطبهم # ما كان للخير عمران بأمّار

قال: و تقول العرب: «الخلّة تدعو إلى السّلة» . و كانوا إذا أسروا أسيرا قال المادح: «أسره في مزاحفة، و لم يأسره في سلة» . و في الحديث:

«لا اسلال و لا إغلال (1) » و في المثل: «الحاجة تفتح باب المعرفة» .

أقوال و أشعار منتخبة

قال سويد المراثد الحارثي أو غيره:

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعد ما # دفنتم بصحراء الغميم القوافيا

فلسنا كمن كنتم تصيبون سلّة # فنقبل عقلا أو نحكم قاضيا (2)

و لكن حكم السيف فيكم مسلط # فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا

و قد ساءني ما جرت الحرب بيننا # بني عمنا لو كان أمرا مدانيا

فإن قلتم إنّا ظلمنا فإنكم # بدأتم و لكنا أسأنا التقاضيا

و قال ضابئ بن الحارث (3) :

و ربّ أمور لا تضيرك ضيرة # و للقلب من مخشاتهن وجيب

و قال حارثة بن بدر (4) :

و قل للفؤاد إن نزا بك نزوة # من الروع أفرخ أكثر الروع باطله

---

(1) أسلال: رشوة أو سرقة. أغلال: خيانة.

(2) العقل: الدية.

(3) ضابئ بن الحارث الرحمي شاعر إسلامي أدرك النبي، و حبسه عثمان إبان خلافته لجناية اقترفها فهم ابنه عمير بقتل الخليفة ثم جبن عن ذلك.

(4) حارثة بن بدر، شاعر إسلامي أدرك النبي و اشترك بالفتوح و توفي سنة 64 هـ.

و قال لبيد بن ربيعة:

و أكذب النفس إذا حدثتها # إن صدق النفس يزري بالأمل

و قال حبيب بن أوس:

و طول مقام المرء في الحي مخلق # لديباجتيه فاغترب تتجدّد

فإني رأيت الشمس زيدت محبة # إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

و قال غيره:

هو الشمس إلا أن للشمس غيبة # و هذا الفتى الجرميّ ليس يغيب

يروح و يغدو ما يفترّ ساعة # و إن قيل ناء فهو منك قريب

و قال آخر:

خلافا لقولي من فيالة رأيه # كما قيل قبل اليوم: خالف فتذكرا

و قال حارثة بن بدر:

إذا ما متّ سرّ بني تميم # على الحدثان لو يلقون مثلي

عدوّ عدوهم أبدا عدوي # كذلك شكلهم أبدا و شكلي

و هو شبيه بقول الأعشى:

علّقتها عرضا و علقت رجلا # غيري و علّق أخرى غيرها الرجل

و قال عمرو لمعاوية: من أصبر الناس؟قال: من كان رأيه رادا لهواء.

و اختلفوا بحضرة الزهري في معنى قول القائل: فلان زاهد. فقال الزهري: «الزاهد الذي لا يغلب الحرام صبره، و لا الحلال شكره» .

و قال ابن هبيرة و هو يؤدب بعض بنيه: لا تكونن أول مشير، و إياك و الرأي الفطير، و تجنب ارتجال الكلام، و لا تشر على مستبد و لا على وغد، و لا على متلون و لا على لجوج، و خف اللّه في موافقة هوى المستشير، فإن

التماس موافقة هوى لؤم، و سوء الاستماع من خيانة.

و قالوا: من كثر كلامه كثر سقطه، و من ساء خلقه قل صديقه.

و قال عمر للأحنف: من كثر ضحكه قلت هيبته، و من أكثر من شيء عرف به، و من كثر مزاحه كثر سقطه، و من كثر سقطه قل ورعه، و من قل ورعه ذهب حياؤه، و من ذهب حياؤه مات قلبه.

و قال المهلّب لبنيه: يا بني تباذلوا تحابوا، فإن بني الام يختلفون، فكيف بنو العلاّت (1) . إن البر ينسأ في الاجل، و يزيد في العدد، و إن القطيعة تورث القلة، و تعقب النار بعد الذلة. و اتقوا زلّة اللسان، فإن الرجل تزلّ رجله فينتعش، و يزل لسانه فيهلك. و عليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها ابلغ من النجدة فإن القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظفر فقد سعد، و إن ظفر به لم يقولوا فرّط.

و لقي الحسين رضي اللّه عنه الفرزدق فسأله عن الناس فقال: القلوب معك، و السيوف عليك، و النصر في السماء.

و قال بعضهم: حجب أعرابي عن باب السلطان فقال:

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم # و لا يكرم النفس الذي لا يهينها

و قال جرير:

قوم إذا حضر الملوك وفودهم # نتفت شواربهم على الأبواب

و قال آخر:

نهيت جميع الحضر عن ذكر خطّة # يدبّرها في رأيه ابن هشام

فلما وردت الباب أيقنت إننا # على اللّه و السلطان غير كرام

(1) بنو العلات: ابناء رجل واحد من أكثر من ام واحدة.

و قال آخر:

وافى الوفود فوافى من بني حمل # بكر الحمالة قاني السّن عرزوم

و قال الحضين بن المنذر:

و كلّ خفيف الشأن يسعى مشمّرا # إذا فتح البواب بابك أصبعا

و نحن الجلوس الماكثون توقّرا # حياء إلى أن يفتح الباب أجمعا

و قال آخر:

و نفسك أكرمها فإنك إن تهن # عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

اعتذر ابن عون إلى ابراهيم النخعي فقال له: اسكت معذورا، فإن الاعتذار يخالطه الكذب.

ابو عمرو الزعفراني قال: كان عمرو بن عبيد عند حفص بن سالم فلم يسأله احد من حشمه في ذلك اليوم شيئا إلا قال: لا. فقال له عمرو: أقلّ من قول لا، فإنه ليس في الجنة، و إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا سئل ما يجد أعطى، و إذا سئل ما لا يجد قال «يصنع اللّه» .

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: اكثروا لهن من قول «لا» ، فإن قول «نعم» يضرّيهن على المسألة. و إنما خص عمر بذلك النساء.

و قال بعضهم: ذمّ رجل الدنيا عتد علي بن ابي طالب رضي اللّه عنه فقال علي:

«الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار نجاة لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزود منها، و مهبط وحي اللّه، و مصلّى ملائكته، و مسجد أنبيائه، و متجر أوليائه. ربحوا فيها الرحمة، و اكتسبوا فيها الجنة. فمن ذا الذي يذمها و قد آذنت ببينها و نادت بفراقها، و شبهت بسرورها السرور، و ببلائها البلاء، ترغيبا و ترهيبا. فيا أيها الذام للدنيا، المعلل نفسه، متى خدعتك الدنيا أم متى

استذمت إليك (1) ؟أ بمصارع آبائك في البلى، أم بمضاجع أمهاتك في الثرى؟!كم مرضت بيديك، و كم عللت بكفيك، تطلب له الشفاء، و تستوصف له الأطباء، غداة لا يغني عنه دواؤك، و لا ينفعه بكاؤك، و لا تنجيه شفقتك، و لا تشفع فيه طلبتك» .

و قال عمر، رحمه اللّه: «ما بال أحدكم ثاني وساده عند امرأة مغزية مغيبة؟!إن المرأة لحم على وضم (2) إلا ما ذب عنه» .

و قال بعضهم: مات ابن لبعض العظماء فغزّاه بعضهم فقال: عش أيها الملك العظيم سعيدا، و لا أراك اللّه بعد مصيبتك ما ينسيكها.

و قال: لما توفي معاوية و جلس ابنه يزيد، دخل عليه عطاء بن ابي صيفي الثقفي، فقال: «يا أمير المؤمنين، أصبحت قد رزيت خليفة اللّه، و اعطيت خلافة اللّه، و قد قضى معاوية نحبه، فغفر اللّه ذنبه، و قد اعطيت بعده الرئاسة و وليت السياسة، فاحتسب عند اللّه أعظم الرزية، و اشكره على أفضل العطية» .

و لما توفي عبد الملك و جلس ابنه الوليد، دخل عليه الناس و هم لا يدرون: أ يهنئونه أم يعزونه؟فأقبل غيلان بن سلمة الثقفي فسلم عليه، ثم قال:

يا أمير المؤمنين، أصبحت قد رزيت خير الآباء، و سميت بخير الأسماء، و أعطيت أفضل الأشياء، فعظم اللّه لك على الرزية الصبر و أعطاك في ذلك نوافل الأجر، و أعانك على حسن الولاية و الشكر. ثم قضى لعبد الملك بخير القضية، و أنزله بأفضل المنازل المرضية، و أعانك من بعده على الرعية» . فقال له الوليد:

من أنت؟فانتسب له قال: في كم أنت؟في مائة دينار. فألحقه بأهل الشرف.

و لما توفي المنصور دخل ابن عتبة مع الخطباء على المهدي فسلم ثم قال: آجر اللّه أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، و بارك لأمير المؤمنين فيما

---

(1) استذم: فعل ما يذم عليه.
(2) الوضم: ما يوضع عليه اللحم.

خلفه له أمير المؤمنين بعده، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين، و لا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين. فأقبل يا أمير المؤمنين من اللّه أفضل العطية، و احتسب عنده أعظم الرزيّة.

و كتب ميمون بن مهران إلى عمر بن عبد العزيز، يعزيه عن ابنه عبد الملك، فكتب إليه عمر: «كتبت إليّ تعزيني عن ابني عبد الملك، و هو أمر لم أزل انتظره، فلما وقع لم أنكره.

و قال الشاعر:

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده # عزاء و جفن العين بالماء مترع

و لم تنسني أوفى المصيبات بعده # و لكن نكء القرح بالقرح أوجع

و قال متمم:

قعيدك أ لا تسمعيني ملامة # و لا تنكئي قرح الفؤاد فييجعا

و قال آخر:

قليل التشكي للمصيبات ذاكر # من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

و قالوا: «أشد من الموت ما يتمنى له الموت» .

و قال الفرزدق و هو يصف طعنة:

يودّ لك الأدنون لو متّ قبلها # يرون بها شرا عليك من القتل

و قال: و قيل للأحنف: ما بلغ من حزمك؟قال: لا ألي ما كفيت، و لا أضيّع ما وليت.

و قال آخر: لا تقيموا ببلاد ليس فيها نهر جار، و سوق قائمة، و قاض عدل.

و قالوا: لا تبنى المدن إلا على الماء و المرعى و المحتطب.

و قال مالك بن دينار: لربما رأيت الحجاج يتكلم على منبره، و يذكر حسن صنيعه إلى أهل العراق، و سوء صنيعهم إليه، حتى أنه ليخيّل إلى السامع أنه صادق مظلوم.

أبو عبد اللّه الثقفي عن عمه قال: سمعت الحسن يقول: لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج. قلت: و إن كلام الحجاج ليوقذك؟قال: نعم سمعته على هذه الأعواد يقول: إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له، لخليق أن تطول عليها حسرته.

و قال بعضهم: ما وجدت احدا ابلغ في خير و شر من صاحب عبد اللّه ابن سلمة قال: دخل الزّبرقان بن بدر على زياد و قد كفّ بصره، فسلّم تسليما جافيا، فأدناه زياد فأجلسه معه، و قال: يا أبا عياش: القوم يضحكون من جفائك!قال: و إن ضحكوا فو اللّه إن منهم رجل إلا بوده أني أبوه دون أبيه لغيّة أو لرشدة.

و قال: و نظر هشام بن عبد الملك إلى قبر عثمان بن حيان المري فقال:

جثوة (1) من جثى النار.

قالوا: و كان يقال: صاحب السوء قطعة من النار، و السفر قطعة من العذاب.

و قال بعضهم: عذابان لا يكترث لهما الداخل فيهما: السفر الطويل و البناء الكثير.

و قال رجل من أهل المدينة: من ثقل على صديقه خف على عدوه، و من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه بما لا يعلمون.

---

(1) الجثوة: الحجارة المجموعة.

و قال سهل بن هارون: ثلاثة يعودون إلى أجنّ المجانين، و إن كانوا أعقل العقلاء: الغضبان، و الغيران، و السكران. قال له ابو عبدان الشاعر المخلع: ما تقول في المنعظ؟ فضحك حتى استلقى، ثم قال: و ما شر الثلاثة

و ما شرّ الثلاثة أمّ عمرو # بصاحبك الذي لا تصبحينا

و قال ابو الدرداء: «أقرب ما يكون العبد من غضب اللّه إذا غضب» .

و قال: قال أياس: البخل قيد، و الغضب جنون، و السكر مفتاح الشر.

و قال بعض البخلاء: ما نصب الناس لشيء نصبهم لنا، هبهم يلزموننا الذمّ فيما بيننا و بينهم، ما لهم يلزموننا التقصير فيما بيننا و بين انفسنا.

قال: و قال ابراهيم بن عبد اللّه بن حسن لأبيه: ما شعر كثيّر عندي كما يصف الناس. فقال له ابوه: إنك لم تضع كثيّرا بهذا، إنما تضع بهذا نفسك.

قال: و أنشد رجل عمر بن الخطاب، رحمه اللّه، قول طرفة:

فلولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى # و جدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فقال عمر: «لو لا أن أسير في سبيل اللّه، واضع جبهتي للّه، و أجالس أقواما ينتقون أطائب الحديث كما ينتقون أطائب التمر، لم أبال أن أكون قد متّ» .

و قال عامر بن عبد قيس: «ما آسى من العراق إلا على ثلاث: على ظمأ الهواجر، و تجاوب المؤذنين، و إخوان لي منهم، الأسود بن كلثوم» .

و قال آخر: «ما آسي من البصرة إلا على ثلاث: رطب السكر، و ليل الحزيز، و حديث أبي بكرة.

و قال سهل بن هارون:

تكنّفني همان قد كسفا بالي # و قد تركا قلبي محلّة بلبال

هما أذريا دمعي و لم تذر عبرتي # ربيبة خدر ذات سمط و خلخال

و لكنني أبكي بعين سخينة # على جلل تبكي له عين أمثالي

فراق خليل، أو شجي يستشفني # لخلة مرء لا يقوم لها مالي

فوا كبدي حتى متى القلب موجع # بفقد حبيب أو تعذّر أفضال

و ما العيش إلا أن تطول بنائل # و إلا لقاء الخل ذي الخلق العالي

و قال آخر:

لو لا ثلاث هن عيش الدهر # الماء و النوم و أمّ عمرو

لما خشيت من مضيق القبر

قال: و قال الأحنف: أربع من كن فيه كان كاملا، و من تعلق بخصلة منهن كان من صالحي قومه: دين يرشده، أو عقل يسدّده، أو حسب يصونه، أو حياء يقناه.

و قال: المؤمن بين أربع: مؤمن يحسده، و منافق يبغضه، و كافر يجاهده، و شيطان يفتنه. و أربع ليس أقل منهن: اليقين، و العدل، و درهم حلال، و أخ في اللّه.

و قال الحسن بن علي: من أتانا لم يعدم خصلة من أربع: آية محكمة.

أو قضية عادلة، أو أخا مستفادا، أو مجالسة العلماء.

و قالوا: من أعطي أربعا لم يمنع أربعا: من أعطي الشكر لم يمنع الخيرة، و من أعطي المشورة لم يعدم الصواب.

و قال أبو ذر الغفاري: كان الناس ورقا لا شوك فيه، فصاروا شوكا لا ورق فيه.

و قالوا: تعامل الناس بالدين حتى ذهب الدين، و بالحياء حتى ذهب الحياء، و بالمروءة حتى ذهبت المروءة، و قد صاروا إلى الرغبة و الرهبة و أحر بهما أن يذهبا.

و قال بعضهم: دعا رجل علي بن ابي طالب رضي اللّه عنه إلى طعام، فقال: نأتيك على أن لا تتكلف لنا ما ليس عندك، و لا تدّخر عنا ما عندك.

و قال آخر: كان شيخ يأتي ابن المقفع، فالح عليه يسأله الغداء عنده و في ذلك يقول: إنك تظن أني أتكلف لك شيئا؟لا و اللّه لا اقدم إليك إلا ما عندي. فلما أتاه إذ ليس عنده إلا كسرة يابسة و ملح جريش. و وقف سائل بالباب فقال له: بورك فيك!فلما لم يذهب قال: و اللّه لئن خرجت إليك لأدقن ساقيك!فقال ابن المقفع للسائل: إنك لو تعرف من صدق وعيده مثل الذي أعرف من وعده لم تراده كلمة، و لم تقف طرفة.

قال: و كان يقال: أول العلم الصمت، و الثاني الاستماع، و الثالث الحفظ، و الرابع العمل به، و الخامس نشره.

و قال آخر: كان يقال: لا وحشة أوحش من عجب، و لا ظهير أعون من مشورة، و لا فقر أشد من عدم العقل.

و قال مورّق العجليّ: ضاحك معترف بذنبه، خير من باك مدلّ على ربه.

و قال: خير من العجب بالطاعة، ألا تأتي الطاعة.

و قال شبيب لأبي جعفر: إن اللّه لم يجعل فوقك أحدا، فلا تجعلنّ فوق شكرك شكرا.

و قال آخر لأبي جعفر في أول ركبة ركبها: إن اللّه قد رأى ألا يجعل أحدا فوقك، فتر نفسك أهلا ألا يكون أحد أطوع للّه منك.

و سفه رجل على ابن له فقال له ابنه: و اللّه لأنا أشبه بك منك بأبيك، و لأنت أشد تحصينا لأمي من أبيك لأمك.

و قال عمرو بن عبيد لأبي جعفر: إن اللّه قد وهب لك الدنيا بأسرها، فاشر نفسك منه ببعضها.

و قال الأحنف: ثلاثة لا أناة فيهن عندي. قيل: و ما هن يا أبا بحر؟ قال: المبادرة بالعمل الصالح، و إخراج ميتك، و أن تنكح الكفء أيّمك.

و كان يقول: لأفعى تحكّك في ناحية بيتي أحب إلي من أيّم رددت عنها كفؤا.

و كان يقال: ما بعد الصواب إلا الخطأ، و ما بعد منعهن من الأكفاء إلا بذلهن للسّفلة و الغوغاء.

و كان يقال: لا تطلبوا الحاجة إلى ثلاثة: إلى كذوب، فإنه يقربها و إن كانت بعيدة، و يباعدها و إن كانت قريبة. و لا إلى احمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. و لا إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجة، فإنه يجعل حاجتك وقاية لحاجته.

و كان الأحنف بن قيس يقول: لا مروءة لكذوب، و لا سؤدد لبخيل، و لا ورع لسيئ الخلق.

و قال الشعبي: عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك، فإنه ينفعك.

و اجتنب الكذب في موضع ترى أنه ينفعك، فإنه يضرك.

و قالوا: لا تصرف حاجتك إلى من معيشته من رءوس المكاييل، و ألسنة الموازين.

و قالوا: تفرد اللّه عز و جل بالكمال: و لم يبرئ أحدا من النقصان.

قالوا: و قال عامر بن الظّرب العدواني: «يا معشر عدوان، إن الخير أنوف عزوف، و لن يفارق صاحبه حتى يفارقه. و إني لم أكن حليما حتى اتبعت الحلماء، و لم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم» .

و قال الأحنف: «لأن أدعى من بعيد، أحبّ إلي من أن أقصى من قريب» .

و كان يقال: إياك و صدر المجلس و إن صدّرك صاحبه، فإنه مجلس قلعة (1) .

(1) القلعة: الارتحال.

قال: و قال زياد: ما أتيت مجلسا قط إلا تركت منه ما لو أخذته كان لي. و ترك ما لي، أحب إلي من أخذ ما ليس لي.

و قال الأحنف: ما كشفت أحدا عن حالي عنده إلا وجدتها دون ما كنت أظن.

قال: و أثنى رجل على علي بن أبي طالب فأفرط، و كان علي له متهما، فقال: أنا دون ما تقول، و فوق ما في نفسك.

قال: و كان يقال: خمس خصال تكون في الجاهل: الغضب في غير غضب، و الكلام في غير نفع، و العطية في غير موضع، و الثقة بكل أحد، و ألا يعرف صديقه من عدوه.

و أثنى أعرابي على رجل فقال: إن خيرك لسريح، و إن منعك لمريح، و إن رفدك لربيح.

و قال سعيد بن سلم: كنت واليا بأرمينية، فغبر أبو دهمان الغلابي على بابي أياما، فلما وصل إلي مثل يدي قائما بين السّماطين و قال:

«و اللّه إني لأعرف أقواما لو علموا أن سفّ التراب يقيم من أود أصلابهم لجعلوه مسكة لأرماقهم، إيثارا للتنزه عن عيش رقيق الحواشي. أما و اللّه إني لبعيد الوثبة، بطيء العطفة. و إنه و اللّه ما يثنيني عليك إلا مثل ما يصرفني عنك. و لأن أكون مقلا مقربا أحب إلي من أن أكون مكثرا مبعدا. و اللّه ما نسأل عملا لا نضبطه، و لا مالا إلا و نحن أكثر منه. و هذا الأمر الذي صار إليك و في يديك، قد كان في يديّ غيرك، فأمسوا و اللّه حديثا، إن خيرا فخير و إن شرا فشر. فتحبب إلى عباد اللّه بحسن البشر، و لين الجانب، فإن حبّ عباد اللّه موصول بحب اللّه، و بغضهم موصول ببغض اللّه، لأنهم شهداء اللّه على خلقه، و رقباؤه على من عاج عن سبيله» .

و دخل عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، على خالد ابن عبد اللّه القسري بعد حجاب شديد، و كان عتبة سخيا، فقال خالد يعرّض

به: إن هاهنا رجالا يدّانون في أموالهم، فإذا فنيت أدانوا في أعراضهم.

فعلم القرشي أنه يعرض به، فقال القرشي: أصلح اللّه الأمير، إن رجالا من الرجال تكون أموالهم أكثر من مروءاتهم، فأولئك تبقى لهم أموالهم، و رجالا تكون مروءاتهم أكثر من أموالهم، فإذا نفدت أدانوا على سعة ما عند اللّه! فخجل خالد و قال: إنك لمنهم ما علمت! قال: و قيل لعبد اللّه بن يزيد بن أسد بن كرز: هلا أجبت أمير المؤمنين إذ سألك عن مالك؟فقال: إنه كان لا يعدو إحدى حالتين: إن استكثره حسدني، و إن استقلّه حقرني.

أبو الحسن قال: وعظ عروة بنيه فقال: «تعلموا العلم فإنكم إن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين» . ثم قال: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم. و إذا رأيتم من رجل خلّة فاحذروه، و اعلموا أن عنده لها أخوات» .

قال: و قال رجل لرجل: هب لي دريهما. قال أ تصغّره، لقد صغّرت عظيما، الدرهم عشر العشرة، و العشرة عشر المائة، و المائة عشر الألف، و الألف عشر الدية.

قال الأصمعي: خرجت بالدارميّ قرحة (1) في جوفه، فبزق بزقة خضراء، فقيل له: قد برأت، إذ قد بزقتها خضراء. قال: و اللّه لو لم تبق في الدنيا زمردة خضراء إلا بزقتها لما نجوت.

مرّ الوليد بن عبد الملك بمعلم صبيان فرأى جارية فقال: ويلك ما لهذه الجارية؟فقال: أعلمها القرآن. قال: فليكن الذي يعلمها أصغر منها.

---

(1) الدارمي، اسمه سعيد الدارمي، أحد شعراء مكة و ظرفائهم، و يؤثر عنه انه روج لصديقه التاجر الكوفي تجارته في الخمر السود بقوله:

قل للمليحة في الخمار الأسود # ما ذا صنعت براهب متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه # حتى وقفت له بباب المعبد

فلم تبق امرأة في المدينة لم تشتر خمارا أسود. عاش في خلافة عمر بن عبد العزيز.

إسحاق بن أيوب قال: هرب الوليد بن عبد الملك من الطاعون، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن اللّه يقول: **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ اَلْمَوْتِ أَوِ اَلْقَتْلِ وَ إِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** . قال: ذلك القليل نريد.

و هرب رجل من الطاعون إلى النجف، أيام شريح. فكتب إليه شريح:

«أما بعد فإن الفرار لن يبعد أجلا، و لن يكثّر رزقا. و إن المقام لن يقرّب أجلا، و لن يقلل رزقا. و إن من بالنجف من ذي قدرة لقريب» .

قالوا: و دخل على الوليد فتى من بني مخزوم، فقال له: زوجني ابنتك. فقال له: هل قرأت القرآن؟قال: لا. قال أدنوه مني. فأدنوه فضرب عمامته بقضيب كان في يده، و قرع رأسه به قرعات، ثم قال لرجل: ضمّه إليك فإذا قرأ القرآن زوجناه.

و لما استعمل يزيد بن أبي مسلم بعد الحجاج قال: أنا كمن سقط منه درهم فأصاب دينارا.

و قال ليزيد بن أبي مسلم: قال أبي للحجاج: إنما أنت جلدة ما بين عيني!قال الوليد: يا يزيد، و أنا أقول: أنت جلدة وجهي كله.

باب اللحن

و مع هذا أنه صعد المنبر فقال: علي بن أبي طالب لص ابن لص، صبّ عليه شؤبوب عذاب. فقال أعرابي كان تحت المنبر: ما يقول أميركم هذا؟! و في قوله لص ابن لص أعجوبتان: إحداهما رميه علي بن أبي طالب أنه لص، و الأخرى أنه بلغ من جهله ما لم يجهله أحد، إنه ضم اللام من لص.

بكر بن عبد العزيز الدمشقي، قال: سمعت الوليد بن عبد الملك على المنبر، حين ولي الخلافة، و هو يقول: «إذا حدثتكم فكذبتكم فلا طاعة لي عليكم، و إذا وعدتكم فأخلفتكم فلا طاعة لي عليكم، و إذا أغزيتكم فجمّرتكم فلا طاعة لي عليكم» . فيقول مثل هذا الكلام ثم يقول لابيه: «يا أمير المؤمنين، اقتل ابي فديك» . و قال مرة أخرى: «يا غلام ردّ الفرسان الصادان عن الميدان» .

قال: و قال عبد الملك: أضرّ بالوليد حبنا له، فلم نوجّهه إلى البادية.

قال: و لحن الوليد على المنبر فقال الكروس: لا و اللّه إن رأيته على هذه الأعواد قط فأمكنني أن أملأ عيني منه، من كثرته في عيني، و جلالته في نفسي. فإذا لحن هذا اللحن الفاحش صار عندي كبعض أعوانه.

و صلّى يوما الغداة فقرأ السورة التي تذكر فيها الحاقة فقال: «يا ليتها كانت القاضية» ، فبلغت عمر بن عبد العزيز فقال: أما إنه إن كان قالها إنه لأحد الأحدين.

قالوا: و كان الوليد و محمد، ابنا عبد الملك، لحّانين، و لم يكن في ولده افصح من هشام و مسلمة.

قال: و قال صاحب الحديث الأول: أخبرني أبي، عن إسحاق بن قبيصة قال: كانت كتب الوليد تأتينا ملحونة، و كذلك كتب محمد، فقلت لمولى محمد: ما بال كتبكم تأتينا ملحونة و أنتم أهل الخلافة؟!فأخبره المولى بقولي، فإذا كتاب قد ورد عليّ: «أما بعد فقد أخبرني فلان بما قلت، و ما أحسبك تشك أن قريشا أفصح من الأشعرين. و السلام» .

و من بني صريم: الصديّ بن الخلق، وفد به الحجاج على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ممن أنت؟قال: من بني صريم. قال له: ما اسمك؟قال: الصديّ بن الخلق. قال: دعّا (1) في عنقه!خارجيّ خبيث! هذا يدل على أن عامة بن صريم كانوا خوارج، و كان منهم البرك الصريمي، و اسمه الحجاج، و هو الذي ضرب معاوية بالسيف، و له حديث.

و الخزرج بن الصدي بن الخلق، كان خطيبا. و قال الشاعر في بني صريم:

أصلي حيث تدركني صلاتي # و بئس الدين دين بني صريم

قياما يطعنون على معدّ # و كلهم على دين الخطيم

(1) الدع: الدفع الشديد.

و الخطيم باهلي.

قال الأصمعي و ابو الحسن: دخل على الوليد بن عبد الملك شيخان، فقال احدهما: نجدك تملك عشرين سنة. و قال الآخر: كذبت بل نجده يملك ستين سنة. قال: فقال الوليد: ما الذي قال هذا لائط بصفري (1) و لا ما قال هذا يغر مثلي.

و اللّه لأجمعن المال جمع من يعيش ابدا، و لأفرقنه تفريق من يموت غدا.

و خطب الوليد فقال: إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول: إن الحجاج جلدة ما بين عيني، ألا و أنه جلدة وجهي كله.

حدثنا عثّام ابو علي (2) عن الأعمش، عن عمارة بن عمير (3) ، قال: كان أبو معمر (4) يحدثنا فيلحن، يتبع ما سمع.

أبو الحسن قال. أوفد زياد عبيد اللّه بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: «إن ابنك كما وصفت، و لكن قوّم من لسانه» . و كانت في عبيد اللّه لكنة، لأنه كان نشأ بالأساورة مع أمه «مرجانة» ، و كان زياد قد زوجها من شيرويه الأسواري. و كان قال مرة: «افتحوا سيوفكم» ، يريد سلّوا سيوفكم، فقال يزيد بن مفرّغ:

---

(1) لائط: لاصق. صفري: روعي.
(2) هو هشام بن علي بن هجير الكوفي، يكنى بابي علي راوية ثقة، أخذ عن الأعمش و ابن عروة و الثوري. توفي سنة 195 هـ.
(3) عمارة بن عمير التيمي الكوفي، راوية أخذ عن عبد اللّه بن سخيرة الأزدي توفي عام 98 هـ.
(4) ابو معمر هو عبد اللّه بن سخيرة الأزدي، روى عن عمر و علي و ابن مسعود توفي في ولاية عبيد اللّه بن زياد.

و يوم فتحت سيفك من بعيد # أضعت و كلّ أمرك للضياع

و لما كلّمه سويد بن منجوف في الهثهاث بن ثور، و قال له: يا ابن البضراء!قال له سويد: كذبت علي نساء بني سدوس. قال: اجلس على است الأرض. قال سويد: ما كنت أحسب أن للأرض إستا!.

قالوا: و قال بشر بن مروان، و عنده عمر بن عبد العزيز، لغلام له: ادع لي صالحا. فقال الغلام: يا صالحا. فقال له بشر: ألق منها ألف. قال له عمر: و أنت فزد في ألفك ألفا.

و زعم يزيد مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ظمياء، بالضاد. فقال ابن المقفع: قل: يا ظمياء. فناداها: يا ضمياء. فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال له:

هي جاريتي أو جاريتك؟ قال نصر بن سيار: لا تسم غلامك إلا باسم يخف على لسانك.

و كان محمد بن الجهم ولى المكي صاحب النظام، موضعا من مواضع كسكر، و كان المكي لا يحسن أن يسمى ذلك المكان و لا يتهجّاه، و لا يكتبه، و كان اسم ذلك الموضع شانمثنا.

و قيل لأبي حنيفة: ما تقول في رجل أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله، أتقيده به؟ قال: لا و لو ضرب رأسه بأبا قبيس.

و قال يوسف بن خالد السمتي، لعمرو بن عبيد: ما تقول في دجاجة ذبحت من قفائها؟قال له عمرو: أحسن. قال: من قفائها. قال: أحسن قال: من قفائها. قال عمرو: ما عناك بهذا؟قل: من قفاها و استرح.

قال: و سمعت يوسف بن خالد يقول: لا، حتى يشجه، بكسر الشين.

يريد حتى يشجه، بضم الشين.

و كان يوسف يقول: هذا أحمر من هذا. يريد: هذا أشد حمرة من هذا.

و قال بشر المريسي: «قضى اللّه لكم الحوائج على أحسن الوجوه و أهنؤها» ، فقال قاسم التمّار: هذا على قوله:

إن سليمى و اللّه يكلؤها # ضنّت بشيء ما كان يرزؤها

فصار احتجاج قاسم أطيب من لحن بشر.

و قال مسلم بن سلام: حدثني أبان بن عثمان قال: كان زياد النبطي أخو حسان النبطي، شديد اللكنة، و كان نحويا. قال: و كان بخيلا، و دعا غلامه ثلاثا فلما أجابه قال: فمن لدن دأوتك إلى أن قلت لبي ما كنت تصنأ؟يريد:

من لدن دعوتك إلى أن أجبتني ما كنت تصنع.

قال: و كانت أم نوح و بلال ابن جرير أعجمية، فقالا لها: لا تكلمي إذا كان عندنا رجال. فقالت يوما: يا نوح، جردان دخل في عجان امك؟و كان الجرذ أكل من عجينها.

قال أبو الحسن: أهدي إلى فيل مولى زياد حمار وحش، فقال لزياد:

أهدوا لنا همار وهش. قال: أي شيء تقول ويلك؟قال: أهدوا إلينا أيرا- يريد عيرا-قال زياد: الثاني شر من الأول.

و قال يحيى بن نوفل:

إن يك زيد فصيح اللسان # خطيبا فإن استه تلحن

عليك بسك و رمّانة # و ملح يدقّ و لا يطحن [1]

و حلتيت كرمان و النانخاه # و شمع يسخّن في مدهن

و هذا الشعر في بعض معانيه يشبه قول ابن مناذر:

إذا أنت تعلقت # بحبل من أبي صلت

تعلقت بحبل وا # هن القوة منبتّ

(1) سك: نوع من الطيب.

فخذ من شعر كيسان # و من أظفار سبّخت (1)

أ لم يبلغك تسآلي # لدى العلامة ألبرت [1]

و قال المرء ما سرجو # يه داء المرء من تحت

و قال البردخت:

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل # و أنف كثيل العود عما تتّبع [2]

تتبّع لحنا في كلام مرقش # و خلقك مبني على اللحن أجمع

فعينك أقواء و أنفك مكفأ # و وجهك ايطاء فأنت مرقّع

و قال الميساني في هجائه أهل المدينة:

و لحنكم بتقعير و مدّ # و الأم من يدبّ على الغفار

علي بن معاذ قال: كتبت إلى فتى كتابا، فأجابني فإذا عنوان كتابه: «إلى ذاك الذي كتب إلي» .

و قرأت على عنوان كتاب إلى أبي أمية الشمري: «لأبي أمية للموت أنا قبله» .

و كتب ابن المراكبي إلى بعض ملوك بغداد: «جعلت فداك برحمته» .

و قال إبراهيم بن سيابة: أنا لا أقول متّ قبلك، لأني إذا قلت مت قبلك مات هو بعدي، و لكن أقول متّ بدلك.

و كتب عقال بن شبّة بن عقال إلى المسيب بن زهير:

للأمير المسيّب بن زهير # من عقال بن شبة بن عقال

و لما كتب بشير بن عبيد اللّه على خاتمه:

بشير بن عبيد اللـــ # ه بالرحمن لا يشرك

و قرأ أبوه هذا البيت على خاتمه قال: هذا أقبح من الشرك.

و قال عبد الملك بن مروان: اللحن هجنة على الشريف، و العجب آفة الرأي. و كان يقال: اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه.

---

(1) البرت: الدليل الماهر.
(2) ثيل: قضيب. العود: الجمل المسن.

و قال يحيى بن نوفل، في خالد بن عبد اللّه القسري:

و الحن الناس كلّ الناس قاطبة # و كان يولع بالتشديق في الخطب

و زعم المدائني أن خالد بن عبد اللّه قال: «إن كنتم رجبيون فإنّا رمضانيون» . و لو لا أن تلك العجائب قد صحت عن الوليد ما جوزت هذا على خالد.

قال: و كتب الحصين بن أبي الحر إلى عمر كتابا، فلحن في حرف منه، فكتب إليه عمر: أن قنّع (1) كاتبك سوطا.

و بلغني عن كثيّر بن أحمد بن زهير بن كثير بن سيّار أنه كان ينشد بيت أبي دلف:

ألبسيني الدرع قد طا # ل عن الحرب جمامي (2)

فسألته عن ذلك فحلف أنه إنما قال:

ألبسيني الدرع قد طا # ل عن الحرب جمامي

قال اللّه تبارك و تعالى: **وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** . و اللحن في هذا الموضع غير اللحن في ذلك.

و كان سليمان بن عبد الملك يقول: المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث (3) يفخم اللحن كما يفخم نافع بن جبير (4) الإعراب.

و قال الشاعر في نحو ذلك:

لعمري قد قعّبت حين لقيتنا # و أنت بتقعيب الكلام جدير

---

(1) قنع كاتبك: اضربه سوطا.
(2) الجمام بالفتح: الراحة.
(3) المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، أحد الأجواد، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك بالمدينة.
(4) نافع بن جبير النوفلي، مدني تابعي ثقة، عرف بتقاه و فصاحته، توفي سنة 99 هـ.

و قال خلف الأحمر:

و فرقعهنّ بتقعيبه # كفرقعة الرعد بين السحاب

و قال الأصمعي: خاصم عيسى بن عمر النحوي الثقفي رجلا إلى بلال ابن ابي بردة، فجعل عيسى يتتبّع الأعراب، و جعل الرجل ينظر إليه، فقال له بلال: لأن يذهب بعض حق هذا أحب إليك من ترك الأعراب، فلا تتشاغل به و اقصد لحجتك.

و قدم رجل من النحويين رجلا إلى السلطان في دين له عليه فقال: أصلح اللّه الأمير، لي عليه درهمان. فقال خصمه: لا و اللّه أيها الأمير إن هي إلا ثلاثة دراهم، و لكن لظهور الأعراب ترك من حقه درهما.

قال: خاصم رجل إلى الشعبي أو إلى شريح رجلا فقال: إن هذا باعني غلاما فصيحا صبيحا. قال: هذا محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة.

قال: مر ماسرجويه الطبيب، بجد معاذ بن سعيد بن حميد الحميري، فقال: يا ماسرجويه، إني أجد في حلقي بححا. قال: إنه عمل بلغم. فلما جازه قال: أنا أحسن أن أقول بلغم، و لكنه كلمني بالعربية فكلمته بالعربية.

و روى أبو الحسن إن الحجاج كان يقرأ: إنّا من المجرمون منتقمون.

و قد زعم رؤبة بن العجاج أو أبوه العجاج و أبو عمرو بن العلاء، أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن و الحجاج.

و غلط الحسن في حرفين من القرآن مثل قول: ص و القرآن. و الحرف الآخر: و ما تنزلت به الشياطون.

أبو الحسن قال: كان سابق الأعمى يقرأ: الخالق البارئ المصوّر. فكان ابن جابان إذا لقيه قال: يا سابق، ما فعل الحرف الذي تشرك باللّه فيه؟

قال: و قرأ و لا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا. قال ابن جابان: و إن آمنوا أيضا لم ننكحهم.

و قال مسلمة بن عبد الملك: إني لأحب أن اسأل هذا الشيخ-يعني عمرو بن مسلم-فما يمنعني منه إلا لحنه.

قال: و كان أيوب السختياني يقول: تعلموا النحو، فإنه جمال للوضيع، و تركه هجنة للشريف.

و قال عمر رضي اللّه عنه: تعلموا النحو كما تعلّمون السّنن و الفرائض.

و قال رجل للحسن: يا أبي سعيد. فقال: أكسب الدوانيق شغلك عن أن تقول يا أبا سعيد؟ قالوا: و أوّل لحن سمع بالبادية: هذه عصاتي، و أول لحن سمع بالعراق:

حيّ على الفلاح.

و من اللحانين البلغاء خالد بن عبد اللّه القسري، و خالد بن صفوان الأهتميّ، و عيسى بن المدوّر.

و قال بعض النساك: أعربنا في كلامنا فما نلحن، و لحنا في اعمالنا فما نعرب.

و قال: أخبرني الربيع بن عبد الرحمن السّلمي قال: قلت لأعرابي:

أ تهمز اسرائيل؟قل: إني إذا لرجل سوء. قال: قلت: أ فتجر فلسطين؟قال:

إني إذا لقويّ.

و كان هشيم يقول: حدثنا يونس عن الحسن. يقولها بفتح الياء و كسر النون.

و كان عبد الأعلى بن عبد الأعلى السامي يقول: فأخذه فصرعه فذبحه فأكله، بكسر هذا أجمع.

و كان مهدي بن هليل يقول: حدثنا هشام، مجزومة، ثم يقول ابن و يجزمه، ثم يقول حسان و يجزمه، لأنه حين لم يكن نحويا رأى السلامة في الوقف.

و أما خالد بن الحارث، و بشر بن المفضل الفقيهان، فإنهما كانا لا يلحنان.

و ممن كان لا يلحن البتة حتى كأن لسانه لسان أعرابي فصيح: أبو زيد النحوي، و ابو سعيد المعلم.

و قال خلف: قلت لأعرابي: ألقي عليك بيتا؟قال: على نفسك فألقه! و قال ابو الفضل العنبري لعلي بن بشير إني التقطت كتابا من الطريق فأنبئت إن فيه شعرا أ فتريده حتى آتيك به؟قال: نعم، إن كان مقيّدا. قال:

و اللّه ما أدري أ مقيد هو أم مغلول.

الأصمعي قال: قيل لأعرابي: أ تهمز الرمح؟قال: نعم. قيل له: فقلها مهموزة. فقالها مهموزة. قيل له: أ تهمز الترس؟قال: نعم. فلم يدع سيفا و لا ترسا إلا همزه. فقال له أخوه و هو يهزأ به: دعوا أخي فإنه يهمز السلاح أجمع.

و قال بعضهم: ارتفع إلى زياد رجل و أخوه في ميراث، فقال: إن أبونا مات، و إن أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فأما زياد فقال: الذي أضعت من لسانك أضرّ عليك مما أضعت من مالك. و أما القاضي فقال: فلا رحم اللّه أباك، و لا نيّح عظم أخيك!قم في لعنة اللّه! و قال ابو شيبة قاضي واسط: أتيتمونا بعد إن أردنا أن نقم.

قد ذكرنا-أكرمك اللّه-في صدر هذا الكتاب من الجزء الأول و في بعض الجزء الثاني، كلاما من كلام العقلاء البلغاء، و مذاهب من مذاهب الحكماء و العلماء، و قد روينا نوادر من كلام الصبيان و المحرّمين (1) من الأعراب،

---

(1) المحرم: الذي لم يؤدب.

و نوادر كثيرة من كلام المجانين و أهل المرّة (1) من الموسوسين، و من كلام أهل الغفلة من النوكى، و أصحاب التكلف من الحمقى، فجعلنا بعضها في باب الاتعاظ و الاعتبار، و بعضها في باب الهزل و الفكاهة. و لكل جنس من هذا موضع يصلح له. و لا بد لمن استكدّه الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل.

قال أبو عبيدة: أرسل ابن لعجل بن لجيم فرسا له في حلبة، فجاء سابقا، فقال لأبيه: يا أبه، بأي شيء اسميه؟فقال: أفقأ إحدى عينيه، و سمه الأعور.

و شعراء مضر يحمّقون رجال الأزد و يستخفون أحلامهم. قال عمر بن لجأ:

تصطكّ ألحيها على دلائها # تلاطم الأزد على عطائها

و قال بشار:

و كأنّ غلي دنانهم في دورهم # لغط العتيك على خوان زياد

و قال الراجز:

لبّيك بي أرفل في بجادي # حازم حقويّ و صدري باد (2)

أفرّج الظلماء عن سوادي # أقوى لشول بكرت صواد

كأنما أصواتها بالوادي # أصوات حجّ من عمان غاد

و قال الآخر في نحوه:

فإذا سمعت هديلهن حسبته # لغط المقاول في بيوت هداد

و بسبب هذا يدخلون في المعنى قبائل اليمانية. و قال ابن أحمر:

أخالها سمعت عزفا فتحسبه # أهابة القسر ليلا حين تنتشر

---

(1) المرة: أخلاط البدن: الدم، البلغم، المرة الصفراء و السوداء.
(2) الحقو: معقد الإزار عند الكشحين.

و قال الكميت:

كأن الغطامط من غليها # أراجيز أسلم تهجو غفارا [1]

فجعل الأراجيز التي شبهها في لغطها و التفافها بصوت غليان القدر، لأسلم دون غفار.

(1) الغطامط: صوت الغليان. أسلم و غفار: قبيلتان.

باب النّوكى

قال: و من النّوكى مالك بن زيد مناة بن تميم، الذي لما أدخل على امرأته فرأت ما رأت من الجفاء و الجهل، و جلس في ناحية منقبضا مشتملا، قالت: ضع علبتك. قال: يدي احفظ لها. قالت: فاخلع نعليك. قال:

رجلاي احفظ لهما. قالت له: فضع شملتك. قال: ظهري أولى بها. فلما رأت ذلك قامت فجلست إلى جنبه. فلما شم ريح الطيب وثب عليها.

و من المجانين و الموسوسين و النوكى: ابن قنان، و صبّاح الموسوس، و ديسيموس اليوناني، و أبو حيّة النميري (1) ، و أبويس الحاسب، و جعيفران (2)

الشاعر، و جرنفش. و منهم سارية الليل. و منهم ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم ابن مرّة، و هي التي نقضت غزلها انكاثا، فضرب اللّه تبارك و تعالى بها المثل، و هي التي قيل لها: «خرقاء وجدت صوفا» .

---

(1) ابو حية النميري، هو الهيثم بن ربيع، شاعر عاش في الدولة الأموية و أدرك الدولة العباسية، و مدح الخلفاء. اشتهر بجبنه و بخله و كذبه.

(2) جعيفران بن علي بن اصغر الأنباري، شاعر عباسي نشأ في بغداد و تشيع، و مدح ابا دلف العجلي، و عرف بالمرة.

و منهم دغة (1) ، و جهيزة (2) ، و شولة، و درّاعة القديد المعدّيّة. و لكل واحد من هؤلاء قصة سنذكرها في موضعها، إن شاء اللّه.

فأما ديسيموس فكان من موسوسي اليونانيين، قال له قائل: ما بال ديسيموس يعلم الناس الشعر و لا يستطيع قوله؟قال: مثله مثل المسن الذي يشحذ و لا يقطع.

و رآه رجل و هو يأكل في السوق فقال: ما بال ديسيموس يأكل في السوق؟ فقال: إذا جاع في السوق أكل في السوق.

و ألح عليه رجل بالشتيمة و هو ساكت؟فقال: أ رأيت إن نبحك كلب أ تنبحه، و إن رمحك حمار أ ترمحه؟ و كان إذا خرج مع الفجر يريد الفرات ألقى في دوارة بابه حجرا، حتى لا يعاني دفع بابه إذا رجع. و كان كلما رجع إلى بابه وجد الحجر مرفوعا و الباب منصفقا، فعلم أن أحدا يأخذ الحجر من مكانه، فكمن لصاحبه يوما، فلما رآه قد أخذ الحجر قال: مالك تأخذ ما ليس لك؟قال: لم أعلم أنه لك. قال: فقد علمت أنه ليس لك.

و أما جعيفران الموسوس الشاعر، فشهدت رجلا أعطاه درهما و قال له قل شعرا على الجيم. فأنشأ يقول:

عادني الهمّ فاعتلج # كلّ هم إلى فرج

سلّ عنك الهموم بالكا # س و بالراح تنفرج

و هي أبيات.

و كان يتشيع، فقال له قائل: أ تشتم فاطمة و تأخذ درهما؟قال: لا بل أشتم عائشة و آخذ نصف درهم.

---

(1) دغة، هي مارية بنت مغنج، شقت يافوخ طفلها لينام.

(2) جهيزة، هي ام شبيب الحروري، قالت و هي حامل: إن في بطني شيئا ينقر.

و هو الذي يقول:

ما جعفر لأبيه # و لا له بشبيه

أضحى لقوم كثير # فكلهم يدّعيه

فذا يقول بنيّي # و ذا يخاصم فيه

و الأم تضحك منهم # لعلمها بأبيه

و هو الذي يقول في قوم لاطة:

كأنهم و الأيور عامدة # صياقل في جلاية النّصل

و أما أبو يس الحاسب فإن عقله ذهب بسبب تفكره في مسألة، فلما جنّ كان يهذي بأنه سيصير ملكا و قد ألهم ما يحدث في الدنيا من الملاحم.

و كان أبو نواس و الرّقاشي يقولان على لسانه أشعارا، على مذاهب اشعار ابن عقب الليثي، و يرويانها أبا يس، فإذا حفظها لم يشك أنه الذي قالها.

فمن تلك الأشعار قول ابي نواس:

منع النوم ادّكاري زمنا # ذا تهاويل و أشياء نكر

و اعتراك الروم في معمعة # ليس فيها لجبان من مقرّ

كائنات ليس عنها مذهب # خطها يوشع في كتب الزّبر

و علامات ستأتي قبله # جمة أولها سكر النّهر

و يليهم رجل من هاشم # أقنص الناس جميعا للحمر

يبتني في الصحن من مسجدهم # للمصلين من الشمس ستر

و رجاء يبتني مطهرة # ضخمة في وسطها طست صفر

فهناكم حين يفشو أمركم # و هناكم ينزل الأمر النكر

فاتبعوه حيث ما سار بكم # أيها الناس و إن طال السفر

و دعوا، باللّه، أن تهزوا به # لعن الرحمن من منه سخر

و البصريون يزعمون أن أبا يس كان أحسب الناس.

و أما أبو حيّة النميري فإنه كان أجنّ من جعيفران، و كان أشعر الناس. و هو الذي يقول:

ألا حيّ أطلال الرسوم البواليا # لبسن البلى مما لبسن الليواليا

و في هذه القصيدة يقول:

إذا ما تقاضى المرء يوم و ليلة # تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

و هو الذي يقول:

فأرخت قناعا دونه الشمس و اتقت # بأحسن موصولين كف و معصم

و حدثني أبو المنجوف قال: قال أبو حية: عنّ لي ظبي فرميته، فراغ عن سهمي، فعارضه و اللّه السهم، ثم راغ فراوغه حتى صرعه ببعض الخبارات (1) .

و قال: رميت و اللّه ظبية، فلما نفذ السهم ذكرت بالظبية حبيبة لي، فشددت وراء السهم حتى قبضت على قذذه (2) .

و كان يكلم العمّار، و يخبر عن مفاوضته للجن (3) .

و أما جرنفش فإنه لما خلع الفرزدق لجام بغلته، و أدنى رأسها من الماء قال له جرنفش: نحّ بغلتك حلق اللّه ساقيك!قال: و لم عافاك اللّه؟قال: لأنك كذوب الحنجرة، زاني الكمرة! قال ابو الحسن: و بلغني أن الفرزدق لما أن قال له الجرنفش ما قال نادى: يا بني سدوس. فلما اجتمعوا إليه قال: سودوا الجرنفش عليكم، فإني لم أر فيكم أعقل منه.

---

(1) الخبار: ما تحفر من الارض.
(2) القذذ: ريش السهام.
(3) العمار: سكان البيت.

و من مجانين الكوفة: عيناوة، و طاق البصل.

حدثني صديق لي قال: قلت لعيناوة: أيما أجن، أنت أو طاق البصل؟ قال: أنا شيء و طاق البصل شيء! و من مجانين الكوفة بهلول، و كان يتشيع، فقال له اسحاق بن الصياح:

أكثر اللّه في الشيعة مثلك. قال: بل أكثر اللّه في المرجئة مثلي، و أكثر في الشيعة مثلك.

و كان جيّد القفا، فربما مر به من يحب العبث فيقفده (1) ، فحشا قفاه خراء، و جلس على قارعة الطريق فكلما قفده إنسان تركه حتى يجوز، ثم يصيح به: يا فتى شم يدك!فلم يعد بعدها أحد يقفده.

و كان يغني بقيراط و يسكت بدانق.

و كانت بالكوفة امرأة رعناء يقال لها مجيبة، فقفد بهلولا فتى كانت مجيبة أرضعته، فقال له بهلول: كيف لا تكون أرعن و قد أرضعتك مجيبة؟فو اللّه لقد كانت تزق لي الفرخ فأرح الرعونة في طيرانه! قال: و حدثني حجر بن عبد الجبّار قال: مرّ موسى بن أبي الرّوقاء، فناداه صبّاح الموسوس: يا ابن ابي الروقاء!أسمنت برذونك، و أهزلت دينك، أما و اللّه إن أمامك لعقبة لا يجاوزها إلا المخف!فحبس موسى برذونه و قال: من هذا؟فقيل له: هذا صباح الموسوس. فقال ما هو بموسوس، هذا نذير.

قال أبو الحسن: دعا بعض السلاطين مجنونين ليحركهما فيضحك مما يجيء منهما فلما أسمعاه و أسمعهما غضب و دعا بالسيف، فقال أحدهما لصاحبه: كنا مجنونين فصرنا ثلاثة! و قال عمر بن عثمان (2) : شيعت عبد العزيز بن المطلب المخزومي و هو قاضي مكة، إلى منزله، و بباب المسجد مجنونة تصفق و تقول:

---

(1) قفد: صفع.

(2) عمر بن عثمان التيمي المدني، من وجوه قريش و فصحائها، ولاه الرشيد البصرة، و خرج حاجا و أقام في المدينة حتى وفاته.

أرّق عيني ضراط القاضي # هذا المقيم ليس ذاك الماضي

فقال: يا أبا حفص، أ تراها تعني قاضي مكة؟ قال: و تذكروا اللثغ فقال قوم: أحسن اللثغ ما كان على السين، و هو أن تصير ثاء. و قال آخرون: على الراء، و هو أن تصير غينا. فقال مجنون البكرات: أنا أيضا ألثغ، إذا أردت أن أقول شريط قلت: رشيط.

قال: و بعث عبيد اللّه بن مروان، عمّ الوليد، إلى الوليد بقطيفة حمراء، و كتب إليه: «إني بعثت إليك بقطيفة حمراء حمراء» . فكتب إليه الوليد: «قد وصلت إلي القطيفة، و أنت يا عم أحمق أحمق» .

و قال محمد بن بلال لوكيله دبة: اشتر لي طيبا سيرافيا. قال: تريده سيرافي، أو سيرافي سيرافي؟ و قال محمد بن الجهم للمكي: إني أراك مستبصرا في اعتقاد الجزء الذي لا يتجزأ، فينبغي أن يكون عندك حقا حقا. قال: أما أن يكون عندي حقا حقا فلا، و لكنه عندي حق.

و دخل أبو طالب، صاحب الطعام، على هاشمية جارية حمدونة بنت الرشيد، على أن يشتري طعامها في بعض البيادر، فقال لها: إني قد رأيت متاعك. قالت هاشمية: قل طعامك. قال: و قد أدخلت يدي فيه، فإذا متاعك قد خم و حمي و قد صار مثل الجيفة، قالت: يا أبا طالب، الست قلبت الشعير، فأعطنا ما شئت و إن وجدته فاسدا.

و دخل أبو طالب على المأمون فقال: كان أبوك يا أبا، خيرا لنا منك.

و أنت يا أبا، ليس تعدنا و لا تبعث إلينا، و نحن يا أبا، تجارك و جيرانك.

و المأمون في كل ذلك يبتسم.

و قيل للمثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، و هو على اليمامة: إن هاهنا مجنونا له نوادر. فأتوه به فقال: ما هجاء النشّاش (1) ؟. فقال: الفلج العادي (2)

فغضب ابن هبيرة و قال: ما جئتموني به إلا عمدا، ما هذا بمجنون. و النشاش:

يوم كان لقيس على حنيفة، و الفلج: يوم كان لحنيفة على قيس.

و أنشدوا

ترى القوم أسواء إذا جلسوا معا # و في القوم زيف مثل زيف الدراهم

و قال:

فتى زاده عزّ المهابة ذلة # و كلّ عزيز عنده متواضع

و قال:

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل # و ليس ينفع بعد الكبرة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت # و لن تلين إذا قومتها الخشب

قال جعفر بن أخت واصل: كتب رجل إلى صديق له: «بلغني أنّ في بستانك أشياء تهمني، فهب لي منه أمرا من أمر اللّه عظيما» .

و قال أبو عبد الملك، و هو الذي كان يقال له عناق: كان عيّاش و ثمامة حيّ يعظّمني تعظيما ليس في الدنيا مثله.

و قال له عيّاش بن القاسم: بأي شيء تزعمون أن أبا علي الأسواري أفضل من سلاّم أبي المنذر (3) ؟قال: لأنه لما مات سلام ابو المنذر ذهب أبو علي في جنازته، فلما مات أبو علي لم يذهب سلام في جنازته.

---

(1) النشاش: واد كثير الحمص. جرت فيه معركة بين بني عامر بن صعصعة و حنيفة.
(2) الفلج العادي: مدينة باليمامة.
(3) سلام بن المنذر من أصحاب القراءات غير السبع، و كان من المجبرة.

و كان يقول: فيك عشر خصال من الشر. فأما الثانية كذا، و أما الرابعة كذا، و أما السابعة كذا، و أما العاشرة كذا.

قال: و قلنا للفقعسي: كيف ثناؤك على حمدان بن حبيب؟فقال: هو و اللّه الكذا الكذا.

و قال الخرداذي: آجركم اللّه و أعظم أجركم و أجركم. فقيل له ذلك فقال: هذا كما قال عثمان بن الحكم: بارك اللّه لكم و بارك عليكم و بارك فيكم. قالوا له: ويلك: إن هذا لا يشبه ذلك.

و كتب إلى بعض الأمراء: «أبقاك اللّه، و أطال بقاءك، و ما في عمرك» .

و كان أبو إدريس السمان يقول: «و أنت فلا صبحك اللّه إلا بالخير» و يقول:

«و أنتم فلا حيا اللّه وجهكم إلا بالسلام، و أنتم فلا بيتكم اللّه إلا بالخير» .

و مر ابن ابي علقمة، فصاح به الصبيان فهرب منهم، و تلقاه شيخ عليه ضفيرتان، فقال له: (يا ذا القرنين إن يأجوج و مأجوج مفسدون في الأرض) .

و قال المهلب لرجل من بني ملكان، أحد بني عدي: متى أنت؟قال: أيام عتيبة بن الحارث بن شهاب. و اقبل على رجل من الأزد فقال: متى أنت؟ فقال: أكلت من حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عامين. فقال له المهلب: أطعمك اللّه لحمك! و أنشدني المعيطي:

و أنزلني طول النوى دار غربة # إذا شئت لاقيت الذي لا أشاكله

فحامقته حتى يقال سجية # و لو كان ذا عقل لكنت أعاقله

قالوا: و خطب عتّاب بن ورقاء فحث على الجهاد، فقال: هذا كما قال اللّه تبارك و تعالى:

كتب القتل و القتال علينا # و على الغانيات جرّ الذيول

و خطب والي اليمامة فقال: «إن اللّه لا يقارّ عباده على المعاصي، و قد أهلك اللّه أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم» ، فسم مقوم ناقة اللّه.

و هؤلاء الجفاة و الأعراب المحرمون، و أصحاب العجرفية، و من قل فقهه في الدين، إذا خطبوا على المنابر فكأنهم في طباع أولئك المجانين.

و خطب وكيع بن أبي سود بخراسان، فقال: «إن اللّه خلق السماوات و الأرض في ستة أشهر» فقيل له: إنها ستة أيام. قال: و ابيك لقد قلتها و إني لأستقلها! و صعد المنبر فقال: إن ربيعة لم تزل غضابا على اللّه مذ بعث اللّه نبيه في مضر، ألا و إن ربيعة قوم كشف (1) ، فإذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل في مناخرها، فإن فرسا لم يطعن في منخره إلا كان أشد على فارسه من عدوه.

و ضربت بنو مازن الحتات بن يزيد المجاشعي، فجاءت جماعة منهم، فيهم غالب أبو الفرزدق، فقال: يا قوم، كونوا كما قال اللّه: لا يعجز القوم إذا تعاونوا.

و تزعم بنو تميم أن صبرة بن شيمان قال في حرب مسعود و الأحنف: إن جاء حثّاث جئت، و إن جاء الأحنف جئت، و إن جاء جارية جئت، و إن جاءوا جئنا، و إن لم يجيئوا لم نجيء.

و هذا باطل، قد سمعنا لصبرة كلاما لا ينبغي أن يكون صاحب ذلك الكلام يقول هذا الكلام.

و لما سمع الأحنف فتيان بني تميم يضحكون من قول العرندس:

لحا اللّه قوما شووا جارهم # إذا الشاة بالدرهمين الشّصب

أرى كل قوم رعوا جارهم # و جار تميم دخان ذهب

(1) أكشف: من ليس معه ترس في الحرب، فهو منكشف غير مستور.

قال: أ تضحكون؟أما و اللّه إن فيه لمعنى سوء.

قال: و كان قبيصة يقول: رأيت غرفة فوق البيت.

و رأى جرادا يطير فقال: لا يهولنكم ما ترون، فإن عامتها موتى.

و إنه في أول ما جاء الجراد قبّل جرادة و وضعها على عينيه، على أنها من الباكورة.

و هذه الأشياء ولدها الهيثم بن عدي، عند صنيع داود بن يزيد (1) في أمر تلك المرأة ما صنع.

قال أبو الحسن: و تغدى أبو السرايا عند سليمان بن عبد الملك، و هو يومئذ ولي عهد، و قدامه جدي، فقال: كل من كليته فإنها تزيد في الدماغ.

فقال: لو كان هذا هكذا، لكان رأس الأمير مثل رأس البغل.

و قال أبو كعب: كنا عند عياش بن القاسم، و معنا سيفويه القاص، فأتينا بفالوذجة حارة، فابتلع منها سيفويه لقمة فغشي عليه من شدة حرها، فلما أفاق قال: لقد مات لي ثلاثة بنين ما دخل جوفي عليهم من الحرقة ما دخل جوفي من حرقة هذه اللقمة!.

سعيد بن أبي مالك قال: جالسني رجل، فغبر (2) لا يكلمني ساعة، ثم قال لي:

جلست قط على رأس تنور فخريت فيه آمنا مطمئنا؟قال: قلت: لا. قال: فإنك لم تعرف شيئا من النعيم قط.

قال: و قال هشام بن عبد الملك ذات يوم لجلسائه: أي شيء ألذ؟قال الأبرش بن حسان: هل أصابك جرب قط فحككته؟قال: مالك!أجرب اللّه جلدك، و لا فرّج اللّه عنك!و كان آنس الناس به.

---

(1) داود بن يزيد بن حاتم المهلبي ولاه الرشيد على السند و مات و هو وال عليها زمن المأمون سنة 205 هـ. و قد ضرب الهيثم بن عدي النسابة و صاحب المثالب لكي يطلق زوجه.

(2) غبر: مكث.

و من غرائب الحمق: المذهب الذي ذهب إليه الكميت بن زيد، في مديح النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، حيث يقول:

فاعتتب الشوق من فؤادي و الشعـــ # ر إلى من إليه معتتب

إلى السراج المنير أحمد لا # تعدلني رغبة و لا رهب

عنه إلى غيره و لو رفع النـــ # اس إليّ العيون و ارتقبوا

و قيل أفرطت بل قصدت و لو # عنفني القائلون أو ثلبوا

إليك يا خير من تضمنت الأر # ض و لو عاب قولي العيب

لج بتفضيلك اللسان و لو # أكثر فيك اللّجاج و اللجب

فمن رأى شاعرا مدح النبي صلّى اللّه عليه و سلّم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس، حتى يزعم هو أناسا يعيبونه و يثلبونه و يعنفونه؟! و لقد مدح النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، فما زاد على قوله:

و بورك قبر أنت فيه و بوركت # به و له أهل بذلك يثرب

يعني قبر النبي صلّى اللّه عليه و سلّم. و يثرب، يعني المدينة.

لقد غيبوا برّا و حزما و نائلا # عشية و اراه الصفيح المنصّب

و هذا شعر يصلح في عامة الناس.

و كتب مسلمة بن عبد الملك، إلى يزيد بن المهلب: إنك و اللّه ما أنت بصاحب هذا الأمر، صاحب هذا الأمر مغمور موتور و أنت مشهور غير موتور.

فقال له رجل من الأزد يقال له عثمان بن المفضل: قدم ابنك مخلدا حتى يقتل فتصير موتورا.

و قال: جاء ابن لجديع بن علي و كان ابن خال ليزيد بن المهلب، فقال ليزيد: زوجني بعض ولدك. فقال له عثمان بن المفضل: زوجه ابنك مخلدا، فإنه إنما طلب بعض الولد و لم يستثن شيئا.

و من الحمقى كثيّر عزّة. و من حمقه أنه دخل على عبد العزيز بن مروان،

فمدحه بمديح استجاده، فقال له: سلني حوائجك. قال: تجعلني في مكان ابن رمانة. قال: ويلك، ذاك رجل كاتب و أنت شاعر!فلما خرج و لم ينل شيئا قال في ذلك:

عجبت لأخذي خطة الغي بعد ما # تبين من عبد العزيز قبولها

فإن عاد لي عبد العزيز بمثلها # و أمكنني منها إذا لا أقيلها

قال ابو الحسن: قال طارق: قال ابن جابان: لقي رجل رجلا و معه كلبان، فقال له: هب لي أحدهما. قال: أيهما تريد؟قال: الأسود. قال:

الأسود أحب إلي من الأبيض!قال: فهب لي الأبيض. قال: الأبيض أحب إلي من كليهما.

قال: قال رجل لرجل: بكم تبيع الشاة؟قال: أخذتها بستة، و هي خير من سبعة، و قد أعطيت بها ثمانية، فإن كانت حاجتك بتسعة فزن عشرة.

قال أبو الحسن: قال طارق بن المبارك: دخل رجل على بلال فكساه ثوبين، فقال: كساني الأمير ثوبين، فاتزرت بالآخر، و ارتديت بالآخر.

قال: و مرض فتى عندنا فقال له عمّه: أي شيء تشتهي؟قال: رأس كبشين. قال: لا يكون! قال: فرأسي كبش! طارق قال: وقع بين جار لنا و جار له يكنى أبا عيسى، كلام، فقال:

اللهم خذ مني لأبي عيسى. قالوا: أ تدعو اللّه على نفسك؟قال: فخذ لأبي عيسى مني.

أبو زكريا العجلاني، قل: دخل عمرو بن سعيد على معاوية و هو ثقيل، فقال: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟قال: أصبحت صالحا. قال: أصبحت عينك غائرة، و لونك كاسفا، و انفك ذابلا، فاعهد عهدك و لا تخدعن عن نفسك.

قال: و قال عبيد اللّه بن زياد بن ظبيان التيمي: يرحم اللّه عمر بن الخطاب، كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الزانيات، و أبناء الزانيات!فقال

عبيد اللّه بن زياد ابن أبيه: يرحم اللّه عمر كان يقول: لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا! و كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقولون: «كونوا بلها كالحمام» .

و قال آخر: حماقة صاحبي عليّ أشد ضررا منها عليه.

و قالوا: شرد بعير لهبنّقة القيسي–و بجنونه يضرب المثل–فقال: من جاء به فله بعيران. فقيل له: أ تجعل في بعير بعيرين؟فقال: إنكم لا تعرفون فرحة الوجدان. و اسمه يزيد بن ثروان، و كنيته ابو نافع.

و قال الشاعر:

عش بجد و لا يضرّك نوك # إنما عيش من ترى بالجدود

عش بجد و كن هبنقة القيــ # سي نوكا أو شيبة بن الوليد

و هبنقة هو يزيد بن ثروان، أحد بني قيس بن ثعلبة.

و لما خلع قتيبة بن مسلم سليمان بن عبد الملك بخراسان، قام خطيبا فقال: «يا أهل خراسان، أ تدرون من وليّكم؟إنما وليكم يزيد بن ثروان» .

كني به عن هبنّقة. و ذلك أن هبنقة كان يحسن من ابله إلى السمان و يدع المهازيل، و يقول: إنما أكرم اللّه و أهين من أهان اللّه. و كذلك كان سليمان يعطي الأغنياء و لا يعطي الفقراء، و يقول: أصلح ما أصلح اللّه، و أفسد ما أفسد اللّه.

و قال الفرزدق: ما عييت بجواب أحد قط ما عييت بجواب مجنون بدير هزقل، دخلت إليه فإذا هو مشدود إلى أصطوانة، فقلت بلغني أنك حاسب.

قال: ألق علي ما شئت قال: فقلت امسك معك خمسة و جلدتها. قال:

نعم. قلت: و امسك أربعة و جلدتها. قال: نعم. قلت: كم معك؟قال:

تسعة و جلدتها مرتين.

و كان زريق الفزاريّ يمر بالليل و هو شارب، فيشتم أهل المجلس، فلما أن كان بالغداة عاتبوه، قال: نعم، زنيت أمهاتكم فما ذا عليكم؟ قالوا: و خطب يوما عتاب بن ورقاء فقال: هذا كما قال اللّه تبارك و تعالى:

«إنما يتفاضل الناس عما لهم، و كل ما هو آت قريب» . قالوا له: إن هذا ليس من كتاب اللّه!قال: ما ظننت إلا أنه من كتاب اللّه.

قال: و خطب عدي بن وتّاد الأيادي فقال: أقول كما قال العبد الصالح:

(ما رأيكم إلا ما أرى و ما أهديكم إلا سبيل الرشاد) . قالوا له: ليس هذا من قول عبد صالح، إنما هو من قول فرعون. قال: و من قاله فقد أحسن! و قال أعرابي:

خلق السماء و أهلها في جمعة # و أبوك يمدر حوضه في عام [1]

و قالوا: و كان عبد الملك بن مروان أول خليفة من بني أمية منع الناس من الكلام عند الخلفاء، و تقدّم فيه و توعّد عليه، و قال: إن جامعة عمرو بن سعيد بن العاصي عندي، و إني و اللّه لا يقول أحد هكذا إلا قلت به هكذا.

و في خطبة له أخرى: إني و اللّه ما أنا بالخليفة المستضعف (و هو يعني عثمان بن عفان رحمه اللّه) ، و لا أنا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ، و لا أنا بالخليفة المأبون (يعني يزيد بن معاوية) .

قال أبو اسحاق: و اللّه لو لا نسبك من هذا المستضعف، و سببك من هذا المداهن، لكنت منها أبعد من العيّوق [2] . و اللّه ما أخذتها من جهة الميراث و لا من جهة السابقة، و لا من جهة القرابة، و لا تدعي شورى و لا وصية.

---

(1) مدر الحوض: سد حجارته بقطع الطين اليابس.
(2) العيوق: كوكب أحمر مضيء في طرف الفضاء الأيمن.

قال أبو الحسن: دخل كردم السدوسي، على بلال بن أبي بردة فدعاه إلى الغداء فقال: قد أكلت. قال: و ما أكلت؟قال: قليل أرز فأكثرت منه.

و دخل كردم الذرّاع أرض القوم يذرعها، فلما انتهى إلى زنقة (1) لم يحسن أن يذرعها، قال: هذه ليست لكم!قالوا: هي لنا ميراث و ما ينازعنا فيها إنسان قط.

قال: لا و اللّه ما هي لكم، قالوا: فحصل لنا حساب ما لا تشك فيه. قال:

عشرون في عشرين مائتان، قالوا: من أجل هذا الحساب صارت الزنقة ليست لنا؟.

قالوا: و دخل عكابة بن نميلة النميري دار بلال بن أبي بردة، فرأى ثورا مجلّلا، فقال: ما أفرهه من بغل لو لا أن حوافره مشقوقة.

و من النوكى، و ممن ربما عدوه من المجانين: ابن قنان الأزديّ، و ضرب به المثل ابن ضب العتكي، في قوله لجديع بن علي، خال يزيد بن المهلب حيث يقول:

لو لا المهلب يا جديع و رسله # تغدو عليك لكنت كابن قنان

أنت المردد في الجياد و إنما # تأتي سكيتا كلّ يوم رهان (2)

و قال آخر يهجو امرأة بأنها مضياع خرقاء:

و إن بلائي من رزينة كلما # رجوت انتعاشا أدركتني بعاثر

تبرّد ماء السعن في ليلة الصبا # و تستعمل الكركور في شهر ناجر (3)

قال أبو الحسن: قال الشعبيّ: سايرت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (4) و كان بيني و بين ابي الزّناد (5) ، فقال: بينكما عغلم أهل

---

(1) زنقة: طريق ضيقة.
(2) السكيت: آخر خيل السباق.
(3) السعن: دلو تبرد فيه الماء. الكركور: واد بعيد القعر. ناجز: شهر من أشهر الصيف.
(4) ابو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، من المدينة، سيد في قريش و فقيه و محدث توفي سنة 104 هـ.
(5) ابو الزناد، هو عبد اللّه بن زكوان القرشي المدني، فقيه ثقة فصيح عالم بالعربية. توفي سنة 130 هـ.

المدينة. فسألته امرأة عن مسألة فأخطأ فيها.

و قال طرفة بن العبد يهجو قابوس بن هند الملك:

لعمرك إن قابوس بن هند # ليخلط ملكه نوك كثير

قسمت الدهر في زمن رخيّ # كذاك الحكم يقصد أو يجور

لنا يوم و للكروان يوم # تطير البائسات و ما نطير

فأما يومنا فنظلّ ركبا # وقوفا ما نحلّ و ما نسير

و أما يومهن فيوم بؤس # يطاردهنّ بالحدب الصقور

الفلوشكيّ قال: قلت لأعرابي: أي شيء تقرأ في صلاتك؟قال: أم الكتاب، و نسبة الرب، و هجاء أبي لهب.

و كان الفلوشكي البكراوي أجنّ الناس و أعيا الخلق لسانا، و كان شديد القمار، شديد اللعب بالودع. قال ابن عم له: وقفت على بقية تمر في بيدر لي، فأردت أن أعرفه بالحزر، و معنا قوم يجيدون الخرص (1) ، و قد قالوا فيها و اختلفوا، فهجم علينا الفلوشكي فقلت له: كم تحزر هذا التمر؟قال: أنا لا أعرف الأكرار (2) و حساب القفزان، و لكن عندي مرجل أطبخ فيه تمر نبيذي، و هو يسع مكوكين (3) ، و هذا التمر يكون فيه مائتين و ستين مرجلا. قال: فلا و اللّه إن أخطأ بفيز واحد.

قالوا: و قال المهلب يوما و الأزد حوله: أ رأيتم قول الشاعر:

إذا غزر المحالب أتأقته # يمجّ على مناكبه الثّمالا

---

(1) الخرص: التقدير، الحزر.
(2) الأكرار: مفردها كر و هو مكيال عند أهل العراق.
(3) مكوك: مكيال.

و إلى جنب غيلان بن خرشة شيخ من الأزد، فقال له: قل لبن الفحل. فقالها. فقال المهلب: ويلكم، أ ما جالستم الناس؟! و أنشد بعض أصحابنا:

ألكني إلى مولى أكيمة و انهه # و هل ينتهي عن أول الزجر أحمق

و زعم الهيثم بن عدي عن رجاله، إن أهل يبرين أخف بني تميم أحلاما، و أقلهم عقولا.

قال الهيثم: و من النوكى: عبيد اللّه بن الحر، و كنيته ابو الأشوش.

قال الهيثم: خطب قبيصة، و هو خليفة ابيه على خراسان و أتاه كتابه، فقال: هذا كتاب الأمير، و هو و اللّه أهل لأن أطيعه، و هو أبي و أكبر مني.

و كان فيما زعموا ابن لسعيد الجوهري يقول: صلّى اللّه تبارك و تعالى على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

قال ابو الحسن: صعد عديّ بن أرطأة على المنبر، فلما رأى جماعة الناس حصر فقال: الحمد للّه الذي يطعم هؤلاء و يسقيهم! و صعد روح بن حاتم المنبر، فلما رآهم قد شفنوا أبصارهم (1) و فتحوا أسماعهم نحوه، قال: «نكسوا رءوسكم، و غضوا أبصاركم، فإن المنبر مركب صعب، و إذا يسّر اللّه فتح قفل تيسر» .

قالوا: و صعد عثمان بن عفان، رحمه اللّه المنبر فأرتج عليه فقال: «إن أبا بكر و عمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا، و أنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى خطيب» .

(1) شفنوا: نظروا بدهشة و تعجب.

قال: و قالوا لزياد الأعجم: لم لا تهجو جريرا؟أ ليس الذي يقول:

كأن بني طهيّة رهط سلمى # حجارة خارئ يرمي الكلابا

قالوا: بلى. قال: ليس بيني و بين هذا عمل.

قال أبو الحسن: خطب مصعب بن حيّان أخو مقاتل بن حيان، خطبة نكاح، فحصر فقال: لقنوا موتاكم قول لا إله إلا اللّه. فقالت أم الجارية عجل اللّه موتك أ لهذا دعوناك؟! و خطب أمير المؤمنين الموالي–و هكذا لقبه–خطبة نكاح، فحصر فقال:

اللهم إنّا نحمدك و نستعينك، و نشرك بك.

و قال مولى لخالد بن صفوان: زوجني أمتك فلانة. قال: قد زوجتكما، قال: أ فأدخل الحي حتى يحضروا الخطبة؟قال: أدخلهم. فلما دخلوا ابتدأ خالد فقال: أما بعد فإن اللّه أجل و أعز من أن يذكر في نكاح هذين الكلبين، و قد زوجت هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة.

و قال ابراهيم النخعي لمنصور بن المعتمر: سل مسألة الحمقى، و احفظ حفظ الكيسى.

قال: و دخل كثير عزة–و كان محمّقا، و يكنى أبا صخر–على يزيد بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، ما يعني الشمّاخ بن ضرار بقوله:

إذا الأرطي توسّد أبرديه # خدود جوازئ بالرمل عين

قال يزيد: و ما يضر أمير المؤمنين ألا يعرف ما عنى هذا الأعرابي الجلف؟فاستحمقه و أخرجه.

قالوا: و كان عامر بن كرير يحمّق. قال عوانة: قال عامر لأمه: مسست اليوم برد العاصي بن وائل السهمي. فقالت: ثكلتك أمك، رجل بين عبد المطلب بن هاشم و بين عبد شمس بن عبد مناف، يفرح أن تصيب يده برد رجل من بني سهم؟

و لما حصر عبد اللّه بن عامر على منبر البصرة، فشق ذلك عليه قال له زياد: أيها الأمير، إنك إن أقمت عامة من ترى إصابه أكثر مما أصابك.

و قيل لرجل من الوجوه: قم فاصعد المنبر و تكلم. فلما صعد حصر و قال: الحمد للّه الذي يرزق هؤلاء!و بقي ساكتا، فأنزلوه.

و صعد آخر فلما استوى قائما و قابل بوجهه وجوه الناس وقعت عينه على صلعة رجل فقال: اللهم العن هذه الصلعة! و قيل لوازع اليشكري: قم فاصعد المنبر و تكلّم. فلما رأى جمع الناس قال: لو لا أن امرأتي حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمّعت، و أنا أشهدكم أنها مني طالق ثلاثا! و لذلك قال الشاعر:

و ما ضرّني أن لا أقوم بخطبة # و ما رغبتي في ذا الذي قال وازع

قال: و دخلت على أنس بن أبي شيخ، و إذا رأسه على مرفقه، و الحجام يأخذ من شعره، فقلت له: ما يحملك على هذا؟قال: الكسل، قال:

قلت: فإن لقمان قال لابنه: إياك و الكسل، و إياك و الضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا، و إذا ضجرت لم تصبر على حق. قال: ذاك و اللّه إنه لم يعرف لذة الكسولة.

قال: و قيل لبحر بن الأحنف: ما يمنعك أن تكون مثل أبيك؟قال:

الكسل.

و قال الآخر:

أطال اللّه كيس بني رزين # و حمقي أن شريت لهم بدين

أ أكتب إبلهم شاء و فيها # بريع فصالها بنتا لبون (1)

فما خلقوا بكيسهم دهاة # و لا ملحاء بعد فيعجبوني

(1) الريع: الزيادة. فصال: جمع فصيل و هو ولد الناقة. بنت لبون: ذات لبن.

و ذكر الآخر الكيس، في معاتبته لبني أخيه، حين يقول:

عفاريتا عليّ و أكل مالي # و عجزا عن أناس آخرينا

فهلا غير عمكم ظلمتم # إذا ما كنتم متظلمينا

فلو كنتم لكيّسة أكاست # و كيس الأم أكيس للبنينا

و قال بعضهم: عيادة النوكى الجلوس فوق القدر، و المجيء في غير وقت.

و عاد رجل رقبة بن الحرّ، فنعى رجالا اعتلوا من علته فنعى بذلك إليه نفسه، فقال له رقبة، إذا دخلت على المرضى فلا تنع إليهم الموتى، و إذا خرجت من عندنا فلا تعد إلينا.

و سأل معاوية ابن الكوّاء عن الكوفة، فقال: أبحث الناس عن صغيرة، و اتركه لكبيرة.

و سئل شريك (1) عن أبي حنيفة فقال: اعلم الناس بما لا يكون، و أجهل الناس بما يكون.

و سأل معاوية دغفلا النسابة عن اليمن، فقال: سيد و أنوك.

و ذكر عيينة بن حصن، عند النبي صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «الأحمق المطاع» .

و جنّ أعرابيّ من أعراب المربد، و رماه الصبيان، فرجم، فقالوا له: أ ما كنت وقورا حليما؟فقال: بلى بأبي أنتم و أمي، و اللّه ما استحمقت إلا قريبا.

و كان أول جنونه من عبث الناس به.

و رمى إنسانا فشجّه، فتعلق به، و هو لا يعرفه و ضمه إلى الوالي فقال له الوالي لم رميت هذا و شججته؟فقال: أنا لم أرمه، هو دخل تحت رميتي.

(1) شريك بن عبد اللّه بن ابي شريك النخعي الكوفي، ولد ببخارى سنة 90 هـ و ولي القضاء بواسط سنة 155 و توفي سنة 177 هـ.

و كان وكيع بن الدورقيّة يحمّق (1) ، قال الوليد بن هشام القحذميّ أبو عبد الرحمن، قال: أخبرني أبي، قال: لما قدم أمية خراسان قيل له: لم لا تدخل وكيع بن الدورقية في صحابتك؟ قال: هو أحمق. فركب يوما و سايره فقال: ما أعظم رأس برذونك!قال: قد كفاك اللّه حمله. ثم سايره قليلا فقال: أصلحك اللّه، أ رأيت يوم لقيت أبا فديك ما منعك أن تكون قد قدمت رجلا و أخرت رجلا، و داعست بالرمح حتى يفتح اللّه عليك؟قال: أغرب قبّحك اللّه!و امر فنحّي.

و ساير سعيد بن سلم موسى أمير المؤمنين، و الحربة في يد عبد اللّه بن مالك، و كانت الريح تسفي التراب الذي تثيره دابة عبد اللّه بن مالك في وجه موسى، و عبد اللّه لا يشعر بذلك، و موسى يحيد عن سنن التراب، و عبد اللّه فيما بين ذلك يلحظ موضع مسير موسى، فيتكلف أن يسير على محاذاته، و إذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبل على سعيد بن سلم فقال:

أ لا ترى ما نلقى من هذا الحائن (2) في مسيرنا هذا؟قال: و اللّه يا أمير المؤمنين ما قصر في الاجتهاد، و لكنه حرم التوفيق.

و ساير البطريق الذي خرج إلى المعتصم من سور عمّوريّة (3) ، محمّد ابن عبد الملك، و الأفشين بن كاوس، فساوم كل واحد منهما ببرذونه، و ذكر أنه يرغبهما أو يربحهما. فإذا كان هذا أدب البطريق، مع محله من الملك و المملكة، فما ظنك بمن هو دونه منهم! و لما استجلس المعتصم بطريق خرشنة، تربّع ثم مد رجليه.

و قال زياد: ما قرأت مثل كتب الربيع بن زياد الحارثي، ما كتب إليّ إلا في اجترار منفعة، أو دفع مضرة، و ما كان في موكبي قط فتقدم عنان دابته عنان

---

(1) وكيع ابن الدورقية نسبة الى بلد امه دورق بخوزستان. أحد رجال عبد الملك بن مروان.
(2) الحائن: الهالك.
(3) بلد من بلاد الروم، غزاه المعتصم سنة 223 و افتتحه.

دابتي، و لامست ركبته ركبتي، و لا شاورت الناس في أمر قط إلا سبقهم إلى الرأي فيه.

و كان على شرط زياد، عبد اللّه بن حصن التغلبي، صاحب مقبرة بني حصن، و الجعد بن قيس النميري صاحب طاق الجعد، و كانا يتعاقبان مجلس صاحب الشرطة، فإذا كان يوم حمل الحربة سارا بين يديه معا، فجرى بينهما كلام و هما يسيران بين يديه، فكان صوت الجعد أرفع و صوت عبد اللّه أخفض، فقال زياد لصاحب حرسه: تناول الحربة من يد الجعد، و مره بالانصراف إلى منزله.

و عدا رجل من أهل العسكر بين يدي المأمون، فلما انقضى كلامه قال له بعض من يسير بقربه: يقول لك أمير المؤمنين: اركب. قال المأمون: لا يقال لمثل هذا اركب، إنما يقال لمثل هذا انصرف.

و كان الفضل بن الربيع يقول: مسألة الملوك عن حالهم من تحية النوكى. فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير فقل: صبح اللّه الأمير بالكرامة و النعمة!و إذا أردت أن تقول: كيف يجد الأمير نفسه فقل: انزل اللّه على الأمير الشفاء و الرحمة!و المسألة توجب الجواب، فإن لم يجبك اشتد عليك، و إن أجابك اشتدّ عليه.

و قال محمد بن الجهم: دخلت على المأمون فقال لي: ما زال أمير المؤمنين إليك مشتاقا! فلم أدر جواب هذه الكلمة بعينها، و أخذت لا أقصر فيما قدرت عليه من الدعاء ثم الثناء.

قال أبو الحسن: قال ابن جابان: قال المهدي: كان شبيب بن شيبة يسايرني في طريق خراسان، فيتقدمني بصدر دابته فقال لي يوما: «ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لا يلتفت إليه، و يكون من ناحية إن التفت لم تستقبله الشمس» . قال: فبينما نحن كذلك إذ انتهينا إلى مخاضة، فأقحمت دابتي، و لم يقف و اتبعني، فملأ ثيابي ماء و طينا.

قال: فقلت: يا أبا معمر، ليس هذا في الكتاب؟ــ

قال الهيثم بن عدي: كنت قائما إلى جنب حميد بن قحطبة و هو على برذون، فتفاجّ البرذون ليبول، فقال لي: تنح لا يهرق عليك البرذون الماء.

و جاء رجل إلى محمد بن حرب الهلالي بقوم فقال: إن هؤلاء الفسّاق ما زالوا في مسيس هذه الفاجرة. قال: ما ظننت أنه بلغ من حرمة الفواجر ما ينبغي أن يكنى عن الفجور بهن.

و قلت لرجل من الحسّاب: كيف صار البرذون المتحصّن، على البغلة أحرص منه على الرّمكة، و الرمكة أشكل بطبعه؟قال: بلغني أن البغلة أطيب خلوة.

و قال صديق لنا: بعث رجل وكيله إلى رجل من الوجوه يقتضيه مالا له عليه، فرجع إليه مضروبا، فقال: مالك ويلك؟قال: سبك فسببته فضربني.

قال: و بأي شيء سبني؟قال: قال: هن الحمار في حرام من أرسلك.

قال: دعني من افترائه عليّ، أنت كيف جعلت لاير الحمار من الحرمة ما لم تجعله لحرامي؟فهلا قلت أير الحمار في هن أم من أرسلك؟! أبو الحسن قال: كان رجل من ولد عبد الرحمن بن سمرة (1) ، أراد الوثوب بالشام، فحمل إلى المهدي، فخلى سبيله و أكرمه و قرب مجلسه، فقال له يوما: أنشدني قصيدة زهير، التي على الراء و هي التي أولها:

لمن الديار بقنة الحجر # أقوين من حجج و من شهر

فأنشده فقال المهدي:

ذهب و اللّه من يقول مثل هذا. قال السمريّ: و ذهب و اللّه من يقال فيه مثل هذا. فغضب المهدي و استجهله و نحاه و لم يعاقبه، و استحمقه الناس.

---

(1) عبد الرحمن بن سمرة بن عبد شمس صحابي أسلم يوم الفتح سكن البصرة و فتح سجستان و كابل و غيرهما و عاد إلى البصرة و مات فيها سنة 50 هـ.

و لما دخل خالد بن طليق على المهدي مع خصومه، أنشد قول شاعرهم:

إذا القرشيّ لم يضرب بعرق # خزاعيّ فليس من الصميم

فغضب المهدي و قال: أحمق. فأنشد خالد فقال:

إذا كنت في دار فحاولت رحلة # فدعها و فيها إن أردت معاد

فسكن عند ذلك المهدي.

و قال بشار:

خليليّ إن العسر سوف يفيق # و إن يسارا من غد لخليق

و ما كنت إلا كالزمان إذا صحا # صحوت و إن ماق الزمان أموق

قالوا: و من النوكى: أبو الربيع العامري، و اسمه عبد اللّه، و كان ولي بعض منابر اليمامة. و فيه يقول الشاعر:

شهدت بأن اللّه حق لقاؤه # و إن الربيع العامريّ رفيع

أقاد لنا كلبا بكلب و لم يدع # دماء كلاب المسلمين تضيع

قالوا: و من النوكى: ربيعة بن عسل، أحد بني عمرو بن يربوع، و أخوه صبيغ بن عسل. وفد ربيعة على معاوية فقال له معاوية: ما حاجتك؟قال:

زوجني ابنتك. قال: اسقوا ابن عسل عسلا. فأعاد عليه فأعاد عليه العسل ثلاثا، فتركه و قد كاد ينقد (1) بطنه. قال: فاستعملني على خراسان. قال: زياد اعلم بثغوره. قال: فاستعملني على شرطة البصرة. قال: زياد اعلم بشرطته. قال: فاكسني قطيفة. أو قال: هب لي مائة ألف جذع لداري.

(1) ينقد: ينقطع.

(قال: و أين دارك؟قال: بالبصرة. قال: كم ذرعها؟قال: فرسخان في فرسخين) . قال: فدارك في البصرة أو البصرة في دارك؟! قال عوانة: استعمل معاوية رجلا من كلب فذكر يوما المجوس و عنده الناس، فقال: لعن اللّه المجوس ينكحون أمهاتهم، و اللّه لو أعطيت مائة ألف درهم ما نكحت أمي؟فبلغ ذلك معاوية فقال: قاتله اللّه أ ترونه لو زادوه على مائة ألف فعل!فعزله.

(أبو الحسن: وفد ربيعة بن عسل على معاوية-و هو من بني عمرو ابن يربوع-فقال لمعاوية: أعني بعشرة آلاف جذع في بناء داري بالبصرة. فقال له معاوية: كم دارك؟قال: فرسخان في فرسخين. قال معاوية: هي في البصرة أم البصرة فيها؟قال: بل هي في البصرة. قال معاوية:

فإن البصرة لا تكون هذا) .

و قال ابو الأحوص الرياحي:

ليس بيربوع إلى العقل حاجة # سوى دنس تسودّ منه ثيابها

فكيف بنوكى مالك إن كفرتم # لهم هذه أم كيف بعد خطابها؟

مشائيم ليسوا مصلحين عشيره # و لا ناعب إلا ببين غرابها

الهيثم، عن الضحاك بن زمل قال: بينا معاوية بن مروان واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان و حمار له يدور بالرحى و في عنقه جلجل إذ قال للطحان: لم جعلت في عنق هذا الحمار هذا الجلجل؟قال: ربما أدركتني سآمة أو نعسة، فإذا لم اسمع صوت الجلجل علمت أنه قد قام فصحت به. قال معاوية: أ فرأيت إن قام ثم مال برأسه هكذا و هكذا-و جعل يحرك رأسه يمنة و يسرة-ما يدريك أنت أنه قائم؟فقال الطحان: و من لي بحمار يعقل مثل عقل الأمير؟ و معاوية بن مروان هذا هو الذي قال لأبي امرأته: ملأتنا ابنتك البارحة بالدم!قال: إنها من نسوة يخبأن ذلك لأزواجهن.

و صعد يوسف بن عمر المنبر، فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: قد قتل اللّه زيدا و نصر بن سيّار-يريد نصر بن خزيمة.

و قال عليّ الأسواري: عمر بن الخطاب معلق بشعرة!قلت: و ما صيّره إلى ذلك؟قال: لما صنع بنصر بن سيار. يريد نصر بن الحجاج بن علاط.

و قالوا: أحب الرشيد أن ينظر إلى أبي شعيب القلاّل كيف يعمل القلال، فأدخلوه القصر و أتوه بكل ما يحتاج إليه من آلة العمل، فبينا هو يعمل إذا هو بالرشيد قائم فوق رأسه، فلما رآه نهض قائما، فقال له الرشيد: دونك ما دعيت له، فإني لم آتك لتقوم إلي، و إنما أتيتك لتعمل بين يدي. قال: و أنا لم آتك ليسوء أدبي، و إنما أتيتك لأزداد بك في كثرة صوابي.

قال له الرشيد: إنما تعرضت لي حين كسدت صنعتك. فقال أبو شعيب: يا سيد الناس، و ما كساد عملي في جلال وجهك؟فضحك الرشيد حتى غطى وجهه ثم قال: و اللّه ما رأيت أنطق منه أولا، و لا أعيا منه آخرا، ينبغي لهذا أن يكون أعقل الناس أو أجنّ الناس.

عبد اللّه بن شداد قال: أرى داعي الموت لا يقلع، و أرى من مضى لا يرجع، و من بقي فإليه ينزع. لا تزهدنّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه، و طالب قد كان مطلوبا ما لديه. و الزمان ذو ألوان، و من يصحب الزمان ير الهوان.

الفرج بن فضالة، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن علي، عن ابيه، عن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم قال: إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصله حلّ بها البلاء: إذا أكلوا الأموال دولا، و اتخذوا الأمانة مغنما، و الزكاة مغرما، و أطاع الرجل زوجته و عقّ أمه، و برّ صديقه و جفا أخاه، و ارتفعت الأصوات في المساجد، و أكرم الرجل مخافة شره، و كان زعيم القوم أرذلهم، و إذا لبس الحرير و شربت الخمور، و اتخذت القيان و المعازف، و لعن آخر هذه الأمة أوّلها، فليترقبوا بعد ذلك ثلاث خصال: ريحا حمراء، و مسخا، و خسفا.

الهيثم قال أخبرنا الكلبيّ قال: كانت قريش تعدّ أصل الجزالة في الرأي العباس بن عبد المطلب، و أبا سفيان، و نبيها، و أمية بن خلف.

قال: و قال ابن عباس: لم يكن في العرب أمرد و لا أشيب أشدّ عقلا من السائب بن الأقرع.

قال: و حدثني الشعبيّ أن السائب شهد فتح مهرجان قذف، و دخل منزل الهرمزان و في داره ألف بيت، فطاف فيه، فإذا ظبي من حص في بيت منها ماد يده، فقال: اقسم باللّه إن هذا الظبي يشير إلى شيء انظروا فنظروا فاستخرجوا سفط كنز الهرمزان فإذا فيه ياقوت و زبرجد، فكتب فيه السائب إلى عمر، و أخذ منه فصّا أخضر، و كتب إلى عمر: إن رأى أمير المؤمنين أن يهبه لي فليفعل. فلما عرض عمر السفط على الهرمزان قال: فأين الفص الصغير؟ قال:

سألنيه صاحبنا فوهبته له. قال: إن صاحبك بالجوهر لعالم.

قال: أخبرنا مجالد عن الشعبي: قال السائب لجميل بن بصبهريّ أخبرني عن مكان من القرّية لا يخرب حتى استقطع ذلك المكان: قال: ما بين الماء إلى دار الأمارة. قال: فاختط لثقيف في ذلك الموضع.

قال الهيثم: بت عندهم ليلة، فإذا ليلهم مثل النهار.

أبو الحسن قال: قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة، لمعاوية: أما و اللّه لو كنا على السواء بمكة لعلمت!قال معاوية: إذا كنت أكون معاوية بن أبي سفيان منزلي الأبطح (1) ينشق عني سيله، و كنت أنت عبد الرحمن بن خالد منزلك أجياد (2) ، أعلاه مدرة، و اسفله عذرة. قال سهيل بن عمرو: «أشبه امرؤ بعض بزّه» . فصار مثلا.

---

(1) الأبطح و البطحاء: رمل منبسط يضاف إلى مكة و إلى منى.
(2) أجياد: موضع بمكة.

و قال محرز بن علقمة:

لقد وارى المقابر من شريك # كثير تحلّم و قليل عاب [1]

صموتا في المجالس غير عيّ # جديرا حين ينطق بالصواب

و قال ابن الرقّاع:

أمم تداخلت الحتوف عليهم # أبوابهم فكشفن كلّ غطاء

فإذا الذي في حصنه متحرز # منهم كآخر مصحر بفضاء

و المرء يورث مجده أبناءه # و يموت آخر و هو في الأحياء

و القوم أشباه و بين حلومهم # بون كذاك تفاضل الأشياء

و قال بعضهم:

بيضاء ناصعة البياض كأنها # قمر توسط جنح ليل مبرد

موسومة بالحسن ذات حواسد # إن الحسان مظنة للحسد

و ترى مآقيها تقلّب مقلة # حوراء ترغب عن سواد الإثمد

خود إذا كثر الحديث تعوذت # بحمى الحياء و إن تكلم تقصد

و قال آخر:

لسانك خير وحده من قبيلة # و ما عدّ بعد في الفتى انت فاعله

سوى طبع الأخلاق و الفحش و الخنا # ابت ذاكم أخلاقه و شمائله

و قال آخر:

على امرئ هدّ عرش الحيّ مصرعه # كأنه من ذوي الأحلام من عاد

و قال النابغة:

أحلام عاد و أجساد مطهرة # من المعقّة و الآفات و الأثم

---

(1) ألعاب: ألعيب.

و قالت الخنساء:

خطّاب معضلة فرّاج مظلمة # إن جاء مفظعة هيا لها بابا

و عدّد الأصمعي خصال معدّ فقال:

كانوا أديما ما عزا شاته # أخلص فيه القرظ الآهب [1]

أو مرقيّ عرق دم مفرج # أو سائل في لزبة زاعب [2]

أو ذمة يوفي بها عاقد # أو عقدة يحكمها آرب [3]

أو خابط من غير لا نعمة # أو رحم متّ بها جانب [4]

أو خطة بزلاء مفصولة # يرضى بها الشاهد و الغائب [5]

و قال ابن نوفل يهجو:

و أنت كساقط بين الحشايا # يصير إلى الخبيث من المصير

و مثل نعامة تدعى بعيرا # تعاظمها إذا ما قيل طيري

و إن قيل احملي قالت فإني # من الطير المربّة بالوكور [6]

و كنت لدى المغيرة عير سوء # يبول من المخافة للزئير

لأعلاج ثمانية و شيخ # كبير السنّ ذي بصر ضرير

تقول لما اصابك: أطعموني # شرابا ثم بلت على السرير

و قال عبد يغوث:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا # فما لكما في اللوم خير و لا ليا

---

(1) الأديم: الجلد. القرظ: شجر يدبغ بورقه.
(2) أرقأ الدم: حقنه. اللزبة: السنة الشديدة.
(3) أرب العقدة: شدها و عقدها.
(4) الخابط: الذي يعطي غيره عن غير معرفة.
(5) البزلاء: الرأي الجيد و العقل.
(6) المربة: الملازمة لأوكارها.

أ لم تعلما أن الملامة نفعها # قليل، و ما لومي أخي من شماليا (1)

فيا راكبا أ ما عرضت فبلغن # نداماي من نجران أن لا تلاقيا

أبا كرب و الأيهمين كليهما # و قيسا بأعلى حضر موت اليمانيا

جزى اللّه قومي بالكلاب ملامة # صريحهم و الآخرين المواليا

أقول و قد شلوا لساني بنسعة # أ معشر تيم أطلقوا من لسانيا (2)

و تضحك مني شيخة عبشمية # كأن لم تر قبلي أسيرا يمانيا (3)

قال ابو عثمان: و ليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد و عبد يغوث، و ذلك أنا إذا قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن و الرفاهية.

أبو عبيدة قال: حدثني أبو عبد اللّه الفزاري، عن مالك بن دينار قال:

ما رأيت أحدا أبين من الحجاج، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق، و صفحه عنهم و إساءتهم إليه، حتى أقول في نفسي: إني لأحسبه صادقا، و إني لأظنهم ظالمين له.

قال: و كانت العرب تخطب على رواحلها. و كذلك روى النبي صلّى اللّه عليه و سلّم عن قس بن ساعدة.

قال: و أخبرني عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك بن انس قال:

الوقوف على ظهر الدواب بعرفة سنّة، و القيام على الأقدام رخصة.

و جاء في الأثر: لا تجعلوا ظهور دوابكم مجالس.

و وقف الهيثم بن مطهر الفأفاء، على ظهر دابته على باب الخيزران، ينتظر بعض من يخرج من عندها، فلما طال وقوفه بعث إليه عمر الكلواذي فقال

---

(1) الشمال، من الشمائل: الأخلاق و المزايا.
(2) النسعة من النسع: سير يضفر من جلد.
(3) عبشمية: نسبة إلى عبد شمس.

له: انزل عن ظهر دابتك. فلم يرد عليه شيئا، فكر الرسول إليه، فقال: إني رجل أعرج، و إن خرج صاحبي من عند الخيزران في موكبه خفت ألا ادركه.

فبعث إليه: إن لم تنزل انزلناك. فبعث إليه قال: هو حبس في سبيل اللّه إن أنزلتني عنه إن أقضمته (1) شهرا، فانظر أيما خير له أ راحة ساعة أم جوع شهر؟ قالوا له: هذا الهيثم بن مطهّر. قال: هذا شيطان.

و قال أبو علقمة النحوي: يا آسي (2) ، إني رجعت إلى النزل و أنا سنق لقس (3) فأتيت بشنشنة من لوية و لكيك، و قطع أقرن (4) قد غدرن هناك من سمن، و رقاق شرشصان و سقيط عطعط (5) ، ثم تناولت عليها كأسا. قال له الطبيب خذ خرفقا و سفلقا و جرفقا. قال: ويلك أي شيء هذا؟قال: و أي شيء ما قلت؟ قال الزّبرقان: أحبّ صبياننا إليّ العريض الورك السبط الغرّة، الطويل الغرلة، الأبله العقول. و ابغض صبياننا إلي: الأقيعس الذكر، الذي ينظر من جحر، و إذا سأله القوم عن أبيه هرّ في وجوههم.

قال الهيثم: قال الأشعث: إذا كان الغلام سائل الغرة، طويل الغرلة ملتاث (6) الأزرة كأن به لوثة (7) فما يشك في سؤدده.

قال ابو المخشّ: «كان المخش أشدق خرطمانيا، سائلا لعابه كأنما ينظر من قلتين، كأن ترقوته بوان أو خالفة، و كأن كاهله كركرة جمل. فقأ اللّه عيني إن كنت رأيت قبله و لا بعده مثله» .

---

(1) أقضمته: علفته.
(2) الآسي: الطبيب.
(3) السنق: المتخم. اللقس: ذو الغثيان.
(4) الأقرن: الكبش الكبير القرنين.
(5) عطعط: جدي.
(6) الملتاث: المختلط.
(7) اللوثة: الحمق.

قال: و كان زياد حوّل المنبر و بيوت المال و الدواوين إلى الأزد، و صلى بهم، و خطب في مسجد الحدّان، فقال عمرو بن العرندس:

فأصبح في الحدّان يخطب آمنا # و للأزد عزّ لا يزال تلاد

و قال الأعرج:

و كنا نستطبّ إذا مرضنا # فصار سقامنا بيد الطبيب

فكيف نجيز غصتنا بشيء # و نحن نغصّ بالماء الشريب

و قال أيضا:

و القائلين فلا يعاب خطيبهم # يوم المقامة بالكلام الفاصل

و قال ابن مفرّغ:

و متى تقم يوم اجتماع عشيرة # خطباؤنا بين العشيرة تفصل

و قال أيضا:

فيا رب خصم قد كفيت دفاعه # و قوّمت منه درأه فتنكبا

و قال آخر:

و حامل ضبّ ضغن لم يضرني # بعيد قلبه حلو اللسان

و لو أني أشاء نقمت منه # بشغب من لسان تيّحان [1]

و قال:

عهدت بها هندا و هند غريرة # عن الفحش بلهاء العشاء نؤوم

رداح الضحى ميالة بخترية # لها منطق يصبي الحليم رخيم

(1) التيحان، تشديد الياء: من يتعرض لكل أمر.

و قال:

و خصم يركب العوصاء طاط # عن المثلى قصاراه القراع

و ملموم جوانبها رداح # تزجي بالرماح لها شعاع

و قال محلم بن فراس، يرثي منصورا و هماما ابني المسجاح:

كم فيهم لو تملينا حياتهم # من فارس يوم روع الحيّ مقدام

و من فتى يملأ الشيزى مكللة # شحم السّديف ندي الحمد مطعام

و من خطيب غداة الحفل مرتجل # ثبت المقام أريب غير مفحام

و قال خالد للقعقاع: انافرك على أينا أطعن بالرماح، و أطعم للسحاح و انزل بالبراح. قال: لا، بل عن أينا افضل أبا وجدا و عما و قديما و حديثا.

قال خالد: اعطيت يوما من سأل، و اطعمت حولا من أكل، و طعنت فارسا طعنة شككت فخذيه بجنب الفرس. قال القعقاع و أخرج نعلين فقال: ربع عليهما ابي أربعين مرباعا (1) لم تثكل فيهن تميمية ولدا.

كان ماك بن الأخطل التغلبي–و به كان يكنى–أتى العراق و سمع شعر جرير و الفرزدق، فلما قدم على أبيه سأله عن شعرهما، فقال: وجدت جريرا يغرف من بحر، و وجدت الفرزدق ينحت من صخر. فقال الأخطل: الذي يغرف من بحر أشعرهما.

و قال بعضهم:

و ما خير من لا ينفع الأهل عيشه # و إن مات لم تجزع عليه أقاربه

كهام على الأقصى كليل لسانه # و في بشر الأدنى حداد مخالبه

و قال العماني:

إذا مشى لكلّ قرن مقرن # ثم مشى القرن له كالأرعن

(1) المرباع: ربع الغنيمة.

بصارم يفري صفيح الجوشن # مقرطن زاف إلى مقرطن

يفضي إلى أمّ الفراخ الكمّن # حيث تقول الهامة اسقني اسقني

كم لأبي محمد من موطن

و قال العماني:

و مقول نعم لزاز الخصم # ألدّ يشتقّ لأهل العلم

بباطل يدحض حق الخصم # حتى يصيروا كسحاب البكم

و قال أبو عبيد في حديث علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه حين رأى فلانا يخطب فقال: «هذا الخطيب الشحشح» . قال: هو الماهر الماضي.

و قال الطّرمّاح:

كأن المطايا ليلة الخمس علّقت # بوثّابة تنضو الرواسم شحشح [1]

و قال ذو الرمة:

لدن غدوة حتى إذا امتدت الضحى # و حث القطين الشحشحان المكلف

يعني الحادي.

قال: و كان أسد بن كرز يقال له «خطيب الشيطان» فلما استعمل خالد ابنه على العراق قيل له «خطيب اللّه» فجرت إلى اليوم.

و قال أبو المثلّم الهذلي:

أصخر بن عبد اللّه إن كنت شاعرا # فإنك لا تهدي القريض لمفحم

و قال بلعاء بن قيس:

ابيت لنفسي الخسف لما رضوا به # و وليتهم سمعي و ما كنت مفحما

(1) الخمس: أن ترد الابل يوما ثم لا ترد ثلاثة أيام ثم ترد اليوم الخامس، تنضو الرواسم شحشح: تسبق الابل السريعة.

و قال عبد اللّه بن مصعب: وقف معاوية على امرأة من كنانة، فقال لها:

هل من قرى؟قالت: نعم. قال: و ما قراك؟قالت: عندي خبز خمير، و لبن فطير (1) ، و ماء نمير.

و قال أحيحة:

و الصمت خير للفتى # ما لم يكن عيّ يشينه

و القول ذو خطل إذا # ما لم يكن لبّ يعينه

و قال أبو ثمامة الضّبّي:

و منا حصين كان في كل خطبة # يقول ألا من ناطق متكلّم

و قال عبيد بن أمية الضبي، و استب هو و الحارث بن بيبة المجاشعي عند النعمان، فقال:

ترى بيوت و ترى رماح # و نعم مزنّم سحاح (2)

و منطق ليس له نجاح # يا قصبا طار به الرياح

و اذرعا ليست لها ألواح

و قال قيس بن الخطيم:

و بعض القول ليس له حصاة # كمخض الماء ليس له إتاء (3)

و هذا شبيه بقوله:

كسالى إذا لاقيتهم غير منطق # يلهى به المتبول و هو عناء

---

(1) الفطير: اللبن عند حلبه.
(2) المزنم: صغار الابل. السحاح: السمان.
(3) الحصاة: العقل و الرأي. الاتاء: الزبد.

و قال أبو ثمامة:

أخاصمهم مرة قائما # و اجثو إذا ما جثوا للركب

إذا منطق قاله صاحبي # تعقبت آخر ذا معتقب

و قال الشماخ:

و مرتبة لا تستطاع، بها الردى # تركت بها الشكّ الذي هو عاجز

و يروى:

تلافى بها حلمي عن الجهل حاجز

باب من الكلام المحذوف ثم نرجع بعد ذلك إلى الكلام الأول:

هشيم، عن يونس، عن الحسن يرفعه، إن المهاجرين قالوا: يا رسول اللّه إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آووا و نصروا، و فعلوا و فعلوا. قال النبي عليه السلام: أ تعرفون ذلك لهم؟ قالوا: نعم. قال: «فإن ذاك» . ليس في الحديث غير هذا. يريد: أن ذاك شكر و مكافأة.

قال: و كلم رجل من قيس عمر بن عبد العزيز في حاجة، و جعل يمت بقرابة، فقال عمر: «فإن ذاك» . ثم ذكر حاجته فقال: «لعل ذاك» . لم يزده على أن قال: فإن ذاك، و لعل ذاك. أي أن ذلك كما قلت، و لعل حاجتك تقضي.

و قال عبد اللّه بن قيس:

بكرت عليّ عواذلي # يلحينني و ألومهنّه

و يقلن شيب قد علا # ك و قد كبرت فقلت إنه

و قال الأسدي لعبد اللّه بن الزبير: لا حملت ناقة حملتني إليك!قال ابن الزبير: «إنّ و راكبها» .

عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن ابي هاشم القاسم بن كثير، عن قيس الخارقي أنه سمع عليا يقول: «سبق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و صلى أبو بكر، و ثلّث عمر، و خطبتنا فتنة فيما شاء اللّه» . ليس في الحديث أكثر من هذا.

و لما كتب أبو عبيدة إلى عمر جواب كتاب عمر في أمر الطاعون، فقرأ عمر الكتاب و استرجع، فقال له المسلمون: مات أبو عبيدة؟قال: «لا و كأن قد» .

و قال النابغة:

أزف الترحل غير إن ركابنا # لما تزل برحالنا و كأن قد

و أنشد ابن الأعرابي:

إذا قيل أعمى قلت إنّ، و ربما # أكون، و إني من فتى لبصير

إذا أبصر القلب المروءة و التقى # فإن عمى العينين ليس يضير

و إن العمى أجر و ذخر و عصمة # و إني إلى هذي الثلاث فقير

ابن ابي الزناد قال: كنت كاتبا لعمر بن عبد العزيز، فكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعه، فكتب إليه: «إنه يخيل إلي إني لو كتبت إليك أن تعطي رجلا شاة لكتبت إلي:

أ ضأن أم ماعز؟و إن كتبت إليك بأحدهما كتبت إلي: أذكر أم أنثى؟و إن كتبت إليك بأحدهما كتبت إلي: أ صغير أم كبير؟فإذا أتاك كتابي في مظلمة فلا تراجعني. و السلام» .

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «إني لأستعين بالرجل الذي فيه» ليس في الحديث غير هذا. ثم ابتدأ الكلام فقال: «ثم أكون على قفّانه إذا كان أقوى من المؤمن الضعيف وارد (1) » . و هو قول الأسدي:

(1) أرد: أنفع.

سويد فيه، فابغونا سواه # ابيناه و إن بهّاه تاج

و لم يقل: فيه كذا و فيه كذا. و قال الراجز:

بتنا بحسان و معزاه تئط [1] # في سمن جم و تمر و أقط [2]

حتى إذا كاد الظلام ينكشط # جاء بمذق هل رأيت الذئب قط [3]

و قيل للمنتجع بن نبهان، أو لأبي مهدية: ما النضناض؟فأخرج طرف لسانه و حركه.

و قيل له: ما الدلنطى؟فزحر و تقاعس و فرّج ما بين منكبيه.

و من الكلام كلام يذهب السامع منه إلى معاني أهله، و إلى قصد صاحبه، كقول اللّه تبارك و تعالى:

وَ تَرَى اَلنَّاسَ سُكَارىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارىٰ . و قال: لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَ لاَ يَحْيىٰ .

و قال: وَ يَأْتِيهِ اَلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ . و سئل المفسر عن قوله:

لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا . فقال: ليس فيها بكرة و لا عشي. و قال لنبيه صلى اللّه عليه و سلم: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ اَلَّذِينَ يَقْرَؤُنَ اَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ . قالوا لم يشك و لم يسل.

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه في جواب كلام قد تقدم و قول قد سلف منه: «متعتان كانتا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنا أنهى عنهما و اضرب عليهما» .

و هذا مثل قائل لو قال: أ تضربنا على الكلام في الصلاة، و على التطبيق إذا ركعنا، فيقول: نعم أشدّ الضرب. إذا كان قد تقدم منه إعلامه إياهم بحال الناسخ و المنسوخ.

و قد سأل رجل بلالا مولى أبي بكر رحمه اللّه و قد أقبل جهة الحلبة، فقال له: من سبق؟ قال: سبق المقربون. قال: إنما أسألك عن الخيل.

قال: و أنا أجيبك عن الخير. فترك بلال جواب لفظه إلى خبر هو أنفع له.

---

(1) تئط: تصوت من الجوع.

(2) الأقط: اللبن.

(3) المذق: اللبن الممزوج بالماء.

حدثني عبد الملك بن شيبان، قال: حدثني يعقوب بن الفضل الهاشمي، قال: كتب أبو جعفر إلى سلم يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم، و عقر نخلهم قال: فكتب إليه سلم: بأي ذلك نبدأ؟بالدور أم بالنخل؟ قال: فكتب إليه أبو جعفر: «أما بعد فإني لو كتبت إليك بإفساد تمرهم لكتبت إلي تستأذنني بأية نبدأ بالبرني أم بالشهريز (1) ؟» . و عزله و ولى محمد بن سليمان و قال ابن مسعود: «إن طول الصلاة و قصر الخطبة مئنّة من فقه الرجل» .

مئنة كقولك: مخلقة و مجدرة و محراة. قال الأصمعي: مئنة: علامة.

و قال عبد اللّه: «عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يختلّ إليه» .

و لما أقدم عمر بن الخطاب عمرو بن العاص عليه من مصر قال له عمر:

«لقد سرت سير عاشق» . قال له عمرو: «إني و اللّه ما تأبطتني الإماء، و لا حملتني البغايا في غبّرات المآلي (2) » . قال عمر: «و اللّه ما هذا بجواب الكلام الذي سألتك عنه، و إن الدجاجة لتفحص في الرماد فتضع لغير الفحل و البيضة منسوبة إلى طرقها» . و قام عمر فدخل و قام عمرو فقال: لقد أفحش أمير المؤمنين علينا.

و جاء في الأثر: «لا يمنع فضل الماء ليمنع به فضل الكلأ» .

قال أعرابي: اللهم لا تنزلني ماء فأكون امرأ سوء.

و قال بلعاء بن قيس:

و كم كان في آل الملوّح من فتى # غنادى مفدّى حين تبلى سرائره

و كم كان في آل الملوح من فتى # يجيب خطيبا لا تخاف عوائره

و قال الآخر:

و مخاصم قاومت في كبد # مثل الدهان فصار لي العذر

---

(1) البرني و الشهريز: نوعان من التمر.
(2) المآلي: جمع مئلاة، خرقة الحائض.

و قال آخر:

وجه قبيح و لسان أبكم # و مشفر لا يتوارى أضجم

و لما رأى الفرزدق درست بن رياط الفقيمي على المنبر–و كان أسود دميما قصيرا–قال:

بكى المنبر الشرقي إذ قام فوقه # أمير فقيمي قصير الدوارج (1)

و قال:

بكى المنبر الشرقي و الناس إذ رأوا # عليه فقيميّا قصير القوائم

و إنما كان يعادي بني فقيم لأنهم قتلوا أباه غالبا.

قال أبو عبيدة: قال رجل ليونس بن حبيب: إذا أخذتم في مذاكرة الحديث وقع عليّ النعاس. قال: فاعلم إنك حمار في مسلاخ إنسان (2) .

قال: و دخل عبد اللّه بن حازم على عبيد اللّه بن زياد و هو يخطر في مشيته، فقال للمنذر بن الجارود: حرّكه. فقال: يا ابن حازم، إنك لتجر ثوبك كما تجر البغيّ ذيلها. قال: أما و اللّه إني مع ذلك لأنفذ بالسوية، و أضرب هامة البطل المشيح (3) ، و لو كنت وراء هذا الحائط لوضعت أكثرك شعرا.

و قد كان قبض عطاءه فصبّه بين أيديهم ثم قال: لعنك اللّه من دراهم، ما تقومين بمئونة خيلنا! و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: خذ الحكمة أنّى أتتك، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتتلجلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها.

---

(1) الدوارج: الارجل.
(2) المسلاخ: الجلد.
(3) المشيح: الحازم.

و قال عمرو بن العاص لأهل الشام يوم صفين: «اقيموا صفوفكم مثل قص الشارب، و اعيرونا جماجمكم ساعة من النهار، فقد بلغ الحق مقطعه، و إنما هو ظالم أو مظلوم» .

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه يومئذ: «عضوا على النواجذ من الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام» .

و قال رجل: طد رجلك إذا اعتصيت (1) بالسيف و العصا، و أنت مخيّر في رفعها ساعة المسالمة و الموادعة.

و لما أقاموا ابن قميئة بين العقابين قال له ابوه: طد رجليك بالأرض، و اصر إصرار الفرس، و اذكر أحاديث غد، و إياك و ذكر اللّه في هذا الموضع، فإنه من الفشل.

قال: و قيل للحجاج: من أخطب الناس؟قال: صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة. يعني الحسن.

و قال الأحنف: قال عمر: تفقهوا قبل أن تسوّدوا. و قال عمر: احذر من فلتات الشباب كل ما أورثك النبز (2) و أعلقك اللقب، فإنه إن يعظم بعدها شأنك يشتد على ذلك ندمك.

و لما بنى عقبة بن غزوان و أصحابه بالبصرة بناء اللبن، كتب إليهم عمر:

«قد كنت أكره لكم ذلك فإذا فعلتم ما فعلتم فعرضوا الحيطان، و ارفعوا السمك، و قاربوا بين الخشب» . و لما بلغه أنهم قد اتخذوا الضياع و عمروا الأرض كتب إليهم: «لا تنهكوا وجه الأرض، فإن شحمتها فيه» .

و قال عمر: «بع الحيوان أحسن ما يكون في عينك» : و قال: «فرقوا بين المنايا، و اجعلوا الرأس رأسين» .

---

(1) وطد رجله: أثبتها و ثقلها. اعتصى بالسيف: مسكه مسك العصا و هو يضرب به.
(2) النبز: اللقب، للذم.

و قال: «املكوا العجين فإنه أحد الريعين» .

و قال: «إذا اشتريت بعيرا فاجعله ضخما، فإنه إن أخطأك خبر لم تخطئك سوق» .

و قال عمر: «العمائم تيجان العرب» . و قال: «نعم المستند الاحتباء» .

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الناس كالإبل، ترى المائة لا تجد فيها راحلة» .

و أنشدوا:

و كأنّ من زهر الخزامى و الندى # و الأقحوان عليه ريطة برنس [1]

فإذا ترنّم حوله ذبانه # أصغى تسمّع خائف متوجس

خرجت عليه من الضراء دواجن # تحتثّ نحو ملاذوان أشوس

يسعى و يمثل و الصفير كلامه # تحيي يداه لهنّ وحي الأخرس

و قال الراعي:

أبا خالد لا تنبذنّ نصاحة # كوحي الصفا خطّت لكم في فؤاديا

و قال الشاعر:

رب طرف مصرح # عن ضمير بما هجس

و قال آخر:

بلحن القول و الطرف الفصيح

و قال المثقب العبدي، في استماع الثور و توجسه و جمع باله اذا أحس بشيء من أسباب القانص، و ذكر ناقة:

---

(1) الريطة: الملاءة.

كأنها أسفع ذو جدّة # يضمه القفر و ليل سد

كأنما ينظر من برقع # من تحت روق سلب مذود

يصيخ للنبأة أسماعه # إصاخة الناشد للمنشد

و يوجس السمع لنكرائه # من خشية القانص و المؤسد

و قال بعض العبيد شعرا يقع في ذكر الخطباء، و في ذكر أشداقهم و تشادقهم:

أغرّك مني أن مولاي مزيدا # سريع إلى داعي الطعام سروط

غلام أتاه الذل من نحو شدقه # له نسب في الواغلين بسيط

له نحو دور الكاس أما دعوته # لسان كذلق الزاعبي سليط

و قال الأول:

إن سليطا كاسمه سليط

و قال بعض العبيد في بعض العبيد:

و قد كان مفتوق اللهاة و شاعرا # و أشدق يفري حين لا أحد يفري

و قال مورق العبد يتوعد مولاه:

لو لا عجوز قحمة و دردق # و صاحب جمّ الحديث مونق

كيف الفوات و الطلوب مورق # شيخ مغيظ و سنان يبرق

و حنجر رحب و صوت مصلق # و شدق ضرغام و ناب يحرق

و سأل رجل عمر بن عبد العزيز عن الجمل و صفين فقال: «تلك دماء كف اللّه يدي عنها، فلا أحب أن أغمس لساني فيها» .

و يقع في باب التطبيق:

لأنتم ببيع اللحم أعلم منكم # بضرب السيوف المرهفات القواطع

و قال عمرو بن هداب: «إنما كنا نعرف سؤدد سلم بن قتيبة أنه كان يركب وحده و يرجع في خمسين» .

قال الأصمعي: دخل حبيب بن شوذب الأسدي على جعفر بن سليمان بالمدينة، فقال: «أصلح اللّه الأمير، حبيب بن شوذب واد الصدر، جميل الذكر. يكره الزيارة المملة، و القعدة المنسية (1) » .

و في الحديث: «زر غبا تزدد حبا» .

و قال بعضهم: عن الثوري، عن محمد بن عجلان، عن عياض بن عبد اللّه قال: «إن الدين مجمع لكل هم، هم بالليل و ذل بالنهار، و راية اللّه في أرضه، فإذا أراد اللّه أن يذل عبدا جعله طوقا في عنقه» .

عمر بن ذر قال: الحمد للّه الذي جعلنا من أمّة تغفر لهم السيئات، و لا تقبل من غيرهم الحسنات.

ابن أبي الزناد قال: كنا لا نكتب إلا سنّة، و كان الزهري يكتب كل شيء، فلما احتيج إليه عرفت أنه أوعى الناس.

قال: و قال فيروز حصين: إذا أراد اللّه أن يزيل عن عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله.

و قيل لمحمد بن كعب القرظي: ما علامة الخذلان؟قال: أن يستقبح الرجل ما كان عنده حسنا، و يستحسن ما كان عنده قبيحا.

و قال محمد بن حفص: كن إلى الاستماع أسرع منك إلى القول، و من خطأ القول أشد حذرا من خطأ السكوت.

و قال الحسن: إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، و تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، و لا تقطع على أحد حديثه.

سفيان بن عيينة، قال: كان يقال: العالم مثل السراج، من مر به اقتبس منه.

---

(1) المنسية: الطويلة.

و قال الشاعر أبو دهمان الغلّابي:

لئن مصر فاتتني بما كنت أرتجي # و أخلفني منها الذي كنت آمل

فما كلّ ما يخشى الفتى بمصيبه # و لا كلّ ما يرجو الفتى هو نائل

فما كان بيني لو لقيتك سالما # و بين الغنى إلا ليال قلائل

و قال الآخر:

و إن كلام المرء في غير كنهه # لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

و قال كعب الأحبار: قرأت في بعض ما أنزل اللّه على أنبيائه عليهم السلام: «الهدية تفقأ عين الحكيم، و تسفّه عقل الحليم» .

قال: زحم رجل سالم بن عبد اللّه فزحم سالم الذي يليه، فقال له: يا شيخ، ما حسبتك إلا شيخ سوء!قال سالم: ما أحسبك أبعدت.

قال: و سأل رجل محمد بن عمير بن عطارد و عتّاب بن ورقاء في عشر ديات، فقال محمد: عليّ دية. فقال عتاب: الباقي عليّ. فقال محمد: نعم العون على المروءة اليسار.

و قال الأحنف:

فلو مدّ سروي بمال كثير # لجدت و كنت له باذلا

فإن المروءة لا تستطاع # إذا لم يكن مالها فاضلا

و قال يزيد بن حجيّة، حين بلغه إن زياد بن خصفة تبعه و لم يلحق به:

أبلغ زيادا أنني قد كفيته # أموري و خليت الذي هو غالبه

و باب شديد داؤه قد فتحته # عليك و قد أعيت عليك مذاهبه

هبلت فما ترجو غنائي و مشهدي # إذا كان يوم لا توارى كواكبه

و قال آخر:

و منطق خرّق بالعواسل.

قال: تجردت الحضرمية لزوجها ثم قالت: هل ترى في خلق الرحمن من تفاوت؟قال: أرى فطورا.

و قال آخر: راودت امرأة شيخا و استهدفت له: و أبطأ عليه الانتشار فلامته، فقال لها: إنك تفتحين بيتا و أنا أنشر ميتا.

علي بن محمد، عن عمر بن مجاشع، أن عمر كتب إلى أبي موسى الأشعري: «أما بعد، فإن للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ باللّه أن تدركني و إياك عمياء مجهولة، و ضغائن محمولة، و أهواء متبعة، و دنيا مؤثرة. فأقم الحدود و لو ساعة من نهار، و إذا عرض لك أمران أحدهما للّه و الآخر للدنيا، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا، فإن الدنيا تنفد، و الآخرة تبقى. و كن من خشية اللّه على وجل، و أخف الفساق و اجعلهم يدا يدا، و رجلا رجلا. و إذا كانت بين القبائل نائرة (1) و تداعوا: يال فلان يال فلان، فإنما تلك نجوى الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر اللّه، و تكون دعواهم إلى اللّه و إلى الإمام. و قد بلغ أمير المؤمنين أن ضبّة تدعو:

يال ضبة!و إني و اللّه، أعلم أن ضبة ما ساق اللّه بها خيرا قط، و لا منع بها من سوء قط، فإذا جاءك كتابي هذا فأنهكهم عقوبة حتى يفرقوا إن لم يفقهوا. و ألصق بغيلان بن خرشة من بينهم، و عد مرضى المسلمين، و أشهد جنائزهم، و افتح بابك، و باشر أمرهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم، غير أن اللّه جعلك أثقلهم حملا. و قد بلغ أمير المؤمنين أنه قد فشا لك و لأهل بيتك في لباسك و مطعمك و مركبك، ليس للمسلمين مثلها. فإياك يا عبد اللّه أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب، فلم يكن لها همة إلا السمن، و إنما حتفها في السمن.

و اعلم أن للعامل مردا إلى اللّه، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته، و إن أشقى الناس من شقيت به رعيته و السلام» .

عوانة، قال: قدم علينا أعرابي من كلب، و كان يحدثنا الحديث فلا يكاد يقطعه، فقال له رجل: أ ما لحديثك هذا آخر؟قال: إذا عجز وصلناه.

(1) النائرة: العداوة و الشحناء و الفتنة.

قال: قال معاوية ليونس بن سعيد الثقفي: اتق أن أطير بك طيرة بطيئا وقوعها. قال: أ ليس لي و لك المرجع بعد إلى اللّه؟قال: بلى، فاستغفر اللّه.

رقبة بن مصقلة قال: ما سمعت عمر بن ذر يتكلم إلا ذكرت النفخ في الصور، و لا سمعت أحدا يحكيه إلا تمنيت أن يجلد ثمانين.

و قال: و تكلم عمر بن ذر فصاح بعض الزفانين (1) صيحة، فلطمه رجل فقال عمر بن ذر: ما رأيت ظلما قط أوفق لي من هذا.

قال: و قال طاوس: كنت عند محمد بن يوسف، فأبلغه رجل عن بعض أعدائه كلاما، فقال رجل من القوم: سبحان اللّه!فقال طاوس: ما ظننت أن قول سبحان اللّه معصية للّه حتى كان اليوم. كأنه عنده إنما سبّح ليظهر استعظام الذي كان من الرجل، ليوقع به.

و قال الراجز:

لو كان غاداك البطيء المسهم # إذا بدا منك الذي لا يكتم

وجه قبيح و لسان أبكم # و مشفر لا يتوارى أضجم

و قال آخر:

يقعّر القول لكيما تحسبه # من الرجال الفصحاء المعربة

و هو، إذا نسبته، من كربه # من نخلة نابتة في خربه

قالت امرأة الحطيئة للحطيئة، حين تحوّل عن بني رياح إلى بني كليب:

«بئس ما استبدلت من بني رياح بعر الكبش» ، لأنهم متفرقون، و كذلك بعر الكبش يقع متفرقا.

(1) الزفانون: الذين يرقصون.

علي بن محمد، عن مسلمة بن محارب، عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه قال: بعثني و عمران بن حصين عثمان بن حنيف إلى عائشة فقال: يا أم المؤمنين، أخبرينا عن مسيرك، أ هذا عهد عهده إليك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أم رأي رأيته؟قالت: «بلى رأي رأيته حين قتل عثمان، إنّا نقمنا عليه ضربة السوط، و موقع السحابة المحماة، و أمرة سعيد الوليد، فعدوتم عليه فاستحللتم منه الحرم الثلاث: حرمة البلد، و حرمة الخلافة، و حرمة الشهر الحرام، بعد أن مصناه كما يماص (1) الاناء فاستنقى، فركبتم هذه منه ظالمين، فغضبنا لكم من سوط عثمان، و لا نغضب لعثمان من سيفكم؟» .

قلت: و ما أنت و سيفنا و سوط عثمان، و أنت حبيس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أمرك أن تقرّي في بيتك فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض. قالت: و هل أحد يقاتلني أو يقول غير هذا؟قلنا: نعم. قالت: و من يفعل ذلك أ زنيم (2) بني عامر؟ثم قالت: هل أنت مبلغ عني يا عمران؟قال: لا، لست مبلغ عنك خيرا و لا شرا. فقلت: لكني مبلغ عنك فهاتي ما شئت. فقالت: اللهم اقتل مذمّما قصاصا بعثمان-تعني محمد بن أبي بكر-و أرم الأشتر بسهم من سهامك لا يشوى، و أدرك عمارا بخفرته في عثمان.

حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا هشام بن حسان، عن الحسن، أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان، فأصاب مغنما، فكتب إليه زياد:

«إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرني أن أصطفي له كلّ صفراء و بيضاء، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما كان من ذهب و فضة فلا تقسمه و اقسم ما سوى ذلك» . فكتب إليه الحكم: «إني وجدت كتاب اللّه قبل كتاب أمير المؤمنين و و اللّه لو أن السموات و الأرض كانتا رتقا على عبد فاتقى اللّه لجعل اللّه له منها مخرجا. و السلام» . ثم أمر المنادي فنادى في الناس: أن أغدوا على غنائمكم. فغدوا فقسمها بينهم.

قال: و قال خالد بن صفوان: «ما رأينا أرضا مثل الأبلّة أقرب مسافة، و لا أطيب نطفة، و لا أوطأ مطية، و لا أربح لتاجر، و لا أخفى لعابد» .

---

(1) ماص الاناء: غسله.
(2) الزنيم: الدعي في النسب.

قال الكسائي: لقيت أعرابيا فجعلت أسأله عن الحرف بعد الحرف، و الشيء بعد الشيء أقرنه بغيره، فقال: تاللّه ما رأيت رجلا أقدر على كلمة إلى جنب كلمة أشبه شيء بها و أبعد شيء منها منك.

و وصف أعرابي رجلا فقال: ذاك و اللّه ممن ينفع سلمه، و يتواصف حلمه، و لا يستمرأ ظلمه.

و قال آخر لخصمه: لئن هملجت إلى الباطل إنك لقطوف (1) إلى الحق.

قال: و رأى رقبة بن مصقلة العبدي جارية عند العطار، فقال له: ما تصنع هذه عندك؟ قال: أكيل لها حناء. قال: أظنك و اللّه تكيل لها كيلا لا يأجرك اللّه عليه.

محمد بن سعيد!عن إبراهيم بن حويطب، قال: قال عمرو بن العاص لعبد اللّه بن عباس: إن هذا الأمر الذي نحن و أنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء، و قد بلغ الأمر بنا و بكم ما ترى، و ما أبقت لنا هذه الحرب حياء و لا صبرا، و لسنا نقول ليت الحرب عادت، و لكنا نقول ليتها لم تكن كانت. فانظر فيما بقي بغير ما مضى، فإنك رأس هذا الأمر بعد عليّ، و إنما هو أمير مطاع، و مأمور مطيع، و مشاور مأمون، و أنت هو.

و قال عيسى بن طلحة، لعروة بن الزبير حين ابتلي في رجله فقطعها: يا أبا عبد اللّه، ذهب أهونك علينا، و بقي أكثرك لنا.

و قالت عائشة: لا سمر إلا لثلاثة: لمسافر، أو مصلّ، أو عروس.

قال أبو الحسن: خطب الحجاج يوم جمعة فأطال الخطبة، فقال رجل:

«إن الوقت لا ينتظرك، و إن الرب لا يعذرك» ، فحبسه، فأتاه أهل الرجل و كلموه فيه و قالوا: إنه مجنون. قال: إن أقرّ بالجنون خليت سبيله. فقيل له: أقر بالجنون. قال: لا و اللّه، لا أزعم أنه ابتلاني و قد عافاني.

---

(1) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة. القطاف، تقارب الخطو في بطء.

قالت أم هشام السلولية: ما ذكر الناس مذكورا خيرا من الإبل: أحناه على أحد بخير، إن حملت أثقلت، و إن مشت أبعدت، و إن نحرت أشبعت، و إن حلبت أروت.

حدثني سليمان بن أحمد الخرشني، قال: حدثني عبد اللّه بن محمد بن حبيب، قال: طلب زياد رجلا كان في الامان الذي سأله الحسن بن علي لأصحابه، فكتب فيه الحسن إلى زياد: «من الحسن بن علي إلى زياد. أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا، و قد ذكر لي فلان إنك عرضت له، فأحب أن لا تعرض له إلا بخير» . فلما أتاه الكتاب و لم ينسبه الحسن إلى أبي سفيان غضب فكتب: «من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن. أما بعد فقد اتاني كتابك في فاسق يؤويه الفساق من شيعتك و شيعة أبيك، و أيم اللّه لاطلبنّهم و لو بين جلدك و لحمك، و إن أحبّ الناس إلي لحما أن آكله للحم أنت منه» . فلما وصل الكتاب إلى الحسن وجه به إلى معاوية، فلما قرأه معاوية غضب و كتب:

«من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان. أما بعد فإن لك رأيين:

رأيا من أبي سفيان و رأيا من سمية. فأما رأيك من أبي سفيان فحلم و حزم، و أما رأيك من سمية فكما يكون رأي مثلها. و قد كتب إلى الحسن بن علي إنك عرضت لصاحبه، فلا تعرضن له، فإني لم أجعل لك إليه سبيلا، و إن الحسن ابن علي ممن لا يرمى له الرجوان و العجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه.

أ فإلى أمه وكلته، و هو ابن فاطمة بنت محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟فالآن حين اخترت له. و السلام» .

و قدم مصعب بن الزبير العراق فصعد المنبر ثم قال:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. **طسم. تِلْكَ آيَاتُ اَلْكِتَابِ اَلْمُبِينِ. نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي اَلْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ اَلْمُفْسِدِينَ** . و أشار بيده نحو الشام. **وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى اَلَّذِينَ**

اُسْتُضْعِفُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ اَلْوَارِثِينَ . و أشار نحو الحجاز.

وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي اَلْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . و أشار بيده نحو العراق.

قال: كتب محمد بن كعب: «القرظي» ، فقيل له: و الأنصاري؟ فقال: أكره أن أمنّ على اللّه بما لم أفعل.

المدائني قال: قام عمرو بن العاص بالموسم، فأطرى معاوية، و بني أمية، و تناول بني هاشم، ثم ذكر مشاهده بصفين، فقال له ابن عباس: يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك، و مناك ما في يد غيره، فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، و كان الذي أخذت منه دون ما أعطيته، و كلّ راض بما أخذ و أعطى، فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل و التنقص، حتى لو أن نفسك فيها القيتها إليه، و ذكرت مشاهدك بصفين فما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، و لا نكتنا فيها حربك. و إن كنت فيها لطويل اللسان، قصير السنان. آخر الحرب إذا اقبلت، و أولها إذا أدبرت. لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير، و يد لا تقبضها عن شر. و وجهان: وجه مؤنس، و وجه موحش. و لعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري أن يطول حزنه على ما باع و اشترى. لك بيان و فيك خطل، و لك رأي و فيك نكد، و لك قدر و فيك حسد. فأصغر عيب فيك أكبر عيب في غيرك.

فقال عمرو: أما و اللّه ما في قريش أحد أثقل وطأة عليّ منك، و لا لأحد من قريش عندي مثل قدرك.

قال: و رأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلا يشتم رجلا، و آخر يستمع له فقال للمستمع: نزّه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه لسانك عن الكلام

به، فإن السامع شريك القائل، و إنما نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، و لو ردّت كلمة جاهل في فيه لسعد رادها، كما شقي قائلها.

عوانة قال: اختصم إلى زياد رجلان في حق كان لأحدهما على الآخر، فقال المدّعى عليه: أيها الأمير، إنه ليسطو عليّ بخاصة ذكر أنها له منك.

فقال زياد: صدق، و سأخبرك بمنفعتها له: أن يكن الحق له عليك أخذتك به، و إن يكن لك عليه حكمت عليه ثم قضيت عنه.

قال: و لما توفي أبو بكر الصديق رحمه اللّه، قامت عائشة على قبره فقالت: نضّر اللّه وجهك، و شكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلا بادبارك عنها، و للآخرة معزا بإقبالك عليها. و إن كان لأجل الأرزاء بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رزؤك، و لأكبر المصائب فقدك. و إن كتاب اللّه ليعيد بجميل العزاء عنك حسن العوض منك. فأنتجز من اللّه موعوده فيك بالصبر عنك، و استخلصه بالاستغفار لك.

و قامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس و هي على راحلة، فقالت: إنّا للّه و إنا إليه راجعون. رحمك اللّه أبا بحر من مجنّ في جنن، و مدرج في كفن، فو الذي ابتلانا بفقدك، و أبلغنا يوم موتك، لقد عشت حميدا، و مت فقيدا، و لقد كنت عظيم الحلم، فاضل السلم، رفيع العماد، واري الزناد، منيع الحريم، سليم الأديم، و إن كنت في المحافل لشريفا، و على الأرامل لعطوفا، و من الناس لقريبا، و فيهم لغريبا. و إن كنت لمسوّدا، و إلى لخلفاء لموفدا، و إن كانوا لقولك لمستمعين، و لرأيك لمتبعين. ثم انصرفت.

أبو الحسن قال: قال عمرو بن العاص: ما رأيت معاوية قط متكئا على يساره، واضعا احدى رجليه على الأخرى، كاسرا إحدى عينيه، يقول للذي يكلمه: يا هناه (1) ، أ لا رحمت الذي يكلمه.

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه كونوا أوعية الكتاب، و ينابيع العلم، و سلوا الله رزق يوم بيوم، و لا يضيركم ألا يكثر لكم.

و كتب معاوية إلى عائشة: أن أكتبي إليّ بشيء سمعته من أبي القاسم صلّى اللّه عليه و سلّم. فكتبت إليه: «سمعت أبا القاسم صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: من عمل بما يسخط اللّه عاد حامده من الناس له ذاما» .

أوصى بعض العلماء ابنه فقال: أوصيك بتقوى اللّه، و ليسعك بيتك.

و املك عليك لسانك، و ابك على خطيئتك.

بكر بن أبي بكر القرشي قال: قال أعرابي: ما غبنت قط حتى يغبن قومي. قيل: و كيف؟ قال: لا أفعل شيئا حتى أشاورهم.

قيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم!قال: نحن ألف رجل، و فينا حازم و نحن نطيعه، فكأنا ألف حازم.

قال أبو الحسن: أول من أجرى في البحر السفن المقيّرة المسمّرة، غير المخرّزة المدهونة، و غير ذات الجآجيء (2) ، و كان أول من عمل المحامل، الحجاج. و قال بعض رياز الأكرياء (3) :

أوّل عبد عمل المحاملا # أخزاه ربي عاجلا و آجلا

---

(1) يا هناه: يا رجل.
(2) جؤجؤ: صدر.
(3) الأكرياء: من يؤجرون دوابهم.

و قال آخر:

شيّب أصداغي فهن بيض # محامل لقدها نقيض

قال الأصمعي: سمعت أعرابيا يقول: لو تنخّل (1) رجل أخا شقيقا لم يأمل أن يبدو منه ما يبدو من الثوب ذي الحرق، فرحم اللّه رجلا أغضى على الأقذاء و استمتع بالظاهر.

قال الأصمعي: سمعت أعرابيا يقول: من ولّد الخير نتج له فراخا تطير بالسرور و من ولّد الشر انبت له نباتا مرا مذاقه، قضبانه الغيظ، و ثمره الندم.

و أنشد النضر بن شميل:

يحبّ بقائي المشفقون و مدني # إلى أجل، لو يعلمون، قريب

و ما أربي في أرذل العمر بعد ما # لبست شبابي قبله و مشيبي

و أنشد ابن الأعرابي:

يا ابن الزبير جزاك اللّه لائمة # هلا انتهيتم و في الأقوال تعتيب (2)

تنزو لتدرك من كعب غطارفة # هلا تستوي بسرة العرجون و الطيب (3)

كما ترى فرخ عش لا حراك به # و فوقه من نسال الريش تزغيب

ما فيكم قد علمنا من محافظة # يوم الحفاظ و لا خيّر لمنكوب

و أنتم تحت أوراق البيوت إذا # هبت شآمية درن طحاريب

أنتم مناخ الخنى قبحا لخلتكم # فكلكم يا بني البلقاء مقشوب

في ذمتي أن تضجوا من مصادمتي # كما تضجّ من الحر الجناديب

ما بين أدبس نتاج له ذفر # و مقصد القلب ذي ستين معصوب

خالي سماعة فاعلم، لا خفاء به # لقد هوى بك ياوتين شنخوب

صعب مناكبه تهوى الكماة به # خوفا و تصطادهم منه كلاليب

---

(1) التنخل: الاختيار.

(2) التعتيب: الابطاء.

(3) النزو: الوثب. الغطريف: الشريف السخي.

و أنشد ابن المعذّل:

تواعد للبين الخليط لينبتوا # و قالوا لراعي الظهر موعدك السبت

ففاجأني بغتا و لم أخش بينهم # و افظع شيء حين يفجؤك البغت

مضى لسليمى منذ ما لم ألاقها # سنون توالت بيننا خمس أو ست

و في النفس حاجات اليكم كثيرة # بربانها في الحي لو أخر الوقت

تأيمت حتى لامني كل صاحب # رجاء لسلمى أن تئيم كما إمت

لئن بعت حظي منك يوما بغيره # لبئس إذا يوم التغابن ما بعت

تمنى رجال أن أموت و عهدهم # بأن يتمنوا لو حييت إذا مت

و قد علموا عند الحقائق إنني # أخو ثقة ما إن ونيت و لا أنت

و أنى قد سيرت نبلي و إنني # كأني و قد وقعت أنصالها رشت

و قال أحمد بن المعذل: انشدني أعرابي من طيء:

و لست بميال إلى جانب الغنى # إذا كانت العلياء في جانب الفقر

و إني لصبّار على ما ينوبني # و حسبك إن اللّه أثنى على الصبر

خطبة الحجاجي الكوفة

حدثنا محمد بن يحيى بن علي بن عبد الحميد، عن عبد اللّه بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال:

خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها، في اثني عشر راكبا على النجائب، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، و قد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر و هو متلثم بغمامة خز حمراء، فقال: علي بالناس! فحسبوه و أصحابه خوارج، فهموا به، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال:

أنا ابن جلا و طلاع الثنايا # متى اضع العمامة تعرفوني

أما و اللّه إني لأحتمل الشرّ بحمله، و احذوه بفعله، و أجزيه بنعله، و إني

لأرى رءوسا قد أينعت و حان قطافها، و إني لصاحبها، و إني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم و اللحى.

قد شمّرت عن ساقها فشمرا

ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم # قد لفها الليل بسوّاق حطم

ليس براعي ابل و لا غنم # و لا بجزّار على ظهر وضم

و قال أيضا:

قد لفها الليل بعصلبيّ # أروع خرّاج من الدويّ

مهاجر ليس بأعرابي

إني و اللّه يا أهل العراق، و الشقاق و النفاق، و مساوي الأخلاق، ما أغمز تغماز التين، و لا يقعقع لي بالشنان (1) ، و لقد فررت عن ذكاء (2) و فتشت عن تجربة، و جريت من الغاية. إن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها، فوجدني أمرّها عودا، و أصلبها عمودا، فوجهني إليكم، فإنكم طالما أوضعتم (3) في الفتن، و اضطجعتم في مراقد الضلال، و سننتم سنن الغيّ. أما و اللّه لألحونكم لحو العصا، و لأعصبنكم عصب السلمة (4) ، و لأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون. إني و اللّه لا اعد إلا وفيت، و لا أهمّ إلا أمضيت، و لا أخلق إلا فريت. فإياي و هذه الجماعات و قال و قيل، و ما تقولون؟و فيم انتم و ذاك؟

---

(1) الشنان: القرب البالية، و كانوا يستحثون بها الابل على السير.
(2) فر: كشف عن أسنانه ليعرف عمره. الذكاء: نهاية الشباب.
(3) الايضاع: السير بين القوم.
(4) السامة: شجر ذو شوك يدبغ بورقه.

أما و اللّه لتستقيمنّ على طريق الحق أو لأدعنّ لكل رجل منكم شغلا في جسده. من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه، و انتهبت ماله.

ثم دخل منزله.

رسالة الحجاج إلي قطري بن الفجاءة و جوابها

أبو الحسن قال: كتب الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة:

«سلام عليك. أما بعد فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرميّة، و قد علمت حيث تجرثمت (1) ، ذاك إنك عاص للّه و لولاة أمره، غير إنك أعرابي جلف أميّ، تستطعم الكسرة و تستشفي بالتّمرة، و الأمور عليك حسرة، خرجت لتنال شبعة فلحق بك طعام صلوا بمثل ما صليت به من العيش، فهم يهزّون الرماح، و يستنشئون الرياح، على خوف و جهد من أمورهم. و ما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم اللّه بترحتين. و السلام» .

فأجابه قطريّ:

«من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف. سلام على الهداة من الولاة، الذين يرعون حريم اللّه و يرهبون نقمه. فالحمد للّه على ما أظهر من دينه، و أظلع (2) به أهل السّفال، و هدى به من الضّلال، و نصر به، عند استخفافك بحقه. كتبت إلي تذكر إني أعرابي جلف أمي، استطعم الكسرة و استشفي بالتمرة. و لعمري يا ابن أم الحجاج إنك لمتيه في جبلتك (3) ، مطلخم في طريقتك (4) ، واه في وثيقتك، لا تعرف اللّه و لا تجزع من خطيئتك، يئست و استيأست من ربك، فالشيطان قرينك، لا تجاذبه وثاقك، و لا تنازعه خناقك. فالحمد للّه الذي لو شاء أبرز لي صفحتك، و أوضح لي صلعتك. فوالذي نفس قطري بيده، لعرفت أن مقارعة الأبطال، ليس كتصدير

---

(1) تجرثم: سقط.
(2) أظلع: غمز في مشيه.
(3) المتيه: المضلل. الجبلة: الطبيعة.
(4) المطلخم: المظلم.

المقال مع إني أرجو أن يدحض اللّه حجتك، و أن يمنحني مهجتك» .

أقوال و جوابات منتخبة

خالد بن يزيد الطائي، قال: كتب معاوية إلى عدي بن حاتم:

«حاجيتك ما لا ينسى» يعني قتل عثمان. فذهب عدي بالكتاب إلى علي فقال: «إن المرأة لا تنسى قاتل بكرها، و لا أبا عذرها» . فكتب إليه عدي:

«إن ذلك مني كليلة شيباء» .

و قال عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه: «يا غلام، ارفع ذلك النثيل» ، يعني روثا. و قيل له: أين خرج هذا الجبن؟قال: تحت منكبي.

و قيل لقتيبة: أين خرج بك هذا الخراج (1) قال: بين الرانفة و الصفن (2) .

قال: و قيل لرقبة: ما بال القراء أشد الناس نهمة و غلمة؟قال: أما الغلمة فإنهم لا يزنون، و أما النهمة فلأنهم يصومون.

و عرض عليه رجل الغداء، فقال: يا هذا، إن أقسمت علي، و إلا فدعني.

و قال مورّق العجلي: ما تكلمت بكلمة في الغضب اندم عليها في الرضا. و قد سألت اللّه حاجة منذ أربعين سنة فما أجابني و لا يئست منها: ألا أتكلم فيما لا يعنيني.

قال: مكتوب في حكمة داود: على العاقل أن يكون عالما بأهل زمانه، مالكا للسانه، مقبلا على شأنه.

قال: و لما قدم الفرزدق الشام قال له جرير-و كان هنالك-ما ظننت إنك تقدم بلدا أنا فيه! فقال الفرزدق: إني طالما خالفت رأي العجزة.

و قال يونس بن حبيب: إذا قالوا غلب الشاعر فهو الغالب، و إذا قالوا مغلّب المغلوب. و قال امرؤ القيس:

---

(1) الخراج: ما يخرج في البدن من القروح.
(2) الرانفة: أسفل الالية. الصفن: وعاء الخصية.

و إنك لم يفخر عليك كفاخر # ضعيف و لم يغلبك مثل مغلّب

و قال بعضهم:

إني امرؤ ينفع قومي مشهدي # أذبّ عنهم بلساني و يدي

و قال قتيبة بن مسلم: إذا غزوتم فأطيلوا الأظفار، و قصروا الشعور.

و قال: و نظر مخنث إلى شيخ قبيح الوجه في الطريق فقال له: أ لم ينهكم سليمان بن داود عن الخروج بالنهار؟ و قال: و عزى أعرابي ناسا فقال: يرحم اللّه فلانا، فلقد كان كثير الإهالة دسم الأشداق.

و قال الشاعر:

ترى ودك السديف على لحاهم # كلون الراء لبّده الصقيع

و قال أعرابي «رحم اللّه فلانا، إن كان لضخم الكاهل» . ثم جلس و سكت. و قال آخر: «كان و اللّه نقيّ الأظفار، قليل الأسرار» .

و قال صديق لنا: رأيت سكرانا و قد ركب ردعه، ثم أنه استقل فقال: أنا السّديف المسرهد (1) .

و سارّ رجل اعرابيا بحديث فقال له: أ فهمت؟قال: بل نسيت! قال وائلة بن خليفة السدوسي، يهجو عبد الملك بن المهلب:

لقد صبرت للذل أعواد منبر # تقوم عليها في يديك قضيب

بكى المنبر الغربي إذ قمت فوقه # و كادت مسامير الحديد تذوب

رأيتك لما شبت أدركك الذي # يصيب سراة الأزد حين تشيب

سفاهة أحلام و بخل بنائل # و فيك لمن عاب المزون عيوب

(1) السديف: لحم السنام. المسرهد: المقطع.

و قد أوحشت منكم رساتيق فارس # و بالمصر دور جمة و دروب

إذا عصبة ضجت من الخرج ناسبت # مزونية إن النسيب نسيب

و قال بشار الأعمى، في عمر بن حفص:

ما بال عينك دمعها مسكوب # حربت فأنت بنومها محروب

و كذاك من صحب الحوادث لم تزل # تأتي عليه سلامة و نكوب

يا أرض ويحك اكرميه فإنه # لم يبق للعتكيّ فيك ضريب

أبهى على خشب المنابر قائما # يوما و أحزم إذ تشبّ حروب

إن الرزية لا رزية مثلها # يوم ابن حفص في الدماء خضيب

لا يستجيب و لا يحير لسانه # و لقد يحير لسانه و يجيب

غلب العزاء على ابن حفص و الأسى # إن العزاء بمثله مغلوب

إذ قيل أصبح في المقابر ثاويا # عمر و شقّ لواؤه المنصوب

فظللت أندب سيف آل محمد # عمرا و عز هنالك المندوب

فعليك يا عمر السلام فإننا # باكوك ما هبت صبا و جنوب

قال اسماعيل بن غزوان: الأصوات الحسنة و العقول الحسان كثيرة، و البيان الجيد و الجمال البارع قليل.

و ذكر أبو الحارث، صاحب مسجد ابن رغبان، فقال: إن حدثته سبقك إلى ذلك الحديث، و إن سكتّ عنه أخذ في الترهّات.

و قال ابن وهب: أنا استثقل الكلام كما يستثقل حريث السكوت. كما قال ابن شبرمة لا ياس بن معاوية: شكلي و شكلك لا يتفقان، أنت لا تشتهي أن تسكت، و أنا لا أشتهي أن أسمع.

و قال أبو عقيل بن درست: إذا لم يكن المستمع أحرص على الاستماع من القائل على القول، لم يبلغ القائل في منطقة، و كان النقصان الداخل على قوله بقدر الخلة بالاستماع منه.

و قال ابن بشار البرقي: كان عندنا واحد يتكلم في البلاغة، فسمعته يقول: لو كنت ليس أنا، و أنا ابن من أنا منه، لكنت أنا أنا و أنا ابن من أنا منه فكيف و أنا أنا و ابن من أنا منه.

و قالوا: ثلاث يسرع إليهن الخلف: الحريق، و التزويج، و الحج.

و قال المهلب: «ليس أنمى من بقية السيف» . فوجد الناس تصديق قوله فيما نال ولده من السيف و صار فيهم من النماء.

و قال علي بن أبي طالب رحمه اللّه: «بقية السيف أنمى عددا، و أكرم ولدا» . و وجد الناس ذلك بالعيان، للذي صار إليه ولده من نهك السيف، و كثرة الذرء، و كرم النجل.

قال اللّه عزّ و جل: **وَ لَكُمْ فِي اَلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي اَلْأَلْبَابِ** و قال بعض لحكماء: «قتل البعض أحياء للجميع» .

و قال همّام الرقاشي:

أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة # و في العتاب حياة بين أقوام

قدّمت قبلي رجالا لم يكن لهم # في الحق أن يلجوا الأبواب قدامي

لو عدّ قبر و قبر كنت أكرمهم # قبرا و أبعدهم من منزل الذام

فقد جعلت إذا ما حاجة عرضت # بباب قصرك أدلوها بأقوام

و قال الحجاج لامرأة من الخوارج: «و اللّه لأعدنكم عدا، و لأحصدنكم حصدا» . قالت: أنت تحصد، و اللّه يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق.

و لم يظهر من عدد القتلى مثل الذي ظهر في آل أبي طالب، و آل الزبير، و آل المهلب. و قال الشاعر في آل الزبير:

آل الزبير بنو حرّة # مروا بالسيوف صدورا حناقا

يموتون او القتل من دأبهم # و يغشون يوم السباق السباقا

إذا فرّج القتل عن عيصهم # أبى ذلك العيص إلا اتفاقا

قال: احترقت دار ثمامة، فقالوا له: ما أسرع خلف الحريق؟قال:

فأنا استحرق اللّه.

قال ثمامة: سمعت قاصّا بعبادان يقول في دعائه: اللهم ارزقنا الشهادة و جميع المسلمين.

قال: و تساقط الذبّان على وجهه فقال: اللّه أكبر، كثّر اللّه بكم القبور.

قال: و سمع أعرابي رجلا يقرأ سورة براءة فقال: ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن. قيل له: و لم؟قال: رأيت عهودا تنبذ.

و قال عبد العزيز الغزّال القاصّ، في قصصه: ليت اللّه لم يكن خلقني و أنا الساعة أعور. فحكيت ذلك لأبي عتّاب الجرّار. فقال أبو عتاب: بئس ما قال، وددت و اللّه الذي لا إله إلا هو إن اللّه لم يكن خلقني و إني الساعة أعمى مقطوع اليدين و الرجلين.

قال: و لما استعدي الزبرقان على الحطيئة فأمر عمر بقطع لسانه، قال الزبرقان: نشدتك اللّه يا أمير المؤمنين أن تقطعه، فإن كنت لا بد فاعلا فلا تقطعه في بيت الزبرقان. فقيل له: إنه لم يذهب هنالك، إنما أراد أن يقطع لسانه عنك برغبة أو رهبة.

و تقول العرب: «قتلت أرض جاهلها، و قتل أرضا عالمها» .. و تقول:

«ذبحني العطش» ، و «المسك الذبيح» ، و «ركب بنو فلان الفلاة فقطع لعطش أعناقهم» .

و تقول: فلان لسان القوم و نابهم الذي يفتون عنه. و هؤلاء أنف القوم خراطيمهم. و بيسان لسان الأرض يوم القيامة. و فلان اصطمة الوادي و عين البلد.

و قال الأصمعي: قال رجل لأبي عمرو بن العلاء: أكرمك اللّه!قال:

محدثة. قال: و كان ابن عون يقول: كيف أنت أصلحك اللّه.

و كان الأصمعي يقول: قولهم جعلت فداك، و جعلني اللّه فداك، محدث و قد روى علماء البصريين أن الحسن لما سمع صراخا في جنازة أم عبد الأعلى ابن عبد اللّه بن عامر فالتفت، قال له عبد الأعلى: جعلت فداك، لا و اللّه ما أمرت، و لا شعرت.

و قال الأصمعي: صلّى أعرابي فأطال الصلاة، و إلى جانبه ناس، فقالوا:

ما أحسن صلاته!فقال: و أنا مع هذا صائم.

قال الشاعر:

صلّى فأعجبني و صام فرابني # عدّ القلوص عن المصلي الصائم

و قال طاهر بن الحسين لأبي عبد اللّه المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد اللّه؟قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة و أنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة. قال: يا أبا عبد اللّه، سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين.

قال عوانة: قال زياد بن أبيه: من سعادة الرجل أن يطول عمره، و يرى في عدوه ما يسره.

و قال الباهلي: قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟قال: لأنا نقول و أكبادنا تحترق.

قال أبو الحسن: كانت بنو أميّة لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي. قيل: و لم ذاك؟قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق.

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: من خير صناعات العرب الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستنزل بها الكريم، و يستعطف بها اللئيم.

و قال شعبة: كان سماك بن حرب (1) إذا كانت له إلى الوالي حاجة قال فيه أبياتا ثم يسأله حاجته.

قال أبو الحسن: كان شظاظ لصا، فأغار على قوم من العرب فأطرد نعمهم فساقها ليلته حتى أصبح، فقال رجل من اصحابه: لقد أصبحنا على فصد من طريقنا. فقال: «إن المحسن معان» .

و قال أبو الحسن: أربى غلام من بني علي، على عبد الملك، و عبد الملك يومئذ غلام، فقال له كهل من كهولهم لما رآه ممسكا عن جواب المربي عليه: لو شكوته إلى عمه انتقم لك منه. قال: أمسك يا كهل، فإني لا أعد انتقام غيري انتقاما.

قال أبو الحسن: خاض جلساء عبد الملك يوما في قتل عثمان، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين، في أي سنيك كنت يومئذ؟قال: كنت دون المحتلم، قال: فما بلغ من حزنك عليه؟قال: شغلني الغضب له عن الحزن عليه.

و كان عمر بن الخطاب، رحمه اللّه، إذا اشترى رقيقا قال: اللهم ارزقني أنصحهم جيبا (2) ، و أطولهم عمرا.

و كان إذا استعمل رجلا قال: إن العمل كبر، فانظر كيف تخرج منه.

قال: و مضى ابو عبد اللّه الكرخي إلى الرّبض، فجلس على بابه و نفش لحيته و ادعى الفقه، فوقف عليه رجل فقال له: إني أدخلت اصبعي في أنفي فخرج عليها دم. قال: احتجم. قال: جلست طبيبا أو فقيها؟! قالوا: بينا الشعبي جالس في مجلسه و أصحابه يناظرونه في الفقه، إذا شيخ بقربه قد أقبل عليه بعد أن طال جلوسه، فقال له: إني أجد في قفاي

---

(1) هو سماك بن حرب بن أوس الذهلي البكري الكوفي. شاعر و عالم بالشعر و أيام الناس مات سنة 123 هـ.
(2) ناصح الجيب: نقي القلب، لا غش فيه.

حكة افترى لي أن أحتجم؟قال الشعبي: الحمد للّه الذي حولنا من الفقه إلى الحجامة.

قال: و ذكر ناس رجلا بكثرة الصوم و طول الصلاة و شدة الاجتهاد، فقال أعرابي كان شاهدا لكلامهم: بئس الرجل هذا، يظن أن اللّه لا يرحمه حتى يعذب نفسه هذا التعذيب.

و قال ابن عون: أدركت ثلاثة يتشددون في السماع، و ثلاثة يتساهلون في المعاني. فأما الذين يتساهلون فالحسن، و الشعبي، و النخعي، و أما الذين يتشددون فمحمد بن سيرين (1) ، و القاسم بن محمد (2) ، و رجاء بن حيوة.

قال رجل من أصحاب ابن لهيعة: ما رأيت أحقن أدبا من عبد اللّه بن المبارك، و المعافى بن عمران (3) .

و قال ابو الحسن: حدثني عبد الأعلى قال: رأيت الطرمّاح مؤدبا بالري فلم أر أحدا آخذ لعقول الرجال، و لا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه، و لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده و كأنهم قد جالسوا العلماء.

قال: كان رجل يبلغه كلام الحسن البصري، فبينا الرجل يطوف بالبيت إذ سمع رجلا يقول: «عجبا لقوم أمروا بالزاد و نودي فيهم بالرحيل، و حبس أولهم على آخرهم، فليت شعري ما الذي ينتظرون» . قال: فقلت في نفسي:

هذا الحسن.

قال: و أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار، و علماءهم بالأنساب و الأخبار: مخرمة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، و أبو الجهم بن حذيفة

---

(1) محمد بن سيرين الأنصاري البصري، مولى انس بن مالك راوية ثقة ورع، مات سنة 110 هـ.
(2) القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق، أحد الفقهاء السبعة في المدينة، مات سنة 107 هـ.
(3) المعافى بن عمران الأزدي، زاهد فاضل عالم توفي سنة 204 هـ.

ابن غانم بن عامر بن عبد اللّه بن عوف، و حويطب بن عبد العزّى، و عقيل بن أبي طالب. و كان عقيل أكثرهم ذكرا لمثالب الناس، فعادوه لذلك، و قالوا فيه و حمّقوه. و سمعت ذلك العامة منهم، فلا تزال تسمع الرجل يقول: قد سمعت الرجل يحمقه. حتى ألف بعض الأعداء فيه الأحاديث. فمنها قولهم: ثلاثة حمقى كانوا أخوة ثلاثة عقلاء، و الأم واحدة: علي و عقيل و أمهما فاطمة بنت أسد بن هاشم، و عتبة و معاوية ابنا أبي سفيان و أمهما هند بنت عتبة بن ربيعة، و عبد الملك و معاوية ابنا مروان و أمهما عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص. فكيف و جعدة بن هبيرة يقول:

أبي من بني مخزوم إن كنت سائلا # و من هاشم أمي، لخير قبيل

فمن ذا الذي يبأى علي بخاله # و خالي عليّ ذو الندى و عقيل

و قال قدامة بن موسى بن قدامة بن مظعون:

و خالي بغاة الخير تعلم أنه # جدير بقول الحقّ لا يتوعر

و جدي عليّ ذو التقى و ابن أمه # عقيل و خالي ذو الجناحين جعفر

فنحن ولاة الخير في كل موطن # إذا ما ونى عنه رجال و قصروا

و قال حسان بن ثابت:

إن خالي خطيب جابية الجو # لان عند النعمان حين يقوم

و هو الصقر عند باب ابن سلمى # يوم نعمان في الكبول مقيم

وسطت نسبتي الذوائب منهم # كل دار فيها أب لي عظيم

و أبي في سميحة [1] القائل الفا # صل يوم التفت عليه الخصوم

يفصل القول بالبيان و ذو الرأ # ي من القوم ظالع مكعوم [2]

تلك أفعاله و فعل الزبعرى [3] # خامل في صديقه مذموم

---

(1) سميحة: بئر بالمدينة.

(2) المكعوم: الذي شد فوه بالكعام.

(3) الزبعرى: والد عبد اللّه بن الزبعري.

رب حلم أضاعه عدم الما # ل و جهل غطى عليه النعيم

و لي البأس منكم إذ أبيتم # أسرة من بني قصيّ صميم

و قريش تجول منا لواذا # أن يقيموا و خف منها الحلوم

لم تطق حمله العواتق منهم # إنما يحمل اللواء النجوم

و كان عقيل رجلا قد كف بصره، و له بعد لسانه و أدبه و نسبه و جوابه، فلما فضل نظراءه من العلماء بهذه الخصال، صار لسانه بها أطول. و غاضب عليا و أقام بالشام، و كان ذلك أيضا مما أطلق لسان الباغي و الحاسد فيه. و زعموا أنه قال له معاوية: هذا أبو يزيد، لو لا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام عندنا و تركه. فقال له عقيل: «أخي خير لي في ديني، و أنت خير لي في دنياي» .

و قال له مرة بصفين: أنت معنا يا أبا يزيد الليلة. قال: و يوم بدر قد كنت معكم.

و قال معاوية يوما: يا أهل الشام، هل سمعتم قول اللّه تبارك و تعالى في كتابه: **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ** ؟قالوا نعم. قال: فإن أبا لهب عمه.

فقال عقيل: فهل سمعتم قول اللّه جل و عز: **وَ اِمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ اَلْحَطَبِ** قالوا: نعم. قال: فإنها عمته. قال معاوية: حسبنا ما لقينا من أخيك.

و ذكروا أن امرأة عقيل، و هي فاطمة ابنة عتبة بن ربيعة قالت: يا بني لا يحبكم قلبي ابدا!أين أبي، أين عمي، أين أخي، كأن أعناقهم أباريق الفضة، ترد آنفهم قبل شفاههم. قال لها عقيل: إذا دخلت جهنم فخذي على شمالك.

و قيل لعمر رحمه اللّه: فلان لا يعرف الشر. قال: ذلك أجدر أن يقع فيه.

قال: و سمع أعرابي رجلا يقرأ: **وَ حَمَلْنَاهُ عَلى ذَاتِ اَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ: `تَجْرِي**

بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، قال بفتح الكاف، فقال الأعرابي: لا يكون.

فقرأها عليه بضم الكاف و كسر الفاء، فقال الأعرابي: يكون.

قال الشاعر:

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقني # و كلّ حجازيّ له البرق شائق

سرى مثل نبض العرق و الليل دونه # و أعلام أبلى كلها و الأسالق [1]

و قال آخر:

أرقت لبرق آخر الليل يلمع # سرى دائبا حينا يهبّ و يهجع

سرى كاحتساء الطير و الليل ضارب # بأرواقة و الصبح قد كاد يسطع

حدثني ابراهيم بن السّندي عن أبيه قال: دخل شاب من بني هاشم على المنصور، فسأله عن وفاة ابيه فقال: مرض أبي رضي اللّه عنه يوم كذا، و مات رضي اللّه عنه يوم كذا، و ترك رضي اللّه عنه من المال كذا، و من الولد كذا:

فانتهره الربيع [2] و قال: بين يدي أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك؟فقال الشاب: لا ألومك، لأنك لم تعرف حلاوة الآباء. قال: فما علمنا أن المنصور ضحك في مجلسه ضحكا قط، فافترّ عن نواجذه إلا يومئذ.

و حدثني إبراهيم بن السندي عن أبيه قال: دخل شاب من بني هاشم على المنصور، فاستجلسه ذات يوم و دعا بغدائه، فقال للفتى: ادنه. قال الفتى: قد تغديت يا أمير المؤمنين. فكف عنه الربيع حتى ظننا أنه لم يفطن لخطابه، فلما نهض إلى الخروج أمهله، فلما كان من وراء الستر دفع في قفاه، فلما رأى ذلك الحجاب منه دفعوا في قفاه حتى أخرجوه من الدار، فدخل رجال من عمومة الفتى فشكوا الربيع إلى المنصور، فقال المنصور: إن

---

(1) أبلى: جبال بين مكة و المدينة. الأسالق جمع سلق القاع المستوي لا شجر فيه.

(2) هو ابو الفضل الربيع بن يونس بن محمد بن ابي فروة كيسان حاجب المنصور ثم المهدي، و ابنه الفضل حجب هارون الرشيد و حفيده العباس بن الفضل حجب الأمين.

و كان ابن عباس المتوف يطعن في نسبه.

الربيع لا يقدم على مثل هذا إلا و في يديه حجة، فإن شئتم أغضيتم على ما فيها، و إن شئتم سألته و أنتم تسمعون. قالوا: فسله. فدعا الربيع و قصوا قصته، فقال الربيع: هذا الفتى كان يسلم من بعيد و ينصرف، فاستدناه أمير المؤمنين حتى سلم عليه من قريب ثم أمره بالجلوس، ثم تبذل بين يديه و أكل، ثم دعاه إلى طعامه ليأكل معه من مائدته، فبلغ من جهله بفضيلة المرتبة التي صيره فيها أن قال حين دعاه إلى غدائه: قد تغديت!فإذا ليس عنده لمن تغدى مع أمير المؤمنين إلا سد خلّة الجوع، و مثل هذا لا يقومه القول دون الفعل.

و حدثنا ابراهيم بن السندي عن ابيه قال: و اللّه إني لواقف على رأس الرشيد، و الفضل بن الربيع واقف في الجانب الآخر و الحسن اللؤلؤي (1) يحدثه و يسائله عن أمور، و كان آخر ما سأله عن بيع أمهات الأولاد، فلو لا إني ذكرت أن سلطان ما وراء الستر للحاجب، و سلطان الدار لصاحب الحرس، و أن سلطاني إنما هو على من خرج من حدود الدار، لقد كنت أخذت بضبعه (2)

و أقمته، فلما صرنا وراء الستر قلت له و الفضل يسمع: أما و اللّه لو كان هذا منك في مسايرة أو موقف لعلمت أن للخلافة رجالا يصونونها عن مجلسك.

و حدثني ابراهيم بن السندي قال: بينا الحسن اللؤلؤي في بعض الليالي بالرقة يحدث المأمون و المأمون يومئذ أمير، إذا نعس المأمون، فقال له اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ففتح المأمون عينيه و قال: سوقي و اللّه خذ يا غلام بيده.

قال: و كنا يوما عند زياد بن محمد منصور بن زياد، و قد هيأ لنا الفضل ابن محمد طعاما، و معنا في المجلس خادم كان لأبيهم، فجاء رسول الفضل إلى زياد فقال: يقول لك أخوك: قد أدرك طعامنا فتحولوا. و معنا في المجلس ابراهيم النظام، و أحمد بن يوسف، و قطرب النحوي، في رجال من

(1) الحسن اللؤلؤي هو الحسن بن زياد و اللؤلؤي مولى الأنصار و صاحب ابي حنيفة، كوفي نزل الكوفة و ولي القضاء.
(2) الضبع: العضد.

أدباء الناس و علمائهم، فما منا أحد فطن لخطأ الرسول. فأقبل عليه مبشّر الخادم، فقال: يا ابن اللخناء، تقف على رأس سيدك فتستفتح الكلام كما تستفتحه لرجل من عرض الناس. أ لا تقول: يا سيدي يقول لك أخوك: ترى أن تصير إلينا بأخوانك فقد تهيأ أمرنا؟ و ابتعت خادما كان قد خدم اهل الثروة و اليسار و أشباه الملوك، فمر به خادم من معارفه ممن قد خدم الملوك فقال له: إن الأديب و إن لم يكن ملكا فقد يجب على الخادم أن يخدمه خدمة الملوك، فانظر أن تخدمه خدمة تامة. قلت له: و ما الخدمة التامة؟قال: الخدمة التامة أن تقوم في دارك لبعض الأمر و بينك و بين النعل ممشى خمس خطى فلا يدعك أن تمشي إليها، و لكن يأخذها و يدنيها منك. و من كان يضع النعل اليسرى قدام الرجل اليمنى فلا ينبغي لمثل هذا أن يدخل على دار ملك و لا أديب. و من الخدمة التامة أن يكون إذا رأى متكأ يحتاج إلى مخدة ألا ينتظر أمرك. و يتعاهد ليقة الدواة قبل أن تأمره أن يصب فيه ماء أو سوادا، و ينفض عنها الغبار قبل أن يأتيك بها. و إن رأى بين يديك قرطاسا على طيّه قطع رأسه و وضعه بين يديك على كسره. و أشباه ذلك.

قال: و لما كلم عروة بن مسعود الثقفي، رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كان في ذلك ربما مس لحية النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال له المغيرة بن شعبة: نح يدك عن لحية رسول اللّه عليه السلام قبل أ لا ترجع إليك يدك. فقال عروة: يا غدر هل غسلت رأسك من غدرتك إلا بالأمس؟أ قال: و نادى رجال من وفد بني تميم النبي صلّى اللّه عليه و سلّم باسمه من وراء الحجرات، فأنزل اللّه تبارك و تعالى في ذلك: **إِنَّ اَلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ اَلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** . و قال اللّه جل ذكره: **لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ اَلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً** . (1)

---

(1) قدم وفد بني تميم على النبي سنة تسع للهجرة و هي سنة الوفود، يرئسهم عطارد بن حاجب بن زرارة، و بينهم الأقرع بن حابس، و الزبرقان بن بدر، و عمرو بن الأهتم. فلما دخلوا المسجد نادوا من وراء حجراته: أخرج الينا يا محمد.

و قال ابن هرمة أو غيره:

للّه درّ سميدع فجعت به # يوم البقيع حوادث الأيام

هش إذا نزل الوفود ببابه # سهل الحجاب مؤدّب الخدام

فإذا رأيت صديقه و شقيقه # لم تدر أيهما أخو الأرحام

قال أبو الحسن: بينا هشام يسير و معه أعرابي إذ انتهى إلى ميل عليه كتاب، فقال للأعرابي: انظر أي ميل هذا؟فنظر ثم رجع إليه، فقال: عليه محجن و حلقة، و ثلاثة كأطباء الكلبة، و رأس كأنه رأس قطاة. فعرفه هشام بصورة الهجاء و لم يعرفه الاعرابي، و كان عليه «خمسة» .

استشهدوا أعرابيا على رجل و امرأة، فقال: رأيته قد تقمّصها، يحفزها بمؤخره، و يجذبها بمقدّمه، و خفي عليّ المسلك.

و قال آخر: رأيته قد تبطّنها، و رأيت خلخالا شائلا، و سمعت نفسا عاليا، و لا علم لي بشيء بعد.

و قال أعرابيّ: رأيت هذا قد تناول حجرا فالتفّ بهذا، و حجز الناس بينهما، و إذا هذا يستدمي.

و قال بعضهم: الشيب نذير الآخرة.

و قال قيس بن عاصم: الشيب خطام المنية.

و قال آخر: الشيب توأم الموت.

و قال الحكيم: شيب الشعر موت الشعر، و موت الشعر علة موت البشر.

و قال المعتمر بن سليمان: الشيب أوّل مراحل الموت.

و قال السهمي: الشيب تمهيد الحمام.

و قال العتابي: الشيب تاريخ الكتاب.

و قال النمري: الشيب عنوان الكبر.

و قال عدي بن زيد العبادي:

و ابيضاض السواد من نذر المو # ت و هل مثله لحي نذير

و قال الآخر:

أصبح الشيب في المفارق شاعا # و اكتسى الرأس من بياض قناعا

ثم ولى الشباب إلا قليلا # ثم يأبى القليل إلا نزاعا

قال: و قال رجل لأشعب (1) : ما شكرت معروفي عندك. قال: لأن معروفك جاء من عند غير محتسب فوقع إلى غير شاكر.

و خفف أشعب الصلاة مرة فقال له بعض أهل المسجد: خففت صلاتك جدا قال: لأنه لم يخالطها رياء.

عظة

.

الحمد للّه كما هو أهله، و السلام على أنبيائه المقربين الطيبين. أخي لا تغترنّ بطول السلامة مع تضييع الشّكر، و لا تعملنّ نعمة اللّه في معصيته، فإن أقلّ ما يجب لمهديها أ لا تجعلها ذريعة في مخالفته. و اعلم أن النعم نوافر، و لقلما اقشعت (2) نافرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالتوبة،

(1) أشعب بن جبير، مضرب المثل بالطمع، نشأ بالمدينة في عهدة عائشة بنت عثمان بن عفان.
(2) أقشعت: انكشفت.

و استدم الراهن منها بكرم الجوار، و استفتح باب المزيد بحسن التوكل، و لا تحسب أن سبوغ ستر نعم اللّه عليك غير متقلّص عما قريب إذا لم ترج للّه وقارا. و إني لأخشى أن يأتيك أمر اللّه بغتة، أو الإملاء (1) فهو أوبأ مغبة، و اثبت في الحجة، و لأن لا تعمل و لا تعلم خير من أن تعلم و لا تعمل. إن الجاهل لم يؤت من سوء نية و لا استخفاف بربوبية، ليس كمن قهرته الحجة و اعرب له الحق مفصحا عن نفسه، فآثر الغفلة، و الخسيس من الشهوة، على اللّه عز و جل، فأسمحت نفسه عن الجنة، و اسلمها لآبد العقوبة. فاستشر عقلك و راجع نفسك، و ادرس نعم اللّه عندك، و تذكر احسانه إليك، فإنه مجلبة للحياء، و مردعة للشهوة، و مشحذة على الطاعة، فقد أظل البلاء أو كأن قد، فكفكف عنك غرب شؤبوبه (2) ، و جوائح سطوته، بسرعة النزوع، و طول التضرّع، ثلاث هي اسرع في العقل من النار في يبيس العرفج: إهمال الفكرة، و طول التمني، و الاستغراب في الضحك. إن اللّه لم يخلق النار عبثا، و لا الجنة هملا، و لا الإنسان سدى. فاعترف رقّ العبودية، و عجز البشرية، فكل زائد ناقص، و كلّ قرين مفارق قرينه، و كل غني محتاج، و إن عصفت به الخيلاء و أبطره العجب، و صال على الأقران، فإنه مذال مدبر، و مقهور ميسّر. إن جاع سخط المحنة، و إن شبع بطر النعمة. ترضيه اللمحة فيستشري مرحا، و تغضبه الكلمة فيستطير شققا، حتى تنفسخ لذلك منّته، و تنتقض مريرته، و تضطرب فريصته (3) ، و تنتشر عليه حجّته. و للعجب من لبيب توبقه الحياطة، و يسلم مع الإضاعة، و يؤتى من الثقة و لا يشعر بالعاقبة. إن أهمل عمي، و إن علّم نسي. كيف لم يتخذ الحق معقلا ينجيه، و التوكل ذائدا يحميه. أعمي عن الدلالة، و عن وضوح الحجة، أم آثر العاجل الخسيس، على الآجل النفيس؟و كيف توجد هذه الصفة مع صحة العقدة (4) ، و اعتدال الفطرة؟و كيف يشير رائد العقل، بإيثار القليل الفاني على الكثير الباقي. و ما

---

(1) الاملاء: الامهال، التأخير.
(2) غرب: حد. شؤبوبه: دفعته، زخمه.
(3) الفريصة: لحمة بين الجنب و الكتف.
(4) العقدة: العقيدة، الرأي.

اظن الذي أقعدك عن تناول الحظ، مع قرب مجناه، حتى صار لا يثنيك زجر الوعيد، و لا يكدح في عزماتك فوت الجنة، و حتى ثقلت على سمعك الموعظة، و نبت عن قلبك العبرة إلا طول مجاورة التقصير، و اعتياد الراحة، و الأنس بالهوينى، و ايثار الأخف، و ألف قرين السوء. فاذكر الموت و أدم الفكرة فيه، فإن من لم يعتبر بما يرى لم يعتبر بما لا يرى. و إنّ كل ما يوجد بالعيان من مواقع العبرة لا يكشف لك عن قبيح ما أنت عليه، و هجنة ما أصبحت فيه، من إيثار باطلك على حق اللّه، و اختيار الوهن على القوة، و التفريط على الحزم، و الإسفاف إلى الدون، و اصطناع العار، و التعرض للمقت، و بسط لسان العائب–فمستنبطات الغيب أحرى بالعجز عن تحريكك، و نقلك عن سوء العادة التي آثرتها على ربك. فاستحي للبّك، و استبق ما أفضل الخذلان من قوتك، قبل أن يستولي عليك الطبع، و يشتدّ بك العجز. أ و ما علمت أن المعصية تثمر المذلة، و تفلّ غرب اللسان، مع السلاطة. بل ما علمت أن المستشعر بذل الخطيئة، المخرج نفسه من كنف العصمة، المتحلي بدنس الفاحشة، نظف (1) الثناء، زمر المروءة (2) ، قصيّ المجلس، لا يشاور و هو ذو بزلاء (3)

و لا يصدر و هو جميل الرّواء، يسالم من كان يسطو عليه، و يضرع لمن كان يرغب إليه. يجذل بحاله المبغض الشانئ، و يثلب بقربه القريب الداني، غامض الشخص ضئيل الصوت، نزر الكلام متلجلج الحجة، يتوقع الإسكات عند كل كلمة، و هو يرى فضل مزيته و صريح لبه، و حسن فضيلته، و لكن قطعه سوء ما جنى على نفسه. و لو لم تطلع عليه عيون الخليقة لهجست العقول بأذهانه. و كيف يمتنع من سقوط القدر و ظن المتفرس، من عري عن حلية التقوى، و سلب طابع الهدى. و لو لم يتغشّه ثوب سريرته، و قبيح ما احتجن (4)

إليه من مخالفته ربّه، لا ضرعته الحجة (5) و لفسخه وهن الخطيئة، و لقطعه العلم

---

(1) نطف: ملطخ، متهم.
(2) زمر المروءة: قليلها.
(3) البزلاء: الرأي الحسن، المنطق.
(4) احتجن الشيء: أمسكه، ضمه.
(5) أضرعته: أخضعته، أذلته.

بقبيح ما قارف (1) ، عن اقتدار ذوي الطهارة في الكلام، و ادلال اهل البراءة في الندى. هذه حال الحاطئ في عاجل الدنيا، فإذا كان يوم الجزاء الأكبر فهو عان لا يفك، و أسير لا يفادى، و عارية لا تؤدي. فاحذر عادة العجز و ألف الفكاهة، و حبّ الكفاية، و قلة الاكتراث للخطيئة، و التأسف على الفائت منها، و ضعف الندم في أعقابها.

أخي، أنعي إليك القاسي، فإنه ميّت و إن كان متحركا، و أعمى و إن كان رائيا. و احذر القسوة فإنها رأس الخطايا، و إمارة الطبع (2) . و هي الشوهاء العاقر، و الداهية العقام. و أراك ترتكض في حبائلها، و تستقبس من شررها. و لا بأس أن يعظ المقصر ما لم يكن هازلا. و لن يهلك أمرؤ عرف قدره. و رب حامل علم إلى من هو أعلم منه. علمنا اللّه و إياكم ما فيه نجاتنا، و أعاننا و إياكم على تأدية ما كلفنا. و السلام.

أحاديث طريفة

قال: و قلت لحباب: إنك لتكذب في الحديث. قال: و ما عليك إذا كان الذي أريد فيه أحسن منه. فو اللّه ما ينفعك صدقه و لا يضرك كذبه. و ما يدور الأمر إلا على لفظ جيد و معنى حسن. و لكنك و اللّه لو أردت ذلك لتلجلج لسانك، و لذهب كلامك.

و قال أبو الحسن: سمع أعرابي مؤذنا يقول: «أشهد أن محمدا رسول اللّه» . قال: يفعل ما ذا؟ قال: و كان يقال: أول العلم الصمت، و الثاني الاستماع، و الثالث الحفظ، و الرابع العمل به، و الخامس نشره.

أبو الحسن قال: قرأ رجل في زمن عمر بن الخطاب رحمه اللّه: فإن

---

(1) قارف: قارب.
(2) الطبع: تلطخ القلب بالشر.

زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن اللّه غفور رحيم: فقال أعرابي لا يكون.

قال: و دخل على المهدي صالح بن عبد الجليل، فسأله أن يأذن له في الكلام، فقال: تكلم. فقال: إنا لما سهل علينا ما توعّر على غيرنا من الوصول إليك قمنا مقام الأداء عنهم و عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر و النهي، عند انقطاع عذر الكتمان في التقية، و لا سيما حين اتسمت بميسم التواضع، و وعدت اللّه و حملة كتابه إيثار الحقّ على ما سواه.

فجمعنا و إياك مشهد من مشاهد التمحيص، ليتم مؤدبنا على موعود الأداء عنهم، و قابلنا على موعود القبول، أو يردنا تمحيص اللّه إيانا في اختلاف السر و العلانية، و يحلينا تحلية الكاذبين، فقد كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقولون: من حجب اللّه عنه العلم عذّبه على الجهل، و أشد منه عذابا من أقبل عليه العلم و أدبر عنه. و من أهدى اللّه إليه علما فلم يعمل فقد رغب عن هدية اللّه و قصر بها. فاقبل ما أهدى اللّه إليك على ألسنتنا قبول تحقيق و عمل لا قبولا فيه سمعة و رياء، فإنه لا يعدمك منا إعلام بما تجهل، أو مواطأة على ما تعلم، أو تذكير لك من غفلة. فقد وطن اللّه جل و عز، نبيه عليه السلام على نزولها تغزية عما فات، و تحصينا من التمادي، و دلالة على المخرج، فقال: **وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ اَلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ** . فأطلع اللّه على قلبك بما ينوّر به القلوب، من إيثار الحق و منابذة الأهواء، فإنك إن لم تفعل ذلك ير أثرك و أثر اللّه عليك فيه. و لا حول و لا قوة إلا باللّه.

قال: و دخل رجل على معاوية، و قد سقطت أسنانه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأعضاء يرث بعضها بعضا. فالحمد للّه الذي جعلك وارثها و لم يجعلها وارثتك.

و حدثنا اسماعيل بن عليّة قال: حدثنا زياد بن أبي حسان، أنه شهد عمر ابن عبد العزيز رحمه اللّه حين دفن ابنه عبد الملك، فلما سوي عليه قبره

بالأرض، و جعلوا على قبره خشبتين من زيتون، إحداهما عند رأسه، و الأخرى عند رجليه، ثم جعل قبره بينه و بين القبلة، و استوى قائما و أحاط به الناس، قال:

رحمك اللّه يا بني، فلقد كنت برا بأبيك، و ما زلت مذ وهبك اللّه لي بك مسرورا. و لا و اللّه ما كنت قط أشدّ بك سرورا، و لا أرجى لحظي من اللّه فيك، مني مذ وضعتك في هذا الموضع الذي صيرك اللّه إليه. فغفر اللّه ذنبك، و جزاك بأحسن عملك، و تجاوز عن سيئتك و رحم اللّه كلّ شافع يشفع لك بخير من شاهد أو غائب. رضينا بقضاء اللّه، و سلمنا لأمره. فالحمد للّه رب العالمين. ثم انصرف.

و حدثني محمد بن عبيد اللّه بن عمرو قال أخبرني طارق بن المبارك عن أبيه قال: قال لي عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة: جاءت هذه الدولة و أنا حديث السن، كثير العيال، منتشر الأموال، فكنت لا أكون في قبيلة إلا شهر أمري، فلما رأيت ذلك عزمت على أن أفدي حرمي بنفسي، قال المبارك:

فأرسل إلي: أن وافني عند باب الأمير سليمان بن عبد الملك. قال: فأتيته فإذا عليه طيلسان أبيض مطبق، و سراويل وشي مسدولة. قال: سبحان اللّه، ما تصنع الحداثة بأهلها، إن هذا ليس لباس هذا اليوم. قال: لا و اللّه، و لكن ليس عندي ثوب إلا أشهر مما ترى. قال: فأعطيته طيلساني و أخذت طيلسانه، و لويت سراويله إلى ركبتيه. قال: فدخل ثم خرج إلي مسرورا. قال: قلت: حدثنا ما جرى بينك و بين الأمير. قال: دخلت عليه و لم يرني قبل ذلك، فقلت:

أصلح اللّه الأمير، لفظتني البلاد إليك، و دلني فضلك عليك، فإما قبلتني غانما، و إما رددتني سالما. قال: و من أنت أعرفك. قال: فانتسبت له، فقال: اقعد فتكلم غانما سالما. ثم أقبل علي فقال: حاجتك يا ابن أخي قال: قلت: إن الحرم اللاتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، و أولى الناس بهن بعدنا، قد خفن بخوفنا، و من خاف خيف عليه. قال: فو اللّه ما أجابني إلا بدموعه على خديه.

قال: يا ابن أخي يحقن اللّه دمك، و تحفظ حرمك، و يوفر عليك مالك، و لو

أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت. قال: فقلت: أكون متواريا أو ظاهرا؟ قال: كن متواريا كظاهر.

فكنت و اللّه أكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه و عمه. قال: فلما فرغ من الحديث رددت إليه طيلسانه، فقال: مهلا، إن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا.

و من أحاديث النوكى.

حديث أبي سعيد الرفاعي: سئل عن الدنيا و الدائسة، فقال: أما الدنيا فهذه الذي أنتم فيها، و أما الدائسة فهي دار أخرى بائنة من هذه الدار، لم يسمع أهلها بهذه الدار و لا بشيء من أمرها، و كذلك نحن لم نسمع بشيء من أمرها، إلا أنه قد صحّ عندنا إن بيوتهم من قثاء، و سقوفهم من قثاء و أنعامهم من قثاء، و خيلهم من قثاء، و هم أنفسهم من قثاء، و قثاءهم أيضا من قثاء. قالوا له: يا أبا سعيد، زعمت أن أهل تلك الدار لم يسمعوا بهذه الدار و لا بشيء من أمرها، و كذلك نحن لهم، و أراك تخبرنا عنهم بأخبار كثيرة. قال: فمن ثمّ أعجب زيادة.

قالوا: ذمّ رجل عند الأحنف الكمأة بالسمن، فقال الأحنف: «ربّ ملوم لا ذنب له» .

عبد اللّه بن مسلم، عن شبّة بن عقال، إن رجلا قال في مجلس عبيد اللّه بن زياد: ما أطيب الأشياء؟فقال رجل: ما شيء أطيب من تمرة نرسيان كأنها من آذان النوكى عليتها بزبدة (1) .

و قال أوس بن جابر لابن عامر:

ظلت عتاب النوك تخفق فوقه # رخو طفاطفه قديم الملعب (2)

قد ظلّ يوعدني و عين وزيره # خضراء خاسفة كعين العقرب

---

(1) النرسيان: نوع من التمر.
(2) النوك: الحمق، طفاطف: لحم مضطرب.

يعني بوزيره عبد اللّه بن عمير الليثي، و كان أخاه لأمه، أمهما دجاجة بنت أسماء السلمية.

و قال ابن مناذر، في خالد بن عبد اللّه بن طليق الخزاعي، و كان المهدي استقضاه و عزل عبيد اللّه بن الحسن العنبري:

أتى دهرنا و الدهر ليس بمعتب # بآبدة و الدهر جمّ الأوابد
بعزل عبيد اللّه عنا فيا له # خلافا و باستعمال ذي النوك خالد
بحيران عن قصد الطريق تردّه # خيانة سلام و لحية فايد
أ ذلك من ريب الزمان و صرفه # و أحداثه أم نحن في حلم راقد

و قال أيضا:

قل لأمير المؤمنين الذي # من هاشم في سرّها و اللباب
إن كنت للسخطة عاقبتنا # بخالد فهو أشدّ العذاب
أصمّ أعمى عن سبيل الهدى # قد ضرب الجهل عليه حجاب
يا عجبا من خالد كيف لا # يخطئ فينا مرة بالصواب

و قال:

خالد يحكم في النا # س بحكم الجاثليق
يا أبا الهيثم ما كنـــ # ت لهذا بخليق
أيّ قاض أنت للظلـــ # م و تعطيل الحقوق
لا و لا أنت لما حمـــ # لت منه بمطيق

و قال:

يقطع كفّ القاذف المفتري # و يجلد اللصّ ثمانينا
سقيا و رعيا لك من حاكم # يحيي لنا السنة و الدنيا

و قال زهرة الأهوازيّ:

يا قوم من دلّ على عالم # يعلم ما حد حر سارق

و قال آخر؛

و إني لمضاء على الهول واحدا # و لو ظل ينهاني أخيفش شاحج

تشبه للنوكى أمور كثيرة # و فيها لأكياس الرجال مخارج

و قال آخر:

و لا يعرفون الشرّ حتى يصيبهم # و لا يعرفون الأمر إلا تدبرا

و قال آخر:

إذا ظعنوا عن دار ضيم تعاذلوا # عليها و ردوا وفدهم يستقيلها

و قال النابغة:

و لا يحسبون الخير لا شرّ بعده # و لا يحسبون الشرّ ضربة لازب

و العرب تقول: «أخزى اللّه الرأي الدبريّ (1) » .

و قالوا: وجه الحجاج إلى مطهّر بن عمار بن ياسر، عبد الرحمن بن سليم الكلبي، فلما كانوا بحلوان أتبعه الحجاج مددا، و عجل عليه بالكتاب مع تخيت الغلط–و إنما قيل له ذلك لكثرة غلطه–فمر تخيت بالمدد و هم يعرضون بخانقين فلما قدم على عبد الرحمن قال له: أين تركت مددنا؟قال: تركتهم يخنقون بعارضين. قال: أو يعرضون بخانقين؟قال: نعم، اللهم لا تخانق في باركين! و لما ذهب يجلس ضرط، و كان عبد الرحمن أراد أن يقول له: أ لا تغذى؟ فقال له: أ لا تضرط. قال: قد فعلت أصلحك اللّه. قال: ما هذا أردت. قال:

صدقت و لكن الأمير غلط كما غلطنا فقال: أنا غلطت من فمي، و غلط هو من استه.

و هو كما قال أبو وائل: أسمعكم تقولون: الدانق و القيراط، فأيما أكثر؟

(1) الرأي الدبري: الذي يسنح بعد فوات الأوان.

قالوا: و كان عامر بن عبد اللّه بن الزبير في المسجد، و كان قد أخذ عطاءه فقام إلى منزله و نسيه، فلما صار في منزله و ذكره بعث رسولا ليأتيه به، فقيل له: و أين تجد ذلك المال؟فقال: سبحان اللّه، أو يأخذ أحد ما ليس له.

أبو الحسن قال: قال سعيد بن عبد الرحمن الزّبيريّ، قال: سرقت نعل عامر بن عبد اللّه الزبيري فلم يتخذ نعلا حتى مات، و قال: أكره أن اتخذ نعلا فلعلّ رجلا يسرقها فيأثم.

و قالوا: إن الخلفاء و الأئمة أفضل من الرعية، و عامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم و لهم، لأنهم افقه في الدين و أقوم بالحقوق، و أردّ على المسلمين و علمهم بهذا أفضل من عبادة العباد، لأن نفع ذلك لا يعدو قمم رءوسهم، و نفع هؤلاء يخص و يعم.

و العبادة لا تدلّه و لا تورث البله إلا لمن آثر الوحدة، و ترك معاملة الناس، و مجالسة أهل المعرفة. فمن هنالك صاروا بلها، حتى صار لا يجيء من اعبدهم حاكم و لا إمام.

و ما أحسن ما قال أيوب السختياني، حيث يقول: «في أصحابي من أرجو دعوته و لا أقبل شهادته» . فإذا لم يجز في الشهادة كان من أن يكون حاكما أبعد.

مقطعات من الشعر

.

و قال الشاعر:

و عاجز الرأي مضياع لفرصته # حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

و من غير هذا الباب قوله:

إذا ما الشيخ عوتب زاد شرا # و يعتب بعد صبوته الوليد [1]

(1) يعتب: يرضى، أعتبه: أرضاه. الصبوة: الميل إلى الجهل.

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: «من أفضل العبادة الصمت و انتظار الفرج» .
و قال الشاعر:

إذا تضايق أمر فانتظر فرجا # فأضيق الأمر أدناه من الفرج

و قال الفرزدق:

اني و سعدا كالحوار و أمه # إذا وطئته لم يضره اعتمادها

و قال أعرابي:

تبصّرني بالعيش عرسي كأنما # تبصّرني الأمر الذي أنا جاهله
يعيش الفتى بالفقر يوما و بالغنى # و كلّ كأن لم يلق حين يزايله

و قال آخر:

شهدت و بيت اللّه إنك بارد الثنايا # لذيذ لثمها حين تلثم

و قال آخر:

اللّه يعلم يا مغيرة أنني # قد دستها دوس الحصان الهيكل
و أخذتها أخذ المقصّب شاته # عجلان يشويها لقوم نزّل

و قال آخر:

شهدت و بيت اللّه إنك بارد الثنايا # و أن الكشح منك لطيف
و أنك مشبوح الذراعين خلجم [1] # و أنك إذ تخلو بهن عنيف

و قال آخر:

فهلا من وزان أو حصين # حميتم فرج حاصنة كعاب
و أقسم أنه قد حلّ منها # محلّ السيف من قعر القراب

(1) مشبوح: عريض. خلجم: عظيم الجسم.

و قال آخر:

أ ترجو أن تسود و لن تعنّى # و كيف يسود ذو الدعة البخيل

و قال الهذلي:

و إن سيادة الأقوام فاعلم # لها صعداء مطلعها طويل

و قال جرير بن الخطفي:

تريدين أن أرضى و أنت بخيلة # و من ذا الذي يرضي الأخلاّء بالبخل

و قال اسحاق بن حسان بن قوهيّ:

و دون الندى في كلّ قلب ثنية # لها مصعد حزن و منحدر سهل

و ودّ الفتى في كلّ نيل ينيله # إذا ما انقضى لو أن نائله جزل

و قال آخر:

عزمت على إقامة ذي صباح # لأمر ما يسوّد من يسود

و قال:

و تعجب إن حاولت منك تنصّفا # و أعجب منه ما تحاول من ظلمي

أبا حسن يكفيك ما فيك شاتما # لعرضك من شتم الرجال و من شتمي

و قال آخر:

كما قال الحمار لسهم رام # لقد جمّعت من شتى لأمر

أراك حديدة في رأس قدح # و متن جلالة من ريش نسر

و قال الآخر:

إذا مات مثلي مات شيء # يموت بموته بشر كثير

و أشعر منه عبدة بن الطبيب، حيث يقول في قيس بن عاصم:

فما كان قيس هلكة هلك واحد # و لكنه بنيان قوم تهدّما

و قال امرؤ القيس في شبيه بهذا المعنى:

فلو أنها نفس تموت سوية # و لكنها نفس تساقط أنفسا

و قال الآخر:

و زهّدني في صالح العيش أنني # رأيت يدي في صالح العيش قلّت

و قال معن بن أوس:

و لقد بدا لي أن قلبك ذاهل # عني و قلبي لو بدا لك أذهل

كل يجامل و هو يخفي بغضه # إن الكريم على القلى يتجمل

و قال ركّاض:

نرامي فنرمي نحن منهن في الشوى [1] # و يرمين لا يعدلن عن كبد سهما

إذا ما لبسن الحلي و الوشى أشرقت # وجوه و لبّات يسلبننا الحلما

و لثن السّبوب خمرة قرشية # زبيرية يعلمن في لوثها علما [2]

و قال آخر:

أعلّل نفسي بما لا يكون # كما يفعل المائق [3] الأحمق

و قال آخر:

تولت بهجة الدنيا # فكلّ جديدها خلق

و خان الناس كلهم # فما أدري بمن أثق

رأيت معالم الخيرا # ت سدّت دونها الطرق

فلا حسب و لا أدب # و لا دين و لا خلق

---

(1) الشوى: الأطراف.

(2) لاثت المرأة السب: أدارته و طوته. السبوب: مفردها سب: خمار المرأة تغطي به رأسها.

(3) المائق: الشديد الغباء.

و قال ابو الأسود الدؤلي:

لنا جيرة سدّوا المجازة بيننا # فإن ذكروك السدّ فالسدّ أكيس

و من خير ما ألصقت بالدار حائط # تزلّ به صقع الخطاطيف املس

و قال آخر:

عقمت أم أتتنا بكم # ليس منكم رجل غير دني

و إذا ما الناس عدوا شرفا # كنتم من ذاك في بال رخي

و قال آخر:

قد بلوناك بحمد ا # للّه إن أغنى البلاء

فإذا كلّ مواعيــ # دك و الجحد سواء

و قال آخر:

و لقد هززتك بالمديح # فكنت ذا نفس لكيعة

أنت الرقيع بن الرقيع # بن الرقيع بن الرقيعة

و قال:

لكلّ أناس سلم يرتقى به # و ليس إلينا في السلاليم مطلع

و غايتنا القصوى حجاز لمن به # و كل حجاز إن هبطناه بلقع

و ينفر منا كلّ وحش و ينتمي # إلى وحشنا وحش البلاد فيرتع

و قال آخر:

لو جرت خيل نكوصا # لجرت خيل ذفافة (1)

هي لا خيل رجاء # لا و لا خيل مخافة

(1) ذفافة، هو ذفافة بن عبد العزيز شاعر عباسي طلب من الرشيد أن يضرب عنق أحد اسرى الروم فنبا سيفه.

و قال الخريمي:

اخلع ثيابك من أبي دلف # و اهرب من الفجفاجة [1] الصّلف

لا يعجبنك من أبي دلف # وجه يضيء كدرّة الصدف

إني وجدت أخي أبا دلف # عند الفعال مولّد الشرف

و أنشد ابن الأعرابي:

أهلكتني بفلان ثقتي # و ظنون بفلان حسنه

ليس يستوجب شكرا رجل # نلت خيرا منه من بعد سنه

كنت كالهادي من الطير رأى # طمعا أدخله في مسجنه

زادني قرب صديقي فاقة # أورثت من بعد فقر مسكنه

و أنشدنا:

إذا المرء أولاك الهوان فأوله # هوانا و إن كانت قريبا أواصره

فإن لم تقدر على أن تهينه # و قارب إذا ما لم تكن بك قدرة

و قارب إذا ما لم تكن بك قدرة # و صمّم إذا أيقنت إنك عاقره

و قال بعض ظرفاء الأعراب:

و إذا خشيت من الفؤاد لجاجة # فاضرب عليه بجرعة من رائب

و هذا من شكل قوله:

ذكرتك ذكرة فاصطدت ظبيا # و كنت إذا ذكرتك لا أخيب

و قال بعض المحدثين:

ما أشبه الأمرة بالوصل # و أشبه الهجران بالعزل

و قالت الخنساء:

لم تره جارة يمشي بساحتها # لريبة حين يخلى بيته الجار

مثل الرديني لم تدنس عمامته # كأنه تحت طيّ البرد أسوار

(1) الفجفاجة: الكثير الكلام و الفخر.

و قال آخر:

ناديت هيذان و الأبواب مغلقة # و مثل هيذان سنّى فتحة الباب

كالهندواني لم تفلل مضاربه # وجه جميل و قلب غير وجّاب

و قال آخر:

أرى كلّ ريح سوف تسكن مرة # و كلّ سماء ذات درّ ستقلع

و لست بقوّال إذا قام حالب # لك الويل لا تجهد لعلك ترضع

و لكن إذا جادت بما دون حلبها # جهدنا و لم نمذق بما نتوسّع

و قال آخر:

تمنى رجال أن أموت و غايتي # إلى أجل لو تعلمون قريب

و ما رغبتي في أرذل العمر بعد ما # لبست شبابي كله و قشيبي [1]

و أصبحت في قوم كأن لست منهم # و باد مروني منهم و ضروبي

و أنشد:

رأيت الناس لما قلّ مالي # و أكثرت الغرامة ودّعوني

فلما إن غنيت و غاب و فري # إذا هم لا أبا لك راجعوني

و قال الآخر:

و كنا نستطب إذا مرضنا # فصار سقامنا بيد الطبيب

فكيف نجيز غصّتنا بشيء # و نحن نغصّ بالماء الشريب

و قال عدي بن زيد:

لو بغير الماء حلقي شرق # كنت كالغصان بالماء اعتصاري

و قال التّوت اليماني، و يروى «التوب» بالباء، و التوت هو الصواب. و هو المعروف بتويت، فكبره هنا:

على أي باب أطلب الأذن بعد ما # حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه

(1) أرذل العمر: لآخره.

و قال الآخر:

لا تضجرنّ و لا تدخلك معجزة # فالنجح يهلك بين العجز و الضجر

و قال محمد بن يسير:

إن الأمور إذا اشتدت مسالكها # فالصبر يفتح منها كلّ ما ارتتجا

لا تيأسن و إن طالت مطالبة # إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته # و مد من القرع للأبواب أن يلجا

لا يمنعنك يأس من مطالبة # فضيق السّبل يوما ربما انتهجا

و قال بعض ظرفاء الأعراب:

و إن طعاما ضمّ كفي و كفها # لعمرك عندي في الحياة مبارك

فمن أجلها استوعب الزاد كله # و من أجلها تهوى يدي فتدارك

و قال:

كأني لما مسّني السّوط مقرم # من العجم صعب أن يقاد نفور

فكم قد رأينا من لئيم موطأ [1] # صبور على مس السياط وقور

و ذي كرم في القوم نهد مشيّع [2] # جزوع على مس السياط ضجور

و قال أحيحة بن الجلاح:

استغن عن كلّ ذي قربى و ذي رحم # إن الغني من استغنى عن الناس

و البس عدوك في رفق و في دعة # لباس ذي إربة للدهر لباس [3]

و لا تغرنك أضغان مزملة # قد يضرب الدبر الدامي بأحلاس [4]

---

(1) موطأ: مذلل.

(2) النهد: القوي. المشيع: الشجاع.

(3) الاربة: الدهاء و البصر بالامور. لبس الدهر، أن يجعل المرء نفسه وفقا لزمانه.

(4) الدبر: البعير المصاب بالقرحة. الاحلاس جمع حلس كل شيء وضع على ظهر البعير أو الدابة تحت الرحل أو السرج.

و قال أحيحة أيضا:

استغن لو متّ و لا يغررك ذو نشب [1] # من ابن عم و لا عم و لا خال

إني أكبّ على الزوراء أعمرها # إن الكريم على الإخوان ذو المال

يلوون ما عندهم من حق أفضلهم # و من عشيرتهم و المال بالوالي

و قال آخر:

سأبغيك مالا بالمدينة إنني # أرى عازب الأموال قلت فواضله [2]

و قال آخر:

و لا خير في وصل إذا لم يكن له # على طول مر الحادثات بقاء

و قال العباس بن الأحنف:

لم يصف حبّ لمعشوقين لم يذقا # وصلا يمر على من ذاقه العسل

و قال بعض (سفهاء) الأعراب:

لا خير في الحبّ أبا السنور # أو يلتقي أشعرها و اشعري

و أطبق الخصية فوق المبعر

و قال آخر:

و حظّك زورة في كل عام # موافقة على ظهر الطريق

سلاما خاليا من كل شيء # يعود به الصديق على الصديق

و قال عطارد بن قران:

و لا يلبث الحبل الضعيف إذا التوى # و جاذبه الأعداء أن يتجذّما [3]

و ما يستوي السيفان سيف مؤنث # و سيف إذا ما عصّ بالعظم صمّما [4]

---

(1) النشب: المال و العقار.

(2) أبغاه مالا: أعانه على طلبه.

(3) التجذم: التقطيع.

(4) المؤنث: الذي ليس بقاطع. صمم: مضى في العظم.

و قال طريح بن اسماعيل (1) ، في الوليد بن يزيد بن عبد الملك:

سعيت ابتغاء الشكر فيما صنعت بي # فقصرت مغلوبا و إني لشاكر

لأنك تعطيني الجزيل بداهة # و أنت لما استكثرت من ذاك حاقر

فأرجع مغبوطا و ترجع بالتي # لها أول في المكرمات و آخر

و قد قلت شعرا فيك لكن تقوله # مكارم مما تبتني و مفاخر

قواصر عنها لم تحط بصفاتها # يراد بها ضرب من الشعر آخر

و قال آخر، مسلم بن الوليد:

لعلّ له عذر و أنت تلوم # و كم لائم قد لام و هو مليم

و أنشد أيضا:

فكم من مليم لم يصب بملامة # و متّبع بالذنب ليس له ذنب

و كم من محب صدّ من غير علّة # و إن لم يكن في وصل خلته عتب

كما قال الأحنف: «رب ملوم لا ذنب له» .

و قال ابن المقفع:

فلا تلم المرء في شأنه # فربّ ملوم و لم يذنب

و قال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري:

و إن امرأ يمسي و يصبح سالما # من الناس إلا ما جنى لسعيد

---

(1) طريح بن اسماعيل الثقفي شاعر عاش في الدولتين الأموية و العباسية و مات في خلافة المهدي. و مدح الوليد بن يزيد.

الجزء الثالث

كتاب العصا

مقدمة

هذا أبقاك اللّه الجزء الثالث، من القول في البيان و التبيين، و ما شابه ذلك من غرر الأحاديث، و شاكله من عيون الخطب، و من الفقر المستحسنة، و النتف المستخرجة، و المقطّعات المتخيّرة، و بعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، و الجوابات المنتخبة.

سنن الخطابة العربية

و نبدأ على اسم اللّه بذكر مذهب الشعوبية و من يتحلى باسم التسوية و بمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام (1) . و مساجلة الخصوم بالموزون و المقفى، و المنثور الذي لم يقف، و بالإرجاز عند المتح (2) ، و عند مجاثاة الخصم، و ساعة المشاولة (3) ، و في نفس المجادلة و المحاورة.

و كذلك الأسجاع عند المنافرة و المفاخرة، و استعمال المنثور في خطب الحمالة، و في

---

(1) المخصرة ما أمسك الانسان بيده من عصا أو قضيب. المناقلة مراجعة الكلام.
(2) المتح: الاستقاء من البئر.
(3) المشاولة: أن يتناول بعضهم بعضا بالرماح. المجاثاة الجلوس على الركبتين.

مقامات الصّلح وسل السخيمة (1) ، و القول عند المعاقدة و المعاهدة، و ترك اللفظ يجري على سجيته و على سلامته، حتى يخرج على غير صنعة و لا اجتلاب تأليف، و لا التماس قافية، و لا تكلف لوزن. مع الذي عابوا من الاشارة بالعصي، و الاتكاء على أطراف القسيّ، و خدّ وجه الأرض بها، و اعتمادها عليها إذا اسحنفرت (2) في كلامها، و افتتّت يوم الحفل في مذاهبها، و لزومهم العمائم في أيام الجموع، و أخذ المخاصر في كل حال، و جلوسها في خطب النّكاح، و قيامها في خطب الصلح و كل ما دخل في باب الحمالة، و أكدّ شأن المحالفة، و حقق حرمة المجاورة، و خطبهم على رواحلهم في المواسم العظام، و المجامع الكبار. و التماسح بالأكفّ، و التحالف على النار، و التعاقد على الملح، و أخذ العهد المؤكد و اليمين الغموس مثل قولهم: ما سرى نجم و هبّت ريح، و بلّ بحر صوفة (3) ، و خالفت جرّة درة (4) . و لذلك قال الحارث ابن حلزة اليشكري:

و اذكروا حلف ذي المجاز و ما قـ # ـدّم فيه: العهود و الكفلاء

حذر الخون و التعدي و هل # تنقض ما في المهارق الأهواء

الخون: الخيانة. و يروى: «الجور» .

و قال أوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه # كما صدّ عن نار المهول حالف

و قال الكميت:

كهولة ما أوقد المحلفون # لدى الحالفين و ما هوّلوا

---

(1) السخيمة: الحقد و الكراهية.
(2) اسحنفرت: مضت دون تمهل.
(3) صوف البحر شيء على شكل الصوف الحيواني.
(4) الجرة ما يجتره الحيوان من جوفه. و الدرة: كثرة اللبن و سيلانه. و اختلافها أن الدرة تسفل و الجرة تعلو.

و قال الأول:

حلفت بالملح و الرماد و بالنـــ # نار و باللّه نسلم الحلقه

حتى يظلّ الجواد منعفرا # و يخضب النبل غرة الدرقه

و قال الأول:

حلفت لهم بالملح و الجمع شهد # و بالنار و اللات التي أعظم

و قال الحطيئة في أضجاع القسيّ:

أم من لخصم مضجعين قسيّهم # صعر خدودهم عظام المفخر

و قال لبيد في خدّ وجه الأرض بالعصي و القسي:

نشين صحاح البيد كلّ عشية # بعوج السراء عند باب محجب

و مثله:

إذا اقتسم الناس فضل الفخار # أطلنا على الأرض ميل العصا

و مثله:

حكمت لنا في الأرض يوم محرق # أيامنا في الناس حكما فيصلا

و قال لبيد بن ربيعة في ذكر القسي:

ما إن أهاب إذا السرادق غمه # قرع القسي و أرعش الرّعديد

و قال كثير في الإسلام:

إذا قرعوا المنابر ثم خطّوا # بأطراف المخاصر كالغضاب

و قال أبو عبيدة: سأل معاوية شيخا من بقايا العرب: أيّ العرب رأيته أضخم شأنا؟قال: حصن بن حذيفة، رأيته متوكئا على قوسه يقسم في الحليفين أسد و غطفان.

و قال لبيد بن ربيعة في الإشارة:

غلب تشذّر بالدخول كأنها # جنّ البدي رواسيا أقدامها [1]

و قال معن بن أوس المزني:

ألا من مبلغ عني رسولا # عبيد اللّه إذ عجل الرسالا

تعاقل دوننا أبناء ثور # و نحن الأكثرون حصى و مالا

إذا اجتمع القبائل جئت ردفا # وراء الماسحين لك السبالا

فلا تعطى عصا الخطباء يوما # و قد تكفى المقادة و المقالا

فذكر عصا الخطباء كما ترى. و قال آخر في حمل القناة:

إلى امرئ لا تخطاه الرفاق، و لا # جدب الخوان إذا ما استنشئ المرق

صلب الحيازيم لا هذر الكلام إذا # هزّ القناة و لا مستعجل زعق

و قال جرير بن الخطفي في حمل القناة:

من للقناة إذا ما عيّ قائلها # أو للأعنة يا عمرو بن عمّار

قالوا: و هذا مثل قول أبي المجيب الربعي، حيث يقول: «لا تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة، فعند ذلك يفضحك أو يمدحك» . يقول: إذا قام يخطب فقد قام المقام الذي لا بدّ من أن يخرج منه مذموما أو محمودا.

و قال عبد اللّه بن رؤبة: سأل رجل رؤبة عن أخطب بني تميم، فقال:

خداش بن لبيد بن بيبة بن خالد، يعني البعيث الشاعر. و إنما قيل له البعيث لقوله:

تبعّث مني ما تبعث بعد ما # أمرت حبالي كل مرتها شزرا

---

(1) الغلب: غلاظ الاعناق. التشذر: رفع اليد و وضعها. الدخول: الحقد و الثأر. البدي: البادية.

قال أبو اليقظان: كانوا يقولون: أخطب بني تميم البعيث إذا أخذ القناة فهزها ثم اعتمد بها على الارض، ثم رفعها.

و قال يونس: لعمري لئن كان مغلّبا في الشعر لقد كان غلّب في الخطب. و إذا قالوا غلب فهو الغالب. و إذا قالوا مغلّب فهو المغلوب.

و في حديث النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه جاء إلى البقيع، و معه مخصرة، فجلس و نكت بها الأرض، ثم رفع رأسه فقال: «ما من نفس منفوسة إلا و قد كتب مكانها من الجنة أو النار» . و هو من حديث أبي عبد الرحمن السّلمي.

و مما يدلك على استحسانهم شأن المخصرة حديث عبد اللّه بن أنيس ذي المخصرة، و هو صاحب ليلة الجهنيّ، و كان النبي عليه السلام أعطاه مخصرة و قال: «تلقاني بها في الجنة» . و هو مهاجريّ عقبيّ أنصاري، و هو ذو المخصرة في الجنة.

مطاعن الشعوبية على العرب في الخطابة و العلوم و الحرب

قالت الشعوبية و من يتعصب للعجمية: القضيب للإيقاع، و القناة للبقّار، و العصا للقتال، و القوس للرمي. و ليس بين الكلام و بين العصا سبب، و لا بينه و بين القوس نسب، و هما إلى أن يشغلا العقل و يصرفا الخواطر، و يعترضا على الذهن أشبه، و ليس في حملهما ما يشحذ الذهن، و لا في الإشارة بهما ما يجلب اللفظ. و قد زعم أصحاب الغناء أن المغني إذا ضرب على غنائه، قصّر عن المغني الذي لا يضرب على غنائه. و حمل العصا بأخلاق الفدادين (1)

أشبه، و هو بجفاء العرب و عنجهية أهل البدو، و مزاولة إقامة الإبل على الطرق (2) أشكل، و به أشبه.

---

(1) الفداد: الجافي الكلام و الموت.
(2) اقامة الابل على الطرق: توجيهها الجهة المستقيمة.

قالوا: و الخطابة شيء في جميع الأمم، و بكلّ الأجيال (1) إليه أعظم الحاجة، حتى أن الزّنج مع الغثارة (2) ، و مع فرط الغباوة، و مع كلال الحد و غلظ الحس و فساد المزاج، لتطيل الخطب، و تفوق في ذلك جميع العجم، و إن كانت معانيها أجفى و أغلظ، و ألفاظها أخطل و أجهل (3) . و قد علمنا أن أخطب الناس الفرس و أخطب الفرس أهل فارس، و أعذبهم كلاما و أسهلهم مخرجا و أحسنهم دلاّ (4) و أشدهم فيه تحكما، أهل مرو، و أفصحهم بالفارسية الدريّة، و باللغة الفهلوية، أهل قصبة الأهواز، فأما نغمة الهرابذة (5) ، و لغة الموابذة (6) ، فلصاحب تفسير الزمزمة (7) .

قالوا: و من أحبّ أن يبلغ في صناعة البلاغة، و يعرف الغريب، و يتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب كاروند. و من احتاج إلى العقل و الأدب، و العلم بالمراتب و العبر و المثلات (8) ، و الألفاظ الكريمة، و المعاني الشريفة، فلينظر في سير الملوك. فهذه الفرس و رسائلها و خطبها و الفاظها، و معانيها. و هذه يونان و رسائلها و خطبها، و عللها و حكمها، و هذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة، و الخطأ من الصواب، و هذه كتب الهند في حكمها و أسرارها، و سيرها و عللها، فمن قرأ هذه الكتب، و عرف نور تلك العقول، و غرائب تلك الحكم، عرف أين البيان و البلاغة، و أين تكاملت تلك الصناعة. فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني، و تخيّر الألفاظ، و تمييز الأمور، أن يشيروا بالقنا و العصي، و القضبان و القسي.

---

(1) الأجيال: مفردها: جيل: صنف من الناس.
(2) الغثارة: الحمق و الجهل.
(3) الخطل: الخطأ.
(4) دلا: هديا.
(5) هرابذة: بيوت النار التي للهند.
(6) موابذة: مفردها موبذ: قاضي المجوس.
(7) الزمزمة: صوت لا يستعمل فيه اللسان أو الشفة. يستعملها المجوس عند الطعام.
(8) المثلات: مفردها المثلة، العقوبة و التنكيل.

كلا، و لكنكم كنتم رعاة بين الإبل و الغنم، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر، و حملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر، و حملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب. و لطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامكم، و غلظت مخارج أصواتكم، حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصمّان. و إنما كان جل قتالكم بالعصي. و لذلك فخر الأعشى على سائر العرب فقال:

و لسنا نقاتل بالعصي و لا نرامي بالحجارة

إلا علالة أو بدا # هة قارح نهد الجزاره [1]

و قال آخر:

فإن تمنعوا منا السلاح فعند ما # سلاح لنا لا يشترى بالدراهم

جنادل أملاء الأكفّ كأنها # رءوس رجال حلّقت بالمواسم [2]

و قال جندل الطهوي:

حتى إذا دارت رحى لا تجري # صاحت عصي من قنا و سدر

و قال آخر:

دعا ابن مطيع للبياع فجئته # إلى بيعة قلبي لها غير آلف

فناولني خشناء لما لمستها # بكفي ليست من أكفّ الخلائف

من الششنات الكزم [3] أنكرت مسها # و ليست من البيض الرفاق اللطائف

معاودة حمل الهراوي لقومها # فرورا إذا ما كان يوم التسايف [4]

---

(1) البداهة: أول مشي الفرس. القارح: الفرس في الخامسة. النهد: المرتفع. الجزارة: اليدان و الرجلان و العنق.

(2) جنادل: مفردها جندل: صخرة.

(3) الكزم: القصيرة الاصابع.

(4) الهراوي: مفردها هراوة: العصا الضخمة. التسايف: التضارب بالسيوف.

و قال آخر:

ما للفرزدق من عز يلوذ به # إلا بني العمّ في أيديهم الخشب

قالوا: و إنما كانت رماحكم من مرّان، و أسنتكم من قرون البقر، و كنتم تركبون الخيل في الحرب اعراء. فإن كان الفرس ذا سرج فسرجه رحالة من أدم، و لم يكن ذا ركاب، و الرّكاب من أجود آلات الطاعن برمحه، و الضارب بسيفه. و ربما قام فيهما أو اعتمد عليهما. و كان فارسهم يطعن بالقناة الصماء، و قد علمنا أن الجوفاء أخف محملا، و أشد طعنة. و يفخرون بطول القناة و لا يعرفون الطعن بالمطاردة (1) ، و إنما القنا الطوال للرّجالة، و القصار للفرسان، و المطارد لصيد الوحش. و يفخرون بطول الرمح و قصر السيف، فلو كان المفتخر بقصر السيف الراجل دون الفارس، لكان الفارس يفخر بطول السيف، و إن كان الطول في الرمح إنما صار صوابا لأنه ينال به البعيد، و لا يفوته العدو، و لأن ذلك يدل على شدة أسر الفارس و قوة أيده. فكذلك السيف الطويل العريض.

و كنتم تتخذون للقناة زجّا و سنانا حين لم يقبض الفارس منكم على أصل قناته، و يعتمد عند طعنته بفخذه، و يستعن بحمية فرسه.

و كان أحدكم يقبض على وسط القناة و يخلف منها مثل ما قدم، فإنما طعنكم الرزة (2) و النهزة (3) ، و الخلس و الزج (4) .

و كنتم تتساندون في الحرب، و قد أجمعوا على أن الشركة ردية في ثلاثة أشياء: في الملك، و الحرب، و الزوجة.

و كنتم لا تقاتلون بالليل، و لا تعرفون البيات (5) و لا الكمين، و لا الميمنة و لا

---

(1) المطاردة: التضارب بالمطارد و هي الرماح القصيرة تطرد بها الوحوش.
(2) الرزة: الطعنة.
(3) النهزة: الطعن في دفع مرة تلو اخرى.
(4) الخلس: الطعن بسرعة كأنما يختلسها الطاعن. الزج: طعنة عاجلة.
(5) البيات: الايقاع بالعدو.

الميسرة، و لا القلب و لا الجناح، و لا الساقة و لا الطليعة (1) و لا النّفاضة و لا الدّراجة (2) ، و لا تعرفون من آلة الحرب الرتيلة و لا العرادة (3) ، و لا المجانيق، و لا الدّبابات (4) و لا الخنادق، و لا الحسك، و لا تعرفون الأقبية و لا السراويلات، و لا تعليق السيوف، و لا الطبول و لا البنود و لا التجافيف (5) ، و لا الجواشن (6) و لا الخوذ، و لا السواعد و لا الأجرس، و لا الوهق (7) و لا الرمي بالبنجكان، و الزرق بالنفط و النيران.

و ليس لكم في الحرب صاحب علم يرجع إليه المنحاز، و يتذكره المنهزم. و قتالكم إما سلّة و إما مزاحفة. و المزاحفة على مواعد متقدمة، و السّلة مسارقة و في طريق الاستلاب و الخلسة.

قالوا: و الدليل على أنكم لم تكونوا تقاتلون قول العامري:

يا شدّة ما شددنا غير كاذبة # على سخينة لو لا الليل و الحرم

و يدلك على ذلك ايضا قول عبد الحارث بن ضرار:

و عمرو إذ أتانا مستميتا # كسونا رأسه عضبا صقيلا (8)

فلو لا الليل ما آبوا بشخص # يخبّر أهلهم عنهم قليلا

---

(1) ساقة الجيش: مؤخرته.
(2) النفاضة: المتقدمون أمام الملك ينفضون له الطريق. الدراجة: الناس يدرجون أمام الملك.
(3) الرتيلة: أن يقام الصف خلف صف آخر. العرادة: المنجنيق الصغير.
(4) الدبابة: آلة من جلد أو خشب تملأ بالرجال و يتقدمون بها إلى الحصن المحاصر و هي تقيهم من سهام العدو.
(5) التجافيف: ما يجلل به الفرس من السلاح.
(6) الجواشن: مفردها جوشن: زرد يوضع على الصدر.
(7) الوهق: حبل شديد الفتل يرمى بالشوطة فتؤخذ فيه الدابة أو الانسان.
(8) العضب: السيف القاطع. كساه سيفا: جلله به.

و قال أمية بن الأسكر:

أ لم تر أن ثعلبة بن سعد # غضاب، حبذا غضب الموالي

تركت مصرفا لما التقينا # صريعا تحت أطراف العوالي

و لو لا الليل لم يفلت ضرار # و لا رأس الحمار أبو جفال

الرد على الشعوبية

قلنا: ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل. و قد يقاتل بالليل و النهار من تحول دون ماله المدن و هول الليل. و ربما تحاجز الفريقان و إن كل واحد منهم يرى البيات (1) ، و يرى أن يقاتل إذا بيتوه.

و هذا كثير. و الدليل على أنهم كانوا يقاتلون بالليل قول سعد بن مالك في قتل كعب بن مزيقيا الملك الغساني:

و ليلة تبّع و خميس كعب # أتونا، بعد ما نمنا، دبيبا

فلم نهدد لبأسهم و لكن # ركبنا حدّ كوكبهم ركوبا (2)

بضرب يفلق الهامات منه # و طعن يفصل الحلق الصليبا

و قال بشر بن أبي خازم:

فأما تميم تميم بن مر # فألفاهم القوم روبى نياما

يقول: شربوا الرائب من اللبن فسكروا منه، و هو اللبن الذي قد أدرك ليمخض. يقال منه راب يروب روبا و رءوبا. و رؤبة اللبن: خميرة تلقى فيه من الحامض. و رؤبة الليل: ساعة منه. يقال أهرق عنا من رؤبة الليل. و قال بعضهم: منه قول الشاعر:

فألفاهم القوم روبى نياما

---

(1) البيات: الايقاع بالعدو.

(2) لم نهدد: لم نكسر. كوكبهم: معظمهم.

و يقال: روبى: خثراء الأنفس مختلطون. و يقال شربوا من الرائب فسكروا.

و قال عياض السيديّ:

و نحن نجلنا لابن ميلاء نحره # بنجلاء من بين الجوانح تشهق [1]

و يوم بني الديان نال أخاهم # بأرماحنا بالسيّ موت محذّق [2]

و منا حماة الجيش ليلة أقبلت # أياد يزجّيها الهمام محرّق [3]

و قال آخر:

و على شتير راح منا رائح # بأبي قبيصة كالفنيق المقرّم [4]

يردي بشرحاف المغاور بعد ما # نشر النهار سواد ليل مظلم [5]

و قال عياض السيدي:

لحمام بسطام بن قيس بعد ما # جنح الظلام بمثل لون العظلم

و قال أوس بن حجر:

باتوا يصيب القوم ضيفا لهم # حتى إذا ما ليلهم أظلما

قروهم شهباء ملمومة # مثل حريق النار أو أضرما

و اللّه لو لا قرزل ما نجا # و كان مثوى خدك الأخرما

نجاك جياش هزيم كما # أحميت وسط الوبر الميسما [6]

---

(1) نجله: طعنه بشدة. تشهق: تصوت من قوة اندفاع الدم.

(2) السي: موضع.

(3) محرق: لقب عمرو بن هند، سمي بذلك لحرقه بني تميم.

(4) شتير: موضع.

(5) شرحاف: سريع.

(6) جياش: سريع في الجري. هزيم: شديد الصوت. المسم: ما يوسم به البعير.

و بعد فهل قتل ذؤاب الأسدي عتيبة بن الحارث بن شهاب إلا في وسط الليل الأعظم، حين تبعوهم فلحقوهم.

و كانوا إذا أجمعوا للحرب دخّنوا بالنهار، و أوقدوا بالليل. قال عمرو بن كلثوم و ذكر وقعة لهم:

و نحن غداة أوقد في خزاز # رفدنا فوق رفد الرافدينا

و قال خمخام السدوسي:

و أنا بالصّليب ببطن فج # جميعا واضعين به لظانا

ندّخن بالنهار ليبصرونا # و لا نخفي على أحد أتانا

و أما قولهم: «و لا يعرفون الكمين» فقد قال أبو قيس بن الأسلت:

و أحرزنا المغانم و استبحنا # حمى الأعداء و اللّه المعين

بغير خلابة مكر # مجاهرة و لم يخبأ كمين

و أما ذكرهم للركب (1) ، فقد أجمعوا على أن الرّكب كانت قديمة، إلا أن ركب الحديد لم تكن في العرب إلا في أيام الأزارقة. و كانت العرب لا تعود نفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب. و إنما كانت تنزو نزوا.

و قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: «لا تخور قوة ما كان صاحبها ينزو و ينزع» ، يقول: لا تنتكث قوته ما دام ينزع في القوس، و ينزو في السرج من غير أن يستعين بركاب.

قال عمر: «الراحة عقلة، و إياكم و السمنة فإنها عقلة (2) » .

---

(1) الركب: مفردها ركاب، و هي ما يضع الفارس فيها رجله.

(2) عقلة: يعني أنها تعقل صاحبها و تحبسه.

و لهذه العلة قتل خالد بن سعيد بن العاصي، حين غشيه العدو و أراد الركوب و لم يجد من يحمله. و لذلك قال عمر حين رأى المهاجرين و الأنصار قد أخصبوا، و همّ كثير منهم بمقاربة عيش العجم: «تمعددوا و اخشوشنوا (1) ، و اقطعوا الركب، و انزوا على الخيل نزوا» . و قال: «احفوا و انتعلوا، إنكم لا تدرون متى تكون الجفلة (2) » .

و كانت العرب لا تدع اتخاذ الركاب للرحل فكيف تدع الركاب للسرج؟! و لكنهم كانوا و إن اتخذوا الركب فإنهم كانوا لا يستعملونها إلا عند ما لا بد منه، كراهة أن يتّكلوا على بعض ما يورثهم الاسترخاء و التفنخ (3) و يضاهوا أصحاب الترفة و النعمة (4) . قال الأصمعي: قال العمري: كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى. ثم يجمع جراميزه و يثب، فكأنما خلق على ظهر فرسه. و فعل مثل ذلك الوليد بن يزيد بن عبد الملك و هو يومئذ وليّ عهد هشام، ثم أقبل على مسلمة بن هشام فقال له: أبوك يحسن مثل هذا؟فقال مسلمة: لأبي مائة عبد يحسنون مثل هذا. فقال الناس: لم ينصفه في الجواب.

و زعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا و هو جامع لأسباب الفروسية.

و أما ما ذكروا من شأن رماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهمون.

للرماح طبقات: فمنها النيزك (5) ، و منها المربوع، و منها المخموس (6) ، و منها التام، و منها الخطل و هو الذي يضطرب في يد صاحبه لأفراط طوله. فإذا أراد الرجل أن يخبر عن شدة أمر صاحبه ذكره، كما ذكر متمّم بن نويرة أخاه

---

(1) تمعددوا: كانوا أهل قشف و شظف.
(2) الجفلة: الانزعاج، الشدود.
(3) التفنخ: القهر و الاذلال.
(4) الترفة: الترف، النعمة.
(5) النيزك: الرمح القصير.
(6) المربوع: طوله أربع أذرع. المخموس: طوله خمس أذرع.

مالكا، فقال: «كان يخرج في الليلة الصنبر عليه الشملة الفلوت (1) ، بين المزادتين النضوحين، على الجمل الثفال، معتقل الرمح الخطل» . قالوا له:

و ابيك إن هذا لهو الجلد. و لا يحمل الرمح الخطل منهم إلا الشديد الأيّد (2) ، و المدلّ بفضل قوته عليه، الذي إذا رآه الفارس في تلك الهيئة هابه و حاد عنه، فإن شد عليه كان أشدّ لاستخذائه له (3) .

و الحال الأخرى أن يخرجوا في الطلب بعقب الغارة، فربما شدّ على الفارس المولّي فيفوته بأن يكون رمحه مربوعا أو مخموسا، و عند ذلك يستعملون النيازك. ، و النيزك أقصر الرماح. و إذا كان الفارس الهارب يفوت الفارس الطالب زجه بالنيزك، و ربما هاب مخالطته فيستعمل الزج دون الطعن، صنيع ذؤاب الأسدي بعتيبة بن الحارث بن شهاب.

و قال الشاعر:

و اسمر خطّيا كأنّ كعوبه # نوى القصب قد أربى ذراعا على العشر

و قال آخر:

هاتيك تحملني و أبيض صارما # و محرّبا في مارن مخموس (4)

و قال آخر:

فولوا و أطراف الرماح عليهم # قوادر، مربوعاتها و طوالها

و هم قوم الغارات فيهم كثيرة، و بقدر كثرة الغارات كثر فيهم الطلب، و الفارس ربما زاد في طول رمحه ليخبر عن فضل قوته، و يخبر عن قصر سيفه ليخبر عن فضل نجدته. قال كعب بن مالك:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا # قدما و نلحقها إذا لم تلحق

---

(1) ليلة صنبر: شديدة البرد. الشملة الفلوت: التي لا ينضم طرفاها.
(2) الايد: القوي.
(3) الاستخذاء: الخضوع.
(4) المارن: الصلب اللين. المخموس: الرمح الذي طوله خمس أذرع.

و قال آخر:

إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم # حدّ الظبات وصلناها بأيدينا

و قال رجل من بني نمير:

وصلنا الرفاق المرهفات بخطونا # على الهول حتى أمكنتنا المضارب

و قال حميد بن ثور الهلالي:

و وصل الخطا بالسيف و السيف بالخطا # إذا ظن أن السيف ذو السيف قاصر

و قال آخر:

الطاعنون في النحور و الكلى # شزرا و وصالو السيوف بالخطى (1)

و أما ما ذكروا «من اتخاذ الزّج لسافلة الرمح، و السنان لعاليته» فقد ذكروا أن رجلا قتل أخوين في نقاب (2) ، أحدهما بعالية الرمح، و الآخر بسافلته.

و قدم في ذلك راكب من قبل بني مروان على قتادة يستثبت الخبر من قبله، فأثبته له.

و قال الآخر:

إن لقيس عادة تعتادها # سلّ السيوف و خطى تزدادها

و قد وصفوا أيضا السيوف بالطول. و قال عمارة بن عقيل:

بكل طويل السيف ذي خيزرانة # جريء على الأعداء معتمد الشطب (3)

---

(1) الطعن الشزر: ما كان عن يمين و يسار.
(2) يعني فجأة مع غير قصد أو تربص.
(3) خيزرانة: رماح. الشطب من الخيل: الكبير الحسن الطلعة.

و جملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب و الفرس. فأما الهند فإنما لهم معان مدونة، و كتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، و لا إلى عالم موصوف، و إنما هي كتب متوارثة، و آداب على وجه الدهر سائرة مذكورة.

و لليونانيين فلسفة و صناعة منطق، و كان صاحب المنطق نفسه بكيّ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام و تفصيله و معانيه، و بخصائصه. و هم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، و لم يذكروه بالخطابة، و لا بهذا الجنس من البلاغة، و في الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس، و كل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة و عن اجتهاد رأي، و طول خلوة، و عن مشاورة و معاونة، و عن طول التفكر و دراسة الكتب، و حكاية الثاني علم الأول، و زيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم. و كلّ شيء للعرب فإنما هو بديهة و ارتجال، و كأنه إلهام، و ليست هناك معاناة و لا مكابدة، و لا إجالة فكر و لا استعانة، و إنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، و إلى رجز بوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، و إلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا (1) ، و تنثال الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيّده على نفسه، و لا يدرسه أحدا من ولده. و كانوا أميين لا يكتبون، و مطبوعين لا يتكلفون، و كان الكلام الجيد عندهم أظهر و أكثر، و هم عليه أقدر، و له أقهر، و كل واحد في نفسه أنطق، و مكانه من البيان أرفع، و خطباؤهم للكلام أوجد، و الكلام عليهم أسهل، و هو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، و يحتاجوا إلى تدارس، و ليس هم كمن حفظ علم غيره، و احتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، و التحم بصدورهم، و اتصل بعقولهم، من غير تكلّف و لا قصد، و لا تحفظ و لا طلب. و إن شيئا هذا الذي في أيدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب و عدد التراب، و هو اللّه الذي يحيط بما كان، و العالم بما سيكون.

---

(1) ارسالا: أفواجا.

و نحن–أبقاك اللّه–إذا دعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد و الإرجاز، و من المنثور و الإسجاع، و من المزدوج و ما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، و الرونق العجيب، و السبك و النحت، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، و لا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير، و النبذ القليل.

و نحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة، و قديمة غير مولّدة، إذ كان مثل ابن المقفع و سهل بن هارون، و ابي عبيد اللّه، و عبد الحميد و غيلان، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، و يصنعوا مثل تلك السير.

و أخرى: أنك متى أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلّص، و معدن الفصاحة التامة، و وقفته على شعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذي قلت هو الحق، و أبصر الشاهد عيانا. فهذا فرق ما بيننا و بينهم.

فتفهّم عني، فهمك اللّه، ما أنا قائل في هذا، ثم اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية و لا أعدى على دينه، و لا أشد استهلاكا لعرضه، و لا أطول نصبا، و لا أقل غنما من أهل هذه النحلة. و قد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، و توقد نار الشنآن في قلوبهم، و غليان تلك المراجل الفائرة، و تسعّر تلك النيران المضطرمة. و لو عرفوا أخلاق أهل كل ملة، و زيّ اهل كل لغة و عللهم، على اختلاف شاراتهم (1) و آلاتهم، و شمائلهم و هيئاتهم، و ما علة كل شيء من ذلك، و لم اجتلبوه و لم تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، و لخفت مئونتهم على من خالطهم.

عصا سليمان و عصا موسى

و الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، و معدن شريف، و من المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، و لا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ

(1) شاراتهم: هيئاتهم.

سليمان بن داود صلّى اللّه عليه و سلّم العصا لخطبته و موعظته، و لمقاماته، و طول صلاته، و لطول التلاوة و الانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة. قال اللّه عز و جل و قوله الحق: **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ اَلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ اَلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ اَلْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ اَلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي اَلْعَذَابِ اَلْمُهِينِ** . و المنسأة هي العصا.

قال أبو طالب حين قام يذم الرجل الذي ضرب زميله بالعصا فقتله حين تخاصما في حبل و تجاذبا:

أ من أجل حبل لا أباك علوته # بمنسأة قد جاء حبل و احبل

و قال آخر

إذا دببت على المنسأة من كبر # فقد تباعد عنك اللهو و الغزل

قال أبو عثمان: و إنما بدأنا بذكر سليمان صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه من أبناء العجم، و الشعوبية إليهم أميل، و على فضائلهم أحرص، و لما أعطاهم اللّه أكثر و صفا و ذكرا.

و قد جمع اللّه لموسى بن عمران عليه السلام في عصاه من البرهانات العظام، و العلامات الجسام، ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدة من المرسلين و جماعة من النبيين. قال اللّه تبارك و تعالى فيما يذكر من عصاه: **إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا** ، إلى قوله تعالى:

وَ لاَ يُفْلِحُ اَلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتى .

فلذلك قال الحسن بن هاني في شأن خصيب و أهل مصر حين اضطربوا عليه:

فإن تك من فرعون فيكم بقية # فإن عصا موسى بكف خصيب

أ لم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليط الناس و التمويه عليهم إلا بالعصي، و لا عارضهم موسى إلا بعصاه.

و قال اللّه عز و جل: وَ قَالَ مُوسى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ. `حَقِيقٌ عَلى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اَللَّهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. `قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصَّادِقِينَ. `فَأَلْقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ .

و قال اللّه عز و جل: قَالُوا يَا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ اَلْمُلْقِينَ. `قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ اَلنَّاسِ وَ اِسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ. `وَ أَوْحَيْنَا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. `فَوَقَعَ اَلْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أ لا ترى أنهم لما سحروا أعين الناس و استرهبوهم بالعصي و الحبال، لم يجعل اللّه للحبال من الفضيلة في اعطاء البرهان ما جعل للعصا، و قدرة اللّه على تصريف الحبال في الوجوه، كقدرته على تصريف العصا.

و قال اللّه تبارك و تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ اَلْوَادِ اَلْأَيْمَنِ فِي اَلْبُقْعَةِ اَلْمُبَارَكَةِ مِنَ اَلشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسى إِنِّي أَنَا اَللَّهُ رَبُّ اَلْعَالَمِينَ. `وَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسى أَقْبِلْ وَ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ اَلْآمِنِينَ . فبارك كما ترى على تلك الشجرة، و بارك في تلك العصا، و إنما العصا جزء من الشجر.

و قال عز و جل: وَ اَلْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. `أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا .

أصل العصا الشجرة المباركة

و قالت الحكماء: إنما تبنى المدائن على الماء و الكلأ و المحتطب. فجمع بقوله: أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا النجم و الشجر، و الملح و اليقطين، و البقل و العشب. فذكر ما يقوم على ساق و ما يتفنن و ما يتسطح، و كل ذلك مرعي، ثم قال على النسق: مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ ، فجمع بين الشجر و الماء و الكلأ و الماعون كله، لأن الملح لا يكون إلا بالماء، و لا تكون النار إلا من الشجر.

و قال اللّه تبارك و تعالى: اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ اَلشَّجَرِ اَلْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . و قال: أَ فَرَأَيْتُمُ اَلنَّارَ اَلَّتِي تُورُونَ. ءَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ اَلْمُنْشِؤُنَ. نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَ مَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ . و المرخ (1)

و العفار (2) ، و السواس (3) و العراجين، و جميع عيدان النار، و كل عود يقدح على طول الاحتكاك فهو غني بنفسه، بالغ للمقوي و غير المقوي (4) و حجر المرو يحتاج إلى قراعة الحديد، و هما يحتاجان إلى العطبة (5) ، ثم إلى الحطب. و العيدان هي القادحة، و هي المورية، و هي الحطب.

قال اللّه عز و جل: اَلَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ وَ يَمْنَعُونَ اَلْمَاعُونَ .

و الماعون الماء و النار و الملح و الكلأ. و قال الأسدي:

و كأن أرحلنا بجو محصّب # بلوى عنيزة من مقيل الترمس

في حيث خالطت الخزامى عرفجا # يأتيك قابس اهلها لم يقبس

و إنما وصف خصب الوادي و لدونة عيدانه، و رطوبة الورق. و هذا خلاف قول عمرو بن عبد هند:

فإن السنان يركب المرء حدّه # من العر أو يعدو على الأسد الورد

و أن الذي ينهاكم عن طلابها # يناغي نساء الحي في طرّة البرد

يعلّل و الأيام تنقص عمره # كما تنقص النيران من طرف الزند

و ذكر اللّه عز و جل النخلة فجعلها شجرة، فقال: أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي اَلسَّمَاءِ .

و ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حرمة الحرم فقال: «لا يختلى خلاها، و لا يعضد شجرها» .

---

(1) المرخ: شجر ليس له ورق و لا شوك.
(2) العفار: شجر يشبه المرخ.
(3) السواس: شجر من العضاة يقتدح به.
(4) المقوي: المسافر ينزل في الارض القفر.
(5) العطبة: القطعة من القطن.

و قال اللّه عز و جل: وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ .

و تقول العرب ليس شيء أدفأ من شجر، و لا أظل من شجر.

و لم يكلّم اللّه موسى إلا من شجرة، و جعل أكبر آياته في عصاه، و هي من الشجر. و لم يمتحن اللّه جل و عز صبر آدم و حواء، و هما أصل هذا الخلق و أوله، إلا بشجرة. و لذلك قال: وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ اَلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ اَلظَّالِمِينَ . و جعل بيعة الرضوان تحت شجرة. و قال: وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ .

و سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى شجرة.

و شجرة سرّ تحتها سبعون نبيا لا تعبل و لا تسرف (1) .

و حين اجتهد ابليس في الإحتيال لآدم و حواء صلى اللّه عليهما، لم يصرف الحيلة إلا إلى الشجرة، و قال: هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ اَلْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لاَ يَبْلى .

و فيما يضرب بالأمثال من العصي قالوا: قال جميل بن بصبهري حين شكا إليه الدهاقين (2) شر الحجاج. قال أخبروني أين مولده؟قالوا الحجاز. قال ضعيف معجب. قال فمنشؤه؟قالوا الشام. قال ذلك شر. ثم قال ما أحسن حالكم إن لم تبتلوا معه بكاتب منكم، يعني من أهل بابل. فابتلوا بزاذان فروخ الأعور. ثم ضرب لهم مثلا فقال: إن فأسا ليس فيها عود ألقيت بين الشجر، فقال بعض الشجر لبعض: ما ألقيت هذه هاهنا لخير. قال: فقالت شجرة عادية إن لم يدخل في است هذه عود منكن فلا تخفنها.

و قال يزيد بن مفرّغ:

العبد يقرع بالعصا # و الحرّ تكفيه الملامة

---

(1) سر: قطع سراره. لا تعبل: لا يسقط ورقها. سرقت: أصابها الدود.
(2) الدهاقين: مفردها دهقان، و هو زعيم فلاحي العجم.

و قال: أخذه من الفلتان الفهمي، حيث قال:

العبد يقرع بالعصا # و الحر تكفيه الاشارة

و قال مالك بن الرّيب:

العبد يقرع بالعصا # و الحر يكفيه الوعيد

و قال بشار بن برد:

الحر يلحى و العصا للعبد # و ليس للملحف مثل الردّ

و قال آخر

فاحتلت حين صرمتني # و المرء يعجز لا المحالة

و الدهر يلعب بالفتى # و الدهر أروغ من ثعاله (1)

و المرء يكسب ماله # بالشّحّ يورثه الكلالة (2)

و العبد يقرع بالعصا # و الحر تكفيه المقالة

منافع العصا و مرافقها

و مما يدخل في باب الانتفاع بالعصا أن عامرا بن الظرب العدواني، حكم العرب في الجاهلية، لما أسنّ و اعتراه النسيان، أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هو فهّ (3) عن الحكم، و جار عن القصد، و كانت من حكيمات بنات العرب حتى جاوزت في ذلك مقدار صحر بنت لقمان، و هند بنت الخس، و جمعة بنت حابس ابن مليل الاياديين.

و كان يقال لعامر: ذو الحلم، و لذلك قال الحارث بن وعلة:

و زعمتم أن لا حلوم لنا # إن العصا قرعت لذى الحلم

---

(1) ثعالة: علم جنس للثعلب، يعني بالمراوغة.
(2) الكلالة: الاقارب ما عدا الوالد و الولد.
(3) فه: نسي.

و قال المتلمس في ذلك:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا # و ما علّم الإنسان إلا ليعلما

و قال الفرزدق بن غالب:

فإن كنت أستأني حلوم مجاشع # فإن العصا كانت لذي الحلم تقرع

و من ذلك حديث سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، و اعتزام لملك على قتل أخيه إن هو لم يصب ضميره، فقال له سعد: أبيت اللعن تدعني حتى أقرع بهذه العصا أختها؟ فقال له الملك: و ما علمه بما تقول العصا؟فقرع بها مرة و أشار بها مرة، ثم رفعها ثم وضعها، ففهم المعنى فأخبره و نجا من القتل.

و ذكر العصا يجري عندهم في معان كثيرة. تقول العرب: «العصا من العصية، و الأفعى بنت حية» ، تريد أن الأمر الكبير يحدث عن الأمر الصغير.

و يقال: «طارت عصا فلان شققا» . و قال الأسدي:

عصيّ الشمل من أسد أراها # قد انصدعت كما انصدع الزجاج

و يقال: «فلان شق عصا المسلمين» ، و لا يقال شق ثوبا و لا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشق. و قال العتّابي في مديح بعض الخلفاء:

إمام له كف يضمّ بنانها # عصا الدين ممنوعا من البري عودها

و عين محيط بالبرية طرفها # سواء عليه قربها و بعيدها

و قال مضرّس الأسدي:

فألقت عصا التسيار عنها و خيمت # بأرجاء عذب الماء بيض محافره

و قال أيضا:

فألقت عصاها و استقرت بها النوى # كما قرّ عينا بالأياب المسافر

و يقال لبني أسد: «عبيد العصا» يعني أنهم كانوا ينقادون لكل من حالفوا من الرؤساء. و قال بشر بن أبي خازم:

عبيد العصا لم يتقوك بذمة # سوى سيب سعدى إن سيبك واسع

و تسمي العرب كل صغير الرأس: «رأس العصا» .

و كان عمر بن هبيرة صغير الرأس، فقال سويد بن الحارث:

من مبلغ رأس العصا إن بيننا # ضغائن لا تنسى و إن قدم الدهر

و قال آخر:

فمن مبلغ رأس العصا أن بيننا # ضغائن لا تنسى و إن قيل سلّت

رضيت لقيس بالقليل و لم تكن # أخا راضيا لو أن نعلك زلّت

و كان والبة صغير الرأس، فقال ابو العتاهية في رأس والبة و رءوس قومه:

رءوس عصيّ كن من عود أثلة # لها قادح يبرى و آخر مخرب

و الدليل على أنهم كانوا يتّخذون المخاصر في مجالسهم كما يتخذون القنا و القسي في المحافل، قول الشاعر في بعض الخلفاء:

في كفه خيزران ريحه عبق # من كفّ أروع في عرنينه شمم

يغضى حياء و يغضى من جلالته # فما يكلم إلا حين يبتسم

و قال الآخر:

مجالسهم خفض الحديث و قولهم # إذا ما قضوا في الأمر وحي المخاصر

و قال الآخر:

يصيبون فصل القول في كلّ خطبة # إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر

و حدثني بعض أصحابنا قال: كنا منقطعين إلى رجل من كبار أهل العسكر، و كان لبثنا يطول عنده، فقال له بعضنا: إن رأيت أن تجعل لنا إمارة إذا ظهرت لنا خففنا عنك و لم نتبعك بالقعود، فقد قال أصحاب معاوية لمعاوية مثل الذي قلنا لك فقال: أمارة ذلك أن أقول إذا شئتم. و قيل ليزيد مثل ذلك فقال: إذا قلت على بركة اللّه. و قيل لعبد الملك مثل ذلك فقال: إذا ألقيت الخيزرانة من يدي. فأيّ شيء تجعل لنا أصلحك اللّه؟قال: إذا قلت يا غلام الغداء.

و في الحديث أن رجلا ألحّ على النبي صلّى اللّه عليه و سلّم في طلب بعض المغنم و في يده مخصرة، فدفعه بها، فقال يا رسول اللّه أقصني. فلما كشف النبي له عن بطنه احتضنه فقبل بطنه.

و في تثبيت شأن العصا و تعظيم أمرها، و الطعن على من ذم عاملها، قالوا: كانت لعبد اللّه بن مسعود عشر خصال: أولها السواد، و هو سرار النبي صلّى اللّه عليه و سلّم. فقال له النبي: «إذنك علي أن يرفع الحجاب، و تسمع سوادي» . و كان معه مسواك النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، و كانت معه عصاه.

قال و دخل عمير بن سعد على عمر بن الخطاب، حين رجع إليه من عمل حمص، و ليس معه إلا جراب و إداوة و قصعة و عصا، فقال له عمر: ما الذي أرى بك، من سوء الحال أو تصنع؟قال: و ما الذي ترى بي، أ لست صحيح البدن، معي الدنيا بحذافيرها؟قال: و ما معك من الدنيا؟قال: معي جرابي أحمل فيه زادي، و معي قصعتي أغسل فيها ثوبي، و معي إداوتي أحمل فيها مائي لشرابي، و معي عصاي إن لقيت عدوا قاتلته، و إن لقيت حية قتلتها، و ما بقي من الدنيا فهو تبع لما معي.

و قال الهيثم بن عدي، عن شرقي بن القطامي و سأله سائل عن قول الشاعر:

لا تعدلنّ أتاويين تضربهم # نكباء صر بأصحاب المحلات (1)

(1) الأتاوي: الغريب في غير وطنه. النكباء: أي ريح من الرياح الأربع.

قال: و المحلات: الدلو، و المقدحة، و القربة، و الفأس. قال: فأين أنت عن العصا؟و الصفن خير من الدلو و أجمع.

و قال النمر بن تولب:

أفرغت في حوضها صفني لتشربه # في دائر خلق الأعضاد أهدام

و أما العصا فلو شئت أن أشغل مجلسي كله بخصالها لفعلت.

و تقول العرب في مديح الرجل الجلد، الذي لا يفتات عليه بالرأي: «لا ذلك الفحل لا يقرع أنفه» . و هذا كلام يقال للخاطب إذا كان على هذه الصفة، و لأن الفحل اللئيم إذا أراد الضراب ضربوا أنفه بالعصا.

و قد قال أبو سفيان بن حرب بن أمية، عند ما بلغه من تزوج النبي صلّى اللّه عليه و سلّم بأم حبيبة، و قيل له: مثلك تنكح نساؤه بغير إذنه؟!فقال: «ذلك الفحل لا يقرع انفه» .

و الحمار الفاره يفسده السوط و تصلحه المقرعة. و أنشد لسلامة بن جندل:

أنا إذا ما أتانا صارخ فزع # كان الصراخ له قرع الظنابيب [1]

و قال الحجاج: «و اللّه لأعصبنكم عصب السلمة، و لأضربنكم ضرب غرائب الإبل» . و ذلك أن الأشجار تعصب أغصانها، ثم تخبط بالعصي لسقوط الورق و هشيم العيدان:

و دخل أبو مجلّز على قتيبة بخراسان، و هو يضرب رجالا بالعصي، فقال:

أيها الأمير، إن اللّه قد جعل لكل شيء قدرا، و وقّت فيه وقتا، فالعصا للأنعام و البهائم العظام، و السوط للحدود و التعزير، و الدرة للأدب، و السيف لقتال العدو و القود.

---

(1) الظنبوب: حرف عظم الساق، يقال: قرع ظنبوبه إذا عزم عليه.

ثم قال الشرقيّ: و لكن دعنا من هذا، خرجت من الموصل و أنا أريد الرقة مستخفيا، و أنا شاب خفيف الحاذ، فصحبني من أهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله، فذكر أنه تغلبي، من ولد عمرو بن كلثوم، و معه مزود و ركوة و عصا، فرأيته لا يفارقها، و طالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ أرمي بها في بعض الأودية، فكنا نمشي فإذا أصبنا دواب ركبناها، و إن لم نصب الدواب مشينا، فقلت له في شأن عصاه، فقال لي: إن موسى بن عمران صلّى اللّه عليه و سلّم حين آنس من جانب الطور نارا، و أراد الاقتباس لأهله منها، لم يأت النار في مقدار تلك المسافة القليلة إلا و معه عصاه، فلما صار بالوادي المقدس من البقعة المباركة قيل له: الق عصاك، و اخلع نعليك. فرمى بنعليه راغبا عنهما، حين نزّه اللّه ذلك الموضع عن الجلد غير الذكي، و جعل اللّه جماع امره من أعاجيبه و برهاناته في عصاه، ثم كلمه من جوف شجرة و لم يكلمه من جوف إنسان و لا جان.

قال الشرقي إنه ليكثر من ذلك و إني لأضحك متهاونا بما يقول، فلما برزنا على حمارينا تخلّف المكاري فكان حماره يمشي، فإذا تلكأ أكرهه بالعصا، و كان حماري لا ينساق، و علم أنه ليس في يدي شيء يكرهه، فسبقني الفتى إلى المنزل فاستراح و اراح، و لم أقدر على البراح، حتى وافاني المكاري، فقلت: هذه واحدة.

فلما أردنا الخروج من الغد لم نقدر على شيء نركبه، فكنا نمشي فإذا أعيا توكأ على العصا. و ربما أحضر و وضع طرف العصا على وجه الأرض فاعتمد عليها و مرّ كأنه سهم زالج، حتى انتهينا إلى المنزل و قد تفسخت من الكلال، و إذا فيه فضل كثير، فقلت هذه ثانية.

فلما كان في اليوم الثالث، و نحن نمشي في أرض ذات أخاقيق (1)

و صدوع، إذ هجمنا على حية منكرة فساورتنا، فلم تكن عندي حيلة إلا خذلانه

(1) الأخاقيق: الشقوق.

و اسلامه إليها، و الهرب منها، فضربها بالعصا فثقلت، فلما بهشت له (1)

و رفعت صدرها ضربها حتى وقذها (2) ، ثم ضربها حتى قتلها، فقلت: هذه ثالثة، و هي أعظمهن.

فلما خرجنا في اليوم الرابع، و قد و اللّه قرمت إلى اللحم (3) و أنا هارب معدم، إذا أرنب قد اعترضت، فخذفها بالعصا، فما شعرت إلا و هي معلقة و أدركنا ذكاتها (4) ، فقلت: هذه رابعة.

و اقبلت عليه فقلت لو أن عندنا نارا لما أخرت أكلها إلى المنزل. قال فإن عندك نارا! فأخرج عويدا من مزوده، ثم حكه بالعصا فأورت إيراء المرخ و العفار عنده لا شيء، ثم جمع ما قدر عليه من الغثاء و الحشيش فأوقد ناره و ألقى الأرنب في جوفها، فأخرجناها و قد لزق بها من الرماد و التراب ما بغّضها إلي، فعلقها بيده اليسرى ثم ضرب بالعصا على جنوبها و اعراضها ضربا رقيقا، حتى انتثر كل شيء عليها، فأكلناها و سكن القرم، و طابت النفس، فقلت: هذه خامسة.

ثم أنا نزلنا بعض الخانات، و إذ البيوت ملاء روثا و ترابا، و نزلنا بعقب جند و خراب متقدم، فلم نجد موضعا نظل فيه، فنظر إلى حديدة مسحاة (5)

مطروحة في الدار، فأخذها فجعل العصا نصابا لها، ثم قام فجرف جميع ذلك التراب و الروث، و جرّد الأرض بها جردا، حتى ظهر بياضها، و طابت ريحها فقلت: هذه سادسة.

و على أي حال لم تطب نفسي أن أضع طعامي و ثيابي على الأرض، فنزع و اللّه العصا من حديدة المسحاة فوتدها في الحائط، و علق ثيابي عليها، فقلت: هذه سابعة.

---

(1) بهشت له: أقبلت إليه.
(2) وقذها: ضربها بشدة.
(3) قرمت: اشتدت شهوتي.
(4) ذكاة: ذبح.
(5) مسحاة: مجرفة من حديد.

فلما صرت إلى مفرق الطرق، و أردت مفارقته، قال لي: لو عدلت فبتّ عندي كنت قد قضيت حقّ الصحبة، و المنزل قريب. فعدلت معه فأدخلني في منزل يتصل ببيعة. قال: فما زال يحدثني و يطرفني و يلطفني الليل كله، فلما كان السحر أخذ خشيبة ثم أخرج تلك العصا بعينها فقرعها بها، فإذا ناقوس ليس في الدنيا مثله، و إذا هو أحذق الناس بضربه، فقلت له: ويلك، أما أنت مسلم و أنت رجل من العرب من ولد عمرو بن كلثوم؟قال: بلى. قلت فلم تضرب بالناقوس؟قال: جعلت فداك!إن أبي نصراني، و هو صاحب البيعة، و هو شيخ ضعيف، فإذا شهدته بررته بالكفاية.

فإذا هو شيطان مارد، و إذا أظرف الناس كلهم و أكثرهم أدبا و طلبا، فخبرته بالذي أحصيت من خصال العصا، بعد أن كنت هممت أن أرمي بها، فقال: و اللّه لو حدثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفدتها.

تفسير شعر غنيه الأعرابية، في شأن ابنها.

و ذلك إنه كان لها ابن شديد العرامة (1) ، كثير التقلت إلى الناس، مع ضعف أسر و دقة عظم، فواثب مرة فتى من الأعراب فقطع الفتى أنفه، فأخذت غنية دية أنفه فحسنت حالها بعد فقر مدقع. ثم واثب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية فزادت دية أذنه في المال و حسن الحال. ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته فأخذت دية شفته. فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل و الغنم و المتاع و الكسب بجوارح ابنها حسن رأيها فيه، فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها:

أحلف بالمروة يوما و الصّفا # إنك خير من تفاريق العصا

فقيل لابن الأعرابي: ما تفاريق العصا؟قال: العصا تقطع ساجورا (2)

و تقطّع عصا الساجور فتصير أوتادا، و يفرّق الوتد فيصير كل قطعة شظاظا (3) .

فإذا كان رأس الشظاظ كالفلكة صار للبختيّ مهارا، و هو العود الذي يدخل في

---

(1) العرامة: الشراسة و الشدة.
(2) الساجور: الخشبة التي توضع في عنق الكلب.
(3) الشظاظ: العود الذي يدخل في الجوالق.

أنف البختي، و إذا فرّق المهار جاءت منه تواد (1) . و السواجير تكون للكلاب و الأسرى من الناس. و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «يؤتى بناس من هاهنا يقادون إلى حظوظهم بالسواجير» . و إذا كانت قناة فكل شقّة منها قوس بندق، فإن فرقت الشقة صارت سهاما، فإن فرقت السهام صارت حظاء، و هي سهام صغار. قال الطرماح:

أكلب كحظاء الغلام.

و الواحدة حظوة و سروة، فإن فرقت الحظاء صارت مغازل، فإن فرّق المغزل شعب به الشعّاب أقداحه المصدوعة، و قصاعه المشقوقة. على أنه لا يجد لها أصلح منها. و قال الشاعر:

نوافذ أطراف القنا قد شككنه # كشكّك بالشّعب الإناء المثلّما

فإذا كانت العصا صحيحة ففيها من المنافع الكبار و المرافق الأوساط و الصغار ما لا يحصيه أحد، و إن فرّقت ففيها مثل الذي ذكرنا و أكثر. فأيّ شيء يبلغ في المرفق و الرد مبلغ العصا.

و في قول موسى: وَ لِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرىٰ دليل على كثرة المرافق فيها، لأنه لم يقل: و لي فيها مأربة أخرى، و المآرب كثيرة. فالذي ذكرنا قبل هذا داخل في تلك المآرب.

و لا نعرف شعرا يشبه معنى شعر غنية بعينه لا يغادر منه شيئا. و لكن زعم بعض أصحابنا أن أعرابيين ظريفين من شياطين الأعراب حطمتهما السنة، فانحدرا إلى العراق، و اسم أحدهما حيدان، فبيناهما يتماشيان في السوق إذا فارس قد أوطأ دابته رجل حيدان فقطع أصبعا من أصابعه، فتعلقا به حتى أخذا منه أرش الأصبع (2) ، و كانا جائعين مقرورين، فحين صار المال في أيديهما قصدا لبعض الكرابج (3) فابتاعا من الطعام ما اشتهيا، فلما أكل صاحب حيدان و شبع أنشأ يقول:

---

(1) التوادي: خشبات تصر بها أخلاف الناقة.
(2) الارش: دية الجراح.
(3) الكرابج: بمعنى الحانوت. فارسية.

فلا غرث ما كان في الناس كربج # و ما بقيت في رجل حيدان أصبع

و هذا الشعر و شعر غنية من الظرف الناصع الذي سمعت به، و ظرف الأعراب لا يقوم له شيء.

و ناس كثير لا يستعملون في قتالهم إلا العصيّ، منهم الزنج: قنبلة و لنجويه و النمل و الكلاب، و تكفو و تنبو. على ذلك يعتمدون في حروبهم.

و منهم النبط، و لهم بها ثقافة و شدة و غلبة، و اثقف ما تكون الأكراد إذا قاتلت بالعصي. و قتال المخارجات (1) كلها بالعصي، و لهم هناك ثقافه و منظر حسن، و لقتالهم منزلة بين السلامة و العطب.

و الناس يضربون المثل بقتال البقّار بقناته. و يقال في المثل: «ما هو إلا ابنة عصا، و عقدة رشا (2) » .

و يقال للراعي: «إنه لضعيف العصا» إذا كان قليل الضرب بها للإبل، شديد الإشفاق عليها. و قال الراعي

ضعيف العصا بادي العروق ترى له # عليها إذا ما أجدب الناس أصبعا

فإذا كان الراعي جلدا قويا عليها قالوا: صلب العصا. و لذلك قال الراجز:

صلب العصا باق على أذاتها

و قال الآخر في معنى الراعي:

لا تضرباها و أشهرا العصيا

و يقولون: قد أقبل فلان و لانت عصاه، إذا أصابه السّواف (3) فرجع و ليس معه إلا عصاه لأنه لا يفارقها كانت له ابل أم لم تكن.

---

(1) المخارجات: مفردها مخارجة: مناهضه
(2) أبنة: عقدة. الرشاء: الحبل.
(3) السواف: الموت في المال و الناس.

و يقولون: كلما قرعت عصا بعصا، و عصا على عصا، و عصا عصا قالوا خذوا فلانا بذلك. و قال حميد بن ثور:

اليوم تنزع العصا من ربها # و يلوك ثني لسانه المنطيق

و يكتب مع قوله:

تغشى العصا و الزجر إن قيل حل # يرسلها التغميض إن لم ترسل

و قال آخر:

هذا ورود بزّل و سدس [1] # يغلي بها كلّ مسيم مرغس

ردّت من الغور و أكناف الرسي # من عشب أحوى و حمض مورس

و ذائد جلد العصا دلهمس [2] # إن قيل قم قام و إن قيل أجلس

داست سماطي عفر مدعّس [3]

و يدل على شدة قتالهم بالعصا قول بشامة بن حزن النهشلي:

فدى لرعاء بالنّحيرة ذبّبوا # بأعصيهم و الماء برد المشارب [4]

تألى نعيم لا تجوز بحوضه # فقلت تحلّل يا نعيم بن قارب [5]

فإن زيادا لم يكن ليردّها # و سبرة عن ماء النضيح المقارب

اغرّك أن جاءت ظماء و باشرت # بأعناقها برد النصاب الصّباصب [6]

تناولن ما في الحوض ثم امترينه # بجرع و أعناق طوال الذوائب [7]

---

(1) البازل: من بزل نابه. السديس: الذي أتت عليه السادسة.
(2) دلهمس: جريء.
(3) السماطان: الجانبان. مدعس: طريق مرت عليها الابل بقوائمها.
(4) النحيرة: واد. التذبيب: الطرد.
(5) تألى: أقسم.
(6) الصباصب: الغليظ و الشديد.
(7) الامتراء: الاستخراج و الاستدرار.

و يقول فلان ضعيف العصا، إذا كان لا يستعمل عصاه. و لذلك قال البعيث:

و أنت بذات السّدر من أم سالم # ضعيف العصا مستضعف متهضّم

و قال آخر:

و ما صاديات حمن يوما و ليلة # على الماء يغشين العصيّ حوان

لوائب لا يصدرن عنه لوجهة # و لا هن من برد الحياض دوان

يرين حباب الماء و الموت دونه # فهن لأصوات السقاة روان

بأوجع مني جهد شوق و غلّة # إليك و لكنّ العدوّ عداني

و قال آخر:

فما وجد ملواح من الهيم حلّئت # عن الماء حتى جوفها يتصلصل [1]

تحوم و تغشاها العصي و حولها # أقاطيع أنعام تعلّ و تنهل

بأعظم مني غلّة و تعطّفا # إلى الورد إلا أنني أتجمل

و يقال: «ضرب فلان ضرب غرائب الإبل» و هي تضرب عند الهرب و عند الخلاط، و عند الحوض، أشد الضرب. و قال الحارث بن صخر:

بضرب يزيل الهام عن سكناته # كما ذيد عن ماء الحياض الغرائب

و قال آخر:

للهام ضرابون بالمناصل [2] ضرب المذيد غرب النواهل و في جواهر العصا تفاوت. و يقولون: ما هي إلا غصن بان.

---

(1) الملواح من الدواب: السريع العطب. الهيم: العطاش. حلّئت: منعت.

(2) المناصل: السيوف.

و قال ابن أحمر:

رود الشباب كأنها غصن # بحرام مكّة ناعم نضر [1]

و قال آخر:

أ ما تريني قائما في جلّ [2] # جمّ الفتوق خلق [3] هملّ [4]

محاذرا أبغض عن تحتلي # عند اعتلال دهرك المعتلّ

فقد أرى في اليلمق الرّفلّ [5] # أصون للإنس جميل الدلّ

لدنا كخوط البانة المبتلّ [6]

و تكون العصا محراثا، و تكون مخصرة، و تكون المخصرة قضيب حنيرة [7] و عود ساجور، ثم تكون تودية.

و يقال للرجل إذا كان فيه أبنة: «فلان يخبأ العصا» . و قال الشاعر:

زوجك زوج صالح # لكنه يخبأ العصا

و في الأمثال: «فحذفه بالقول كما تحذف الأرنب بالعصا» .

و قال أياس بن قتادة العبسمي:

سأنحر أولاها و أحذف بالعصا # على أثرها إني إذا قلت عازم

و قال ابن كناسة في شرط الراعي على صاحب الإبل: «ليس لك أن تذكر

---

(1) الرود من النساء: الشابة الحسنة.
(2) الجل: الكساء.
(3) خلق: بالي.
(4) هملّ: بالي أيضا.
(5) اليلمق: القباء المحشو.
(6) الخوط: الغصن الناعم.
(7) الحنيرة: القوس.

أمي بخير و لا شر، و لك حذفة بالعصا عند غضبك أصبت أم أخطأت، و لي مقعدي من النار، و موضع يدي من الحار و القار» .

و كان العتبي يحدث في هذين بحديثين: أحدهما قوله عن الأعرابي: «و كان إذا خرست الألسن عن الرأي حذف بالصواب كما تحذف الأرنب بالعصا» .

و أما الحديث الآخر فذكر أن قوما أضلوا الطريق، فاستأجروا أعرابيا يدلهم على الطريق، فقال: إني و اللّه لا أخرج معكم حتى أشرط لكم و اشترط عليكم. قالوا فهات مالك. قال «يدي مع أيديكم في الحار و القار، و لي موضعي من النار موسع علي فيها، و ذكر والدي عليكم محرم» . قالوا: فهذا لك فما لنا عليك إن أذنبت؟قال: «أ عراضة لا تؤدي إلى عتب، و هجرة لا تمنع من مجامعة السفرة» . قالوا: فإن لم تعتب؟قال: «فحذفة بالعصا أخطأت أم أصابت» .

و هذان الحديثان لم أسمعهما من عالم، و إنما قرأتهما في بعض الكتب من كتب المسجديين.

و لأهل المدينة عصيّ في رءوسها عجر لا تكاد أكفهم تفارقها إذا خرجوا إلى ضياعهم و متنزهاتهم، و لهم فيها أحاديث حسنة، و أخبار طيبة.

و كان الأفشين يقول: «إذا ظفرت بالعرب شدخت رءوس عظمائهم بالدبوس» و الدبوس شبيه بهذه العصا التي في رأسها عجرة و قال جحشويه:

يا رجلا هام بلباد # معتدل كالغصن مياد

هام به غسان لما رأى # أيرا له مثل عصا الحادي

و لم يزل يهوى ابو مالك # كل فتى كالغصن منآد

يعجبه كل متين القوى # للطعن في الأدبار معتاد

و قالوا في تغميض الناقة عينها، كي تركب العصا إلى الحوض، و هو في معنى قول ابي النجم:

تغشى العصا و الزجر أن قيل حل # يرسلها التغميض إن لم ترسل

و هذا مثل قول الهذلي:

و لأنت أشجع من أسامة [1] إذ # شدّوا المناطق تحتها الحلق

حدّ السيوف على عواتقهم # و على الأكف و دونها الدّرق [2]

كغماغم الثيران بينهم # ضرب تغمض دونه الحدق

و قال حميد بن ثور الهلالي:

اليوم تنتزع العصا من ربها # و يلوك ثني لسانه المنطيق

و يقال: رجل كالقناة، و فرس كالقناة. و قال الشاعر:

متى ما يجيء يوما إلى المال وارثي # يجد جمع كف غير ملأى و لا صفر

يجد فرسا مثل القناة و صارما # حساما إذا ما هزّ لم يرض بالهبر

و جاء في الحديث: أجدبت الأرض على عهد عمر رحمه اللّه حتى ألقت الرعاء العصيّ، و عطّلت النعم، و كسر العظم. فقال كعب [3] : يا أمير المؤمنين، إن بني اسرائيل كانوا إذا أصابتهم السنة استسقوا بعصبة الأنبياء.

فكان ذلك سبب استسقائه بالعباس بن عبد المطلب.

و ساورت حية أعرابيا فضربها بعصاه و سلم منها، فقال:

لو لا الهراوة و الكفان أنهلني # حوض المنية قتّال لمن علقا [4]

أصمّ منهرت الشدقين ملتبد # لم يغذ إلا المنايا مذ لدن خلقا [5]

كأن عينيه مسماران من ذهب # جلاهما مدوس الألان فائتلقا [6]

---

(1) أسامة: علم جنس للأسد.

(2) الدرق: التروس تتخذ من جلود.

(3) هو كعب بن مانع الحميري المعروف بكعب الأخبار، كان قصاصا يهوديا و أسلم في خلافة عمر، مات بحمص سنة 32 هـ.

(4) كفان: آلة من آلات الصيد.

(5) منهرت الشدقين: واسعهما.
(6) المدوس: خشبة المسن.

و قال الحجاج بن يوسف لأنس بن مالك: «و اللّه لأقلعنك قلع الصّمغة، و لأعصبنك عصب السّلمة، و لأضربنك ضرب غرائب الإبل و لأجردنك تجريد الضب» .

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه لأبي مريم الحنفي: «و اللّه لا أحبك حتى تحبّ الأرض الدم المسفوح» . لأن الأرض لا تقبل الدم، فإذا جف الدم تقلّع جلبا (1) .

و لقد أسرف المتلمّس حيث يقول:

أ حارث أنا لو تساط (2) دماؤنا # تزايلن حتى لا يمس دم دما

و أشد سرفا منه قول أبي بكر الشيباني، قال: كنت أسيرا مع بني عم لي من بني شيبان، و فينا من موالينا جماعة في أيدي التغالبة، فضربوا أعناق بني عمي و أعناق الموالي على وهدة من الأرض، فكنت و الذي لا إله إلا هو، أرى دم العربي ينماز من دم المولى، حتى أرى بياض الأرض بينهما، فإذا كان هجينا (3) قام فوقه، و لم يعتزل عنه.

و أنشد الأصمعي:

يذدن و قد ألقيت في قعر حفرة # كما ذيد عن حوض العراك غرائبه (4)

و قال العباس بن مرداس:

نقاتل عن أحسابنا برماحنا # فنضربهم ضرب المذيد الخوامسا

و قال الفرزدق بن غالب:

ذكرت و قد كادت عصا البين تنشطي # حبالك من سلمي و ذو اللّب ذاكر

---

(1) جلب: قشوة تعلو الجرح عند البرء.
(2) تساط: تخلط و تمزج.
(3) الهجين: ولد العربي من غير العربية.
(4) العراك: ازدحام الابل على الماء.

و قال الأسدي:

إذا المرء أولاك الهوان فأوله # هوانا و إن كانت قريبا أواصره

و لا تظلم المولى و لا تضع العصا # على الجهل إن طارت إليك بوادره

و قال جرير بن عطية:

ألا رب مصلوب حملت على العصا # و باب استه عن منبر الملك زائل

و قالوا في مديح العصا نفسها مع الأغصان و كريم جوهر العصي و القسي:

إذا قامت لسبحتها تثنّت # كأن عظامها من خيزران

و قال المؤمل بن أميل:

القوم كالعيدان يفضل بعضهم # بعضا كذاك يفوق عود عودا

لو تستطيع عن القضاء حيادة # و عن المنية أن تصيب محيدا

كانت تقيّد حين تنزل منزلا # فاليوم صار لها الكلال قيودا

و قال آخر:

و اسلمها الباكون إلا حمامة # مطوقة بانت و بان قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة # يكاد يدنّيها من الأرض لينها

و قال آخر:

ألا أيها الركب المخبون هل لكم # بأخت بني هند عتيبة من عهد

أ ألقت عصاها و استقر بها النوى # بأرض بني قابوس أم ظعنت بعدي

و قال آخر:

ألا هتفت ورقاء في رونق الضحى # على غصن غضّ النبات من الرند [1]

(1) الرند: الاس.

و قال آخر في امرأة رآها في شارة [1] و بزة، فظن بها جمالا، فلما سفرت إذا هي غول:

فأظهرها ربي بمن و قدرة # عليّ و لو لا ذاك متّ من الكرب

فلما بدت سبّحت من قبح وجهها # و قلت لها الساجور خير من الكلب [2]

و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «يؤتى بقوم من هاهنا يقادون إلى حظوظهم في السواجير» . و الساجور يسمى الزمّارة. قالوا: و في الحديث: «فأتى الحجاج بسعيد بن جبير [3] ، و في عنقه زمّارة» .

و قال بعض المسجّنين:

و لي مسمعان و زمارة # و ظلّ مديد و حصن أمق [4]

و كم عائد لي و كنم زائر # لو أبصرني زائرا قد شهق

المسمعان: قيدان. و سمى الغلّ الذي في عنقه زمّارة.

و أما قول الوليد:

اسقني يا زبير بالقرقاره # قد ظمئنا و حنّت الزّمّارة [5]

اسقني اسقني فإن ذنوبي # قد أحاطت فما لها كفّاره

فإن الزمارة هاهنا: المزمار.

و قال أيضا صاحب الزمارة في صفة السجن:

---

(1) الشارة: الحسن و الهيئة و اللباس.
(2) الساجور: خشبة توضع في عنق الكلب.
(3) هو سعيد بن جبير بن هشام الكوفي، مولى بني أسد فقيه عابد ورع، خرج مع ابن الأشعث، فقتله الحجاج سنة 95 هـ.
(4) أمق: واسع.
(5) القرقارة: أناء. حنت الزمارة: صوتت.

فبتّ بأحصنها منزلا # ثقيلا على عنق السالك

و لست بضيف و لا في كراء # و لا مستعير و لا مالك

و ليس بغصب و لا كالرهون # و لا يشبه الوقف عن هالك

و لي مسمعان فأدناهما # يغني و يمسك في الحالك

و أقصاهما ناظر في السما # ء عمدا و أوسخ من عارك [1]

المسمعان هاهنا أحدهما قيده، و الآخر صاحب الجرس.

قال: و أخبرني الكلابي قال: قاتلت بنو عم لي بعضهم بعضا، فجعل بعضهم ينضم إلى بعض لواذا مني، و ليس لي في ذلك هجيرى إلا قولي:

قد جعلت تأوى إلى خمّانها [2] # و كرسها العاديّ من أعطانها [3]

فلما طلبوا القصاص، قلت: دونكم يا بني عمي حقكم، فأنا اللحم و أنتم الشفرة، إن وهبتم شكرت، و إن اعتقلتم عقلت، و إن اقتصصتم صبرت.

قال: و سألت يونس عن قوله: (نسيا منسيا) ، قال: تقول العرب إذا ارتحلوا عن المنزل ينزلونه: انظروا أنساءكم. و هي العصا، و القدح، و الشظاظ، و الحبل. قال فقلت: إني ظننت هذه الأشياء لا ينساها أربابها إلا لأنها أهون المتاع عليهم. قال ليس ذلك كذلك، المتاع الجافي يذكر بنفسه، و صغار المتاع تذهب عنها العيون. و إنما تذهب نفوس العامة إلى حفظ كل ثمين و إن صغر جسمه، و لا يقفون على أقدار فوت الماعون عند الحاجة و فقد المحلات في الأسفار.

و قال يونس: المنسي ما تقادم العهد به و نسي حينا لهوانه. و لم تكن مريم لتضرب المثل في هذا الموضع بالأشياء النفيسة التي الحاجة إليها أعظم من الحاجة إلى الشيء الثمين في الأسواق.

---

(1) العارك: الحائط.

(2) الخمان: رديء الشجر.

(3) الكرس: أبوال الابل و الغنم و ابعارها. الأعطان: مبرك الابل.

و قال الأشهب بن رميلة (1) :

قال الأقارب لا تغررك كثرتنا # و أغن نفسك عنا أيها الرجل

علّ بنيّ يشدّ اللّه أعظمهم # و النبع ينبت قضبانا فيكتهل

و كان فرس الأخنس بن شهاب تسمى «العصا» ، و الأخنس فارس العصا.

و كان لجذيمة الأبرش فرس يقال لها «العصا» .

و لبني جعفر بن كلاب «شحمة» و «الغدير» و «العصا» . فشحمة فرس جزء بن خالد. و العصا فرس عوف بن الأحوص. و الغدير فرس شريح بن الأحوص.

و العصا أيضا فرس شبيب بن كعب الطائي.

و قال بعضهم أو بعض خطبائهم:

و ليس عصاه من عراجين نخلة # و لا ذات سير من عصي المسافر

و لكنها إما سألت فنبعة # و ميراث شيخ من جياد المخاصر

و الرجل يتمنى إذا لم تكن له قوة و هو يجد العجز، فيقول: «لو كان في العصا سير» . و لذلك قال حبيب بن أوس:

ما لك من همة و عزم # لو أنه في عصاك سير

ربّ قليل جنى كثيرا # كم مطر بدؤه مطير

صبرا على النائبات صبرا # ما صنع اللّه فهو خير

و إذا لم يجعل المسافر في عصاه سيرا سقطت إذا نعس من يده.

---

(1) الأشهب بن رميلة شاعر جاهلي أدرك الاسلام و أسلم و رميلة أمه، أما ابوه فثور بن ابي حارثة التميمي. له هجاء مع الفرزدق.

و سئل عن قوله: (و لي فيها مآرب أخرى) ، قال: لست أحيط بجميع مآرب موسى صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكني سأنبئكم جملا تدخل في باب الحاجة إلى العصا. من ذلك أنها تحمل للحية، و العقرب، و للذئب، و للفحل الهائج، و لعير العانة في زمن هيج الفحول، و كذا فحول الحجور (1) في المروج. و يتوكأ عليها الكبير الدالف، و السقيم المدنف، و الأقطع الرجل، و الأعرج، فإنها تقوم مقام رجل أخرى.

و قال أعرابي مقطوع الرجل:

اللّه يعلم أني من رجالهم # و إن تخدّد عن متنيّ أطماري (2)

و إن رزيت يدا كانت تجمّلني # و إن مشيت على زج و مسمار

و العصي تنوب للأعمى عن قائده، و هي للقصّار و الفاشكار و الدبّاغ.

و منها المفأد للملّة (3) و المحراك للتنّور. قال الشاعر:

إذا كان ضرب الخبز مسحا بخرقة # و أحمد دون الطارق التنّور

كأنه كره أن ينفض عنها الرماد بعصا فيستدل على أنه قد أنضج خبزته.

يصفه بالبخل.

و هي لدق الجص و الجبسين و السمسم.

و قال الشمّاخ بن ضرار:

و أشعث قد قد السّفار قميصه # يجر شواء بالعصا غير منضج

و لخبط الشجر، و للفيج (4) و للمكاري، فإنهما يتخذان المخاصر، فإذا طال الشوط و بعدت الغاية استعانا في حضرهما و هرولتهما في اضعاف ذلك بالاعتماد على وجه الأرض.

---

(1) الحجور: الافراس.
(2) تخدد: تشنج.
(3) المفأد: الخشبة التي يحرك بها التنور. الملة: الرماد الحار و الجمر.
(4) الفيج: الذي يسعى على رجليه يحمل الاخبار من بلد إلى بلد.

و هي تعدّل من ميل المفلوج، و تقيم من ارتعاش المبرسم و يتخذها الراعي لغنمه، و كل راكب لمركبه، و يدخل عصاه في عروة المزود، و يمسك بيده الطرف الآخر، و ربما كان أحد طرفيها بيد رجل و الطرف الآخر بيد صاحبه و عليها حمل ثقيل.

و تكون إن شئت وتدا في حائط، و إن شئت ركزتها في الفضاء و جعلتها قبلة، و إن شئت جعلتها مظلة، و إن جعلت فيها زجا كانت عنزة (1) ، و إن زدت فيها شيئا كانت عكازا، و إن زدت فيها شيئا كانت مطردا (2) ، و إن زدت فيها شيئا كانت رمحا.

و العصا تكون سوطا و سلاحا. و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب بالقضيب، و كفى دليلا على عظم غنائها، و شرف حالها. و على ذلك الخلفاء و كبراء العرب من الخطباء.

و قد كان مروان بن محمد حين أحيط به دفع البرد و القضيب إلى خادم له، و أمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال، و دفع إليه بنتا له، و أمره أن يضرب عنقها. فلما أخذ الخادم في الأسرى قال: إن قتلتموني ضاع ميراث النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، فأمنوه على أن يسلم ذلك لهم و قال الشاعر في صفة قناة:

و أسمر عاتر فيه سنان # شراعيّ كساطعة الشعاع (3)

و قال آخر:

هونة في العنان تهتزّ فيه # كاهتزاز القناة تحت العقاب

---

(1) عنزة: عصا يتوكأ عليها الشيخ الكبير.
(2) المطرد: رمح قصير يطرد به الوحش.
(3) الرمح العاتر: المضطرب من لينه.

و مما يجوز في العصا قول الشاعر:

للهام ضرابون بالمناصل # ضرب المذيد غرّب النّواهل

و قال عباس بن مرداس:

نطاعن عن أحسابنا برماحنا # و نضربهم ضرب المذيد الخوامسا

و قال الآخر:

دافع عني جلبي و حشّي # فهي كعود النبعة الأجشّ

و قال نصيب الأسود:

و من يبق مالا عدّة و صيانة # فلا الدهر مبقيه و لا الشح وافره

و من يك ذا عود صليب يعده # ليكسر عود الدهر فالدهر كاسره

و قال آخر:

تخيرت من نعمان عود أراكة # لهند فمن هذا يبلّغه هندا

خليلي عوجا بارك اللّه فيكما # و إن لم تكن هند لأرضكما قصدا

و قولا لها ليس الضلال أجارنا # و لكنما جرنا لنلقاكم عمدا

و قال آخر:

فتلك ثيابي لم تدنّس بغدرة # و وري زنادي في ذرى المجد ثاقب

و لو صادفت عودا سوى عود نبعة # و هيهات أفنته الخطوب النوائب

و قال آخر:

عصا شريانة دهنت بزبد # تدقّ عظامه عظما فعظما

و ليس هذا مثل قول لقيط بن زرارة:

إذا دهنوا رماحهم بزبد # فإن رماح تيم لا تضير

و قال صالح بن عبد القدوس:

لا تدخلن بنميمة # بين العصا و لحائها

و قال شبل بن معبد البجلي:

برتني صروف الدهر من كلّ جانب # كما يبترى دون اللحاء عسيب

و قال أوس بن حجر:

لحونهم لحو العصا فطردنهم # إلى سنة جرذانها لم تحلّم

و قال الرّقاشي في صفة القناة التي تبرى منها القسي:

من شقق خضر بروصيات (1) # صفر اللحاء و خلوقيات (2)

جدلن حتى إضن كالحيات # رشائقا غير مؤبنات (3)

أنّفهنّ متمطّرات (4) # عمرو بن عصفور على استثبات

و قال محمد بن يسير:

و مشمّرين عن السّواعد حسّر # عنها بكل رشيقة التوتير (5)

ليس الذي تشوي يداه رمية # فيهم بمعتذر و لا معذور (6)

عطف السّيات موانع في عطفها # تعزى إذا نسبت إلى عصفور (7)

ذهب إلى قوله:

في كفه معطية منوع

---

(1) بروصيات: لعله أراد نعتها بلون البرص.
(2) خلوقيات: بلون الخلوق أي الزعفران.
(3) رشائق: حسنة القد. مؤبنات: معيبات.
(4) المتمطرات: المسرعات. أنف: حدد.
(5) المشمرين: الصيادين بالسهام. التوتير: شد وتر القوس.
(6) تشوي رمية: لم تصب الصيد الذي ترميه.
(7) عطف: المنحنية. سيمة القوس: ما عطف من طرفها.

و هذا مثل قوله:

خرقاء إلا أنها صناع و هذا مثل قوله:

غادر داء و نجا صحيحا و مثل قوله:

حتى نجا من جوفه و ما نجا فإذا طال قيام الخطيب صار فيه انحناء و جنأ (1) و قال الأسدي:

أنا ابن الخالدين إذا تلاقى # من الأيام يوم ذو ضجاج

كأن اللغب و الخطباء فيه # قسيّ مثقّف ذات اعوجاج

و على هذا المعنى قال الشماخ بن ضرار:

فأضحت تفالى بالستار كأنها # رماح نحاها وجهة الريح راكز (2)

و قال العماني:

عات يرى ضرب الرجال مغنما # إذا رأى مصدّقا تجهّما

و هزّ في الكفّ، و أبدى المعصما # هراوة نبعية أو سلما

تترك ما رام رفاتا رمما

و قال أمية بن الأسكر (3) :

هلا سألت بنا إن كنت جاهلة # ففي السؤال من الأنباء شافيها

تخبرك عنا معد إن هم صدقوا # و من قبائل نجران يمانيها

---

(1) جنأ: حدب.

(2) الستار: موضع. الراكز: الذي يغرز الرمح في الأرض.

(3) امية بن الأسكر شاعر جاهلي أدرك الإسلام و أسلم و خرج ابنه كلاب من المدينة إلى العراق في بعث أثناء خلافة عمر فبكاه خوفا عليه، فرده عليه الخليفة.

و بالجياد تجرّ الجيل عابسة # كأن مذرور ملح في هواديها [1]

قوم إذا قذع الأقوال طاف بهم # ألقى العصي عصي الجهل باريها

قال و الرجل إذا لم يكن معه عصا فهو باهل. و ناقة باهل و باهلة، إذا كانت بغير صرار [2] . و قال الراجز:

أبهلها ذائدها و سبحا [3] # و دقت المركوّ حتى ابلندحا [4]

احتجنا إلى أن نذكر ارتفاق بعض الشعراء من العرجان بالعصي، عند ذكرنا العصا و تصرفها في المنافع. و الذي نحن ذاكروه من ذلك في هذا الموضع قليل من كثير ما ذكرناه في كتاب العرجان. فإذا أردتموه فهو هناك موجود إن شاء اللّه.

قالوا: و لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن سعد و غيره من الولاة و الوجوه، هابه أهل الكوفة، و اتقى لسانه الكبير و الصغير، و كان الحكم اعرج لا تفارقه عصاه، فترك الوقوف بأبوابهم و صار يكتب على عصاه حاجته و يبعث بها مع رسوله فلا يحبس له رسول، و لا يؤخر عنه لقراءة الكتاب، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدّر، و أوفر مما أمّل، فقال يحيي بن نوفل:

عصا حكم في الدار أول داخل # و نحن عن الأبواب نقصى و نحجب

و أما قول بشر بن أبي خازم:

للّه درّ بني الحدّاء من نفر # و كلّ جار على جيرانه كلب

إذا غدوا و عصيّ الطّلح أرجلهم # كما تنصّب وسط البيعة الصّلب

---

(1) الهوادي: الاعناق.
(2) الصرار: خيط يشد فوق خلفها لئلا يرضعها ولدها.
(3) السبح: الفراغ الطويل.
(4) المركو: الحوض الكبير. ابلندح: اتسع و عرض.

إنما يعني أنهم كانوا عرجانا، فأرجلهم كعصي الطلح، و عصي الطلح معوجة. و كذلك قال معدان الأعمى، في قصيدته الطويلة التي صنف فيها الغالية و الرافضة، و التميمية، و الزيدية (1) :

و الذي طفّف الجدار من الذعر # و قد بات قاسم الأنفال (2)

فغدا خامعا بوجه هشيم # و يساق كعود طلح بال

و قال بعض العرجان ممن جعل العصا رجلا:

ما للكواعب يا دهماء قد جعلت # تزورّ عني و تطوي دوني الحجر

لا أسمع الصوت حتى أستدير له # ليلا طويلا يناغيني له القمر

و كنت أمشى على رجلين معتدلا # فصرت أمشي على رجل من الشجر

و قال رجل من بني عجل:

وشى بي واش عند ليلى سفاهة # فقالت له ليلى مقالة ذي عقل

و خبرها أني عرجت فلم تكن # كورهاء تجترّ الملامة للبعل

و ما بي من عيب الفتى غير أنني # جعلت العصا رجلا أقيم بها رجلي

و قال أبو ضبة في رجله:

و قد جعلت إذا ما نمت أوجعني # ظهري و قمت قيام الشارف الظهر (3)

و كنت أمشي على رجلين معتدلا # فصرت أمشي على رجل من الشجر

---

(1) الغالية: فرق الشيعة التي غالت في عقائدها و قالت ان الأئمة آلهة أو أنبياء أو ملائكة مثل الكيسانية و العباسية و الحارثية و الخرقدينية.

الرافضة: هم الشيعة الامامية، لقبوا بذلك إما لرفضهم إمامة ابي بكر و عمر و عثمان، و اما لرفضهم إمامة زيد بن علي أو إمامة محمد بن عبد اللّه بن الحسن.

الزيدية: فرقة من الشيعة قالت بإمامة زيد بن علي بن الحسين بعد ابيه علي بن الحسين.

(2) طفف الجدار: علاه و رفعه. الانفال: الغنام.

(3) الشارف الظهر: المسن الذي يشتكي ظهره.

و قال أعرابي من بني تميم:

و ما بي من عيب الفتى غير أنني # ألفت قناتي حين أوجعني ظهري

قال: و دخل الحكم بن عبدل الأسدي و هو أعرج، على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، و هو أمير الكوفة و كان أعرج، و كان صاحب شرطه اعرج، فقال ابن عبدل:

ألق العصا ودع التخامع و التمس # عملا فهذي دولة العرجان [1]

لأميرنا و أمير شرطتنا معا # لكليهما يا قومنا رجلان

فإذا يكون أميرنا و وزيرنا # و أنا فإن الرابع الشيطان

و مما يدل على أن للعصا موقعا منهم، و أنها تدور مع أكثر أمورهم قول مزرد بن ضرار:

فجاء على بكر ثقال يكدّه # عصاه استه، وجء العجاية بالفهر [2]

و يقولون اعتصى بالسيف، إذا جعل السيف عصاه، و إنما اشتقوا للسيف اسما من العصا، لأن عامة المواضع التي تصلح فيها السيوف تصلح فيها العصي، و ليس كل موضع تصلح فيه العصا يصلح فيه السيف.

و قال الآخر:

و نحن صدعنا هامة ابن محرّق # كذلك نعصى بالسيوف الصوارم

و قال عمرو بن الأطنابة [3] :

و فتى يضرب الكتيبة بالسيـــ # يف إذا كانت السيوف عصيا

---

(1) التخامع: التعارج.
(2) بكر ثقال: ابل بطيئة. وجء العجاية: ضرب العصا. الظهر: العصا.
(3) هو عمرو بن عامر الخزرجي، و الاطنابة امه. و هو شاعر جاهلي فارس.

و قال عمرو بن محرز:

نزلوا إليهم و السيوف عصيهم # و تذكروا دمنا لهم و ذحولا [1]

و قال الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة:

إن ابن يوسف محمود خلائقه # سيّان معروفه في الناس و المطر

هو الشهاب الذي يرمي العدو به # و المشرفيّ الذي تعصى به مضر

يقال عصى بالسيف و اعتصى به.

و قال العريان بن الأسود، في ابن له مات:

و لقد تحمل المشاة كريما # ليّن العود ماجد الأعراق

ذاك قولي و لا كقول نساء # معولات يبكين بالأوراق

و كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «إن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير، دود على عود» .

و قال واثلة السدوسي:

رأيتك لما شبت أدركك الذي # يصيب سراة الأزد حين تشيب

سفاهة أحلام و بخل بنائل # و فيك لمن عاب المزون عيوب

لقد صبرت للذل أعواد منبر # تقوم عليها، في يديك قضيب

و قد أوحشت منكم رزاديق فارس # و بالمصر دور جمّة و دروب

و أنشد الأصمعي:

أعددت للضيفان كلبا ضاريا # و هراوة مجلوزة من أرزن [2]

و معاذرا كذبا و وجها باسرا # و تشكيا عض الزمان الألزن [3]

---

(1) الدمن جمع دمنة: الحقد القديم، الذحول جمع ذحل: الثأر.

(2) مجلوزة: مشدودة إلى البعير. الارزن: شجر صلب تتخذ منه العصي.

(3) الباسر: العابس. الالزن: الضيق.

و شذاة مرهوب الأذى قاذورة # خشن جوانبه دلوظ ضيزن [1]

و بكف محبوك اليدين عن العلا # و الباع مسودّ الذراع مقحزن [2]

و تجنيا لهم الذنوب و اتقي # بغليظ جلد الوجنتين عشوزن [3]

و قال جرير:

تصف السيوف و غيركم يعصى بها # يا ابن القيون و ذاك فعل الصيقل

و قال الراعي:

تبيت و رجلاها أوانان لاستها # عصاها استها حتى يكلّ قعودها

و قال أعرابي للحطيئة: ما عندك يا راعي الغنم؟قال عجراء [4] من سلم قال: إني ضيف! قال للضيفان أعددتها.

و قال الشّماخ بن ضرار:

إلى بقر فيهنّ للعين منظر # و ملهى لمن يلهو بهنّ أنيق

رعين الندى حتى إذا وقد الحصى # و لم يبق من نوء السماك بروق

تصدّع شعب الحي و انشقّت العصا # كذاك النوى بين الخليط شقوق

و قال امرؤ القيس:

قولا لدودان عبيد العصا # ما غرّكم بالأسد الباسل

و قال علي بن الغدير:

و إذا رأيت المرء يشعب أمره # شعب العصا و يلجّ في العصيان

فاعمد لما تعلو فما لك بالتي # لا تستطيع من الأمور يدان

---

(1) الشذاة: الشر و الحدة. دلوظ: شديد الدفع. ضيزون: زاحم.
(2) الباع: السعة في المكارم. المقحزن: المصروع.
(3) عشوزن: عسر الخلق.
(4) العجراء: الكثيرة العقد. سلم: ضرب من الشجر.

و قال الآخر

و هجاجة لا يملأ الليل صدره # إذا النكس أغضى طرفه غير أروع [1]

صحيح بريء العود من كل أبنة # و جمّاع نهب الخير في كل مجمع

و قال مسكين الدارمي:

تسمو بأعناق و تحبسها # عنا عصيّ الذادة العجر

حباب بن موسى، عن مجالد، عن الشعبي، عن زحر بن قيس قال:

قدمت المدائن بعد ما ضرب علي بن أبي طالب رحمه اللّه، فلقيني ابن السوداء [2] و هو ابن حرب، فقال لي: ما الخبر؟قلت: ضرب أمير المؤمنين ضربة يموت الرجل من أيسر منها و يعيش من أشد منها. قال: لو جئتمونا بدماغه في مائة صرة لعلمنا أنه لا يموت حتى يذودكم بعصاه.

و قال اللّه تبارك و تعالى:

وَ إِذِ اِسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اِضْرِبْ بِعَصَاكَ اَلْحَجَرَ الآية.

و قال الشاعر:

رأيت الغانيات نفرن مني # نفار الوحش من رام مفيق

رأين تغيري و أردن لدنا # كغصن البان ذي الفنن الوريق

و قال أبو العتاهية:

عريت من الشباب و كان غضا # كما يعرى من الورق القضيب

ألا ليت الشباب يعود يوما # فأخبره بما صنع المشيب

و قال الآخر:

---

(1) النكس: الضعيف. الاروع: الذي يرتاع من كل شيء.

(2) ابن السوداء، هو عبد اللّه بن سبأ، كني بذلك لأن امه كانت سوداء. غلا في تشيعه لعلي حتى ألهه، و هو مؤسس فرقة السبئية من الشيعة.

و لئن عمرت لقد عمرت كأنني # غصن تينيه الرياح رطيب

و كذاك حقا من يعمّر يبله # كرّ الزمان عليه و التقليب

حتى يعود من البلى و كأنه # في الكفّ أفوق ناصل معصوب [1]

مرط القذاذ فليس فيه مصنع # لا الريش ينفعه و لا التعقيب [2]

و قال عروة بن الورد:

أ ليس ورائي أن أدبّ على العصا # فيأمن أعدائي و يسأمني أهلي

و أنشد:

عصوا بسيوف الهند و اعتركت بهم # براكاء حرب لا يطير غرابها [3]

و قال لبيد:

أ ليس ورائي إن تراخت منيتي # لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

و قال الآخر:

نقيم العصا ما كان فيها لدونة # و تأبى العصا في يبسها أن تقوّما

و قال الآخر:

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت # و لن تلين إذا قومتها الخشب

و قال جرير:

ما للفرزدق من عزّ يلوذ به # إلا بني العم في أيديهم الخشب

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم # و نهر تيرى فما تدريكم العرب

---

(1) أفوق: سهم منكسر. الناصل: الذي لا نصل له.

(2) السهم المرط: الذي لا ريش عليه. القذاذ: ريشة السهم.

(3) الاعتراك: الازدحام. براكاء: ساحة القتال.

و قال جرير في هجائه بني حنيفة:

أصحاب نخل و حيطان و مزرعة # سيوفهم خشب فيها مساحيها [1]

قطع الدبار و سقي النخل عادتهم # قدما و ما جاوزت هذا مساعيها [2]

لو قيل اين هوادي الخيل ما عرفوا # قالوا لأعجازها هذي هواديها

أو قلت إن حمام الموت آخذكم # أو تلجموا فرسا قامت بواكيها

لما رأت خالدا بالعرض اهلكها # قتلا و اسلمها ما قال طاغيها

دانت و اعطت يدا للسلم طائعة # من بعد ما كاد سيف اللّه يفنيها

و قال سلامة بن جندل:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع # كان الصراخ له قرع الظنابيب

و يقال للخاطب إذا كان مرغوبا فيه كريما: ذاك الفحل الذي لا يقرع أنفه. لأن الفحل اللئيم إذا هبّ على الناقة الكريمة ضربوا وجهه بالعصا.

و قال الآخر:

كأنها إذ رفعت عصاها # نعامة أوحدها رألاها [3]

و ممن أضافوه إلى عصاه داود ملكين اليشكري، و كان ولي شرط البصرة.

و جاء في الحديث أن أبا بكر رحمه اللّه أفاض من جمع و هو يخرش بعيره بمحجنه.

و قال الأصمعي: المحجن: العصا المعوجّة.

---

(1) المسحاة: المجرفة.
(2) الدبار: الساقية.
(3) الرأل: فرخ النعامة. أوحدها: تركها وحدها.

و في الحديث المرفوع: «أنه طاف بالبيت يستلم الأركان بمحجنه» .

و الخرش: أن يضربه بمحجنه ثم يجذبه إليه، يريد بذلك تحريكه.

و قال الراعي:

فألقى عصا طلح و نعلا كأنها # جناح السّمانى رأسه قد تصوّعا

و العصا أيضا فرس شبيب بن كريب الطائي.

أبو الحسن، عن علي بن سليم قال: كان شبيب بن كريب الطائي يصيب الطريق في خلافة علي بن أبي طالب رحمه اللّه، فبعث اليه أحمر بن شميط العجلي و أخاه في فوارس، فهرب شبيب و قال:

و لما أن رأيت ابني شميط # بسكة طيئ و الباب دوني

تجللت العصا و علمت أني # رهين مخيّس أن يثقفوني [1]

و لو أنظرتهم شيئا قليلا # لسأقوني إلى شيخ بطين

شديد مجالز الكتفين صلب # على الحدثان مجتمع الشئون

و قال النجاشي لأم كثير بن الصلت:

و لست بهندي و لكن ضيعة # على رجل لو تعلمين مزير [2]

و اعجبتني للسوط و النوط و العصا # و لم تعجبيني خلّة لأمير [3]

و قال أعشى بني ربيعة:

و كان الخلائف بعد الرسو # ل للّه كلهم خاشعا

شهيدين من بعد صدّيقهم # و كان ابن صخر هو الرابعا

---

(1) المخبس: السجن.
(2) المزير: الشديد القلب القوي.
(3) النوط: التعليق. الخلة: الزوجة.

و كان ابنه بعده خامسا # مطيعا لمن قبله سامعا

و مروان سادس من قد مضى # و كان ابنه بعده سابعا

و بشر يدافع عبد العزيز # مضى ثامنا ذا و ذا تاسعا

و ايهم ما يكن سائسا # لها لم يكن أمرها ضائعا

فأما تريني حليف العصا # فما كنت من رثية خامعا [1]

فساومني الدهر حتى اشترى # شبابي و كنت له مانعا

و قال عوف بن الخرع:

ألا أبلغا عني جريحة آية # فهل أنت عن ظلم العشيرة مقصر

و إن ظعن الحيّ الجميع لطيّة # فأمرك معصيّ و شربك مغور [2]

أ في صرمة عشرين أو هي دونها # قشرتم عصاكم فانظروا كيف تقشر [3]

زعمتم من الهجر المضلل انكم # ستنصركم عمرو علينا و منقر [4]

فيا شجر الوادي أ لا تنصرونهم # و قد كان بالمرّوت رمت و سخبر [5]

أ لم تجعلوا تيما على شعبتي عصا # فما ينطق المعروف إلا معذر [6]

و قال رجل من محارب يرثي ابنه:

أ لم يك رطبا يعصر القوم ماءه # و ما عوده للكاسرين بيابس

و قال حاجب بن زرارة: «و اللّه ما القعقاع برطب فيعصر، و لا يابس فيكسر» .

---

(1) خامع: أعرج.

(2) الجميع: المجتمع. الطية: المنزل الذي انتوى النزول فيه. مغور: غائر في الارض.

(3) الصرمة: القطعة من الابل. قشر عصاه: أبدى ما يمكن عداوة.

(4) الهجر: الفحش و الهذيان.

(5) المروت: واد. رمت: شجر من الحمض. سخبر: شجر إذا طال تدلت رءوسه.

(6) شعبتي: طرفي. المعذور: الذي يعتذر و لا عذر له.

و قال حماد عجرد:

و جروا على ما عوّدوا # و لكل عيدان عصاره

و قال أيضا:

فأنت أكرم من يمشي على قدم # و انضر الناس عند المحل اغصانا

لو مجّ عود على قوم عصارته # لمج عودك فينا المسك و البانا

و قال آخر:

إنا وجدنا الناس عودين: طيبا # و عودا خبيثا ما يبض [1] على العصر

تزين الفتى أخلاقه و تشينه # و تذكر أخلاق الفتى حيث لا يدري

و قال المؤمّل بن أميل:

كانت تقيّد حين تنزل منزلا # فاليوم صار لها الكلال قيودا

و الناس كالعيدان يفضل بعضهم # بعضا كذاك يفوق عود عودا

و قالت ليلى الأخيلية:

نحن الأخايل لا يزال غلامنا # حتى يدبّ على العصا مذكورا

الشعوبية تطعن على عصا الأنبياء.

أنظر-أبقاك اللّه-في كم فنّ تصرّف فيه ذكر العصا من أبواب المنافع و المرافق، و في كم وجه صرفته الشعراء و ضرب به المثل. و نحن لو تركنا الاحتجاج لمخاصر البلغاء، و عصي الخطباء، لم نجد بدا من الاحتجاج لجلة

---

(1) لا يبض: لا يخرج منه ماء عند العصر.

المرسلين، و كبار النبيين، لان الشعوبية قد طعنت في جملة هذا المذهب على قضيب النبي صلّى اللّه عليه و سلّم و عنزته، و على عصاه و مخصرته، و على عصا موسى، لأن موسى صلّى اللّه عليه و سلّم قد كان اتخذها من قبل أن يعلم ما عند اللّه فيها، وِ إلام يكون صيّور أمرها (1) . أ لا ترى أنه لما قال اللّٰه عز و جل: **وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسى** ، قال: **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَ أَهُشُّ بِهَا عَلى غَنَمِي وَ لِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرى** . و بعد ذلك قال: **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى** . و من يستطيع أن يدّعي الإحاطة بما فيها من مآرب موسى إلا بالتقريب و ذكر ما خطر على البال؟!و قد كانت العصا لا تفارق يد سليمان بن داود عليه السلام في مقاماته و صلواته، و لا في موته و لا في أيام حياته، حتى جعل اللّه تسليط الأرضة عليها و سليمان ميّت و هو معتمد عليها، من الآيات عند من كان لا يعلم أن الجن لم تكن تعلم إلا ما تعلم الإنس.

و لو علم القوم أخلاق كل ملة، و زي أهل كل لغة و عللهم في ذلك، و احتجاجهم له، لقل شغبهم، و كفونا مئونتهم. هذه الرهبان تتخذ العصيّ، من غير سقم و لا نقصان في جارحة. و لا بد للجاثليق من قناع و من مظلة و برطلّة، و من عكّاز و من عصا، من غير أن يكون الداعي إلى ذلك كبرا و لا عجزا في الخلقة.

و ما زال المطيل القيام بالموعظة أو القراءة أو التلاوة يتخذ العصا عند طول القيام، و يتوكأ عليها عند المشي. كأن ذلك زائد في التكهل و الزمانة (2) ، و في نفي السخف و الخفة.

---

(1) صيور الامر: منتهاه و ما يصير إليه.
(2) الزمانة: الحلم و الوقار.

المخصرة

و بالناس حفظك اللّه أعظم الحاجة إلى أن يكون لكل جنس منهم سيما، و لكل صنف منهم حلية وسمة يتعارفون بها.

و قال الفرزدق بن غالب:

له ندب مما يقول ابن غالب # يلوح كما لاحت و سوم المصدق

و قال آخر:

أنار حتى صدقت سماته # و ظهرت من كرم آياته

و أنشدني أبو عبيدة:

سقاها ميسم من آل عمرو # إذا ما كان صاحبها جحيشا [1]

و ذكر بعض الأعراب ضروبا من الوسم، فقال:

بهنّ من خطّافنا خبط و سم [2] # و حلق في أسفل الذفرى نظم

معها نظام مثل خط بالقلم # و قرمة و لست ادري من قرم

عرض و خبط للمحليها المسم [3]

و قال تبارك و تعالى: **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ اَلسُّجُودِ** .

و كما خالفوا بين الأسماء للتعارف، قال اللّه عز و جل: **وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللَّهِ أَتْقَاكُمْ** . فعند العرب العمّة و أخذ المخصرة من السيما.

---

(1) صاحبها: راعيها. جحيشا: منفردا، بعيدا.
(2) الخطاف: سمة يوسم بها البعير. الخبط نوع من الوسم.
(3) العرض: نوع من الوسم.

و قد لا يلبس الخطيب الملحفة و لا الجبة و لا القميص و لا الرداء. و الذي لا بد منه العمة و المخصرة. و ربما قام فيهم و عليه إزاره قد خالف بين طرفيه.

و ربما قام فيهم و عليه عمامته، و في يده مخصرته، و ربما كانت قضيبا و ربما كانت عصا، و ربما كانت قناة. و في القنا ما هو اغلظ من الساق، و فيها ما هو أدق من الخنصر. و قد تكون محكّكة الكعوب مثقّفة من الاعوجاج، قليلة الأبن. و ربما كان العود نبعا و ربما كان من شوحط، و ربما كان من آبنوس، و من غرائب الخشب و من كرائم العيدان، و من تلك الملس المصفاة. و ربما كانت لبّ غصن كريم، فإن للعيدان جواهر كجواهر الرجال و لو لا ذلك لما كانت في خزائن الخلفاء و الملوك. و منها ما لا تقربه الأرضة و لا تؤثر فيه القوادح و العكّازة إذا لم يكن في اسفلها زجّ فهي عصا، لأن أطول القنا أن يقال رمح خطل، ثم رمح بائن، ثم رمح مخموس، ثم رمح مربوع (1) ، ثم رمح مطرد، ثم عكازة، ثم عصا.

ثم من العصي نصب المساحي و المرور (2) و القدم و الفئوس و المعاول و المناجل، و الطبرزينات (3) . ثم يكون من ذلك نصب السكاكين و السيوف و المشامل (4)

و كل سهام نبعية، و غير ذلك من العيدان، مما امتدحها أوس بن حجر أو الشّماخ بن ضرار، أو احد من الشعراء، فإنما هي من عصا.

و كل قوس بندق فإنما جيء بقناتها من بروض، و مدح ببريها و صنعتها عصفور القواس. و قال الرقاشي:

---

(1) رمح مربوع و مخموس: ما طوله أربع أذرع، و خمس أذرع.
(2) المساحي: المجارف. نصب: مقابض.
(3) الطبرزينات: فئوس تستعمل في القتال عند الفرس.
(4) المشامل: سيوف قصيرة.

أنعت قوسا نعت ذي انتقاء # جاء بها جالب بروضاء

بعد اعتيام منه و انتصاء [1] # كافية الطول على انتهاء

مجلوزة الأكعب في استواء # سالمة من ابن السيساء

فلم تزل مساحل البراء # تأخذ من طوائف اللحاء

حتى بدت كالحية الصفراء # ترنو إلى الطائر في السماء

بمقلة سريعة الأقذاء # ليست بكحلاء و لا زرقاء

و قال الآخر:

قد اغتدي ملث الظلام بفتية # للرمي قد حسروا له عن أذرع

متنكبين خرائطا لبنادق # ما بين مضفور و بين مرسع

بأكفهم قضبان بروض قد غدوا # للطير قبل نهوضها للمرتع

تقذي منيات الطيور عيونها # يوما إذا رمدت بأيدي النزّع [2]

صفر البطون كأن ليط متونها # سرق الحرير نواضر لم تسلع [3]

و كانت العنزة التي تحمل بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم–و ربما جعلوها قبلة– أشهر و أذكر من أن يحتاج في تثبيتها إلى ذكر الإسناد.

القلائد

و كانت سيما أهل الحرم إذا خرجوا إلى الحلّ في غير الأشهر الحرم، أن يتقلدوا القلائد، و يعلقوا عليهم العلائق [4] . و إذا أوذم أحدهم الحج [5] تزيا بزي الحاج، و إذا ساق بدنة أشعرها [6] . و خالفوا بين سمات الإبل و الغنم،

---

(1) الاعتيام و الانتصاء: الاختيار.
(2) النزع: الرامي، مفردها النازع.
(3) الليط: القشر. السرق: الحرير الجيد. تسلع: تتشقق.
(4) العلائق: ما يعلق به الشيء.
(5) أوذم: أوجب.
(6) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر.

و اعلموا البحيرة بغير علم السائبة (1) ، و اعلموا الحامي بغير علم سائر الفحول (2) . و كذلك الفرع و الوصيلة و الرجيبة و العتيرة من الغنم (3) و كذلك سائر الأغنام السائمة.

و إذا كانت الإبل من حباء ملك غرزوا في أسنمتها الريش و الخرق و لذلك قال الشاعر.

يهب الهجان بريشها و رعائها # كالليل قبل صباحه المتبلّج (4)

و إذا بلغت الإبل ألفا فقئوا عين الفحل، فإن زادت فقئوا العين الأخرى فذلك المفقأ و المعمّى. و قال شاعرهم:

فقأت لها عين الفحيل تعيّفا # و فيهن رعلاء المسامع و الحامي

و قال آخر:

وهبتها و أنت ذو امتنان # يفقأ فيها أعين البعران

و قال الآخر:

فكان شكر القوم عند المنن # كيّ الصحيحات و فقء الأعين

و إذا كان الفحل من الإبل كريما قالوا فحيل، و إذا كان الفحل من النخل كريما قالوا فحّال. قال الراعي:

كانت نجائب منذر و محرّق # أماتهن و طرقهن فحيلا

---

(1) البحيرة: الناقة بعد خامس بطن لها يحرم لبنها و ركوبها.
(2) الحامي: الفحل يضرب عشرة بطون.
(3) الفرع: أول نتاج الابل و البقر.
(4) الهجان: الابل البيض. الرعاء: مفردها راع.

الثياب

و كان الكاهن لا يلبس المصبّغ، و العرّاف لا يدع تذليل قميصه و سحب ردائه، و الحكم لا يفارق الوبر. و كان لحرائر النساء زيّ، و لكل مملوك زيّ، و لذوات الرايات زي، و للإماء زي.

و كان الزبرقان يصبغ بصفرة. و ذكره الشاعر فقال:

و أشهد من عوف حلولا كثيرة # يحجون ستّ الزبرقان المزعفرا [1]

و كان أبو أحيحة سعيد بن العاص إذا اعتمّ لم يعتمّ معه أحد، هكذا في الشعر. و لعل ذلك أن يكون مقصورا في بني عبد شمس. و قال أبو قيس بن الأسلت:

و كان أبو أحيحة قد علمتم # بمكة غير مهتضم ذميم

إذا شدّ العصابة ذات يوم # و قام إلى المجالس و الخصوم

فقد حرمت على من كان يمشي # بمكة غير مدّخل سقيم

و كان البختريّ غداة جمع # يدافعهم بلقمان الحكيم

بأزهر من سراة بني لؤي # كبدر الليل راق على النجوم

هو البيت الذي بنيت عليه # قريش السر في الزمن القديم [2]

وسطت ذوائب الفرعين منهم # فأنت لباب سرهم الصميم

و قال غيلان بن خرشة للأحنف: يا أبا بحر، ما بقاء ما فيه العرب؟قال:

إذا تقلدوا السيوف، و شدوا العمائم و استجادوا النعال، و لم تأخذهم حمية الأوغاد. قال و ما حمية الأوغاد؟قال أن يعدّوا التواهب ذلا.

و قال الأحنف: استجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال.

و العرب تسمي السيوف بحمائلها أردية.

---

(1) حلول: أحياء مجتمعة.

(2) السر: المحض و الأفضل.

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قولا أحسن من هذا، قال: «تما جمال المرأة في خفّها، و تمام جمال الرجل في كمّته (1) » .

و مما يؤكد ذلك قول مجنون بني عامر:

أ أعقر من جرا كريمة ناقتي # و وصلي مفروش لوصل منازل

إذا جاء قعقعن الحليّ و لم أكن # إذا جئت أرجو صوت تلك الصلاصل

و لم تغن سيجان العراقين نقرة # و رقش القلنسى بالرجال الأطاول

و العصابة و العمامة سواء. و إذا قالوا سيد معمم فإنما يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك العشيرة فهي معصوبة برأسه.

و قال دريد بن الصّمّة:

أبلغ نعيما و عوفا إن لقيتهما # إن لم يكن كان في سمعيهما صمم

فلا يزال شهاب يستضاء به # يهدي المقانب ما لم تهلك الصمم

عاري الأشاجع معصوب بلمته # أمر الزعامة في عرنينه شمم

و قال الكناني:

تنخّبتها للنسل و هي غريبة # فجاءت به كالبدر خرقا معمّما

فلو شاتم الفتيان في الحي ظالما # لما وجدوا غير التكذّب مشتما

و لذلك قيل لسعيد بن العاصي: «ذو العصابة» . و قد قال القائل:

كعاب أبوها ذو العصابة و ابنه # و عثمان ما أكفاؤها بكثير

يقولها خالد بن يزيد و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «العمائم تيجان العرب» .

---

(1) الكمة: القلنسوة.

قال: و قيل لأعرابي: إنك لتكثر لبس العمامة؟قال: إن شيئا فيه السمع و البصر لجدير أن يوقي من الحر و القر.

و ذكروا العمامة عند أبي الأسود الدؤلي فقال: «جنّة في الحرب، و مكنّة من الحر، و مدفأة من القر، و وقار في النديّ، و واقية من الأحداث، و زيادة في القامة، و هي بعد عادة من عادات العرب» .

و قال عمرو بن امرئ القيس:

يا مال و السيد المعمّم قد # يبطره بعد رأيه السرف

نحن بما عندنا و أنت بما عنـــ # دك راض و الرأي مختلف

القناع

و كان من عادة فرسان العرب في المواسم و الجموع، و في أسواق العرب، كأيام عكاظ و ذي المجاز و ما أشبه ذلك، التقنّع، إلا ما كان من أتى سليط طريف بن تميم، أحد بني عمرو بن جندب، فإنه كان لا يتقنع و لا يبالي أن تثبت عينه جميع فرسان العرب، و كانوا يكرهون أن يعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم همّ غيرهم.

و لما أقبل حمصيصة الشيباني يتأمل طريفا قال طريف:

أ و كلما وردت عكاظ قبيلة # بعثوا إلي عريفهم يتوسّم

فتوسموني أنني أنا ذاكم # شاك سلاحي في الحوادث معلم

تحتي الأغرّ و فوق جلدي نثرة # زغف ترد السيف و هو مثلم

و لكل بكريّ إلي عداوة # و أبو ربيعة شانئ و محلّم

فكان هذا من شأنهم. و ربما مع ذلك أعلم نفسه الفارس منهم بسيما.

كان حمزة يوم بدر معلما بريشة نعامة حمراء. و كان الزبير معلما بعمامة صفراء. و لذلك قال درهم بن زيد:

إنك لاق غدا غواة بني الملكـــ # اء فانظر ما أنت مزدهف

يمشون في البيض و الدروع كما # تمشي جمال مصاعب قطف [1]

فأبد سيماك يعرفوك كما # يبدون سيماهم فتعترف

و كان المقنع الكندي الشاعر، و اسمه محمد بن عمير، كان الدهر مقنعا.

و القناع من سيما الرؤساء. و الدليل على ذلك و الشاهد الصادق، و الحجة القاطعة، أن رسول اللّه صلى صلّى اللّه عليه و سلّم كان لا يكاد يرى إلا مقنّعا. و جاء في الحديث: «حتى كأن الموضع الذي يصيب رأسه من ثوبه ثوب دهان» .

و كان المقنع الذي خرج بخراسان يدّعي الربوبية، لا يدع القناع في حال من الحالات. و جهل بادعاء الربوبية من طريق المناسخة، فادعاها من الوجه الذي لا يختلف فيه الأحمر و الأسود، و المؤمن و الكافر، إن باطله مكشوف كالنهار. و لا يعرف في شيء من الملل و النحل القول بالتناسخ إلا في هذه الفرقة من الغالية. و هذا المقنع كان قصّارا من أهل مرو، و كان أعور ألكن.

فما أدري أيهما أعجب، أ دعواه بأنه رب، أو إيمان من آمن به و قاتل دونه؟! و كان اسمه عطاء.

العمامة

و قال الآخر:

إذا المرء أثرى ثم قال لقومه # أنا السيد المفضى إليه المعمّم

و لم يعطهم شيئا أبوا أن يسودهم # و هان عليهم رغمه و هو ألوم

و قال الآخر:

إذا كشف اليوم العماس عن استه # فلا يرتدي مثلي و لا يتعمم [2]

---

(1) المصاعب: الفحل الذي يودع من الركوب و العمل. القطف: الذي يقارب الخطو بسرعة.

(2) العماس: الشديد.

قال: و كان مصعب بن الزبير يعتم القفداء، و هو أن يعقد العمامة في القفا. و كان محمد بن سعد بن أبي وقاص، الذي قتله الحجاج، يعتم الميلاء.

و قال الفرزدق:

و لو شهد الخيل ابن سعد لقنعوا # عمامته الميلاء عضبا مهندا

و قال شمعلة بن أخضر الضبي:

جلبنا الخيل من أكناف فلج # ترى فيها من الغزو أقورارا (1)

بكل طمرّة و بكل طرف # يزين سواد مقلته العذارا (2)

حوالي عاصب بالتاج منا # جبين أغر يستلب الدوارا

رئيس ما ينازعه رئيس # سوى ضرب القداح إذا استشارا

و أنشد:

إذا لبسوا عمائمهم لووها # على كرم و إن سفروا أناروا

يبيع و يشتري لهم سواهم # و لكن بالطعان هم تجار

إذا ما كنت جار بني تميم # فأنت لأكرم الثقلين جار

و أنشد:

و داهية جرها جارم # جعلت رداءك فيها خمارا

و لذكر العمائم مواضع. قال زيد بن كثوة العنبري:

منعت من العهّار أطهار امه # و بعض الرجال المدعين زناء

فجاءت به عبل القوام كأنما # عمامته فوق الرجال لواء (3)

---

(1) فلج: واد. الاقورار: الصخور.
(2) الطمرة: الفرس الوثابة. لطرف: الفرس الكريم.
(3) العبل: الضخم.

لأن العمامة ربما جعلوها لواء. أ لا ترى أن الأحنف بن قيس، يوم مسعود ابن عمرو، حين عقد لعبس بن طلق اللواء، إنما نزع عمامته من رأسه فعقدها له.

و ربما شدوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة، و إذا طالت العقبة (1)

و لذلك قال شاعرهم:

فسيروا فقد جنّ الظلام عليكم # فباست امرئ يرجو القرى عند عاصم

دفعنا إليه و هو كالذيخ خاظيا # نشدّ على أكبادنا بالعمائم

و قال الفرزدق:

بني عاصم إن تلجئوها فإنكم # ملاجئ للسوءات دسم العمائم

و قال الآخر:

خليليّ شدّا لي بفضل عمامتي # على كبد لم يبق إلا صميمها

النعال

العرب تلهج بذكر النعال، و الفرس تلهج بذكر الخفاف. و في الحديث المأثور: «إن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر و الصفر، و يقولون: هو من زينة نساء آل فرعون» .

و أما قول شاعرهم:

إذا اخضرّت نعال بني غراب # بغوا و وجدتهم أشرى لئاما

فلم يرد صفة النعل، و إنما أراد أنهم إذا اخضرت الأرض و أخصبوا طغوا و بغوا. كما قال الآخر:

و أطول في دار الحفاظ إقامة # و أوزن أحلاما إذا البقل أجهلا

(1) العقبة: قدر ما يسيره الرجل.

و مثل قوله:

يا ابن هشام أهلك الناس اللبن # فكلهم يسعى بسيف و قرن

و أما قول الآخر:

و كيف أرجّي أن أسود عشيرتي # و أمي من سلمى أبوها و خالها

رأيتكم سودا جعادا، و مالك # مخصّرة بيض سباط نعالها

فلم يذهب إلى مديح النعال في انفسها، و إنما ذهب إلى سباطة أرجلهم و أقدامهم، و نفى الجعودة و القصر عنهم.

و قال النابغة:

رقاق النعال طيّب حجزاتهم # يحيون بالريحان يوم السباسب

يصونون أجسادا قديما نعيمها # بخالصة الأردان خضر المناكب (1)

قال: و بنو الحارث بن سدوس لم ترتبط حمارا قط، و لم تلبس نعلا قط إذا نقبت. و قد قال قائلهم:

و نلقي النعال إذا نقبت # و لا نستعين بأخلاقها (2)

و نحن الذؤابة من وائل # إلينا تمد بأعناقها

و هم رهط خالد بن المعمّر، الذي يقول فيه شاعرهم:

معاوي أمّر خالد بن معمر # فإنك لو لا خالد لم تؤمّر

و قائلهم الذي يقول:

أ غاضبة عمرو بن شيبان إن رأت # عديدين من جرثومة و دخيس (3)

فلو شاء ربي كان أير أبيكم # طويلا كأير الحارث بن سدوس

---

(1) الردن: مقدم كم القميص.
(2) نقبت: خرقت.
(3) الدخيس: العدد الكثير.

و كان عمر جعل رئاسة بكر لمجزأة بن ثور، فلما استشهد مجزأة جعلها أبو موسى لخالد بن المعمر، ثم ردها عثمان إلى شقيق بن مجزأة بن ثور، فلما خرج أهل البصرة إلى صفين تنازع شقيق و خالد الرئاسة، فصيرها عند ذلك علي إلى حضين بن المنذر، فرضي كل واحد منهما و كان يخاف أن يصيّرها إلى خصمه، فسكنت بكر و عرف الناس صحة تدبير علي في ذلك.

و أما قول الآخر:

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع # و شركا من استها لا تنقطع [1]

كلّ الحذاء يحتذي الحافي الوقع

فهذا كلام محتاج، و المحتاج يتجوز.

و أما قول النجاشي لهند بن عاصم:

إذا اللّه حيا صالحا من عباده # كريما فحيا اللّه هند بن عاصم

و كلّ سلولي إذا ما لقيته # سريع إلى داعي الندى و المكارم

و لا يأكل الكلب السروق نعالهم # و لا تنتقي المخّ الذي في الجماجم

قال يونس: كانوا لا يأكلون الأدمغة، و لا ينتعلون إلا بالسبت.

و قال كثير:

إذا نبذت لم تطب الكلب ريحها # و إن وضعت في مجلس القوم شمّت

و قال عتيبة بن مرداس، و هو ابن فسوة:

إلى معشر لا يخصفون نعالهم # و لا يلبسون السبت ما لم يخصّر

و إذا مدح الشاعر النعل بالجودة فقد بدأ بمدح لابسها قبل أن يمدحها.

قال اللّه تبارك و تعالى لموسى: **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ**

---

(1) الشرك: سير النقل.

طُوىً . و قال بعض المفسرين: كانت من جلد غير ذكي. و قال الزبيري:

ليس كما قال، بل اعلمه حق المقام الشريف، و المدخل الكريم. أ لا ترى أن الناس إذا دخلوا إلى الملوك ينزعون نعالهم خارجا.

قال: و حدثنا سلام بن مسكين قال: ما رأيت الحسن إلا و في رجليه النعل رأيته على فراشه و هي في رجليه، و في مسجده و هو يصلي و هي في رجليه.

و كان بكر بن عبد اللّه تكون نعله بين يديه فإذا نهض إلى الصلاة لبسها.

و روي ذلك عن عمرو بن عبيد، و هاشم الأوقص، و حوشب، و كلاب، و عن جماعة من أصحاب الحسن.

و كان الحسن يقول: «ما أعجب قوما يروون أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صلى في نعليه فلما انفتل من الصلاة علم أنه قد كان وطئ على كذا و كذا، و أشباها لهذا الحديث، ثم لا ترى أحدا منهم يصلي منتعلا» .

و أما قوله:

و قام بناتي بالنعال حواسرا # و ألصقن وقع السبت تحت القلائد

فإن النساء ذوات المصائب إذا قمن في المناحات كن يضربن صدورهن بالنعال.

و قال محمد بن يسير:

كم أرى من مستعجب من نعالي # و رضائي منها بلبس البوالي

كل جرداء قد تحيّفها الخصف # بأقطارها، بسرد النقال [1]

لا تداني و ليس تشبه في الخلـــ # ـقة إن أبرزت نعال الموالي

لا و لا عن تقادم العهد منها # بليت لا و لا لكرّ الليالي

و لقد قلت حين أوثر ذا الو # د عليها بثروتي و بمالي

(1) تحيف الشيء: أخذ من جوانبه و أنقصه. الخصف: طرق النقل لاصلاحها.

من يغالي من الرجال بنعل # فسوائي إذا بهن يغالي

أو بغاهن للجمال فإني # في سواهن زينتي و جمالي

في أخائي و في وفائي ورائي # و عفافي و منطقي و فعالي

ما وقاني الخفي و بلّغني الحا # جة منها، فإنني لا أبالي

و قال خلف الأحمر:

سقى حجاجنا نوء الثريا # على ما كان من مطل و بخل

هم جمعوا النعال فأحرزوها # و سدوا دونها بابا بقفل

إذا أهديت فاكهة و شاة # و عشر دجائج بعثوا بنعل

و مسواكين طولهما ذراع # و عشر من رديّ المقل خشل (1)

فإن أهديت ذاك ليحملوني # على نعل فدقّ اللّه رجلي

و قال كثير:

كأن ابن ليلى حين يبدو فينجلي # سجوف الخباء عن مهيب مشمّت

مقارب خطو لا يغير نعله # رهيف الشراك سهلة المتسمت

إذا طرحت لم تطب الكلب ريحها # و إن وضعت في مجلس القوم شمت

و قال بشار:

إذا وضعت في مجلس القوم نعلها # تضوّع مسكا ما أصابت و عنبرا

و لما قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه لصعصعة بن صوحان في المنذر بن الجارود ما قال: قال صعصعة: «لئن قلت ذاك يا أمير المؤمنين أنه لنظّار في عطفيه، تفّال في شراكيه، تعجبه جمرة برديه» .

و ذم رجل ابن التوأم فقال: «رأيته مشحّم النعل، درن الجورب، مغضّن الخفّ، دقيق الجربان (2) » .

---

(1) الخشل: السخيف اليابس.
(2) الجربان: جيب القميص.

و قال الهيثم: يمين لا يحلف بها الأعرابي أبدا: أن يقول لا أود لك اللّه صادرا و لا أصدر لك واردا، و لا حططت رحلك، و لا خلعت نعلك.

و قال آخر:

علق الفؤاد بريّق [1] الجهل # و ابرّ و استعصى على الأهل

وصبا و قد شابت مفارقه # سفها و كيف صبابة الكهل

أدركت معتصري [2] و أدركني # حلمي و يسّر قائدي نعلي

اختلاف الأزياء

قال ابن عباس رحمه اللّه في تعظيم شأن عصا موسى عليه السلام:

«الدابة ينشق عنها الصفا، معها عصا موسى، و خاتم سليمان، تمسح المؤمن بالعصا و تختم الكافر بالخاتم» .

و جعل اللّه تبارك و تعالى أكبر آداب النبي عليه السلام في السّواك، و حضّ عليه صلّى اللّه عليه و سلّم. و المسواك ألا يكون إلا عصا.

و قال أبو الوجيه: قضبان المساويك البشام، و الضّرو [3] ، و العتم [4]

و الأراك، و العرجون، و الجريد، و الإسحل.

و قد يلبس الناس الخفاف و القلانس في الصيف كما يلبسونها في الشتاء، إذا دخلوا على الخلفاء و على الأمراء، و على السادة و العظماء، لأن ذلك أشبه بالاحتفال، و بالتعظيم و الإجلال، و أبعد من التبذل و الاسترسال، و أجدر أن يفصلوا بين مواضع أنسهم في منازلهم و مواضع انقباضهم.

---

(1) ريق الشيء: أوله و أفضله.
(2) المعتصر: العمر و الهرم.
(3) الضرو: شجر طيب الرائحة.
(4) العتم: شجر الزيتون البري.

و للخلفاء عمّة، و للفقهاء عمة، و للبقالين عمة، و للأعراب عمة، و للصوص عمة، و للأبناء عمة، و للروم و النصارى عمة، و لأصحاب التشاجي (1)

عمة.

و لكل قوم زي: فللقضاة زي، و لأصحاب القضاة زي، و للشرط زي، و للكتّاب زي، و لكتاب الجند زي. و من زيهم أن يركبوا الحمير و إن كانت الهماليج (2) لهم معرضة.

و أصحاب السلطان و من دخل الدار على مراتب: فمنهم من يلبس المبطّنة، و منهم من يلبس الدّرّاعة، و منهم من يلبس القباء، و منهم من يلبس البازيكند و يعلق الخنجر، و يأخذ الجرز، و يتخذ الجمّة (3) .

و زي مجالس الخلفاء في الشتاء و الصيف فرش الصوف. و ترى أن ذلك أكمل و أجزل و أفخم و أنبل. و لذلك وضعت ملوك العجم على رءوسها التيجان، و جلست على الأسرة، و ظاهرت بين الفرش. و هل يملأ عيون الأعداء و يرعب قلوب المخالفين، و يحشو صدور العوام إفراط التعظيم إلا تعظيم شأن السلطان، و الزيادة في الأقدار، و إلا الآلات. و هل دواؤهم إلا في التهويل عليهم؟و هل تصلحهم إلا إخافتك إياهم؟و هل ينقادون لما فيه الحظ لهم و يسلسون بالطاعة التي فيها صلاح أمورهم إلا بتدبير يجمع المهابة و المحبة.

و كانت الشعراء تلبس الوشي و المقطعات (4) و الأردية السود، و كل ثوب مشهر. و قد كان عندنا منذ نحو خمسين سنة شاعر يتزيا بزي الماضين، و كان

---

(1) التشاجي: التمنع و التحازن.
(2) الهماليج: مفردها هملاج: البرذون الحسن السير.
(3) الدراعة: جبة مشقوقة المقدم. البازيكند: لباس يعلق على الكتف. الجزر: مقرعة من حديد. الجمة: شعر الرأس المدل على المنكبين.
(4) المقطعات: الجباب و القمصان و السراويل.

له برد أسود يلبسه في الصيف و الشتاء، فهجاه بعض الطياب من الشعراء فقال في قصيدة له:

بع بردك الأسود قبل البرد # في قرة تأتيك صما صرد

و كان لجربان (1) قميص بشار الأعمى وجبته لبنتان، فكان إذا أراد نزع شيء منها أطلق الأزرار فسقطت الثياب على الأرض، و لم ينزع قميصه من جهة رأسه قط.

و قدّويه العدوي الشحّاجيّ، لم يلبس قط قميصا، و هو اليوم حي، و هو شيخهم، و هو شيخ كبير.

و سعيد بن العاصي الجواد الخطيب، لم ينزع قميصه قط. فقدويه الشحاجي ضد سعيد بن العاصي الأموي. و قال الحطيئة:

سعيد فلا يغررك قلة لحمه # تخدّد عنه اللحم فهو صليب

و كان شديد السواد نحيفا.

و من شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم و أعناقهم و حواجبهم. فإذا أشاروا بالعصي فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيديا أخر. و يدل على ذلك قول الأنصاري حيث يقول:

و سارت لنا سيارة ذات سؤدد # بكوم المطايا و الخيول الجماهر (2)

يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا # ملوكا بأرض الشام فوق المنابر

يصيبون فصل القول في كل خطبة # إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر

و قال الكميت بن زيد:

و نزور مسلمة المهذّ # ب بالمؤبّدة السوائر

---

(1) الجربان: جيب القميص.

(2) الكوم: فردها كوماء و هي الناقة العالية السنام. الجماهير المجتمع الكثير.

بالمذهبات المعجبا # ت لمفحم منا و شاعر

أهل التجاوب في المحا # فل و المقاول بالمخاصر

و أيضا إن حمل العصا و المخصرة دليل على التأهب للخطبة، و التهيؤ للإطناب و الإطالة، و ذلك شيء خاص في خطباء العرب، و مقصور عليهم، و منسوب إليهم. حتى أنهم ليذهبون في حوائجهم و المخاصر بأيديهم، ألفا لها، و توقعا لبعض ما يوجب حملها، و الإشارة بها.

و على ذلك المعنى أشار النساء بالمآلي (1) و هن قيام في المناحات، و على ذلك المثال ضربن الصدور بالنعال.

و إنما يكون العجز و الذلة في دخول الخلل و النقص على الجوارح، و أما الزيادة فيها فالصواب فيه. و هل ذلك إلا كتعظيم كور العمامة، و اتخاذ القضاة القلانس العظام في حمّارة القيظ، و اتخاذ الخلفاء العمائم على القلانس فإن كانت القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رءوسها، حتى تكون فوق قلانس جميع الأمة.

و كذلك القناع، لأنه أهيب. و على ذلك المعنى كان يتقنّع العباس بن محمد و عبد الملك بن صالح، و العباس بن موسى و أشباههم. و سليمان بن أبي جعفر، و عيسى بن جعفر، و إسحاق بن عيسى، و محمد بن سليمان ثم الفضل بن الربيع، و السندي بن شاهك و أشباههما من الموالى. لأن ذلك أهيب في الصدور، و أجل في العيون.

و المقنع أروع من الحاسر، لأنه إذا لم يفارقه الحجاب و إن كان ظاهرا في الطرق كان أشبه بمباينة العوام و سياسة الرعية.

و طرح القناع ملابسة و ابتذال، و مؤانسة و مقاربة. و الدليل على صواب

(1) المئلاة: خرقة تمسكها المرأة عند النوح.

هذا العمل من بني هاشم، و من صنائعهم و رجال دعوتهم، و إنهم قد علموا حاجة الناس إلى أن يهابوهم، و إن ذلك هو صلاح شأنهم–إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان أكثر الناس قناعا.

و الدليل على أن ذلك قد كان شائعا في الأسلاف المتبوعين أنا نجد رؤساء جميع أهل الملل، و أرباب النحل، على ذلك. و لذلك اتخذوا في الحروب الرايات و الأعلام، و إنما ذلك كله خرق سود و حمر و صفر و بيض.

و جعلوا اللواء علامة للعقد و العلم في الحرب مرجعا لصاحب الجولة. و قد علموا أنها و إن كانت خرقا على عصي إن ذلك أهيب في القلوب و أهول في الصدور، و أعظم في العيون. و لذلك أجمعت الأمم رجالها و نساؤها على إطالة الشعور، لأن ذا الجمة أضخم هامة و أطول قامة، و إن الكاسي أفخم من العاري. و لو لا أن حلق الرأس طاعة و عبادة، و تواضع و خضوع، و كذلك السعي و رمي الجمار، لما فعلوا ذلك.

و في الحديث أنه لا يفتح عموريّة إلا رجال ثيابهم ثياب الرهبان و شعورهم شعور النساء.

و كل ما زادوه في الأبدان، و وصلوه بالجوارح، فهو زيادة في تعظيم تلك الأبدان.

و العصي و المخاصر مع الذي عددناه، و مع ذلك الذي ذكرناه و نريد ذكره من خصال منافعها، كله باب واحد.

و المغنّي قد يوقّع بالقضيب على أوزان الأغاني، و المتكلم قد يشير برأسه و يده على أقسام كلامه و تقطيعه. ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ و ضروب المعاني. و لو قبضت يده و منع حركة رأسه، لذهب ثلثا كلامه.

و قال عبد الملك بن مروان: لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي.

و أراد معاوية سحبان وائل على الكلام، و كان قد اقتضبه اقتضابا، فلم

ينطق حتى أتوه بمخصرة، فرطلها (1) بيده فلم تعجبه حتى أتوه بمخصرة من بيته.

و المثل المضروب بعصا الأعرج، يقولون: «أقرب من عصا الأعرج» و يضربون المثل بعصا النهدي. قال علقمة بن عبدة في صفة فرس أنثى:

سلاءة كعصا النهدي غلّ لها # منظّم من نوى قرّان معجوم (2)

و يضربون المثل برميح أبي سعد. و كان أبو سعد أعرج، وفد في وفد عاد. قال ذو الأصبع العدواني:

إن تكن شكّتي رميح أبي سعـــ # د فقد أحمل السلاح معا

و قال عباس بن مرداس:

جزى اللّه خيرا خيرنا لصديقه # و زوّده زادا كزاد أبي سعد

و زوّده صدقا و برا و نائلا # و ما كان في تلك الوفادة من حمد

و قال الآخر:

فآب بجدوى زامل و ابن زامل # عدوّك، أو جدوى كليب بن وائل

و يقولون: «لو كان في العصا سير» . و يقولون: «ما هو إلا أبنة عصا، و عقدة رشاء» . و يقولون: أخرج عوده كعصا البقّار، و أخرج أيضا عوده كعصا الحادي.

و كان أبو العتاهية أهدى إلى أمير المؤمنين المأمون عصا نبع، و عصا شريان، و عصا آبنوس، و عصا أخرى كريمة العيدان، شريفة الأغصان، و أردية قطرية، و ركاء يمانية، و نعالا سبتية (3) ، فقبل من ذلك عصا واحدة ورد الباقي.

---

(1) رطل الشيء: رازه و وزنه ليعرف ثقله.
(2) سلاءة: شوكة النخل. غل: أدخل. قران: قرية باليمامة. معجوم: معضوض.
(3) السبت: الجلد المدبوغ. الركاء جمع ركوة: وعاء صغير.

و بعث إليه مرة أخرى بنعل و كتب إليه في ذلك:

نعل بعثت بها لتلبسها # تسعى بها قدم إلى المجد

لو كنت أقدر أن أشركها # خدي جعلت شراكها خدي

فقبلها.

الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، أن الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام عوسج، و أنه نودي من جوف العوسج، و أن عصاه كانت من آس الجنة، و أنها كانت من العود الذي في وسط الورقة، و كان طولها طول موسى عليه السّلام. و قالوا: من العليق.

و قال الآخر:

صفراء من نبع كلون الورس # أبدؤها بالدهن قبل نفسي

و أنشد الأصمعي عن بعض الأعراب:

أ لا قالت الخنساء يوم لقيتها # كبرت و لم تجزع من الشّيب مجزعا

رأت ذا عصا يمشي عليها و شيبة # تقنّع منها رأسه ما تقنعا

فقلت لها لا تهزئي بي فقلما # يسود الفتى حتى يشيب و يصلعا

و للقارح اليعبوب خير علالة # من الجذع المجرى و أبعد منزعا [1]

و قال إسحاق بن سويد:

في رداء النبي أقوى دليل # ثم في القعب و العصا و القضيب

و قال أبو الشيص الأعمى في هارون الرشيد:

يا بني هاشم أفيقوا فإن الـــ # ملك منكم حيث العصا و الرداء

ما لهارون في قريش كفيّ # و قريش ليست لهم أكفاء

---

(1) القارح: الفرس في سنتها الخامسة. اليعبوب: الطويل السريع. العلالة: الجري الثاني. الجذع من الخيل: ما تم له سنتان و دخل في الثالثة.

و قال آخر:

على خشبات الملك منه مهابة # و في الحرب عبل الساعدين قروع

يشقّ الوغى عن رأسه فضل نجدة # و أبيض من ماء الحديد وقيع

و مما يجوز في العصا قول أبي الشيص:

أنعي فتىّ مصّ الثرى بعده # بقيّة الماء من العود

أنعي فتى الجود إلى الجود # ما مثل من أنعي بموجود

و من هذا الباب قول عبد اللّه بن جدعان:

فلم أر مثلهم حيّين أبقى # على الحدثان إن طرقت طروقا (1)

و أضرب عند ضنك الأمر منهم # و أسلكهم لأحزنه طريقا

شريت صلاحهم بتلاد مالي # فعاد الغصن معتدلا و ريقا (2)

و يقولون للرجل إذا أثرى و أفاد و كثرت نعمته: «ضع عصاك» ، و «قد وضع عصاه» .

و قال أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل:

و نجرّ الأذيال في نعمة زو # ل تقولان ضع عصاك لدهر

و يقولون للمستوطن في البلد و المستطيب للمكان: «قد ألقى عصاه» .

و قال زهير بن أبي سلمى:

فلما وردن الماء زرقا جمامه # و ضعن عصي الحاصر المتخيّم

---

(1) الحدثان: حوادث الدهر و نوبه، الطروق: المجيء بالليل.

(2) التليد: القديم، ضد الطريف.

كتاب الزهد

نبدأ على اسم اللّه و عونه بشيء من كلام النسّاك في الزهد، و بشيء من ذكر أخلاقهم و مواعظهم.

عوف (1) ، عن الحسن قال: «لا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث: شبابه فيما ابلاه، و عمره فيما أفناه، و ماله من أين كسبه، و فيما أنفقه» .

قالوا: و قال يونس بن عبيد: سمعت ثلاث كلمات لم أسمع بأعجب منهن: قول حسان بن أبي سنان: ما شيء أهون من ورع، إذا رابك شيء فدعه. و قول ابن سيرين: ما حسدت أحدا على شيء قط. و قول مورّق العجلي:

لقد سألت اللّه حاجة منذ أربعين سنة، ما قضاها و لا يئست منها. فقيل لمورق: ما هي؟ قال: ترك مالا يعنيني.

---

(1) هو عوف بن ابي جميلة البصري.

و قال أبو حازم الأعرج: إن عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا ما زوي عنا.

و قال أبو عبد الحميد: لم أسمع أعجب من قول عمر: «لو أن الصبر و الشكر بعيران ما باليت أيهما أركب» .

و قال ابن ضبارة: أنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة اللّه أهون من الصبر على عذاب اللّه.

و قال زياد عبد (عبد اللّه بن) عياش بن أبي ربيعة: أنا من أن أمنع الدعاء أخوف من أن أمنع الإجابة.

و قال له عمر بن عبد العزيز: يا زياد، إني أخاف اللّه مما دخلت فيه.

قال: لست أخاف عليك أن تخاف، و إنما أخاف عليك ألا تخاف.

و قال بعض النساك: كفى موعظة أنك لا تموت إلا بحياة، و لا تحيا إلا بموت.

و هو الذي قال: أصحب من ينسى معروفة عندك.

و هو الذي قال: «لا تجعل بينك و بين اللّه منعما، و عدّ النعم منه عليك مغرما» .

و دخل سالم بن عبد اللّه، مع هشام بن عبد الملك البيت، فقال له هشام: سلني حاجتك. فقال: أكره أن أسأل في بيت اللّه غير اللّه.

و قيل لرابعة القيسية: لو كلمت رجال عشيرتك فاشتروا لك خادما تكفيك مهنة بيتك؟قالت: «و اللّه إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا فكيف أسألها من لا يملكها؟!» .

و قال بعض النساك: دياركم أمامكم، و حياتكم بعد موتكم.

و قال السموأل بن عاديا اليهودي:

ميتا خلقت و لم أكن من قبلها # شيئا يموت فمتّ حين حييت

و قال أبو الدرداء: «كان الناس ورقا لا شوك فيه، و هم اليوم شوك لا ورق فيه» .

الحسن بن دينار قال: رأى الحسن رجلا يكيد بنفسه، فقال: «إن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله، و إن أمرا هذا أوله لجدير أن يخاف آخره» .

قال أبو حازم: الدنيا غرت أقواما فعملوا فيها بغير الحق، فلما جاءهم الموت خلفوا مالهم لمن لا يحمدهم، و صاروا إلى من لا يعذرهم. و قد خلفنا بعدهم، فينبغي لنا أن ننظر إلى الذي كرهناه منهم فنجتنبه، و إلى الذي غبطناهم به فنستعمله.

موسى بن داود، رفع الحديث قال: «النظر إلى خمسة عبادة: النظر إلى الوالدين، و النظر إلى البحر، و النظر إلى المصحف، و النظر إلى الصخرة، و النظر إلى البيت» .

عبد اللّه بن شداد، قال: «أربع من كنّ فيه فقد برئ من الكبر: من اعتقل البعير، و ركب الحمار، و لبس الصوف، و أجاب دعوة الرجل الدون» .

و ذكر عند أنس الصوم فقال: «ثلاث من أطاقهن فقد ضبط أمره: من تسحر، و من قال (1) و من أكل قبل أن يشرب» .

و قال أبو سعيد، عبد الكريم العقابي: من أخر السحور و قدم الفطور، و أكل قبل أن يشرب، و شرب ثم لم يأكل، فقد ضبط أمره.

---

(1) قال: فعل ماضي من القيلولة و هي النوم في الظهيرة.

و قال الجمّاز (1) : ليس يقوى على الصوم إلا من كبر لقمه، و أطاب أدمه.

مجالد بن سعيد، عن الشعبي، قال: حدثني مرّة الهمداني (2) -قال مجالد: و قد رأيته-و حدثنا اسماعيل بن أبي خالد (3) أنه لم ير مثل مرة قط، كان يصلي في اليوم و الليلة خمسمائة ركعة.

و كان مرّة يقول: لما قتل عثمان رحمه اللّه: حمدت اللّه ألا أكون دخلت في شيء من قتله، فصليت مائة ركعة. فلما وقع الجمل و صفين حمدت اللّه ألا أكون في شيء من تلك الحروب، و زدت مائة ركعة. فلما كانت وقعة النهر و إن حمدت اللّه إذ لم أشهدها، و زدت مائة ركعة فلما كانت فتنة ابن الزبير حمدت اللّه إذ لم أشهدها، و زدت مائة ركعة.

و أنا أسأل اللّه أن يغفر لمرة. على أنا لا نعرف لبعض ما قال وجها، لأنك لا تعرف فقيها من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج، كما أنا لا نعرف أحدا منهم لا يستحل قتال اللصوص. و هذا ابن عمر، و هو رئيس الحلسية (4) بزعمهم، قد لبس السلاح لقتال نجدة (5) .

و قيل لشريح: الحمد للّه الذي سلمك من القتال في شيء من هذه الفتن. قال: فكيف أصنع بقلبي و هواي.

---

(1) الجماز هو محمد بن عمرو بن عطاء بن ريسان، لقب بالجماز أي الوثاب، كان شاعرا و أديبا بصريا ماجنا خبيث اللسان، مات في خلافة المتوكل.

(2) مرة الهمداني عرف بمرة الخير لعبادته، روى عن أبي بكر و عمر و علي و توفي سنة 76 هـ.

(3) اسماعيل بن ابي خالد البجلي الاخمسي، عابد كوفي و راوية ثقة فسمي الميزان، توفي سنة 146 هـ.

(4) الحلسية: القاعدون الذين لا ينفرون إلى القتال. و ابن عمر هو عبد اللّه بن عمر بن الخطاب الذي ابى أن يشترك في حروب علي و معاوية و قعد و أصحابه عن القتال.

(5) هو نجدة بن عامر الحنفي، أحد زعماء الخوارج استولى على اليمامة و الطائف ثم على البحرين و عمان و هجر و هزم عدة حملات وجهها اليه ابن الزبير، و لقب نفسه بأمير المؤمنين. و خلعه الخوارج و قتلوه سنة 72 هـ.

قال الحسن: قتل الناقة رجل واحد، و لكن اللّه عم القوم بالعذاب، لأنهم عموه بالرضا.

و سئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان و خاذليه و ناصريه فقال: تلك دماء كفّ اللّه يدي عنها، فأنا لا أحب أن أغمس لساني فيها.

و دخل أبو الدرداء على رجل يعوده، فقال له: كيف تجدك؟فقال:

أفرق من الموت. قال: فمن أصبت الخير كله؟قال: من اللّه. قال: فلم تفرق ممن لم تصب الخير كله إلا منه؟! و لما قذف ابراهيم عليه السّلام في النار قال له جبريل عليه السّلام: أ لك حاجة يا خليل اللّه؟قال: أما إليك فلا.

قال: و رأى بعض النساك صديقا له من النساك مهموما، فسأله عن حاله ذلك فقال: كان عندي يتيم أحتسب فيه الأجر، فمات. قال: فاطلب يتيما غيره فإن ذلك لا يعدمك إن شاء اللّه. قال أخاف: أن لا أصيب يتيما في سوء خلقه. فقال: أما أني لو كنت مكانك لم أذكره سوء خلقه.

قال: و دخل بعض النساك على صاحب له و هو يكيد بنفسه، فقال له:

طب نفسا فإنك تلقى ربا رحيما. قال: أما ذنوبي فإني أرجو أن يغفرها اللّه لي، و ليس اغتمامي إلا لمن أدع من بناتي. قال له صاحبه: الذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجه لحفظ بناتك.

قال: و كان مالك بن دينار يقول: لو كانت الصحف من عندنا لأقللنا الكلام.

و قال يونس بن عبيد: لو أمرنا بالجزع لصبرنا.

و كان يقول: كسبت في هذه السوق ستين ألف درهم، ما منها درهم إلا و أنا أخاف أن أسأل عنه.

قال: و سمع عمرو بن عبيد، عبد الرحيم بن صديقة يقول: قال الحطيئة: إنما أنا حسب موضوع: فقال عمرو: كذب ترحه اللّه، ذلك التقوى.

و قال أبو الدرداء: نعم صومعة المؤمن منزل يكفّ فيه نفسه و بصره و فرجه. و إياكم و الجلوس في هذه الأسواق، فإنها تلغي و تلهي.

و قال الحسن: يا ابن آدم، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا، و لا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا. يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه، و إذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به. الثواء هاهنا قليل، و البقاء هناك طويل. أمتكم آخر الأمم و أنتم آخر أمتكم، و قد أسرع بخياركم فما ذا تنتظرون؟آلمعاينة؟فكأن قد. هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحاليها، و بقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة!أما أنه و اللّه لا أمة بعد أمتكم، و لا نبيّ بعد نبيكم، و لا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس و الساعة تسوقكم، و إنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم. من رأى محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم فقد رآه غاديا رائحا، لم يضع لبنة على لبنة، و لا قصبة على قصبة. رفع له علم فشمر إليه. فالوحاء و النجاء النجاء. علام تعرّجون. أتيتم و رب الكعبة. قد أسرع بخياركم و أنتم كل يوم ترذلون، فما ذا تنتظرون. إن اللّه تعالى بعث محمدا عليه السلام على علم منه، اختاره لنفسه، و بعثه برسالته، و أنزل عليه كتابه، و كان صفوته مع خلقه، و رسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعا ينظر إليه أهل الأرض، و آتاه منها قوتا و بلغه، ثم قال:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اَللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، فرغب أقوام عن عيشه، و سخطوا ما رضي له ربه، فأبعدهم اللّه و اسحقهم. يا ابن آدم، طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك، و اعلم أنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك. فرحم اللّه رجلا نظر فتفكر، و تفكر فاعتبر، و اعتبر فأبصر، و ابصر فصبر. قد أبصر أقوام فلم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم و لم يدركوا ما طلبوا، و لم يرجعوا إلى ما فارقوا. يا ابن آدم، أذكر قوله: **وَ كُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ**

فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً. `اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اَلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً . عدل و اللّه عليك من جعلك حسيب نفسك. خذوا صفاء الدنيا و ذروا كدرها، فليس الصفو ما عاد كدرا، و لا الكدر ما عاد صفوا. دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم. ظهر الجفاء و قلت العلماء، و عفت السنة و شاعت البدعة. لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم إلا قرّة العين، و جلاء الصدر. و لقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها، و كانوا فيما أحلّ اللّه لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها. ما لي أسمع حسيسا و لا أرى أنيسا. ذهب الناس و بقي النسناس (1) . لو تكاشفتم ما تدافنتم. تهاديتم الأطباق و لم تتهادوا النصائح. قال ابن الخطاب: رحم اللّه امرأ أهدى إلينا مساوينا. أعدوا الجواب فإنكم مسئولون. المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه و لكن أخذه من قبل ربه. إن هذا الحق قد جهد أهله و حال بينهم و بين شهواتهم، و ما يصبر عليه إلا من عرف فضله، و رجا عاقبته. فمن حمد الدنيا ذم الآخرة، و ليس يكره لقاء اللّه إلا مقيم على سخطه. يا ابن آدم، ليس الإيمان بالتحلي و لا بالتمني، و لكنه ما وقر في القلوب، و صدقته الأعمال.

و كان إذا قرئ: اَلْهَاكُمُ اَلتَّكَاثُرُ قال: عم ألهاكم؟!ألهاكم عن دار الخلود، و جنة لا تبيد. هذا و اللّه فضح القوم، و هتك الستر و أبدى العوار (2) .

تنفق مثل ديتك في شهواتك سرفا، و تمنع في حق اللّه درهما. ستعلم يا لكع (3) . الناس ثلاثة: مؤمن، و كافر، و منافق. فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف، و وقمه ذكر العرض. و أما الكافر فقد قمعه السيف، و شرده الخوف، فأذعن بالجزية، و أسمح بالضريبة. و أما المنافق ففي الحجرات و الطرقات، يسرون غير ما يعلنون، و يضمرون غير ما يظهرون. فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة. ويلك!قتلت وليه ثم تتمنى عليه جنته!

---

(1) خلق على صورة الناس.
(2) العوار: العيب.
(3) اللكع: اللئيم الأحمق.

و كان يقول: رحم اللّه رجلا خلا بكتاب اللّه فعرض عليه نفسه، فإن وافقه حمد ربه و سأله الزيادة من فضله، و إن خالفه اعتتب و أناب (1) ، و رجع من قريب. رحم اللّه رجلا وعظ أخاه و أهله فقال: يا أهلي، صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكنكم مساكنكم، لعلّ اللّه يرحمكم. فإن اللّه تبارك و تعالى أثنى على عبد من عباده فقال: **وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَ اَلزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** . يا ابن آدم: كيف تكون مسلما و لم يسلم منك جارك، و كيف تكون مؤمنا و لم يأمنك الناس.

و كان يقول: لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه، و لا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيبا إلا وجد في نفسه عيبا آخر ينبغي له أن يصلحه. فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره. و إنك ناظر إلى عملك يوزن خيره و شره، فلا تحقرنّ شيئا من الخير و إن صغر، فإنك إذا رأيته سرّك مكانه. و لا تحقرن شيئا من الشر و إن صغر، فإنك إذا رأيته ساءك مكانه.

و كان يقول: رحم اللّه امرأ كسب طيّبا و أنفق قصدا، و قدّم فضلا. وجهوا هذه الفضول حيث وجهها اللّه، وضعوها حيث أمر اللّه، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم و يؤثرون بالفضل. ألا أن هذا الموت قد أضرّ بالدنيا ففضحها، فلا و اللّه ما وجد ذو لب فيها فرحا. فإياكم و هذه السبل المتفرقة، التي جماعها الضلالة و ميعادها النار. أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا أجنّهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم (2) . إذا عملوا الحسنة سرتهم و سألوا اللّه أن يتقبلها منهم، و إذا عملوا سيئة ساءتهم و سألوا اللّه أن يغفرها لهم. يا بن آدم، إن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس هاهنا شيء يغنيك، و إن

---

(1) اعتتب: رجع من أمر و انصرف عنه.
(2) فكاك الرقبة: تخليصها من أسار الرق.

كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك. يا بن آدم، لا تعمل شيئا من الحق رياء، و لا تتركه حياء.

و كان يقول: إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم من أهل الدنيا، كانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا ما لا يقضي أهل الدنيا بدنياهم فيها، و كان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم اليوم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دنياهم، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم، و زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم.

و كان يقول: لا أذهب إلى من يواري عني غناه و يبدي لي فقره و يغلق دوني بابه و يمنعني ما عنده، و ادع من يفتح لي بابه و يبدي لي غناه و يدعوني إلى ما عنده.

و كان يقول: يا بن آدم، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، و أنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر.

مؤمن متّهم، و علج أغتم (1) و أعرابيّ لا فقه له، و منافق مكذّب، و دنياويّ مترف، نعق بهم ناعق فاتبعوه، فرّاش نار و ذبّان طمع.

و الذي نفس الحسن بيده ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا و قد أصبح مهموما حزينا، و ليس لمؤمن راحة دون لقاء اللّه، و الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، و المنافق إلى نفاقه. أي قوم، إن نعمة اللّه عليكم أفضل من أعمالكم، فسارعوا إلى ربكم، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة، و لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه، و كانت المحاسبة من همّه.

و قال الحسن في يوم فطر، و قد رأى الناس و هيئاتهم: إن اللّه تبارك و تعالى جعل رمضان مضمارا لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق أقوام ففازوا و تخلّف آخرون فخابوا. فالعجب من الضاحك و اللّه ان لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه، و مسيء بإساءته، عن اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه

(1) علج اغتم: الكافر الذي لا يفصح شيئا.

المحسنون، و يخسر فيه المبطلون. أما و اللّه لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه و مسيء بإساءته عن ترجيل شعر و تجديد ثوب (1) .

و حدّث عن عمر بن الخطاب رحمه اللّه أنه قال:

الناس طالبان: فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره، فإنه ربما أدرك الذي طلب منها فهلك بما أصاب منها، و ربما فاته الذي طلب منها فهلك بما فاته منها. و طالب الآخرة، فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه.

و حدث عن عمر بن الخطاب رحمه اللّه أنه قال:

يا أيها الناس، أنه أتى عليّ حين و أنا أحسب أنه من قرأ القرآن أنه إنما يريد به اللّه و ما عنده. ألا و قد خيل إلي أن أقواما يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس. ألا فأريدوا اللّه بقراءتكم، و أريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل، و إذ النبي صلّى اللّه عليه و سلّم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي و ذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا و أثنينا عليه، و من أظهر لنا شرا ظننا به شرا و أبغضناه عليه. اقدعوا (2) هذه النفوس عن شهواتها، فإنها طلعة (3) ، و إنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقيل مريء، و إن الباطل خفيف وبيء، و ترك الخطيئة خير من معالجة التوبة. و رب نظرة زرعت شهوة، و شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا.

و كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن و كأنك بالآخرة لم تزل.

و قال أبو حازم الأعرج: وجدت الدنيا شيئين: شيئا هو لي لن أعجله دون أجله و لو طلبته بقوة السموات و الأرض، و شيئا هو لغيري لم أنله فيما مضى و لا

---

(1) ترجيل الشعر: تسريحه و تنظيفه.
(2) اقدعوا: كفو، امنعوا.
(3) طلعة: كثيرة التطلع إلى الشيء.

أناله فيما بقي. يمنع الذي لي من غيري، كما منع الذي لغيري مني. ففي أي هذين أفني عمري، و أهلك نفسي.

و دخل على بعض الملوك من بني مروان فقال: أبا حازم، ما المخرج مما نحن فيه؟قال: تنظر إلى ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، و ما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه. قال: و من يطيق ذلك يا أبا حازم؟قال: فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة و الناس أجمعين. قال: ما مالك؟قال: مالان. قال:

ما هما؟قال: الثقة بما عند اللّه، و اليأس مما في أيدي الناس. قال: أرفع حوائجك إلينا. قال: هيهات، قد رفعتها إلى من لا تختزل الحوائج دونه، فإن أعطاني منها شيئا قبلت، و إن زوى عنى منها شيئا رضيت.

و قال الفضيل بن عياض: يا ابن آدم، إنما يفضلك الغني بيومك. أمس قد خلا، و غد لم يأت، فإن صبرت. يومك أحمدت أمرك، و قويت على غدك.

و إن عجزت يومك أذممت أمرك، و ضعفت عن غدك. و إن الصبر يورث البرء، و إن الجزع يورث السقم، و بالسقم يكون الموت، و بالبرء تكون الحياة.

و قال الحسن: أيا فلان، أ ترضى هذه الحال التي أنت عليها للموت إذا نزل بك؟قال: لا. قال: أ فتحدّث نفسك بالانتقال عنها إلى حال ترضاها للموت إذا نزل بك؟قال: حديثا بغير حقيقة. قال: أ فبعد الموت دار فيها مستعتب (1) ؟قال: لا. قال: فهل رأيت عاقلا رضي لنفسه بمثل الذي رضيت به لنفسك؟! قال عيسى بن مريم صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا إن أولياء اللّه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون. الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، و إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم، و تركوا منها ما علموا أن سيتركهم» .

(1) مستعتب: استرضاء.

و رأوه يخرج من بيت مومسة، فقيل له: يا روح اللّه ما تصنع عند هذه؟ قال: «إنما يأتي الطبيب المرضى» .

و قال حين مر ببعض الخلق فشتموه، ثم مر بآخرين فشتموه فكلما قالوا شرا قال خيرا، فقال له رجل من الحواريين: كلما زادوك شرا زدتهم خيرا حتى كأنك إنما تغريهم بنفسك، و تحثهم على شتمك!قال: «كل إنسان يعطي مما عنده» .

و قال: «ويلكم يا عبيد الدنيا، كيف تخالف فروعكم أصولكم، و عقولكم أهواءكم. قولكم شفاء يبرئ الداء، و عملكم داء لا يقبل الدواء.

لستم كالكرمة التي حسن ورقها، و طاب ثمرها، و سهل مرتقاها، بل أنتم كالسّمرة التي قل ورقها و كثر شوكها، و صعب مرتقاها. ويلكم يا عبيد الدنيا، جعلتم العمل تحت أقدامكم، من شاء أخذه، و جعلتم الدنيا فوق رءوسكم لا يستطاع تناولها، لا عبيد أتقياء، و لا أحرار كرام، ويلكم أجراء السوء، الأجر تأخذون، و العمل تفسدون. سوف تلقون ما تحذرون يوشك رب العمل أن ينظر في عمله الذي أفسدتم، و في أجره الذي أخذتم. ويلكم غرماء السوء تبدءون بالهدية قبل قضاء الدين، بالنوافل تطوعون، و ما أمرتم به لا تؤدون.

إن رب الدين لا يقبل الهدية حتى يقضي دينه» .

و كان أبو الدرداء يقول: «أقرب ما يكون العبد من غضب اللّه إذا غضب، و احذر أن تظلم من لا ناصر له إلا اللّه» .

و قال وزر العبد:

لعمر أبي المملوك ما عاش أنه # و إن أعجبته نفسه لذليل

يرى الناس أنصارا عليه و ما له # من الناس إلا ناصرون قليل

شيخ من أهل البادية قال: المعرض بالناس أتقى صاحبه و لم يتق ربه. و كان بكر بن عبد اللّه يقول: «أطفئوا نار الغضب بذكر نار جهنم» . و قال: «من كان له من نفسه واعظ عارضه ساعة الغفلة، و حين الحمية» .

و قال علي للأشتر: «أنظر في وجهي» ، حين جرى بينه و بين الأشعث ابن قيس ما جرى.

و كانت العجم تقول: «إذا غضب الرجل فليستلق، و إذا أعيا فليرفع رجليه» .

و قال أبو الحسن: كان لرجل من النساك شاة، و كان معجبا بها، فجاء يوما فوجدها على ثلاث قوائم فقال: من صنع هذا بالشاة؟قال غلامه: أنا.

قال: و لم؟قال: أردت أن أغمك. قال: لا جرم لأغمن الذي أمرك بغمي، اذهب فأنت حر.

سعيد بن عامر (1) ، عن محمد بن علقمة، قال سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب الناس و هو يقول: ما أنعم اللّه على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضه اللّه أفضل مما انتزع منه. ثم قرأ **إِنَّمَا يُوَفَّى اَلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** .

أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد (2) عن أصحابه قالوا: حضرت عمرو بن عبيد الوفاة فقال لعديله: نزل بي الموت و لم أتأهب له. اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران لك في أحدهما رضا لي في الآخر هوى إلا اخترت رضاك على هواي، فاغفر لي.

و لما خبر أبو حازم سليمان بن عبد الملك بو عبد اللّه للمذنبين، قال سليمان: فأين رحمة اللّه؟قال أبو حازم: قريب من المحسنين.

قال: و خرج عثمان بن عفان رحمه اللّه من داره فرأى في دهليزه أعرابيا في بت، أشغى (3) ، غائر العينين، مشرف الحاجبين، فقال يا أعرابي: أين ربك؟قال: بالمرصاد. و كان الأعرابي عامر بن عبد قيس، و كان ابن عامر سيره إليه.

---

(1) هو سعيد بن عامر الضبعي، راوية ثقة من محدثي البصرة عاش بين سنتي 122-208 هـ.
(2) هو علي بن محمد المدائني.
(3) أشغى: من تختلف أسنانه بالكبر و الصغر.

قال: و غدا أعرابي من طيئ مع امرأة له، فاحتلبا لبنا ثم قعدا يتمجعان (1) ، فقالت امرأته: أ نحن أنعم عيشا أم بنو مروان؟قال: هم أطيب طعاما منا، و نحن أردأ كسوة منهم، و هم أنعم منا نهارا، و نحن أظهر منهم ليلا.

قال: وعظ عمر بن الخطاب رجلا فقال: لا يلهك الناس عن نفسك، فإن الأمر يصير إليك دونهم!و لا تقطع النهار سادرا (2) فإنه محفوظ عليك ما عملت. و إذا أسأت فأحسن، فإني لم أر شيئا أشد طلبا و لا أسرع دركا من حسنة حديثة لذنب قديم.

قال: كان هلال بن مسعود يقول: زاهدكم راغب، و مجتهدكم مقصر، و عالمكم جاهل، و جاهلكم مغترّ.

مسلمة بن محارب قال: قال عامر بن عبد قيس: الدنيا والدة للموت، ناقضة للمبرم، مرتجعة للعطية، و كل من فيها يجري إلى ما لا يدري، و كل مستقر فيها غير راض بها، و ذلك شهيد على أنها ليست بدار قرار.

قال الحسن: من أيقن بالخلف جاد بالعطية.

و قال أسماء بن خارجة: إذا قدمت المودة سمج الثناء.

و قال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظيّ: عظني. قال:

لا أرضى نفسي لك، إني لأصلي بين الفقير و الغني فأميل على الفقير و اوسع للغني.

قال: و قال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

قال: كان أبو بكر رحمه اللّه إذا قيل له: مات فلان، قال: «لا إله إلا اللّه» . و كان عثمان يقول: «فلا إله إلا اللّه» .

---

(1) تمجع: أكل التمر و شرب اللبن.
(2) سادرا: غير مهتم لشيء.

و ركب سليمان بن عبد الملك يوما في زي عجيب، فنظرت إليه جارية له فقالت: إنك لمعني ببيتي الشاعر. قال: و ما هما؟فأنشدته:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى # غير أن لا بقاء للإنسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب # كان في الناس غير أنك فان

قال: ويلك نعيت إليّ نفسي.

قال: صام رجل سبعين سنة، ثم دعا اللّه بحاجة فلم يستجب له، فرجع لنفسه فقال: «منك أتيت» . فكان اعترافه أفضل من صومه.

و قال: من تذكر قدرة اللّه لم يستعمل قدرته في ظلم عباد اللّه.

و قال الحسن: إذا سرّك أن تنظر إلى الدنيا بعدك فانظر إليها بعد غيرك.

و كان الحسن يقول: ليس الإيمان بالتحلي و لا التمني، و لكن ما وقر في القلوب، و صدقته الأعمال.

قال: مات ذر بن أبي ذر الهمداني، من بني مرهبة، و هو ذر بن عمر بن ذر فوقف على قبره فقال: يا ذر، و اللّه ما بنا إليك من فاقة، و ما بنا إلى أحد سوى اللّه من حاجة. يا ذر، شغلني الحزن لك عن الحزن عليك. ثم قال: اللهم إنك وعدتني بالصبر على ذر صلواتك و رحمتك. اللهم و قد وهبت ما جعلت لي من أجر على ذر لذر فلا تعرفه قبيحا من عمله، اللهم و قد وهبت له إساءته إلي فهب لي إساءته إلى نفسه، فإنك أجود و أكرم.

فلما أنصرف عنه التفت إلى قبره و قال: يا ذر، قد انصرفنا و تركناك و لو أقمنا ما نفعناك! سحيم بن حفص قال: قال هانئ بن قبيصة، لحرقة بنت النعمان، و رآها تبكي: ما لك تبكين؟قالت: رأيت لأهلك غضارة، و لم تمتلئ دار قط فرحا إلا امتلأت حزنا.

قال: و نظرت امرأة أعرابية إلى امرأة حولها عشرة من بنيها كأنهم الصقور، فقالت: لقد ولدت أمكم حزنا طويلا. ــ

و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم لأزواجه: «أسرعكن بي لحاقا أطولكن يدا» . فكانت عائشة تقول: أنا تلك، أنا أطولكن يدا. فكانت زينب بنت جحش، و ذلك أنها كانت امرأة كثيرة الصدقة، و كانت صناعا تصنع بيديها و تبيعه و تتصدق به.

قال الشاعر:

و ما إن كان أكثرهم سواما # و لكن كان أطولهم ذراعا

قال: كان الحسن يقول: ما أنعم اللّه على عبد نعمة إلا و عليه فيها تبعة، إلا ما كان من نعمته على سليمان صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن اللّه عز و جل قال عند ذكره: **هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** .

قال: باع عبد اللّه بن عتبة بن مسعود أرضا بثمانين ألفا، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا. قال: «إنما أجعل هذا المال ذخرا لي عند اللّه، و اجعل اللّه ذخرا لولدي» . و قسم المال.

و قال رجل: صحبت الربيع بن خثيم سنتين فما كلمني إلا كلمتين، قال لي مرة: أمك حية؟ و قال لي مرة أخرى: كم في بني تميم من مسجد؟ و قال أبو فروة: كان طارق صاحب شرط خالد بن عبد اللّه القسري مر بابن شبرمة، و طارق في موكبه، فقال ابن شبرمة:

فإن كانت الدنيا تحبّ فإنها # سحابة صيف عن قليل تقشّع

اللهم لي ديني و لهم دنياهم. فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال ابنه: أتذكر قولك يوم مر طارق في موكبه؟فقال: يا بني، إنهم يجدون مثل أبيك، و لا يجد أبوك مثلهم. يا بني، إن أباك أكل من حلوائهم و حط في أهوائهم.

قال الحسن: من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شيء، و من خاف الناس أخافه اللّه من كل شيء.

و قال الحسن ما أعطى رجل من الدنيا شيئا إلا قيل له خذه و مثله من الحرص

قال: مر مروان بن الحكم في العام الذي بويع بزرارة بن جزيء الكلابي، و هم على ماء لهم، فقال: كيف أنتم آل جزي؟قالوا: بخير زرعنا اللّه فأحسن زرعنا، و حصدنا فأحسن حصادنا.

قال الحسن: يا ابن آدم، إنما أنت عدد فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك.

و قال الحسن: يا بن آدم، إن كان يغنيك من الدنيا ما يكفيك فأدنى ما فيها يغنيك. و إن كان لا يغنيك منها ما يكفيك فليس فيها شيء يغنيك.

قال: نزل الموت بفتى و كان فيه رمق، فرفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عند رأسه، فقال: ما لكما تبكيان؟قالا: تخوفا عليك من الذي كان من إسرافك على نفسك. فقال: لا تبكيا، فو اللّه ما يسرني أن الذي بيد اللّه بأيديكما.

أبو الحسن، عن علي بن عبد اللّه القرشي قال: قال قتادة: يعطى اللّه العبد على نية الآخرة ما شاء من الدنيا و الآخرة، و لا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا.

عوانة قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة و أمير المصرين، و أشبّ الناس، فأقام عندنا أربعين يوما ثم طعن في قدميه فمات، فأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبّان (1) إذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحبا لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلينا عليه، و وضعوا صاحبهم فصلوا عليه، ثم حملنا بشرا إلى قبره و حملوا صاحبهم إلى قبره، و دفنا بشرا و دفنوا صاحبهم، ثم انصرفوا و انصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي. فلم أر شيئا قط كان أعجب منه.

و قال عبد اللّه بن الزبعري:

و العطيات خساس بيننا # و سواء قبر مثر و مقل

(1) الجبان: الصحراء.

و تقول الحكماء: ثلاثة أشياء يستوي فيها الملوك و السوقة، و العلية و السّفلة: الموت، و الطّلق، و النّزع.

و قال الهيثم بن عدي، عن رجاله، بينا حذيفة بن اليمان و سلمان الفارسي يتذاكران أعاجيب الزمان، و تغير الأيام، و هما في عرصة أيوان كسرى، و كان أعرابي من غامد يرعى شويهات له نهارا، فإذا كان الليل صيرهن إلى داخل العرصة، و في العرصة سرير رخام كان كسرى ربما جلس عليه، فصعدت غنيمات الغامدي على سرير كسرى، فقال سلمان: و من أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدي على سرير كسرى.

قال: لما انصرف علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه من صفين مرّ بمقابر فقال:

السلام عليكم أهل الديار الموحشة، و المحال المقفرة، من المؤمنين و المؤمنات، و المسلمين و المسلمات. أنتم لنا سلف فارط، و نحن لكم تبع، و بكم عما قليل لاحقون. اللهم اغفر لنا و لهم، و تجاوز بعفوك عنا و عنهم.

الحمد للّه الذي جعل الأرض كفاتا، أحياء و أمواتا. و الحمد للّه الذي خلقكم و عليها يحشركم، و منها يبعثكم، و طوبى لمن ذكر المعاد، و أعد للحساب، و قنع بالكفاف.

و قال عمر رحمه اللّه «استغفروا الدموع بالتذكّر» .

و قال الشاعر:

سمعن بهيجا أوجفت فذكرنه # و لا يبعث الأحزان مثل التذكّر

و قال أعرابي:

لا تشرفنّ يفاعا إنه طرب # و لا تغنّ إذا ما كنت مشتاقا

قال ابن الأعرابي: سمعت شيخا أعرابيا يقول: إني لأسر بالموت، لا دين و لا بنات.

علي بن الحسن قال: قال صالح المري: دخلت دار المورياني فاستفتحت ثلاث آيات من كتاب اللّه، استخرجتها حين ذكرت الحال، فيها قوله عز و جل: **فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً** ، و قوله: **وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** ، و قوله: **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** .

قال: فخرج اليّ أسود من ناحية الدار فقال: يا أبا بشر، هذه سخطة المخلوق، فكيف سخطة الخالق! قال: و أصاب ناسا مطر شديد و ظلمة و ريح، و رعد و برق، فقال رجل من النساك: اللهم إنك قد أريتنا فدرتك فأرنا رحمتك.

عوانة قال: قال عبد اللّه بن عمر: فاز عمر بن أبي ربيعة بالدنيا و الآخرة: غزا في البحر فأحرقوا سفينته فاحترق.

قال: و طلق أبو الخندق امرأته أم الخندق، فقالت: أ تطلقني بعد طول الصحبة؟فقال: ما دهاك عندي غيره.

و كان أبو اسحاق يقول: ما ألأمها من كلمة.

قال: مرّ عمر بن الخطاب رحمه اللّه بقوم يتمنون، فلما رأوه سكتوا، قال: فيم كنتم؟قالوا: كنا نتمنى. قال: فتمنوا و أنا أتمنى معكم قالوا: فتمنّ.

قال: أتمنى رجالا ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة بن الجراح، و سالم مولى أبي حذيفة. إن سالما كان شديد الحب للّه، لو لم يخف اللّه ما عصاه. و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لكل أمة أمين، و أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» .

شعبة، عن عمرو بن مرّة قال: قدم وفد من أهل اليمن على أبي بكر رحمه اللّه، فقرأ عليهم القرآن فبكوا، فقال ابو بكر: هكذا كنا، حتى قست القلوب.

و قال أبو بكر: «طوبى لمن مات في نأنأة الإسلام (1) » .

قال سعد بن مالك، أو معاذ (2) : «ما دخلت في صلاة فعرفت من عن يميني و لا من عن شمالي، و ما شيّعت جنازة قط إلا حدثت نفسي بما يقال له و ما يقول، و ما سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال شيئا قط إلا علمت أنه كما قال.

قال أبو الدرداء: أضحكني ثلاث و أبكاني ثلاث: أضحكني مؤمّل الدنيا و الموت يطلبه، و غافل و لا يغفل عنه، و ضاحك ملء فيه و لا يدري أ ساخط ربه أم راض. و أبكاني هول المطلع، و انقطاع العمل، و موقفي بين يدي اللّه لا يدري أ يأمر بي إلى الجنة أم إلى النار.

سحيم بن حفص، قال: رأى أياس بن قتادة العبشمي شيبة في لحيته، فقال: «أرى الموت يطلبني، و أراني لا أفوته. أعوذ بك من فجاءات الأمور، و بغتات الحوادث. يا بني سعد، إني قد وهبت لكم شبابي فهبوا لي شيبتي» .

و لزم بيته، فقال له أهله: تموت هزلا!قال: «لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلي من أن أموت منافقا سمينا» .

و ذكر قوم ابليس فلعنوه و تغيظوا عليه، فقال أبو حازم الأعرج: و ما ابليس؟!لقد عصي فما ضرّ، و أطيع فما نفع.

قال: و قال بكر بن عبد اللّه المزني: الدنيا ما مضى منها فحلم، و ما بقي منها فأماني.

قال: و دخل أبو حازم مسجد دمشق، فوسوس إليه الشيطان، إنك قد أحدثت بعد وضوئك. قال: أوقد بلغ هذا من نصيحتك! و قال بعض الطّياب:

عجبت من ابليس في كبره # و خبث ما أبداه من نيته

تاه على آدم في سجدة # و صار قوّادا لذريته

---

(1) نأنأة: عجز، ضعف.

(2) هو معاذ بن جبل، صحابي جليل.

قال: فأنشدتها مسمع ابن عاصم فقال: و أبيك لقد ذهب مذهبا.

الفضل بن مسلم قال: قال مطرّف بن عبد اللّه بن الشّخّير: لا تنظروا إلى خفض عيشهم، و لين ملابسهم، و لكن أنظروا إلى سرعة ظعنهم و سوء منقلبهم.

قال أبو ذرّ: لقد أصبحت و إن الفقر أحبّ إلي من الغنى، و السقم أحبّ إلي من الصحة، و الموت أحب إلي من الحياة. قال دهثم: «لكني لا أقول ذلك. قال: قال داود صلّى اللّه عليه و سلّم: اللهم لا صحة تطغيني، و لا مرضا يضنيني و لكن بين ذينك (1) » .

قال الحسن: إن قوما جعلوا تواضعهم في ثيابهم، و كبرهم في صدورهم، حتى لصاحب المدرعة بمدرعته (2) ، أشدّ فرحا من صاحب المطرف بمطرفه (3) .

قال: و قال داود النبي عليه السلام: «إن للّه سطوات و نقمات» . فإذا رأيتموها فداووا قروحكم بالدعاء، فإن اللّه تبارك و تعالى يقول: (لو لا رجال خشع، و صبيان رضع، و بهائم رتع، لصببت العذاب صبا) .

قال: اشترى صفوان بن محرز بدنة بتسعة دنانير، فقيل له. أ تشتري بدنة بتسعة دنانير و ليس عندك غيرها؟قال: سمعت اللّه تبارك و تعالى يقول:

لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ .

و قيل لمحمد بن سوقة (4) : تحج و عليك دين؟قال: هو أقضى للدين.

قال: و لقي ناسك ناسكا و معه خف فقال: ما تصنع بهذا؟قال عدة للشتاء.

قال: كانوا يستحيون من هذا.

---

(1) هو دهثم بن قران العكلي، راوية أخذ عن أبيه و يحيى بن أبي كثير، و أخذ عنه ابن عياش.
(2) المدرعة: ثوب من الصوف.
(3) المطرف: رداء من خز مربع.
(4) محمد بن سوقة الغنوي، عابد كوفي ثقة، أخذ عن أنس و نافع.

قال أبو ذر: تخضمون و نقضم (1) ، و الموعد للّه.

قال الزبير: يكفينا من خضمكم القضم و من نصّكم العنق (2) .

و قال أيمن بن خريم (3) :

رجوا بالشقاق الأكل خضما فقد رضوا # أخيرا من أكل الخضم أن يأكلوا قضما

و قال عمرو لمعاوية: من أصبر الناس؟قال: من كان رأيه رادا لهواه.

و تواصفوا حال الزاهد بحضرة الزهري، فقال الزهري: «الزاهد من لم يغلب الحرام صبره، و لا الحلال شكره» .

قال: و ذكر عند أعرابي رجل بشدة الاجتهاد، و كثرة الصوم، و طول الصلاة، فقال: هذا رجل سوء، أ و ما يظن هذا أن اللّه يرحمه حتى يعذب نفسه هذا التعذيب.

قال أبو بكر: ما ظنك بخالق الكرامة لمن يريد كرامته و هو عليه قادر؟ و ما ظنك بخالق الهوان لمن يريد هوانه و هو عليه قادر؟ و زعم أبو عمرو الزعفراني، قال: كان عمرو بن عبيد عند حفص بن سالم، فلم يسأله أحد من أهله و حشمه حاجة إلا قال: لا. فقال عمرو: أقلّ من قول لا، فإنه ليس في الجنة لا.

قال: و قل عمرو: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا سئل ما يجد أعطى، و إذا سئل ما لا يجد قال: يصنع اللّه.

قال: و قال عمرو بن الخطاب رحمه اللّه: «أكثروا لهن من قول لا، فإن نعم يضريهن على المسألة» . قال: و إنما يخص بذلك عمر النساء.

---

(1) خضم: أكل بجميع الفم. قضم: أكل بأطراف الاسنان.
(2) النص: أن تستخرج الدابة بأقصى سيرها. العنق: ضرب من السير.
(3) ايمن بن خريم بن الأخرم، من شعراء الدولة الأموية.

قال الحسن: أدركت أقواما كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها.

قال أبو الدرداء: من يشتري مني عادا و أموالها بدرهم.

و دخل علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه المقابر فقال: «أما المنازل فقد سكنت، و أما الأموال فقد قسمت، و أما الأزواج فقد نكحت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ثم قال: «و الذي نفسي بيده لو أذن لهم في الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى» .

قال أبو سعيد الزاهد: عيرت اليهود عيسى بن مريم صلّى اللّه عليه و سلّم بالفقر فقال:

«من الغنى أتيتم» .

و قال آخر: لو لم يعرف من شرف الفقر إلا أنك لا ترى أحدا يعصي اللّه ليفتقر. و هذا الكلام بعينه مدخول.

قال: سأل الحجاج أعرابيا عن أخيه محمد بن يوسف، كيف تركته؟ فقال: تركته بضا عظيما سمينا. قال: لست عن هذا أسألك. قال تركته ظلوما غشوما. قال: أ و ما علمت أنه أخي؟قال: أ تراه بك أعز مني باللّه! و قال بعضهم: نجد في زبور داود: «من بلغ السبعين اشتكى من غير علة» .

جعفر بن سليمان قال: قال محمد بن حسان النبطي: لا تسأل نفسك العام ما أعطتك في العام الماضي.

أبو إسحاق بن المبارك قال: قيل لخالد بن يزيد بن معاوية: ما أقرب شيء؟قال: الأجل. قيل: فما أبعد شيء؟قال: الأمل. قيل: فما أوحش شيء؟قال: الميت. قيل: فما آنس شيء؟قال: الصاحب المواتي:

و قال آخر: نسي عامر بن عبد اللّه بن الزبير عطاءه في المسجد، فقيل له: قد أخذ. فقال: سبحان اللّه، و هل يأخذ أحد ما ليس له.

جرير بن عبد الحميد، عن عطاء بن السائب، عن عبدة الثقفي قال: لا يشهد علي الليل بنوم أبدا، و لا يشهد علي النهار بأكل أبدا. فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب فعزم عليه، فكان يفطر في العيدين و أيام التشريق.

و قال الحسن بن أبي الحسن: يكون الرجل عالما و لا يكون عابدا، و يكون عابدا و لا يكون عاقلا. و كان مسلم بن يسار عالما عابدا عاقلا.

و قال عبادة بن الصامت: من الناس من أوتي علما و لم يؤت حلما و شداد بن أوس أوتي علما و حلما.

قال إبراهيم: كان عمرو بن عبيد عالما عاقلا عابدا، و كان ذا بيان، و صاحب قرآن.

إبراهيم بن سعد، عن أبي عبد اللّه القيسي قال: أبو الدرداء: لا يحرز المؤمن من شرار الناس إلا قبره.

و قال عيسى بن مريم صلوات اللّه عليه: «الدنيا لابليس مزرعة، و أهلها له حراثون» .

عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر قال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب» .

قال عمر رحمه اللّه: «لو لا أن أسير في سبيل اللّه، و أضع جبهتي للّه، و أجالس أقواما ينتقون أحسن الحديث كما ينتقى أطائب التمر، لم أبال أن أكون قد مت» .

قال عامر بن عبد قيس: ما آسي من العراق إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر، و تجاوب المؤذنين، و أخوان لي منهم الأسود بن كلثوم.

قال مورّق العجلي: ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلّ على ربه.

و قال: خير من العجب بالطاعة، أن لا تأتي بطاعة.

قالوا: كان الربيع بن خثيم يقول: لا تطعم إلا صحيحا و لا تكس إلا جديدا، و لا تعتق إلا سويا.

قال بعض الملوك لبعض العلماء: ذم لي الدنيا. فقال: أيها الملك، الآخذة لما تعطى، المورّثة بعد ذلك الندم، السالبة ما تكسو، المعقبة بعد ذلك الفضوح، تسد بالأراذل مكان الأفاضل، و بالعجزة مكان الحزمة. تجد في كل من كل خلفا، و ترضى من كل بكل بدلا. تسكن دار كل قرن قرنا، و تطعم سؤر كل قوم قوما.

و كان سعيد بن أبي عروبة يطعم المساكين السكر، و يتأول قوله عز و جل: «و يطعمون الطعام على حبه» .

قال: و كان محمد بن علي إذا رأى مبتلى أخفى الاستعاذة. و كان لا يسمع من داره: يا سائل بورك فيك، و لا يا سائل خذ هذا. و كان يقول:

سموهم بأحسن أسمائهم.

قال: و تمنى قوم عند يزيد الرقاشي، فقال يزيد: سأتمنى كما تمنيتم.

قالوا: تمن قال: ليتنا لم نخلق، و ليتنا إذ خلقنا لم نمت، و ليتنا إذ متنا لم نبعث، و ليتنا إذ بعثنا لم نحاسب، و ليتنا إذ حوسبنا لم نعذب، و ليتنا إذ عذبنا لم نخلد.

قال: و قال رجل لأم الدرداء: إني أجد في قلبي داء لا أجد له دواء، و أجد قسوة شديدة، و أملا بعيدا. قالت: أطلع القبور، و اشهد الموتى.

ابن عون قال: قلت للشعبي: أين كان علقمة (1) من الأسود (2) ؟ قال: كان الأسود صوّاما قواما، و كان علقمة مع البطيء و هو يسبق السريع.

---

(1) هو علقمة بن قيس النخعي الكوفي، أدرك الرسول و شهد صفين و غزا خراسان، و كان بعض الصحابة يستفتونه توفي سنة 62 هـ.

(2) هو الأسود بن يزيد بن قيس، ابن اخي علقمة، كان عابدا يصوم الدهر و ذهبت إحدى عيبه، توفي سنة 74 هـ.

قال: و قيل لغالب بن عبد اللّه الجهضمي: أنا نخاف على عينيك العمى من طول البكاء. قال: هو لهما شهادة.

محمد بن طلحة بن مصرّف، عن محمد بن جحادة، قال: لما قتل الحسين رضي اللّه عنه أتى قوم الربيع بن خثيم فقالوا: لنستخرجن اليوم منه كلاما. فقالوا: قتل الحسين. قال: اللّه يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

و أتته بنية له فقالت: يا أبه، أذهب ألعب؟قال: اذهبي فقولي خيرا و افعلي خيرا.

و قال أبو عبيدة: استقبل عامر بن عبد قيس رجل في يوم حلبة، فقال:

من سبق يا شيخ؟قال: المقربون.

عليّ بن سليم، قال: قيل للربيع بن خثيم: لو أرحت نفسك؟قال:

راحتها أريد، إن عمر كان كيّسا.

و قال أبو حازم: ليتق اللّه أحدكم على دينه، كما يتقي على نعله.

جعفر بن سليمان الضّبعي، قال: أتى مطرف بن عبد اللّه بن الشّخّير، فجلس مجلس مالك بن دينار و قد قام، فقال أصحابه: لو تكلمت؟قال هذا ظاهر حسن، فإن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفورا.

و قال رجل لآخر و باع ضيعة له: أما و اللّه لقد أخذتها ثقيلة المئونة قليلة المعونة. فقال الآخر: و أنت و اللّه لقد أخذتها بطيئة الاجتماع، سريعة التفرق.

و اشترى رجل من رجل دارا فقال لصاحبه: لو صبرت لاشتريت منك الذراع بعشرة دنانير. قال: و أنت لو صبرت لبعتك الذراع بدرهم.

و رأى ناسك ناسكا في المنام فقال له: كيف وجدت الأمر يا أخي؟ قال: وجدنا ما قدمنا، و ربحنا ما أنفقنا و خسرنا ما خلفنا.

و قال بكر بن عبد اللّه المزني: اجتهدوا في العمل، فإن قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي.

قال: و قال أعرابي: أنه ليقتل الحبارى جوعا ظلم الناس بعضهم لبعض.

قال: قيل لمحمد بن علي (1) : من أشد الناس زهدا؟قال: من لا يبالي الدنيا في يد من كانت.

و قيل له: من أخسر الناس صفقة؟قال: من باع الباقي بالفاني.

و قيل له: من أعظم الناس قدرا؟قال: من لا يرى الدنيا لنفسه قدرا.

الأصمعي، عن شيخ من بكر بن وائل، أن هانئ بن قبيصة، أتى حرقة بنت النعمان و هي باكية، فقال لها: لعل أحدا آذاك؟قالت: لا، و لكني رأيت غضارة في أهلكم، و قلما امتلأت دار سرورا إلا امتلأت حزنا.

و قالوا: يهرم ابن آدم و تشبّ له خصلتان: الحرص و الأمل.

الأصمعي، قال: قال محمد بن واسع: ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث بلغة من عيش ليس لأحد فيها علي منة و لا للّه فيها علي تبعة و صلاة في جمع أكفي سهوها و يدخر لي أجرها، و أخ في للّه إذا ما اعوججت قوّمني.

و قال آخر: ما آسى من العراق إلا على ثلاث: ليل الحزيز و رطب السكر، و حديث ابن أبي بكرة.

و قال آخر: إذا سمعت حديث أبي نضرة، و كلام ابن أبي بكرة، فكأنك مع ابن لسان الحمّرة (2) .

و قال أبو يعقوب الخريمي الأعور: تلقاني مع طلوع الشمس سعيد بن وهب، فقلت: أين تريد؟قال: أدور على المجالس فلعلي أسمع حديثا

---

(1) هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالباقر أحد أئمة الشيعة.
(2) ابن لسان الحمرة هو عبيد اللّه بن الحصين، أو ورقاء بن الأشعر، إعرابي عاش في العصر الأموي، نسابة عالم.

حسنا. ثم لم أجاوز بعيدا حتى تلقاني أنس بن أبي شيخ، فقلت له: أين تريد؟قال: عندي حديث حسن فأنا أطلب له إنسانا حسن الفهم، حسن الاستماع. قال: قلت: حدثني فأنا كذاك. قال: أنت حسن الفهم رديء الاستماع، و ما أرى لهذا الحديث إلا اسماعيل بن غزوان (1) .

هشام، قال: أخبرني رجل من أهل البصرة قال: ولد للحسن بن أبي الحسن غلام، فقال له بعض جلسائه: بارك اللّه لك في هبته، و زادك في أحسن نعمته. فقال الحسن: الحمد للّه على كل حسنة، و أسأل اللّه الزيادة في كل نعمة، و لا مرحبا بمن إن كنت عائلا (2) أنصبني، و إن كنت غنيا أذهلني، لا أرضى بسعيي له سعيا، و لا بكدي له في الحياة كدا، حتى أشفق عليه من الفاقة بعد وفاتي، و أنا في حال لا يصل إلي من همه حزن، و لا من فرحه سرور.

قال الحسن للمغيرة بن مخارش التميمي: إن من خوّفك حتى تلقى الأمن، خير لك ممن أمنك حتى تلقى الخوف.

و قال عون بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود: ما أحسن الحسنة في أثر الحسنة، و أقبح السيئة في أثر السيئة.

الحسن قال: ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من أمر نحن فيه.

قال: و كان الحسن إذا ذكر الحجاج قال: يتلو كتاب اللّه على لخم و جذام، و يعظ عظة الأزارقة، و يبطش بطش الجبارين.

و كان يقول: اتقوا اللّه، فإن عند اللّه حجاجين كثيرا.

و قال سنان بن سلمة بن قيس: اتقوا اللّه، فإن عند اللّه أياما مثل شوّال.

---

(1) اسماعيل بن غزوان معاصر للجاحظ ذكره في كتاب البخلاء و نعته بالبخل.
(2) عائلا: فقيرا. العيلة: الحاجة و الفقر.

و قال خالد بن صفوان: بت ليلتي كلها أتمنى، فكبست البحر الأخضر بالذهب الأحمر، فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان، و كوزان، و طمران.

و كان الحسن يقول: إنكم لا تنالون ما تحبون، إلا بترك ما تشتهون، و لا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

و دخل قوم على عوف بن أبي جميلة في مرضه، فأقبلوا يثنون عليه، فقال: دعونا من الثناء، و أمدونا بالدعاء.

و قال أبو حازم: نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، و نحن لا نتوب حتى نموت.

و كان الحسن يقول: يا ابن آدم، نهارك ضيفك فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، و إن أنت أسأت إليه ارتحل بذمك. و كذلك ليلك.

و قيل لبعض العلماء: من أسوأ الناس حالا؟قال: عبد اللّه بن عبد الأعلى الشيباني، القائل عند موته: دخلتها جاهلا، و أقمت فيها حائرا، و أخرجت منها كارها-يعني الدنيا.

و قيل لآخر: من أسوأ الناس حالا؟قال: من قويت شهوته و بعدت همته، و اتسعت معرفته و ضاقت مقدرته.

و قيل لآخر: من شرّ الناس؟قال: من لا يبالي أن يراه الناس مسيئا و قيل لآخر: من شر الناس؟قال: القاسي. فقيل: أيما شر، الوقاح (1) أم الجاهل، أم القاسي؟؟قال: القاسي.

و ذكر أبو صفوان، عن البطّال أبي العلاء، من بني عمرو بن تميم قال:

قيل له قبل موته: كيف تجدك يا أبا العلاء؟قال: أجدني مغفورا لي. قالوا:

قل إن شاء اللّه. قال: قد شاء اللّه. ثم قال:

(1) الوقاح: القليل الحياء.

أوصيكم بالجلّة التلاد [1] # فإنما حولكم الأعادي

قال ابن الأعرابي: كان العباس بن زفر لا يكلم أحدا حتى تنبسط الشمس، فإذا انفتل عن مصلاه ضرب الأعناق، و قطع الأيدي و الأرجل. و كان جرير بن الخطفي لا يتكلم حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قذف المحصنات.

قال: و مرت به جنازة فبكى و قال: أحرقتني هذه الجنائز!قيل: فلم تقذف المحصنات؟قال: يبدو لي و لا أصبر.

و كان يقول: أنا لا أبتدي و لكن أعتدي.

الحسن بن الربيع الكندي بإسناد له، قال: قال رجل للنبي صلّى اللّه عليه و سلّم: دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني اللّه و أحبني الناس. قال: «ازهد في الدنيا يحبك اللّه، و ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» .

قال: و بلغني عن القاسم بن مخيمرة الهمداني، أنه قال: إني لأغلق بابي فما يجاوزه همي.

و قال أبو الحسن: وجد في حجر مكتوب: يا بن آدم، لو إنك رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك، و لرغبت في الزيادة في عملك، و لقصرت في حرصك و حيلك. و إنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك، و أسلمك أهلك و حشمك، و تبرأ منك القريب، و انصرف عنك الحبيب، فلا أنت إلى أهلك بعائد، و لا في عملك بزائد.

و قال عيسى بن مريم صلوات اللّه عليه: «تعملون للدنيا و أنتم ترزقون فيها بغير العمل، و لا تعملون للآخرة و أنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل» .

قال: أوحى اللّه تبارك و تعالى إلى الدنيا: من خدمني فاخدميه، و من خدمك فاستخدميه.

---

(1) الجلة: المسان من الابل. التلاد: كل مال موروث.

و قال: من هوان الدنيا على اللّه أنه لا يعصى إلا فيها، و لا ينال ما عنده إلا بتركها.

قال: مر عيسى بن مريم عليه السلام بقوم يبكون، فقال: ما بالهم يبكون، فقالوا: على ذنوبهم. قال: «اتركوها يغفر لكم» .

قال: و قال زياد بن أبي زياد، مولى عبد اللّه بن عياش بن أبي ربيعة:

دخلت على عمر بن عبد العزيز، فلما رآني تزحل عن مجلسه (1) و قال: إذا دخل عليك رجل لا ترى لك عليه فضلا فلا تأخذ عليه شرف المجلس.

و قال الحسن: «إن أهل الدنيا و إن دقدقت بهم الهماليج (2) ، و وطئ الناس أعقابهم، فإن ذل المعصية في قلوبهم» .

قالوا: و كان الحجاج يقول إذا خطب: «إنا و اللّه ما خلقنا للفناء، و إنما خلقنا للبقاء، و إنما ننقل من دار إلى دار» . و هذا من كلام الحسن.

و لما ضرب عبد اللّه بن علي تلك الأعناق قال له قائل: هذا و اللّه جهد البلاء؟فقال عبد اللّه: ما هذا و شرطة الحجام إلا سواء. و إنما جهد البلاء فقر مدقع بعد غنى موسع.

و قال آخر: أشدّ من الخوف الشيء الذي من أجله يشتد الخوف.

و قال آخر: أشد من الموت ما يتمنى له الموت، و خير من الحياة ما إذا فقدته أبغضت له الحياة.

و قال أهل النار: (يا مالك ليقض علينا ربك) ، فلما لم يجابوا إلى الموت قالوا: (أفيضوا علينا من الماء) .

---

(1) تزحل عن مجلسه: تنحى و تباعد.

(2) الدقدقة: حكاية أصوات حوافر الدواب. الهماليج: مفردها هملاج: البرذون الحسن السير.

و قالوا: ليس في النار عذاب أشد على أهله من علمهم بأنه ليس لكرمهم تنفيس، و لا لضيقهم ترفيه، و لا لعذابهم غاية. و لا في الجنة نعيم أبلغ من علمهم أن ذلك الملك لا يزول.

قالوا: قارف الزّهريّ ذنبا، فاستوحش من الناس و هام على وجهه، فقال له زيد بن علي: يا زهري، لقنوطك من رحمة اللّه التي وسعت كل شيء أشد عليك من ذنبك!فقال الزهري: (اللّه أعلم حيث يجعل رسالاته)) فرجع إلى ماله و أهله و أصحابه.

قال ابن المبارك: أفضل الزهد أخفاه.

الأوزاعي، عن مكحول قال: إن كان في الجماعة الفضيلة فإن في العزلة السلامة.

اسماعيل بن عياش، عن عبد اللّه بن دينار، قال: قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه كره لكم العبث في الصلاة، و الرفث في الصيام، و الضحك في المقابر» .

و قال أردشيرخرّه: احذروا صولة الكريم إذا جاع، و اللئيم إذا شبع.

قال واصل بن عطاء: المؤمن إذا جاع صبر، و إذا شبع شكر.

و قيل لعامر بن عبد قيس: ما تقول في الإنسان؟قال: ما عسى أن أقول فيمن إذا جاع ضرع، و إذا شبع طغى.

قال: و نظر أعرابي في سفره إلى شيخ قد صحبه، فرآه يصلي فسكن إليه، فلما قال: أنا صائم، إرتاب به، و أنشأ يقول:

صلى فأعجبني و صام فرابني # نحّ القلوص [1] عن المصلّي الصائم

و هو الذي يقول:

لم يخلق اللّه مسجونا تسائله # ما بال سجنك إلا قال: مظلوم

(1) القلوص: الفتية من الابل.

الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت (1) ، عن يحيى بن جعدة (2) ، قال:

كان يقال: اعمل و أنت مشفق، و دع العمل و أنت تحبه.

قال: و قيل لرابعة القيسية: هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك؟ قالت: إن كان شيء فخوفي من أن يردّ عليّ.

و قال محمد بن كعب القرظيّ، لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لا تنظرن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك تريد أن تجوز عنك.

الحسن قال: كان من كان قبلكم أرقّ منكم قلوبا و أصفق ثيابا، و أنتم أرقّ منهم ثيابا و أصفق منهم قلوبا.

عبد اللّه بن المبارك قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد اللّه الحكمي:

«إن استطعت أن تدع مما أحل اللّه لك ما يكون حاجزا بينك و بين ما حرم اللّه عليك فافعل، فإنه من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلى الحرام» .

و قال أبو بكر الصديق رحمه اللّه لخالد بن الوليد حين وجهه: «أحرص على الموت توهب لك الحياة» .

و قال رجل: أنا أحب الشهادة. فقال رجل من النساك: أحببها إن وقعت عليك، و لا تحبها حب من يريد أن يقع عليها.

و قال رجل لداود بن نصير الطائي العابد: أوصني. قال: اجعل الدنيا كيوم صمته، و اجعل فطرك الموت، فكأن قد، و السلام. قال: زدني.

قال: لا يرك اللّه عند ما نهاك عنه، و لا يفقدك عند ما أمرك به. قال: زدني.

قال: أرض باليسير مع سلامة دينك، كما رضي قوم بالكثير مع هلاك دينهم.

---

(1) هو حبيب بن ابي ثابت الأسدي الكوفي محدث روى عن ابن عمر و ابن عباس و انس توفي سنة 119 هـ.
(2) هو يحيى بن جعدة بن هبيرة القرشي، روى عن ابن مسعود و ابي هريرة و ابي الدرداء و غيرهم.

قال رجل ليونس بن عبيد: أتعلم أحدا يعمل بعمل الحسن؟قال: و اللّه ما أعرف أحدا يقول بقوله، فكيف يعمل بمثل عمله؟!قال: صفه لنا.

قال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل في دفن حميمه، و كان إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه، و كان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له.

وهيب بن الورد (1) قال: بينا أنا أدور في السوق إذ أخذ آخذ بقفاي فقال لي: يا وهيب، اتق اللّه في قدرته عليك، و استحي اللّه في قربه منك.

و قال عبد الواحد بن زيد لأصحابه: أ لا تستحيون من طول ما لا تستحيون! الهيثم قال: كان شيخ من أعراب طي كثير الدعاء بالمغفرة، فقيل له في ذلك، فقال: و اللّه إن دعائي بالمغفرة مع قبح إصراري للؤم، و إن تركي الدعاء مع قوة طمعي لعجز.

قال أبو بشر صالح المري: إن تكن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خشية فنعم المصيبة مصيبتك، و إن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جزعا فبئس المصيبة مصيبتك.

و قال عمر بن عبيد لرجل يعزيه: كان أبوك أصلك، و ابنك فرعك، فما بقاء شيء ذهب أصله و لم يبق فرعه.

و قال الحسن: إن امرأ ليس بينه و بين آدم إلا أب ميت لمعرق في الموت.

و قالوا: أعظم من الذنب اليأس من الرحمة، و أشد من الذنب المماطلة بالتوبة.

ابن لهيعة، عن سيار بن عبد الرحمن، قال: قال لي بكير بن الأشج:

---

(1) وهيب بن الورد اسمه عبد الوهاب بن الورد القرشي من العباد الزهاد، توفي سنة 153 هـ.

ما فعل خالك؟قلت لزم بيته. فقال: أما لئن فعل لقد لزم قوم من اهل بدر بيوتهم بعد مقتل عثمان رحمه اللّه، فما خرجوا منها إلا إلى قبورهم.

و قال الحسن: إن للّه ترائك في خلقه، لو لا ذلك لم ينتفع النبيون و أهل الانقطاع إلى اللّه بشيء من أمر الدنيا: و هي الأمل، و الآجل، و النسيان.

و قال مطرّف بن عبد اللّه لابنه: يا بني لا يلهينّك الناس عن نفسك، فإن الأمر خالص إليك دونهم. إنك لم تر شيئا هو أشد طلبا و لا أسرع دركا من توبة حديثة لذنب قديم.

و في الحديث أن أبا هريرة مر بمروان و هو يبني داره، فقال يا أبا عبد القدوس، ابن شديدا و أمل بعيدا، و عش قليلا و كل خضما، و الموعد اللّه.

قال: كان عمرو بن خولة، أبو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص- و أمه خولة من المسامعة-و كان ناسكا يجتمع إليه القراء و العلماء يوم الخميس.

و قال الشاعر فيه:

و أصبح زورك زور الخميس # إليك كمرعية وارده

و قال الآخر في ابن سيرين:

فأنت بالليل ذئب لا حريم له # و بالنهار على سمت ابن سيرين

و قال ابن الأعرابي: قال بعض الحكماء: لا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك.

قال: و صلى محمد بن المنكدر (1) ، على عمران بقرة، فقيل له في ذلك، فقال: إني لأستحي من اللّه أن أرى أن رحمته تعجز عن عمران بقرة.

و قال محمد بن يسير:

كأنه قد قيل في مجلس # قد كنت آتيه و أغشاه

محمد صار إلى ربه # يرحمنا اللّه و إياه

(1) هو محمد بن المنكدر التيمي تابعي قارئ محدث توفي سنة 130 هـ.

و قال الآخر:

لقلّ عارا إذا ضيف تضيّفني # ما كان عندي إذا أعطيت مجهودي

فضل المقل إذا أعطاه مصطبرا # و مكثر في الغنى سيان في الجود

لا يعدم السائلون الخير أفعله # إما توالي و إما حسن مردودي

و كان الربيع بن خثيم، إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا يزيد؟قال:

أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا و ننتظر آجالنا.

و قال ابن المقفع: الجود بالمجهود منتهى الجود.

قال مطرف بن عبد اللّه: كان يقال: لم يلتق مؤمنان إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه و كنت أرى أني أشد حبا لمذعور بن طفيل منه لي، فلما سير لقيني ليلا فحدثني فقلت: ذهب الليل!قال: ساعة. ثم قلت: ذهب الليل!فقال: ساعة. فعلمت أنه أشد حبا لي مني. فلما أصبح سيره ابن عامر مع عامر.

قال: و قالوا لعيسى بن مريم: من نجالس؟قال: من يذكّركم اللّه رؤيته، و يزيد في علمكم منطقه، و يرغبكم في الآخرة عمله.

اسحاق بن ابراهيم قال: دخلنا على كهمس العابد (1) ، فجاءنا بإحدى عشرة بسرة حمراء. فقال: هذا الجهد من أخيكم، و اللّه المستعان.

الأصمعي، عن السكن الحرشيّ قال: اشتريت من أبي المنهال سيار بن سلامة، شاة بستين درهما، فقلت: تكون عندك حتى آتيك بالثمن. قال:

أ لست مسلما؟قلت: بلى. قال: فخذها. فأخذتها ثم انطلقت بها ثم أتيته بالستين، فأخرج منها خمسة دراهم و قال لي: اعلفها بهذه.

(1) هو أبو عبد اللّه كهمس بن الحسن التميمي البصري زاهد ورع، توفي سنة 149 هـ بمكة.

و قال مساور الورّاق لابنه:

شمّر قميصك و استعدّ لقائل # و احكك جبينك للقضاء بثوم

و اجعل صحابك كلّ حبر ناسك # حسن التعهّد للصلاة صئوم

من ضرب حمّاد هناك و مسعر # و سماك العبسي، و ابن حكيم

و عليك بالغنوي فاجلس عنده # حتى تصيب وديعة ليتيم

و قال: بينا سليمان بن عبد الملك يتوضأ، ليس عنده غير خاله و الغلام يصب عليه الماء، إذ خر الغلام ميتا، فقال سليمان:

قرب وضوءك يا حصين فإنما # هذي الحياة تعلّة و متاع

و نظر سليمان في مرآة فقال: أنا الملك الشاب!فقالت جارية له:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى # غير أن لا بقاء للإنسان

قال: قيل لسعيد بن المسيب: إن محمد بن ابراهيم بن محمد بن طلحة، سقط عليه حائط فقتله. فقال: إن كان لوصولا لرحمه، فكيف يموت ميتة سوء! و قال أسماء بن خارجة:

عيّرتني خلقا أبليت جدّته # و هل رأيت جديدا لم يعد خلقا

قال: و تمثل عبد الملك بن مروان:

و كلّ جديد يا أميم إلى بلى # و كل امرئ يوما يصير إلى كان

و قال آخر:

فاعمل على مهل فإنك ميّت # و اكدح لنفسك أيها الإنسان

فكأن ما قد كان لم يك إذ مضى # و كأن ما هو كائن قد كان

قال: و كان عثمان بن عفان رحمه اللّه يقول: «إني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر فيه إلى عهد اللّه» ، يعني المصحف.

قال: و كان عثمان حافظا، و كان حجره لا يكاد يفارق المصحف، فقيل له في ذلك فقال: «إنه مبارك جاء به مبارك!» و لما مات الحجاج خرجت عجوز من داره و هي تقول:

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا # و اليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

حدثني بكر بن المعتمر (1) ، عن بعض أصحابه قال أبو عثمان النهدي (2) : أتت علي ثلاثون و مائة سنة، ما مني شيء إلا و قد أنكرته، إلا أملي فإنه يزيد.

قال مسور بن محرمة لجلسائه: لقد وارت الأرض أقواما لو رأوني معكم لاستحييت منهم.

و أنشدني أعرابي:

ما منع الناس شيئا جئت أطلبه # ألا أرى اللّه يكفي فقد ما منعوا

قال: جزع بكر بن عبد اللّه على امرأته، فوعظه الحسن، فجعل يصف فضلها، فقال الحسن: عند اللّه خير منها، فتزوج أختها!فلقيه بعد ذلك فقال: هي يا أبا سعيد خير منها!و أنشد:

يؤمّل أن يعمّر عمر نوح # و أمر اللّه يحدث كلّ ليله

عوف، عن الحسن قال: قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «للمسلم على أخيه ست خصال: يسلم عليه إذا لقيه، و ينصح له إذا غاب، و يعوده إذا مرض، و يشيع جنازته إذا مات، و يحييه إذا دعاه، و يشمّته إذا عطس» .

---

(1) بكر بن المعتمر أحد كتاب الأمين.

(2) عبد الرحمن بن مل بن عدي الهندي، عاش في الجاهلية و أدرك الاسلام و أسلم و حج ستين و عاش 160 سنة و مات سنة 100 هـ.

و قال أعرابي:

تبصّرني بالعيش عرسي كأنما # تبصرني الأمر الذي أنا جاهله

يعيش الفتى بالفقر يوما و بالغنى # و كلا كأن لم يلق حين يزايله

و أنشد أبو صالح:

و مشيد دارا ليسكن داره # سكن القبور، و داره لم يسكن

و كان صالح المرّيّ أبو بشر ينشد في قصصه:

و بات يروّي أصول الفسيل # فعاش الفسيل [1] و مات الرجل

و قال الآخر:

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه # فما فاته منها فليس بضائر

فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة # و لا وزن زفّ من جناح لطائر [2]

فما رضى الدنيا ثوابا لمؤمن # و لا رضى الدنيا عقابا لكافر

و قال الآخر:

أبعد بشر أسيرا في بيوتهم # يرجو الخفارة [3] مني آل ظلام

فلن أصالحهم ما دمت ذا فرس # و اشتدّ قبضا على السيلان إبهامي [4]

فإنما الناس، يا للّه أمهم، # أكائل الطير أو حشو لآرام [5]

هم يهلكون و يبقى بعد ما صنعوا # كأن آثارهم خطّت بأقلام

---

(1) الفسيل: مفردها فسيلة: الصغيرة من النخل

(2) الزف: الصغير من الريش.

(3) الخفارة: الامان.

(4) السيلان: ما يدخل من السيف و السكين في النصاب.

(5) أكائل مفردها أكيلة، و هي الفريسة.

و أنشد لمحمد بن يسير:

عجبا لي و من رضاي بحال # أنا منها على شفا تغرير
عالما لا أشكّ إني إلى عد # ن إذا متّ أو عذاب السعير
كلما مر بي على أهل ناد # كنت حينا بهم كثير المرور
قيل من ذا على سرير المنايا # قيل هذا محمد بن يسير

و أنشد:

لكل أناس مقبر بفنائهم # فهم ينقصون و القبور تزيد
هم جيرة الأحياء أما محلهم # فدان و لكن اللقاء بعيد

و قال أبو العتاهية:

سبحان ذي الملكوت ايّة ليلة # مخضت بوجه صباح يوم الموقف
لو أن عينا وهّمتها نفسها # ما في الفراق مصورا لم تطرف

و قال أبو العتاهية أيضا:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها # تنحّ عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غرارة # قريبة العرس من المأتم

و قال الآخر:

ناداهما بفراق بينـــ # هما الزمان فأسرعا
و كذاك لم يزل الزما # ن مفرّقا ما جمّعا

و قال آخر:

يا ويح هذي الأرض ما تصنع # أ كلّ حيّ فوقها تصرع
تزرعهم حتى إذا ما استووا # عادت لهم تحصد ما تزرع

و قال الآخر:

ذكرت أبا أروى فبت كأنني # برد أمور الماضيات وكيل

لكل اجتماع من خليلين فرقة # و كلّ الذي قبل الفراق قليل

و إن افتقادي واحدا بعد واحد # دليل على أن لا يدوم خليل

و قال محمد بن المنتشر: «إذا أيسر الرجل ابتلى به أربعة: مولاه القديم ينتفي منه، و امرأته يتسرى عليها، و داره يهدمها و يبني غيرها، و دابته يستبدل بها» . و قال الآخر:

يجدد أحزانا لنا كل هالك # و نسرع نسيانا و لم يأتنا أمن

فإنا، و لا كفران للّه ربنا # لكالبدن ما تدري متى يومها البدن

الأوزاعي (1) ، عن مكحول قال: «إن كان في الجماعة فضل فإن في العزلة سلامة» .

أبو جناب الكلبي، عن أبي المحجل، عن ابن مسعود قال: «ثلاث من كن فيه دخل الجنة: من إذا عرف حق اللّه عليه لم يؤخره، و كان عمله الصالح في العلانية على قوام من السريرة، و كان في جمع ما قد عمل صلاح ما يؤمل» .

و قال: «كفى موعظة إنك لا تحيا إلا بموت، و لا تموت إلا بحياة» .

و قال أبو نواس:

شاع فيّ الفناء سفلا و علوا # و أراني أموت عضوا فعضوا

ذهبت جدّتي بطاعة نفسي # و تذكرت طاعة اللّه نضوا (2)

---

(1) هو عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو البعلبكي، فقيه و صاحب مذهب فقهي معروف، ولد سنة 88 هـ و مات قرب بيروت سنة 155 هـ.

(2) النضو: البعير المهزول من شدة السير.

و قال الآخر:

و كم من أكلة منعت أخاها # بلذة ساعة أكلات دهر

و كم من طالب يسعى لشيء # و فيه هلاكه لو كان يدري

و قال الآخر:

كلّ امرئ مصبّح في أهله # و الموت أدنى من شراك نعله

و قال الآخر:

استيقني في ظلم البيوت # إنك إن لم تقتلي تموتي

و قال عنترة بن شداد:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني # أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل # لا بدّ أن أسقى بكأس المنهل

فاقني حياءك لا أبا لك و اعلمي # أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

إن المنية لو تصوّر صوّرت # مثلي، إذا نزلوا بضنك المنزل

و قال أبو العتاهية:

اذن حيّ تسمعي # و اسمعي ثم عي وعي

عشت تسعين حجة # ثم وافيت مضجعي

أنا رهن بمصرعي # فاحذري مثل مصرعي

ليس زاد سوى التقى # فخذي منه أو دعي

و قال الخليل بن أحمد.

عش ما بدا لك قصرك الموت # لا مهرب منه و لا فوت

بينا غنى بيت و بهجته # زال الغنى و تقوّض البيت

و قال أبو العتاهية:

اسمع فقد اسمعك الصوت # إن لم تبادر فهو الفوت

نل كلّ ما شيت وعش ناعما # آخر هذا كله الموت

و قال الوزيري:

و اعلم أنني سأصير ميتا # إذا سار النواجع لا أسير

و قال السائلون من المسجّى # فقال المخبرون لهم وزير

و قال أبو العتاهية:

الحق أوسع من معا # لجة الهوى و مضيقه

لا تعرضنّ لكل أمر # أنت غير مطيقه

و العيش يصلح إن مزجـــ # ت غليظه برقيقه

لا يخدعنّك زخرف الد # نيا بحسن بريقه

و إذا رأيت الرأي مضطربـــ # ا فخذ بوثيقه

و لربما غصّ البخيـــ # ل إذا استتيل بريقه

و قال أيضا:

من أجاب الهوى إلى كلّ ما يد # عوه مما يضلّ ضلّ و تاها

من رأى عبرة ففكّر فيها # آذنته بالبين حين يراها

ربما استغلقت أمور على من # كان يأتي الأمور من مأتاها

و سيأوي إلى يد كلّ ما تأ # تي و تأوي إلى يد حسناها

قد تكون النجاة تكرهها النـــ # نفس و تأتي ما كان فيه أذاها

و قال أيضا:

لو أن عبدا له خزائن ما # في الأرض ما عاش خوف أملاق

يا عجبا كلنا يحيد عن الحيــ #ن و كلّ لحينه لاقي

كأن حيا قد قام نادبه

و التفت الساق منه بالساق # و استلّ منه حياته ملك المو

ت خفيا و قيل: من راق

و قال السموأل بن عادياء اليهودي:

تعيرنا أنا قليل عديدنا # فقلت لها إن الكرام قليل

و ما قلّ من كانت بقاياه مثلنا # شباب تسامى للعلى و كهول

و ما ضرّنا أنا قليل و جارنا # عزيز و جار الأكثرين ذليل

فنحن كماء المزن ما في نصابنا # كهام و لا فينا يعدّ بخيل

و أسيافنا في كل شرق و مغرب # بها من قراع الدارعين فلول

معوذة ألا تسلّ نصالها # فتغمد حتى يستباح قتيل

سلي، إن جهلت، الناس عنا و عنهم # و ليس سواء عالم و جهول

و قال الربيع بن أبي الحقيق:

و من يك غافلا لم يلق بؤسا # ينخ يوما بساحته القضاء

تعاوره بنات الدهر حتى # تثلمه كما ثلم الإناء

و كلّ شديدة نزلت بحي # سيأتي بعد شدتها رخاء

و بعض خلائق الأقوام داء # كداء الشيخ ليس له شفاء

و أنشد:

قد حال من دون ليلي معشر قزم # و هم على ذاك من دوني مواليها

و اللّه يعلم أني إن نأت حججا # أو حيل من دونها أن لست ناسيها

و أنشد:

و ليل يقول الناس من ظلماته # سواء بصيرات العيون و عورها

كأن لنا منه بيوتا حصينة # مسوح أعاليها و ساج كسورها

و قالوا: أتى سعيد بن عبد الرحمن بن حسان، أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، و هو عامل سليمان بن عبد الملك، فسأله أن يكلم سليمان في

حاجة له فوعده أن يقضيها و لم يفعل، و أتى عمر بن عبد العزيز فكلمه لقضى حاجته، فقال سعيد:

ذممت و لم تحمد و أدركت حاجتي # تولى سواكم شكرها و اصطناعها

أبى لك فعل الخير رأي مقصر # و نفس أضاق اللّه بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة # عصاها و إن همت بشر أطاعها

ستكفيك ما ضيعت منه، و إنما # يضيع الأمور سادرا من أضاعها

ولاية من ولاك سوء بلائها # و ولى سواك أجرها و اصطناعها

و أنشد:

إذا ما أطعت النفس مال بها الهوى # إلى كل ما فيه عليك مقال

و أنشد:

حسب الفتى من عيشه # زاد يبلغه المحلا

خبز و ماء بارد # و الظلّ حين يريد ظلا

و أنشد:

و ما العيش إلا شبعة و تشرق # و تمر كأخفاف الرباع و ماء

قالوا: استبطأ عبد الملك بن مروان، ابنه مسلمة في مسيره إلى الروم، و كتب إليه.

لمن الظعائن سيرهن تزحّف # سير السفين إذا تقاعس يجذف

فلما قرأ الكتاب مسلمة كتب إليه:

و مستعجب مما يرى من أناتنا # و لو زبنته الحرب لم يترمرم

و مسلمة هو القائل عند ما دلى بعضهم في قبره، فتمثل بعض من حضر فقال: ــ

فما كان قيس هلكه هلك واحد # و لكنه بنيان قوم تهدّما

فقال مسلمة: لقد تكلمت بكلمة شيطان، هلا قلت:

إذا مقرم منا ذرا حدّ نابه # تخمط فيه ناب آخر مقرم

و كان مسلمة شجاعا خطيبا، و بارع اللسان جوادا، و لم يكن في ولد عبد الملك مثله و مثل هشام بعده.

و قال بعض الأعراب يهجو قوما:

تصبر للبلاء الحتم صبرا # إذا جاورت حيّ بني أبان

أقاموا الديدبان على يفاع # و قالوا يا احترس للديدبان

فإن أبصرت شخصا من بعيد # فصفّق بالبنان على البنان

تراهم خشية الأضياف خرسا # يقيمون الصلاة بلا أذان

و قال بعض الأعراب يمدح قوما:

و سار تعنّاه المبيت فلم يدع # له حابس الظلماء و الليل مذهبا

رأى نار زيد من بعيد فخالها # و قد كذبته النفس و الظنّ كوكبا

رفعت له بالكف نارا تشبّها # شآمية نكباء أو عارض صبا

و قلت ارفعوها بالصعيد كفى بها # مشيرا لساري ليلة إن تأوبا

فلما أتانا و السماء تبلّه # نقول له أهلا و سهلا و مرحبا

و قمت إلى البرك الهواجد فاتقت # بكوماء لم يترك لها النيّ مهربا

فرحبت أعلى الجنب منها بطعنة # دعت مستكنّ الجوف حتى تصبّبا

و قال الآخر:

و استيقني في ظلم البيوت # إنك إن لم تقتلي تموتي

و قال أبو سعيد الزاهد: «من عمل بالعافية فيمن دونه رزق العافية ممن فوقه» .

قال: و قال عيسى بن مريم عليه السلام: «في المال ثلاث خصال أو بعضها» . قالوا: و ما هي يا روح اللّه؟قال: «يكسبه من غير حله» . قالوا:

فإن كسبه من حله؟قال: «يمنعه من حقه» . قالوا: فإن وضعه في حقه؟ قال: «يشغله اصلاحه عن عبادة ربه» .

قال: قيل لرجل مريض: كيف تجدك؟قال: أجدني لم أرض حياتي لموتي.

سعيد بن بشير، عن أبيه، إن عبد الملك قال حين ثقل و رأى غسالا يلوي ثوبا بيده: «وددت إن كنت غسالا لا أعيش إلا مما أكتسب يوما بيوم» .

فذكر ذلك لأبي حازم فقال: الحمد للّه الذي جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه، و لا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

الهيثم قال: أخبرني موسى بن عبيدة الربذي عن عبد اللّه بن خداش الغفاري قال: قال أبو ذر: فارقت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قوتي من الجمعة إلى الجمعة مدّ، و لا و اللّه لا أزداد عليه حتى ألقاه» .

قال: و كان يقول: إنما مالك لك، أو للجائحة، أو للوارث. فاغن و لا تكن أعجز الثلاثة.

فضيل بن عياض، عن المطرّح بن يزيد، عن عبيد اللّه بن زحر، عن علي بن يزيد عن القاسم مولى يزيد بن معاوية، عن أبي أسامة الباهلي قال:

قال عمر رحمه اللّه:

«أدّبوا الخيل و تسوكوا، و اقعدوا في الشمس، و لا تجاورنكم الخنازير، و لا يرفعن فيكم صليب، و لا تأكلوا على مائدة يشرب عليها خمر، و إياكم و أخلاق العجم، و لا يحل لمؤمن أن يدخل الحمام إلا بمئزر، و لا لإمرأة إلا من سقم، فإن عائشة حدثتني قالت: حدثني خليلي على مفرشي هذا: إذا وضعت المرأة خمارها في غير بيت زوجها هتكت ما بينها و بين اللّه فلم يتناه دون العرش» .

و من نساك البصرة و زهادهم عامر بن عبد قيس، و بحالة بن عبدة العنبريان، و عثمان بن الأدهم، و الأسود بن كلثوم، و صلة بن أشيم، و مذعور ابن الطفيل.

و من بني منقر: جعفر و حرب ابنا جرفاس. و كان الحسن يقول: إني لا أرى كالجعفرين جعفرا. يعني جعفر بن جرفاس، و جعفر بن زيد العبدي.

و من النساء: معاذة العدوية، امرأة صلة بن أشيم، و رابعة القيسية.

و من زهاد الكوفة عمرو بن عتبة، و همّام بن الحارث، و الربيع بن خثيم، و أويس القرنيّ.

قال الراجز:

من عاش دهرا فسيأتيه الأجل # و المرء تواق إلى ما لم ينل
الموت يتلوه و يلهيه الأمل

و قال الآخر:

كلنا يأمل مدا في الأجل # و المنايا هي آفات الأمل

و قال الآخر:

لا يغرّنك مساء ساكن # قد يوافي بالمنيات السحر

و قال الآخر:

أنت وهبت الفتية السلاهب [1] # و هجمة يحار فيها الحالب [2]
و غنما مثل الجراد السارب [3] # متاع أيام و كلّ ذاهب

---

(1) السلاهب: مفردها سلهب: الطويل من الخيل.
(2) الهجمة: عدد كثير من الابل.
(3) السارب: الضارب على وجهه في الارض.

و قال المسعودي:

إن الكرام مناهبو # ك المجد كلهم فناهب

أخلف و أتلف كلّ شي # ء زعزعته الريح ذاهب

و قال التيمي:

إذا دانت السبعون سنك لم يكن # لدائك إلا أن تموت طبيب

و إن امرأ قد سار سبعين حجة # إلى منهل من ورده لقريب

إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهم # و خلّفت في قرن فأنت غريب

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل # خلوت و لكن قل عليّ رقيب

و قال غسان خال الغدار:

ابيضّ مني الرأس بعد سواد # و دعا المشيب حليلتي لبعاد

و استحصد القرن الذي أنا منهم # و كفى بذاك علامة لحصادي

قال: كان علي بن عيسى بن ماهان (1) ، كثيرا ما يقول: (ربنا افرغ علينا صبرا و توفنا مسلمين) .

و كان كثيرا ما يقول: ويل للظالمين من اللّه! و قال محمد بن واسع: الإبقاء على العمل أشد من العمل.

و كان أبو وائل النهشلي يقول في أول كلامه: إن الدهر لا يذوق طعم ألم الفراق و لا يذيقه أهله، و إنما يغتمسون في ليل، و يطفون في نهار، فيوشك شاهد الدنيا أن يغيب، و غائب الآخرة أن يشهد.

قال: و سأل رجل رجلا، فقال المسئول: اذهب بسلام!فقال السائل:

قد أنصفنا من ردنا إلى اللّه.

---

(1) علي بن عيسى بن ماهان من رجال الأمين، قتل سنة 195 في حربه ضد المأمون.

الحزاميّ، عن سفيان بن حمزة عن كثير بن الصلت ان حكيم بن حزام باع داره من معاوية بستين ألف درهم، فقيل له: غبنك و اللّه معاوية!فقال:

و اللّه ما أخذتها في الجاهلية إلا بزق من خمر، اشهدكم أنها في سبيل اللّه، فانظروا أينا المغبون؟! قال سفيان الثوري: ليس من ضلالة إلا عليها زينة، فلا تعرضنّ دينك لمن يبغضه إليك.

و قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل.

و أتى مسلما نصرانيّ يعزيه، فقال له: مثلي لا يعزي مثلك، و لكن انظر إلى ما زهد فيه الجاهل فارغب فيه.

و كان الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن علي يلقب ذا الدمعة، فإذا عوتب في كثرة البكاء قال: و هل تركت النار و السهمان لي مضحكا!يريد قتل زيد بن علي، و يحيى بن زيد.

و قيل لشيخ من الأعراب: قمت مقاما خفنا عليك منه!قال: آلموت أخاف، شيخ كبير و ربّ غفور، و لا دين و لا بنات.

و قال أبو العتاهية:

و كما تبلى وجوه في الثرى # فكذا يبلى عليهن الحزن

و قال بشار:

كيف يبكي لمحبس في طلول # من سيفضي لحبس يوم طويل

إن في البعث و الحساب لشغلا # عن وقوف برسم دار محيل

و قال محمود الوراق:

أ ليس عجيبا بأن الفتى # يصاب ببعض الذي في يديه

فمن بين باك له موجع # و بين معزّ مغذّ إليه [1]

و يسلبه الشيب شرخ الشباب # فليس يعزيه خلق عليه

(1) المغذ: المسرع في سيره.

و قال أيضا:

بكيت لقرب الأجل # و بعد فوات الأمل

و وافد شيب طرا # بعقب شباب رحل

شباب كأن لم يكن # و شيب كأن لم يزل

طواك بشير البقاء # و حلّ بشير الأجل

طوى صاحب صاحبا # كذاك اختلاف الدول

و قال:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله # و يعديهم داء الفساد إذا فسد

يعظم في الدنيا بفضل صلاحه # و يحفظ بعد الموت في الأهل و الولد

و قال الحسن بن هانئ:

أيّة نار قدح القادح # و أيّ جدّ بلغ المازح

للّه در الشيب من واعظ # و ناصح لو حظي الناصح

بأبى الفتى إلا اتباع الهوى # و منهج الحق له واضح

فاسم بعينيك إلى نسوة # مهورهن العمل الصالح

لا يجتلي الحسناء من خدرها # إلا امرؤ ميزانه راجح

من اتقى اللّه فذاك الذي # سبق إليه المتجر الرابح

و قال أيضا:

خلّ جنبيك لرام # و امض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير # لك من داء الكلام

إنما السالم من # ألجم فاه بلجام

ربما استفتحت بالقو # ل مغاليق الحمام

ربّ لفظ ساق آجا # ل فئام و فئام [1]

(1) الفئام: الجماعة الكثيرة من الناس.

فالبس الناس على الصحـــ # ة منهم و السقام

و المنايا آكلات # شاربات للأيام

شبت يا هذا و ما تتـــ # رك أخلاق الغلام

و قال أيضا:

كن من اللّه يكن لك # و اتق اللّه لعلك

لا تكن إلا معدا # للمنايا فكأنك

إنّ للموت لسهما # واقعا دونك أو بك

نحن نجري في أفا # نين سكون و تحرك

فعلى اللّه توكل # و بتقواه تمسك

و له أيضا:

يا نواسيّ تفكّر # و تعزّ و تصبر

ساءك الدهر بشيء # و لما سرّك أكثر

يا كبير الذنب عفو اللّه # من ذنبك أكبر

أكبر الأشياء في أصـــ # غر عفو اللّه يصغر

و قال سعد بن ربيعة بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم:

ألا إنما هذا الملال الذي ترى # و إدبار جسمي من ردى العثرات

و كم من خليل قد تجلدت بعده # تقطّع نفسي دونه حسرات

و هذا من قديم الشعر.

و قال الطرمّاح بن حكيم، في هذا المعنى:

و شيبني أن لا أزال مناهضا # بغير قوى أنزو بها و أبوع [1]

و إن رجال المال أضحوا و مالهم # لهم عند أبواب الملوك شفيع

أ مخترمي ريب المنون و لم أنل # من المال ما أعصي به و أطيع

(1) أبوع: أبسط باعي في المشي.

و من قديم الشعر قول الحارث بن يزيد، و هو جد الاحيمر اللص السعدي:

لا لا أعق و لا أحو # ب و لا أغير على مضر

لكنما غزوي إذا # ضج المطي من الدبر

و قال آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز:

و إن قالت رجال قد تولى # زمانكم و ذا زمن جديد

فما ذهب الزمان لنا بمجد # و لا حسب إذا ذكر الجدود

و ما كنا لنخلد إذ ملكنا # و أي الناس دام له الخلود

و قيل لأخيه بعد أن رأوه حمالا: لقد حطك الزمان، و عضك الحدثان! فقال: ما فقدنا من عيشنا إلا الفضول! و قال عروة بن أذينة الكناني:

نراع إذا الجنائز قابلتنا # و يحزننا بكاء الباكيات

كروعة ثلة لمغار ذئب # فلما غاب عادت راتعات

و قالت خنساء بنت عمرو:

ترتع ما غفلت حتى إذا أدكرت # فإنما هي إقبال و إدبار

و قال أبو النجم:

فلو ترى التيوس مضجعات # عرفت أن لسن بسالمات

أقول إذ جئن مذبّحات # أ لم تكن من قبل راتعات

ما أقرب الموت من الحياة

و قال سليمان بن الوليد:

ربّ مغروس يعاش به # عدمته كفّ مغترسه

و كذاك الدهر مأتمه # أقرب الأشياء من عرسه

و قال آخر:

يا راقد الليل مسرورا بأوله # إن الحوادث قد يطرقن اسحارا

و قالت امرأة في بعض الملوك:

أبكيك لا للنعيم و الأنس # بل للمعالي و الرمح و الفرس

أبكي على فارس فجعت به # أرملني قبل ليلة العرس

باب أخلاط من شعر و نوادر و أحاديث

قال هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

و إن مقال المرء في غير كنهه # لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

و قال الراجز:

و القول لا تملكه إذا نما # كالسهم لا يرجعه رام رمى

و إلى هذا ذهب عامر الشعبي حيث يقول: «و إنك على إيقاع ما لم توقع أقدر منك على رد ما قد أوقعت» .

و أنشد:

فداويته بالحلم و المرء قادر # على سهمه ما دام في كفه السهم

و قال الأنصاري:

و بعض القول ليس له حصاة # كمخض الماء ليس له إتاء [1]

و بعض خلائق الأقوام داء # كداء الشيخ ليس له دواء

---

(1) اتاء: زبد.

و قال الآخر:

و مولى كداء البطن أما لقاؤه # فحلم و أما غيبه فظنون

و قال الآخر:

تقسم أولاد الملمّة مغنمي # جهارا، و لم يغلبك مثل مغلّب

و قال الثلب اليماني:

و هن شر غالب لمن غلب

و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كتب أحدكم فليترّب كتابه، فإن التراب مبارك، و هو أنجح للحاجة» .

و ذكر اللّه آدم الذي هو أصل البشر فقال: **إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اَللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ** . و لذلك كنّى النبيّ عليه السلام عليا أبا تراب. قالوا:

و كانت أحب الكنى إليه.

و قال الآخر:

و إن جئت الأمير فقل سلام # عليك و رحمة اللّه الرحيم

و أما بعد ذاك فلي غريم # من الأعراب قبّح من غريم

له ألف عليّ و نصف ألف # و نصف النصف في صك قديم

دراهم ما انتفعت بها و لكن # وصلت بها شيوخ بني تميم

و قال الكميت:

حلفت بربّ الناس: ما أمّ خالد # بأمك إذ أصواتنا الهل و الهب

و لا خالد يستطعم الماء قائما # بعدلك [1] و الداعي إلى الموت ينعب

---

(1) العدل: النظير.

و قال ابن نوفل:

تقول لما أصابك أطعموني # شرابا ثم بلت على السرير

لأعلاج ثمانية و شيخ # كبير السنّ ذي بصر ضرير

و قال ابن هرمة:

تراه إذا ما أبصر الضيف كلبه # يكلمه من حبّه و هو أعجم

قال: و قال المهلب: «عجبت لمن يشتري المماليك بماله و لا يشتري الأحرار بمعروفه» .

و قال الشاعر:

رزقت لبّا و لم أرزق مروءته # و ما المروءة إلا كثرة المال

إذا أردت مساماة تقعّدني # عما ينوّه باسمي رقة الحال

و قال الأحنف:

فلو مدّ سروري بمال كثير # لجدت و كنت له باذلا

فإن المروة لا تستطاع # إذا لم يكن مالها فاضلا

و قال جرير بن يزيد:

خير من البخل للفتى عدمه # و من بنين أعقة عقمه

قال: و مشى رجال من تميم إلى عتاب بن ورقاء، و محمد بن عمير، في عشر ديات فقال محمد بن عمير: علي دية: فقال عتاب: علي الباقية. فقال محمد:

نعم العون على المروءة المال.

و قال الآخر:

و لا خير في وصل إذا لم يكن له # على طول مرّ الحادثات بقاء

و قال الآخر:

شفاء الحبّ تقبيل و ضمّ # و جرّ بالبطون على البطون

و أنشد:

و اللّه لا أرضى بطول ضمّ # و لا بتقبيل و لا بشمّ

إلا بهزهاز يسلي همي # يسقط منه فتخي في كمّي

لمثل هذا ولدتني أمي

و أنشد:

لا ينفع الجارية الخضاب # و لا الوشاحان و لا الجلباب

من دون أن تصطفق الأركاب # و تلتقي الأسباب و الأسباب

و يخرج الزب له لعاب

و قال الآخر:

و قد بدا لي أن قلبك ذاهل # عني و قلبي لو بدا لك أذهل

كلّ يجامل و هو يخفي بغضه # إن الكريم على القلى يتجمّل

و قال الآخر:

و حظك زورة في كلّ عام # موافقة على ظهر الطريق

سلاما خاليا من كل شيء # يعود به الصديق على الصديق

و قال الآخر:

و زعمت أني قد كذبتك مرة # بعض الحديث فما صدقتك أكثر

و قال الآخر:

أهينوا مطاياكم فإني وجدته # يهون على البرذون موت الفتى الندب

و قال الآخر:

لا يحفل البرد من يبلي حواشيه # و لا تبالي على من راحت الإبل

و قال الآخر:

ألا لا يبالي البرد من جرّ فضله # كما لا تبالي مهرة من يقودها

و قال الآخر:

و إني لأرثي للكريم إذا غدا # على حاجة عند اللئيم يطالبه

و أرثي له من مجلس عند بابه # كمرثيتي للطرف و العلج راكبه

و قال الفرزدق:

أ ترجو ربيع أن تجيء صغارها # بخير و قد أعيا ربيعا كبارها

و قال الشاعر:

أ لم تر أن سير الخير ريث # و إن الشرّ راكبه يطير

و قال ابن يسير:

تأتي المكاره حين تأتي جملة # و ترى السرور يجي مع الفلتات

قيل لبلال بن أبي بردة: لم لا تولي أبا العجوز بن أبي شيخ العراف- و كان بلال مسترضعا فيهم، و هو من بلهجيم-قال: لأني رأيت منه ثلاثا: رأيته يحتجم في بيوت إخوانه، و رأيت عليه مظلة و هو في الظل، و رأيته يبادر بيض البقيلة.

و كان عندي شيخ عظيم البدن جهير الصوت، يستقصي الأعراب، و قد ولده رجل من أهل الشورى، و كان بقربي عبد أسود دقيق العظم يم الوجه، و رآني أكبره، فقال لي حين نهض و رأى عظما: يا أبا عثمان، لا و اللّه أن يساوي ذلك العظم البالي، بصرت عيني به في الحمام و تناول قطعة من فخار فأعطاها رجلا و قال له: حكّ بها ظهري!أ فتظن هذا يا أبا عثمان يفلح أبدا.

قال أبو الحسن: سأل الحجاج غلاما فقال له: غلام من أنت؟قال:

غلام سيّد قيس. قال: و من ذاك؟قال: زرارة بن أوفى. قال: و كيف يكون سيد قيس و في داره التي ينزل فيها سكان؟ قال: و قال رجل لابنه: إذا أردت أن تعرف عيبك فخاصم شيخا من قدماء جيرانك. قال: يا أبت لو كنت إذا خاصمت جاري لم يعرف عيبي غيري كان ذلك رأيا، و لكن جاري لا يعرفني عيبي حتى يعرفه عدوي.

و قد أخطأ الذي وضع هذا الحديث لأن أباه نهاه و لم يأمره.

و قال الآخر:

اصطنعني و أقلبني عثرتي # إنها قد وقعت مني بقر

و اعلمن أن ليس ألفا درهم # لمديحي و هجائي بخطر

يذهب المال و يبقى منطق # شائع يأثره أهل الخبر

ثم أرميكم بوجه بارز # لست أمشي لعدوي بخمر

و قال أشهب بن رميلة يوم صفين: إلى أين يا بني تميم؟قالوا: قد ذهب الناس. قال: تقرون و تعتذرون؟! قال: و نهض الحارث بن حوط الليثي إلى علي بن أبي طالب، و هو على المنبر، فقال: أ تظن أنا نظن أن طلحة و الزبير كانا على ضلال؟قال: «يا حار، انه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال. فاعرف الحق تعرف أهله!» .

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «لا أدركت أنا و لا أنت زمانا يتغاير الناس فيه على العلم كما يتغايرون على الأزواج» .

قال: و بعث قسامة بن زهير العنبري إلى أهله بثلاثين شاة و نحي صغير فيه سمن، فسرق الرسول شاة، و أخذ من رأس النحي شيئا من السمن، فقال لهم الرسول: أ لكم إليه حاجة أخبره بها؟قالت له امرأته: أخبره أن الشهر

محاق، و إن جدينا الذي كان يطالعنا وجدناه مرثوما (1) . فاسترجع منه الشاة و السمن.

قال علي بن سليمان لرؤبة: ما بقي من باهك يا أبا الجحاف: قال:

يمتد و لا يشتد، و استعين بيدي ثم لا أورد، و أطيل الظمء ثم أقصر. قال:

ذاك الكبر. قال: لا، و لكنه طول الرغاث.

و قيل لأعرابي: أيّ الدواب آكل؟قال: برذونة رغوث (2) .

و قيل لغيره: لم صارت اللبؤة انزق، و على اللحم أحرص؟قال: هي الرغوث.

قال: و قال عبيد اللّه بن عمر: اتقوا من تبغضه قلوبكم.

و قال اسماعيل بن غزوان: لا تنفق درهما حتى تراه، و لا تثق بشكر من تعطيه حتى تمنعه، فالصابر هو الذي يشكر، و الجازع هو الذي يكفر.

عامر بن يحيى بن أبي كثير قال: لا تشهد لمن لا تعرف، و لا تشهد على من لا تعرف، و لا تشهد بما لا تعرف.

أبو عبد الرحمن الضرير، عن علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيّب قال: قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «رأس العقل بعد الإيمان باللّه التودّد إلى الناس» .

و قالت عائشة: لا سمر إلا لثلاثة: مسافر، و مصلّ و عروس.

قال: و قال معاوية يوما: من أنصح الناس؟فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخلخانيّة الفرات، و تيامنوا عن عنعنة تميم و تياسروا عن كسكسة بكر (3) ، ليست

---

(1) مرثوم: كسور.
(2) رغوث: مرضعة.
(3) كسكسة: أن يجعل بعد كاف المذكر سينا.

لهم غمغمة قضاعة و لا طمطمانية [1] حمير. قال: من هم؟قال: قريش قال: ممن أنت؟ قال: من جرم. قال: اجلس.

و قال الراجز:

إن تميما أعطيت تماما # و أعطيت مآثرا عظاما

و عددا و حسبا قمقاما [2] # و باذخا من عزها قدّاما

في الدهر أعيا الناس أن يراما # إذا رأيت منهم الأجساما

و الدلّ و الشيمة و الكلاما # و أذرعا و قصرا [3] و هاما

عرفت أن لم يخلقوا طغاما [4] # و لم يكن أبوهم مسقاما

لم تر فيمن يأكل الطعاما # أقلّ منهم سقطا و ذاما [5]

تقول العرب: «لو لم يكن في الإبل إلا أنها رقوء الدم» .

قال جندل بن صخر، و كان عبدا مملوكا:

و ما فك رقّي ذات دل خبرنج [6] # و لا شاق مالي صدقة و عقول

و لكن نماني كلّ أبيض خضرم # فأصبحت أدري اليوم كيف أقول

و قال الفقيمي، و هو قاتل غالب أبي الفرزدق:

و ما كنت نواما و لكن ثائرا # أناخ قليلا فوق ظهر سبيل

و قد كنت مجرور اللسان و مفحما # فأصبحت أدري اليوم كيف أقول

قال المغيرة بن شعبة: من دخل في حاجة رجل فقد ضمنها.

---

(1) طمطمانية: عجمة.
(2) القمقام: العدد الكثير.
(3) القصر: أصل العنق.
(4) الطغام: أوغاد الناس.
(5) الذام: العيب.
(6) الخبرنج: الخلق الحسن.

و قال عمر رحمه اللّه: لكل شيء شرف، و شرف المعروف تعجيله.

و قال رجل لإبراهيم النخعي: أعد الرجل الميعاد فإلى متى؟قال: إلى وقت الصلاة.

قال: و قال لي بعض القرشيين: من خاف الكذب أقلّ من المواعيد.

و قالوا: أمران لا يسلمان من الكذب: كثرة المواعيد، و شدة الاعتذار.

و قال ابراهيم النظام: قلت لخنجير كون ممرور (1) الزياديين: أقعدها هنا حتى أرجع إليك. قال: أما حتى ترجع إلي فإني لا أضمن لك و لكن أقعد لك إلى الليل.

و هذه رسالة ابراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد بن برمك:

و بلغني أن عامة أهل بغداد يحفظونها في تلك الأيام، و هي كما ترى.

و أولها:

للأصيد الجواد (2) ، الواري الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشم الباذل، اللباب الحلاحل، من المستكين المستجير، البائس الضرير.

فإني أحمد اللّه ذا العزة القدير، إليك و إلى الصغير و الكبير، بالرحمة العامة، و البركة التامة.

أما بعد فاغنم و اسلم، و اعلم إن كنت تعلم، إنه من يرحم يرحم، و من يحرم يحرم، و من يحسن يغنم، و من يصنع المعروف لا يعدم. و قد سبق إلي تغضبك علي، و اطراحك لي، و غفلتك عني بما لا أقوم له و لا أقعد، و لا أنتبه و لا أرقد، فلست بذي حياة صحيح، و لا بميت مستريح، فررت بعد اللّه منك إليك، و تحملت بك عليك. و لذلك قلت:

---

(1) الممرور: الذي غلبت عليه المرة فاختل عقله.
(2) الأصيد: الذي يرفع رأسه كبرا.

أسرعت بي حثّا إليك خطائي # فأناخت بمذنب ذي رجاء

راغب راهب إليك يرجى # منك عفوا عنه و فضل عطاء

و لعمري ما من أصرّ و من تا # ب مقرّا بذنبه بسواء

فإن رأيت-أراك اللّه ما تحب، و أبقاك في خير-ألا تزهد فيما ترى من تضرّعي و تخشّعي، و تذلّلي و تضعّفي، فإن ذلك ليس مني بنحيزة (1) و لا طبيعة، و لا على وجه تصيّد و تصنّع و تخدّع، و لكنه تذلل و تخشع و تضرع، من غير ضارع و لا مهين و لا خاشع لمن لا يستحق ذلك، إلا لمن التضرع له عز و رفعة شرف. و السلام.

محمد بن حرب الهلالي قال: دخل زفر بن الحارث على عبد الملك، بعد الصلح فقال: ما بقي من حبك للضحاك؟فقال: ما لا ينفعني و لا يضرك. قال: شدّ ما أحببتموه معاشر قيس!قال: أحببناه و لم نواسه، و لو كنا آسيناه لقد كنا أدركنا ما فاتنا منه. قال: فما منعك من مواساته يوم المرج.

قال: الذي منع أباك من مواساة عثمان يوم الدار.

قال الشاعر:

لكل كريم من ألائم قومه # على كلّ حال حاسدون و كشّح (2)

قال: و قال سليمان بن سعد لو صحبني رجل فقال اشترط علي خصلة واحدة لا تزيد عليها لقلت: لا تكذبني.

قال: كان يقال: أربع خصال يسود بها المرء: العلم، الأدب، و العفة و الأمانة.

---

(1) النحيزة: الطبيعة.

(2) كشح: مفردها كاشح: العدو الذي يضمر عداوته.

و قال الشاعر:

لئن طبت نفسا عن ثنائي فإنني # لأطيب نفسا عن نداك على عسري

فلست إلى جدواك أعظم حاجة # على شدّة الأعسار منك إلى شكري

و قال الآخر:

أ أن سمتني ذلا فعفت حياضه # سخطت، و من يأب المذلة يعذر

فها أنا مسترضيك لا من جناية # جنيت و لكن من تجنيك فاغفر

و قال أياس بن قتادة:

و إنّ من السادات من لو أطعته # دعاك إلى نار يفور سعيرها

و قال الآخر:

عزمت على إقامة ذي صباح # لأمر ما يسودّ من يسود

و قال الهذلي:

و إنّ سيادة الأقوام فاعلم # لها صعداء مطلبها طويل

و قال حارثة بن بدر:

إذا الهمّ أمسى و هو داء فأمضه # و لست بمضيه و أنت تعادله

و لا تنزلن أمر الشديدة بامرئ # إذا رام أمرا عوقته عواذله

و قل للفؤاد إن نزا بك نزوة # من الروع أفرخ أكثر الروع باطله

و قال الآخر:

و إنّ بقوم سوّدوك لفاقة # إلى سيد لو يظفرون بسيّد

و قال الآخر:

و ما سدت فيهم إن فضلك عمّهم # و لكن هذا الحظّ في الناس يقسم

و قال حارثة بن بدر:

خلت الديار فسدت غير مسوّد # و من الشقاء تفرّدي بالسّؤدد

الفضل بن تميم قال: قال المغيرة: «من لم يغضب لم يعرف حلمه» .

و قال الشاعر:

ما بال ضبع ظلّ يطلب دائبا # فريسته بين الأسود الضراغم

و قال الآخر:

ذكرت بها عهدا على الهجر و القلى # و لا بدّ للمشتاق أن يتذكرا

و قال الآخر:

إذا ما شفيت النفس أبلغت عذرها # و لا لوم في أمر إذا بلغ العذر

و قال الآخر:

لعمرك ما الشكوى بأمر حزامة # و لا بدّ من شكوى إذا لم يكن صبر

و قال الآخر:

لو ثلاث هنّ عيش الدهر # الماء و النوم و أم عمرو

لما خشيت من مضيق القبر

و قال لقيط بن زرارة:

شتان هذا و العناق و النوم # و المشرب البارد و الظلّ الدوم

و قال والبة:

ما العيش إلا في المدى # م و في اللزام و في القبل

و إدارة الظبي الغريــ # ر تسومه ما لا يحل

و قال شيخ من أهل المسجد: ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلا و فيهم من يحدث عن الحسن، و ينشد للفرزدق.

و قال أبو مجيب: لا ترى امرأة مصبّرة العين، و لا امرأة عليها طاق يمنة، و لا شريفا يهنأ بعيرا.

و قال أبو براح: ذهب الفتيان فلا ترى فتى مفروق الشعر بالدّهن، معلقا نعله، و لا ديكين في خطار (1) ، و لا صديقا له صديق أن قمر ضعا (2) ، و إن عوقب جزع، و إن خلا بصديق فتى خببه (3) ، و إن ضرب أقر، و إن طال حبسه ضجر، و لا ترى فتى يحسن أن يمشي في قيده و لا يخاطب أميره.

و قال أبو الحسن: قال أبو عباية: ترى زقاق براقش، و بساتين هزار مرد (4) ما كان يسلكه غلام إلا بخفير، و هم اليوم يخترقونه. قلت: هذا من صلاح الفتيان. قال: لا و لكن من فسادهم.

اليقطري، قال: قيل لطفيل العرائس: كم اثنان في اثنين؟قال: أربعة أرغفة.

و قال رجل لرجل: انتظرتك على الباب بقدر ما يأكل إنسان جردقتين (5)

عبد اللّه بن مصعب قال: أرسل علي بن أبي طالب رحمه اللّه عبد اللّه بن عباس، لما قدم البصرة فقال:

«ائت الزبير و لا تأت طلحة، فإن الزبير ألين، و إنك تجد طلحة كالثور عاقصا قرنه (6) ، يركب الصعوبة و يقول هي أسهل، فأقرئه السلام، و قل له:

«يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز و أنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا لك؟» .

قال: فأتيت الزبير فقال: مرحبا يا ابن لبابة أ زائرا جئت أم سفيرا؟ قلت: كلّ ذلك. و أبلغته ما قال علي، فقال الزبير: أبلغه السلام و قل له:

«بيننا و بينك عهد خليفة و دم خليفة، و اجتماع ثلاثة و انفراد واحد، و أم مبرورة، و مشاورة العشيرة، و نشر المصاحف، فنحل ما أحلت، و نحرم ما

---

(1) الخطار: الرهان.
(2) قمر: غلب في القمار. ضغا: صاح.
(3) خببه: خدعه و أفسده.
(4) هزار مرد: في الفارسية: ألف رجل.
(5) الجردقة: الرغيف، من الفارسية.
(6) عقص قرنه: عطفه.

حرمت» . فلما كان من الغد حرّش بين الناس غوغاؤهم فقال الزبير: ما كنت أرى أن مثل ما جئنا له يكون فيه قتال! قال: و من جيّد الشعر قول جرير:

لئن عمرت تيم زمانا بغرّة # لقد حديت تيم حداء عصبصبا

فلا يضغمن الليث تيما بغرة # و تيم يشمون الفريس المنيّبا

و قال أعرابي: «كحّلني بالميل الذي تكحّل به العيون الداءة (1) » و قال ابن أحمر:

بهجل من قسا ذفر الخزامى # تهادي الجربياء به الحنينا (2)

به تتزخّر القلع السواري # و جنّ الخازباز به جنونا (3)

تكاد الشمس تخشع حين تبدو # لهن و ما نزلن و ما عسينا

و قال الحكم الخضري:

كوم تظاهر نيها و تربّعت # بقلا بعيهم و الحمى مجنونا

و المجنون: المصروع، و مجنون بني عامر، و مجنون بني جعدة.

و إذا فخر النبات قيل قد جنّ. و قال الشنفري:

فدقّت و جلّت و اسبكرّت و أنضرت # فلو جنّ إنسان من الحسن جنّت

قال: و سمع الحجاج امرأة من خلف حائط تناغي طفلا لها، فقال:

مجنونة أو أم صبي!

---

(1) الداءة: المريضة التي بها الداء.
(2) الهجل: السهل من الارض. قسا: موضع. ذفر: ذكي الرائحة. الجربياء: الريح الشمالية الباردة. الحنين: صوت الريح.
(3) تتذخر: يكثر ماؤها. القلع: قطع من السحاب. الخازباز: ذباب. جنونه: تكاثفه.

و قال أبو ثمامة بن عازب:

و كلهم قد ذاقنا فكأنما # يرون علينا جلد أجرب هامل

و قال التغلبي:

يرى الناس منا جلد أسود سالخ # و فروة ضرغام من الأسد ضيغم

و أنشدنا الأصمعي:

منهرت الشّدقين [1] عود قد كمل # كأنما قمّص من ليط جعل [2]

و قال نصيب لعمر بن عبد العزيز: إن لي بنيّة ذررت عليها من سوادي.

و قال عبد الملك للوليد:

لا تعزل أخاك عبد اللّه عن مصر، و انظر عمك محمد بن مروان فأقرّه على الجزيرة، و أما الحجاج فأنت أحوج إليه منه إليك، و أنظر علي بن عبد اللّه فاستوص به خيرا.

فضرب عليا بالسياط، و عزل أخاه و عمه.

و قال أبو نخيلة:

أنا ابن سعد و توسّطت العجم # فأنا فيما شيت من خال و عم

و أنشد:

هم وسط يرضى الإله بحكمهم # إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم

يجعلون ذلك من قول اللّه تبارك و تعالى: **وَ كَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى اَلنَّاسِ وَ يَكُونَ اَلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** .

---

(1) منهرت الشدقين: واسعهما.

(2) قمص: ألبس قميصا. الليط: قشر القصب. الجعل: حشرة طائرة سوداء يضرب بسوادها المثل.

و أنشد:

و لو لا خلّة سبقت إليه # و أخو من كان من عرق المدام

دلفت له بأبيض مشرفي # كما يدنو المصافح بالسلام

و قال يزيد بن ضبّة:

لا تبدينّ مقالة مأثورة # لا تستطيع إذا مضت إدراكها

و قال ابن ميادة:

يا أيها الناس روّوا القول و استمعوا # و كلّ قول إذا ما قيل يستمع

و قال الآخر:

ما المدلج الغادي إليه بسحرة # إلا كآخر قاعد لم يبرح

و قال العلاء بن منهال الغنوي في شريك بن عبد اللّه:

فليت أبا شريك كان حيّا # فيقصر عن مقالته شريك

و يترك من تدرئه علينا # إذا قلنا له هذا أبوكا

و قال طارق بن أثال الطائي:

ما إن يزال ببغداد يزاحمنا # على البراذين أشباه البراذين

أعطاهم اللّه أموالا و منزلة # من الملوك بلا عقل و لا دين

ما شئت من بغلة سفواء ناجية # و من أثاث و قول غير موزون

و قال منقذ بن دثار الهلالي (1) :

لا تتركن–إن صنيعة سلفت # منك و إن كنت لست تتكرها

(1) منقذ بن عبد الرحمن بن دثار الهلالي، شاعر خليع ماجن رمي بالزندقة، عاش في البصرة في صدر الدولة العباسية.

عند امرئ–أن تقول إن ذكرت # يوما من الدهر: لست أذكرها

فإن إحياءها إماتتها # و إن منا بها يكدرها

و قال بعض الحكماء: «صاحب من ينسى معروفه عندك، و يتذكر حقوقك عليه» :

و قال منقر بن فروة المنقريّ:

و إن خفت من أمر فواتا فوله # سواك و عن دار الأذى فتحوّل

و ما المرء إلا حيث يجعل نفسه # ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

و نظر أبو الحارث جمين إلى برذون يستقي عليه الماء، فقال:

و ما المرء إلا حيث يجعل نفسه

لو هملج هذا البرذون لم يجعل للرواية.

و أنشد:

لا خير في كلّ فتى نؤوم # لا يعتريه طارق الهموم

و أنشد:

اجعل أبا حسن كمن لم تعرف # و اهجره معتزما و إن لم يخلف

آخ الكرام المنصفين وصلهم # و اقطع مودّة كلّ من لم ينصف

و قال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير:

ما زال عصياننا للّه يسلمنا # حتى دفعنا إلى يحيى و دينار

إلى عليجين لم تقطع ثمارهما # قد طال ما سجدا للشمس و النار

و شاتم أعرابي أعرابيا فقال: «إنكم لتعتصرون العطاء، و تعيرون النساء، و تبيعون الماء» .

و قال أبو الأسود الدؤلي:

لنا جيرة سدوا المجازة بيننا # فإن ذكّروك السدّ فالسد أكيس

و من خير ما ألصقت بالدار حائط # تزلّ به صقع الخطاطيف أملس

و أنشد:

إذا لم يكن للمرء بد من الردى # فأكرم أسباب الردى سبب الحبّ

و قال الآخر:

و إذا شنئت فتى شنئت حديثه # و إذا سمعت غناءه لم أطرب

و أنشد المسروحي، لكامل بن عكرمة:

لها كلّ عام موعد غير منجز # و وقت إذا ما رأس حول تجرما (1)

فإن وعدت شرا أنى دون وقته # و إن وعدت خيرا أراث و عتّما (2)

و قال الآخر:

أ لم تر أن سير الخير ريث # و أن الشرّ راكبه يطير

و قال محمد بن يسير:

تأتي المكاره حين تأتي جملة # و ترى السرور يجيء في الفلتات

و قال الآخر:

إذا ما بريد الشام أقبل نحونا # ببعض الدواهي المفظعات فأسرعا

فإن كان شرا سار يوما و ليلة # و إن كان خيرا قصّد السير أربعا

---

(1) تجرم: انقضى و انصرم.

(2) اراث و عتم: أبطأ.

و قال آخر:

و تعجبنا الرؤيا فجلّ حديثنا # إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا

فإن حسنت لم تأت عجلى و أبطأت # و إن قبحت لم تحتبس و أتت عجلى

و قال آخر:

و إذا نهضت فما النهوض بدائم # و إذا نكبت توالت النكبات

قال: قيل لأعرابي: ما أعددت للشتاء؟قال: جلّة ربوضا، و صيصية (1) سلوكا، و شملة مكودا، و قرموصا دفيئا (2) ، و ناقة مجالحة (3) .

و قيل لآخر: ما أعددت للشتاء؟قال: شدة الرعدة.

و قيل لآخر: كيف ليلكم؟قال: سحر كله.

و قيل لآخر: كيف البرد عندكم؟قال: ذاك إلى الريح.

و قال معن بن أوس:

فلا و أبي حبيب ما نفاه # من أرض بني ربيعة من هوان

و كان هو الغنيّ إلى غناه # و كان من العشيرة في مكان

تكنفه الوشاة فأزعجوه # و دس من فضالة غير و ان

فلو لا أن أم أبيه أمي # و إن من قد هجاه فقد هجاني

و أن أبي أبوه لذاق مني # مرارة مبردي و لكان شاني

إذا لأصابه مني هجاء # يمر به الروي على لساني

اعلمه الرماية كلّ يوم # فلما اشتدّ ساعده رماني

---

(1) صيصية: سنارة الحائك التي يعمل بها السداة و اللحمة.

(2) المكود: الدائمة. القرموص: حفرة يستدفئ فيها الصرد.

(3) المجالحة: التي تدر في الشتاء.

و قال بعض اليهود:

و لو كنت أرضى لا أبا لك بالذي # به العائل الجثّام في الخفض قانع [1]

إذا قصرت عندي الهموم و أصبحت # علي و عندي للرجال صنائع

و مما قالوا في المهالبة:

إن المهالبة الكرام تحملوا # دفع المكاره عن ذوي المكروه

زانوا قديمهم بحسن حديثهم # و كريم أخلاق بحسن وجوه

و قال أبو الجهم العدوي في معاوية بن أبي سفيان:

نقلّبه لنخبر حالتيه # فنخبر منهما كرما و لينا

نميل على جوانبه كأنا # نميل إذا نميل على أبينا

و قال الآخر في هذا الشكل:

إن أجز علقمة بن سيف سعيه # لا أجزه ببلاء يوم واحد

لأحبني حبّ الصبي و رمني # رمّ الهديّ إلى الغني الواجد [2]

و لقد شفيت غليلتي فنقعتها # من آل مسعود بماء بارد

و قال بكير بن الأخنس:

نزلت على آل المهلب شاتيا # فقيرا بعيد الدار في سنة محل

فما زال بي إلطافهم و افتقادهم # و إكرامهم حتى حسبتهم أهلي

و قال في كلمة له أخرى:

و قد كنت شيخا ذا تجارب جمة # فأصبحت فيهم كالصبي المدلّل

و رأى المهلب و هو غلام فقال:

خذوني به إن لم يسد سرواتهم # و يبرع حتى لا يكون له مثل

---

(1) العائل: الفقير. الجثام: الملازم مكانه لا يبرحه. الخفض: سعة العيش.

(2) رمني: أصلح حالي. الهدي: العروس تهدى إلى بعلها.

و قال الحزين، في طلحة بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه–و أمه عائشة بنت طلحة بن عبيد اللّه، من ولد أبي بكر الصديق رحمه اللّه:

فإن تك يا طلح أعطيتني # جمالية تستخفّ السفارا (1)

فما كان نفعك لي مرة # و لا مرتين و لكن مرارا

و قال أبو الطمحان:

سأمدح مالكا في كل ركب # لقيتهم، و اترك كلّ رذل

فما أنا و البكارة من مخاض # عظام جلة سدس و بزل

و قد عرفت كلابكم ثيابي # كأني منكم و نسيت أهلي

نمتكم من بني شمخ زناد # لها ما شئت من فرع و أصل

و قال أبو الشّغب:

ألا إن خير الناس قد تعلمونه # أسير ثقيف موثقا في السلاسل

لعمري لئن أعمرتم السجن خالدا # و أوطأتموه وطأة المتثاقل

لقد كان نهّاضا بكل ملمة # و معطي اللهى غمرا كثير النوافل (2)

فإن تسجنوا القسريّ لا تسجنوا اسمه # و لا تسجنوا معروفه في القبائل

و من هذا الباب قول أعشى همدان، في خالد بن عتّاب بن ورقاء:

رأيت ثناء الناس بالغيب طيبا # عليك و قالوا: ماجد و ابن ماجد

بني الحارث السامين للمجد إنكم # بنيتم بناء ذكره غير بائد

هنيئا لما أعطاكم اللّه و اعلموا # بأني سأطري خالدا في القصائد

فإن يك عتّاب مضى لسبيله # فما مات من يبقى له مثل خالد

---

(1) الجمالية: الناقة تشبه الجمل. السفار: يشد طرفه على خطام البعير.

(2) اللهى: العطية. الغمر: الواسع العطاء.

و من شكل هذا الشعر قول الحسين بن مطير الأسدي:

ألما على معن و قولا لقبره # سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا

فيا قبر معن كنت أول حفرة # من الأرض خطّت للسماح و موضعا

و يا قبر معن كيف واريت جوده # و قد كان منه البر و البحر مترعا

بلى قد وسعت الجود و الجود ميت # و لو كان حيا ضقت حتى تصدعا

فلما مضى معن مضى الجود و الندى # و أصبح عرنين المكارم أجدعا (1)

فتى عيش في معروفه بعد موته # كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

تعزّ أبا العباس عنه و لا يكن # جزاؤك من معن بأن تتضعضعا

فما مات من كنت ابنه لا و لا الذي # له مثل ما أسدى أبوك و ما سعى

تمنى أناس شأوه من ضلالهم # فأضحوا على الأذقان صرعى و ظلّعا (2)

و هذا مثل قول مسلم بن الوليد، في يزيد بن مزيد:

قبر ببرذعة استسر ضريحه # خطرا تقاصر دونه الأخطار

أبقى الزمان على معد بعده # حزنا كعمر الدهر ليس يعار

نقضت به الآمال أحلاس الغنى # و استرجعت نزّاعها الأمصار (3)

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة # أثنى عليها السهل و الأوعار

قيل: إذا رسخ الرجل في العلم رفعت عنه الرؤيا الصالحة.

مسلمة، قال: كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان، فجعلا يلحنان، فقال الحاجب: قوما فقد «أوذيتما» أمير المؤمنين!قال عمر: أنت آذى لي منهما.

المدائني قال: قعد قدّام زياد رجل ضائعي–من قرية باليمن يقال لها «ضياع» –و زياد يبني داره، فقال له: أيها الأمير، لو كنت عملت باب

---

(1) العرنين: ما ارتفع من أرنبة الانف. الأجدع: القطوع.
(2) الشأو: المدى و الغاية. ظلع: من به عرج أو شبهه.

(3) احلاس: كساء يوضع على البعير تحت الرحل.

مشرقها قبل مغربها، و باب مغربها من قبل مشرقها!فقال: أنى لك هذه الفصاحة؟قال: إنها ليست من كتاب و لا حساب، و لكنها من «ذكاوة» العقل. فقال: ويلك، الثاني شر! شعبة، عن الحكم، قال: قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لا أماري أخي، فإما أن أكذبه و إما أن أغضبه ابن أبي الزناد قال: إذا اجتمعت حرمتان تركت الصغرى للكبرى.

و عن أبي بكر الهذلي–و اسمه سلميّ–قال: إذا جمع الطعام أربعة فقد كمل: إذا كان حلالا، و كثرت عليه الأيدي، و سمّي اللّه على أوله، و حمد على آخره.

و قال ابن قميئة:

و أهون كفّ لا تضيرك ضيرة # يد بين أيد في إناء طعام

يد من قريب أو غريب بقفرة # أتتك بها غبراء ذات قتام [1]

و قال حمّاد عجرد:

حبيش أبو الصلت ذو خبرة # بما يصلح المعدة الفاسدة

تخوّف تخمة أصحابه # فعودهم أكلة واحدة

و قال سويد المراثد:

إني إذا ما الأمر بيّن شكّه # و بدت بصائره لمن يتأمل

و تبرأ الضعفاء من إخوانهم # و ألحّ من حرّ الصميم الكلكل

ادع التي هي أرفق الخلات بي # عند الحفيظة للتي هي أجمل

(1) قتام: غبار.

و مما يكتب في العصا قوله:

قالت إمامة يوم برقة واسط # يا بن الغدير لقد جعلت تغيّر

أصبحت، بعد شبابك الماضي الذي # ذهبت بشاشته و غصنك أخضر

شيخا دعامتك العصا و مشيعا # لا تبتغي خيرا و لا تستخبر

و يضم البيت الأخير إلى قوله:

و هلك الفتى ألا يراح إلى الندى # و ألا يرى شيئا عجيبا فيعجبا

و من يتتبع مني الظلع [1] يلقني # إذا ما رآني أصلع الرأس أشيبا

و قال بعض الحكماء: «أعجب من العجب ترك التعجب من العجب» .

و قيل لشيخ هم: أي شيء تشتهي؟قال: أسمع بالأعاجيب.

و أنشد:

عريض البطان جديب الخوان # قريب المراث من المرتع [2]

فنصف النهار لكرياسه [3] # و نصف لمأكله أجمع

و في العصا قوله:

لعمري لئن حلّئت عن منهل الصبا # لقد كنت ورادا لمشربه العذب [4]

ليالي أغدو بين بردين لاهيا # أميس كغصن البانة الناعم الرطب

سلام على سير القلاص [5] مع الركب # و وصل الغواني و المدامة و الشرب

سلام امرئ لم تبق منه بقية # سوى نظر العينين أو شهوة القلب

---

(1) الظلع: غمز في المشي يشبه العرج.

(2) البطان: الخرام. المراث: موضع الروث. المرتع موضع الرتع.

(3) الكرياس: المزراب، و هو من الكرس أي ما تلبد من البول و البعر.

(4) حلئ: منع الورد.

(5) القلاص: مفردها قلوص و هي الناقة الفتية.

و قال حاجب بن ذبيان لأخيه زرارة:

عجلت مجيء الموت حتى هجرتني # و في القبر هجر يا زرار طويل

و قال الآخر:

أ لم تعلمي عمرتك اللّه أنني # كريم على حين الكرام قليل

و أني لا أخزى إذا قيل مملق [1] # جواد، و أخزى أن يقال بخيل

و ألا يكن عظمي طويلا فأنني # له بالخصال الصالحات وصول

إذا كنت في القوم الطوال فضلتهم # بعارفة [2] حتى يقال طويل

و لا خير في حسن الجسوم و طولها # إذا لم يزن حسن الجسوم عقول

و كائن رأينا من فروع طويلة # تموت إذا لم تحيهن أصول

و لم أر كالمعروف أما مذاقه # فحلو، و أما وجهه فجميل

و قال زيادة بن زيد:

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده # أطال فأملى أم تناهى فأقصرا [3]

و يخبرني عن غائب المرء فعله # كفى الفعل عما غيّب المرء مخبرا

و قال آخر:

أبرّ فما يزداد إلا حماقة # و نوكا و إن كانت كثيرا مخارجه

و قال ابن الرقّاع:

و قصيدة قد بتّ اجمع بينها # حتى أقوّم ميلها و سنادها

نظر المثقّف في كعوب قناته # حتى يقيم ثقافه منآدها [4]

و علمت حتى لست أسأل واحدا # عن حرف واحدة لكي أزدادها

---

(1) أخزى: استحيى. المملق: من أنفق ماله تبذيرا.
(2) العارفة: اليد الكريمة.
(3) تناهى: كف. الاملاء: الامهال و التطويل.

(4) الثقاف: ما تسوى به الرماح. المنآد: المعوج.

و قال بعض الأعراب:

لو لا مسرّة أقوام تصعدني # أو الشماتة من قوم ذوي إحن

ما سرني أن إبلي في مباركها # و إنّ أمرا قضاه اللّه لم يكن

و قال الآخر:

و إني لأهوى ثم لا أتبع الهوى # و أكرم خلاني وفيّ صدود

و في النفس عن بعض التعرض غلظة # و في العين عن بعض البكاء جمود

و قال كثير:

ترى القوم يخفون التبسم عنده # و ينذرهم عور الكلام نذيرها

فلا هاجرات القول يؤثرن عنده # و لا كلمات النصح مقصى مشيرها

و قال المقشعرّ:

يقرّ بعيني أن أرى قصد الفنا # و صرعى رجال في وغى أنا حاضره

و قال الكميت:

أحسن منها ذياد خامسة # في الورد، أو فيلق تجالدها

و قال صالح بن مخراق في كلام له: لو لا أن اللّه قال: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ اَلْقِتَالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ** ، لأنبأتكم أني لا أكرهه.

و قال الآخر:

تركت الركاب لأربابها # و أكرهت نفسي على ابن الصعق

جعلت يديّ وشاحا له # و بعض الفوارس لا يعتنق

قال: و قال عمر بن عبد العزيز يوما في مجلسه: من أم النعمان بن

المنذر؟فقال روح بن الوليد بن عبد الملك: سلمى بنت عقاب. قال: إنه ليقال ذلك، يا حاجب أحسن إذنه.

و قالوا: عشر خصال في عشرة أصناف من الناس أقبح منها في غيرهم:

الضيق في الملوك، و الغدر في الأشراف، و الكذب في القضاة، و الخديعة في العلماء، و الغضب في الأبرار، و الحرص في الأغنياء، و السفه عند الشيوخ، و المرض في الأطباء، و الزهو في الفقراء، و الفخر في القراء.

و أنشد:

و لا تقبلوا عقلا و أموا بغارة # بني عبد شمس بين دومة و الهضب

و هزوا صدور المشرفيّ كأنما # يقعن بهام القوم في حنظل رطب

و يضم إلى بيت الكميت و بيت المقشعر قول الحكمي:

أحسن عندي من انكبابك بالفهــ # هر ملحا به على وتد

وقوف ريحانة على أذن # و سير كأس إلى فم بيد

و في باب غير هذا يقول حسان بن ثابت:

ما أبالي أ نبّ بالحزن تيس # أم لحاني بظهر غيب لئيم

و أنشد:

خبّرت أن طويلبا يغتابنا # بعضيهة يتنحّل الأقوالا

ما ضرّ سادة نهشل أهجاهم # أم قام في عرض الخويّ فبالا

و قال الفرزدق في هذا المعنى:

ما ضرّ تغلب وائل أ هجوتها # أم بلت حيث تناطح البحران

و قال الآخر في هذا المعنى:

ما يضير البحر أمسى زاخرا # أن رمى فيه غلام بحجر

و مما يزاد في ذكر باب العصا قول جرير بن الخطفي:

و يقضى الأمر حين تغيب تيم # و لا يستأمرون و هم شهود

و قد سلبت عصاك بنو تميم # فما تدري بأيّ عصا تذود

و قال الحسن بن عرفطة بن نضلة (1) :

ليهنيك بغض في الصديق و ظنّة # و تحديثك الشيء الذي أنت كاذبه

و أنك مهداء الخنا نطف النثا # شديد السّباب رافع الصوت غالبه

و إنك مشنوء إلى كلّ صاحب # بلاك، و مثل الشر يكره جانبه

و لم أر مثل الجهل أدنى إلى الردى # و لا مثل بغض الناس غمّض صاحبه

و قال قتادة بن خرجة الثعلبي، من بني عجب:

خليلي يوم السّلسلين لو أنني # بهبر اللّوى أنكرت ما قلتما ليا (2)

و لكنني لم أنس ما قال صاحبي # نصيبك من ذل إذا كنت نائيا

و قال خالد بن نضلة (3) :

إذا كنت في قوم عدى لست منهم # فكل ما علفت من خبيث و طيّب

و قال أحمد بن يوسف، و كان يتعشّق يحيى بن سعيد بن حمّاد:

إن يحيى بن سعيد # يشتهي أن أشتهيه

فهو يلقاني بتوريـــ # م و أحيانا بتيه

---

(1) الحسين بن عرفطة بن نضلة الأسدي، شاعر جاهلي أدرك الاسلام و أسلم و رأى الرسول و روى عنه و قد غير الرسول اسمه إلى حسين بعد أن كان حسيلا ولد الضب.

(2) السلسلين: اسم موضع. الهبر: ما اطمأن من الارض. اللوى: اسم مكان، و منقطع الرمل

(3) خالد بن نضلة الأسدي، فارس مشهور من فرسان أسد، قاد قومه يوم النسار.

و قال أبو سعد دعيّ بني مخزوم، في مهاجاة دعبل:

و لو لا نزار لضاق الفضاء # و لم يبق حرز و لا معقل

و أخرجت الأرض أثقالها # و أدخل في است أمه دعبل

و قال:

حدق الآجال آجال # و الهوى للمرء قتّال

و الهوى صعب مراكبه # و ركوب الصعب أهوال

ليس من شكلي فأشتمه # دعبل، و الناس أشكال

همتي في التاج ألبسه # و له في الشعر آمال

و قال:

هذا اللبابي يحوي # جوائز الخلفاء

ففي حر أم مديحي # و في حر أم هجائي

و في حر أمي و إن كنـــ # ـت سيد الشعراء

و قال محمد بن يسير:

في حر أم الناس كلهم # و أنا في ذا من أولهم

لست تدري حين تخبرهم # أين أدناهم من أفضلهم

و قال:

إذا ما جاوز الندماء خمسا # برب البيت و الساقي اللبيب

فأير في حر أمّ فتى دعانا # و أير في حر أمّ فتى مجيب

و قال سلم الخاسر (1) :

بهارون قرّ الملك في مستقرّه # و أبهجت الدنيا و أشرق نورها

و ليس لأيام المكارم غاية # تتمّ بها إلا و أنت أميرها

(1) سلم بن عمرو مولى بني تيم بن مرة. شاعر عباسي بصري قدم بغداد و مدح الهادي و المهدي و الرشيد و البرامكة. و تتلمذ على بشار بن برد و روى له. و سمي بالخاسر لأنه باع طنبورا بمصحف.

و قال بشار بن برد:

من فتاة صبّ الجمال عليها # في حديث كلذة النشوان

ثم فارقت ذاك غير ذميم # كلّ عيش الدنيا و إن طال فان

و قال مزاحم العقيليّ:

يزين سنا الماويّ كلّ عشية # على غفلات الزين و المتجمّل

وجوه لو أن المدلجين اعتشوا بها # صدعن الدجى حتى ترى الليل ينجلي

و قال المسعودي:

إن الكرام مناهبو # ك المجد كلهم فناهب

أخلف و أتلف كلّ شي # ء زعزعته الريح ذاهب

و قال شيخ من الأطباء: الحمد للّه، فلان يزاحمنا في الطب و لم يختلف إلى البيمارستانات تمام خمسين سنة.

و حدثني محمد بن عبد الملك–صديق لي–قال: سمعت رجلا من فرسان طبرستان يقول: فلان يدعي الفروسية، و لو كلف أن يخلي فروج فرسه (1) منحدرا لما قدر عليه.

و قال بعض العبيد:

أ يبعثني في الشاء و ابن مويلك # على هجمة قد لوحتها الطبائخ (2)

متى كان حمران الشّبابيّ راعيا # و قد راعه بالدوّ أسود سالخ

---

(1) فروج الفرس: ما بين قوائمه.

(2) الطبائخ جمع طبيخة: سموم الهاجرة.

و قال كثيّر في عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه:

تكلمت بالحق المبين و إنما # تبيّن آيات الهدى بالتكلم

ألا إنما يكفي القنا بعد زيغه # من الأود الباقي ثقاف المقوّم (1)

الأصمعي قال: قال يونس بن عبد الأعلى (2) : لا يزال الناس بخير ما داموا إذا تخلّج في صدر الرجل شيء وجد من يفرج عنه.

و قال البعيث، في ابراهيم بن عربي:

ترى منبر العبد اللئيم كأنما # ثلاثة غربان عليه وقوع

و قال الأعشى:

ربّ رفد هرقته ذلك اليو # م و أسرى من معشر أقيال

و قالوا: «لا وكس و لا شطط» .

و قال الشاعر (3) :

و مدجج كره الكماة نزاله # لا ممعن هربا و لا مستسلم

و قال زهير:

دون السماء و فوق الأرض قدرهما # عند الذنابي فلا فوت و لا درك

و قالوا: «خير الأمور أوساطها، و شر السير الحقحقة» .

قال: و المثل السائر، و الصواب المستعمل: «لا تكن حلوا فتزدرد، و لا مرا فتلفظ» .

---

(1) الزيغ: الميل و كذلك الأود. الثقاف: ما يقوم به الرمح.
(2) يونس بن عبد الأعلى، إمام في القراءات، قرأ عليه ابن جرير الطبري توفي سنة 170 هـ.
(3) هو عنترة بن شداد العبسي، الشاعر الجاهلي و الفارس الشهير، و البيت مأخوذ من المعلقة

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا لين في غير ضعف، و شدة في غير عنف» .

و كان الحجّاج يجاوز العنف إلى الخرق، و كان كما وصف نفسه، فإنه قال: «أنا حديد حقود، و ذو قسوة حسود» .

و ذكره آخر فقال: كان شرا من صبي.

و قال أكثم بن صيفي (1) : تناءوا في الديار، و تواصلوا في المزار.

و كان ناشئ المشهور يقول: اللهم باعد بين نسائنا، و قارب بين رعائنا و اجعل الأموال في سمحائنا.

و قال آخر:

شتى مراجلهم فوضى نساؤهم # و كلهم لأبيه ضيزن سلف

و قال الآخر: ترك الوطن أحد السباءين (2) .

و قالوا: من أجدب انتجع.

و قال آخر: من أمل أمرا هابه، و من قصر عن شيء عابه.

و قال الآخر:

رجعنا سالمين كما بدأنا # و ما خابت غنيمة سالمينا

و قال إمرؤ القيس بن حجر:

لقد نقّبت في الآفاق حتى # رضيت من الغنيمة بالإياب

---

(1) أكثم بن صيفي التميمي أحد حكماء العرب في الجاهلية، عند ما بلغه خبر الرسول ركب بعيره قاصدا إليه فمات في الطريق.

(2) السباءان هما: السبي و الأسر.

و قيل لابن عباس: أيما أحب إليك، رجل يكثر من الحسنات و يكثر من السيئات، أو رجل يقل من الحسنات و السيئات؟قال: ما أعدل بالسلامة شيئا! و قالت أعرابية:

فلا تحمدوني في الزيارة إنني # أزوركم إلا أجد متعلّلا

يعقوب بن داود قال: ذم رجل الأشتر فقال له رجل من النّخع: اسكت فإن حياته هزمت أهل الشام، و موته هزم أهل العراق.

أبو الحسن قال: أرسلت الخيل أيام بشر بن مروان، فسبق فرس عبد الملك بن بشر، فقال له اسماعيل بن الأشعث: و اللّه لأرسلن غدا مع فرسك فرسا لا يعرف أن أباك أمير العراق! فجاء فرس اسماعيل سابقا، فقال: أ لم أعلمك؟! و قال أبو العتاهية:

أيا من لي بأنسك يا أخيّا # و من لي أن أبثّك ما لديّا

كفى حزنا بدفنك ثم أني # نفضت تراب قبرك عن يديا

طوتك خطوب دهرك بعد نشر # كذاك خطوبه نشر وطيا

فلو نشرت قواك لي المنايا # شكوت إليك ما صنعت إليا

بكيتك يا أخيّ بدرّ عيني # فلم يغن البكاء عليك شيا

و كانت في حياتك لي عظات # و أنت اليوم أوعظ منك حيا

و قال الآخر:

أبعد الذي بالعنف نعف كويكب # رهينة رمس بين ترب و جندل

أذكّر بالبقيا على من أصابني # و بقياي أني جاهد غير مؤتل

يقول: هذه بقياي.

قال: قيل لشريك بن عبد اللّه: كان معاوية حليما. قال: لو كان حليما ما سفه الحق، و لا قاتل عليا. و لو كان حليما ما حمل أبناء العبيد على حرمه، و لما أنكح إلا الأكفاء.

و أصوب من هذا قول الآخر، قال: كان معاوية يتعرض و يحلم إذا أسمع. و من تعرض للسفيه فهو سفيه.

و قال الآخر: كان يحب أن يظهر حلمه و قد كان طار اسمه بذلك، فكان يحب أن يزداد في ذلك.

و قال الفرزدق:

و كان يجير الناس من سيف مالك # فأصبح يبغي نفسه من يجيرها

و كان كعنز السوء قامت بظلفها # إلى مدية تحت التراب تثيرها

و قال التّوت اليمانيّ:

على أي باب أطلب الأذن بعد ما # حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه

و هذا مثل قوله:

و السبب المانع حظّ العاقل # هو الذي سبّب رزق الجاهل

و مثله:

و ربّت حزم كان للسقم علّة # و علة برء الداء حظ المغفّل

و قال آخر:

يخيب الفتى من حيث يرزق غيره # و يعطى الفتى من حيث يحرم صاحبه

و قال عثمان بن الحويرث، لعمرو بن العاصي:

له أبوان فهو يدعى إليهما # و شر العباد من له أبوان

و قد حكما فيه لتصدق امه # و كان لها علم به ببيان

فقالت: صراح، و هي تعلم غيره # و لكنها تهذي بغير لسان

و قال الآخر (1) :

يطلبن بالقوم حاجات تضمّنها # بدر بكل لسان يلبس المدحا

كأن فيض يديه قبل مسألة # باب السماء إذا ما بالحيا انفتحا

وكّلت بالدهر عينا غير غافلة # من جود كفك تأسو كلّ ما جرحا

و مثله:

إذا افتقر المنهال لم ير فقره # و إن أيسر المنهال أيسر صاحبه

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: من أفضل العبادة الصمت، و انتظار الفرج.

و قال يزيد بن المهلّب، و كان في سجن الحجاج: لهفي على طليّة بمائة ألف، و فرج في جبهة أسد. و أنشد:

ربما تجزع النفوس من الأمـــ # ر له فرجة كحلّ العقال

و أنشد:

كرهت و كان الخير فيما كرهته # و أحببت أمرا كان فيه شبا القتل (2)

مثل قول اللّه تبارك و تعالى: **وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ** .

و كان يقال: خذ مقتصد العراق، و مجتهد الحجاز.

---

(1) هو ابو نواس، الشاعر العباسي، عاصر الرشيد و مدحه و اشتهر بخمرياته و مجونه و نزعته الشعوبية.

(2) الشبا: حد الشيء.

و قال الآخر:

لكل كريم من ألائم قومه # على كل حال حاسدون و كشّح

و قال جرير:

إني لآمل منك خيرا عاجلا # و النفس مولعة بحب العاجل

و قال اللّه تبارك و تعالى: **قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** .

و قال ابن هرمة:

أشمّ من الذين بهم قريش # تداوي بينها غبن القبيل

كأنّ تلألؤ المعروف فيه # شعاع الشمس في السيف الصقيل

و قال امرؤ القيس:

أجارتنا إن المزار قريب # و إني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان هاهنا # و كل غريب للغريب نسيب

و قال بشار:

و إذا اغتربت فلا تكن جشعا # تسمو لغثّ الكسب تكسبه

و قال حسان بن ثابت:

أهدى لهم مدحي قلب يؤازره # فيما أحبّ لسان حائك صنع

و قال الأصمعي: أنشدنا أبو مهدية:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به # يقطّع الليل تسبيحا و قرآنا

و قال الخزرجي، يرد على أبي قيس بن الأسلت، و اسمه صيفيّ:

أ تفخر صيفيّ فيما تقو # ل أن نلتم غيلة أربعة

عرانين كلهم ماجد

كثير الدسائع و المنفعة [1] # فهلا حضرت غداة البقيــ

ع لما استمات أبو صعصعه [2] # و لكن كرهت شهود الوغى

و كنتم كذلك في المعمعة # سراعا إلى القتل في خفية

بطاء عن القتل في المجمعة

و أنشد الأصمعي:

آتي النّديّ فلا يقرّب مجلسي # و أقود للشرف الرفيع حماريا

و قال حبيب بن أوس:

كالخوط في القد و الغزالة في البهــ # جة و ابن الغزال في غيده [3]

و ما حكاه، و لا نعيم له # في جيده بل حكاه في جيده

إلى المفدّى أبي يزيد الذي # يضلّ غمر الملوك في ثمده [4]

ظل عفاة يحب زائره # حب الكبير الصغير من ولده [5]

إذا أناخوا ببابه أخذوا # حكمهم من لسانه و يده

و قال أيضا:

لعمرك ما كانوا ثلاثة أخوة # و لكنهم كانوا ثلاث قبائل

من خطباء الخوارجو علمائهم

قطريّ بن الفجاءة أحد بني كابية بن حرقوص، و كنيته أبو نعامة في الحرب، و في السلم أبو محمد. و هو أحد رؤساء الأزارقة. و كان خطيبا فارسا، خرج زمن مصعب بن لزبير، و بقي عشرين سنة. و كان يدين

---

(1) عرانين: سادة، أشراف. الدسائع: العطايا.
(2) البقيع: مقبرة أهل المدينة.
(3) الخوط: الغصن الناعم.

(4) الغمر: الماء الكثير. الثمد: القليل.
(5) العفاة: الطلاب.

بالاستعراض و السباء، و قتل الأطفال. و كان آخر من بعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبي و قتله سورة بن أبجر الدارمي، من بني أبان بن دارم.

و من خطباء الخوارج و شعرائهم و علمائهم:

حبيب بن خدرة، عداده في بني شيبان، و هو مولى لبني هلال بن عامر و من علمائهم و خطبائهم و أئمتهم:

الضحاك بن قيس، أحد بني عمرو بن محلّم بن ذهل بن شيبان، و يكنى أبا سعيد. ملك العراق، و صلى خلفه عبد اللّه بن عمرو بن عبد العزيز، و عبد الواحد بن سليمان. و قال شاعرهم:

أ لم تر أن اللّه أظهر دينه # و صلّت قريش خلف بكر بن وائل

و من علمائهم و خطبائهم: نصر بن ملحان، و كان الضحاك ولاه الصلاة بالناس، و القضاء بينهم.

و من علمائهم و خطبائهم: مليل، و أصفر بن عبد الرحمن، و أبو عبيدة كورين و اسمه مسلم، و هو مولى لعروة بن أذينة.

و من علمائهم و خطبائهم و شعرائهم و قعدهم و أهل الفقه: عمران بن حطّان و يكنى أبا شهاب، أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة.

و من الخوارج من بني ضبة ثم أحد بني صبّاح: القاسم بن عبد الرحمن ابن صديقة. و كان ناسبا عالما داهيا، و كان يشوب ذلك ببعض الظرف.

و من علمائهم و نسابهم و أهل اللّسن منهم: الجون بن كلاب، و هو من أصحاب الضحاك.

و من رجالهم و أهل النجدة و البيان منهم: خراشة، و كان ركّاضا، و لم يكن اعتقد.

أخبرني أبو عبيدة قال: كان مسمار مستخفيا بالبصرة، فتخلصت إليه

فأخبرني أنه الذي طعن مالك بن علي في فيه، و ذلك أنه فتح فاه يقول: أنا أبو علي!فشحا بها فاه (1) ، فطعنته في جوف فمه.

و من شعرائهم عتبان بن وصيلة الشيباني، و هو الذي يقول:

و لا صلح ما دامت منابر أرضنا # يقوم عليها من ثقيف خطيب

رأي في الخلفاء الراشدين

و عن عيسى بن طلحة قال:

قلت لابن عباس: أخبرني عن أبي بكر. قال: كان خيرا كله، على الحدة و شدة الغضب.

قال: قلت: أخبرني عن عمر. قال: كان كالطائر الحذر قد علم أنه قد نصب له في كل وجه حبالة، و كان يعمل لكل يوم بما فيه، على عنف السباق.

قال: قلت: أخبرني عن عثمان. قال: كان و اللّه صوّاما قوّاما، لم يخدعه نومه عن يقظته.

قال: قلت: فصاحبكم؟قال: كان و اللّه مملوءا حلما و علما، غرته سابقته و قرابته، و كان يرى أنه لا يطلب شيئا إلا قدر عليه. قلت: أ كنتم ترونه محدودا. قال: أنتم تقولون ذاك.

من الأدب الحكمي:

قال معاوية: ما رأيت سرفا قطّ إلا و الى جنبه حقّ مضيّع.

و قال عثمان بن أبي العاص: الناكح مغترس، فلينظر امرؤ أين يضع غرسه.

---

(1) شحا فاه: فتحه

و قالت هند بنت عتبة: المرأة غلّ، و لا بد للعنق منه، فانظر من تضعه في عنقك.

و قال ابن المقفع: الدّين رقّ فانظر عند من تضع نفسك.

و قال عمرو بن مسعدة، أو ثابت أبو عباد: لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك و جاهك أكثر من امتاعه لك بشكر لسانه، و فوائد علمه. و من كانت غايته الاحتيال على مالك، و إطراءك في وجهك فإن هذا لا يكون إلا رديّ الغيب، سريعا إلى الذم.

أدعية الصالحين و الأعراب و الملهوفين و النساك

قد قلنا في صدر هذا الجزء الثالث في ذكر العصا و وجوه تصرّفها.

و ذكرنا من مقطّعات كلام النساك، و من قصار مواعظ الزهّاد، و غير ذلك مما يجوز في نوادر المعاني و قصار الخطب.

و نحن ذاكرون، على اسم اللّه و عونه، صدرا من دعاء الصالحين و السلف المتقدمين، و من دعاء الأعراب، فقد أجمعوا على استحسان ذلك و استجادته، و بعض دعاء الملهوفين، و النساك المتبتلين.

و قال اللّه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم: **قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لاَ دُعَاؤُكُمْ** . و قال **اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** . و قال: **يَدْعُونَنَا رَغَباً وَ رَهَباً** . و قال:

وَ اَلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

قالوا: كان عمرو بن معاوية العقيلي يقول: اللهم قني عثرات الكرام و الكلام.

و قال أعرابيّ لرجل سأله: جعل اللّه الخير عليك دليلا، و لا جعل حظّ السائل منك عذرة صادقة.

و قال بعض كرام الأعراب ممن يقرض الشعر و يؤثر الشكر:

لعل مفيدات الزمان يفدنني # بني صامت في غير شيء يضيرها

قال شيخ أعرابي: اللهم لا تنزلني ماء سوء، فأكون امرأ سوء.

قال: و سمعت عمر بن هبيرة يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من صديق يطري، و جليس يغري، و عدو يسري.

قال: و كتب ابن سيابة إلى صديق له، أما مستقرضا و أما مستفرضا، فذكر صديقه خلة شديدة، و كثرة عيال، و تعذر الأمور عليه، فكتب إليه ابن سيابة:

«إن كنت كاذبا فجعلك اللّه صادقا، و إن كنت مليما فجعلك اللّه معذورا» .

و قال الأصمعي: سمعت أعرابيا يقول: أعوذ بك من الفواقر و البواقر (1)

و من جار السّوء في دار المقامة و الظعن، و ما ينكّس برأس المرء و يغري به لئام الناس.

قال الأصمعي: قيل لخالد بن نضلة: قال عبد يغوث بن وقاص ما أذم، ما فيها إلا عطنى (2) ، ليس خالد بن نضلة. يعني مضر. قال خالد: اللهم إن كان كاذبا فاقتله على يد الأم حي في مضر!فقتلته تيم الرّباب.

قالوا: وقف سائل من الأعراب على الحسن فقال: رحم اللّه عبدا أعطى من سعة، و آسى من كفاف، و آثر من قلة.

و قال: في الأثر المعروف: «حصنوا أموالكم بالزكاة، و ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء» .

و من دعائهم: أعوذ بك من بطر الغنى، و ذلة الفقر.

قال: و من دعاء السلف: اللهم أحملنا من الرّجلة، و اغننا من العيلة (3)

---

(1) الفواقر و البواقر: مفردهما فاقرة و باقرة: داهية.
(2) عطنى جمع عطين و هو الرجل المنتن الإهاب.
(3) الرجلة: السفر مشيا على الأقدام.

و سأل أعرابي فقيل له: بورك فيك!فتوالى ذلك عليه من غير مكان، فقال: و كلكم اللّه إلى دعوة لا تحضرها نية.

و قال أعرابي: أعوذ بك من سقم و عدواه، و ذي رحم و دعواه، و من فاجر و جدواه، و من عمل لا ترضاه.

و سأل أعرابي فقال له صبي من جوف الدار: بورك فيك!فقال: قبّح اللّه هذا الفم، لقد تعود الشر صغيرا! و هذا السائل هو الذي يقول:

ربّ عجوز عرمس زبون # سريعة الردّ على المسكين [1]

تحسب أن «بوركا» يكفيني # إذا غدوت باسطا يميني

و قال آخر: اللهم أعني على الموت و كربته، و على القبر و غمّته، و على الميزان و خفته، و على الصراط و زلته، و على يوم القيامة و روعته.

و قالت عجوز و بلغها موت الحجّاج: اللهم إنك امته فأمت سنته.

قال: و كان محمد بن علي بن الحسين بن علي يقول: اللهم أعني على الدنيا بالغنى، و على الآخرة بالتقوى.

و قال عمرو بن عبيد: اللهم أغنني بالافتقار إليك، و لا تفقرني بالاستغناء عنك.

و قال عمرو: اللهم أعني على الدنيا بالقناعة، و على الدين بالعصمة.

قال: و مرض عوف بن أبي جميلة، فعاده قوم فجعلوا يثنون عليه، فقال: دعونا من الثناء، و أمدونا بالدعاء.

---

(1) العرمس: الشديدة. الزبون: متدانعة.

قال: و سمعت عمر بن هبيرة يقول: اللهم إني أعوذ بك من طول الغفلة و إفراط الفطنة. اللهم لا تجعل قولي فوق عملي، و لا تجعل أسوأ عملي ما قارب أجلي.

و قال أبو مرجح: اللهم اجعل خير عملي ما ولي أجلي.

قال: ودعت أعرابية لرجل فقالت: كبت (1) اللّه كل عدو لك، إلا نفسك.

و قال يزيد بن جبل: أحرس أخاك إلا من نفسه.

قال: و دعا أعرابي فقال: اللهم هب لي حقك، و ارض عني خلقك.

قال: و كان قوم نساك في سفينة في البحر، فهاجت الريح بأمر هائل، فقال رجل منهم: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك و رحمتك.

قال: و سمع مطرف بن عبد اللّه رجلا يقول: استغفر اللّه و أتوب إليه! فأخذ بذراعه و قال: لعلك لا تفعل!من وعد فقد أوجب.

و قال رجل لابن قثم: كيف أصبحت؟قال: إن كان من رأيك أن تسد خلّتي، و تقضي ديني، و تكسو عربي خبرتك، و إلا فليس المجيب بأعجب من السائل.

و قال آخر: اللهم امتعنا بخيارنا، و اعنا على شرارنا، و اجعل الأموال في سمحائنا.

و قال أعرابي: اللهم إنك قد أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا أنفسنا فاعف عنا.

و قال أعرابي و رأى إبل رجل قد كثرت بعد قلة، فقيل له: إنه قد زوج أمه فجاءته بنافجة (2) ، فقال: اللهم إنا نعوذ بك من بعض الرزق.

---

(1) كبت: صرع، أخزى، أذل.
(2) نافجة: عدد كبير من الابل.

أبو مجيب الربعي قال: قال أعرابي: جنبك اللّه الأمرّين، و كفاك شر الأجوفين.

الأجوفان: البطن و الفرج. و الأمران: الجوع و العري.

و جاء في الحديث: «من وقي شر قبقبه و ذبذبه و لقلقه فقد وقي الشر كله» (1) .

و قال أعرابي: منحكم اللّه منحة ليست بجدّاء و لا نكداء (2) ، و لا ذات داء.

قال: قيل لإبراهيم المحلّمي: أي رجل أنت لو لا حدة فيك!قال:

استغفر اللّه مما أملك، و استصلحه ما لا أملك.

و قال أعرابي و مات ابن له: اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برّي، فهب له ما قصر فيه من طاعتك.

الفضل بن تميم قال: قال أبو حازم: لأنا من أن أمنع الدعاء أخوف مني من أن أمنع الإجابة.

قال: و لما صاف قتيبة بن مسلم الترك و هاله أمرهم سأل عن محمد بن واسع، و قال: أنظروا ما يصنع؟فقالوا: ما هو ذاك في أقصى الميمنة جانحا على سية قوسه، ينضنض (3) باصبعه نحو السماء. قال قتيبة: تلك الأصبع الفاردة أحب إلي من مائة ألف سيف شهير، و سنان طرير (4) .

و قال سعيد بن المسيب، و مر به صلة بن أشيم: يا أبا الصهباء، أدع اللّه لي بدعوات. قال: زهدك اللّه في الفاني، و رغّبك في الباقي، و وهب لك يقينا تسكن إليه.

---

(1) القبقب: البطن. الذبذب: الذكر. اللقلق: اللسان.
(2) جداء قليلة اللبن. نكداء: قليلة اللبن أيضا.
(3) ينضنض: يحرك.
(4) الفاردة: المتنحية. الطرير: المحدد.

أبو الدرداء قال: إن أبغض الناس إليّ أن أظلمه من لم يستعن علي إلا باللّه.

و قال خالد بن صفوان: احذروا مجانيق الضعفاء!يعني الدعاء.

و قال لا يستجاب إلا لمخلص أو مظلوم.

قال: و كان علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه يقول: اللهم إن ذنوبي لا تضرك، و إن رحمتك إياي لا تنقصك، فاغفر لي ما لا يضرك، و اعطني ما لا ينقصك.

و قال أعرابي: اللهم إنك حبست عنا قطر السماء، فذاب الشحم، و ذهب اللحم، ورق العظم، فارحم أنين الآنة، و حنين الحانة. اللهم أرحم تحيرها في مراتعها، و أنينها في مرابضها.

قال: و حجت أعرابية فلما صارت بالموقف قالت: أسألك الصحبة، يا كريم الصحبة، و أسألك سترك الذي لا تزيله الرياح، و لا تخرقه الرماح.

و قيل لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: كم بين الأرض و السماء؟ قال: دعوة مستجابة. قالوا: كم بين المشرق إلى المغرب؟قال: مسيرة يوم للشمس، و من قال غير هذا فقد كذب.

قال: و حج أعرابي فقال: اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، و إن كان في الأرض فأخرجه، و إن كان نائيا فقربه، و إن كان قريبا فيسّره.

أبو عثمان البقطريّ، عن عبد اللّه بن مسلم الفهري قال: لما ولي مسروق (1) السلسلة انبرى له شاب فقال له: و قال اللّه خشية الفقر و طول الأمل، حتى لا تكون دريّة للسفهاء، و لا شينا على الفقهاء.

و قال أعرابي في دعائه: اللهم لا تخيّبني و أنا أرجوك، و لا تعذبني و أنا أدعوك. اللهم فقد دعوتك كما أمرتني، فأجبني كما وعدتني.

(1) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني، محدث كوفي متعبد، ولاه زياد على السلسلة و مات سنة 63 هـ.

و قال عبد اللّه بن المبارك: قالت عائشة: يا بني لا تطلبوا ما عند اللّه من عند غير اللّه مما يسخط اللّه.

قال: و قال رجل من النساك: إن ابتليت أن تدخل مع ناس على السلطان فإذا أخذوا في الثناء فعليك بالدعاء.

و كان الفضل بن الربيع يقول: مسألة الملوك عن حالهم من تحية النوكى و تقرّب الحمقى، عليكم بأوجز الدعاء.

و قال الكذاب الحرمازي (1) :

لا همّ إن كانت بنو عميره # رهط التلبّ دعوة مستوره

قد أجمعوا لحلفة مصبوره # و أجمعوا كأنهم قارورة (2)

في غنم وابل كثيره # فابعث عليهم سنة قاشورة (3)

تحتلق المال احتلاق النّوره (4)

و قال أعرابي:

لا همّ أنت الرب تستغاث # لك الحياة و لك الميراث

و قد دعاك الناس فاستغاثوا # غياثهم و عندك الغياث

و لم يكن سيبك يستراث (5) # لم يبق إلا عكرش انكاث (6)

وشيجة أصولها مثّاث # و طاحت الألبان و الأرماث (7)

---

(1) هو عبد اللّه بن الأعور الحرمازي التميمي، و الكذاب لقب له.
(2) الحلفة المصبورة: التي أخذت عنوة.
(3) قاشورة: مجدبة.
(4) تحتلق: تذهب بالشيء، النورة: حجر يضع منه الكلس و يكوى به.
(5) السيب: العطاء. يستراث: يستبطأ.
(6) عكرش: نبات خشن فيه شوك. أنكاث: متفرقة.
(7) أرماث: مفردها رمث: مرعى الابل.

و كان سعد بن أبي وقاص يسمى: «المستجاب الدعوة» .

و قال لعمر حين شاطره ماله: لقد هممت. فقال له عمر: لتدعو اللّه علي؟قال: نعم. قال: إذن لا تجدني بدعاء ربي شقيا.

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كم من ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على اللّه لابره (1) » . منهم البراء بن مالك. و اجتمع الناس إليه و قد دهمهم العدو، فأقسم على اللّه، فمنحهم اللّه أكتافهم.

الأصمعي و أبو الحسن قالا: أخبرنا ابراهيم بن حبيب بن الشهيد، عن أبيه، أو عن غيره، قال:

بلغ سعدا شيء فعله المهلّب في العدو، و المهلب يومئذ فتى، فقال سعد: «اللهم لا تره ذلا» . فيرون أن الذي ناله المهلب بتلك الدعوة.

و قال الآخر:

الموت خير من ركوب العار # و العار خير من دخول النار

و اللّه من هذا و هذا جاري

قالها الحسن بن علي رضي اللّه عنهما.

و قال الآخر، و كان قد وقع في الناس وباء جارف، و موت ذريع، فهرب على حماره، فلما كان في بعض الطريق ضرب وجه حماره إلى حيّه و قال:

لن يسبق اللّه على حمار # و لا على ذي ميعة مطار

أو يأتي الحتف على مقدار # قد يصبح اللّه أمام الساري

(1) ابره: أجاب دعوته.

قال: سمع مجاشع الرّبعيّ رجلا يقول: الشحيح اعذر من الظالم!فقال إن شيئين خيرهما الشح لناهيك بهما شرا.

قال المغيرة بن عيينة: سمع عمر بن الخطاب رحمه اللّه رجلا يقول في دعائه: اللهم اجعلني من الأقلين!قال عمر: ما هذا الدعاء؟قال: سمعت اللّه يقول: وَ قَلِيلٌ مَا هُمْ ، و سمعته يقول: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ اَلشَّكُورُ .

فقال عمر: عليك من الدعاء بما يعرف.

و قال ناس من الصحابة لعمر: ما بال الناس كانوا إذا ظلموا في الجاهلية فدعوا استجيب لهم و نحن لا يستجاب لنا و إن كنا مظلومين؟قال: كانوا و لا مزاجر لهم إلا ذاك، فلما أنزل اللّه عز و جلّ الوعد و الوعيد، و الحدود، و القود و القصاص، و كلهم إلى ذلك.

و قال عمر بن الخطاب: إن في يوم كذا و كذا من شهر كذا لساعة لا يدعو اللّه فيها أحد إلا استجيب له.

فقال له قائل: أ رأيت أن دعا فيها منافق؟قال: فإن المنافق لن يوفق لتلك الساعة.

و لما صعد المنبر قابضا على يد العباس يوم الاستسقاء، و لم يزد على الدعاء و الاستغفار فقيل له: إنك لم تستسق و إنما كنت تستغفر. قال: «قد استسقيت بمجاديح (1) السماء» . ذهب إلى قوله: اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ اَلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً .

و كان عمر حمل الهرمزان مع جماعة في البحر فغرقوا. قال ابن سيرين:

لو كان دعا عليهم بالهلاك لهلكوا.

قال: و قال محمد بن علي لابنه: يا بني إذا أنعم اللّه عليك نعمة فقل:

---

(1) مجاديح: مفردها مجدح: نجم تزعم العرب أنه يمطر.

الحمد للّه. و إذا حزبك (1) أمر فقل: لا حول و لا قوة إلا باللّه. و إذا أبطأ عنك رزق فقل: استغفر اللّه.

قالوا: كان محمد بن علي لا يسمع المبتلى لاستعادة من البلاء.

قال: و قال قوم ليزيد بن أسد: أطال اللّه بقاءك!قال: دعوني أمت وفيّ بقية تبكون بها علي.

و رأى سالم بن عبد اللّه سائلا يسأل يوم عرفة فقال: يا عاجز، في هذا اليوم تسأل غير اللّه؟! قال: و كان رجل من الحكماء يقول في دعائه: اللهم احفظني من الصديق.

و كان آخر يقول: اللهم اكفني بوائق (2) الثقاب.

و حدثني صديق لي كان قد ولي ضياع الري قال: قرأت على باب شيخ منهم: «جزى اللّه من لا نعرف و لا يعرفنا أحسن الجزاء، و لا جزى من نعرف و يعرفنا إلا ما هو أهله، إنه عدل لا يجور» .

و كان على رشوم (3) عمر بن مهران التي كان يرشم بها على الطعام:

«اللهم احفظه ممن يحفظه» .

و قال المغيرة بن شعبة في كلام له: إن المعرفة لتنفع عند الكلب العقور، و الجمل الصور، فكيف بالرجل الكريم.

أبو الحسن قال: قالت امرأة من الأعراب: «اللهم إني أعوذ بك من شر قريش و ثقيف، و ما جمعت من اللفيف، و أعوذ بك من عبد ملك أمره، و من عبد ملأ بطنه» .

---

(1) حزبك: نابك و اشتد عليك.
(2) البوائق: الدواهي و الغوائل.
(3) الرشوم جمع رشم أي الخاتم الذي تختم به السلع.

قال: مر عمر بن عبد العزيز برجل يسبّح بالحصى فإذا بلغ المائة عزل حصاة، فقال له عمر: ألق الحصى و اخلص الدعاء.

و كان عبد الملك بن هلال الهنائي عنده زنبيل ملآن حصى، فكان يسبح بواحدة واحدة، فإذا مل شيئا طرح ثنتين ثنتين، ثم ثلاثا ثلاثا، فإذا مل قبض قبضة و قال: سبحان اللّه بعدد هذا، فإذا مل شيئا قبض قبضتين و قال: سبحان اللّه بعدد هذا، فإذا ضجر أخذ بعروتي الزنبيل و قلبه، و قال: سبحان اللّه بعدد هذا كله، و إذا بكر لحاجة لحظ الزنبيل لحظة و قال: سبحان اللّه عدد ما فيه.

قال غيلان: إذا أردت أن تتعلم الدعاء، فاسمع دعاء الأعراب.

قال سعيد بن المسيب: مر بي صلة بن أشيم، فما تمالكت أن نهضت إليه فقلت: يا أبا الصهباء، أدع اللّه لي. فقال: رغبك اللّه فيما يبقى، و زهدك فيما يفنى، و وهب لك اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه، و لا تعول في الدين إلا عليه.

أبو الحسن قال: سمع رجل بمكة رجلا يدعو لأمه، فقال له: ما بال أبيك؟قال: هو رجل يحتال لنفسه.

أبو الحسن عن عروة بن سليمان العبدي قال: كان عندنا رجل من بني تميم يدعو لأبيه و يدع أمه، فقيل له في ذلك، فقال: إنها كلبية! و رفع أعرابي يده بمكة قبل الناس فقال: اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس! و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يحب الملحين في الدعاء» .

و قال آخر: دعوتان أرجو إحداهما و أخاف الأخرى: دعوة مظلوم اعنته، و دعوة ضعيف ظلمته.

قال: كان من دعاء أبي الدرداء: اللهم امتعنا بخيارنا، و اعنا على شرارنا، و اجعلنا خيارا كلنا، و إذا ذهب الصالحون فلا تبقنا.

و قال آخر لبعض السلاطين: أسألك بالذي أنت بين يديه أذلّ مني بين يديك، و هو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر من برئي أحب إليه من سقمي.

قالوا: و كان مطرّف بن عبد اللّه بن الشّخّير يقول: اللهم إنك أمرتنا بما أمرتنا به و لا نقوى عليه إلا بعونك، و نهيتنا عما نهيتنا و لا ننتهي عنه إلا بعصمتك، واقعة علينا حجتك، غير معذورين فيما بيننا و بينك، و لا مبخوسين فيما عملنا لوجهك.

عبد العزيز بن أبان (1) ، عن سفيان، في قوله: **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ** :

كان أحدهم إذا أراد أن يدعو قال: سبحانك اللهم.

سفيان عن بن جريج، عن عكرمة (2) ، قال في قوله تعالى: **قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا** قال: كان موسى عليه السلام يدعو و هارون يؤمن، فجعلهما اللّه داعيين.

قال: و لما وقع يونس في البحر و قد وكّل به حوت، فلما وقع ابتلعه فأهوى به إلى قرار الأرض، فسمع تسبيح الحصى، فنادى يونس في الظلمات **أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** قال: ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحرِ و ظلمة الليل. و قال اللّه تبارك و تعالى: **فَلَوْ لاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** .

و في الحديث المرفوع، إن من دعاء النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعوذ بك من قلب لا يخشع، و بطن لا يشبع، و دعاء لا يسمع» .

---

(1) عبد العزيز بن ابان بن العاص بن امية، روى عن سفيان الثوري، و ولي قضاء واسط ثم نزل بغداد و توفي سنة 207 هـ. و سفيان الثوري هو المحدث الزاهد الكوفي الكبير عاش بين سنتي 98-161 هـ.

(2) سفيان بن عيينة، و ابن جريج المكي الرومي (150 هـ) ، و عكرمة البربري المدني ثلاث محدثين.

علي بن سليم، أن قيس بن سعد قال: اللهم ارزقني حمدا و مجدا.

فإنه لا حمد إلا بفعال، و لا مجد إلا بمال.

عوف قال: قال رجل في مجلس الحسن: ليهنئك الفارس!قال له الحسن: فلعله حامر (1) . إذا وهب اللّه لرجل ولدا فقل: شكرت الواهب، و بورك لك في الموهوب، و بلغ أشده، و رزقت بره.

*** أبو سلمة الأنصاريّ قال: كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما أحسن تعزية أهل اليمن!و تعزيتهم: لا يحزنكم اللّه و لا يفتنكم، و أثابكم ما أثاب المتقين الشاكرين، و أوجب لكم الصلاة و الرحمة.

قال: و كان أبو بكر-رحمه اللّه-إذا عزّى رجلا قال: ليس مع العزاء مصيبة، و لا مع الجزع فائدة. الموت أشد ما قبله، و أهون ما بعده. أذكروا فقد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تهن عندكم مصيبتكم. صلى اللّه على محمد، و عظم اللّه أجركم.

و كان علي بن أبي طالب-رحمه اللّه-إذا عزى قوما قال: إن تجزعوا فأهل ذلك الرحم، و إن تصبروا ففي ثواب اللّه عوض من كل فائت. و إن أعظم مصيبة أصيب بها المسلمون محمد، صلّى اللّه عليه و سلّم، و عظم أجركم.

و عزى عبد اللّه بن عباس، عمر بن الخطاب رحمهما اللّه: على بني له مات فقال: عوضك اللّه منه ما عوضه منك.

و هذا الصبي الذي مات هو الذي كان عمر بن الخطاب قال فيه: ريحانة أشمها، و عن قريب ولد بارّ، أو عدوّ حاضر.

*** سفيان قال: كان أبو ذر يقول: اللهم أمتعنا بخيارنا، و اعنا على شرارنا.

---

(1) حامر: ذو حمار.

قال: و دعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك من الفقر المدقع، و الذل المضرع.

عزّت امرأة المنصور على ابي العباس، مقدمه مكة فقالت: عظم اللّه أجرك، فلا مصيبة أعظم من مصيبتك، و لا عوض أعظم من خلافتك.

قالوا: و قال عمر بن عبد العزيز، و قد سمعوا وقع الصواعق، و دويّ الريح، و صوت المطر، فقال و قد فزع الناس: هذه رحمته فكيف نقمته! و قال أبو اسحاق: اللهم إن كان عذابا فاصرفه، و إن كان صلاحا فزد فيه، وهب لنا الصبر عند البلاء، و الشكر عند الرخاء. اللهم إن كانت محنة فمنّ علينا بالعصمة، و إن كان عقابا فمنّ علينا بالمغفرة.

قال أبو ذرّ: الحمد للّه الذي جعلنا من أمّة تغفر لهم السيئات، و لا تقبل من غيرهم الحسنات.

و كان الفضل بن الربيع يقول: المسألة للملوك من تحية النوكى. فإذا أردت أن تقول كيف أصبحت؟فقل: صبّحك اللّه بالخير. و إذا أردت أن تقول: كيف تجدك؟فقل: انزل اللّه عليك الشفاء و الرحمة.

قال أحمد الهجيمي أبو عمر، أحد أصحاب عبد الواحد بن زيد:

اللهم يا أجود الأجودين، و يا أكرم الأكرمين، و يا أعفى العافين، و يا أرحم الراحمين، و يا أحكم الحاكمين، و يا أحسن الخالقين، فرج عني فرجا عاجلا تاما، هنيئا مباركا لي فيه، إنك على كل شيء قدير.

و كان عبد اللّه الشّقري، و هو الكعبي أحد أصحاب المضمار، من غلمان عبد الواحد بن زيد–و كنية عبد الواحد أبو عبيدة–يقول:

اللهم إني عبدك و ابن عبدك و ابن أمتك، ناصيتي بيدك. اللهم هب لي يقينا، و أدم لي العافية. و افتح عليّ باب رزقي في عافية. و أعوذ بك من النار و العار، و الكذب و السخف، و الخسف و القذف و الحقد و الغصب. و حببني إلى

خلقك، و حببهم إلي. و أسألك فرجا عاجلا في عافية، إنك على كل شيء قدير.

دعاء الغنوي في حبسه: أعوذ بك من السجن و الدّين، و السّبّ و الضرب، و من الغلّ و القيد، و من التعذيب و التخييس (1) . و أعوذ بك من الحور بعد الكور (2) ، و من شر العدوى في النفس و الأهل و المال. و أعوذ بك من الخوف و الحزن، و أعوذ بك من الهم و الأرق، و من الهرب و الطلب، و من الاستخذاء و الاستخفاء (3) ، و من الإطراد و الإغراب، و من الكذب و العضيهة (4) ، و من السعاية و النميمة، و من لؤم القدرة، و مقام الخزي في الدنيا و الآخرة، إنك على كل شيء قدير.

و من دعائه أيضا: أسألك اللّهم طول العمر في الأمن و العافية، و الحلم و العلم و الحزم، و الأخلاق الحسنة و الأفعال المرضية، و اليسر و التيسير، و النماء و التثمير، و طيب الذكر و حسن الأحدوثة، و المحبة في الخاصة و العامة. وهب لي ثبات الحجة، و التأييد عند المنازعة و المخاصمة، و بارك لي في الموت إنك على كل شيء قدير.

و كان صالح المريّ كثيرا ما يردد في مجلسه:

أعوذ بك من الخسف و المسخ، و الرجفة و الزلزلة، و الصاعقة و الريح المهلكة، و أعوذ بك من جهد البلاء، و من شماتة الأعداء.

---

(1) التخييس: الحبس و الاذلال.
(2) الحور: النقصان. الكور: الزيادة.
(3) الاستخذاء: الخضوع.
(4) العضيهة: الافك و البهتان و النميمة.

و كان يقول: اعوذ بك من التعب و التعذر، و الخيبة و سوء المنقلب.

اللهم من أرادني بخير فيسّر لي خيره، و من أرادني بشرّ فاكفني شره. اللهم إني أسألك خصب الرّحل (1) ، و صلاح الأهل.

و كان عيسى بن أبي المدور يقول:

أعوذ بك من القلة و الذلة، و من الإهانة و المهنة، و الإخفاق و الوحدة.

و أعوذ بك من الحيرة و قلة الحيلة، و أعوذ بك من جهد البلاء، و شماتة الأعداء.

محمد بن عبد اللّه (2) قال: قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: من أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة. قال اللّه: **اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** . و من أعطي الشكر لم يحرم الزيادة، لقوله عز و جل: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** .

و من أعطي الاستغفار لم يحرم القبول، لقوله عز و جل: **وَ اِسْتَغْفِرُوا اَللَّهَ إِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** .

و قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: كونوا أوعية الكتاب، و ينابيع العلم، و سلوا اللّه رزق يوم بيوم.

و روى محمد بن علي عن آبائه، عن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إذا سألتم اللّه فسلوه بباطن الكفين، و إذا استعذتموه فاستعيذوه بظاهرهما» .

و قال آخر: اللهم إني أعوذ بك من بطر الغنى و ذلة الفقر.

---

(1) الرحل: المنزل.

(2) محمد بن عبد اللّه العتبي، أديب و شاعر عباسي له كتاب الخيل و كتاب الاعاريب، و أشعار النساء اللائي أحببن ثم أبغضن، توفي سنة 228 هـ.

أبو سعيد المؤدب، عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة قالت:

«سلوا ربكم حتى الشسع (1) ، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر» .

سحيم، عن طاوس قال: يكفي من الدنيا ما يكفي العجين من الملح.

قال: سأل رجل رجلا حاجة، فقال المسئول: اذهب بسلام. فقال السائل: قد أنصفنا من ردنا إلى اللّه في حوائجنا.

مجالد عن الشعبي قال: قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهم أذهب ملك غسان، وضع مهور كندة» .

قال عمر بن الخطاب: «لكل شيء رأس، و رأس المعروف تعجيله» .

أصل العرب و لغتهم

القول في إنطاق اللّه عز و جل اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام، بالعربية المبينة على غير التلقين و التمرين، و على غير التدريب و التدريج، و كيف صار عربيا أعجميّ الأبوين.

و أول من عليه أن يقرّ بهذا القحطاني، فإنه لا بد من أن يكون له أب كان أول عربي من جميع بني آدم صلّى اللّه عليه و سلّم. و لو لم يكن ذلك كذلك و كان لا يكون عربيا حتى يكون أبوه عربيا و كذلك أبوه و كذلك جده كان ذلك موجبا لأن يكون نوح صلّى اللّه عليه و سلّم عربيا، و كذلك آدم صلّى اللّه عليه و سلّم.

قال أبو عبيدة: حدثنا مسمع بن عبد الملك عن أبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين عن آبائه قال: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة اسماعيل، و هو ابن أربع عشرة سنة.

---

(1) الشسع: من سيور النعل.

و قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «شهدت الفجار (1) و أنا ابن أربع عشرة سنة، و كنت أنبل على عمومتي» . يريد: أجمع لهم النبل.

قال أبو عبيدة: فقال له يونس: صدقت يا أبا يسار هكذا حدثني نصر بن ظريف.

و روى قيس بن الربيع (2) ، عن بعض أشياخه عن ابن عباس: إن اللّه ألهم اسماعيل العربية الهاما.

قال اللّه تبارك و تعالى: **وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** . قال: قد يرسل اللّه الرسول إلى قومه، و لو أرسل في ذلك الوقت إلى قوم آخرين لما كان الثاني ناقضا للأول. فإذا كان الأمر كذلك كان قومه أول من يفهم عنه، ثم يصيرون حجة على غيرهم.

و إذا كان اللّه عز و جل بعث محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم إلى العجم فضلا عن العرب، فقحطان و إن لم يكونوا من قومه أحق بلزوم الفرض من سائر العجم.

و هذا الجواب جواب عوام النزارية. فأما الخواصّ الخلّص فإنهم قالوا:

العرب كلهم شيء واحد، لأن الدار و الجزيرة واحدة، و الأخلاق و الشيم واحدة، و اللغة واحدة، و بينهم من التصاهر و التشابك، و الاتفاق في الأخلاق و في الأعراق، و من جهة الخؤولة المردّدة و العمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة و طباع الهواء و الماء، فهم في ذلك بذلك شيء واحد في الطبيعة و اللغة، و الهمة و الشمائل، و المرعى و الراية، و الصناعة و الشهوة.

فإذا بعث اللّه عز و جل نبيا من العرب فقد بعثه إلى جميع العرب، و كلهم قومه، لأنهم جميعا يد على العجم، و على كل من حاربهم من الأمم، لأن تناكحهم لا يعدوهم، و تصاهرهم مقصور عليهم.

---

(1) هو يوم الفجار الرابع، شهده الرسول، و جرى بين قريش و هوازن و سميت هذه الوقائع الاربع بالفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال.

(2) قيس بن الربيع الأسدي الكوفي، راوية أخذ عن الأعمش و السدي، و عنه أخذ الثوري و وكيع، توفي سنة 168 هـ.

قالوا: و المشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة و العادة، ربما كانت أبلغ و أوغل من المشاكلة من جهة الرّحم. نعم حتى تراه أغلب عليه من أخيه لأمه و أبيه. و ربما كان أشبه به خلقا و خلقا، و أدبا و مذهبا. فيجوز أن يكون اللّه تبارك و تعالى حين حول اسماعيل عربيا أن يكون كما حوّل طبع لسانه إلى لسانهم، و باعده عن لسان العجم، أن يكون أيضا حول سائر غرائزه، و سلخ سائر طبائعه، فنقلها كيف أحب، و ركبها كيف شاء. ثم فضله بعد ذلك بما عطاه من الأخلاق المحمودة، و اللسان البين، بما لم يخصهم به. فكذلك يخصه من تلك الأخلاق و من تلك الأشكال بما يفوقهم و يروقهم. فصار بإطلاق اللسان على غير التلقين و الترتيب. و بما نقل من طباعه و نقل إليه من طبائعهم، و بالزيادة التي أكرمه اللّه بها، أشرف شرفا و أكرم كرما.

و قد علمنا أن الخرس و الأطفال إذا دخلوا الجنة و حوّلوا في مقادير البالغين، و إلى الكمال و التمام، لا يدخلونها إلا مع الفصاحة بلسان أهل الجنة. و لا يكون ذلك إلا على خلاف الترتيب و التدريج و التعليم و التقويم.

و على ذلك المثال كان كلام عيسى بن مريم، صلّى اللّه عليه و سلّم، في المهد، و إنطاق يحيى عليه السلام بالحكمة صبيا.

و كذلك القول في آدم و حواء عليهما السلام. و قد قلنا في ذئب أهبان بن أوس، و غراب نوح، و هدهد سليمان، و كلام النملة، و حمار عزير (1) ، و كذلك كل شيء أنطقه اللّه بقدرته، و سخره لمعرفته.

و إنما يمتنع البالغ من المعارف من قبل أمور تعرض من الحوادث، و أمور في أصل تركيب الغريزة. فإذا كفاهم اللّه تلك الآفات، و حصنهم من تلك

(1) أهبان بن أوس أحد الصحابة، يروى أنه كان يرعى غنمه فعدا ذئب على شاة فصاح به أهبان فقال الذئب: تنزع مني رزقا رزقنيه اللّه. أنظر إن رسول اللّه بين تلك النخلات و اوما إلى المدينة. فغدا أهبان على النبي و أسلم. و وردت أخبار هدهد سليمان و النملة في سورة لنمل و وردت أخبار عزيز في سورة البقرة و قد أحياه اللّه بعد مائة عام من موته.

الموانع، و وفر عليهم الذكاء، و جلب اليهم جياد الخواطر، و صرف أوهامهم إلى التعرف، و حبب إليهم التبين، وقعت المعرفة و تمت النعمة.

و الموانع قد تكون من قبل الأخلاط الأربعة على قدر القلة و الكثرة، و الكثافة و الرقة. و من ذلك ما يكون من جهة سوء العادة، و إهمال النفس، فعند ما يستوحش من الفكرة، و يستثقل النظر. و من ذلك ما يكون من الشواغل العارضة، و القوى المتقسمة. و من ذلك ما يكون من خرق المعلم، و قلة رفق المؤدب، و سوء صبر المثقف. فإذا صفى اللّه ذهنه و نقحه، و هذبه و ثقفه، و فرغ باله، و كفاه انتظار الخواطر، و كان هو المفيد له و القائم عليه، و المريد لهدايته، لم يلبث أن يعلم.

و هذا صحيح في الأوهام، غير مدفوع في العقول.

و قد جعل اللّه الخال أبا. و قالوا: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم» .

و قد رأينا اختلاف صور الحيوان، على قدر اختلاف طبائع الأماكن.

و على قدر ذلك شاهدنا اللغات و الأخلاق و الشهوات. و لذلك قالوا: «فلان ابن بجدتها» ، و «فلان بيضة البلد» ، يقع ذما و يقع حمدا.

و قال زياد: «و اللّه للكوفة أشبه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم» » .

و يقولون: «ما أشبه الليلة بالبارحة» ، كأنهم قالوا: ما أشبه زمان يوسف ابن عمر بزمان الحجاج.

و قال سهل بن عمرو: «أشبه امرأ بعض بزه (1) » .

و قال الأضبط بن قريع: «بكل واد بنو سعد» .

و لو لا أن اللّه عز و جل أفرد إسماعيل من العجم، و أخرجه بجميع معانيه إلى العرب، لكان بنو اسحاق أولى به. و إنما ذلك كرجل قد أحاط علمه بأن

---

(1) البز: الثياب.

هذا الطفل من نجل هذا الرجل، و لكن لما كان من سفاح لم يجز أن يضيفه إليه و يدعوه أباه. و قد جعل اللّه نسب ابن الملاعنة نسب أمه، و إن كان ولد على فراش أبيه.

و قد أرسل اللّه موسى و هارون، إلى فرعون و قومه و إلى جميع القبط، و هما أمتان: كنعاني و قبطي.

و قد جعل اللّه قوم كل نبي هم المبلغين و الحجة. أ لا ترى أنا نزعم أن عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزة.

و قد قال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «خصصت بأمور: منها أني بعثت إلى الأحمر و الأسود، و أحلّت لي الغنائم، و جعلت لي الأرض طهورا» . فدل بذلك على أن غيره من الرسل إنما كان يرسل إلى الخاص. و ليس يجوز لمن عرف صدق ذلك الرسول من الأمم أن يكذبه و ينكر دعواه. و الذي عليه ترك الإنكار و العمل بشريعة النبي الأول.

هذا فرق ما بين من بعث إلى البعض، و من بعث إلى الجميع.

استحقاق الخلافة

قال: و قال حباب بن المنذر (1) يوم السقيفة:

«أنا جذيلها (2) المحكّك، و عذيقها المرجّب (3) ، إن شئتم كررناها جذعة (4) . منا أمير و منكم أمير، فإن عمل المهاجري شيئا في الأنصاري رد ذلك عليه الأنصاري، و إن عمل الأنصاري شيئا في المهاجري رد عليه المهاجري» .

---

(1) حباب بن المنذر الانصاري صحابي أشار على النبي يوم بدر بالنزول على الماء، و لما قبض النبي دعا يوم اجتماع الناس في سقيفة بني ساعدة إلى جعل الخلافة في الانصار.
(2) الجذيل: عود ينصب للابل الجربى لتتحكك به.
(3) العذق: النخلة بكاملها. المرجب: المعظم.
(4) الجذعة: الصغير السن من الأنعام.

فأراد عمر الكلام فقال أبو بكر:

«على رسلك. نحن المهاجرون، أول الناس إسلاما، و أوسطهم دارا، و أكرم الناس أحسابا، و أحسنهم وجوها، و أكثر الناس ولادة في العرب، و أمسهم رحما برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. أسلمنا قبلكم و قدمنا في القرآن عليكم، فأنتم إخواننا في الدين و شركاؤنا في الفيء، و أنصارنا على العدو، آويتم و نصرتم و واسيتم، فجزاكم اللّه خيرا. نحن الأمراء و أنتم الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، و أنتم محقوقون ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق اللّه إليهم» .

قالوا: فإنا قد رضينا و سلمنا.

عيسى بن يزيد قال: قال أبو بكر رحمه اللّه:

«نحن أهل اللّه، و أقرب الناس بيتا من بيت اللّه، و أمسهم رحما برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. إن هذا الأمر إن تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الأوس، و إن تطاولت له الأوس لم تقصر عنه الخزرج. و قد كان بين الحيين قتلى لا تنسى، و جرحى لا تداوى. فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي (1) أسد، يضغمه المهاجري و يجرحه الأنصاري» .

قال ابن دأب: فرماهم و اللّه بالمسكتة.

من حديث ابن أبي سفيان بن حويطب، عن أبيه عن جده قال:

قدمت من عمرتي فقال لي أهلي: أعلمت أن أبا بكر بالموت؟فأتيته فإذا عيناه تذرفان، فقلت: يا خليفة رسول اللّه أ ليس كنت أول من أسلم و ثاني اثنين في الغار، فصدقت هجرتك و حسنت نصرتك، و وليت فأحسنت صحبتهم، و استعملت خيرهم عليهم؟قال: و حسنا ما صنعت؟قلت: نعم و اللّه. قال:

اللّه؟!و اللّه أشكر له و اعلم به، و لا يمنعني ذلك من أن أستغفر اللّه.

فما خرجت حتى مات.

(1) لحيا الاسد: العظمان اللذان فيهما الأسنان

أبو الخطاب الزراري، عن حجناء بن جرير قال: قلت يا أبه، إنك لم تهج أحد إلا وضعته، إلا التّيم؟قال: لأني لم أجد حسبا فأضعه، و لا بناء فأهدمه! قال: و قيل للفرزدق: أحسن الكميت في مدائحه، في تلك الهاشميات!قال: وجد آجرا و جصا فبنى.

عامر بن الأسود قال: دخل رجل من ولد عامر بن الظرب على عمر بن الخطاب رحمه اللّه، فقال له: خبرني عن حالك في جاهليتك، و عن حالك في إسلامك. قال: أما في جاهليتي فما نادمت فيها غير لمة، و لا هممت فيها بأمة، و لا خست فيها عن بهمة (1) ، و لا رآني راء إلا في ناد أو عشيرة، أو حمل جريرة، أو خيل مغيرة.

عوانة قال: قال عمر: الرجال ثلاثة: رجل ينظر في الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصدرها، و رجل متوكل لا ينظر فإذا نزلت به نازلة شاور أهل الرأي و قبل قولهم، و رجل حائر بائر (2) ، لا يأتمر رشدا، و لا يطيع مرشدا.

قال: كلم علباء بن الهيثم السدوسي عمر بن الخطاب في حاجة، و كان أعور دميما، جيد اللسان حسن البيان، فلما تكلم في حاجته فأحسن، صعد عمر بصره فيه و حدره، فلما أن قام قال: «لكل أناس في جميلهم خبر» .

أخبرنا عن عيسى بن يزيد عن أشياخه قال:

قدم معاوية المدينة فدخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان:

و ا أبتاه!و بكت، فقال معاوية: أبنت أخي إن الناس أعطونا طاعة و أعطيناهم أمانا، و أظهرنا لهم حلما تحته غضب، و أظهروا لنا طاعة تحتها حقد، و مع كل

---

(1) خست: نكصت و جبنت. بهمة: شجاع.
(2) البائر: التائه دون أن يهتدي.

إنسان سيفه، و هو يرى مكان أنصاره، و إن نكثنا بهم نكثوا بنا، و لا ندري أ علينا تكون أم لنا، و لأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين.

و قالت عائشة ابنة عثمان في أبان بن سعيد بن العاصي حين خطبها، و كان نزل بأيلة (1) و ترك المدينة:

نزلت ببيت الضبّ لا أنت ضائر # عدوا و لا مستنفعا أنت نافع

أبو الحسن قال: قال سلامة بن روح الجذامي، لعمرو بن العاص: أنه كان بينكم و بين العرب باب فكسرتموه، فما حملكم على ذلك؟قال: أردنا أن نخرج الحق من جفير (2) الباطل.

قدم ببيعة علي إلى الكوفة يزيد بن عاصم المحاربي، فبايع أبو موسى، فقال عمار لعلي: و اللّه لينقضن عهده، و ليحلن عقده، و ليقرن جهده، و ليسلمن جنده.

و قال عليّ في رواية الشعبي: حملت إليكم درّة عمر لأضربكم بها لتنتهوا فأبيتم، حتى اتخذت الخيزرانة فلم تنتهوا. و قد أرى الذي تريدون: السيف.

و إني لا أصلحكم بفسادي.

مقطعات شعرية

كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطّعات الأعراب، و نوادر الأشعار، لما ذكرت عجبك بذلك، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء اللّه.

---

(1) ايلة: مدينة على ساحل بحر القلزم.
(2) جفير: جعبة، كنانة.

قال همّام الرقاشيّ:

أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة # و في العتاب حياة بين أقوام [1]

قدّمت قبلي رجالا لم يكن لهم # في الحق أن يلجوا الأبواب قدامي

لو عدّ قبر و قبر كنت أكرمهم # قبرا و أبعدهم من منزل الذام [2]

حتى جعلت إذا ما حاجتي عرضت # بباب دارك أدلوها بأقوام [3]

و قال أبو العرف الطهوي:

وافى الوفود فوافى من بني حمل # بكر الوفادة فاتي السنّ عرزوم

كزّ الملاطين في السربال حيث مشى # و في المجالس لحاظ رزاميم [4]

لما رأى الباب و البواب أخرجه # لؤم مخالطه جبن و تجزيم [5]

قد كان لي بكم علم و كان لكم # ممشى وراء ظهور القوم معلوم

و قال الحارث بن حلّزة–قال أبو عبيدة: أنشدنيها أبو عمرو، و ليست إلا هذه الأبيات. و الباقي مصنوع:

يا أيها المزمع ثم انثنى # لا يثنك الحازي و لا الشاحج [6]

و لا قعيد أعضب قرنه # هاج له من مرتع هائج [7]

بينا الفتى يسعى و يسعى له # تاح له من أمره خالج [8]

يترك ما رقّح من عيشه # يعيث فيه همج هامج [9]

---

(1) المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى آخر.
(2) الذام: العيب.
(3) دلوت بفلان: اشتفعت به.
(4) الكز: الصلب. الملاطان: العضدان.
(5) تجزيم: جبن و عجز.
(6) الحازي: زاجر الطير. الشاحج: الغراب.
(7) قعيد: ما جاء من ورائك من صيد. أعضب: مكسور القرن.
(8) تاح: قدر أو تهيأ.
(9) رقح. أصلح. هامج: يموج بعضه في بعض.

قلت لعمرو حين أرسلته # و قد حبا من دوننا عالج [1]

لا تكسع الشول بأغبارها # إنك لا تدري من الناتج [2]

و اصبب لأضيافك ألبانها # فإن شرّ اللبن الوالج

و قال زبّان بن سيّار بن جابر:

تخبّر طيرة فيها زياد # لتخبره و ما فيها خبير

أقام كأنّ لقمان بن عاد # أشار له بحكمته مشير

تعلّم أنه لا طير إلا # على متطير و هو الثبور [3]

بلى شيء يوافق بعض شيء # أحايينا و باطله كثير

و من ينزح به لا بد يوما # يجيء به نعيّ أو بشير

و قال بعض الأعراب:

نجية بطّال لدن شبّ همه # لعاب الغواني و المدام المشعشع [4]

جلا المسك و الحمام و البيض كالدمى # و فرق المداري رأسه فهو أنزع

أ سليم ذاكم لا خفا بمكانه # لعين تدحّى أو لأذن تسمّع

من النفر الشّمّ الذين إذا أنتموا # وهاب الرجال حلقة الباب قعقعوا

إذا النفر السود اليمانون حاولوا # له حوك برديه أرقّوا و أوسعوا

و قال بعض الأعراب:

ألبان إبل تعلّة بن مسافر # ما دام يملكها عليّ حرام

و طعام عمران بن أوفى مثله # ما دام يسلك في البطون طعام

إن الذين يسوغ في أعناقهم # زاد يمنّ عليهم للئام

لعن الاله تعلة بن مسافر # لعنا يشنّ عليه من قدام

(1) حبا: اعترض.
(2) تكسع: تضرب الماء على الضرع فتسمن الناقة. أغبار: بقية اللبن في الضرع.
(3) الطير: اسم من التطير. الثبور: الهلاك.
(4) البطال: الشجاع. المشعشع: الممزوج بالماء.

و قال بعض الأعراب:

نجيبة قرم شادها القتّ و النوى # بيثرب حتى نيّها متظاهر

فقلت لها سيري فما بك علة # سنامك ملموم و نابك فاطر

فمثلك أو خيرا تركت رذية # تقلّب عينيها إذا مرّ طائر (1)

و قال بعض الأعراب–مجهول الاسم–و هو من جيد محدث أشعارهم:

حفرنا على رغم اللهازم حفرة # ببطن فليج و الأسنة جنّح

و قد غضبوا حتى إذا ملئوا الربى # رأوا أن إقرارا على الضيم أروح

و قال رجل من محارب:

و قائلة تطوّف في جداد # و أنت، إخال، معطى لو تقوم

فقلت الضاربات الطلح و هنا # على يمن إذا وضح النجوم

قصرن عليّ بعد اللّه فقري # فلا أسل الصديق و لا ألوم

و قال بعض الطائيين، و هو حاتم:

و إني لأستحيي حياء يسرني # إذا اللؤم من بعض الرجال تطلّعا

إذا كان أصحاب الإناء ثلاثة # حييا و مستحيا و كلبا مجشّعا (2)

فإني لأستحيي أكيلي أن يرى # مكان يدي من جانب الزاد أقرعا

أكف يدي من أن تمسّ أكفهم # إذا نحن أهوينا و حاجتنا معا

و إنك مهما تعط بطنك سؤله # و فرجك نالا منتهى الذمّ أجمعا

و قال، و أظنها لبعض اليهود:

و إني لأستبقي، إذا العسر مسني، # بشاشة وجهي حين تبلى المنافع

و اعفي ثرا قومي، و لو شئت نولوا # إذا ما تشكّى الملحف المتضارع (3)

---

(1) الرزية: المهزولة من السير.

(2) مجشع: حريص على الطعام.
(3) النوال: العطاء، الملحف: المبالغ في السؤال.

مخافة أن أقلى إذا جئت زائرا # و ترجعني نحو الرجال المطامع [1]

فأسمع منّا أو أشرّف منعما # و كل مصادي نعمة متواضع [2]

و قال بعض بني أسد:

ألا جعل اللّه اليمانين كلهم # فدى لفتى الفتيان يحيي بن حيان

و لو عريق فيّ من عصبية # لقلت و ألفا من معدّ بن عدنان

و لكن نفسي لم تطب بعشيرتي # و طبت له نفسا بأبناء قحطان

و قال ثروان-أو ابن ثروان-مولى لبني عذرة:

لو كنت مولى قيس عيلان لم تجد # عليّ لإنسان من الناس درهما

لكنني مولى قضاعة كلها # فلست أبالي أن أدين و تغرما

أولئك قومي بارك اللّه فيهم # على كل حال ما أعفّ و أكرما

جفاة المحزّ لا يصيبون مفصلا # و لا يأكلون اللحم إلا تخذّما [3]

و قال آخر:

أيا ابنة عبد اللّه و ابنة مالك # و يا ابنة ذي البردين و الفرس الورد

إذا ما عملت الزاد فالتمسي له # أكيلا فإني غير آكله وحدي

كريما قصيا أو قريبا فإنني # أخاف مذمات الأحاديث من بعدي

و كيف يسيغ المرء زادا و جاره # خفيف المعى بادي الخصاصة و الجهد [4]

و للموت خير من زيارة باخل # يلاحظ أطراف الأكيل على عمد

و إني لعبد الضعيف ما دام ثاويا # و ما فيّ إلا تلك من شيمة العبد

---

(1) أقلى: أبغض.

(2) المن: الفخر. المصادي: المداري، المداجي.

(3) تخذم: قطع اللحم بالسكين.

(4) المعى: مفردها الامعاء، الخصاصة: الفقر و سوء الحال.

و قال ابن عبدل:

و لو شاء بشر كان من دون بابه # طماطم سود أو صقالبة حمر

و لكن بشرا سهّل الباب للتي # يكون لبشر غبها الحمد و الأجر [1]

بعيد مراد العين ما ردّ طرفه # جذار الغواشي باب دار و لا ستر [2]

و قال بعض الحجازيين:

لو كنت أحمل خمرا يوم زرتكم # لم ينكر الكلب أني صاحب الدار

لكن أتيت و ريح المسك يفعمني # و العنبر الورد أذكيه على النار [3]

فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني # و كان يعرف ريح الزق و القار

و قال ابن عبدل:

نعم جار الخنزيرة المرضع الغر # ثى إذا ما غدا، أبو كلثوم

طاويا قد أصاب عند صديق # من غذاء ملبق مأدوم [4]

ثم أنحى بجعره حاجب الشمـــ # س فألقى كالمعلف المهدوم [5]

و قال حبيب بن أوس:

و حياة القريض إحياؤك الجو # د فإن مات الجود مات القريض

يا محبّ الإحسان في زمن أصـــ # بح فيه الإحسان و هو بغيض

و قال:

ثم أطرحتم قراباتي و اصرتي # حتى توهمت أني من بني أسد

---

(1) غبها: بعدها، عاقبتها.

(2) مراد العين: بعد نظرها. الغواشي تغشى الانسان.

(3) فعم: ملأ.

(4) الطاوي: الجائع. الملبق: المدسم.

(5) الجعر: ما يبس من النجو. أنحى به: قصد به.

و قال:

و طلعة الشعر أقلى في عيونهم # و في صدورهم من طلعة الأسد

و قال:

إياك يعني القائلون بقولهم # إن الشقيّ بكلّ حبل يخنق

سر حيث شئت من البلاد فلي بها # سور عليك من الرجال و خندق

و قال:

من شاعر وقف الكلام ببابه # و اكتنّ في كنفي ذراه المنطق [1]

قد ثقّفت منه الشام، و سهّلت # منه الحجاز، و رققته المشرق

و قال:

بنو عبد الكريم نجوم ليل # ترى في طيئ أبدا تلوح

إذا كان الهجاء لهم ثوابا # فخبرني لمن خلق المديح

و قال:

أي شيء يكون أحسن من صـــ # بّ أديب متيم بأديب

و قال:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى # ما الحبّ إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى # و حنينه أبدا لأول منزل

و قال:

اشرب فإنك سوف تعلم أنه # قدح يصيب العرض منه خمار

غاداك أسوار الكلام بشرّد # عون القريض حتوفها أبكار

غرر مني ما شئت كن شواهدي # إن لم يكن لي والد عطّار

(1) أكتن: استتر. الذرا: الكنف، الظل.

و قال سلمة بن الخرشب الأنماري:

ابلغ سبيعا و أنت سيدنا # قدما و أوفى رجالنا ذمما

أنّ بغيضا و أن إخوتها # ذبيان قد ضرّموا الذي اضطرما

نبئت أن حكّموك بينهم # فلا يقولنّ بئس ما حكما

إن كنت ذا عرفة بشأنهم # تعرف ذا حقهم و من ظلما

و تنزل الأمر في منازله # حزما و عزما و تحضر الفهما

و لا تبالي من المحق و لا المبـــ # ـطل لا إلّة و لا ذمما

فاحكم و أنت الحكيم بينهم # لن يعدموا الحكم ثابتا صتما

و اصدع أديم السواء بينهم # على رضا من رضي و من رغما

إن كان مال فقضّ عدّته # مالا بمال و إن دما فدما

هذا و إن لم تطق حكومتهم # فانبذ إليهم أمورهم سلما

و قال آخر:

أبلغ ضرارا أبا عمرو مغلغلة # إن كان قولك ظهر الغيب يأتينا

ارهن قبيصة إن صلح هممت به # إنّ ضرارا لكم رهن بما فينا

إن ضحيكا قتيل من سراتكم # و إن حطّان منا، فاعدلوا الدنيا

و انه عبيدا فلا يؤذي عشيرته # نهيك خير له من نهي ناهينا

و قال آخر:

بني عدي ألا يا أنهوا سفيهكم # إن السفيه إذا لم ينه مأمور

و قال حضرمي بن عامر الأسدي، و مات أخوه فقال جزء: قد فرح بأكل الميراث:

قد قال جزء و لم يقل اما # إني تروحت ناعما جذلا (1)

(1) أما: قصدا. الناعم: المقيم في النعيم، الجذل: الفرحان.

إن كنت أزننتني بها كذبا # جزء فلاقيت مثلها عجلا [1]

أفرح إن أرزأ الكرام و إن # أورث ذودا شصائصا نبلا [2]

و قال حريث بن سلمة بن مرارة:

تقول ابنة العمري لما رأيتها: # تنكرت حتى كدت منك أهال

فإن تعجبي مني عمير فقد أتت # ليال و أيام علي طوال

و إني لمن قوم تشيب سراتهم # كذاك و فيهم نائل و فعال

و لو لقيت ما كنت ألقى من العدى # إذا شاب منها مفرق و قذال

و لكنها في كلّة كلّ شتوة # و في الصيف كن بارد و حجال [3]

تصان و تعلى المسك حتى كأنها # إذا وضعت عنها النصيف غزال

و قال بعض الخوارج لإمرأته و أرادت أن تنفر معه:

إن الحروريّة الحرّى إذا ركبوا # لا يستطيع لهم أمثالك الطلبا

أن يركبوا فرسا لا تركبي فرسا # و لا تطيقي مع الرجالة الخببا

و قال خزر بن لوذان لامرأته في شبيه بهذا:

لا تذكري مهري و ما أطعمته # فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

إن الغبوق له و أنت مسوءة # فتأوهي ما شئت ثم تحوّبي

كذب العتيق و ماء شنّ بارد # إن كنت سائلتي غبوقا [4] فاذهبي

إني لأخشى أن تقول خليلتي: # هذا غبار ساطع فتلبّب

إن العدوّ لهم إليك وسيلة # أن يأخذوك تكحّلي و تخضّبي

و يكون مركبك القعود و حدجه # و ابن النعامة يوم ذلك مركبي

و أنا أمرؤ إن يأخذوني عنوة # أقرن إلى شر الركاب و أجنب

---

(1) أزننتني: اتهمتني.

(2) رزأه: نقصه. الذود. جماعة قليلة من الابل. الشصائص: الناقة القليلة اللبن. النبل: الصغار الاجسام.

(3) كلة: ستر يتوقى فيه من البق. حجال: بيت كالقبة يستر بالثياب.
(4) غبوق: ما يشرب عند العشاء.

و أراد أعرابي أن يسافر فطلبت إليه امرأته أن تكون معه، فقال:

إنك لو سافرت قد مذحت (1) # و حكك الحنوان فانفشحت (2)

و قلت هذا صوت ديك تحتي

المذح: سحج (3) الفخذين بالأخرى.

و في شبيه بالمعنى الأول يقول عمر بن عبد اللّه بن أبي ربيعة:

و أعجبها من عيشها ظلّ غرفة # و ريان ملتف الحدائق أخضر

و وال كفاها كلّ شيء يهمها # فليست لشيء آخر الليل تسهر

و قال سلامة بن جندل هذه الأبيات و بعث بها إلى صعصعة بن محمود بن مرثد، و كان أخوه أحمر بن جندل أسيرا في يده فأطلقه له:

سأجزيك بالود الذي كان بيننا # أ صعصع إني سوف أجزيك صعصعا

سأهدي و إن كنا بتثليث مدحة # إليك و إن حلّت بيوتك لعلعا

فإن يك محمود أباك فإننا # وجدناك محمود الخلائق أروعا

فإن شئت أهدينا ثناء و مدحة # و إن شئت أهدينا لكم مائة معا

قال: الثناء و المدحة أحب إلينا.

و قال أوس بن حجر، حين حبس و أقام عند فضالة بن كلدة، و تولت خدمته حليمة بنت فضالة، شاكرا لذلك:

---

(1) مذح: اصطكت فخذاه و التوتا.
(2) الحنوان: كل عود أعوج من السرج. انفشح: تفاج، و باعد ما بين رجليه.
(3) السحج: القشر و الحذج.

لعمرك ما ملت ثواء ثويها # حليمة إذ ألقي مراسي مقعدي [1]

و لكن تلقّت باليدين ضمانتي # و حلّ بفلج فالقنافذ عوّدي [2]

و قد غبرت شهري ربيع كليهما # بحمل البلايا و الخباء الممدّد [3]

و لم تلهها تلك التكاليف إنها # كما شئت من أكرومة و تخرّد [4]

هي ابنة أعراق كرام نمينها # إلى خلق عفّ برازته قد

سنجزيك أو يجزيك عنا مثوّب # و حسبك أن يثني عليك و تحمدي

و قال الخريميّ:

فلم أجزه إلا المودة جاهدا # و حسبك مني أن أودّ فأجهدا

و قال الأسدي:

فإني أحبّ الخلد لو أستطيعه # و كالخلد عندي أن أموت و لم ألم

و قال الحادرة:

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم # بأحسابنا، إن الثناء هو الخلد

و أنشدني الأصمعي لمهلهل:

فقتلا بتقتيل و عقرا بعقركم # جزاء العطاس لا يموت من اتّأر

و ضاف أبو شليل العنزيّ بني حكم–فخذا من عنزة–فقال:

أراني في بني حكم غريبا # على قتر أزور و لا أزار

أناس يأكلون اللحم دوني # و تأتيني المعاذر و القتار

---

(1) الثوى: الضيف: الثواء: الاقامة.

(2) الضمانة: الداء، العاهة. فلج و القنافذ. موضعان.

(3) غبرت: مكثت. البلايا: النوق التي أعيت.

(4) أكرومة: من الكرم. تخرد: أن تصبر المرأة خريدة.

و قال آخر:

إذا مدّ أرباب البيوت بيوتهم # على رجّح الأكفال ألوانها زهر

فإن لنا منها خباء يحفنا # إذا نحن أمسينا: المجاعة و الفقر

و قال الآخر، و هو أبو المهوّش الأسديّ:

تراه يطوّف الآفاق حرصا # ليأكل رأس لقمان بن عاد

و قال أيضا:

و بنو الفقيم قليلة أحلامهم # ثطّ [1] اللحى متشابهو الألوان

لو يسمعون بأكلة أو شربة # بعمان أصبح جمعهم بعمان

متأبطين بنيهم و بناتهم # صعر الأنوف لريح كلّ دخان

و قال الآخر:

و جيرة لن ترى في الناس مثلهم # إذا يكون لهم عيد و إفطار

إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم # و ليس يبدو لنا ما تنضج النار

و قال أبو الطروق الضبّيّ، في خاقان بن عبد اللّه بن الأهتم:

شكّ الناس في خاقان لما # أتى لولاده سنة و شهر

و قالت أخته إني براء # إلى الرحمن منك و ذاك نكر

و لم تسمع بحمل قبل هذا # أتى من دونه دهر و دهر

فنافرها فألحقه شبيب # و أثبته فثاب عليه وفر

و قال مكّيّ بن سوادة البرجمي فيه:

تحير اللؤم يبغي من يحالفه # حتى تناهى إلى أبناء خاقان

أزرى بكم يا بني خاقان إنكم # من نسل حجّامة من قنّ هزّان

سفاكة لدماء القوم آكلة # قدما لأموالهم من غير سلطان

(1) ثط: مفردها أثط: قليل شعر اللحية.

لو تسألون بها أيوب جاءكم # على الذي قلت أيوب ببرهان

أيام تعطيه خرجا من حجامتها # يوما فيوما توفّيه بأربان [1]

فإن رددتم عليه ما يقول أتى # على مقالته فيها بتبيان

ثم اشتراها أبو خاقان حين عست # فالتقطت نطفة منه باقطان [2]

فاستدخلتها و لا تدري بما فعلت # حتى إذا ارتكضت جاءت بخاقان [3]

و قال اللعين المنقري [4] في آل الأهتم:

و كيف تسامون [5] الكرام و أنتم # دوارج حيريون فدع القوائم

بنو ملصق [6] من ولد حذلم لم يكن # ظلوما و لا مستنكرا للمظالم

و قال الآخر:

قالت عهدتك مجنونا فقلت لها # إن الشباب جنون برؤه الكبر

و قال أعرابي، و هو أبو حيّة النميريّ:

رمتني و ستر اللّه بيني و بينها # عشية آرام الكناس رميم

ألا ربّ يوم لو رمتني رميتها # و لكن عهدي بالنضال قديم

رميم التي قالت لجارات بيتها # ضمنت لكم ألا يزال يهيم

و قال أبو يعقوب الأعور:

بقلبي سقام لست أحسن وصفه # على أنه ما كان فهو شديد

تمر به الأيام تسحب ذيلها # فتبلى به الأيام و هو جديد

---

(1) الخرج: الأتاوة. أربان: لغة في عربان.

(2) عست: كبرت، أسنت.

(3) ارتكضت: اضطربت.

(4) هو منازل بن ربيعة من بني منقر، له حكومة بين الفرزدق و جرير. سمعه عمر ينشد الشعر و الناس يصلون فقال: من هذا اللعين. فلقب بذلك.

(5) تسامون: من سامى: فاخر، بارى.

(6) ملصق: دعي ليس من القوم بنسب.

و قال الثقفي:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته # إن الذليل الذي ليست له عضد

تنبو يداه إذا ما قلّ ناصره # و يأنف الضيم إن أثرى له عدد

و قال أشجع السلمي (1) ، في هارون أمير المؤمنين:

و على عدوك يا بن عم محمد # رصدان: ضوء الصبح و الأظلام

فإذا تنبّه رعته و إذا هدا # سلّت عليه سيوفك الأحلام

و قال:

انتجع الفضل أو تخلّ من الدنـــ # يا فهاتان غايتا الهمم

و قال:

أبت طبرستان إلا التي # يعمّ البريّة من دائها

ضممت مناكبها ضمة # رمتك بما بين أحشائها

قالوا: لم يدع الأول للآخر معنى شريفا و لا لفظا بهيا إلا أخذه، إلا بيت عنترة:

فترى الذباب بها يغني وحده # هزجا كفعل الشارب المترنّم

غردا يسنّ ذراعه بذراعه # فعل المكبّ على الزّناد الأجذم

و قال الفقيمي، قاتل غالب أبي الفرزدق:

و ما كنت نوّاما و لكن ثائرا # أناخ قليلا فوق ظهر سبيل

و قد كنت مجرور اللسان و مفحما # فأصبحت أدري اليوم كيف أقول

(1) هو أشجع بن عمرو السلمي، ولد باليمامة و ترعرع في البصرة ثم اتصل بالرشيد و مدحه و نال عطاءه فأثرى.

و قال أبو المثلّم الهذلي:

أصخر بن عبد اللّه إن كنت شاعرا # فإنك لا تهدي القريض لمفحم

و قال الهذلي (1) :

على عبد بن زهرة طو # ل هذا الليل أنتحب

أخ لي دون من لي من # بني عم و إن قربوا

طوى من كان ذا نسب # إلي و زاده النسب

أبو الأضياف و الأيتا # م ساعة لا يعدّ أب

ألا للّه درّك من # فتى قوم إذا ركبوا

و قالوا من فتى # للثغر يرقبنا و يرتقب

فكنت أخاهم حقا # إذا تدعى لها تثب

و قد ظهر السوايغ فيــ # هم و البيض و اليلب

أقام لدى مدينة آ # ل قسطنطين و انقلبوا

نجيبا حين يدعى، إ # ن آباء الفتى نجب

و قال أدهم بن محرز الباهلي:

لما رأيت الشيب قد شان أهله # تفتّيت و ابتعت الشباب بدرهم

و قال آكل المرار الملك (2) :

إن من غرّه النساء بشيء # بعد هند لجاهل مغرور

حلوة العين و اللسان، و مرّ # كل شيء يجنّ منها الضمير

كل أنثى و إن بدت لك منها # آية الحب، حبها خيتعور (3)

---

(1) هو ابو العيال الهذلي يرثي نسيبه عبد الرحمن ابن زهرة الذي قتل زمن معاوية بن ابي سفيان.

(2) هو حجر بن معاوية الكندي أحد اجداد امرئ القيس الشاعر الجاهلي المعروف. لقب بآكل المرار لأنه تاه يوما مع أصحابه فأكل المرار و نجا بينما هلك صحبه.

(3) خيتعور: متلون لا يدوم على حال.

و قال طفيل الغنويّ:

إن النساء كأشجار نبتن معا # منها المرار و بعض المرّ مأكول

إن النساء متى ينهين عن خلق # فإنه واجب لا بد مفعول

لا ينثنين لرشد إن صرفن له # و هنّ بعد ملاويم مخاذيل

و قال علقمة بن عبدة (1) :

فإن تسألوني بالنساء فإنني # بصير بأدواء النساء طبيب

إذا قلّ مال المرء أو شاب رأسه # فليس له من ودّهنّ نصيب

يردن ثراء المال حيث علمنه # و شرح الشباب عندهن عجيب

و قال أبو الشّغب السّعديّ:

أبعد بني الزهراء أرجو بشاشة # من العيش أو أرجو رخاء من الدهر

غطارفة زهر مضوا لسبيلهم # أ لهفي على تلك الغطارفة الزهر

يذكرنيهم كلّ خير رأيته # و شر فما أنفكّ منهم على ذكر

و قال أبو حزابة (2) ، في عبد اللّه بن ناشرة:

ألا لا فتى بعد ابن ناشرة الفتى # و لا خير إلا قد تولّى و أدبرا

و كان حصادا للمنايا ازدرعنه # فهلا تركن النبت ما كان أخضرا

لحا اللّه قوما أسلموك و رفّعوا # عناجيج أعطتها يمينك ضمّرا (3)

أ ما كان فيهم فارس ذو حفيظة # يرى الموت في بعض المواطن أعذرا

يكرّ كما كرّ الكليبي بعد ما # رأى الموت تحدوه الأسنة أحمرا

فكر عليه الورد يدمي لبانه # و ماكر إلا رهبة أن يعيّرا

---

(1) هو علقمة بن عبدة بن النعمان التميمي، الملقب بالفحل، شاعر جاهلي مجيد.

(2) ابو حزابة هو الوليد بن حنيفة، شاعر أموي راجز وفد إلى البصرة من البادية و خرج مع ابن الأشعب على عبد الملك.

(3) عناجيج جمع عنجوج أي الجواد.

و قال أعرابي:

رعاك ضمان اللّه يا أمّ مالك # و للّه أن يشقيك أغنى و أوسع

يذكرنيك الخير و الشر و الذي # أخاف و أرجو و الذي أتوقّع

و قال دريد بن الصّمّة:

و قالوا أ لا تبكي أخاك، و قد أرى # مكان الأسى لكن بنيت على الصبر

فقلت أعبد اللّه أبكي أم الذي # على الجدث النائي قتيل أبي بكر

و عبد يغوث أو نديمي خالدا # و عزّ المصاب وضع قبر حذا قبر

أبى القتل إلا آل صمة أنهم # أبوا غيره و القدر يجري إلى القدر

فأما ترينا لا تزال دماؤنا # لدى واتر يسعى بها آخر الدهر

فإنا للحم السيف، غير نكيرة # و نلحمه حينا و ليس بذي نكر

يغار علينا واترين فيشتفى # بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا # فلا ينقضي إلا و نحن على شطر

و قال الآخر:

إذا ما تراءاه الرجال تحفّظوا # فلم تنطق العوراء و هو قريب

حبيب إلى الزوّار غشيان بيته # جميل المحيا شبّ و هو أديب

فتى لا يبالي أن يكون بجسمه # إذا نال خلاّت الكرام شحوب

حليم إذا ما الحلم زيّن أهله # مع الحلم في عين العدو مهيب

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه # قريبا و يدعوه الندى فيجيب

يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه # إذا لم يكن في المنقيات حلوب

يقول: إذا كان الجدب و لم يكن للمال لبن فهو وهوب مطعام في هذا الزمن. و المنقيات: المهازيل التي ذهب نقيهن. و النقي: مخ العظام و شحم العين، و جمعه أنقاء. و ناقة منقية، أي

ذات نقي.

و قال الآخر:

أ لا ترين و قد قطّعتني عذلا # ما ذا من الفوت بين البخل و الجود [1]

إلاّ يكن ورق يوما أجود به # للمعتفين فإني ليّن العود [2]

و إلى هذا ذهب ابن يسير حيث يقول:

لا يعدم السائلون الخير أفعله # إما نوالى و إما حسن مردودي

و قال الهذليّ:

وهّاب ما لا تكاد النفس ترسله # من التلاد وصول غير منّان

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: و من الشوارد التي لا أرباب لها قوله:

أن يفخروا أو يغدروا # أو يبخلوا لا يحفلوا

وعدوا عليك مرجلـــ # ين كأنهم لم يفعلوا

كأبي براقش كلّ لو # ن لونه يتخيل

و مثله في بعض معانيه:

أكول لأرزاق العيال إذا شتا # صبور على سوء الثناء وقاح

و قال:

و ما نفى عنك قوما أنت خائفهم # كمثل وقمك جهالا بجهال [3]

فاقعس إذا حدبوا و أحدب إذا قعسوا # و وازن الشر مثقالا بمثقال [4]

---

(1) الفوت: البعد.

(2) الورق: الدراهم المضروبة.

(3) الوقم: القهر و الكبح و الاذلال.

(4) قعس: يعني دخول الظهر و خروج الصدر.

و قال الراجز:

و قد تعللت ذميل العنس # بالسوط في ديمومة كالترس [1]

إذ عرّج الليل بروح الشمس [2]

و قال الراجز:

قد كنت إذ حبل صباك مدمش # و إذ أهاضيب الشباب تبغش [3]

و قال الراجز:

طال عليهن تكاليف السّرى # و النصّ في حين الهجير و الضحى [4]

حتى عجاهنّ فما تحت العجى [5] # رواعف يخضبن مبيضّ الحصى [6]

سمع ذلك ابن وهيب فرام مثله فقال:

تخضب مروا دما نجيعا # من فرط ما تنكب الحوامي [7]

و قال عامر ملاعب الأسنة [8] :

دفعتكم عني و ما دفع راحة # بشيء إذا لم تستعن بالأنامل

يضعضعني حلمي و كثرة جهلكم # علي، و إني لا أصول بجاهل

---

(1) الذميل: ضرب من مشي الابل. الديمومة: الفلاة الواسعة.
(2) عرج لليل: حبسه. بروح الشمس: ظهورها و غروبها.
(3) مدمش: مدمج، المدمج: المحكم الفتل. تبغش: تدفع.
(4) النص: السير الشديد.
(5) العجا: عصب فيه فصوص من عظام.
(6) رواعف: يسيل منها الدم.
(7) المرو: حجارة بيض براقة. الحوامي: حروف الحوافر عن يمين و شمال.
(8) عامر بن مالك القيسي، عم لبيد الشاعر الجاهلي الشهير كان شاعرا مجيدا و فارسا مقداما و لقب بملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه:

و لاعب أطراف الأسنة عامر # فراح له حظ الكتيبة أجمع

و قال آخر:

لا بدّ للسؤدد من أرماح # و من سفيه دائم النباح

و من عديد يتقي بالراح

و قال أبو نخيلة لبعض سادات بني سعد:

و أن القوم سوّدوك لفاقة # إلى سيد لو يظفرون بسيد

و تمثّل سفيان بن عيينة و قد جلس على مرقب عال، و أصحاب الحديث مدى البصر يكتبون، بقول الآخر:

خلت الديار فسدت غير مسوّد # و من الشقاء تفرّدي بالسّوددِ

و قال الأول في الأحنف:

و إنّ من السادات من لو أطعته # دعاك إلى نار يفور سعيرها

و قال الآخر:

فأصبحت بعد الحلم في الحي ظالما # تخمط فيهم و المسوّد يظلم [1]

و قال رجل من بني الحارث بن كعب، يقال له سويد:

إني إذا ما الأمر بيّن شكّه # و بدت بصائره لمن يتأمل

و تبرأ الضعفاء من إخوانهم # و ألحّ من حرّ الصميم الكلكل [2]

أدع التي هي أرفق الخلاّت بي # عند الحفيظة للتي هي أجمل

و قال الآخر:

ذهب الذين أحبهم فرطا # و بقيت كالمغمور في خلف

من كل مطويّ على حنق # متضجع يكفى و لا يكفي

---

(1) التخمط: الكبر و الغضب.

(2) الكلكل: الثقل.

و قال أبو الطمحان القيني:

فكم فيهم من سيد و ابن سيد # و فيّ بعقد الجارحين يفارقه

يكاد الغمام الغرّ يزعب أن رأى # وجوه بني لأم و ينهل بارقه [1]

و قال طفيل الغنوي:

و كان هريم من سنان خليفة # و عمرو و من أسماء لما تغيبوا

نجوم سماء كلما غاب كوكب # بدا و انجلت عنه الدجنة كوكب

و قال رجل من بني نهشل:

أنا لمن معشر أفنى أوائلهم # قول الكماة لهم أين المحامونا

لو كان في الألف منا واحد فدعوا # من عاطف خالهم إياه يعنونا [2]

و ليس يذهب منا سيّد أبدا # إلا افتلينا غلاما سيّدا فينا [3]

و قال بعض الحجازيين:

إذا طمع يوما عراني قريته # كتائب بأس كرّها و طرادها [4]

أكدّ ثمادى و المياه كثيرة # أعالج منها حفرها و اكتدادها [5]

و أرضى بها من بحر آخر أنه # هو الري إن ترضى النفوس ثمادها

و قال أبو محجن الثقفي:

أ لم تسل الفوارس من سليم # بنضلة و هو موتور مشيح

رأوه فازدروه و هو خرق # و ينفع أهله الرجل القبيح [6]

---

(1) الغر: البيض. يزعب: يملأ.
(2) عطف: مال و انثنى.
(3) افتلى: افتطم.
(4) عراه: غشيه. القرى: طعام الضيف.
(5) الكد: النزع باليد. الثماد: الحفر التي فيها الماء القليل.
(6) الخرق: الفتى الكريم الخليقة.

فلم يخشوا مصالته عليهم # و تحت الرغوة اللبن الصريح [1]

فكرّ عليهم بالسيف صلتا # كما عضّ الشبا الفرس الجموح [2]

فأطلق غلّ صاحبه و أردى # جريحا منهم و نجا جريح

و قال بعض اليهود:

سئمت و أمسيت رهن الفرا # ش من حمل قوم و من مغرم

و من سفه الرأي بعد النهى # و رمت الرشاد فلم يفهم

فلو أن قومي أطاعوا الحليـ # ـم و لم يتعد و لم يظلم

و لكن قومي أطاعوا السفيـ # ـه حتى تعكّظ أهل الدم [3]

فأودى السفيه برأي الحليـ # ـم فانتشر الأمر لم يبرم

و قال بعض الشعراء:

و كنت جليس قعقاع بن شور # و لا يشقى بقعقاع جليس

ضحوك السن إن نطقوا بخير # و عند الشر مطراق عبوس

و قال الآخر:

و لست بدمّيجة في الفرا # ش و جابة يحتمي أن يجيبا

و لا ذي قلازم عند الحياض # إذا ما الشريب أراب الشريبا

و قال حجل بن نضلة:

جاء شقيق عارضا رمحه # إن بني عمّك فيهم رماح [4]

هل أحدث الدهر لنا نكبة # أم هل رقت أم شقيق سلاح

---

(1) المصالة: مصدر من صال.

(2) الصلت: المنجرد الماضي في الضراب. شبا: حد.

(3) تعكظ: تحبس.

(4) شقيق: اسم رجل. عارضا رمحه: واضعا رمحه عرضا مفتخرا به.

و قال:

ويل أمّ لذات الشباب معيشة # مع الكثر يعطاه الفتى المتلف النّد

و قد يقصر القلّ الفتى دون همه # و قد كان لو لا القلّ طلاع أنّجد [1]

و قال الآخر:

قامت تخاصرني بقبتها # خود تأطّر غادة بكر

كلّ يرى أن الشباب له # في كل مبلغ لذة عذر

و قال سعد بن ربيعة بن مالك بن سعد بن زيد مناة، و هو من قديم الشعر و صحيحه:

ألا إنما هذا السلال الذي ترى # و إدبار جسمي من ردى العثرات

و كم من خليل قد تجلدت بعده # تقطّع نفسي بعده حسرات

و قال الطرمّاح في هذا المعنى:

و شيبني أن لا أزال مناهضا # بغير ثرا أشرو به و أبوع

أ مخترمي ريب المنون و لم أنل # من المال ما أعصي به و أطيع

و قال الأضبط بن قريع:

لكلّ همّ من الهموم سعه # و المسي و الصبح لا فلاح معه

فصل حبال البعيد إن وصل الـــ # حبل و اقص القريب إن قطعه

و خذّ من الدهر ما أتاك به # من قرّ عينا بعيشه نفعه

لا تحقرنّ الفقير علك أن # تركع يوما و الدهر قد رفعه

قد يجمع المال غير آكله # و يأكل المال غير من جمعه

---

(1) يقصر: يحبس. القل: المال القليل. الأنجد: ما أشرف من الأرض و ارتفع.

و قال أعرابي، و نحر ناقة في حطمة (1) أصابتهم:

أكلنا الشوى حتى إذا لم نجد شوى # أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

و للسيف أحرى أن تباشر حده # من الجوع لا تثنى عليه المضاجع

لعمرك ما سليت نفسا شحيحة # عن المال في الدنيا بمثل المجاوع

و قدم ناقة له أخرى إلى شجرة ليكون المحتطب قريبا من المنحر، فقال:

أدنيتها من رأس عشاء عشّة # مفصّلة الأفنان صهب فروعها

و قلت لها لما شددت عقالها # و بالكفّ ممهاة شديد وقوعها

لقد غنيت نفسي عليك شحيحة # و لكن يسخّي شحّة النفس جوعها

و قال أسقف نجران:

منع البقاء تصرف الشمس # و طلوعها من حيث لا تمسي

و طلوعها بيضاء صافية # و غروبها صفراء كالورس

اليوم نعلم ما يجيء به # و مضى بفصل قضائه أمس

و قال الآخر:

و هلك الفتى أن لا يراح إلى الندى # و أن لا يرى شيئا عجيبا فيعجبا (2)

و من يتتبّع مني الظلع يلقني # إذا ما رآني أصلع الرأس أشيبا

و قال سحيم بن وثيل الرياحي (3) :

تقول حدراء ليس فيك سوى الـــ # خمر معيب يعيبه أحد

فقلت أخطأت بل معاقرتي الـــ # خمر و بذلي فيها الذي أجد

هو الثناء الذي سمعت به # لا سبد مخلدي و لا لبد (4)

---

(1) الحطمة: السنة الشديدة تحطم كل شيء.

(2) يراح: أخذته أريحية.

(3) هو سحيم بن وثيل بن اعيقر التميمي شاعر جاهلي أدرك الاسلام و أسلم. و قد عقر ثلاث مائة ناقة في معاقرة له مع والد الفرزدق غالب بن صعصعة.
(4) لا سبد و لا لبد: لا قليل و لا كثير.

ويحك لو لا الخمور لم أحفل الـــ # عيش و لا أن يضمني لحد

هي الحيا و الحياة و اللهو لا # أنت و لا ثروة و لا ولد

و قال عبد راع:

غضبت علي لأن شربت بجزّة # فلئن أبيت لأشربن بخروف

و لئن نطقت لأشربنّ بنعجة # حمراء من آل المذال سحوف

و قال:

ناحت رقية من شاة شربت بها # و لا تنوح على ما يأكل الذيب

و قال أبو حفص القريعي:

قد تغربت للشقاوة حينا # حين بذلت بالسعادة نوقا

يوم فارقت بلدتي و قراري # و تبدلت سوء رأي و موقا (1)

ليت عندي بخير معزاي عشر # طيلسانا من الطراز عتيقا

و بخمس منهن أيضا قميصا # سابريا أميس فيه رقيقا (2)

قد هجرت النبيذ مذ هنّ عندي # و تمززت رسلهن مذيقا (3)

فوجدت المذيق يوجع بطني # و وجدت النبيذ كان صديقا

يعد النفس بالعشي مناها # و يسلّ الهموم سلا رفيقا

و كان فتى طيّب من ولد يقطين لا يصحو، و كان في أهله روافض يخاصمون في أبي بكر و عمر، و عثمان و علي، و طلحة و الزبير، رضوان اللّه تعالى عليهم أجمعين، فقال:

---

(1) الموق: الحمق.

(2) السابري: الرقيق.

(3) التمزز: الشرب رويدا رويدا. الرسل: اللبن. المذيق: المخلوط بالماء.

ربّ عقار باذرنجية # اصطدتها من بيت دهقان [1]

جندرت أرواحا و طيبتها # بعد اتساخ طال في ألحان

سكتا و سلتا لم نخض في أذى # من قتل عثمان بن عفّان

و لا أبي بكر و لا طلحة # و لا زبير يوم عثمان

اللّه يجزيهم بأعمالهم # ليس علينا علم ذا الشان

و قال المنحل اليشكري [2] :

و لقد شربت من المدى # مة بالقليل و بالكثير

و لقد شربت من المدى # مة بالصغير و بالكبير

و لقد شربت الخمر بالــ # خيل الإناث و بالذكور

فإذا سكرت فإنني # ربّ الخورنق و السدير

و إذا صحوت فإنني # ربّ الشويهة و البعير

يا ربّ يوم للمنخّ # ل قد لها فيه قصير

و قال بعضهم لزائر له و رآه يومي إلى امرأته، و هو أبو عطاء السندي:

كل هنيئا و ما شربت مريئا # ثم قم صاغرا فغير كريم

لا أحبّ النديم يومض بالعيــ # ن إذا ما خلا بعرس النديم

و قال الآخر، و تعرضت له امرأة صاحبه:

ربّ بيضاء كالقضيب تثني # قد دعتني لوصلها فأبيت

ليس شأني تحرّجا غير أني # كنت ندمان زوجها فاستحيت

و قال الآخر:

فلا و اللّه لا ألفى و شربا # أنازعهم شرابا ما حييت

و لا و اللّه ما ألفى بليل # أراقب عرس جاري ما بقيت

(1) العقار: الخمر. باذرنجية نسبة إلى بنت تدعى باذرنجوية ذات زهر عطر. الدهقان: التاجر.

(2) المنخل اليشكري شاعر جاهلي نادم النعمان و رمي بامرأته المتجردة.

سأترك ما أخاف علي منه # مقالته و أجمله السكوت

أبى لي ذاك آباء كرام # و أجداد تمجدهم ربيت

و قال السحيميّ:

ما لي وجه في اللئام و لا يد # و لكن وجهي في الكرام عريض

أهشّ إذا لاقيتهم و كأنني # إذا أنا لاقيت اللئام مريض

و قال ابن كناسة:

في انقباض و حشمة فإذا # لاقيت أهل الوفاء و الكرم

خليت نفسي على سجيتها # و قلت ما قلت غير محتشم

و قال عبد الرحمن بن الحكم:

و كأس نرى بين الإناء و بينها # قذى العين قد نازعت أمّ أبان

ترى شاربيها حين يعتقبانها # يميلان أحيانا و يعتدلان

فما ظنّ ذا الواشي بأبيض ماجد # و بدّاء خود حين يلتقيان [1]

و قال رمّاح بن ميّادة–و كان الأصمعي يقول: ختم الشعر بالرماح. و أظن النابغة أحد عمومته–:

ألا ربّ خمار طرقت بسدفة # من الليل مرتادا لندماني الخمرا

فأنهلته خمرا و أحلف أنها # طلاء حلال كي يحملني الوزرا [2]

و قال آخر:

و لقد شربت الخمر حتى خلتني # لما خرجت أجرّ فضل المئزر

قابوس أو عمرو بن هند قاعدا # يجبى له ما بين دارة قيصر

في فتية بيض الوجوه خضارم # عند الندام عشيرهم لم يخسر [3]

(1) البداء: الكثيرة لحم الفخذين: الفتاة الحسنة الخلق.

(2) الطلاء: ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه.
(3) خضارم: جواد، كثير العطاء.

و قال ابن ميّادة:

و معتق حرم الوقود كرامة # كدم الذبيح تمجّه أوداجه [1]

ضمن الكروم له أوائل حمله # و على الدنان تمامه و نتاجه

من الشعر السياسي:

و أنشد اللائح لبعض الروافض:

إذا المرجي سرّك أن تراه # يموت بدائه من قبل موته

فجدّد عنده ذكرى علي # و صلّ على النبي و أهل بيته

و قال بعضهم في البرامكة:

إذا ذكر الشّرك في مجلس # أنارت وجوه بني برمك

و إن تليت عندهم آية # أتوا بالأحاديث عن مزدك

و قال آخر:

لعن اللّه آل برمك إني # صرت من أجلهم أخا أسفار

إن يك ذو القرنين قد مسح الأر # ض فإني موكل بالعيار [2]

و قال آخر:

إن الفراغ دعاني # إلى ابتناء المساجد

و إن رأيي فيها # كرأي يحيى بن خالد

و قال أبو الهول [3] في جعفر بن يحيى بن خالد:

أصبحت محتاجا إلى الضرب # في طلب العرف إلى الكلب

---

(1) حرم الوقود: لم يطبخ بالنار.

(2) مسح الأرض: ذرعها و قاسها.

(3) اسمه عامر بن عبد الرحمن الحميري، شاعر عباسي مقل مدح المهدي و الهادي و الرشيد و الأمين. و أبو الهول كنية له.

إذا شكا صبّ إليه الهوى # قال له مالي و للصبّ

أعني فتى يطعن في دينه # يشبّ معه خشب الصلب

قد وقح السبّ له وجهه # فصار لا ينحاش للسب

و قال رجل شآمي:

أبعد مروان و بعد مسلمة # و بعد اسحاق الذي كان لمه

صار على الثغر فريخ الرخمه [1] # إن لنا بفعل يحيى نقمه

مهلكة مبيرة منتقمه [2] # أكلا بني برمك أكل الحطمه [3]

إن لهذا الأكل يوما تخمه # أيسر شيء فيه حزّ الغلصمه [4]

و قال الشاعر:

ما رعى الدهر آل برمك لما # أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إن دهرا لم يرع حقا ليحيى # غير راع ذمام آل الربيع

و قال سهل بن هارون في يحيى بن خالد:

عدو تلاد المال فيما ينوبه # منوع إذا ما منعه كان أحزما

مذلل نفس قد أبت غير أن ترى # مكاره ما تأتي من الحق مغنما

و قال اسحاق بن حسان:

من مبلغ يحيى و دون لقائه # زبرات كلّ خنابس همهام [5]

يا راعي السلطان غير مفرط # في لين مختبط و طيب شمام [6]

---

(1) الرخمة: طائر يحسب مثلا في الحمق و اللؤم.
(2) مبيرة: مهلكة.
(3) الحطمة: النار الشديدة تحطم كل شيء.
(4) غلصمة: رأس الحلقوم.
(5) زبر: زجر، انتهر. خنابس: جريء، شجاع.
(6) المختبط: السائل. الشمام: يعني إذا قاربت أحدا و دنوت منه.

يعذي مسارحه و يصفي شربه # و يبيت بالربوات و الأعلام [1]

حتى تبحبح ضاربا بجرانه # و رست مراسيه بدار سلام [2]

في كل ثغر حارس من قلبه # و شعاع طرف لا يفتّر سام

و هذا شبيه بقول العتّابي في هارون:

أمام له كف يضم بنانها # عصا الدين ممنوعا من البري عودها

و عين محيط بالبرية طرفها # سواء عليه قربها و بعيدها

و أصمع يقظان يبيت مناجيا # له في الحشا مستودعات يكيدها [3]

سميع إذا ناداه من قعر كربة # مناد كفته دعوة لا يعيدها

و قال أيضا كلثوم بن عمرو العتّابي:

تلوم على ترك الغنى باهليّه # زوى الدهر عنها كل طرف و تالد

رأت حولها النسوان يرفلن في الكسا # مقلدة أجيادها بالقلائد

يسّرك أني نلت ما نال جعفر # من الملك أو ما نال يحيى بن خالد

و إن أمير المؤمنين أغصني # مغصهما بالمرهفات البوارد

ذريني تجئني. ميتتي مطمئنة # و لم أتجشم هول تلك الموارد

فإن كريمات المعالي مشوبة # بمستودعات في بطون الأساود

و قال الحسن بن هانئ:

عجبت لهارون الإمام و ما الذي # يروّي و يرجو فيك يا خلقة السّلق [4]

قفا خلف وجه قد أطيل كأنه # قفا ملك يقضي الحقوق على بثق [5]

و أعظم زهوا من ذباب على خرا # و أبخل من كلب عقور على عرق

---

(1) يعذي: يصير طيبا.

(2) ضرب بجرانه: استقر و استقام.

(3) الأصمع: القلب الذكي، المتيقظ. يكيدها: يعالجها.

(4) السلق: الذئب.
(5) بثق: اسراع دمع العين في النزول.

أرى جعفرا يزداد بخلا و دقة # إذا زاده الرحمن في سعة الرزق

و لو جاء غير البخل من عند جعفر # لما وضعوه الناس إلا على الحمق

و لما أنشد ابن أبي حفصة الفضل بن يحيى بن خالد:

ضربت فلا شلّت يد خالدية # رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

قال له الفضل: قل: «فلا شلّت يد برمكية» ، فخالد كثير، و ليس برمك إلا واحدا.

و قال سلم في يحيى، و يحيى يومئذ شاب:

و فتى خلا من ماله # و من المروءة غير خال

و إذا رأى لك موعدا # كان الفعال مع المقال

للّه درّك من فتى # ما فيك من كرم الخلال

أعطاك قبل سؤاله # فكفاك مكروه السؤال

و من جيد ما قيل فيهم:

للفضل يوم الطالقان، و قبله # يوم أناخ به على خاقان [1]

ما مثل يوميه اللذين تواليا # في غزوتين حواهما يومان

عصمت حكومته جماعة هاشم # من أن يجرّد بينها سيفان

تلك الحكومة لا التي عن لبسها # عظم الثأي و تفرّق الحكمان [2]

و قال الحسن بن هانئ، في جعفر بن يحيى:

ذاك الوزير الذي طالت علاوته # كأنه ناظر في السيف بالطول [3]

---

(1) الطالقان: بلدة بين قزوين و ابهر. و الفضل هو ابن يحيى بن خالد حبسه الرشيد اثر نكبة البرامكة، بعد أن ولاه على طبرستان و أرمينية و أذربيجان سنة 176 هـ. و قد اشتهر بكرمه.

(2) الثأى: الفساد، و الأمر العظيم.

(3) العلاوة: أعلى الرأس.

ذكروا أن جعفر بن يحيى كان أول من عرّض الجربّانات (1) لطول عنقه.

و قال معدان الأعمى، و هو أبو السّريّ الشميطيّ:

يوم تشفى النفوس من يعصر اللؤ # م و يثنى بسامة الرحّال

و عدي و تيمها و ثقيف # و أميّ و تغلب و هلال

لا حرورا و لا النوابت تنجو # لا و لا صحب واصل الغزّال

غير كفتي و من يلوذ بكفتي # فهم رهط الأعور الدجال (2)

و بنو الشيخ و القتيل بفخ # بعد يحيى و موتم الأشبال

سنّ ظلم الإمام في القوم زيد # إن ظلم الإمام ذو عقّال (3)

و قال الكميت:

آمت نساء بني أمية منهم # و بنوهم بمضيعة أيتام

نامت جدودهم و أسقط نجمهم # و النجم يسقط و الجدود تنام

خلت المنابر و الأسرة منهم # فعليهم حتى الممات سلام

و قال خليفة، أبو خلف بن خليفة:

أعفني آل هاشم يا أميا # جعل اللّه بيت مالك فيّا

إن عصى اللّه آل مروان و العا # صي لقد كان للرسول عصيا

---

(1) الجربانات: مفردها جربان و هو جيب القميص.

(2) الأعور الدجال: هو المسيح الدجال، سمي كذلك لأنه ممسوح العين.

(3) في هذه الأبيات يهجو ابو السري الشميطي جميع الفرق الاسلامية من خوارج حرورية، و نوابت اموية، و معتزلة أتباع واصل بن عطاء الملقب بالغزال، و زيدية أتباع زيد بن علي ابن الحسين بن أبي طالب و ابنيه يحيى و عيسى مؤتم اللبوة، و يدعو الى الامام محمد بن.

جعفر الصادق الذي تقول به فرقة الشميطية أتباع يحيى بن شميط بعد جعفر الصادق.

و قال الراعي في بني أمية:

بني أميّة إن اللّه ملحقكم # عما قليل بعثمان بن عفّان

و قال خلف بن خليفة:

لو تصفّحت أولياء علي # لم تجد في جميعهم باهليا

و قال كعب الأشقري لعمر بن عبد العزيز:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما # عمال أرضك بالبلاد ذئاب

لن يستجيبوا للذي تدعو له # حتى تجلّد بالسيوف رقاب

بأكفّ منصلتين أهل بصائر # في وقعهن مزاجر و عقاب

هلا قريش ذكرت بثغورها # حزم و أحلام هناك رغاب

لو لا قريش نصرها و دفاعها # ألفيت منقطعا بي الأسباب

فلما سمع هذا الشعر قال: لمن هذا؟قالوا: لرجل من أزد عمان، يقال له كعب الأشقري! قال: ما كنت أظن أهل عمان يقولون مثل هذا الشعر.

قال أبو اليقظان: و قام إلى عمر بن عبد العزيز رجل و هو على المنبر فقال:

إن الذين بعثت في أقطارها # نبذوا كتابك و استحلّ المحرم

طلس الثياب على منابر أرضنا # كلّ يجور و كلهم يتظلم

و أردت أن يلي الأمانة منهم # عدل و هيهات الأمين المسلم

و كان زيد بن علي كثيرا ما يتمثل بقول الشاعر:

شرّده الخوف و أزرى به # كذاك من يكره حرّ الجلاد

منخرق الخفّين يشكو الوجى # تنكبه أطراف مرو حداد

قد كان في الموت له راحة # و الموت حتم في رقاب العباد

و قال عبد اللّه بن كثير السهميّ، و كان يتشيع، لولاّدة كانت نالته.

و سمع عمّال خالد بن عبد اللّه القسري يلعنون عليا و الحسين على المنابر:

لعن اللّه من يسبّ عليا # و حسينا من سوقة و إمام

أ يسبّ المطيبون جدودا # و الكرام الأخوال و الأعمام (1)

يأمن الظبي و الحمام و لا يأ # من آل الرسول عند المقام (2)

طبت بيتا و طاب أهلك أهلا # أهل بيت النبي و الإسلام

رحمة اللّه و السلام عليهم # كلما قام قائم بسلام

و قال حين عابوه بذلك الرأي:

إن امرأ أمست معايبه # حبّ النبي لغير ذي ذنب

و بني أبي حسن و والدهم # من طاب في الأرحام و الصلب

أ يعدّ ذنبا أن أحبهم # بل حبهم كفّارة الذنب

و قال يزيد بن أبي بكر بن دأب الليثي:

اللّه يعلم في علي علمه # و كذاك علم اللّه في عثمان

و قال السيد الحميري:

إني امرؤ حميري غير مؤتشب # جدي رعين و أخوالي ذوو يزن

ثم الولاء الذي أرجو النجاة به # يوم القيامة للهادي أبي الحسن

---

(1) المطيبون: المطهرون.

(2) المقام: الحرم.

و قال ابن أذينة:

سمين قريش مانع منك لحمه # و غثّ قريش حيث كان سمين

و قال ابن الرقيات:

ما نقموا من بني أمية إلا # أنهم يحلمون إن غضبوا

و أنهم معدن الملوك و لا # تصلح إلا عليهم العرب

و قال عروة بن أذينة:

إذا قريش تولي خير صالحها # فاستيقنن بأن لا خير في أحد

رهط النبي و أولى الناس منزلة # بكل خير و أثرى الناس في العدد

و قال حسان بن ثابت، يرثي أبا بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه:

إذا تذكّرت شجوا من أخي ثقة # فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

التالي الثاني المحمود مشهده # و أول الناس منهم صدّق الرسلا

و ثاني اثنين في الغار المنيف و قد # طاف العدو به إذ صعد الجبلا

و كان حبّ رسول اللّه قد علموا # خير البرية لم يعدل به رجلا

و قال بعض بني أسد:

لما تخيّر ربي فارتضى رجلا # من خلقه كان منا ذلك الرجل

لنا المساجد نبنيها و نعمرها # و في المنابر قعدان لنا ذلل

و قال يزيد بن الحكم بن أبي العاص، في شأن السقيفة:

قد اختصم الأقوام بعد محمد # فسائل قريشا حين جدّ اختصامها

أ لم تك من دون الخليقة أمة # بكف امرئ من آل تيم زمامها

هدى اللّه بالصدّيق ضلال امّة # إلى الحق لما ارفضّ عنها نظامها

و قالت صفية في ذلك اليوم:

قد كان بعدك أنباء و هنبثة # لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب [1]

أنا فقدناك فقد الأرض و ابلها # و اختلّ قومك فاشهدهم فقد سغبوا [2]

و قال الفرزدق:

صلى صهيب ثلاثا ثم أسلمها # إلى ابن عفان ملكا غير مقصور

ولاية من أبي حفص لثالثهم # كانوا أخلاّء مهديّ و محبور

و قال مزرّد بن ضرار يرثي عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه:

عليك السلام من إمام و باركت # يد اللّه في ذاك الأديم الممزّق

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها # بوائق في أكمامها لم تفتّق [3]

و ما كنت أخشى أن تكون وفاته # بكفي سبنتى أزرق العين مطرق [4]

و قال: و سمعوا في تلك الليلة هاتفا يقول:

ليبك على الإسلام من كان باكيا # فقد أوشكوا هلكا و ما قدم العهد

و أدبرت الدنيا و أدبر خيرها # و قد ملّها من كان يوقن بالوعد

و عن أبي الجحاف، عن مسلم البطين:

إنا نعاقب لا أبا لك عصبة # علقوا الفري و بروا من الصديق [5]

و بروا سفاها من وزير نبيهم # تبّا لمن يبرا من الفاروق

إني على رغم العداة لقائل # دنا بدين الصادق المصدوق

---

(1) الهنبثة: الأمور الشدائد.

(2) اختل القوم: احتاجوا و افتقروا. السغب: شدة الجوع.

(3) البوائق: الدواهي، البلايا.

(4) سبنتى: نمر. المطرق: المسترخي العين، و الاطرق صفة من الأفعى.

(5) الفرى: من فرية: كذبة.

و قال الكميت:

فقل لبني أمية حيث حلوا # و ان خفت المهنّد و القطيعا

أجاع اللّه من أشبعتموه # و أشبع من بجوركم أجيعا

بمرضيّ السياسة هاشمي # يكون حيا لأمته ربيعا

و قال حرب بن المنذر بن الجارود، و كان يتفتّى و يتشيّع، في كلمة له:

فحسبي من الدنيا كفاف يقيمني # و أثواب كتّان أزور بها قبري

و حبي ذوي قربى النبي محمّد # فما سالنا إلا المودّة من أجر

دولة الأمويين و دولة العباسيين و المؤرخون العرب

وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلّفه نشاط القارئ له، و يسوقه إلى حظّه بالاحتيال له. فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء، و من باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن، و من جمهور ذلك العلم.

و قد يجب أن نذكر بعض ما انتهى إلينا من كلام خلفائنا من ولد العباس، و لو أن دولتهم عجميّة خراسانية، و دولة بني مروان عربية أعرابية و في أجناد شاميّة.

و العرب أوعى لما تسمع، و احفظ لما تأتى، و لها الأشعار التي تقيّد عليها مآثرها، و تخلّد لها محاسنها. و جرت من ذلك في إسلامها على مثل عادتها في جاهليتها، فبنت بذلك لبني مروان شرفا كثيرا و مجدا كبيرا، و تدبيرا لا يحصى.

و لو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام، و تدبير ملوكهم، و سياسة كبرائهم، و ما جرى في ذلك من فرائد الكلام و شريف المعاني، كان فيما قال المنصور و ما فعل في أيامه، و أسّس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان.

و لقد تتبّع أبو عبيدة النحوي، و أبو الحسن المدائني و هشام بن الكلبي، و الهيثم ابن عدي، أخبارا قد اختلفت، و أحاديث قد تقطّعت، فلم يدركوا إلا قليلا من كثير، و ممزوجا من خالص.

و على كل حال فإنا إذ صرنا إلى بقية ما رواه العباس بن محمد، و عبد الملك بن صالح، و العباس بن موسى، و اسحاق بن عيسى، و اسحاق بن سليمان (1) ، و أيوب بن جعفر (2) ، و ما رواه إبراهيم بن السندي عن السندي (3) ، و عن صالح صاحب المصلّي، عن مشيخة بني هاشم و مواليهم- عرفت بتلك البقية كثرة ما فات، و بذلك الصحيح أين موضع الفساد مما صنعه الهيثم بن عدي، و تكلفه هشام بن الكلبي.

أخبار المنصور و المهدي و المأمون

و سنذكر جملا مما انتهى إلينا من كلام المنصور و من شأن المأمون و غيرهما و إن كنا قد ذكرنا من ذلك طرفا، و نقصد من ذلك إلى التخفيف و التقليل، فإنه يأتي من وراء الحاجة، و يعرف بجملته مراد البقية.

قال: و كان المنصور داهيا أريبا، مصيبا في رأيه سديدا، و كان مقدّما في علم الكلام، و مكثرا من كتاب الآثار. و لكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف عندهم. و لما هم بقتل أبي مسلم سقط بين الاستبداد برأيه و المشاورة فيه، فأرق في ذلك ليلته، فلما أصبح دعا باسحاق بن مسلم العقيلي، فقال له: حدثني حديث الملك الذي أخبرتني عنه بحرّان. قال: أخبرني أبي عن الحصين بن المنذر أن ملكا من ملوك فارس-يقال له سابور الأكبر-كان له وزير ناصح قد اقتبس أدبا من آداب الملوك، و شاب ذلك بفهم في الدين، فوجهه

---

(1) إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد اللّه بن العباس، ولي لهارون الرشيد المدينة و البصرة و مصر و السند و ولي للأمين حمص و أرمينية.

(2) أيوب بن جعفر بن سليمان العباسي، عالم بأخبار الدولة العباسية و أحد أتباع النظّام.

(3) إبراهيم بن السندي بن شاهك، احتل منزلة رفيعة عند الرشيد و الأمين.

سابور داعية إلى أهل خراسان، و كانوا قوما عجما يعظّمون الدنيا جهالة بالدّين، و يخلّون بالدين استكانة لقوت الدنيا، و ذلا لجبابرتها، فجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا، و اغتر بقتل ملوكهم لهم و تخوّلهم إياهم- و كان يقال: «لكل ضعيف صولة، و لكل ذليل دولة» -فلما تلاحمت أعضاء الأمور التي لقح، استحالت حربا عوانا شالت أسافلها بأعاليها، فانتقل العزّ إلى أرذلهم، و النباهة إلى أخملهم، فأشربوا له حبا مع خفض من الدنيا افتتح بدعوة من الدين، فلما استوسقت له البلاد بلغ سابور أمرهم و ما أحال عليه من طاعتهم، و لم يأمن زوال القلوب و غدرات الوزراء، فاحتال في قطع رجائه عن قلوبهم، و كان يقال:

و ما قطع الرجاء بمثل يأس # تبادهه القلوب على اغترار

فصمّم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان و فرسانهم، فقتله، فبغتهم بحدث، فلم يرعهم إلا و رأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة و نأي الرجعة، و تخطّف الأعداء، و تفرّق الجماعة، و اليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستتموا الدعوة بطاعة سابور، و يتعوضوه من الفرقة، فأذعنوا له بالملك و الطاعة، و تبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حتف أنفه.

فأطرق المنصور مليا ثم رفع رأسه و هو يقول:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا # و ما علّم الإنسان إلا ليعلما

و أمر اسحاق بالخروج و دعا بأبي مسلم، فلما نظر إليه داخلا قال:

قد اكتنفتك خلاّت ثلاث # جلبن عليك محذور الحمام

خلافك و امتنانك ترتميني # وقودك للجماهير العظام

ثم وثب إليه و وثب معه بعض حشمه بالسيوف على أبي مسلم، فلما رآهم وثب، فبدره المنصور فضربه ضربة طوّحه منها (1) ، ثم قال:

اشرب بكأس كنت تسقي بها # أمرّ في الحلق من العلقم

زعمت أن الدين لا يقتضى # كذبت فاستوف أبا مجرم

ثم أمر فحز رأسه و بعث به إلى أهل خراسان و هم ببابه، فجالوا حوله ساعة ثم ردّ من شغبهم انقطاعهم عن بلادهم، و إحاطة الأعداء بهم، فدلّوا و سلّموا له.

فكان اسحاق إذا رأى المنصور قال:

و ما أحذو لك الأمثال إلا # لتحذو إن حذوت على مثال (2)

و كان المنصور إذا رآه قال:

و خلفها سابور للناس يقتدى # بأمثالها في المعضلات العظائم

و كان المهديّ يحبّ القيان و سماع الغناء، و كان معجبا بجارية يقال لها «جوهر» ، و كان اشتراها من مروان الشامي، فدخل عليه ذات يوم مروان الشامي و جوهر تغنّيه، فقال مروان:

أنت يا جوهر عندي جوهرة # في بياض الدرّة المشتهرة

فإذا غنت فنار ضرّمت # قدحت في كلّ قلب شرره

فاتّهمه المهدي، و أمر به فدعّ (3) في عنقه إلى أن أخرج. ثم قال لجوهر: أطربيني. فأنشأت تقول:

و أنت الذي أخلفتني ما وعدتني # و اشمتّ بي من كان فيك يلوم

---

(1) طوحه: أهلكه.
(2) حذا الشيء بالشيء: قد و قطعه على مثاله.
(3) دع: دفع بعنف و جفوة.

و أبرزتني للناس ثم تركتني # لهم غرضا أرمى و أنت سليم

فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا # بجسمي من قول الوشاة كلوم [1]

فقال المهدي:

ألا يا جوهر القلب # لقد زدت على الجوهر

و قد أكملك اللّه # بحسن الدّل و المنظر [2]

إذا ما صلت، يا أحـــ # سن خلق اللّه، بالمزهر [3]

و غنّيت ففاح البيـــ # ت من ريحك بالعنبر

فلا و اللّه ما المهدي # أولى منك بالمنبر

فإن شئت ففي كفـــ # ك خلع ابن أبي جعفر

قال الهيثم: أنشدت هارون و هو وليّ عهد أيام موسى، بيتين لحمزة بن بيض في سليمان بن عبد الملك:

حاز الخلافة والداك كلاهما # من بين سخطة ساخط أو طائع

أبواك ثم أخوك أصبح ثالثا # و على جبينك نور ملك ساطع

قال: يا يحيى، أكتب لي هذين البيتين.

و لما مدح ابن هرمة أبا جعفر المنصور، أمر له بألفي درهم، فاستقلّها، و بلغ ذلك أبا جعفر فقال: أ ما يرضى إني حقنت دمه و قد استوجب إراقته، و وفّرت ماله و قد استحقّ تلفه، و أقررته و قد استأهل الطرد، و قربته و قد استجزى البعد؟أ ليس هو القائل في بني أمية:

---

(1) كلوم: جراح.

(2) الدل: الحسن، حسن الحديث.

(3) المزهر: العود الذي يضرب به.

إذا قيل من عند ريب الزمان # لمعترّ فهر و محتاجها [1]

و من يعجل الخيل يوم الوغى # بالجامها قبل اسراجها

أشارت نساء بني مالك # إليك به قبل أزواجها

قال ابن هرمة: فإني قد قلت فيك أحسن من هذا!قال: هاته!قال:

قلت:

إذا قلت أيّ فتى تعلمون # أهشّ إلى الطعن بالذابل [2]

و اضرب للقرن يوم الوغى # و أطعم في الزمن الماحل

أشارت إليك أكف الورى # إشارة غرقى إلى ساحل

قال المنصور: أما هذا الشعر فمسترق، و أما نحن فلا نكافيء إلا بالتي هي أحسن.

و لما احتال أبو الأزهر المهلّب لعبد الحميد بن ربعيّ بن خالد بن معدان، و أسلمه حميد إلى المنصور قال: لا عذر فأعتذر، و قد أحاط بي الذنب و أنت أولى بما ترى: قال: لست أقتل أحدا من آل قحطبة، بل أهب مسيئهم لمحسنهم، و غادرهم لوفيهم!قال: إن لم يكن في مصطنع فلا حاجة لي في الحياة، و لست أرضى أن أكون طليق شفيع، و عتيق ابن عمّ!قال:

أسكت مقبوحا مشقوحا [3] ، و أخرج فإنك أنوك جاهل، أنت عتيقهم و طليقهم ما حييت.

و لما داهن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم ابن عبد اللّه [4] ، و صار إلى المنصور، أمر الربيع بخلع سواده و الوقوف به على

---

(1) المعتر: المتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

(2) الذابل: الرماح الدقيقة.

(3) المقبوح و المشقوح: المبعد-المطرود.

(4) إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن بن علي بن ابي طالب خرج على المنصور سنة 145 هـ و احتل البصرة و الأهواز و واسط و كسكر و توجه نحو الكوفة فاصطدم بجيوش المنصور و قتل.

رأس اليمانية في المقصورة يوم الجمعة ثم قال: قل لهم: يقول لكم أمير المؤمنين: قد عرفتم ما كان من إحساني إليه، و حسن بلائي عنده، و قديم نعمتي عليه، و الذي حاول من الفتنة، و رام من البغي، و أراد من شق العصا و معاونة الأعداء، و إراقة الدماء، و أنه قد استحق بهذا من فعله أليم العقاب، و عظيم العذاب. و قد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه، و رب نعمائه السابقة عنده، لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عائدة اللّه عليه، و ما يؤمله من الخير العاجل و الآجل، عند العفو عمن ظلم، و الصفح عمن أساء. و قد وهب أمير المؤمنين مسيئكم لمحسنكم، و غادركم لوفيكم.

و قال سهل بن هارون يوما، و هو عند المأمون: من أصناف العلم مالا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، و قد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال!قال المأمون: قد يسمى بعض الشيء علما و ليس بعلم، فإن كنت هذا أردت فوجهه الذي ذكرناه. و لو قلت: العلم لا يدرك غوره، و لا يسبر قعره، و لا تبلغ غايته، و لا يستقصى أصنافه، و لا يضبط آخره، فالأمر على ما قلت. فإذا فعلتما ذلك كان عدلا، و قولا صدقا. و قد قال بعض العلماء: أقصد من أصناف العلم إلى ما هو أشهى إلى نفسك و أخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك له، و سهولته عليك. و قال أيضا بعض الحكماء: لست أطلب العلم طمعا في بلوغ غايته، و الوقوف على نهايته. و لكن التماس مالا يسع جهله، و لا يحسن بالعاقل إغفاله. و قال آخرون: علم الملوك النسب و الخبر و جمل الفقه، و علم التجار الحساب و الكتاب، و علم أصحاب الحرب درس كتب المغازي و كتب السير.

فأما أن تسمّي الشيء علما و تنهى عنه من غير أن يكون يشغل عما هو أنفع منه، بل تنهي نهيا جزما، و تأمر أمرا حتما!و العلم بصر، و خلافه عمى، و الاستبانة للشر ناهية عنه، و الاستبانة للخير آمرة به.

و لما قرأ المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به، و صرت إليه

و قد كان أمر اليزيدي (1) بالنظر فيها ليخبره عنها، قال لي: قد كان بعض من يرتضى عقله و يصدّق خبره خبّرنا عن هذه الكتب بأحكام الصنعة و كثرة الفائدة، فقلنا له: قد تربي الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة، فلما فليتها أربى الفلي على العيان كما أربى العيان على الصفة.

و هذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه، و لا يفتقر إلى المحتجّين عنه، قد جمع استقصاء المعاني، و استيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، و المخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، و عامي خاصي.

و لما دخل عليه المرتدّ الخراساني و قد كان حمله معه من خراسان حتى وافى به العراق، قال له المأمون:

لأن استحييك بحق أحبّ إلي من أن أقتلك بحق، و لأن أقبلك بالبراءة أحب إلي من أن أدفعك بالتهمة، قد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيا، و كنت فيها أتنخ (2) و أيامك أطول، فاستوحشت مما كنت به آنسا ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرا، فخبرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من ألفك القديم، و أنسك الأول. فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به، و المريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة. و إن أخطأك الشفاء و نبا عن دائك الدواء، كنت قد أعذرت و لم ترجع على نفسك بلائمة، فإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة. أو ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار و الثقة، و تعلم أنك لم تقصر في اجتهاد، و لم تفرط في الدخول في باب الحزم.

قال المرتد: أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم!

---

(1) اليزيدي هو يحيى بن المبارك بن المغيرة اليزيدي، عمل مؤدبا لأولاد يزيد بن منصور الحميري خال المهدي فنسب إليه، ثم عمل مؤدبا للمأمون بن الرشيد، و كان عالما و قارئا كبيرا يقرئ و الكسائي الناس في مسجد بغداد. توفي سنة 202 هـ.

(2) أتنخ: مقيما.

قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالإختلاف في الأذان و تكبير الجنائز، و الاختلاف في التشهد و صلاة الأعياد و تكبير التشريق، و وجوه القراءات و اختلاف وجوه الفتيا و ما أشبه ذلك. و ليس هذا باختلاف إنما هو تخيير و توسعة، و تخفيف من المحنة. فمن أذن مثنى و أقام مثنى لم يؤثم، و من أذن مثنى و أقام فرادى لم يحوّب (1) ، لا يتعايرون و لا يتعايبون، أنت ترى ذلك عيانا و تشهد عليه بتاتا.

و الاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، و تأويل الحديث عن نبينا، مع إجماعنا على أصل التنزيل، و اتفاقنا على عين الخبر.

فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة و الإنجيل متفقا على تأويله، كما يكون متفقا على تنزيله، و لا يكون بين جميع النصارى و اليهود اختلاف في شيء من التأويلات.

و ينبغي لك أن لا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها.

و لو شاء اللّه أن ينزل كتبه و يجعل كلام أنبيائه و ورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل، و لكنا لم نر شيئا من الدين و الدنيا دفع إلينا على الكفاية، و لو كان كان الأمر كذلك لسقطت البلوى و المحنة، و ذهبت المسابقة و المنافسة، و لم يكن تفاضل، و ليس على هذا بنى اللّه الدنيا.

قال المرتدّ: أشهد أن اللّه واحد لا ندّ له و لا ولد، و أن المسيح عبده، و إن محمدا صادق، و إنك أمير المؤمنين حقا! فأقبل المأمون على أصحابه فقال: فروا عليه عرضه، و لا تبرّوه في يومه ريثما يعتق إسلامه، كي لا يقول عدوه أنه أسلم رغبة. و لا تنسوا بعد نصيبكم من برّه و تأنيسه و نصرته، و العائدة عليه.

حدثنا أحمد بن أبي داود قال: قال لي المأمون:

---

(1) لم يحوب: لم يأثم.

لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم، و لا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك و حماتهم و كفاتهم، و بين صنائعهم و بطانتهم. و ذلك أنهم يرون ظاهر حرمة و خدمة، و اجتهاد و نصيحة، و يرون إيقاع الملوك بهم ظاهرا، حتى لا يزال الرجل يقول: ما أوقع به إلا رغبة في ماله، أو رغبة في بعض مالا تجود النفس به، و لعل الحسد و الملالة و شهوة الاستبدال، اشتركت في ذلك.

و هناك خيانات في صلب الملك، أو في بعض الحرم، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك، و لا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، و لا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد، على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة، و لا معروف عند أكثر الخاصة.

و نزل رجل من أهل العسكر، فغدا بين يدي المأمون، و شكا إليه مظلمته، فأشار بيده: أن حسبك!فقال له بعض من كان يقرب من المأمون:

يقول لك أمير المؤمنين: اركب. قال المأمون: لا يقال لمثل هذا:

اركب، إنما يقال له: انصرف! و حدثني إبراهيم بن السندي قال: بينا الحسن اللؤلؤي يحدث المأمون ليلا و هو بالرقّة، و هو يومئذ ولي عهد، و أطال الحسن الحديث حتى نعس المأمون، فقال الحسن: نعست أيها الأمير!ففتح عينيه و قال: سوقي و ربّ الكعبة!يا غلام خذ بيده.

نوادر النوكى و المجانين و جفاة الأعراب

ذكر بقية كلام النوكى و الموسوسين و الجفاة و الأغبياء و ما ضارع ذلك و شاكله، و أحببنا أن لا يكون مجموعا في مكان واحد إبقاء على نشاط القارئ و المستمع.

مرّ ابن أبي علقمة بمجلس بني ناجية، فكبا حماره لوجهه، فضحكوا منه، فقال: ما يضحككم؟رأى وجوه قريش فسجد! أبو الحسن قال: أتى رجل عباديّا صيرفيا، يستسلف منه مائتي درهم، فقال: و ما تصنع بها؟قال: أشتري بها حمارا فلعلي أربح فيه عشرين درهما! قال: إذا أنا وهبتك العشرين فما حاجتك إلى المائتين؟قال: ما أريد إلا المائتين!فقال: أنت لا تريد أن تردّها عليّ.

قال: و أتى قوم عباديّا فقالوا: نحب أن تسلف فلانا ألف درهم و تؤخره سنة. فقال: هاتان حاجتان، و سأقضي لكم إحداهما، و إذا فعلت ذلك فقد أنصفت أما الدراهم فلا تسهل علي، و لكني أؤخره سنتين.

و لعب رجل قدّام بعض الملوك بالشطرنج، فلما رآه قد استجاد لعبه و فاوضه الكلام (1) قال له: لم لا توليني نهر بوق؟قال: أوليك نصفه، أكتبوا له عهده على بوق! و قال له مرّة: ولّني أرمينية. قال: يبطئ على أمير المؤمنين خبرك.

و قدم آخر على صاحب له من فارس، فقال: قد كنت عند الأمير فأي شيء ولاّك؟قال: ولاّني قفاه! قال: و نظر أمير إلى أعرابي فقال: لقد هم لي الأمير بخير؟قال: ما فعلت؟قال: فبشرّ؟قال: و ما فعلت؟قال: إن الأمير لمجنون! قال أبو الحسن: شهد مجنون على امرأة و رجل بالزناء فقال الحاكم:

تشهد أنك رأيته يدخله و يخرجه؟قال: و اللّه إن لو كنت جلدة استها لما شهدت بهذا.

قال: و كان رجل من أهل الريّ يجالسنا، فاحتبس عنا، فأتيته فجلست

(1) فاوضه الكلام: جاراه فيه.

معه على بابه، و إذا رجل يدخل و يخرج فقلت: من هذا؟فسكت، ثم أعدت فسكت، فلما أعدت الثالثة قال: هو زوج أخت خالتي! و قال الشاعر:

إذا المرء جاز الأربعين و لم يكن # له دون ما يأتي حياء و لا ستر

فدعه و لا تنفس عليه الذي أتى # و لو جر أرسان الحياة له الدهر

أعرابي خاصمته امرأته إلى السلطان، فقيل له: ما صنعت؟قال:

خيرا، كبّها اللّه لوجهها، و أمر بي إلى السجن! قال أبو الحسن: عرض الأسد لأهل قافلة، فتبرّع عليهم رجل، فخرج إليه فلما رآه سقط و ركبه الأسد، فشدوا عليه بأجمعهم، فتنحى عنه الأسد، فقالوا له: ما حالك؟قال: لا بأس علي، و لكن الأسد خري في سراويلي.

أبو الحسن: قال أبو عباية السّليطي: قد فسد الناس!قلت: و كيف؟ قال: ترى بساتين هزار مرد هذه ما كان يمر بها غلام إلا بخفير. قلت: هذا صلاح!قال: لا بل فساد.

أبو الحسن قال: خطب سعيد بن العاص، عائشة بنت عثمان على أخيه فقالت: لا أتزوجه! قال: و لم؟قالت: هو أحمق!له برذونان أشهبان، فيحتمل مئونة اثنين و هما عند الناس واحد.

قال: كان المغيرة بن المهلب ممرورا، و كان عند الحجاج يوما فهاجت به مرّته، فقال له الحجاج: ادخل المتوضأ و أمر من يقيم عنده حتى يتقيأ و يفيق.

قال أبو الحسن: قالت خيرة بنت ضمرة القشيريّة، امرأة المهلب، للمهلب: إذا انصرفت من الجمعة فأحب أن تمر بأهلي. قال لها: إن أخاك أحمق!قالت: فإني أحب أن تفعل!فجاء و أخوها جالس و عنده جماعة فلم

يوسع له، فجلس المهلب ناحية ثم أقبل عليه فقال له: ما فعل ابن عمك فلان؟قال: حاضر. فقال: ارسل إليه. ففعل، فلما نظر إليه غير مرفوع المجلس قال: يا ابن اللخناء، المهلب جالس ناحية و أنت جالس في صدر المجلس؟و واثبه. فتركه المهلب و انصرف، فقالت له خيرة: أمررت بأهلي؟ قال: نعم، و تركت أخاك الأحمق يضرب! قال: و كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب: «أخطب على عبد الملك ابن الحجاج امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، أمة لبعلها» . فكتب إليه: «قد أصبتها لو لا عظم ثدييها!» فكتب إليه الحجاج: لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها.

قال المرّار بن منقذ العدويّ:

صلتة الخدّ طويل جيدها # ضخمة الثدي و لما ينكسر

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه: «لا، حتى تدفئ الضجيع و تروي الرضيع» .

و قال ابن صديقة لرجل رأى معه خفّا: ما هذه القلنسوة؟فاحتكموا إلى عرباض، فقال عرباض: هي قلنسوة الرّجلين! قال أبو اسحاق: قلت لخنجير كوز: وعدتك أن تجيئني ارتفاع النهار فجئتني صلاة العصر!قال: جئتك ارتفاع العشي! قال: قيل لأعرابي: ما اسم المرق عندكم؟قال: السحين. قال: فإذا برد؟قال: لا ندعه حتى يبرد.

باع نخّاس من أعرابي غلاما فأراد أن يتبرأ من عيبه، قال: أعلم أنه يبول في الفراش. قال: إن وجد فراشا فليبل فيه!

حدثنا صديق لي قال: أتاني أعرابي بدرهم فقلت له: هذا زائف فمن أعطاكه؟قال: لصّ مثلك! و قال زيد بن كثوة: أتيت بني كشّ هؤلاء، فإذا عرس، و بلق الباب، فادرنفق و ادّمج فيه سرعان من الناس، و ألصت ولوج الدار فدلظني الحدّاد دلظة دهورني على قمة رأسي، و أبصرت شيخان (1) الحي هناك، ينتظرون المزيّة (2) ، فعجت إليهم، فو اللّه أن زلنا نظار نظار حتى عقل الظل (3) فذكرت من بني تبر، فقصدنهم و أنا أقول:

تركن بني كشّ و ما في ديارهم # عوامد و اعصوصبن نحو بني تبر (4)

إلى معشر شمّ الأنوف، قراهم # إذا نزل الأضياف من قمع الجزر (5)

و انصرفت و أتيت باب بني تبر، و إذا الرجال صتيتان (6) ، و إذا أرمداء (7) كثيرة، و طهاة لا تحصى، و لحمان في جثمان الإكام (8)

صالح بن سليمان قال: من أحمق الشعر قول الذي يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت # أوكّل بدعد من يهيم بها بعدي

و لا يشبه قول الآخر:

فلا تنكحي إن فرّق الدهر بيننا # أغمّ القفا و الوجه ليس بأنزعا

---

(1) بلق الباب: فتح. ادرنفق: أسرع، تقدم. أدمج: دخل. سرعان الناس: أوائلهم.
ألاص: أراد. دلظه: دفعه. الحداد: البواب. الشيخان: جمع شيخ.

(2) المزية: الطعام.
(3) عقل: قلص.
(4) اعصوصب: جد في السير.
(5) الشمم: ارتفاع في أرنبة الأنف. القمع: أعلى السنام من البعير. الجزر: الناقة المجزورة.
(6) الصتيت: الفرقة من الناس في جلبة و فوضى.
(7) أرمداء: جمع رماد.
(8) لحمان في جثمان الأكام: قدر في حجم التلال.

قال: مات لابن مقرّن غلام، فحفر لهم أعرابي قبره بدرهمين، و ذلك في بعض الطواعين، فلما أعطوه الدرهمين قال: دعوهما حتى يجتمع لي عندكم ثمن ثوب! و أدخل أعرابي إلى المربد جليبا له (1) فنظر إليها بعض الغوغاء (2)

فقال: لا إله إلا اللّه، ما أسمن هذه الجزر!قال له الأعرابي ما لها تكون جزرا جزرك اللّه.

قال أبو الحسن: جاء رجل إلى رجل من الوجوه فقال: أنا جارك و قد مات أخي فمر لي بكفن. قال: لا و اللّه ما عندي اليوم شيء، و لكن تعهدنا و تعود بعد أيام، فسيكون ما تحب! قال: أصلحك اللّه، فتملحه إلى أن يتيسر عندكم شيء؟! قال: كان مولى البكرات يدّعي البلاغة، فكان يتصفّح كلام الناس فيمدح الرديء و يذم الجيد، فكتب إلينا رسالة يعتذر فيها من تركه المجيء، فقال: «و قطعني عن المجيء إليكم أنه طلعت في إحدى أليتي ابني بثرة، فعظمت و عظمت حتى صارت كأنها رمّانة صغيرة» .

و قال علي الأسواري: «فلما رأيته أصفر وجهي حتى صار كأنه الكشوث (3) » .

و قال له محمد بن الجهم: إلى أين بلغ الماء منك؟قال: إلى العانة. قال شعيب بن زرارة: لو كان قال: إلى الشّعرة، كان أجود! و قال له محمد بن الجهم: هذا الدواء الذي جئت به قدركم آخذ منه؟ قال: قدر بعرة.

---

(1) الجليب: ما جلب من بلد إلى آخر من الماشية.
(2) غوغاء: جراد.
(3) الكشوث: نبات يمتد على ما يجاوره كالخيوط.

و قال علي: جاءني رجل حزنبل (1) من هاهنا إلى ثمة! و قال قاسم التمّار: بينهما كما بين السماء إلى قريب من الأرض! و قال قاسم التمار: رأيت إيوان كسرى كأنما رفعت عنه الأيدي أوّل من أمس.

و أقبل على أصحاب له و هم يشربون النبيذ، و ذلك بعد العصر بساعة، فقال لبعضهم: قم صلّ فاتتك الصلاة!ثم امسك عنه ساعة، ثم قال الآخر:

قم صل ويلك فقد ذهب الوقت!فلما أكثر عليهم في ذلك و هو جالس لا يقوم يصلي قال له واحد منهم: فأنت لم لا تصلي؟فأقبل عليه فقال: ليس و اللّه تعرفون أصلي في هذا. قلت: و أي شيء أصلك؟قال: لا نصلي لأن هذه المغرب قد جاءت! و قال قاسم: أنا أنفس بنفسي على السلطان.

و أتى منزل ابن أبي شهاب و قد تعشى القوم و جلسوا على النبيذ، فأتوه بخبز و زيتون و كامخ (2) فقال: أنا لا أشرب النبيذ إلا على زهومة (3) .

و قال: حين بعت البغل بدأت بالسرج.

و قال: ليس في الدنيا ثلاثة أنكح مني: أنا أكسل منذ ثلاث ليال في كل ليلة عشر مرات! كأن الإكسال عنده هو الإنزال (4) .

و قال: ذهب و اللّه مني الأطيبين؟قلت: و أي شيء الأطيبين؟قال: قوة اليدين و الرجلين (5) .

---

(1) الحزنبل: القصير المجتمع.
(2) كامخ: ما يؤتدم به.
(3) زهومة: رائحة اللحم المنتن:
(4) الإكسال: فتور الذكر قبل الأنزال.
(5) الاطيبان: الأكل و النكاح.

و قال: فالتوى لي عرق حين قعدت منها مقعد الرجل من الغلام.

و قال في غلام له رومي، ما وضعت بيني و بين الأرض أطيب منه.

قال: و محمد بن حسان لا يشكرني، فو اللّه ما ناك حادرا قط إلا على يدي (1) .

و قال أبو خشرم: ما أعجب أسباب النيك؟فقيل له: النيك وحده؟ قال: سمعنا الناس يقولون: ما أعجب أسباب الرزق، و ما أعجب الأسباب! و كان قاسم التمار عند ابن لأحمد بن عبد الصمد بن علي، و هناك جماعة، فأقبل وهب المحتسب يعرض له بالغلمان، فلما طال ذلك على قاسم أراد أن يقطعه عن نفسه بأن يعرّفه هوان ذلك القول عليه فقال: أشهدوا جميعا أني أنيك الغلمان، و أشهدوا جميعا إني أعفج الصبيان!و التفت التفاتة فرأى الأخوين الهذليين و كانا يعاديانه بسبب الاعتزال فقال: عنيت بقولي: اشهدوا جميعا أني لوطي، أي أني على دين لوط! قال القوم بأجمعهم: أنت لم تقل أشهدوا إني لوطي، و إنما قلت: اشهدوا جميعا أني أنيك الصبيان! قال سفيان الثوري: لم يكن في الأرض أحد قط أعلم بالنجوم ثم بالقرانات (2) من «ما شاء اللّه كان» ، يريد ما شاء اللّه المنجم.

و كان يقول: هو أكفر عندي من رام هرمز!يريد أكفر من هرمز.

و ممن وسوس: غلفاء بن الحارث، ملك قيس عيلان، وسوس حين قتل إخوته، يتغلف و يغلف أصحابه بالغالية (3) ، فسمي غلفاء بذلك.

و كان رجل ينيك البغلات، فجلس يوما يخبر عن رجل كيف ناك بغلة، و كيف انكسرت رجله، و كيف كان ينالها، قال: كان يضع تحت رجله لبنة، فبينما هو ينحي فيها إذ انكسرت اللبنة من تحت رجله، و إذا أنا على قفاي!

---

(1) الحادر: الغلام الفتي.
(2) قرنات: النجوم أو اقترانها لمعرفة الحظ.
(3) تغلف: أدهن. الغالية: ضرب من الطيب.

و من الأحاديث المولدة التي لا تكون، و هو في ذلك مليح، قولهم: ناك رجل كلبة فعقدت عليه، فلما طال البلاء رفع رأسه فصادف رجلا يطلع عليه من سطح، فقال له الرجل: أضرب جنبها. فلما ضرب جنبها و تخلص قال: قاتله اللّه، أي نياك كلبات هو! و كان عندنا بالبصرة قاص أعمى، ليس يحفظ من الدنيا إلا حديث جرجيس، فلما بكى واحد من النظارة قال القاص: أنتم من أي شيء تبكون! إنما البلاء علينا معاشر العلماء! قال: و بكى حول أبي شيبان ولده و هو يريد مكة، قال: لا تبكوا يا بنيّ، فإني أريد أن أضحّي عندكم! و قال أخوه: ولدت في رأس الهلال للنصف من شهر رمضان!أحسب أنت الآن هذا كيف شئت! و قال: تزوجت امرأة مخزومية عمها الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة! و قال: ذلك لم يكن أبا، إنما كان ولدا! و قال أبو دينار: هو و إن كان أخا فقد ينبغي أن ينصف! و من المجانين علي بن اسحاق بن يحيى بن معاذ. و كان أوّل ما عرف من جنونه أنه قال: أرى الخطأ قد كثر في الدنيا، و الدنيا كلها في جوف الفلك، و إنما تؤتى منه، و قد تخلخل و تخرّم و تزايل، فاعتراه ما يعتري الهرمى، و إنما هو منجنون (1) فكم يصبر؟و سأحتال في الصعود إليه، فإني إن نجرته و رندجته (2) و سوّيته، انقلب هذا الخطأ كله إلى الصواب.

و جلس مع بعض متعاقلي فتيان العسكر، و جاءهم النخاس بجوار فقال:

ليس نحن في تقويم الأبدان، إنما نحن في تقويم الأعضاء، ثمن أنف هذه

(1) منجنون: الدولاب الذي يدور.
(2) رندج: صبغ بالبرندج و هو صبغ أسود، كلمة فارسية معربة.

خمسة و عشرون دينارا، و ثمن أذنيها ثمانية عشر، و ثمن عينيها ستة و سبعون، و ثمن رأسها بلا شيء من حواسها مائة دينار!فقال له صاحبه المتعاقل: هاهنا باب هو أدخل في الحكمة من هذا!كان ينبغي لقدم هذا أن تكون لساق تلك، و أصابع تلك أن تكون لقدم هذه، و كان ينبغي لشفتي تيك أن تكون لفم تيك، و أن تكون حاجبا تيك لجبين هذه!فسمي مقوّم الأعضاء.

و من النوكى كلاب بن ربيعة، و هو الذي قتل الجشميّ قاتل أبيه دون أخوته، و هو القائل:

أ لم ترني ثأرت بشيخ صدق # و قد أخذ الإداوة فاحتساها

ثأرت بشيخه شيخا كريما # شفاء النفس أن شيء شفاها

و منهم: نعامة، و هو بيهس (1) ، و هو الذي قال: «مكره أخاك لا بطل» . و إياه يعني الشاعر:

و من حذر الأيام ما حزّ أنفه # قصير و لاقى الموت بالسيف بيهس

نعامة لما صرّع القوم رهطه # تبين في أثوابه كيف يلبس

و قال الحضرمي: أما أنا فأشهد أن تميما أكثر من محارب.

و قال حيّان البزّاز: قبح اللّه الباطل، الرطب بالسكر و اللّه طيب.

قال أبو الحسن: سمعت أبا الصّغدي الحارثي يقول: كان الحجاج أحمق، بنى مدينة واسط في بادية النبط ثم قال لهم: لا تدخلوها. فلما مات دبوا إليها من قريب.

مسعدة بن المبارك قال: قلت للبكراوي: أ بامرأتك حمل؟قال: شيء ليس بشيء!

---

(1) بيهس: رجل من ذبيان، أغار قوم على أهله فقتلوهم و أسروه ثم خلوا سبيله، فاحتفى به نساؤه فقال: يا حبذا التراث لو لا الذلة و قالت له امه: لو كان فيك خير ما تركوك فقال: لو خيرت لاخترت، و دفعه خاله لقتال واتريه فهجم عليه و هو يقول: مكره أخاك لا بطل و أخذ بثأره.

قال: لما بنى عبيد اللّه بن زياد البيضاء، كتب رجل على باب البيضاء:

«شيء، و نصف شيء، و لا شيء. الشيء: مهران الترجمان، و نصف شيء: هند بنت أسماء، و لا شيء: عبيد اللّه بن زياد!» . فقال عبيد اللّه:

أكتبوا إلى جنبه: لو لا الذي زعمت أنه لا شيء لما كان ذلك الشيء شيئا، و لا ذلك النصف نصفا.

و قال هشام بن عبد الملك يوما في مجلسه: «يعرف حمق الرجل بخصال: بطول لحيته، و شناعة كنيته، و بشهوته، و نقش خاتمه» . فأقبل رجل طويل اللحية، فقال: هذه واحدة، ثم سأله عن كنيته فإذا هي شنعاء، فقال:

هاتان ثنتان. ثم قال: و أي شيء أشهى إليك؟قال: رمانة مصاصة (1) !قال:

امصك اللّه ببظر امك! و قيل لأبي القمقام: لم لا تغزو أو تخرج إلى المصيصة؟قال: أمصني اللّه إذا ببظر أمي!و قال الشاعر:

أ أنصر أهل الشام ممن يكيدهم # و أهلي بنجد ذاك حرص على النصر

و قال لأبي الأصبغ بن ربعيّ: أ ما تسمع بالعدو و ما يصنعون في البحر فلم لا تخرج إلى قتال العدو؟قال: أنا لا أعرفهم و لا يعرفونني، فكيف صاروا لي أعداء؟! قال: كان الوليد بن القعقاع عاملا على بعض الشام، و كان يستسقي في كل خطبة و إن كان في أيام الشّعرى، فقام إليه شيخ من أهل حمص فقال: أصلح اللّه الأمير، إذا تفسد القطاني!يعني الحبوب، واحدها قطنيّة.

و أما نفيس غلامي فإنه كان إذا صار إلى فراشه في كل ليلة في سائر السنة يقول في دعائه: اللهم علينا و لا حوالينا.

قال: و كان بالرّقة رجل يحدث الناس عن بني اسرائيل، و كان يكنى أبا عقيل، فقال له الحجاج بن حنتمة: ما كان اسم بقرة بني اسرائيل؟قال:

(1) مصاصة: ممتلئة.

حنتمة!فقال له رجل من ولد أبي موسى: في أي الكتب وجدت هذا؟قال:

في كتاب عمرو بن العاصي! و من المجانين الأشراف: ابن ضحيان الأزديّ، و كان يقرأ: قل يا أيها الكافرين. فقيل له في ذلك، فقال: قد عرفت القراءة في ذلك، و لكني لا أجلّ أمر الكفار!.

و قال حبيب بن أوس:

ما ولدت حوّاء أحمق لحية # من سائل يرجو الغنى من سائل

و قال أيضا:

أ يوسف جئت بالعجب العجيب # تركت الناس في شك مريب

سمعت بكلّ داهية نآد # و لم أسمع بسرّاج أديب (1)

أما لو أن جهلك عاد حلما # إذا لنفذت في علم الغيوب

و ما لك بالغريب يد و لكن # تعاطيك الغريب من الغريب

و أنشدوا:

أرى زمنا نوكاه أسعد أهله # و لكنما يشقى به كلّ عاقل

مشت فوقه رجلاه و الرأس تحته # فكب الأعالي بارتفاع الأسافل

و هذه أبيات كتبناها في غير هذا المكان من هذا الكتاب، و لكن هذا المكان أولى بها.

و قال الشاعر:

و للدهر أيام فكن في لباسها # كلبسته يوما أجدّ و أخلقا

و كن أكيس الكيسى إذا كنت فيهم # و إن كنت في الحمقى فكن أنت أحمقا

(1) النآد: الداهية.

و قال الآخر:

و أنزلني طول النوى دار غربة # إذا شئت لاقيت الذي لا أشاكله

فحامقته حتى يقال سجية # و لو كان ذا عقل لكنت أعاقله

و قال أبو العتاهية:

من سابق الدهر كبا كبوة # لم يستقلها من خطى الدهر

فاخط مع الدهر إذا ما خطا # و أجر مع الدهر كما يجري

ليس لمن ليست له حيلة # موجودة خير من الصبر

و قال بشر بن المعتمر:

حيلة ما ليست له حيلة # حسن عزاء النفس و الصبر

و قال صالح بن عبد القدوس:

و إنّ عناء أن تفهّم جاهلا # و يحسب جهلا أنه منك أفهم

متى يبلغ البنيان يوما تمامه # إذا كنت تبنيه و آخر يهدم

و قال بشر بن المعتمر:

و إذا العبيّ رأيته مستغنيا # أعيا الطبيب و حيلة المحتال

و من المجانين: مهدي بن الملوح الجعدي، و هو مجنون بني جعدة.

و بنو المجنون قبيل من قبائل بني جعدة، و هو غير هذا المجنون.

و أما مجنون بني عامر و بني عقيل، فهو: قيس بن معاذ، و هو الذي يقال له: مجنون بني عامر.

و هما شاعران. قيل ذلك لهما لتجننهما بعشيقتين كانتا لهما، و لهما أشعار معروفة.

الجاحظ بين الرواة و خادمه نفيس

و قد أدركت رواة المسجديين و المربديين و من لم يرو أشعار المجانين و لصوص الأعراب، و نسيب الأعراب، و الأرجاز الأعرابية القصار، و أشعار اليهود، و الأشعار المنصفة (1) ، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة. ثم استبردوا ذلك كله و وقفوا على قصار الحديث و القصائد، و الفقر و النتف من كل شيء.

و لقد شهدتهم و ما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب، فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب. ثم رأيتهم منذ سنيات، و ما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر، أو فتيانيّ متغزّل.

و قد جلست إلى أبي عبيدة، و الأصمعي، و يحيى بن نجيم، و أبي مالك عمرو ابن كركرة (2) مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده. و كان خلف يجمع ذلك كله.

و لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه أعراب. و لم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج. و لم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد و المثل. و رأيت عامتهم–فقد طالت مشاهدتي لهم–لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، و المعاني المنتخبة، و على الألفاظ العذبة و المخارج السهلة، و الديباجة الكريمة، و على الطبع المتمكن و على السبك الجيد، و على كل كلام له ماء و رونق، و على المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها و أصلحتها من الفساد القديم، و فتحت للسان باب البلاغة، و دلت الأقلام على مدافن الألفاظ، و أشارت إلى حسان المعاني. و رأيت البصر

---

(1) الأشعار المنصفة هي التي أنصف فيها الشعراء اعداءهم و أنفسهم و صدقوا عنهم و عن أنفسهم.

(2) ابو مالك عمرو بن كركرة من عظام الرواة الذين لقيهم الجاحظ و أخذ عنهم في البصرة.
كان يعلم في البادية، و يحفظ لغة العرب.

بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم، و على ألسنة حذاق الشعراء أظهر. و لقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعارا من أفواه جلسائه، ليدخلها في باب التحفظ و التذاكر. و ربما خيل إلي أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا، لمكان أعراقهم من أولئك الآباء.

و لو لا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة، و من هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة! قال ابن المبارك: كان عندنا رجل يكنى أبا خارجة، فقال له: لم كنوك أبا خارجة؟قال: لأني ولدت يوم دخل سليمان بن علي البصرة.

و كان عندنا شيخ حارس من علوج الجبل، و كان يكنى أبا خزيمة، فقلت لأصحابنا: هل لكم في مسألة هذا الحارس عن سبب كنيته، فلعل اللّه أن يفيد من هذا الشيخ علما و إن كان في ظاهر الرأي غير مأمول و لا مطمع!و هذه الكنية كنية زرارة بن عدس، و كنية خازم بن خزيمة، و كنية حمزة بن أدرك، و كنية فلان و فلان، و كل هؤلاء إما قائد متبوع، و إما سيد مطاع، فمن أين وقع هذا العلج الألكن على هذه الكنية!فدعوته فقلت له: هذه الكنية كناك بها إنسان أو كنيت بها نفسك؟قال: لا، و لكني كنيت بها نفسي!قلت: فلم اخترتها على غيرها؟قال: و ما يدريني!قلت: أ لك ابن يسمى خزيمة؟قال:

لا. قلت: أ فكان أبوك أو عمك أو مولى لك يسمى خزيمة؟قال: لا.

قلت: فاترك هذه الكنية و اكتن بأحسن منها و خذ مني دينارا!قال: لا و اللّه و لا بجميع الدنيا!! أعطى المحلول ابنه درهما و قال: زنه، فطرح وزن درهمين و هو يحسبه وزن درهم، فلما رفعه وجده زالاّ (1) ، فألقى معه حبتين، فقال له أبوه: كم فيه؟قال: ليس فيه شيء، و هو ينقص حبتين!

(1) زالا: هابطا، ساقطا ثقله.

و كان عندنا قاص يقال له أبو موسى كوش، فأخذ يوما في ذكر قصر الدنيا و طول أيام الآخرة، و تصغير شأن الدنيا و تعظيم شأن الآخرة، فقال: هذا الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئا، و عليه فضل سنتين!قالوا: و كيف ذاك؟ قال: خمس و عشرون سنة ليل، هو فيها لا يعقل قليلا و لا كثيرا، و خمس سنين قائلة (1) ، و عشرون سنة إما أن يكون صبيا و إما أن يكون معه سكر الشباب فهو لا يعقل. و لا بد من صبحة بالغداة (2) ، و نعسة بين المغرب و العشاء، و كالغشى الذي يصيب الإنسان مرارا في دهره، و غير ذلك من الآفات. فإذا حصلنا ذلك فقد صح أن الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئا، و عليه فضل سنتين! و قال بعض الهلاّك (3) : دخل فلان على كسرى فقال: أصلحك اللّه، ما تأمر في كذا كذا؟ و قال رجل من وجوه أهل البصرة: حدثت حادثة أيام الفرس فنادى كسرى: الصلاة جامعة! و قلت لغلامي نفيس: بعثتك إلى السوق في حوائج فاشتريت ما لم آمرك به، و تركت كل ما أمرتك به!قال: يا مولاي، أنا ناقة و ليس في ركبتي دماغ! و قال نفيس لغلام لي: الناس ويلك أنت حياء كلهم أقل!يريد: أنت أقل الناس كلهم حياء.

و قلت لنفيس: ابن بريهة هذا الصبي، في أي شيء أسلموه؟قال: في أصحاب سند نعال. يريد أصحاب النعال السندية.

---

(1) القائلة: النوم في الظهيرة.
(2) الصبحة: النوم في الغداة.
(3) الهلاك: الصعاليك يرومون معروف الناس.

بلاغة النبي

و روى الأصمعي و ابن الأعرابي، عن رجالهما، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«إنا معشر الأنبياء بكاء» ، فقال ناس: البكء: القلّة. و أصل ذلك من اللبن.

فقد جعل صفة الأنبياء قلة الكلام، و لم يجعله من إيثار الصمت و من التحصيل و قلة الفضول.

قلنا: ليس في ظاهر هذا الكلام دليل على أن القلة من عجز في الخلقة، و قد يحتمل ظاهر الكلام الوجهين جميعا، و قد يكون القليل من اللفظ يأتي على الكثير من المعاني. و القلة تكون من وجهين: أحدهما من جهة التحصيل، و الإشفاق من التكلف، و على تصديق قوله: **قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ، و على البعد من الصنعة، و من شدة المحاسبة و حصر النفس، حتى يصير بالتمرين و التوطين إلى عادة تناسب الطبيعة. و تكون من جهة العجز و نقصان الآلة، و قلة الخواطر، و سوء الاهتداء إلى جياد المعاني، و الجهل بمحاسن الألفاظ. أ لا ترى أن اللّه قد استجاب لموسى عليه السلام حين قال: **وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً.**

وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسى. وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى .

فلو كانت تلك القلة من عجز كان النبي صلّى اللّه عليه و سلّم أحق بمسألة إطلاق تلك العقدة من موسى، لأن العرب أشد فخرا ببيانها، و طول ألسنتها، و تصريف كلامها، و شدة اقتدارها. و على حسب ذلك كانت زرايتها على كل من قصّر عن ذلك التمام، و نقص من ذلك الكمال.

و قد شاهدوا النبي صلّى اللّه عليه و سلّم و خطبه الطوال في المواسم الكبار، و لم يطل التماسا للطول، و لا رغبة في القدرة على الكثير، و لكن المعاني إذا كثرت، و الوجوه إذا افتنت، كثر عدد اللفظ، و إن حذفت فضوله بغاية الحذف.

و لم يكن اللّه ليعطي موسى لتمام إبلاغه شيئا لا يعطيه محمدا، و الذين بعث فيهم أكثر ما يعتمدون عليه البيان و اللسن.

و إنما قلنا هذا لنحسم جميع وجوه الشغب، لا لأن أحدا من أعدائه شاهد هناك طرفا من العجز!و لو كان ذلك مرئيا و مسموعا لاحتجوا به في الملا، و لتناجوا به في الخلا، و لتكلم به خطيبهم، و لقال فيه شاعرهم، فقد عرف الناس كثرة خطبائهم، و تسرع شعرائهم.

هذا على أننا لا ندري أ قال ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أم لم يقله، لأن مثل هذه الأخبار يحتاج فيها إلى الخبر المكشوف، و الحديث المعروف. و لكنا بفضل الثقة، و ظهور الحجة، نجيب بمثل هذا و شبهه.

و قد علمنا أن من يقرض الشعر، و يتكلف الإسجاع، و يؤلف المزدوج، و يتقدم في تحبير المنثور، و قد تعمق في المعاني، و تكلف إقامة الوزن، و الذي تجود به الطبيعة و تعطيه النفس سهوا رهوا، مع قلة لفظه و عدد هجائه- أحمد أمرا، و أحسن موقعا من القلوب، و أنفع للمستمعين، من كثير خرج بالكد و العلاج. و لأن التقدم فيه، و جمع النفس له، و حصر الفكر عليه، لا يكون إلا ممن يحب السمعة و يهوى النفج (1) و الاستطالة. و ليس بين حال المتنافسين، و بين حال المتحاسدين إلا حجاب رقيق، و حجاز ضعيف. و الأنبياء بمندوحة من هذه الصفة، و في ضد هذه الشيمة.

و قال عامر بن عبد قيس: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، و إذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان» .

و تكلم رجل عند الحسن بمواعظ جمة و معان تدعو إلى الرقة فلم ير الحسن رق، فقال الحسن: إما أن يكون بناشر أو يكون بك!يذهب إلى أن المستمع يرق على قد رقة القائل.

(1) النفج: الفخر و الكبر.

و الدليل الواضح، و الشاهد القاطع، قول النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: «نصرت بالصبا، و أعطيت جوامع الكلم» ، و هو القليل الجامع للكثير. و قال اللّه تعالى و قوله الحق: **وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ** ثم قال: **وَ مَا يَنْبَغِي لَهُ** ثم قال: **أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ** فعم و لم يخص، و أطلق و لم يقيد. فمن الخصال التي ذمهم بها تكلف الصنعة، و الخروج إلى المباهاة، و التشاغل عن كثير من الطاعة، و مناسبة أصحاب التشديق. و من كان كذلك كان أشد افتقارا إلى السامع من السامع إليه، لشغفه أن يذكر في البلغاء، و صبابته باللحاق بالشعراء. و من كان كذلك غلبت عليه المنافسة و المغالبة، و ولد ذلك في قلبه شدة الحمية، و حب المجاذبة.

و من سخف هذا السّخف، و غلب الشيطان عليه هذه الغلبة، كانت حاله داعية إلى قول الزور، و الفخر بالكذب، و صرف الرغبة إلى الناس، و الإفراط في مديح من أعطاه، و ذم من منعه. فنزّه اللّه رسوله، و لم يعلمه الكتاب و الحساب، و لم يرغبه في صنعة الكلام، و التعبد لطلب الألفاظ، و التكلف لاستخراج المعاني فجمع له باله كله في الدعاء إلى اللّه، و الصبر عليه، و المجاهدة فيه، و الانبتات إليه و الميل إلى كل ما قرب منه، فأعطاه الإخلاص الذي لا يشوبه رياء، و اليقين الذي لا يطوره شك، و العزم المتمكن، و القوة الفاصلة.

فإذا رأت مكانه الشعراء، و فهمته الخطباء، و من قد تعبّد للمعاني، و تعود نظمها و تنضيدها، و تأليفها و تنسيقها، و استخراجها من مدافنها، و إثارتها من مكامنها علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استفرغهم و استغرق مجهودهم، و بكثير ما قد خولوه، قليلا مما يكون معه على البداهة و الفجاءة، من غير تقدم في طلبه، و اختلاف إلى أهله.

و كانوا مع تلك المقامات و السياسات، و مع تلك الكلف و الرياضات، لا ينفكون في بعض تلك المقامات من بعض الاستكراه و الزلل، و من بعض التعقيد و الخطل، و من التفنن (1) و الانتشار، و من التشديق و الإكثار.

---

(1) التفنن: الاضطراب.

و رأوه مع ذلك يقول: «إيّاي و التشادق» . و «أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون» . ثم رأوه في جميع دهره في غاية التسديد و الصواب التام، و العصمة الفاضلة، و التأييد الكريم. علموا أن ذلك من ثمرة الحكمة و نتاج التوفيق، و إن تلك الحكمة من ثمرة التقوى. و نتاج الإخلاص.

و للسلف الطيّب حكم و خطب كثيرة، صحيحة و مدخولة، لا يخفى شأنها على نقّاد الألفاظ و جهابذة المعاني، متميزة عند الرواة الخلّص و ما بلغنا عن أحد من جميع الناس أن أحدا ولد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خطبة واحدة.

فهذا و ما قبله حجة في تأويل ذلك إن كان حقا.

و في كتاب اللّه المنزل. أن اللّه تبارك و تعالى جعل منيحة داود الحكمة و فصل الخطاب، كما أعطاه إلانة الحديد.

و في الحديث المأثور، و الخبر المشهور، إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«شعيب خطيب الأنبياء» .

و علم اللّه سليمان منطق الطير، و كلام النمل، و لغات الجن. فلم يكن عزّ و جلّ ليعطيه ذلك ثم يبتليه في نفسه و بيانه عن جميع شأنه، بالقلة و المعجزة، ثم لا تكون تلك القلة إلا على الإيثار منه للقلة في موضعها، و على البعد من استعمال التكلف، و مناسبة أهل الصنعة، و المشغوفين بالسمعة. و هذا لا يجوز على اللّه عز و جل.

فإن كان الذي رويتم من قوله: «إنا معشر الأنبياء بكاء» على ما تأولتم، و ذلك أن لفظ الحديث عام في جميع الأنبياء، فالذي ذكرنا من حال داود و سليمان عليهما السلام، و حال شعيب و النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، دليل على بطلان تأويلكم، و رد عموم لفظ الحديث:

و هذه جملة كافية لمن كان يريد الإنصاف.

و كان شيح من البصريين يقول:

إن اللّه إنما جعل نبيه أميّا لا يكتب و لا يحسب و لا ينسب، و لا يقرض الشعر، و لا يتكلّف الخطابة، و لا يتعمّد البلاغة، لينفرد اللّه بتعليمه الفقه و أحكام الشريعة، و يقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب:

من قيافة الأثر و البشر (1) ، و من العلم بالأنواء و بالخيل، و بالأنساب و بالأخبار، و تكلف قول الأشعار، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم، و تكلم بالكلام العجيب، كان ذلك أدل على أنه من اللّه.

و زعم أن اللّه تعالى لم يمنعه معرفة آدابهم و أخبارهم و أشعارهم ليكون أنقص حظا من الحاسب الكاتب، و من الخطيب الناسب، و لكن ليجعله نبيا، و ليتولى من تعليمه ما هو أزكى و أنمى. فإنما نقصه ليزيده، و منعه ليعطيه، و حجبه عن القليل ليجلّي له الكثير.

و قد أخطأ هذا الشيخ و لم يرد إلا الخير، و قال بمبلغ علمه و منتهى رأيه و لو زعم أن أداة الحساب و الكتابة، و أداة قرض الشعر و رواية جميع النسيب، قد كانت فيه تامة وافرة، و مجتمعة كاملة، و لكنه صلّى اللّه عليه و سلّم صرف تلك القوى و تلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة، و إذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، و أنسب من كل ناسب، و أقوف من كل قائف، و لو كان في ظاهره، ثم أعطاه اللّه برهانات الرسالة، و علامات النبوة–ما كان ذلك بمانع من وجوب تصديقه، و لزوم طاعته، و الانقياد لأمره على سخطهم و رضاهم، و مكروههم و محبوبهم. و لكنه أراد ألا يكون للشاغب متعلق عما دعا إليه حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب و إن رقّ، و ليكون ذلك أخفّ في المئونة، و أسهل في المحنة. فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها و يتنافسون فيها، فلما طال هجرانه لقرض الشعر و روايته، صار لسانه لا ينطلق به، و العادة توأم الطبيعة. فأما في غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق،

(1) قيافة الاثر: تتبعه.

و أنسب من كل ناسب، و أقوف من كل قائف. و كانت آلته أوفر و أداته أكمل، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أرد.

و بين أن نضيف إليه العجز، و بين أن نضيف إليه العادة الحسنة و امتناع الشيء عليه من طول الهجران له، فرق.

و من العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط، بل لم يره إلا و هو إن أطال الكلام قصّر عنه كل مطيل، و إن قصر القول أتى على غاية كل خطيب، و ما عدم منه إلا الخط و إقامة الشعر. فكيف ذهب ذلك المذهب و الظاهر من أمره عليه السلام خلاف ما توهم!؟

قدر الشعر

و سنذكر بعض ما جاء في فضل الشعر و الخوف منه، و من اللسان البليغ، و المداراة له، و ما أشبه ذلك.

قال أبو عبيدة: اجتمع ثلاثة من بني سعد يراجزون بني جعدة، فقيل لشيخ من بني سعد: ما عندك؟قال: أرجز بهم يوما إلى الليل لا أفتج (1) .

و قيل لآخر: ما عندك؟قال: أرجز بهم يوما إلى الليل لا أنكف. فقيل للآخر الثالث: ما عندك؟قال: أرجز بهم يوما إلى الليل لا أنكش (2) . فلما سمعت بنو جعدة كلامهم انصرفوا و خلوهم.

قال: و بنو ضرار، أحد بني ثعلبة بن سعد، لما مات أبوهم و ترك الثلاثة الشعراء صبيانا، و هم: شمّاخ، و مزرّد، و جزء، أرادت أمهم–و هي أم أوس– أن تزوج رجلا يسمى أوسا، و كان أوس هذا شاعرا، فلما رآه بنو ضرار بفناء أمهم للخطبة، تناول شمّاخ حبل الدلو ثم متح، و هو يقول:

أمّ أويس نكحت أويسا

(1) أفتج: أعيا، انبهر.
(2) انكش: نزف.

و جاء مزرد فتناول الحبل فقال:

أعجبها حدارة و كيسا [1]

و جاء جزء فتناول الحبل فقال:

أصدق منها لجبة [2] و تيسا

فلما سمع أوس رجز الصبيان بها هرب و تركها.

قال أبو عبيدة: كان الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممّن الرجل؟قال:

نميريّ كما ترى، فما هو إلا أن قال جرير:

فغضّ الطرف إنك من نمير # فلا كعبا بلغت و لا كلابا

حتى صار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟قال: من بني عامر قال: فعند ذلك قال الشاعر يهجو قوما آخرين:

و سوف يزيدكم ضعة هجائي # كما وضع الهجاء بني نمير

فلما هجاهم أبو الرّديني العكلي فتوعدوه بالقتل قال أبو الرديني:

توعّدني لتقتلني نمير # متى قتلت نمير من هجاها

فشدّ عليه رجل منهم فقتله.

و ما علمت في العرب قبيلة لقيت من جميع ما هجيت به ما لقيت نمير من بيت جرير. و يزعمون إن امرأة مرّت بمجلس من مجالس بني نمير، فتأملها ناس منهم فقالت: يا بني نمير، لا قول اللّه سمعتم و لا قول الشاعر أطعتم! قال اللّه تعالى: **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ، و قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير # فلا كعبا بلغت و لا كلابا

---

(1) حدارة: امتلاء.
(2) اللجبة: الشاة القليلة اللبن.

و أخلق بهذا الحديث أن يكون مولّدا، و لقد أحسن من ولّده.

و في نمير شرف كثير. و هل أهلك عنزة، و جرما، و عكلا، و سلول، و باهلة، و غنيا، إلا الهجاء؟! و هذه قبائل فيها فضل كثير و بعض النقص، فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء. و هل فضح الحبطات، مع شرف حسكة بن عتّاب، و عبّاد بن الحصين و ولده، إلا قول الشاعر:

رأيت الحمر من شرّ المطايا # كما الحبطات شرّ بني تميم

و هل أهلك ظليم البراجم إلا قول الشاعر:

إن أبانا فقحة لدارم # كما الظليم فقحة البراجم

و هل أهلك بني العجلان إلا قول الشاعر:

إذا اللّه عادى أهل لؤم و دقّة # فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

قبيلة لا يغدرون بذمة # و لا يظلمون الناس حبّة خردل

و لا يردون الماء إلا عشية # إذا صدر الورّاد عن كلّ منهل

و أما قول الأخطل:

و قد سرني من قيس عيلان أنني # رأيت بني العجلان سادوا بني بدر

فإن هذا البيت لم ينفع بني العجلان، و لم يضرّ بني بدر.

قال أبو عبيدة: كان الرجل من بني أنف الناقة إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني قريع، فما هو إلا أن قال الحطيئة:

قوم هم الأنف و الأذناب غيرهم # و من يساوي بأنف الناقة الذنبا

و صار الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟قال: من بني أنف الناقة.

و ناس سلموا من الهجاء بالخمول و القلة، كما سلمت غسان و غيلان من قبائل عمرو بن تميم، و ابتليت الحبطات لأنها أنبه منها شيئا.

و النباهة التي لا يضرّ معها الهجاء مثل نباهة بني بدر و بني فزارة، و مثل نباهة بني عدس بن زيد و بني عبد اللّه بن دارم، و مثل نباهة الديان بن عبد المدان و بني الحارث بن كعب: فليس يسلم من مضرة الهجاء إلا خامل جدا أو نبيه جدا.

و قد هجيت فزارة بأكل أير الحمار، و بكثرة شعر القفا، لقول الحارث بن ظالم:

فما قومي بثعلبة بن سعد # و لا بفزارة الشّعر الرّقابا

ثم افتخر مفتخرهم بذلك و مدحهم به الشاعر، قال مزرد بن ضرار:

منيع بين ثعلبة بن سعد # و بين فزارة الشّعر الرقاب

فما من كان بينهما بنكس # لعمرك في الخطوب و لا بكاب (1)

و أما قصة أير الحمار فإنما اللوم على المطعم لرفيقه ما لا يعرفه. فهل كان على حذف الفزاري في حق الأنفة أكثر من قتل من أطعمه الجوفان من حيث لا يدري (2) ؟ فقد هجوا بذلك و شرفهم وافر. و قد هجيت الحارث بن كعب، و كتب الهيثم بن عدي فيهم كتابا فما ضعضع ذلك منهم، حتى كان قد كتبه لهم.

و لو لا الربيع بن خثيم، و سفيان الثوري ما علم الناس أن في الرباب حيا يقال لهم بنو ثور.

و في عكل شعر و فصاحة، و خيل معروفة الأنساب، و فرسان في الجاهلية

---

(1) النكس: الرجل الضعيف.
(2) الجوفان: اير الحمار.

و الإسلام. و زعم يونس أن عكلا أحسن العرب وجوها في غب حرب. و قال بعض فتاك بني تميم:

خليلي الفتى العكلي لم أر مثله # تحلّب كفاه ندى شائع القدر

كأن سهيلا، حين أوقد ناره # بعلياء، لا يخفى على أحد يسري

و لم أكتب هذا الشعر ليكون شاهدا على مقدار حظهم في الشرف، و لكن لنضمه إلى قول جران العود:

أراقب لمحا من سهيل كأنه # إذا ما بدا من آخر الليل يطرف

و ربما أتيت القبيلة إذا برّزت عليها إخوتها، كنحو فقيم بن جرير بن دارم، و زيد بن عبد اللّه بن دارم، و كنحو الجرماز و مازن. و لذلك يقال: إن أصلح الأمور لمن تكلف علم الطب ألا يحسن منه شيئا، أو يكون من حذاق المتطببين، فإنه إن أحسن منه شيئا و لم يبلغ فيه المبالغ هلك و أهلك أهله.

و كذلك العلم بصناعة الكلام. و ليس كذلك سائر الصناعات، فليس يضر من أحسن باب الفاعل و المفعول به، و باب الإضافة، و باب المعرفة و النكرة، أن يكون جاهلا بسائر أبواب النحو. و كذلك من نظر في علم الفرائض، فليس يضر من أحكم باب الصّلب أن يجهل باب الجد، و كذلك الحساب. و هذا كثير.

و ذكروا أن حزن بن الحارث، أحد بني العنبر ولد محجنا، فولد محجن شعيث بن سهم، فأغير على إبله، فأتى أوس بن حجر يستنجده، فقال له أوس: أو خير من ذلك، أحضض لك قيس بن عاصم!و كان يقال إن حزن بن الحارث هو حزن بن منقر، فقال أوس:

سائل بها مولاك قيس بن عاصم # فمولاك مولى السّوء إن لم يغيّر

لعمرك ما أدري أ من حزن محجن # شعيث بن سهم أم لحزن بن منقر

فما أنت بالمولى المضيّع حقه # و ما أنت بالجار الضعيف المستر

فسعى قيس في إبله حتى ردها على آخرها.

و قال الآخر:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة # قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

و مما يدلّ على قدر الشعر عندهم بكاء سيد بني مازن، مخارق بن شهاب حين أتاه محرز بن المكعبر العنبري الشاعر فقال: إن بني يربوع قد أغاروا على إبلي فاسع لي فيها؟فقال: و كيف و أنت جار وردان بن مخرمة؟فلما ولىّ عنه محرز محزونا بكى مخارق حتى بل لحيته، فقالت له ابنته: ما يبكيك؟فقال:

و كيف لا أبكي و قد استغاثني شاعر من شعراء العرب فلم أغثه؟و اللّه لئن هجاني ليفضحني قوله، و لئن كف عني ليقتلني شكره!ثم نهض فصاح في بني مازن فردت عليه إبله.

و ذكر وردان الذي كان أخفره (1) فقال:

أقول و قد بزّت بتعشار بزة # لوردان جدّ الآن فيها أو العب (2)

فعضّ الذي أبقى المواسي من أمه # خفير رآها لم يشمّر و يغضب (3)

إذا نزلت وسط الرباب و حولها # إذا حصّنت ألفا سنان محرّب (4)

حميت خزاعيا و افناء مازن # و وردان يحمي عن عدي بن جندب (5)

ستعرفها ولدان ضبّة كلها # بأعيانها مردودة لم تغيّب

قال: وفد رجل من بني مازن على النعمان بن المنذر، فقال له النعمان: مخارق بن شهاب فيكم؟قال: سيد كريم، و حسبك من رجل يمدح تيسه و يهجو ابن عمه!ذهب إلى قوله:

ترى ضيفها فيها يبيت بغبطة # و جار ابن قيس جائع يتحوّب (6)

---

(1) أخفره: نقض عهده.
(2) بزت: سلبت.
(3) المواسي: مفردها موسى.
(4) السنان المحرب: المحدد.
(5) خزاعى و مازن: قبيلتان.
(6) يتحوب: يتوجع.

قال: و من قدر الشعر و موقعه في النفع و الضّر، إن ليلى بنت النضر بن الحارث بن كلدة لما عرضت للنبي صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يطوف بالبيت و استوقفته و جذبت رداءه حتى انكشف منكبه، و انشدته شعرها بعد مقتل أبيها، و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته!» . و الشعر:

يا راكبا إنّ الأثيل مظنة # من صبح خامسة و أنت موفّق

أبلغ بها ميتا بأن قصيدة # ما–إن تزال بها الركائب تخفق (1)

فليسمعنّ النضر إن ناديته # إن كان يسمع ميت لا ينطق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه # للّه أرحام هناك تشقّق (2)

قسرا يقاد إلى المنية متعبا # رسف المقيّد و هو عان موثق (3)

أ محمدها أنت ضنء نجيبة # في قومها و الفحل فحل معرق (4)

ما كان ضرّك لو مننت و ربما # منّ الفتى و هو المغيظ المحنق (5)

فالنضر أقرب من تركت قرابة # و أحقهم إن كان عتق يعتق

قال: و يبلغ من خوفهم من الهجاء و من شدة السب عليهم، و تخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب، و يسبّ به الأحياء و الأموات، إنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق، و ربما شدوا لسانه بنسعة، كما صنعوا بعبد يغوث ابن وقاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب. و هو الذي يقول:

أقول و قد شدوا لساني بنسعة # أ معشر تيم أطلقوا من لسانيا (6)

و تضحك مني شيخة عبشمية # كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا (7)

كأني لم أركب جوادا و لم أقل # لخيلي كري كرة عن رجاليا

---

(1) الركائب: الابل. تخفق: تضطرب.
(2) تنوشه: تتناوله و تتعرض له.
(3) العاني: الأسير.
(4) الضنء: الولد.
(5) المحنق: الشديد الغيظ.
(6) النسعة: سير جلدي.

(7) عبشمية: نسبة إلى عبد شمس.

فيا راكبا أ ما عرضت فبلغن # نداماي من نجران أن لا تلاقيا

أبا كرب و الأيهمين كليهما # و قيسا بأعلى حضر موت اليمانيا

و كان سألهم أن يطلقوا لسانه لينوح على نفسه، ففعلوا، فكان ينوح بهذه الأبيات، فلما أنشد قومه هذا الشعر قال قيس: لبيك و إن كنت أخرتني.

*** و قيل لعبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود: كيف تقول الشعر مع الفقه و النسك؟فقال: «لا بد للمصدور من أن ينفث» .

و قال معاوية لصحار العبدي: ما هذا الكلام الذي يظهر منكم؟قال:

شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا.

و قال ابن حرب: من أحسن شيئا أظهره.

و في المثل: من أحب شيئا أكثر من ذكره.

و قال: خاصم أبو الحويرث السحيمي حمزة بن بيض إلى المهاجر بن عبد اللّه في طويّ له (1) فقال أبو الحويرث:

غمّضت في حاجة كانت تؤرقني # لو لا الذي قلت فيها قل تغميضي

قال: و ما قلت لك فيها؟قال:

حلفت باللّه لي أن سوف تنصفني # فساغ في الحلق ريق بعد تجريض (2)

قال: و أنا أحلف باللّه لأنصفنك. قال:

فاسأل ألى عن ألى أن ما خصومتهم # أم كيف أنت و أصحاب المعاريض

---

(1) طوي: بئر مطوية في حجارة.
(2) التجريض: الغصص بالريق.

قال: أوجعهم ضربا. قال:

فاسأل لجيما إذا وافاك جمعهم # هل كان بالبئر حوض قبل تحويضي

قال: فتقدمت الشهود فشهدت لأبي الحويرث. قال: فالتفت إلي ابن بيض فقال:

أنت ابن بيض لعمري لست أنكره # حقا يقينا و لكن من أبو بيض

إن كنت أنبضت لي قوسا لترميني # فقد رميتك رميا غير تنبيض [1]

أو كنت خضخضت لي و طبا لتسقيني # فقد سقيتك وطبا غير ممخوض [2]

إن المهاجر عدل في حكومته # و العدل يعدل عندي كل عرّيض [3]

*** قال: و تزوج شيخ من الأعراب جارية من رهطه، و طمع أن تلد له غلاما فولدت له جارية، فهجرها و هجر منزلها، و صار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد حول و إذا هي ترقّص بنيتها منه و هي تقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا # يظلّ في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا # تاللّه ما ذلك في أيدينا

و إنما نأخذ ما أعطينا

فلما سمع الأبيات مرّ الشيخ نحوهما حضرا حتى ولج عليهما الخباء و قبّل بنيتها و قال: ظلمتكما و ربّ الكعبة! ***

---

(1) تنبيض: جذب وتر القوس ليرن.
(2) الوطب: السقاء. الخضخضة: التحريك.
(3) العريض: من يتعرض للناس.

مقطعات و أشعار بديعة

و قال مسلم بن الوليد:

فإني و اسماعيل عند فراقنا # لكالجفن يوم الروع فارقه النصل

أ منتجعا مروا بأثقال همه # دع الثقل و احمل حاجة ما لها ثقل

ثناء كعرف الطيب يهدى لأهله # و ليس له إلا بني خالد أهل

فإن أغش قوما بعدهم أو أزرهم # فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

و قال ابن أبي عيينة:

هل كنت إلا كلحم ميت # دعا إلى أكله اضطرار

و قال الآخر:

لئن حبس العباس عنا رغيفه # لما فاتنا من نعمة اللّه أكثر

و قال أبو كعب: كان رجل يجري على رجل رغيفا في كل يوم، فكان يقول إذا أتاه الرغيف: لعنك اللّه و لعن من بعثك، و لعنني إن تركتك حتى أصيب خيرا منك.

و قال بشار:

إذا بلغ الرأي النصيحة فاستعن # برأي نصيح أو نصاحة حازم [1]

و لا تحسب الشورى عليك غضاضة # مكان الخوافي نافع للقوادم

و خلّ الهوينى للضعيف و لا تكن # نئوما فإن الحزم ليس بنائم

و أدن على القربى المقرب نفسه # و لا تشهد الشورى امرأ غير كاتم

و ما خير كفّ أمسك الغلّ أختها # و ما خير سيف لم يؤيّد بقائم [2]

فإنك لا تستطرد الهم بالمنى # و لا تبلغ العليا بغير المكارم

---

(1) نصاحة: نصيحة.

(2) الغل: حديدة السيف. القائم: مقبض السيف.

و قال آخر:

تعرفني هنيدة من بنوها # و اعرفها إذا اشتدّ الغبار

متى ما تلق منا ذا ثناء # يؤزّ كأن رجليه شجار [1]

فلا تعجل عليه فإن فيه # منافع حين يبتلّ العذار [2]

أنا ابن المضرحيّ أبي شليل # و هل يخفى على الناس النهار

ورثنا صنعه و لكل فحل # على أولاده منه نجار [3]

و قال أعشى همدان في خالد بن عتّاب بن ورقاء:

تمنيني إمارتها تميم # و ما أمري و أمر بني تميم

و كان أبو سليمان خليلي # و لكنّ الشراك من الأديم [4]

أتينا أصبهان فهزّلتنا # و كنا قبل ذلك في نعيم

أتذكرنا و مرة إذ غزونا # و أنت على بغيلك ذي الوسوم

و يركب رأسه في كل وحل # و يعثر في الطريق المستقيم

و ليس عليك إلا طيلسان # نصيبيّ و إلا سحق نيم [5]

و قال آخر:

فلست مسلما ما دمت حيا # على زيد بتسليم الأمير

أمير يأكل الفالوذ سرا # و يطعم ضيفه خبز الشعير

أتذكر إذ قباؤك جلد شاة # و إذ نعلاك من جلد البعير

فسبحان الذي أعطاك ملكا # و علّمك الجلوس على السرير

---

(1) يؤز: يتحرك بشدة: الشجار: خشب الهودج.
(2) العذار: ما سال على خد الفرس.
(3) النجار: الأصل.
(4) الشراك: سير من سيور النعل. الأديم: الخلد.
(5) السحق: البالي. النيم: فرو قصير.

و قال آخر:

دع عنك مروان لا تطلب إمارته # ففيك راع لها ما عشت سرسور [1]

ما بال بردك لم يمسس حواشيه # من ثرمداء و لا صنعاء تحبير [2]

و قال ابن قنان المحاربيّ:

أقول لما جئت مجلسهم # قبح الإله عمائم الخزّ

لو لا قتيبة ما اعتجرت بها # أبدا و لا أقعيت في غرز [3]

عجبا لهذا الخزّ يلبسه # من كان مشتاقا إلى الخبز

من كان يشتو في عباءته # متقبضا كتقبّض العنز

و قال ثابت قطنة، في رجل كان المهلّب ولاه بعض خراسان:

ما زال رأيك يا مهلّب فاضلا # حتى بنيت سرادقا لوكيع

و جعلته ربا على أربابه # و رفعت عبدا كان غير رفيع

لو رآ أبوه سرادقا أحدثته # لبكى و فاضت عينه بدموع

و قال ابن شيخان، مولى المغيرة، في بني مطيع العدويّين:

حرام كنّتي مني بسوء # و اذكر صاحبي أبدا بذام

لقد أحرمت ودّ بني مطيع # حرام الدهن للرجل الحرام

و خزّهم الذي لم يشتروه # و مجلسهم بمعتلج الظلام [4]

و إن جنف الزمان مددت حبلا # متينا من حبال بني هشام [5]

و ريق عودهم أبدا رطيب # إذا ما اغبرّ عيدان اللئام

---

(1) سرسور: حافظ للمال.
(2) ثرمداء: قرية. تحبير: تحسين.
(3) اعتجر: لفها. أقعى: تساند. الغرز: ركاب الرجل.
(4) الاعتلاج: التلاطم و التضارب.
(5) جنف: مال و جار.

و قال آخر:

لمن جزر ينحّرها سويد # ألا يا مر للمجد المضاع

كأنك قد سعيت بذمتيهم # و كنت ثمال أيتام جياع [1]

و قال:

سبحان من سبّح السبع الطباق له # حتى لهرثمة الذهليّ بوّاب

و أنشدنا للأحيمر:

بأقبّ منصلت اللّبان كأنه # سيد تنصّل من جحور سعالى [2]

و قال خلف: لم أر أجمع من بيت امرئ القيس:

أفاد و جاد و ساد و زاد # و قاد و ذاد و عاد و أفضل

و لا أجمع من قوله:

له أيطلا ظبي و ساقا نعامة # و أرخاء سرحان و تقريب تتفل [3]

و قال الآخر:

رمى الفقر بالفتيان حتى كأنهم # بأقطار آفاق البلاد نجوم

و إن امرأ لم يقفر العام بيته # و لم يتخدّد لحمه للئيم [4]

---

(1) ثمال: عماد و غياث.

(2) الأقبّ: الضامر البطن. اللبان: الصدر. السيد: الذئب. تنصل: خرج. السعالي: الغول.

(3) أيطل: خاصرة. أرخاء نوع من العدو. السرحان: الذئب. التتفل: الثعلب.

(4) تخدد لحمه: هزل و نقص.

و قال عبد العزيز بن زرارة الكلابيّ:

و ليلة من ليالي الدهر صالحة # باشرت في هولها مرأى و مستمعا

و نكبة لو رمى الرامي بها حجرا # أصمّ من جندل الصمان لانصدعا (1)

مرّت علي فلم أطرح لها سلبي # و لا استكنت لها و هنا و لا جزعا

و ما أزال على أرجاء مهلكة # يسائل المعشر الأعداء ما صنعا

و لا رميت على خصم بفاقرة # إلا رميت بخصم فرّ لي جذعا (2)

ما سدّ مطلع يخشى الهلاك به # إلا وجدت بظهر الغيب مطّلعا

لا يملأ الهول قلبي قبل موقعه # و لا أضيق به صدرا إذا وقعا

و قال آخر:

لقد طال إعراضي و صفحي عن التي # أبلّغ عنكم و القلوب قلوب

و طال انتظاري عطفة الرحم منكم # ليرجع ودّ أو ينيب منيب

فلا تأمنوا مني عليكم شبيهها # فيرضي بغيض أو يساء حبيب

و تظهر منا في المقام و منكم # إذا ما ارتمينا في النضال عيوب

و إن لسان الباحث الداء ساخطا # بني عمنا، ألوى البيان كذوب

و قال الأشهب بن رميلة:

إن الألى حانت بفلج دماؤهم # هم القوم كل القوم يا أمّ خالد

هم ساعد الدهر الذي يتّقى به # و ما خير كفّ لا تنوء بساعد

أسود شرىّ لاقت أسود خفيّة # تساقوا على صرد دماء الأساود

قوله: «ساعد الدهر» ، إنما هو مثل، و هذا الذي تسميه الرواة البديع.

و قد قال الراعي:

هم كاهل الدهر الذي يتّقى به # و منكبه إن كان للدهر منكب

(1) الصمان: الأرض الغليظة.
(2) فاقرة: داهية.

و قد جاء في الحديث: «موسى اللّه أحدّ، و ساعد اللّه أشدّ» .

و البديع مقصور على العرب، و من أجله فاقت لغتهم كل لغة، و أربت على كل لسان. و الراعي كثير البديع في شعره، و بشّار حسن البديع، و العتّابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار.

و قال كعب بن عديّ:

شدّ العصاب على البريء بمن جنى # حتى يكون لغيره تنكيلا

و الجهل في بعض الأمور إذا اغتدى # مستخرج للجاهلين عقولا

و قال زفر بن الحارث:

إن عدت و اللّه الذي فوق عرشه # منحتك مسنون الغرارين أزرقا (1)

فإن دواء الجهل أن تضرب الطلي # و أن يغمس العرّيض حتى يغرقا (2)

و قال مبذول العذريّ:

و مولى كضرس السوء يؤذيك مسه # و لا بدّ أن آذاك إنك فاقره (3)

دوي الجوف أن ينزع يسؤك مكانه # و إن يبق تصبح كل يوم تحاذره (4)

يسرّ لك البغضاء و هو مجامل # و ما كل من يجني عليك تساوره (5)

و ما كل من مددت ثوبك دونه # لتستره مما أتى أنت ساتره

و قال آخر:

أطال اللّه كيس بني رزين # و حمقي إن شريت لهم بدين

أ أكتب إبلهم شاء و فيها # بريع فصالها بنتا لبون

فما خلقوا بكيسهم دهاة # و لا ملجأ بعد فيعجبوني

---

(1) غرارين: أي حدي السيف. الأزرق: الشديد الصفاء.
(2) الطلى: الاعناق. العريض: من يتعرض للغير.
(3) فاقرة: كاسرة.
(4) الدوي: ذو الداء.

(5) المساورة: المواثبة.

و قال آخر:

عفاريتا علي و أكل مالي # و عجزا عن أناس آخرينا

فهلا غير عمكم ظلمتم # إذا ما كنتم متظلمينا

فلو كنتم لكيّسة أكاست # و كيس ألام أكيس للبنينا

و قالت رقيّة بنت عبد المطلب في النبي صلّى اللّه عليه و سلّم:

أ بنيّ إني رابني حجر # يغدو بكفك حيثما تغدو

و أخاف أن تلقى غويهم # أو أن يصيبك بعد من يعدو

و لما دخل مكة لقيه جواريها يقلن:

طلع البدر علينا # من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا # ما دعا للّه داع

و يضاف إلى باب الخطب و إلى القول في تلخيص المعاني و الخروج من الأمر المشبه بغيره، قول حسان بن ثابت الأنصاري:

إن خالي خطيب جابية الجو # لان عند النعمان حين يقوم

و هو الصقر عند باب ابن سلمى # يوم نعمان في الكبول مقيم

وسطت نسبتي الذوائب منهم # كل دار فيها أب لي عظيم

و أبي في سميحة القائل الفا # صل يوم التفت عليه الخصوم

يصل القول بالبيان و ذو الرأ # ي من القوم ظالع مكعوم

تلك أفعاله و فعل الزبعرى # خامل في صديقه مذموم

رب حلم أضاعه عدم الما # ل و جهل غطى عليه النعيم

و لي البأس منكم إذ أبيتم # أسرة من بني خصيّ صميم

و قريش تجول منا لواذا # أن يقيموا و خف منها الحلوم

لم يطق حمله العواتق منهم # إنما يحمل اللواء النجوم

و لما دفن سليمان بن عبد الملك أيوب ابنه وقف ينظر القبر ثم قال:

كنت لنا أنسا ففارقتنا # فالعيش من بعدك مرّ المذاق

و قربت دابته فركب و وقف على قبره، و قال:

وقوف على قبر مقيم بقفرة # متاع قليل من حبيب مفارق

ثم قال: عليك السلام!ثم عطف رأس دابته، و قال:

فإن صبرت فلم ألفظك من شبع # و إن جزعت فعلق منفس ذهبا (1)

المدائني قال: لما مات محمد بن الحجاج جزع عليه فقال: إذا غسلتموه فأعلموني. فلما نظر إليه قال:

الآن لما كنت أكرم من مشى # و افترّ نابك عن شباة القارح

و تكاملت فيك المروءة كلها # و اعنت ذلك بالفعال الصالح

ثم أتاه موت أخيه محمد بن يوسف فقال:

حسبي ثواب اللّه من كل ميّت # و حسبي بقاء اللّه من كل هالك

إذا ما لقيت اللّه عني راضيا # فإن شفاء النفس فيما هنالك

و تمثل معاوية في عبد اللّه بن بديل:

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضها # و إن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

و بدنو إذا ما الموت لم يك دونه # فدى الشبر يحمي الأنف أن يتأخرا

(1) العلق: النفيس من كل شيء. المنفس: النفيس.

و رأى معاوية هزاله و هو متعرّ فقال:

أرى الليالي أسرعت في نقضي # أخذن بعضي و تركن بعضي

حنين طولي و تركن عرضي # أقعدنني من بعد طول النهض

و تمثل عبد الملك حين وثب بعمرو بن سعيد الأشدق:

سكّنته ليقل مني نفره # فأصول صولة حازم مستمكن

غضبا و محمية لنفسي أنه # ليس المسيء سبيله كالمحسن [1]

و سمع معاوية رجلا يقول:

و من كريم ماجد سميدع [2] # يؤتى فيعطي من ندى و يمنع

فقال: هذا منا، و هذا و اللّه عبد اللّه بن الزبير.

المدائني قال: قال معاوية: «إذا لم يكن الهاشمي جوادا لم يشبه قومه، و إذا لم يكن المخزومي تيّاها لم يشبه قومه، و إذا لم يكن الأموي حليما لم يشبه قومه» . فبلغ قوله الحسن بن علي رضي اللّه تعالى عنهما فقال: ما أحسن ما نظر لنفسه!أراد أن تجود بنو هاشم بأموالها فتفتقر إلى ما في يديه، و تزهى بنو مخزوم على الناس فتبغض و تشنأ، و تحلم بنو أمية و يخيب و قال بشار:

أحسن صحابتنا فإنك مدرك # بعض اللبانة باصطناع الصاحب

و إذا جفوت قطعت عنك لبانتي # و الدرّ يقطعه جفاء الحالب

تأتي اللئيم و ما سعى حاجاته # عدد الحصى و نجيب سعي الدائب

و أنشد:

إذا ما أمور الناس رثت و ضيعت # وجدت أموري كلها قد رممتها

---

(1) المحمية: الممنوعة.

(2) السميدع: الشجاع.

و قال أعرابي:

ندين و يقضي اللّه عنا و قد نرى # مكان رجال لا يدينون ضيّعا

و قال أعرابي:

و ليس قضاء الدّين بالدين راحة # و لكنه ثقل ممض إلى ثقل

و أنشد أبو عبيدة لعبيد العنبري، و هو أحد اللصوص:

يا ربّ عفوك عن ذي توبة وجل # كأنه من حذار الناس مجنون

قد كان قدّم أعمالا مقاربة # أيام ليس له عقل و لا دين

و قال أعرابي:

يا ربّ قد حلف الأقوام و اجتهدوا # إيمانهم أنني من ساكني النار

أ يحلفون على عمياء ويلهم # جهلا بعفو عظيم العفو غفّار

و قال أعرابي و هو محبوس:

أ قيدا و سجنا و اغترابا و فرقة # و ذكرى حبيب إن ذا لعظيم

و إن امرأ دامت مواثيق عهده # على كلّ ما لاقيته لكريم

و قال أعرابي:

يا أمّ عمرو بيني أنت كلما # ترفّع حاد أو دعا كلّ مسلم

نظرت إليها نظرة ما يسرني، # و إن كنت محتاجا، بها ألف درهم

و قال الشاعر:

و ما كثرة الشكوى بأمر حزامة # و لا بدّ من شكوى إذا لم يكن صبر

و مثله:

و ابثثت بكرا كل ما في جوانحي # و جرعته من مرّ ما أتجرّع

و لا بدّ من شكوى إلى ذي حفيظة # إذا جعلت أسرار نفسي تطلّع

و قال الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه # فالقوم أعداء له و خصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها # حسدا و بغيا أنه لدميم

و قال بزر جمهر: ما رأينا اشبه بالمظلوم من الحاسد.

و قال الأحنف بن قيس: لا راحة لحسود.

و قال الشعبي: الحاسد منغّص بما في يد غيره.

و قال اللّه تبارك و تعالى: «و من شر حاسد إذا حسد» .

و قال بعضهم يمدح أقواما:

محسّدون و شرّ الناس منزلة # من عاش في الناس يوما غير محسود

و قال الشاعر:

الرزق يأتي قدرا على مهل # و المرء مطبوع على حبّ العجل

و قالوا: «من تمام المعروف تعجيله» .

و وصف بعض الأعراب أميرا فقال: إذا أوعد أخّر، و إذا وعد عجّل، وعيده عفو، و وعده إنجاز.

و قال تبارك و تعالى: **وَ كَانَ اَلْإِنْسَانُ عَجُولاً** .

و دخل عمرو بن عبيد على المنصور و هو يومئذ خليفة–و روى هذا الحديث العتبي عن عتبة بن هارون قال:

شهدته و قد خرج من عنده، فسألته عما جرى بينهما فقال: رأيت عنده فتى لم أعرفه فقال لي: يا أبا عثمان، أتعرفه؟فقلت: لا. فقال: هذا ابن أمير المؤمنين و ولي عهد المسلمين. فقلت له: قد رضيت له أمرا يصير إليه إذا

صار و قد شغلت عنه!فبكى ثم قال: عظني يا أبا عثمان؟فقلت: إن اللّه قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، فلو أن هذا الأمر الذي صار إليك بقي في يدي من كان قبلك لم يصل إليك. و تذكّر يوما يتمخض بأهله لا ليلة بعده.

المدائني قال: سمعت أعرابيا يسأل و هو يقول: «رحم اللّه امرأ لم تمجّ أذنه كلامي، و قدم لنفسه معاذة من سوء مقامي، فإن البلاد مجدبة و الحال سيئة، و العقل زاجر ينهى عن كلامكم، و الفقر عاذر يحملني على أخباركم، و الدعاء أحد الصدقتين، فرحم اللّه امرأ أمر بمير، أو دعا بخير» .

و قال رجل من طيئ:

قتلنا بقتلانا من القوم مثلهم # كراما و لم نأخذ بهم خشف النخل

و قال آخر:

قتلنا رجالا من تميم أخايرا # بقوم كرام من رجال أخاير

و سئل بعض العرب: ما العقل؟قال: الإصابة بالظنون، و معرفة ما لم يكن بما قد كان.

و قال جرير يعاتب المهاجر بن عبد اللّه:

يا قيس عيلان إني قد نصبت لكم # بالمنجنيق و لما أرسل الحجرا

فوثب المهاجر فأخذ بحقوه و قال: لك العتبي يا أبا حزرة لا ترسله!و قال سويد بن صامت:

ألا رب من تدعو صديقا و لو ترى # مقالته بالغيب ساءك ما يفري [1]

مقالته كالشحم ما دام شاهدا # و بالغيب مأثور على ثغرة النحر [2]

تبين لك العينان ما هو كاتم # من الشر و البغضاء بالنظر الشزر

---

(1) يفري: يكذب، يختلق.

(2) المأثور: السيف، و يقال أن الجن عملته.

يسرّك باديه و تحت أديمه # نميمة غش تبتري عقب الظهر [1]

فرشني بخير طالما قد بريتني # و خير الموالي من يريش و لا يبري

و قال حارثة بن بدر، لما تحالفت الأزد و ربيعة:

لا تحسبنّ فؤادي طائرا فزعا # إذا تحالف ضبّ البرّ و النون

و أنشد ابن الأعرابي لأعرابي:

فإن أك قصدا في الرجال فإنني # إذا حلّ أمر ساحتي لجسيم [2]

تعيّرني الإعدام و الوجه معرض # و سيفي بأموال التجار زعيم

و أنشد ابن الأعرابي لعمرو بن شأس:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه # إذا كنت تبنيه و آخر يهدم

و قال عبيد بن الأبرص:

ساعد بأرض إذا كنت بها # و لا تقل إنني غريب

قد يوصل النازح النائي و قد # يقطع ذو السهمة القريب [3]

و أنشد الأصمعي لكثيّر:

رأيت أبا الوليد غداة جمع # به شيب و ما فقد الشبابا

و لكن تحت ذاك الشيب حزم # إذا ما ظن أمرض أو أصابا [4]

و يمدحون بإصابة الظن و يذمون بخطئه. قال أوس بن حجر:

الألمعيّ الذي يظن بك الظ # ن كأن قد رأى و قد سمعا

---

(1) رشني: أجعل لي ريشا.
(2) القصد: الذي ليس بالجسيم و لا الضئيل.
(3) النازح: البعيد. السهمة: القرابة.
(4) أمرض: قارب الصواب في الرأي.

و في بعض الحكمة: «من لم ينتفع بظنه لم ينتفع بيقينه» و قال السموأل بن عاديا:

و إنا لقوم ما نرى القتل سبة # إذا ما رأته عامر و سلول

يقرّب حبّ الموت آجالنا لنا # و تكرهه آجالهم فتطول

تسيل على حد السيوف نفوسنا # و ليست على غير السيوف تسيل

و ما مات منا ميت في فراشه # و لا طلّ منا حيث كان قتيل

و قال حسان بن ثابت:

لم تفتها شمس النهار بشيء # غير أن السّبات ليس يدوم

لو يدبّ الحولي من ولد الذ # رّ عليها لأندبتها الكلوم

و قال بشار بن برد:

من فتاة صبّ الجمال عليها # في حديث كلذة النشوان

ثم فارقت ذاك غير ذميم # كلّ عيش الدنيا و إن طال فان

و قال مزاحم العقيلي:

تزين سنا الماويّ كلّ عشية # على غفلات الزين و المتجمل

وجوه لو أن المدلجين اعتشوا بها # صدعن الدجى حتى ترى الليل ينجلي

و قال المسعودي:

إن الكرام مناهبو # ك المجد كلهم فناهب

أخلف و أتلف كلّ شي # ء زعزعته الريح ذاهب

خطب و وصايا متخيرة

قال: قام شداد بن أوس (1) و قد أمره معاوية بتنقص علي، فقال:

الحمد للّه الذي افترض طاعته على عباده، و جعل رضاه عند أهل التقوى آثر من رضا خلقه، على ذلك مضى أولهم، و عليه يمضي آخرهم. أيها الناس، إن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، و إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر و الفاجر، و إن السامع المطيع للّه لا حجة عليه و إن السامع العاصي للّه لا حجة له، و إن اللّه إذا أراد بالعباد صلاحا عمل عليهم صلحاؤهم، و قضى بينهم فقهاؤهم، و ملك المال سمحاؤهم، و إذا أراد بهم شرا عمل عليهم سفهاؤهم، و قضى بينهم جهلاؤهم، و ملك المال بخلاؤهم.

و إن من صلاح الولاة أن يصلح قرناؤهم. و نصح لك يا معاوية من أسخطك بالحق، و غشّك من أرضاك بالباطل.

قال: اجلس رحمك اللّه، قد أمرنا لك بمال!قال: إن كان من مالك الذي تعهّدت جمعه مخافة تبعته، فأصبته حلالا و أنفقته إفضالا، فنعم، و إن كان مما شاركك فيه المسلمون فاحتجنته دونهم (2) ، فأصبته اقترافا (3) ، و أنفقته إسرافا، فإن اللّه يقول في كتابه: **إِنَّ اَلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ اَلشَّيَاطِينِ** .

و أذن معاوية للأحنف بن قيس، و قد وافى معه محمد بن الأشعث، ثم أذن له فقدمه عليه فوجد من ذلك محمد بن الأشعث، ثم أذن له فدخل فجلس بين معاوية و الأحنف، فقال له معاوية: إنّا و اللّه ما أذنّا له قبلك إلا ليجلس إلينا دونك، و ما رأيت أحدا يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلّة يجدها، و قد فعلت

---

(1) شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي ابن أخي الشاعر حسان بن ثابت. فقيه ورع زاهد حليم. توفي أيام معاوية سنة 58 هـ.
(2) احتجنت: جمعت الشيء و ضمته إليك.
(3) الاقتراف: الاكتساب و الاقتناء.

فعل من أحسّ من نفسه ذلا و ضعة، و إنا كما نملك أموركم نملك تأديبكم، فأريدوا منا ما نريده منكم، فإنه أبقى لكم، و إلا قصرناكم كرها، فكان أشدّ عليكم و أعنف بكم.

و قال معاوية لرجل من أهل سبأ: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة!فقال: بل قومك أجهل!قالوا حين دعاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الحق و أراهم البينات: اَللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ اَلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ اَلسَّمَاءِ أَوِ اِئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إلا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له!! قال: و لما سقطت ثنيتا معاويّة لفّ وجهه بعمامة، ثم خرج إلى الناس فقال:

لئن ابتليت لقد ابتلي الصالحون قبلي، و إني لأرجو أن أكون منهم. و لئن عوقبت لقد عوقب الخاطئون قبلي، و ما آمن أن أكون منهم. و لئن سقط عضوان مني لما بقي أكثر. و لو أتى على نفسي لما كان لي عليه خيار، تبارك و تعالى.

فرحم اللّه عبدا دعا بالعافية، فو اللّه لئن كان عتب علي بعض خاصتكم لقد كنت حدبا على عامتكم.

و لما بلغت معاوية وفاة الحسن بن علي رضي اللّه تعالى عنهما، دخل عليه ابن عباس فقال له معاوية: آجرك اللّه أبا عباس في أبي محمد الحسن بن علي!و لم يظهر حزنا، فقال ابن عباس: إنا للّه و إنا إليه راجعون!و غلبه البكاء فردّه ثم قال: لا يسد و اللّه مكانه جفرتك (1) ، و لا يزيد موته في أجلك، و اللّه لقد أصبنا بمن هو أعظم منه فقدا فما ضيعنا اللّه بعده!فقال له معاوية:

كم كانت سنه؟قال: مولده أشهر من أن تتعرف سنه!قال: أحسبه ترك أولادا صغارا؟قال: كلنا كان صغيرا فكبر، و لئن اختار اللّه لأبي محمد ما عنده، و قبضه إلى رحمته، لقد أبقى اللّه أبا عبد اللّه، و في مثله الخلف الصالح.

(1) الجفرة: ما يجمع البطن و الجنين.

الأصمعي عن أبان بن تغلب قال:

مررت بامرأة بأعلى الأرض، و بين يديها ابن لها يريد سفرا و هي توصيه فقالت:

اجلس امنحك وصيّتي و باللّه توفيقك، و قليل إجدائها عليك أنفع من كثير عقلك: إياك و النمائم، فإنها تزرع الضغائن، و لا تجعل نفسك غرضا للرماة، فإن الهدف إذا رمي لم يلبث أن ينثلم، و مثّل لنفسك مثالا فما استحسنته من غيرك فاعمل به، و ما كرهته منه فدعه و اجتنبه، و من كانت مودته بشّره كان كالريح في تصرفها.

ثم نظرت فقالت: كأنك يا عراقي أعجبت بكلام أهل البدو؟ثم قالت لابنها: إذا هززت فهزّ كريما، فإن الكريم يهتز لهزتك. و إياك و اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها، و إياك و الغدر فإنه أقبح ما تعومل به، و عليك بالوفاء ففيه النماء. و كن بمالك جوادا، و بدينك شحيحا. و من أعطي السخاء و الحلم فقد استجاد الحلة: ريطتها و سربالها!انهض على اسم اللّه.

و قال أعرابي لرجل مطله في حاجة: إن مثل الظفر بالحاجة تعجيل اليأس منها إذا عسر قضاؤها، و إن الطلب و إن قل أعظم قدرا من الحاجة و إن عظمت، و المطل من غير عسر آفة الجود.

خطب الفضل الرقاشيّ إلى قوم من بني تميم، فخطب لنفسه، فلما فرغ قام أعرابي منهم فقال: توسلت بحرمة، و أدليت بحق، و استندت إلى خير، و دعوت إلى سنّة، ففرضك مقبول، و ما سألت مبذول، و حاجتك مقضيّة إن شاء اللّه تعالى.

قال الفضل: لو كان الأعرابي حمد اللّه في أوّل كلامه و صلى على النبي صلّى اللّه عليه و سلّم لفضحني يومئذ.

المدائني قال: قال المنذر بن المنذر، لما حارب غسّان الشام، لابنه النعمان يوصيه:

إياك و اطّراح الإخوان، و إطراف المعرفة (1) و إياك و ملاحاة الملوك، و ممازحة السفيه. و عليك بطول الخلوة، و الإكثار من السمر. و البس من القشر (2) ما يزينك في نفسك و مروءتك. و اعلم أن جماع الخير كله الحياء فعليك به، فتواضع في نفسك و انخدع في مالك. و اعلم أن السكوت عن الأمر الذي يغنيك خير من الكلام، فإذا اضطررت إليه فتحرّ الصدق و الإيجاز، تسلم إن شاء اللّه تعالى.

كلام من عزى بعض الملوك قال: إن الخلق للخالق، و الشكر للمنعم، و التسليم للقادر، و لا بد مما هو كائن. و قد جاء ما لا يردّ، و لا سبيل إلى ردّ ما قد فات، و قد أقام معك ما سيذهب أو ستتركه، فما الجزع مما لا بد منه، و ما الطمع فيما لا يرجى، و ما الحيلة فيما سينتقل عنك أو تنقل عنه؟و قد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد ذهاب الأصل، فافضل الأشياء عند المصائب الصبر، و إنما أهل الدنيا سفر لا يحلون الركاب إلا في غيرها.

فما أحسن الشكر عند النعم، و التسليم عند الغير. فاعتبر بمن رأيت من أهل الجزع، فإن رأيت الجزع رد أحدا منهم إلى ثقة من درك فما أولاك به. و اعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، فأفق فإن المرجع قريب. و اعلم انه إنما ابتلاك المنعم، و أخذ منك المعطي، و ما ترك أكثر. فإن نسيت الصبر فلا تنس الشكر، و كلاّ فلا تدع. و احذر من الغفلة استلاب النعم، و طول الندامة، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظم الغنيمة غدا. فاستقبل المصيبة بالحسبة (3)

تستخلف بها نعمى. فإنما نحن في الدنيا غرض ينتصل (4) فينا بالمنايا، و نهب للمصائب، مع كل جرعة شرق، و مع كل أكلة غصص، لا تنال نعمة إلا بفراق

---

(1) إطراف المعرفة: تجديد الاخوان.
(2) القشر: اللباس.
(3) الحسبة: المبادرة إلى طلب الأجر.
(4) الانتضال: السبق في رمي الاغراض.

أخرى، و لا يستقبل معمّر يوما من عمره إلا بفراق آخر من أجله، و لا تحدث له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبله من رزقه، و لا يحيا له أثر إلا مات له أثر.

و نحن أعوان الحتوف على أنفسه، و أنفسنا تسوقنا إلى الفناء، فمن أين نرجو البقاء؟و هذا الليل و النهار لم يرفعا من شيء شرفا إلا أسرعا الكرّة في هدم ما رفعا، و تفريق ما جمعا. فاطلب الخير من أهله، و اعلم أن خيرا من الخير معطيه، و شرا من الشر فاعله.

أقوال و أشعار في الطلب و الدعاء

و قال أبو نواس:

أتتّبع الظرفاء أكتب عنهم # كيما أحدّث من أحبّ فيضحكا

و قال آخر:

قدرت فلم أترك صلاح عشيرتي # و ما العفو إلا بعد قدرة قادر

و قال آخر:

أخو الجدّ إن جدّ الرجال و شمّروا # و ذو باطل إن شئت ألهاك باطله

قبيصة بن عمر المهلبيّ، أن رجلا أتى ابن أبي عيينة، فسأله أن يكتب إلى داود بن يزيد كتابا، ففعل و كتب في أسفله:

إن امرأ قذفت إليك به # في البحر بعض مراكب البحر

تجري الرياح به فتحمله # و تكفّ أحيانا فلا تجري

و يرى المنيّة كلما عصفت # ريح به للهول و الذعر

للمستحقّ بأن تزوده # كتب الأمان له من الفقر

قال عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه: ما وجد أحد في نفسه كبرا إلا من مهانة يجدها في نفسه.

و دخل رجل من بني مخزوم، و كان زبيريا، على عبد الملك بن مروان،

فقال له عبد الملك: أ ليس قد ردك اللّه على عقبيك؟قال: أو من رد إليك فقد رد على عقبيه؟فاستحيا و علم أنه قد أساء.

و قال المخبل:

إذا أنت لاقيت الرجال فلاقهم # و عرضك من غثّ الأمور سليم

و قال النضر بن خالد:

كبره يبلغ الكواكب إلا # أنه في مروءة البقّال

و قال خداش بن زهير:

الناس تحتك أقدام و أنت لهم # رأس فكيف يسوّى الرأس و القدم

إنّا لنعلم إنا ما بقيت لنا # فينا السماح و فينا الجود و الكرم

و حسبنا من ثناء المادحين إذا # أثنوا عليك بأن يثنوا بما علموا

و قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: كانت قريش تألف منزل أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه لخصلتين: العلم و الطعام، فلما أسلم أسلم عامة من كان يجالسه.

قال الأصمعي: وقف أعرابي يسأل فقال:

أ لا فتى أروع ذا جمال # من عرب الناس أو الموالي

يعينني اليوم على عيالي # قد كثّروا همّي و قلّ مالي

و ساقهم جدب و سوء حال # و قد مللت كثرة السؤال

و قال أعرابي:

يا ابن الكرام والدا و ولدا # لا تحرمنّ سائلا تعمّدا

أفقره دهر عليه قد عدا # من بعد ما كان قديما سيّدا

و قال أعرابي: اللهم أسألك قلبا توّابا أوّابا، لا كافرا و لا مرتابا.

وهب رجل لأعرابي شيئا فقال: جعل اللّه للخير عليك دليلا، و جعل عندك رفدا جزيلا، و أبقاك بقاء طويلا، و أبلاك بلاء جميلا.

وقف أعرابي على قوم فمنعوه فقال: اللهم أشغلنا بذكرك، و اعذنا من سخطك، و جنّبنا إلى عفوك (1) ، فقد ضن خلقك على خلقك برزقك، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك، و آتنا من الدنيا القنعان (2) ، و إن كان كثيرها يسخطك، فلا خير فيما يسخطك.

الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يدعو و هو يقول: اللهم أغفر لي إذ الصحف منشورة، و التوبة مقبولة، قبل أن لا أقدر على استغفارك، حين ينقطع الأمل، و يحضر الأجل، و يفنى العمل.

الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يدعو و هو يقول: اللهم ارزقني مالا أكبت به الأعداء، و بنين أصول بهم على الأقوياء.

و كان منادي سعد بن عبادة (3) يقول على أطمه: من أراد خبزا و لحما فليأت أطم سعد. و خلفه ابنه قيس بن سعد، فكان يفعل كفعله، فإذا أكل الناس رفع يده إلى السماء و قال: اللهم إني لا أصلح على القليل، و لا يصلح القليل لي. اللهم هب لي حمدا و مجدا، فإنه لا حمد إلا بفعال، و لا مجد إلا بمال.

و قال أعرابي: اللهم إن لك علي حقوقا فتصدّق بها علي، و للناس علي حقوقا فأدها عني، و قد أوجبت لكل ضيف قرى و أنا ضيفك، فاجعل قراي في هذه الليلة الجنة.

---

(1) جنبه: قاده إلى جنبه.

(2) القنعان: القناعة.

(3) هو سعد بن عبادة الخزرجي زعيم الأنصار، و قد أبلى في الاسلام احسن البلاء، و قد تخلف بعد موت النبي صلّى اللّه عليه و سلّم عن بيعة أبي بكر. و عرف بجوده. توفي سنة 15 هـ.

وقف أعرابي على قوم يسألهم فأنشأ يقول:

هل من فتى عنده خفّان يحملني # عليهما إنني شيخ على سفر

أشكو إلى اللّه أهوالا أمارسها # من الصّداع وأنّي ي سيّئ البصر

إذا سرى القوم لم أبصر طريقهم # إن لم يكن عندهم ضوء من القمر

الأخفش قال: خرج أعرابي يطلب الصدقة و معه ابنتان له، فقالت ابنته لما رأت إمساك الناس عنه:

يا أيها الراكب ذو التّعريس # هل فيكم من طارد للبوس

عن ذي هداج بيّن التقويس [1] # بفضل سربال له دريس [2]

أو فاضل من زاده خسيس # أثابه الرحمن بالنفيس

و وقف سائل على الحسن فقال: رحم اللّه عبدا أعطى من سعة، أو آسى من كفاف، أو آثر من قلّة.

و قال الطائي:

فتى كلما فاضت عيون قبيلة # دما ضحكت عنه الأحاديث و الذكر

فتى مات بين الطعن و الضرب ميتة # تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

و قال:

بكر إذا ابتسمت أراك وميضها # نور الأقاح برملة ميعاس

و إذا مشت تركت بصدرك ضعف ما # بحليّها من كثرة الوسواس [3]

قالت و قد حمّ الفراق فكأسه # قد خولط الساقي بها و الحاسي [4]

لا تنسين تلك العهود فإنما # سميت إنسانا لأنك ناسي

هدأت على تأميل أحمد همتي # و أطاف تقليدي به و قياسي

---

(1) الهداج: المضطرب في مشيته.
(2) الدريس: الخلق البالي.

(3) الوسواس: صوت الحلى و حديث النفس.
(4) حم الفراق: قدر.

نور العرارة نوره و نسيمه # نشر الخزامى في اخضرار الآس

أقدام عمرو في سماحة حاتم # في حلم أحنف في ذكاء إياس

لا تنكروا ضربي له من دونه # مثلا شرودا في الندى و الباس

فاللّه قد ضرب الأقلّ لنوره # مثلا من المشكاة و النبراس

و قال:

احفظ رسائل شعر فيك ما ذهبت # خواطر البرق إلا دون ما ذهبا

يغدون مغتربات في البلاد فما # يزلن يؤنسن في الآفاق مغتربا

و لا تضعها فما في الأرض أحسن من # نظم القوافي إذا ما صادفت أدبا

نقد الشعر و الشعراء

أسر رؤبة في بعض حروب تميم فمنع الكلام، فجعل يصرخ: يا صباحاه، و يا بني تميم أطلقوا من لساني.

و ربما قال الشاعر في هجائه قولا يعيب به المهجوّ فيمتنع من فعله المهجو و إن كان لا يلحق فاعله ذم. و كذلك إذا مدحه بشيء أولع بفعله و إن كان لا يصير إليه بفعله مدح.

فمن ذلك تقدّم كلثم بنت سريع مولى عمرو بن حريث، إلى عبد الملك ابن عمير، و هو على قضاء الكوفة، تخاصم أهلها، فقضى لها عبد الملك على أهلها، فقال هذيل الأشجعي:

أتاه وليد بالشهود يقودهم # على ما ادّعى من صامت المال و الخول [1]

و جاءت إليه كلثم و كلامها # شفاء من الداء المخامر و الخبل

فأدلى وليد عند ذاك بحقه # و كان وليد ذا مراء و ذا جدل

و كان لها دلّ و عين كحيلة # فأدلت بحسن الدلّ منها و بالكحل

ففتّنت القبطيّ حتى قضى لها # بغير قضاء اللّه في السّور الطّول

(1) صامت المال: الذهب و الفضة. الخول: العبيد و الخدم.

فلو كان من بالقصر يعلم علمه # لما استعمل القبطي فينا على عمل

له حين يقضي للنساء تخاوص # و كان و ما فيه التخاوص و الحول [1]

إذا ذات دلّ كلمته بحاجة # فهمّ بأن يقضي تنحنح أو سعل

و برّق عينيه و لاك لسانه # يرى كلّ شيء ما خلا شخصها جلل

قال: فقال عبد الملك: أخزاه اللّه، و اللّه لربما جاءتني السعلة أو النحنحة و أنا في المتوضأ فأذكر قوله فأردها لذلك.

و زعم الهيثم بن عدي عن أشياخه، أن الشاعر لما قال في شهر بن حوشب:

لقد باع شهر دينه بخريطة # فمن يأمن القرّاء بعدك يا شهر

ما مسّ خريطة [2] حتى مات.

و قال رجل من بني تغلب، و كان ظريفا: ما لقي أحد من تغلب ما ألقى أنا!قلت: و كيف ذاك؟قال: قال الشاعر [3] :

لا تطلبنّ خئولة في تغلب # فالزّنج أكرم منهم أخوالا

لو أن تغلب جمّعت أحسابها # يوم التفاخر لم تزن مثقالا

تلقاهم حلماء عن أعدائهم # و على الصديق تراهم جهّالا

و التغلبيّ إذا تنحنح للقرى # حكّ استه و تمثّل الأمثالا

و اللّه إني لأتوهم أن لو نهشت استي الأفاعي ما حككتها.

---

(1) التخاوص: أن يغض من بصره شيئا.

(2) الخريطة: هنة مثل الكيس مصنوعة من الأدم و الخرق.

(3) الشاعر هو جرير بن الخطفي من قصيدة يهجو بها الأخطل و قومه.

و كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، و هم إليه أحوج، لردّه مآثرهم عليهم و تذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء و كثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر.

و الذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه، و مدحوا فرفعوا من قدر من مدحوا، و هجاهم قوم فردوا عليهم فأفحموهم، و سكت عنهم بعض من هجاهم مخافة التعرض لهم، و سكتوا عن بعض من هجاهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم، و هم إسلاميون: جرير و الفرزدق و الأخطل. و في الجاهلية: زهير، و طرفة، و الأعشى، و النابغة. هذا قول أبي عبيدة.

و زعم أبو عمرو بن العلاء: أن الشعر فتح بامرئ القيس و ختم بذي الرمّة.

و من الشعراء من يحكم القريض و لا يحسن من الرجز شيئا، ففي الجاهلية منهم: زهير، و النابغة، و الأعشى. و أما من يجمعهما فامرؤ القيس و له شيء من الرجز، و طر؟؟؟ة و له كمثل ذلك، و لبيد و قد أكثر.

و من الإسلاميين من لا يقدر على الرجز و هو في ذلك يجيد القريض:

كالفرزدق و جرير. و من يجمعهما فأبو النجم، و حميد الأرقط، و العماني، و بشّار بن برد. و أقل من هؤلاء يحكم القصيد و الإرجاز و الخطب. و كان الكميت، و البعيث، و الطرماح شعراء خطباء، و كان البعيث أخطبهم. و قال يونس: لئن كان مغلّبا في الشعر لقد كان غلّب في الخطب.

و إذا قالوا: غلّب فهو الغالب.

و قال الحسين بن مطير الأسديّ:

فيا قبر معن كنت أوّل حفرة # من الأرض خطّت للمكارم مضجعا

فلما مضى معن مضى الجود و انقضى # و أصبح عرنين المكارم أجدعا

فتى عيش في معروفه بعد موته # كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

تعزّ أبا العباس عنه و لا يكن # جزاؤك من معن بأن تتضعضعا

فما مات من كنت ابنه لا و لا الذي # له مثل ما أسدى أبوك و ما سعى

تمنّى أناس شأوه من ضلالهم # فأضحوا على الأذقان صرعى و ظلّعا

و قال مسلم الأنصاريّ يرثي يزيد بن مزيد:

قبر ببرذعة استسرّ ضريحه # خطرا تقاصر دونه الأخطار

أبقى الزمان على معدّ بعده # حزنا كعمر الدهر ليس يعار

نفضت بك الآمال أحلاس الغنى # و استرجعت نزّاعها الأمصار

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة # أثنى عليها السهل و الأوعار

و قال همّام الرّقاشيّ:

أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة # و في العتاب حياة بين أقوام

قدّمت قبلي رجالا لم يكن لهم # في الحق أن يلجوا الأبواب قدّامي

لو عدّ قبر و قبر كنت أكرمهم # قبرا و أبعدهم من منزل الذّام

حتى جعلت إذا ما حاجة عرضت # بباب قصرك أدلوها بأقوام

و قال الأبيرد الرياحيّ يرثي أخاه:

فتى إن هو استغنى تخرّق في الغنى # و إن قلّ مال لم يؤد متنه الفقر

و سامى جسيمات الأمور فنالها # على العسر حتى يدرك العسرة اليسر

ترى القوم في العزّاء ينتظرونه # إذا شك رأي القوم أو حزب الأمر [1]

فليتك كنت الحي في الناس باقيا # و كنت أنا الميت الذي غيّب القبر

لقد كنت استعفي الإله إذا اشتكى # من الأجر لي فيه و إن سرّني الأجر

و اجزع أن ينأى به بين ليلة # فكيف ببين صار ميعاده الحشر

و قال أبو عبيدة: أنشدني رجل من بني عجل:

و كنت أعير الدمع قبلك من بكى # فأنت على من مات بعدك شاغله

لقد رحل الحيّ المقيم و ودعوا # فتى لم يكن يأذى به من ينازله

(1) العزاء: السنة الجديدة.

و لم يك يخشى الجار منه إذا دنا # أذاه و لا يخشى الحريمة سائلة

فتى كان للمعروف يبسط كفّه # إذا قبضت كفّ البخيل و نائله

أحاديث و رسائل و نصائح متفرقة

قال: دخل معن بن زائدة على أبي جعفر المنصور، فقارب في خطوه فقال المنصور: لقد كبرت سنك!قال: في طاعتك. قال: و إنك لجلد! قال: على عدائك، قال: و أرى فيك بقيّة!قال: هي لك.

قال: كتب عبد الملك بن مروان إلى عمرو بن سعيد الأشدق، حين خرج عليه:

أما بعد، فإن رحمتي لك تصرفني عن الغضب عليك، لتمكّن الخدع منك، و خذلان التوفيق إياك. نهضت بأسباب و همتك أطماعك أن تستفيد بها عزا، كنت جديرا لو اعتدلت أن لا تدفع بها ذلاّ. و من رحل عنه حسن النظر و استوطنته الأماني ملك الحين تصريفه، و استترت عنه عواقب أمره. و عن قليل يتبيّن من سلك سبيلك، و نهض بمثل أسبابك، أنه أسير غفلة، و صريع خدع، و مغيض ندم. و الرّحم تحمل على الصفح عنك ما لم تحلل بك عواقب جهلك، و تزجر عن الإيقاع بك. و أنت، إن ارتدعت، في كنف و ستر.

و السلام.

فكتب إليه عمرو:

أما بعد، فإن استدراج النّعم إياك أفادك البغي، و رائحة التدرة أورثتك الغفلة. زجرت عما واقعت مثله، و ندبت إلى ما تركت سبيله. و لو كان ضعف الأسباب يؤيس الطلاب ما انتقل سلطان، و لا ذل عزّ. و عما قليل تتبيّن من أسير الغفلة، و صريع الخدع. و الرحم تعطف على الإبقاء عليك، مع دفعك ما غيرك أقوم به منك. و السلام.

قال أبو الحسن: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد بن عبد الملك:

أما بعد فإنك كتبت تذكر أن عاملا أخذ مالك بالحمّة (1) و تزعم أني من الظالمين!و إن أظلم مني و أترك لعهد اللّه من أمرك صبيا سفيها على جيش من جيوش المسلمين، لم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده. و إن أظلم مني و أترك لعهد اللّه لأنت. فأنت عمر بن الوليد، و أمك صنّاجة (2) تدخل دور حمص، و تطوف في حوانيتها!رويدك أن لو قد التقت حلقتا البطان (3)

لحملتك و أهل بيتك على المحجّة البيضاء، فطالما ركبتم بنيّات الطريق (4) .

مع أني قد هممت أن أبعث إليك من يحلق دلادلك!فإني أعلم أنها من أعظم المصائب عليك. و السلام.

قال أبو الحسن: كان عبد الملك بن مروان شديد اليقظة، و كثير التعهد لولاته، فبلغه أن عاملا من عمّاله قبل هدية، فأمر بإشخاصه إليه، فلما دخل عليه قال له: أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال له: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، و خراجك موفور، و رعيتك على أفضل حال!قال: أجب فيما سألتك عنه، أقبلت هدية منذ وليتك؟قال: نعم. قال: لئن كنت قبلت هدية و لم تعوّض إنك للئيم. و لئن أنلت مهديك لا من مالك أو استكفيته ما لم يكن يستكفاه، إنك لجائر خائن. و لئن كان مذهبك أن تعوض المهدي إليك من مالك و قبلت ما اتهمك به عند من استكفاك و بسط لسان عائبك، و اطمع فيك أهل عملك، إنك لجاهل. و ما فيمن أتى أمرا لم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع!نحّياه عن عمله.

---

(1) الحمة: اسم موضع في الشام.
(2) الصناجة: التي تضرب بالصنج و هو آلة موسيقية.
(3) حلقتا البطان: الحلقتان اللتان تكونان على طرفي الحزام الذي يحزم تحت بطن البعير. إذا التقتا فقد بلغ الشد غايته. يضرب مثلا في الأمر إذا بلغ الغاية.
(4) بنيات الطريق: الصعاب.

قال أبو الحسن: عرض أعرابيّ لعتبة بن أبي سفيان و هو على مكة فقال:

أيها الخليفة!قال: لست به و لم تبعد. قال: يا أخاه. قال: اسمعت.

فقال: شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة، و يختص بالخئولة، و يشكو إليك كثرة العيال و وطأة الزمان، و شدّة فقر و ترادف ضرّ، و عندك ما يسعه و يصرف عنه بؤسه!قال: استغفر اللّه منك، و استعينه عليك، قد أمرت لك بغناك، وليت إسراعي إليك يقوم بإبطائي عنك.

و قال أعرابيّ يعيب قوما: هم أقلّ الناس ذنوبا إلى أعدائهم، و أكثرهم جرما إلى أصدقائهم، يصومون عن المعروف، و يفطرون على الفحشاء.

و قال مجّاعة بن مرارة (1) ، لأبي بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه: إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، و السلاح عند من لا يستعمله، و المال عند من لا ينفقه، ضاعت الأمور.

الأصمعي قال: نعت أعرابيّ رجلا فقال: كأنّ الألسن و القلوب ريضت له، فما تنعقد إلا على ودّه، و لا تنطق إلا بحمده.

و قال أعرابي: وعد الكريم نقد و تعجيل، و وعد اللئيم مطل و تعليل.

أتى أعرابي عمر بن عبد العزيز فقال: رجل من أهل البادية ساقته الحاجة و انتهت به الفاقة، و اللّه يسألك عن مقامي غدا!فبكى عمر.

قال الشاعر:

و من يبق مالا عدّة و صيانة # فلا البخل مبقيه و لا الدهر وافره

و من يك ذا عود صليب يعدّه # ليكسر عود الدهر فالدهر كاسره

---

(1) مجاعة بن مرارة الحنفي، أسره خالد بن الوليد في حرب مسيلمة الكذاب باليمامة و استبقاه و تزوج ابنته، و عاش إلى زمن معاوية.

و قال أبان بن الوليد لأياس بن معاوية: أنا أغنى منك!فقال أياس: بل أنا أغنى منك!قال أبان: و كيف و لي كذا و كذا!و عدد أموالا. قال: لأن كسبك لا يفضل عن مئونتك، و كسبي يفضل عن مئونتي.

و كان يقال: حاجب الرجل عامله على عرضه.

و قال أبو الحسن: رأيت امرأة أعرابية غمّضت ميتا و ترحّمت عليه ثم قالت: ما أحقّ من ألبس العافية، و أطيلت له النظرة أن لا يعجز عن النظر لنفسه، قبل الحلول بساحته، و الحيالة (1) بينه و بين نفسه! و قال ابن الزبير لمعاوية حين أراد أن يبايع لابنه يزيد: تقدّم ابنك على من هو خير منه؟قال: كأنك تريد نفسك؟إن بيته بمكة فوق بيتك!قال ابن الزبير: إن اللّه رفع بالإسلام بيوتا، فبيتي مما رفع!قال معاوية: صدقت، و بيت حاطب بن أبي بلتعة (2) ! و قال: عاتب أعرابي أباه فقال: إن عظيم حقك علي لا يذهب صغير حقي عليك، و الذي تمت إلي أمت بمثله إليك، و لست أزعم أنا سواء، و لكن أقول: لا يحلّ لك الاعتداء.

قال: مدح رجل قوما فقال: أدبتهم الحكمة، و أحكمتهم التجارب، و لم تغررهم السلامة المنطوية على الهلكة، و رحل عنهم التسويف الذي قطع الناس به مسافة آجالهم، فأحسنوا المقال، و شفعوه بالفعال و قال بعض الحكماء: التواضع مع السخافة و البخل، أحمد عند العلماء

---

(1) الحيالة: الحئول و المنع.

(2) حاطب بن أبي بلتعة، من أصحاب الرسول، فارس شجاع شاعر شهد بدرا، و اتهم باخباره أهل مكة بتجهيز الرسول فنزلت به الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . مات سنة 30 هـ.

من الكبر مع السخاء و الأدب. فأعظم بحسنة عفّت على سيئتين (1) ، و أفظع بعيب أفسد من صاحبه حسنتين.

و قيل لرجل-أراه خالد بن صفوان-: مات صديق لك!فقال: رحمة اللّه عليه، لقد كان يملأ العين جمالا، و الأذن بيانا، و لقد كان يرجى و لا يخشى، و يغشى و لا يغشى، و يعطي و لا يعطى، قليلا لدى الشر حضوره، سليما للصديق ضميره.

و قام أعرابي ليسأل فقال: أين الوجوه الصّباح، و العقول الصّحاح، و الألسن الفصاح، و الأنساب الصّراح (2) ، و المكارم الرّباح (3) ، و الصدور الفساح، تعيذني من مقامي هذا؟! و مدح بعضهم رجلا فقال: ما كان أفسح صدره، و أبعد ذكره، و أعظم قدره، و أنفد أمره، و أعلى شرفه، و أربح صفقة من عرفه، مع سعة الفناء، و عظم الإناء، و كرم الآباء.

و قال علي بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه لصعصعة بن صوحان: و اللّه ما علمت إنك لكثير المعونة، قليل المئونة، فجزاك اللّه خيرا. فقال صعصعة: و أنت فجزاك اللّه أحسن ذلك، فإنك ما علمت باللّه عليم، و اللّه في عينك عظيم.

قال أبو الحسن: أوصى عبد الملك بن صالح ابنا له فقال: أي بنيّ أحلم فإن من حلم ساد، و من تفهّم ازداد، و الق أهل الخير، فإن لقاءهم عمارة للقلوب، و لا تجمح بك مطية اللجاج، و منك من أعتبك، و الصاحب مناسب، و الصبر على المكروه يعصم القلب. المزاح يورث الضغائن، و حسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف، و الاقتصاد يثمر القليل، و الإسراف يثبّر

---

(1) عفت على سيئتين: ذهبت بهما، اذهبتهما.
(2) الصراح: المحض، الخالص.
(3) الرباح: ما فيه ربح.

الكثير (1) ، و نعم الحظ القناعة، و شر ما صحب المرء الحسد، و ما كل عورة تصاب (2) . و ربما أبصر العمي رشده، و أخطأ البصير قصده. و اليأس خير من الطلب إلى الناس. و العفّة مع الحرفة خير من الغنى مع الفجور. أرفق في الطلب و أجمل في المكسب، فإنه رب طلب قد جر إلى حرب. ليس كل طالب بمنجح، و لا كل ملحّ بمحتاج، و المغبون من غبن نصيبه من اللّه. عاتب من رجوت عتباه، و فاكه من أمنت بلواه. لا تكن مضحاكا من غير عجب، و لا مشاء إلى غير أرب. و من نأى عن الحق ضاق مذهبه، و من اقتصر على حاله كان أنعم لباله. لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه إنما سعى في مضرته و نفعك. و عوّد نفسك السماح، و تخير لها من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة، و الشر لجاجة، و الصدود آية المقت، و التعلّل آية البخل. و من الفقه كتمان السر، و لقاح المعرفة و دراسة العلم، و طول التجارب زيادة في العقل، و القناعة راحة الأبدان. و الشرف التقوي. و البلاغة معرفة رتق الكلام و فتقه.

بالعقل تستخرج الحكمة، و بالحلم يستخرج غور العقل، و من شمّر في الأمور ركب البحور، شر القول ما نقض بعضه بعضا. من سعى بالنميمة حذره البعيد، و مقته القريب. من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية، و من توانى في نفسه ضاع: من أسرف في الأمور انتشرت عليه، و من اقتصد اجتمعت له، و اللجاجة تورث الضياع للأمور. غبّ الأدب أحمد من ابتدائه. مبادرة الفهم تورث النسيان. سوء الاستماع يعقب العيّ. لا تحدّث من لا يقبل بوجهه عليك، و لا تنصت لمن لا ينمي بحديثه إليك. البلادة في الرجل هجنة (3) ، قلّ مالك إلا استأثر، و قلّ عاجز إلا تأخر. الإحجام عن الأمور يورث العجز، و الإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ. سوء الطّعمة يفسد العرض (4) ، و يخلق الوجه، و يمحق الدين. الهيبة قرين الحرمان، و الجسارة قرين الظفر، و منك من أنصفك، و أخوك من عاتبك، و شريكك من وفى لك، و صفيك من اترك.

---

(1) يثبر: يهلك يدمر
(2) العورة: خلل في الثغر.
(3) الهجنة: العيب.
(4) الطعمة: وجه الكسب.

أعدى الاعتداء العقوق. إتباع الشهوة يورث الندامة، و فوت الفرصة يورث الحسرة. جميع أركان الأدب التأتي للرفق. أكرم نفسك عن كل دنية و إن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تجد بما تبذل من دينك و نفسك عوضا. لا تساعد النساء فيمللنك، و استبق من نفسك بقية، فإنهن إن يرينك ذا اقتدار خير من أن يطلعن منك على انكسار. لا تملك المرأة الشفاعة لغيرها فيميل من شفعت له عليك معها.

أي بنيّ، إني قد اخترت لك الوصية، و محضتك النصيحة، و أدّيت الحق إلى اللّه في تأديبك، فلا تغفلن الأخذ بأحسنها، و العمل بما. و اللّه موفقك.

قال الغنوي: احتضر رجل منا فصاحت ابنته، ففتح عينيه و هو يكيد بنفسه (1) ، فقال:

عزاء لا أبا لك إنّ شيئا # تولّى ليس يرجعه الحنين

و قال بعض الشعراء:

و ما إن قتلناهم بأكثر منهم # و لكن بأوفى بالطعان و أكرما

المدائني قال: كان يقال: إذا انقطع رجاؤك من صديقك فألحقه بعدوك.

و قال عبد الملك بن صالح: لا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك فإنما سعى في مضرته و نفعك.

و قال مصعب بن الزبير: التواضع أحد مصايد الشرف.

(1) يكيد بنفسه: يجود بها.

و قال عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه: إياك و مؤاخاة الأحمق، فإنه ربما أراد أن ينفعك فضرّك.

و كانوا يقولون: عشر في عشرة هي فيهم أقبح منها في غيرهم: الضيق في الملوك، و الغدر في ذوي الأحساب، و الحاجة في العلماء، و الكذب في القضاة، و الغضب في ذوي الألباب، و السفاهة في الكهول، و المرض في الأطباء، و الاستهزاء في أهل البؤس، و الفخر في أهل الفاقة، و الشح في الأغنياء.

و وصف بعض الأعراب فرسا فقال: انتهى ضموره، و ذبل فريره (1) ، و ظهر حصيره (2) ، و تفلّقت غروره (3) ، و استرخت شاكلته (4) ، يقبل بزبرة الأسد (5) ، و يدبر بعجز الذئب.

و مات ابن لسليمان بن علي فجزع عليه جزعا شديدا، و امتنع من الطعام و الشراب، و جعل الناس يعزونه فلا يحفل بذلك، فدخل عليه يحيى بن منصور فقال: عليكم نزل كتاب اللّه فأنتم أعلم بفرائضه، و منكم كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأنتم أعرف بسنته، و لست ممن يعلّم من جهل، و لا يقوّم من عوج، و لكني أعزيك ببيت من الشعر. قال: هاته. قال:

و هوّن ما ألقى من الوجد أنني # أساكنه في داره اليوم أو غدا

قال: أعد. فأعاد، فقال: يا غلام الغداء.

---

(1) الفرير: موضع المحبة من معرفة الفرس.
(2) الحصير: لحم ما بين الكتف إلى الخاصرة.
(3) الغرور: في الفخذين كالأخاديد بين الحضائل
(4) الشاكلة: الخاصرة.
(5) الزبرة: الشعر المجتمع على الكاهل.

قال: دعا أعرابي في طريق مكة فقال: «هل من عائد بفضل، أو مواس من كفاف؟» فأمسك عنه فقال: «اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجز، و لا إلى الناس فنضيع» .

و قال أبو الحسن: جاء خلف الأحمر إلى حلقة يونس حين مات أبو جعفر فقال:

قد طرّقت ببكرها بنت طبق [1]

فقال له يونس: ما ذا؟فقال:

فذمّروها خبرا ضخم العنق [2]

فقال يونس: و ما ذا؟فقال:

موت الإمام فلقة من الفلق [3]

قال أبو الحسن: أراد رجل أن يكذب بلالا، فقال له يوما: يا بلال، ما سنّ فرسك؟قال: عظم. قال: فكيف جريه؟قال: يحضر ما استطاع.

قال: فأين تنزل؟قال: موضعا أضع فيه رجلي. فقال له الرجل: لا أتعنتك أبدا.

قال: و دخل رجل على شريح القاضي، يخاصم امرأة له، فقال:

السلام عليكم. قال: و عليكم. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: بعيد سحيق. قال: و إني قدمت إلى بلدكم هذا. قال: خير مقدم. قال:

و إني تزوجت امرأة. قال: بالرّفاء و البنين. قال: و إنها ولدت غلاما. قال:

ليهنئك الفارس. قال: و قد كنت شرطت لها صداقها. قال: الشرط أملك.

قال: و قد أردت الخروج بها إلى بلدي. قال: الرجل أحق بأهله. قال: قد فعلت.

---

(1) طرقت: خرج من ولدها نصفه. بنت طبق: حية صفراء.
(2) ذمروها: دخل يده في حيائها ليعرف اذا كان جنينها ذكر أم أنثى.
(3) الفلقة: الداهية.

قال: و خرج الحجاج ذات يوم فأصحر، و حضر غداؤه فقال: أطلبوا من يتغدى معي. فطلبوا فإذا أعرابي في شملة، فأتي به، فقال: السلام عليكم.

قال: هلم أيها الأعرابي. قال: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته. قال:

و من هو؟قال: دعاني اللّه ربي إلى الصوم فأنا صائم!قال: و صوم في مثل هذا اليوم الحار!قال: صمت ليوم هو أحرّ منه، قال: فأفطر اليوم و صم غدا. قال: و يضمن لي الأمير أنني أعيش إلى غد؟قال: ليس ذلك إليه! قال: فكيف يسألني عاجلا بآجل ليس إليه؟قال: إنه طعام طيب. قال. ما طيبه خبازك و لا طباخك!قال: فمن طيبه؟قال: العافية. قال الحجاج: تاللّه إن رأيت كاليوم!أخرجوه.

قال أبو عمرو: خرج صعصعة بن صوحان عائدا إلى مكة، فلقيه رجل فقال له: يا عبد اللّه، كيف تركت الأرض؟قال: عريضة أريضة (1) . قال: إنما عنيت السماء. قال: فوق البشر، و مدى البصر. قال: سبحان اللّه، إنما أردت السحاب!قال: تحت الخضراء، و فوق الغبراء. قال: إنما أعني المطر. قال: عفّى الأثر، و ملأ القتر (2) ، و بلّ الوبر، و مطرنا أحيا المطر.

قال: إنسيّ أنت أم جنيّ؟قال: بل إنسي، من أمة رجل مهدي، صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قال بشار:

و حمد كعصب البرد حمّلت صاحبي # إلى ملك للصالحين قرين

و قال أيضا:

و بكر كنوّار الرياض حديثها # تروق بوجه واضح و قوام

و كتب الحجّاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان:

---

(1) الأريضة: الريانة، المعجبة للعين.
(2) القتر: مفردها قترة: حفرة يحتفرها الصياد ليكمن فيها متربصا.

أما بعد فإنّا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سقيا اللّه إيانا، إلا ما بلّ وجه الأرض من الطشّ و الرش و الرذاذ (1) حتى دقعت الأرض و اقشعرّت و اغبرّت (2) ، و ثارت في نواحيها أعاصير تذرو دقاق الأرض من ترابها، و امسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض و اعتزازها و امتناعها، و أرضنا أرض سريع تغيّرها، و شيك تتكّرها، سيّئ ظن أهلها عند قحوط المطر، حتى أرسل اللّه بالقبول يوم الجمعة (3) ، فأثارت زبرجا متقطّعا متمصّرا (4) ، ثم أعقبته الشّمال يوم السبت فطحطحت عنه جهامه (5) ، و ألفت متقطّعة، و جمعت متمصّرة، حتى انتضد فاستوى، و طما و طحا، و كان جونا مرثعنا (6) قريبا رواعده، ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل (7) يردف بعضه بعضا، كلما أردف شؤبوب أردفته شآبيب (8) لشدة وقعه في العراص (9) .

و كتبت إلى أمير المؤمنين و هي ترمي بمثل قطع القطن، قد ملأ اليباب (10) ، و سد الشعاب، و سقي منها كل ساق. فالحمد للّه الذي أنزل غيثه، و نشر رحمته من بعد ما قنطوا، و هو الوليّ الحميد. و السلام.

و هذا أبقاك اللّه آخر ما ألّفناه من كتاب «البيان و التبيين» ، و نرجو أن نكون غير مقصّرين فيما اخترناه من صنعته، و أردناه من تأليفه. فإن وقع على الحال التي أردنا، و بالمنزلة التي أمّلنا، فذلك بتوفيق اللّه و حسن تأييده، و إن وقع بخلافها فما قصّرنا في الاجتهاد، و لكن حرمنا التوفيق. و اللّه سبحانه و تعالى أعلم.

---

(1) الطش و الرش و الرذاذ: المطر الخفيف.
(2) دقعت: يبست و لم يعد فيها نبات. اقشعرت: تقبضت.
(3) القبول: ريح الشمال.
(4) الزبرج: السحاب الرقيق. المتمصر: المتفرق.
(5) طحطحته: فرقته. الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(6) المرتعن: السائل.
(7) المنسجل: المنصب.
(8) الشؤبوب: دفعة من المطر.
(9) العراص: مفردها عرصة: ساحة الدار.
(10) اليباب: الخالي، القفر.

الفـــهـــرس

الجزء الأول

مقدمة عامة

باب عيوب البيان

العي

لثغة واصل بن عطاء و أخباره

حروف اللثغة

الفأفأة و التمتمة

اللفف

اللجلجة

الحبسة و الحكلة

النحنحة و السعلة

الخطباء الشعراء

أثر الأسنان في البيان

تنافر الألفاظ و الحروف

اللكنة

باب البيان

حد البيان

أدوات البيان الخمس

أحسن الكلام

باب البلاغة

حد البلاغة

مفهوم البلاغة عند سهل بن هارون

مفهوم البلاغة عند الهند

مفهوم البلاغة عند العرب

تراجم البلغاء

إياس بن معاوية

عبد اللّه بن حفص

محمد بن مسعر

الحسن بن سهل

ابن السماك

جعفر بن يحيى

ثمامة بن أشرس

شبيب بن شيبة
عودة إلى مفهوم البلاغة عند العتابي و عمرو بن عبيد و ابن المقفع
توشيح الخطب بآي القرآن و الأشعار
جهارة الصوت و التشديق في الخطب
بشر بن المعتمر يقنن أصول البلاغة
طبقات الكلام
عيون المعاني
الفصاحة و اللحن
مديح اللسان
مديح قوة العارضة
لقمان بن عاد
ذم فضول الكلام و مدح الصمت
البيان منزلة بين الإسهاب و الإيجاز
أقوال بليغة
ما قيل في الحق و الباطل
مدح اللسن و البيان و الكلام الجميل المعدل
آراء في الخطباء و الشعراء و العلماء
ذم النوك
باب في ذكر المعلمين (1)
خير الكلام الوسط
باب من الخطب القصار من خطب السلف، و مواعظ من مواعظ النساك، و تأديب من تأديب العلماء
عودة إلى المفاضلة بين الصمت و الكلام
باب ما قالوا فيه من الحديث الحسن الموجز المحذوف، القليل الفضول
باب من الأسجاع في الكلام
عودة إلى تراجم بعض الخطباء و البلغاء
الفضل الرقاشي
قس بن ساعدة
زيد بن علي بن الحسين
هند بنت الخس و جمعة بنت حابس
سعيد بن العاصي و ابنه عمرو و حفيده سعيد
سهيل بن عمرو
عبد اللّه بن عروة بن الزبير
النسابون الخطباء

أبو الأسود الدؤلي
عبيد اللّه العائشي
قسامة بن زهير
خالد بن يزيد بن معاوية
عون بن عبد اللّه بن مسعود
الجارود بن أبي سبرة
عبد اللّه بن عباس
داود بن علي
عبد اللّه بن الحسن بن الحسن
أولاد سليمان بن علي بن عبد اللّه بن العباس
نصر و إبراهيم السنديان
جحدب التميمي
عبد اللّه بن شبرمة
خالد بن صفوان
خطباء ضبة
خطباء الخوارج
عبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر
الأبرش الكلبي
الزبرقان بن بدر
أيوب بن القرية
بنو الكواء
كعب بن لؤي
شبيب بن شيبة
خطباء قريش
خطباء بني هلال بن عامر
خطباء تميم
أصحاب الأخبار
خطباء هذيل
خطباء قحطان
ذكر النساك و الزهاد من أهل البيان
أسماء الصوفية من النساك ممن كان يجيد الكلام
ذكر القصاصالأبيناء
ما قيل في المخاصر و العصي و غيرهما
سبب تسمية بعض الشعراء
اللفظ الغريب ليس فصيحا
بعض محتويات الجزء الثاني

من كلام الحجاج و غيره
الجزء الثاني
مقدمة
باب فى الخطب
أنواع الخطب
طبقات الشعراء
من أقوال رسول اللّه و أحاديثه و خطبه
خطبة النبي صلّى اللّه عليه و سلّم في الوداع
كلمات بليغة
خطبة أبي بكر في الملوك
كلام أبي بكر الصديق (ر) لعمر حين استخلفه عند موته.
وصيةعمر للخليفة من بعده.
رسالة عمر (ر) إلى ابي موسى الأشعري.
خطبة لعلي بن ابي طالب (ر)
خطبة لعلي بن ابي طالب أيضا (ر) في الآخرة
خطبة علي في الجهاد
خطبة علي في الشكوى من أنصاره
خطبة عبد اللّه بن مسعود رحمه اللّه
خطبة عتبة بن غزوان السلمي بعد فتح الابلة
خطبة من خطب معاوية (ر)
خطبة زياد بالبصرة.
مقطعات و خطب قصيرة
خطبة عمر بن عبد العزيز (ر)
خطبة أخرى ذهب عني إسنادها (2)
خطبة أبي حمزة الخارجي
خطبة قطري بن الفجاءة
خطبة محمد بن سليمان يوم الجمعة و كان لا يغيرها
خطبة عبيد اللّه بن زياد
خطبة معاوية
خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي
و خطب مرة أخرى
و خطب مرة أخرى
خطبة الأحنف بن قيس
خطبة جامع المحاربي
و خطب الحجاج
و خطبة له أيضا

خطبة الحجاج بعد دير الجماجم
خطبة كلثوم بن عمرو
خطبة يزيد بن الوليد
خطبة يوسف بن عمر
كلام هلال بن وكيع، و زيد بن جبلة و الأحنف بن قيس عند عمر
خطبة زياد
من اللغز في الجواب
مما قالوا في التشديق و في ذكر الأشداق
باب في صفة الرائد الغيث، و في نعته للأرضبالكلام الغريب من نوادر الأخبار و الأشعار
باب أن يقول كل إنسان على قدر خلقه و طبعه.
أقوال و أشعار منتخبة
باب اللحن
باب النّوكى
باب من الكلام المحذوف ثم نرجع بعد ذلك إلى الكلام الأول:
خطبة الحجاجفي الكوفة
رسالة الحجاج إلي قطري بن الفجاءة و جوابها
أقوال و جوابات منتخبة
عظة
أحاديث طريفة
و من أحاديث النوكى.
مقطعات من الشعر

الجزء الثالث

كتاب العصا

مقدمة
سنن الخطابة العربية
مطاعن الشعوبية على العرب في الخطابة و العلوم و الحرب
الرد على الشعوبية
عصا سليمان و عصا موسى
أصل العصا الشجرة المباركة
منافع العصا و مرافقها
الشعوبية تطعن على عصا الأنبياء.
السمات و الأزياء
المخصرة

القلائد
الثياب
القناع
العمامة
النعال
اختلاف الأزياء

كتاب الزهد

باب أخلاط من شعر و نوادر و أحاديث

من خطباء الخوارجو علمائهم
رأي في الخلفاء الراشدين
من الأدب الحكمي:
أدعية الصالحين و الأعراب و الملهوفين و النساك
أصل العرب و لغتهم
استحقاق الخلافة
مقطعات شعرية
من الشعر السياسي:
دولة الأمويين و دولة العباسيين و المؤرخون العرب
أخبار المنصور و المهدي و المأمون
نوادر النوكى و المجانين و جفاة الأعراب
الجاحظ بين الرواة و خادمه نفيس
بلاغة النبي
قدر الشعر
مقطعات و أشعار بديعة
خطب و وصايا متخيرة
أقوال و أشعار في الطلب و الدعاء
نقد الشعر و الشعراء
أحاديث و رسائل و نصائح متفرقة